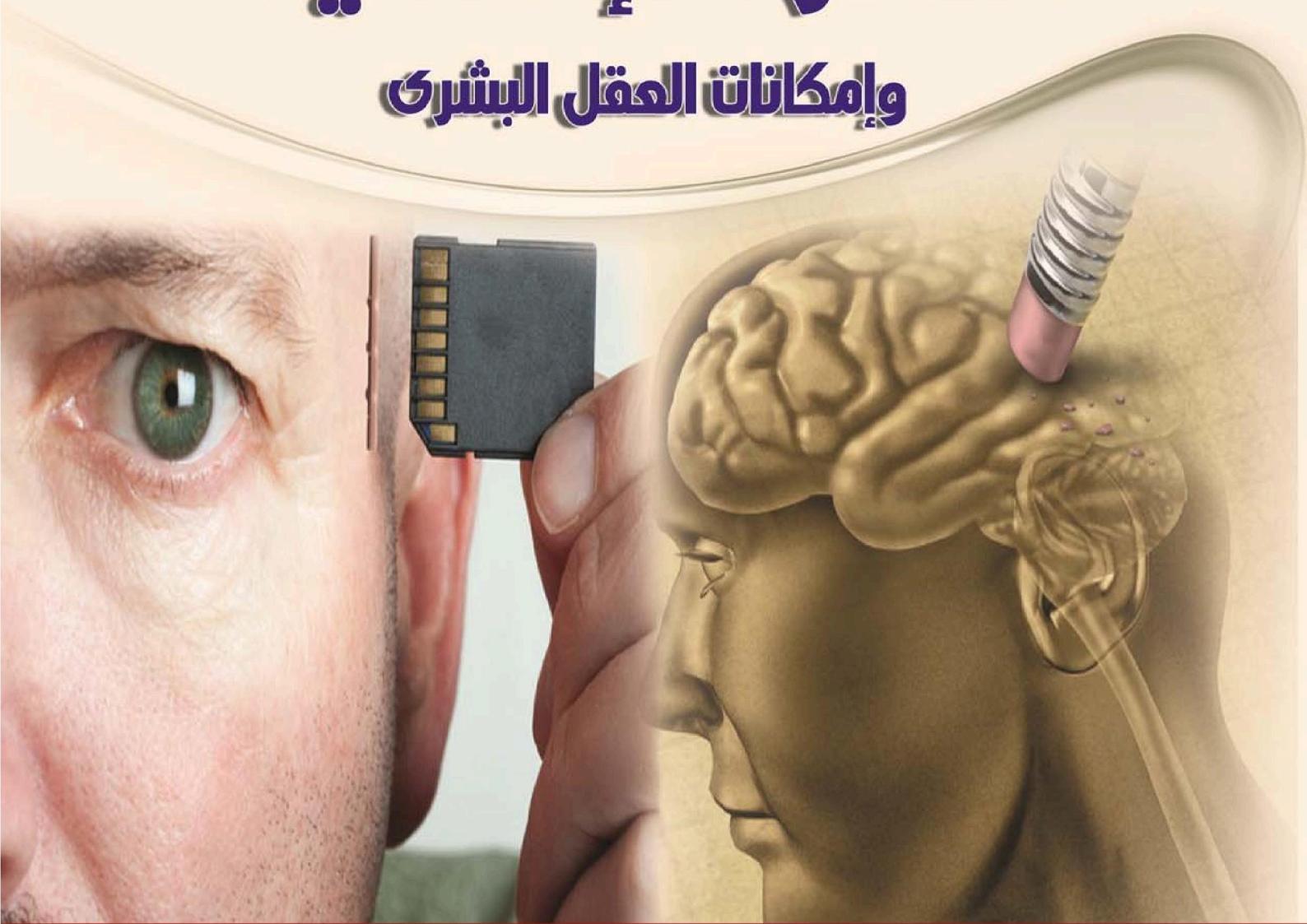
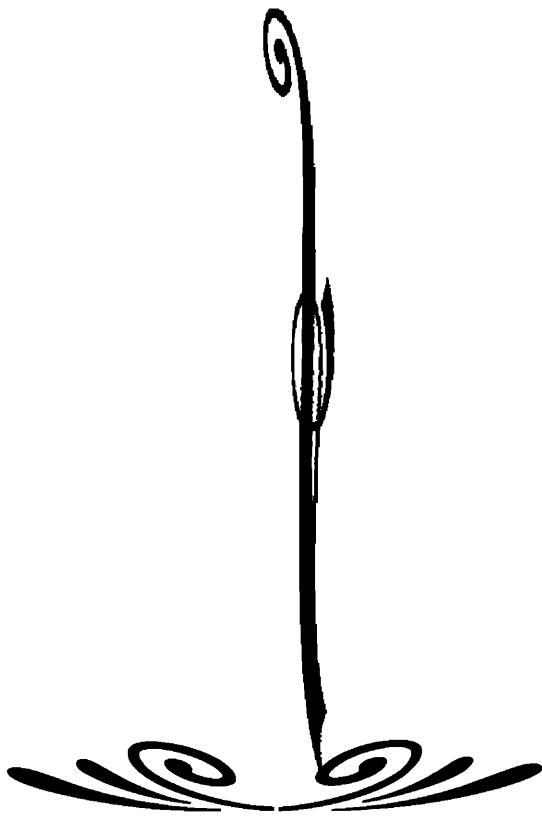


# أسرار الذاكرة الإنسانية وإمكانات العقل البشري



الأستاذ الدكتور  
**عزيزه محمد السيد**

دار النشر الجامعات



أسرار  
الذاكرة الإنسانية

وإمكانات العقل البشري

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشئون الفنية

السيد، عزيزة محمد.

أسرار الذاكرة الإنسانية وإمكانات العقل البشري/تأليف عزيزة محمد السيد.

- ط-1- القاهرة: دار النشر للجامعات، 2014.

ص: 352

تدمك: 6 483 977 316

1- الذاكرة

153,1

أ- العنوان

\* تاريخ الإصدار: 2014هـ - 1435م

\* الناشر: دار النشر للجامعات - مصر

\* حقوق الطبع: محفوظة للناشر

\* رقم الإيصال: 4932/2014م

\* الترميم البدولي: ISBN: 978 - 977 - 316 - 483 - 6

\* الكود: 2/389

\* تحرير ذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال  
أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفة منها حتى الآن أو ما يستجد  
مستقبلاً) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقراص أو حفظ  
المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابي من الناشر.

## دار النشر للجامعات

الإدارة: 42 ش رشدي (بـ جـ وهر) - تلية اكس: 23929878  
المكتبـة والتـصـوـيـرـةـ وـيـقـيـقـةـ - 14 ش الجمهـوريـةـ - عـابـدـ دـينـ - تـ: 23912420  
صـ.ـبـ (ـ130ـ) مـحـمـدـ فـقـرـيـ (ـالـقـاهـرـةـ)ـ ـ11518ـ



E-mail:darannshr@hotmail.com - web: www.darannshr.com

# أسرار الذاكرة الإنسانية

وإمكانات العقل البشري

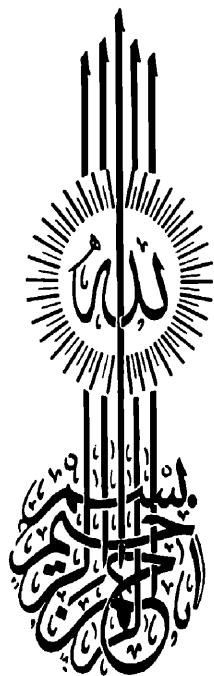
تأليف

الأستاذة الدكتورة

عزيزة محمد السيد

أستاذ علم النفس

كلية البنات - جامعة عين شمس



## إهداء

### عرفان وامتنان

أستاذتنا الفاضلة / صفاء الأعسر.

هل أخبرتك يوماً عن عظم تأثير ما قدمته من أعمال مترجمة على المنشغلين بعلم النفس عبر أنحاء مصرنا الحبيبة وربما ما بعدها؟! هل آتاك الشهادة من آخرين يؤكدون فضلك في نشر الجديد في علم النفس الإيجابي، والارتقاء بالإمكانات البشرية إيجابياً - قدر الإمكان؟ .. إن ذلك لحق علينا نحو طالبة علم لم تغනها سنوات عمرها عن الاستمرار في الدرس والبحث حتى اللحظة، كما لا تمنعها أستاذيتها من الانفعال بالجديد والاستجابة دهشة لأطروحات جديدة تستدعي الفحص والتجربة.

وقد مثل كتاب مارييان ديموند عن العقل وأشجاره السحرية منح جديداً في الرؤية النفسية لمرحلة الطفولة، تؤمن بأهمية دراسة المخ وإمكاناته في تفسير السلوك وتنمية أو رصد معوقاته وأوجه قصوره. إن وقع هذا الكتاب على المنشغل الحق بعلم النفس هو وقع الخبرة الذرورة - Peak experience - والتي تحدث عنها إبراهام ماسلو من قبل. فما اشتمل عليه هذا الكتاب، كما يؤكد على أهمية وضع دراسة المخ في الاعتبار ملازماً لأى من موضوعات علم النفس وإن بدا بعضها اجتماعياً صرفاً، فهو يؤكد أيضاً على قدرة المترجمين على انتقاء ما يمثل منعطفاً حقيقياً في علم النفس.

وامتداداً لانفعالي بالتوجه العصبي النفس في تفسير السلوك الذي يعرضه كتاب ديموند، وأكدت عليه سارة بلاكمور في كتابها عن العقل المتعلم 2005، كان اهتمامي بموضوع الكتاب الراهن عن الذاكرة في حالات سوائتها ولا سوائتها، محاولة للدراسة مع الاستفادة من المعطيات العلمية الحديثة عن المستجدات في المخ وإمكاناته؛ محفزاته ومعوقاته؛ عله يجد له مكاناً بين الباحثين.

.. ثم ..

لقد ألزم نفسي ببعض ما ألزمت نفسك به نحو العلم، وعن قناعة تامة أن التواضع العلمي وقبول الرأي الآخر هو السبيل إلى مقاومة الجمود، ثم بروغ الجديد.

.. لذا ..

أهدى إليك هذا العمل المتواضع عرضاً وامتناناً.

المؤلفة

عزيزة السيد



## مقدمة عامة

إن تقدم المعرفة في مجال العلوم العصبية يدين في الجزء الأكبر منه للتقدم التكنولوجي. وتوضح هذه الحقيقة في أوضح صورها في العلم العصبي المعرفي، الذي فما كنتيجة مواكبة لتقدير التصوير العصبي (Neuroimaging)؛ فالإبداع التكنولوجي الذي صاحب مشروع الجينوم البشري، كان له تأثير مماثل في دراسات العمليات النفسية. وقد حظى المخ بالنصيب الأكبر من الدراسات التي أفادت من التقدم التكنولوجي في دراسة بنائه في حالات السواء والمرض، وما يعتريه من تغير مصاحب لحالاته المتباعدة؛ الأمر الذي كان له مردوده الجيد على دراسات العمليات المعرفية لدى الإنسان، وبقدر ما أدى ذلك إلى الإجابة عن الكثير من التساؤلات عن طبيعة العلاقة بين المخ والعقل، بقدر ما أثار العديد من الاستفسارات الجديدة لدى الباحثين عن وظائف المخ، ومدى تفعيل الإنسان لإمكانات هذا العضو المهم، ومدى تأثيرها بما يتعرض له من فرص للتعلم، أو ظروف الحرمان من هذه الفرص. كما أثار حب الاستطلاع نحو الرغبة في استجلاء حقيقة العمليات التفسيرية وعلاقتها بنشاط المخ، وأى المناطق ذات العلاقة بنشاط عقلى أو نفسي ما.

هذا فضلاً عن تجدد التساؤلات التي عنيت بها الفلسفة في الأزمنة الماضية، لتصبح الإجابة من شأن العلم التطبيقي، الذي يقدم لنا اليوم دلائل من الواقع بالبيانات والصور، تجعل من الإجابة أطروحتات جديدة، تخطط لنا دروبًا جديدة في مجال علم النفس المعرفي، والعلم العصبي المعرفي.

ونتيجة لما تقدم، فإن تناول أي من العمليات العقلية أو النفسية في الوقت الراهن من مسيرة العلم، لابد وأن نقدم لها بما انتهت إليه دراسات المخ ونتائج البحث في القضايا الجدلية، الخاصة بمرنة المخ، وقابليته للنمو، ودور العوامل البيئية في هذا الصدد، وتعدد الخلايا، وارتباط التقدم في العمر بتدهور وظائف المخ، وغيرها من القضايا التي ما زالت مطروحة على مائدة البحث. ولعل البحث في القدرات المعرفية لدى الفرد وعوامل القوة، ومسببات التدهور، يعد من أهم ما يشغل بال الإنسان في الوقت الراهن. وعلى رأس هذه العمليات المعرفية تقف "القدرة على التذكر، وإمكانات الذاكرة الإنسانية" في المقدمة من هذه الاهتمامات.

فكثنا، بطريقة أو بأخرى، نهتم بدرجة كبيرة بالذاكرة، سواء أكان ذلك لمعرفة لماذا ننسى، أو كيف نحسنها، أو كيف نمنعها من التدهور، أو لكي نفهم ماذا هي وكيف تعمل، أو طبيعة علاقتها بالأنظمة المعرفية الأخرى. ففي كل هذه الاحوال فإن "الذاكرة" من الموضوعات المهمة التي ننجذب إليها، وتجد الكثير من الاهتمام؛ فالمتعلمون والآباء يريدون معرفة كيف يمكنهم تحسين عملية التعلم، وما ينتج عنها من نتائج في ذاكرة الأطفال. وعن كبار السن فإن أسرهم في حاجة إلى

معرفة أشياء عن الذاكرة، ومؤشرات تدهورها، وأمراضها، وكيفية التعامل مع كل ذلك؛ لحفظ الكبار إحساسهم بالحياة، ولرعاية الكبار شعورهم بالقدرة على تقديم الرعاية المناسبة.

لاشك أن الذاكرة تستحق هذا الاهتمام؛ فهي أهم وأغلى ما نملك، وأهم قدراتنا؛ فإننا بعد كل شيء ذكريات، فذاكرتنا هي التي تعيننا على تقييم كل شيء، وبافتقاد الذاكرة، لا يكون لدينا القدرة على الاهتمام بالقلب والرئتين، أو الاهتمام بمن نحبهم، أو معايشة خبرات الفشل أو النجاح. فالذاكرة تهدىنا بالتسجيلات الشخصية، وتساعدنا على فهم الخبرات المتغيرة والاستجابة المناسبة لها، فالذاكرة إذن تقوم بعمل الغراء لخبراتنا الشخصية، فنحن نعيش خبراتنا لحظة بلحظة، أما الذاكرة فهي التي تقوم بعمل التكامل بين الماضي والحاضر والمستقبل.

والذاكرة بصفة عامة هي النتائج الباقية من الخبرة، بل هي أكثر من ذلك، وبصفة خاصة هي نتائج التعلم من الخبرات. فنحن نتعلم ونتذكر أنواعاً من المعلومات: نحن نتذكر خبرات خاصة في حياتنا، نتذكر حقائق لا نعرف أين ومتى اكتسبناها، ونقوم بأداء مهارات حتى وإن كنا لا نعرف أنها هناك مخزنة، إلا أن عقولنا لديها قدرة مدهشة على تكامل الخبرات الماضية مع الخبرات الحالية.

من هنا كان لنا أن نفرد هذا المؤلف عن الذاكرة وحالاتها المختلفة، وقدمنا لهذا بفصل عن إمكانات المخ البشري، وما أضافت إليه الدراسات العصبية النفسية، والعلم العصبي المعرف؛ لاكتشاف وفهم الأسس العصبية للمعرفة الإنسانية، مما يعين على تفسير الذاكرة في حالات السوء والمرض. وتشير المعلومات التي تضمنها هذا الفصل الكثير من التساؤلات التي تعد قضايا جديدة على بساط البحث العلمي.

ثم أتي الفصلان الثاني والثالث ليتناولوا طبيعة الذاكرة والأساس الكيميائي لها، والنماذج التي تناولت أنواعها، ونقاط الالقاء بينها، ثم تناول كل نوع من هذه الأنواع على حدة؛ لبيان وظائفه، ومكوناته، وكيفية تكامله مع أنواع الذاكرة الأخرى. وفي الفصل الرابع، نعرض فيه لعملية التعلم وعلاقتها بالذاكرة بين الرؤية القديمة والحديثة لها، فقد بزغت العديد من الحقائق عن عملية التعلم بعد الاكتشافات الهائلة لإمكانات المخ، كذلك أتاح التقدم التكنولوجي للباحثين استكناه جوانب العملية التعليمية، مما أثار التساؤلات حول ظواهر معرفية؛ بعضها جديد على البحث العلمي في علم النفس، والبعض الآخر قد يُقدم السلوكي الإنساني، وتكمّن الجدة في تناوله بمتظاهر جديد. وبالتوافق مع عرض هذه الحقائق، نحرص على وجود الأمثلة المستفادة من الدراسات المعملية؛ لإثبات حقيقة ما، أو ترجيح كفة رأي على آخر، أو طرحاً لرؤية جديدة في تناول الظاهرة، تستدعي من الباحثين الاهتمام بالدراسة والتمحيص. ومن ثم يضم الفصل الرابع طرحاً مختلفاً عن صعوبات القراءة، يضع علاقة صعوبات التعلم بنشاط المخ، وكفاءة التذكر قضية علمية جديرة بالدراسة. فضلاً عن قضايا تعلم المخ للأعداد، وتعلم الأطفال أثناء العام الأول لعمليات الجمع والطرح،

واستعداد المخ للتعلم أثناء مرحلة الحمل، وعلاقة الأم بطفليها، وأثرها على كفاءة المخ وقدرتها على التعلم، وغيرها من القضايا التي تعد جديرة بالطرح على بساط البحث العلمي.

ويختص الفصل الخامس من فصول هذا الكتاب بعرض تفصيلي لعملية التذكر والنسيان، والنظريات المفسرة لهما، ودور التنظيم في عملية التذكر، ومناقشة ظواهر حياتية، طالما توقف الفرد عندها دون تفسير؛ كظاهرة "على طرف اللسان"، والعوامل التي تعين على تنظيم المعلومات، وبالتالي تزيد من كفاءة عملية التذكر. كما يتضمن الفصل عرضاً شارحاً لعملية النسيان، ونظرياته، والعوامل المساهمة في حدوثه، ثم كيفية التعامل إجرائياً لتجنب القدر الأكبر من نسيان المعلومات.

وبعداً من الفصل السادس وحتى الفصل التاسع، يتناول الكتاب الذاكرة في حالات لا سواها، فيعرض في الفصل السادس أشكال اضطرابات الذاكرة، والفرق المميزة للأضطرابات ذات المنشأ العضوي، والأضطرابات ذات المنشأ السيكولوجي، والآراء المطروحة لعلاج كل نوع منها. أما الفصل السابع فيعرض للتقدم في العمر، وعلاقته بتدحرج الذاكرة، والعمليات المعرفية الأخرى؛ كالانتباه والتفكير الإبداعي، كما يعرض الفصل تأثير الكبر على أداء الفرد اليومي، كما يbedo في أداء الذاكرة العاملة. ونختتم العرض بتقديم عدد من الاقتراحات التي تحفظ أداء الذاكرة في مرحلة الكبر.

أما الفصل الثامن فيضم حقائق تخص الذاكرة وخرف الشيخوخة، الذي تجسده مجموعة من الأمراض، ويعد مرض "الزهايمر" أشهرها وأكثرها شيوعاً. فيعرض الفصل التوجهات الأربع الأكثر شيوعاً في النظر إلى المرض والمصابين به، ومميزات وعيوب كل منها، كما يشمل الفصل عدداً من البحوث التي تكشف عن علاقة النظام اليومي للفرد بالتهيئة للإصابة بمرض الزهايمر.

أما الفصل التاسع فيختص بعرض أحد مظاهر اضطرابات الذاكرة بالتفصيل كما تبدو في "فقدان الذاكرة". فيعرض الفصل للتشخيص الطبي والعصبي لها، وعلاقة إصابة الفص الصدغي بهذه الاضطرابات في الذاكرة، ومدى تأثير إصابة الفصوص الأمامية في المخ على عملية التذكر. كما يتناول الفصل بعض نماذج لفقدان الذاكرة، مثل فقدان ذكرة الطفولة، وفقدان الذاكرة الهمستيري.

ومن هنا، يعد هذا الكتاب محاولة على طريق تحديث بعض الموضوعات، وثيقة الصلة بحياة الفرد، وقضايا تحتل مكان القلب من اهتمامات علم النفس العصبي المعرف. كما تعد الدراسات الحديثة التي زخر بها هذا الكتاب مصدراً لإثارة العديد من المشكلات البحثية التي تستوقف الباحثين؛ لإلقاء مزيد من الضوء على العالم المعرف للإنسان، والمشكلات المعرفية التي مازلت نقف منها موقف الدهشة؛ لعدم توافر المعلومات التي تفسر حدوثها، ومن ثم نعجز عن التنبؤ بها، أو التحكم في معاناة الإنسان منها.

وفي ختام هذه المقدمة، يحلو لي أن أضع فيها بعض نفسي، فقد جاء هذا الكتاب تتويجهً لعدد من الخبرات التي مررت بها، فأدين بالشكر للزملاء الذين تصدوا لهذا المجال من قبل، بمحاولات كان لها فضل السبق في التنبيه إلى أهمية دراسة المخ البشري، وعلاقته بالأداء الإنساني، ويأتي في مقدمة هؤلاء الأستاذ الدكتور عبد الوهاب كامل، الذي شغل مناصب عدّة في كلية التربية بطنطا، وأبدًا لم ينس يوماً أنه باحث علم. كما كان لكتابات الدكتور سامي عبد القوى الأستاذ بكلية الآداب - جامعة عين شمس، فضل الاستزادة والتوضيح، وطرح العديد من المشكلات التي تحتاج جهد الباحثين وقراءاتهم. أما الأستاذة الدكتورة سهير غباشي، الأستاذة بكلية الآداب - جامعة القاهرة، فإن لتناولها العلمي للعلاقة بين البدن والنفس - كما بدا في دراساتها مجسدة في اختيار نماذج مرضية، تكشف بوضوح عن هذه العلاقة - كان لها الفضل في التنبيه إلى ضرورة اهتمام البحث العلمي بهذا المنهج النفسي - صحي؛ لفهم الكثير من الظواهر المعرفية والسلوكية المصاحبة للحالات المرضية للجسم، ومن ثم يمكن التحكم في حدوث بعض الظواهر المعرفية أو السلوكية، أو على أقل تقدير قد يعين هذا الفهم على كيفية التعامل مع هذه الظواهر حال ظهورها.

كما أتقدم بكل شكري وامتناني إلى جامعة عين شمس، التي أتاحت لي الفرصة للتواجد على مدى ستة أشهر في جامعة جلاسجو بأسكتلندا، من خلال مهمة علمية وفقتني جهودي العلمية في الحصول عليها في نهايات 2007؛ مما ساعدني على الاطلاع على أحدث المراجع حينئذ عن علم النفس المعرفي العصبي، والاستمتاع بالحياة العلمية المعاكبة لاهتماماتي من خلال السeminars العلمية، وللقاءات المتخصصة مع الأستاذة والباحثين المعنيين بالتخصص. ثم أترك هذا الكتاب بين أيدي الباحثين والدارسين؛ لعله يكون معيناً لهم على اجتياز بعض آفاق العلم الحديث في علم النفس؛ ثراء في العلم، واستجلاء لجنبات الحياة الإنسانية.

### المؤلفة

عزيزـة السيد

## الفصل الأول

### المخ البشري ومنظور سيكولوجي

إن المخ البشري ليس أكبر الأعضاء في الجسم الإنساني؛ فهو يزن فقط حوالي ثلاثة أرطال، وهو أقل من وزن الجلد الذي يغطي جسم الإنسان، إلا أنه يمثل مصدراً لكل السلوك، ومصدراً للضبط التلقائي ملدي واسع من الوظائف المعقدة، فهو يستقبل المعلومات ويرسلها، حيث المكان المناسب، في زمن أقل من قدرة الفرد على قياسه، ثم يسمح للفرد أن يستجيب تبعاً لهذه المعلومات. فالمخ يولد الانفعالات و يجعل الإنسان واعياً بها، فهو مصدر المعرفة، والذاكرة، والأفكار، وما ندعوه بالذكاء، فالقدرة على الكلام والفهم من صنع المخ. أما عن تنظيم ضربات القلب، أو عمل جهاز المناعة بالجسم، وتنظيم عملية التنفس وإفراز الهرمونات، فهي كلها تتم بصورة آلية ولا شعورية.

إن المخ هو أحد الأنظمة الأكثر تعقيداً في العالم؛ فالقوة التي يتمتع بها، والقدرة على المواجهة التي تفوق كثيراً قوة الحاسب الآلي وقدرته - تضفي عليه صفات النظام الأكثر تعقيداً. وما عرفناه عن المخ ووظائفه في العقدين الأخيرين يفوق ما عرفناه من قبل، وقد يعزى هذا إلى التقدم التكنولوجي الذي أعاد على تصوير مناطق المخ المرتبطة مثلاً بعملية استدعاء المعلومات، أو الإنصات إلى عزف موسيقى في مقابل المناطق المسئولة عن تأليف قطعة موسيقية.

غير أن ما يذكره العلماء من أنه لم يستطع إنسان حتى الآن أن يحسن الاستغلال أو الإفاده من إمكانات هذا العضو - فإن روسيل يقدم سببين يعلل بهما هذا العجز عن الاستخدام الأمثل للمخ، وهما: (vii,Russel, 1990)

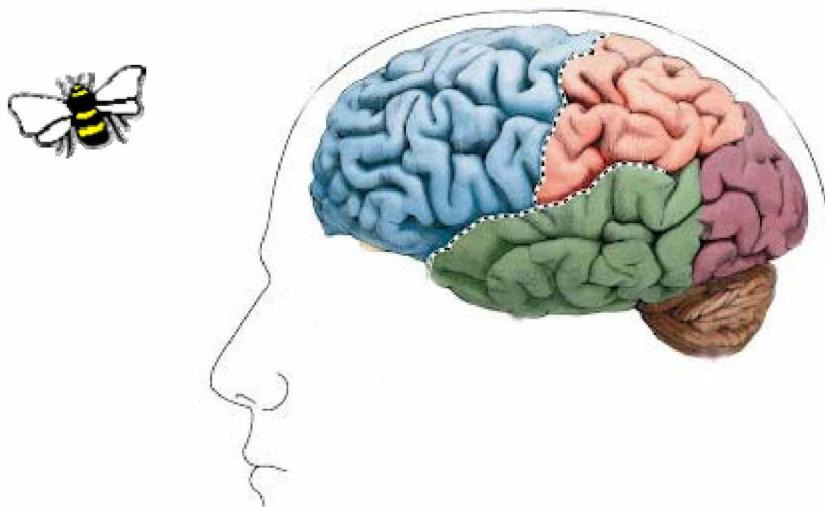
-1- أن المخ البشري لدى الغالبية العظمى من البشر قد دمره التعب، والضغوط التي يتعرض لها الإنسان؛ إذ لا نستطيع أن نحصل من المخ المجهد مثل ما نحصله من جهاز عصبى يقط خال من الضغوط. ولعل الإدراك المتنامي لأهمية تحرير أنفسنا من الضغوط عميقية الجذور والتداعيات السلبية - تعكس في الاهتمامات المتسعة المستمرة بعمليات الاسترخاء، والارتفاع الذاق (meditation)، وخفض مستوى التوتر، والعلاج النفسي، والتغذية المرتجعة البيولوجية، والإرشاد، واليوغا.

-2- ولأن تحرير النفس من الضغوط المتراكمة ليس كافياً في حد ذاته لإطلاق طاقات المخ البشري؛ إذ لابد وأن يكون ذلك مصحوباً بمعرفتنا كيف يمكن استخدام الإمكانيات الهائلة التي لدينا - إلا أنه لسوء الحظ ليس هناك كتاب يكشف لنا عن كيفية الإفاده من المخ البشري، بل على

العكس، فقد تعلمنا الكثير عن كيفية استخدامه عن طريق المحاولة والخطأ. وعلى مدى العقودين الأخيرين، استطاعت الأبحاث عن وظائف المخ أن تقدم لنا فكرة أكثر وضوحاً عن كيفية عمله.

لذا توارد الأسئلة، ما هي حدود هذا العضو؟ هل يشبه المخ الحاسب الآلي؟ لماذا لم نحسن استخدام هذا العضو حتى الآن؟ ماذا يعني أن تكون عباقرة؟

إن هناك نوعاً من المخ يستطيع أن يرصد بالدقة تغير الضوء أو الصوت أو الرائحة أو الملمس بدقة ومهارة، ويستطيع أن يكامل بين وظائف العضلات، وينظم وظيفة الكثير من أعضاء الجسم؛ لكنه يحتفظ بالحالة المثلثة للحياة، هذا المخ يتعلم من الخبرة، ولقد وجد طريقته الخاصة في التعامل مع نظيره، من خلال لغة بسيطة يتقاسم من خلالها المعرفة. وهذا المخ لديه الحساسية نحو المجالات المغناطيسية والكهربائية، والأشعة فوق الحمراء، يمكنه أن يحلل (polarization) شعاع الشمس، ويستخدمه في معرفة الاتجاهات. هذا المخ يعمل كنظام توجيه دقيق؛ لتعويض اتجاه الريح، كما يمكنه أن ينظم بين حركة أربعة أجنحة دقيقة، ليضع جسمه الصغير في عناية ولطف في قلب زهرة. وحجم هذا المخ لا يزيد عن حجم حبة الملح، حيث يحمل 800 خلية، ويمكن أن نراه داخل رأس النحلة. فماذا إذن عن المخ البشري الذي يزيد عن مخ النحلة بعشرة ملايين مرة، ويفوقه تعقيداً بعدها بلايين من المرات؟



(صورة عن مخ الإنسان ومخ النحلة)

إننا نختلف عن أي من الكائنات الأخرى في استخدامنا المتطور للغة، والقدرة على التعلم، ليس فقط من خبراتنا، ولكن من خبرات الآخرين، وفي القدرة على التكيف مع البيئة طبقاً لاحتياجاتها. فالإنسان يملك القدرة على الوعي بالذات، بمعنى أن يكون واعياً بنفسه وبخبراته، باعتباره كائناً واعياً. وبهذا الوعي بالذات تأتي الحرية في الاختيار، والقدرة على الفعل. هو أيضاً كائناً ذكياً، أي لديه القدرة على تعديل السلوك الفطري في ضوء خبرته السابقة، كما يستطيع أن يستنتج عناصر عامة من مواقف قد تبدو في ظاهرها أنها غير مرتبطة، ثم يستخدم هذه النتائج في المستقبل.

وكل من الذكاء والوعي بالذات يعطيان الإنسان التفرد في القدرة على أن يتقدم ويزدهر أثناء حياته. وإذا كانت أصغر التغييرات في العالم الطبيعي تحتاج إلىآلاف الأجيال، فإن التطور العقلي يفوقه عدة مرات؛ فالجهاز العصبي للإنسان في تغير مستمر، في محاولة للتكيف مع البيئة، ومعرفتنا عن أنفسنا وعن العالم من حولنا، تنمو بسرعة مذهلة؛ فالكتب الجديدة المؤلفة، والإيحاث العلمية التي تسرب غور هذا العضو، وتحث إمكاناته، تتضاعف كل ثمان سنوات، هذا في فترة السبعينيات من القرن العشرين، أما مع قدوم القرن الحادى والعشرين، فإن هذه الفترة تتناقص بشدة مذهلة، وتکاد تصل الآن إلى الربع، وربما أقل. وكلما استطعنا تطبيق هذه المكتشفات - من أجل حياة أفضل - كلما استطعنا التقدم والازدهار كأفراد وكجنس.

ويعد تطور المخ البشري ثمرة تطور ملايين السنوات، فلم يعد المخ البشري واعياً فقط بذاته، بل أيضاً من خلاله أصبح العالم يعرف نفسه، فقد أصبحت عقولنا في قمة التطور. وبقدر الاستفادة من هذه الهبة الطبيعية بقدر ما نحرز من التقدم، وبقدر ما نستخدم ذكاءنا ووعينا إلى الدرجة القصوى. ورغم أن وزن هذه الشبكة العصبية التي تكون المخ لا تزيد عن ثلاثة أرطال ونصف الرطل، إلا أنها النظام الأكثر تعقيداً في العالم، بل هو الأكثر جمالاً، بالنظر إلى ما ندين له به، وما ينتجه. وكلما عرفنا عن المخ البشري كلما تقدمنا بإمكاناته خطوات واسعة. فالملاحة المخصصة للحفظ في المخ البشري تكفي لتسجيل آلاف المعارف في كل ثانية من الميلاد وحتى الكبر، ويظل بها أيضاً أماكن شاغرة، وقد كشفت التجارب الحديثة عن أنه يمكن تذكر كل شيء من بنا.

وكلما نتعامل مع المعلومات، فإن المخ البشري يتميز بسرعة غير عادية؛ فهو على سبيل المثال يستطيع أن يستقبل صورة وجه الآخر في جزء من المائة في الثانية، ويحلل كل مكوناتها في ربع ثانية، ثم يخلق خبراً واعية ملونة ذات أبعاد ثلاثية للوجه، ويميز هذا الوجه عن غيره من الوجوه المسجلة في الذاكرة، ورغم أن هذا الوجه لم تتم رؤيته قبل الآن، فهو يستدعي من الذاكرة كل التفصيات عن هذا الوجه وعن الارتباطات والصور الخاصة بصاحب الوجه، وكل ذلك يتم في أقل من ثانية. وفي نفس الوقت، يقوم بتترجمة التعبير على ذلك الوجه، الذي يؤودي إلى وجود نوعية من المشاعر تجاه صاحب الوجه، مترجمًا ذلك في تداعم حركة العضلات، التي تبدو في مدد اليد للمصافحة، والابتسامة، واهتزازات في الأحبال الصوتية، التي تتضح في كلمات الترحيب: أهلاً... وأثناء

حدث كل هذا يكون المخ أيضًا مشغولاً بتحليل وقفل البيانات، التي تأتي من إحساس الرؤية، ومن إحساسات أخرى مستخدماً لها في تحديد الوجه؛ كالصوت والرائحة. كما أنه في نفس الوقت يدير الجسم في الوضع المطلوب، وأنباء أداء هذه المهام، فإنه ما زال يؤدى المهام الفسيولوجية للجسم من مقارنة درجة حرارة الجسم، في ضوء المحکات الفسيولوجية، مثل درجة الحرارة، ومكونات الدم الكيميائية، معوضاً أي انحراف عن المعدلات المعروفة؛ لحفظ على الجسم في الحالة المثلثى له. ويظل المخ في كل هذا يعوض، ويستقبل، ويذكر، ويدير ويتكامل بين عدد كبير من الوظائف كل ثانية، في كل يوم من حياتنا.

إن عملية الإدراك من خلال الحواس تطرح العديد من القضايا التي تستوقف عقل الباحثين، مثل: كيف يستطيع الأنف أن يميز عنصراً من عناصر الغاز، أو تستطيع الشبکية أن تكون ذات حساسية لكل شعاع من الضوء؟ ثم كيف للأذن أيضاً أن تستطيع التقاط الأصوات من الاهتزازات العشوائية؟ كيف يمكن للمخ أن يكون ذات حساسية للمجالات المغناطيسية والكهربائية؟ فضلاً عن هذا، فإن هناك الآن بعض الحقائق عن أننا أيضًا لدينا الحساسية لأنشطة العقلية للأفراد الآخرين، وتأثير هزاجهم وأفكارهم. كما أن حساسية المخ تتواجد أحياناً لدى بعض الحالات المرضية، فقد كتب أحد الباحثين عن أحد الأفراد ذوى القدرة على التقاط الأشياء الدقيقة من على مسافات بعيدة، أنه توفى في خلال أربع وعشرين ساعة، وقد وجدوا تجمعاً دموياً في الجانب الأيمن من البروز الخاص بالبصر. كما أن الفضاميّن يكشفون عن درجة عالية من القدرة الحسية (sensory aquity). كما أن بعض الأمراض تزيد من حساسية الفرد لبعض الأشياء، فمثلاً مرض أديسون (ويعني نقصاً في هرمون الأدرينيالين) يزيد من درجة حساسية الفرد للتذوق 150 مرة، ويتحسن حاسة الشم والسمع.

وإذا كان ما يتعدد هو أننا نستخدم فقط 10% من إمكاناتنا العقلية، فإنه يبدو الآن أنه أقل كثيراً. فنحن لا نكاد نستخدم 1%， أو رهبا 0.1%， أو أقل. ففي ضوء تعدد المخ، وتعدد استخداماته، فإن المخ يفوق الحاسوب الآلي؛ فالحاسوب الآلي سريع جدًا في العمليات الرياضية، كما أنه يقوم بالعمليات بطريقة منتظمة منطقية، لكن ذلك لا يمثل إلا جزءاً من إمكانات المخ البشري، فالفارق الرئيسي بين المخ وبين الحاسوب الآلي هو أن المخ لا يعمل في نظام خطى، خطوة تلى خطوة، بل أيضًا يستطيع أن يعمل عمليات متوازية، يكمل ويلخص المعلومات، ويستخلص منها العموميات، فحيث يستطيع المخ تمييز الوجه في أقل من الثانية، فإنه ليس هناك الحاسوب الآلي في العالم الذي يستطيع أن يفعل هذا.

والجدير بالذكر أن غالبية ما تم معرفته عن قدرات المخ ووظائفه قد تتحقق من خلال تقديم العلم العصبي المعرفي (Cognitive neuroscience)، باستخدامه الأساليب والبيانات العلمية الخاصة بدراسة الأعصاب؛ لإثارة القضايا النفسية، وعلى رأسها موضوعات المعرفة. فقد استخدم التصوير

العصبي (neuroimaging)؛ معرفة الأسس العصبية للمعرفة، كما تم الاستعانة بنتائج الدراسات على مرضى إصابات المخ، ودراسات الإشارات الكهربائية والمغناطيسية، وكذلك الدراسات الخاصة بتأثير العقاقير على قدرات الفرد المعرفية. كما استخدمت نتائج دراسات هذا العلم أيضًا لتوضيح الفروق وال العلاقات بين بعض العمليات المعرفية، مثل، الفروق بين الإدراك مثلاً، وبين التخيل، أو الفهم بطريقة أكثر واقعية لبعض العمليات، التي تبدو مجردة إلى حد كبير، مثل عملية الترميز (encoding) مثلاً.

وبالرغم مما تم اكتشافه من القدرة الرائعة للمخ البشري والطرق التي يعمل بها، فإن الأقلية هم الذين يعرفون كيف يستخدموه الأستخدام الأمثل. والسبب الرئيس لهذا هو أننا لم نتعلم منذ الطفولة شيئاً عن عمل الذاكرة وإمكاناتها، أو شيئاً عن الطرق المثلث للتذكر، فقد حدثنا عن المذاكرة وهضم المعلومات، لكنهم لم يذكروا لنا شيئاً عن كيف نقترب من الكتاب؛ لكن نحصل أغلب ما فيه. لم يقولوا لنا شيئاً عن كيف تعمل العين والمخ أثناء القراءة، إذن فليس من المدهش أن يعاني الأفراد من ضعف الذاكرة وضعف القراءة وضعف التركيز.

#### برامج التربية المبكرة وتنمية القدرات العقلية:

أنشأت ماريا منتسروري شبكة واسعة من المدارس، التي تقوم على فكرة تشجيع قدرات الطفل الذاتية على التعلم، وعلى الاكتشاف وحب الاستطلاع، ورغبتها غير المتناهية في التساؤل. ولاعتقادها بأنه لا حدود لقدرة الطفل على تمثيل البيئة المحيطة به، فقد قدمت للطفل بيئه غنية بالعديد من المثيرات والخبرات المتباعدة للطفل. وقد استطاع الغالبية من أطفال مدارسها القراءة بدون مجهد في سن الثالثة أو الرابعة. ثم وجهت اهتمامها إلى الطفل المنخولي الذي يتوقع أن يشب متخلقاً عقلياً، غير أنها استطاعت من خلال معاملتها له كطفل عادي أن يحقق نمواً عقلياً؛ كالأطفال العاديين في المدارس العادية.

وفي عام 1965، أقامت الولايات المتحدة الأمريكية مشروع (Head Start)، وهو من البرامج المتنوعة؛ صمم من أجل دفع عملية النمو لدى الأطفال المحروميين اجتماعياً. وهو لم يكن برنامجاً مكتفاً كالبرامج السابقة، لكنه كان يقدم للطفل ساعتين في الأسبوع من الاهتمام والتسهيلات التي يفتقدونها في منازلهم، إلا أن هذه العناصر المثيرة القليلة كان لها تأثيرها الإيجابي والمستمر. وقد أجريت أكثر من 69 دراسة على عينة الأطفال التي حضرت هذا البرنامج، وكشفت النتائج عن أن 1% من أطفال هذه العينة احتاج إلى التعليم في مدارس ذوي الاحتياجات الخاصة، مقارنة بـ 30% ممن لم يحضروا هذا البرنامج، كما ارتفع متوسط مستوى ذكاء الأطفال من 92 إلى 100، واستمر عند هذا المعدل، وزادت المهارات الحسابية واللغوية، كما أظهر أطفال هذا المشروع زيادة في الكفاءة الاجتماعية والشخصية أكثر من المجموعة الضابطة.

وفي تجربة أخرى على 40 طفلاً لأمهات يقع متوسط ذكائهن عند حدود 70 درجة، قسم الأطفال إلى مجموعتين، تلقت إحداهما خدماتها اليومية باهتمام، والكثير من الرعاية، والمعاملة الغنية بتقديم المثيرات للطفل، أما الأخرى فلم تتعرض لهذا الاهتمام أو الإثارة. وأسفرت النتائج عن تمييز المجموعة التي حصلت على المعاملة المتميزة بمتوسط ذكاء 130 عند سن الرابعة، في مقابل المجموعة الأخرى التي حصلت على 80 درجة على نفس الاختبار. وهناك دراسات أخرى أجريت على تأثير برنامج الأطفال المتميز *sesam street*، فقد حصل الأطفال الذين تابعوا هذا البرنامج في نهاية العام الدراسي على درجات أذهلت مدرسيهم.

لذلك فقد انتبهت التربية في غالبية البلدان إلى أهمية التعليم المبكر في حياة الطفل؛ ففي عام 1996، أطلقت هيلاري كلينتون دعوة إلى الاهتمام بتعليم الطفل، ما بين الولادة والثالثة من العمر؛ حيث إنه بناء على نتائج الأبحاث التي استندت إليها، فإن الخبرات التي يمر بها الطفل في هذه المرحلة يمكن أن تحدد حياته. ومن ثم وجهت الدعوة إلى الأطباء لمساعدة الوالدين على التربية الأفضل لأطفالهم. وبناء عليه، بدأت بعض المراكز في ذلك الوقت تضع البرامج المختلفة الغنية بخبرات لتعليم الوالدين كيفية إثراء حياة الأبناء. ومن هذه المراكز الآن ما هو موجه بالمخاطر دراسة المخ، وتوجيهه الأنشطة المختلفة لإثارة مناطق بعينها في المخ. وقد أسفرت هذه الجهود عن تحديد ما يسمى بالسن الحرج critical age للتعلم، بين الميلاد والسنة الثالثة من عمر الطفل؛ حيث إن الطفل أثناء هذه الفترة لابد وأن يستحوذ hothoused<sup>(\*)</sup>؛ من أجل تعليم أفضل. ويعني هذا المصطلح تعليم الأطفال المهارات الأكademie، مثل القراءة والمنطق والحساب واستخدام الكروت المضيئة flash cards، والفيديو والمواد السمعية البصرية الأخرى.

وفي بريطانيا، فقد احتلت هذه القضية صدر المناقشات في المؤسسات المعنية بالتعليم، ونوعية المحتوى الخاص بمرحلة التعليم المبكر، وأى السنوات مناسبة لبدء التعليم المنظم. ونتيجة لهذا فإن التعليم في هذه البلاد يبدأ في سن الثالثة مثلاً، على غير المعتاد في غالبية البلاد الأوروبية. غير أن في هذه السنوات المبكرة يكون تعليم المهارات المعرفية العامة، والمهارات الاجتماعية والانفعالية من خلال اللعب بصفة أساسية.

ولكن هذا هو ما تطرحه نتائج الدراسات بصفة عامة، فماذا عن النظر إلى هذه النتائج في ضوء تقدم أبحاث المخ؟ ماذا يرى المتخصصون في علم الأعصاب عن فاعلية التبكيّر بعملية التعلم، وتنمية القدرات المعرفية للطفل؟ لقد طرحت بلاكمور التساؤل الخاص بقدرة مخ طفل الثالثة من العمر على التعلم، وعلقت الإجابة عن هذا السؤال على بيان ثلات من الحقائق، التي كشفت عنها الدراسات العصبية النمائية developmental neurobiology<sup>(\*)</sup>، وهي:

(\*) Hothousing: يعرفها قاموس علم النفس الأمريكي بأنه وصف لعملية تسريع تعليم الأطفال الصغار المهارات الأكademie، من خلال تعليمات تزيد من التحصيل الأكاديمي، ويعتقد بعض المنظرين أنها تساوي عملية استعجال تعلم الأطفال، وكذلك فهي قد تؤدي إلى سوء النمو لديهم .(Vanden, Gary, 2007,448)

أولها: أنه في الطفولة، تحدث زيادة هائلة في عدد الوصلات بين خلايا المخ.

ثانيها: أن هناك فترات حرجة تتشكل فيها الخبرة في المخ، وتؤثر على نموه.

ثالثها: أن البيئة التربية تؤدي إلى عمل المزيد من الترابطات داخل المخ، مقارنة ببيئة الفقرة.

فيما يلي نتناول كلا منها تفصيلاً:

أولاً: وصلات المخ في الطفولة:

منذ فترة مبكرة في النمو بعد الولادة، يبدأ المخ في عمل وصلات وارتباطات جديدة بحيث تزداد الكثافة الكروموسوماتية ("synaptic density") عدد التشابكات العصبية في الوحدة في المخ) بصورة كبيرة. كما أن نمو الزوائد الشجيرية *dendrites* على عصب الخلية وظهور براعم التشابكات عليها- يمكن مقارنته بنمو النبات الصغير في فصل الربيع. وتسمى هذه العملية في المخ نشوء الوصلات العصبية *synaptogenesis*، وتستمر لبعض الوقت. ويختلف هذا الوقت باختلاف نوعية الكائن، ويتبعها عملية أخرى، هي التشذيب الكروموسومي *synaptic pruning*، حيث تتم فيها دعم الارتباطات التي تستخدمن، وحذف الارتباطات التي لا تستخدم، وهي مشابهة لعملية تشذيب النبات بعد النمو العشوائي للنبات في الحديقة، وإذا لم تتم فإن نمو النبات يتقطع ويتعثر.

وقد كانت أول هذه النتائج من تجارب على القطط عام 1975، حيث اكتشف أنه في النظام البصري فإن عدد التشابكات لكل خلية تزداد في البداية سريعاً، ثم تقل تدريجياً حتى تصل إلى مستوى النضج. وبإعادة التجربة على القردة بعد ذلك، توصل الباحثون إلى أن كثافة الكروموسومات تصل إلى أعلى معدلاتها بعد ميلاد من شهرين إلى أربعة شهور، بعد بدء فترة التشذيب، ثم تبدأ عملية التناقض للوصول إلى مستوى النضج على مدى ثلاث سنوات من ميلاد القردة، وهو سن النضج الجنسي لديها.

وفي مرحلة النمو المبكر أيضاً تحدث أول موجة من النمو للارتباطات طويلة المدى بين الخلايا العصبية، كذلك تنمو الليفة العصبية. بالإضافة إلى ذلك فإن محور كل خلية يبدأ في التغليف بطبقة من النخاع التي تعمل كعازل، يدفع حركة النبضات الكهربية في الخلية. وهي عملية أساسية في المخ؛ لأنها تسرع بقوة من سرعة الترابط بين الخلايا. ورغم حدوث كل هذه التغييرات في المخ في النمو المبكر، إلا أن ما درس بكثرة هو تكاثر عدد الكروموسومات.

ومن ثم فإنه بمجرد ولادة الطفل تبدأ الارتباطات داخل المخ في التكاثر والتغير، كما تلعب الوراثة دوراً أساسياً - إلى جانب خبرات الطفل - في بقاء نمو أي من هذه الترابطات، وأيها يضعف ويموت. ولكن هل يعني ذلك أن الطفل يجب أن يتعرض لخبرات تعليمية في السنوات المبكرة؟

ترى بلاكمور أنه ليس ضروريًا؛ إذ إن هذه العملية التي تسمى بنشوء الوصلات العصبية في المخ، تحدث للكائنات الأخرى، كما تحدث للطفل، وتستغرق لديه ثلاثة سنوات. وإذا سلمنا أن النمو في القردة أسرع من النمو في البشر، وأن طفولتها أقصر من طفولة البشر - فإن فترة النمو

السريع في نمو المخ في الإنسان تميل إلى أن تكون أطول منها لدى القردة، وبعد ثلاث سنوات تنضج القردة جنسياً، وهو ما يتأثر سن 12-13 عاماً في البشر.

ولأنه ليس هناك وفرة في الأبحاث العلمية على المخ البشري؛ حيث إن هذه الدراسات لا يسمح بها إلا بعد حدوث الوفاة - فإن أغلب ما نعرفه عن نمو المخ في الإنسان يأتي من الدراسات على القشرة البصرية، وهي منطقة خلف المخ، مسؤولة عن إعطاء المعنى للمثيرات البصرية التي تراها العين. في هذه المنطقة تتزايد أعداد الترابطات بين الخلايا العصبية في سن الشهرين أو الثلاثة بعد الميلاد، وتصل إلى الذروة عند الشهر العاشر، ثم تبدأ بعد ذلك في التدهور، حتى تستقر في سن العاشرة، وتستمر حتى المراحل الأخرى من النمو.

أما في القشرة المخية الأمامية - وهي منطقة المخ المسئولة عن مهارات التخطيط، واختيار وكف الاستجابات، وضبط الانفعالات، وصنع القرار - ففي هذه المنطقة من المخ، فإن عملية تكاثر أعداد الوصلات العصبية وعملية التشذيب تأخذ وقتاً أطول مما يحدث في منطقة القشرة البصرية. ففي هذه المنطقة يستمر نمو الخلايا حتى مرحلة المراهقة، ثم تبدأ بعد ذلك في التناقص، ولا تصل إلى مستوى النضج إلا عند سن الثامنة عشرة. كما أن المادة التي تخطى العصب تستمر فترة طويلة لدى البعض، خاصة في منطقة الفص الأمامي.

وقد كشفت الدراسات النفسية على مهارات الأطفال وسلوكياتهم، التي تنمو مع حدوث فترة نشوء الوصلات العصبية، عن أنه مع بداية عمل الترابطات في قشرة الإبصار - حوالي الشهر الثاني بعد الميلاد - فإن الطفل يبدأ في فقد بعض الاستجابات الطفلية المنعكسة. وشيئاً فشيئاً تحسن قدرته على الإبصار، فيميز بين الأشياء من حيث اللون والحركة في الشهر الرابع والخامس، ثم تتحسن ذاكرته عن الأشياء ما بين الشهر الثامن والثاني عشر بعد الميلاد.

### ثانياً: الفترات الحرجة في نمو المخ:

إن المخ هو أكثر الأعضاء تعقداً في جسم الإنسان إلى حد كبير، وهو يحتاج إلى فترة أطول من أي عضو آخر، لكي يصل إلى اكتمال النمو، كما أن نمط نموه يختلف بوضوح عن غيره. ففي غالبية الأعضاء الأخرى يكتمل نمو البناء الأساسي أثناء فترة قليلة داخل الرحم، وأي نمو آخر في الجسم يكون من خلال انقسام الخلايا أثناء نمو الكائن الحي. أما في نمو المخ فالأمر مختلف؛ فالمخ يصل إلى تكامل خلاياه قبل الميلاد بفترة طويلة، وهو ما يفسر نمو حجم الرأس بالنسبة لبقية أجزاء الجسم أثناء مراحل النمو داخل الرحم. لكن نمو بنائه يكتمل أثناء الحياة، فتصبح الخلايا العصبية أكثر ارتباطاً فيما بينها.

ويولد الطفل في حالة عجز نسبياً، على عكس غالبية الحيوانات الأخرى التي تستطيع أن تدافع عن ذاتها خلال دقائق أو ساعات من الولادة، أما الطفل المولود حديثاً فيحتاج إلى رعاية والديه لعدة

سنوات، وهو ما يميزه عن غيره من الحيوانات الأخرى، فهو لم يعد يعتمد على الغريزة لكي يعيش، بل هو يستطيع أن يتعلم من الخبرة، وأن يتواافق مع البيئة، وينمي مهاراته ويتعلم اللغة. وهر الطفل حديث الولادة بعدد من المراحل التي يمر بها غيره من الكائنات على مدى أربعة ملايين سنة من التطور. فمع الكائنات البدائية، فإن مخ الجنين يبدأ من السطح، حيث يظهر صحنًا صغيراً، يبدأ في التعرج مكوناً أخدوداً، يتقابل جانباً هذا الأخدود، مكوناً أنبوبة طويلة مسدودة من طرف واحد، وهو ما يكون العمود الفقري الأولى. ومن هذا الطرف، تتكون بقية أجزاء المخ، فالثانية الواحدة من نمو الجنين تقابل آلاف السنين من التطور. وبعد خمسة أسابيع من الإخصاب، فإن الجزء العلوي من الأنابيب يتسع وينتشي مكوناً شكل علامة الاستفهام. ومع الأسبوع الثامن تبدأ أول بادرة من نشاط المخ.

إن مصطلح النمو المفاجئ للمخ Brain spurt يطلق على المراحل التي تتميز بالنمو السريع في المخ. ومثل هذا النمو في مخ الجنين يحدث بين الأسبوع الثامن والثالث عشر بعد الإخصاب. فتكتاثر ملايين الخلايا التي يطلق عليها الأرومة العصبية neuroblasts . ومن هذه الأرومة العصبية تنمو النيرونات، وتحدد كثافة الأرومة العصبية العدد الكلي للخلايا العصبية. وللتغذية أهميتها الخاصة في هذه المرحلة، فقد كشف الأبحاث أن الأم إذا تعرضت لعدم التغذية الصحيحة في هذه الفترة - وبصفة خاصة إذا فقدت بعض عناصر الأحماض الأمينية - فإن كثافة الأرومة العصبية تنخفض بشدة. وقد أشارت الدراسات على أطفال العالم الثالث لأمهات يعاني من سوء التغذية - أن الطفل يولد ولديه 40% فقط من النيرونات التي يولد بها الطفل في المجتمع الغربي. وفي دراسة على الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة (ذوي التأخر العقلي)، كشفت الدراسة أنهم ولدوا في أشهر ينابير، فبراير، مارس، حيث كانت الأمهات يتغذين على السلطة فقط واللحوم، مما حرم الطفل من أنواع أخرى من الغذاء أثرت على نمو المخ.

أما المرحلة الثانية المهمة في نمو المخ، فهي من الأسبوع العاشر قبل الميلاد وحتى العامين؛ ففي هذه الفترة يحدث قدر كبير من التعلم الأساسي. في هذه الفترة يبدأ كل نيرون يرسل عدداً كبيراً من الألياف العصبية الدقيقة إلى كل الاتجاهات؛ لعمل تشابكات مع الآف النيرونات الأخرى، وأحياناً تصل هذه التشابكات إلى الجانب الآخر من المخ، كما يكبر جسم الخلية ذاتها، وتتصبح القشرة الدماغية أكثر كثافة. وفي هذه الفترة أيضاً، فإن الألياف الأكثر طولاً تغطى بمادة يطلق عليها النخاع، التي تسرع من عملية التوصيل في الانقباضات العصبية. وهذه الزيادة في الارتباطات تؤثر على النمو السريع للمخ، فعند الولادة يزن المخ 350 جراماً، وهو ما يمثل 25% من وزنه في الفرد الناضج، ولكن فهو بمعدل جرام في الدقيقة يجعله يصل في سن الشهور الستة إلى 50% من وزنه في الفرد الناضج. وفي سن الخامسة يصل إلى 90% من وزنه في الفرد الناضج. في هذه المرحلة فإنه يتم اكتمال المرحلة المهمة من القدرات العقلية للفرد. لكن من المهم الإشارة إلى أن تعلم الطفل لم يبدأ مع هذه

المرحلة الثانية من نمو المخ فقط، بل من قبل، فقد تعلم الجنين من بيئته الرحم بردود الأفعال العكسية، وأجريت التجارب على بيئه الرحم، وأدخل بعض الأطباء ليفة بصرية دقيقة إلى الرحم، ورصدوا استجابة الجنين في الأسبوع العاشر لهذا التغيير في البيئة. كما أنه في سن خمسة شهور من عمر الجنين، استطاع العلماء أن يرصدوا استجابة مخ الجنين للضوء باستخدام مخطط الدماغ الكهربائي (EEG)، ووجدوا أنها تمايل استجابة المخ الناضج. وأخيراً استطاع العلماء رصد استجابة مخ الجنين للصوت الصادر من الخارج، وذلك من خلال فحص بطنه الأم.

في 1960 استطاع الباحثان تورستن ويزل T.Wiesel، ودافيد هوبل D. Hubel في جامعة هارفارد، أن يقدما عملاً متميزاً في عمل المخ، حصلاً على إثره على جائزة نوبل. وقد كان التساؤل الرئيسي في هذا العمل يدور حول ما يحدث في المخ نتيجة الحرمان الحسي. وكانت الدراسة على القطط الصغيرة التي تعرضت لتغطية إحدى العينين فترة، وببدأ المخ يتكيف مع استقبال المثيرات من العين الأخرى المفتوحة على مدى ثلاثة شهور. وبعد كشف الغطاء عن العين، كشفت الدراسة على التشابكات العصبية بين العين وبين المخ، عن تدهور شديد في الترابطات العصبية للعين التي تم تغطيتها، ويعنى ذلك أن الحرمان الحسي المبكر لهذه الحيوانات قد أدى إلى حدوث العمى في تلك العين؛ ذلك أن المخ قد تم حرمانه من المثيرات الخاصة بالعين التي تم تغطيتها.

وقد أعيد هذا البحث عدة مرات، وخلصت جميعها إلى أن الخبرة الحسية لابد وأن تحدث في سن محددة حتى يحدث التجاوب معها في المناطق المعنية في المخ. كذلك فقد تشير خلاصة هذه النتائج أيضاً إلى أن التعليم المبكر للطفل لابد وأن يحدث أيضاً في سن محددة، وإن قد يؤدي التأخير إلى عدم نمو المخ بصورة واضحة، وأن الطفل لن يستطيع تعويض عدم تعلمه لهذه الخبرات. كما كشفت المزيد من الأبحاث - في هذا الصدد - عن أنه قد يحدث التعافي من آثار فقدان خبرة حسية ما، لكن ذلك يعتمد على الفترة والظروف التي حدث فيها الحرمان الحسي، وعلى طول فترة هذا الحرمان.

وعلى حالة مماثلة في الأطفال، كشفت إحدى الدراسات عن طفل تعرض للعمى المفاجئ في سن الخامسة في إحدى عينيه. وبفحص الحالة وتبعها مع الوالدين أمكن للطبيب أن يعرف أن عين الطفل قد تعرضت للإصابة بفيروس ما، مما اضطر علاجها إلى تغطيتها فترة طويلة، وبعد كشف الغطاء عنها تبين فقدان قدرة الطفل على الإبصار، واستمر كذلك طوال حياته.

ومن ثم فإن الأمر ليس فترات حرجية في حياة نمو المخ، بل هي كما تقول بلاكمور، الفترات الأكثر حساسية لنمو قدرات المخ. ومن ثم فإن إثراء البيئة بالثيرات البصرية الملونة، والأصوات، والأشياء التي يمكن لمسها والإمساك بها، كلها تمثل مثيرات وفيرة لإثارة ونمو القشرات في المخ البشري. وفي حالة الطفل الصغير، تضيف بلاكمور إلى ذلك التفاعل مع الأشخاص الآخرين، بما يتضمنه ذلك من اللغة والاتصال. فالطفل يولد بقدرات حسية تكون مكتملة، مثل السمع والبصر. فهو يستطيع - كما تقول الدراسات المتخصصة - أن يميز بين الوجوه، وهذا التمييز المبكر

قد يعتمد على البناء التحت قشرى في المخ. ومن التجارب التي أجريت لاختبار هذه القدرة في الطفل، تلك التجارب التي قام بها أوليفير باسكاليز Olivier Pascalis في جامعة لندن، وخلص منها إلى أنه بين الشهر السادس والتاسع من عمر الطفل، تصبح قدرته على تمييز الوجوه أقل ضبطاً. فهو قبل الشهر السادس يستطيع أن يميز بين وجوه القردة التي تبدو للناظر متشابهة. لكنه بعد الشهر السادس تتدحر هذه القدرة لديه، لكن تظل قدرته على تمييز وجوه البشر قائمة، وهو الأمر الأكثر أهمية في حياة الطفل.

معنى هذا أن الفترات الأكثر حساسية في حياة المخ البشري لها علاقتها الوثيقة بعملية التعلم، ومن ثم فإن هذه الفترات هي نافذة من نوافذ التعلم، وما يبقى هو الاستفادة منها لتحقيق عملية التعلم للطفل.

### ثالثاً: نمو المخ وثراء البيئة:

كان من المعتقد - حتى فترة قريبة - أنه لا يمكن تعليم القردة العليا اللغة، لكن أثبتت الدراسات الحديثة في الولايات المتحدة أن عدم قدرة تعلم هذه الكائنات للغة ليس بسبب نقص قدرة المخ، بل إنه يرجع إلى عدم وجود الجهاز الصوتي لديها. لذلك عمدوا إلى تعليمها لغة الإشارة التي يتعلّمها الصم. وفي أواخر السبعينيات، استطاع آن وبيلاريس جاردنر Allen & Beatrice Gardner أن يعلّموا أشلي من القردة العليا لغة الإشارة التي يستخدمها الصم البكم، وفي خلال ثلاث سنوات تكون لديها ما يقرب من ثمانين كلمة، واستطاعت أن تقوم بتكوين بعض الجمل من الكلمات بنفسها. كما قام ديفيد بريمارك David Premarck بعد ذلك بتجربة على الشمبانزي، حيث قام بتعليمها باستخراج أشكال بلاستيكية ملونة. وفي هذه الحالة لم يتمكن الشمبانزي ما يقرب من 120 كلمة فقط، بل إنه بدأ في عمل تجريدات وتكون مفاهيم من هذه الكلمات. وفي جامعة ستانفورد، استطاع الباحثون تعليم الغوريلا ما يقرب من 1000 كلمة، وهو ما يوازي متوسط ما يتعلم الفرد الأمريكي العادي. فإذا كانت هذه الكائنات استطاعت أن تصل إلى كل هذا، فماذا يمكن للمخ الإنساني أن يفعل؟

من دراسات عديدة على المهوبيين والعباقرة، كشفت النتائج عن أن القدرات العقلية لا تورث كما يورث لون العين أو لون الشعر؛ فالاستعدادات العقلية تتحدد بدرجة كبيرة بنوعية البيئة التي تعيش فيها، خاصة الفترات السابقة واللاحقة مباشرة لعملية الميلاد. فمن خلال جمع الملاحظات العامة عن المهوبيين، وجد أنهم جميعاً نشأوا في بيئه ثرية بملثيرات ومتغيرة، وزاخرة بفرص التعلم.

في عام 1800 أراد طبيب ألماني أن يوفر لولده بيئه ثرية غنية بملثيرات قدر الإمكان، واستطاع الطفل أن يقفز إلى الكثير، ففي سن السادسة كان يوصف بأنه "الغلام مبكر النضج". وفي سن التاسعة التحق بجامعة لينينغراد، وفي سن الرابعة عشر حصل على الدكتوراه، وفي سن السادسة عشر

حصل على الدكتوراه في القانون. وأصبح برنامجه هذا الطبيب نموذجًا للوالدين في القرن التاسع عشر. وفي تجربة أخرى قام بيبل Berle بتوفير البيئة الثرية لأبنائه الأربع في السنوات الأولى، ولقد استطاع الأبناء جميعًا أن يصلوا إلى درجة كبيرة من التميز. وفي إنجلترا استطاع أحد الآباء تطبيق هذه القواعد على ولديه، وأسفرت التجربة عن دخول أحدهما الجامعة وهو في سن العاشرة، وأصبح أحد علماء الطبيعة في القرن التاسع عشر.

وهناك نماذج من المشاهير الذين خبروا بيئته ثرية أدت إلى تميزهم وشهرتهم في مجالات مختلفة، نذكر منهم موتسارت، الذي كتب سيمفونيته الأولى وهو في سن الثامنة من عمره، ويوليوس قيصر الذي عايش الحرب وهو في عمر الثالثة، جالساً وراء عمه. ومعنى هذا أن الخبرة الثرية تستطيع أن تثري العقول، وتجعل منها الشيء الكبير. ذلك أن الطفل حديث الولادة يكون ذا حساسية عالية، يستطيع أن يمتص المثيرات التي تقدمها له البيئة، ولعل اختلاف البيئات في تربية الأطفال تكشف عن هذا، ففي غالبية المجتمعات الغربية لا يستطيع الطفل المشي إلا في الشهر الرابع عشر من ولادته مثلاً. أما في أوغندا - على سبيل المثال - يستطيع الطفل أن يجلس بمفرده منذ منتصف الشهر الثاني، وفي الشهر الثامن إلى العاشر يستطيع أن يمشي وحده دون مساعدة.

فالطفل يولد باستعداد غير محدود للاكتشاف ومعرفة العالم المحيط، لديه تعطش إلى الخبرة والمعرفة، إلا أنها كثيراً ما تعيق الطفل عن هذا. وهذا التطلع إلى الاكتشاف والمعرفة إذا لم يقابله الاهتمام والمساعدة المناسبة، فإنه سرعان ما يذهب إلى الأبد؛ فالطفل الذي يتم التحدث إليه باعتباره شخصاً ناضجاً بلغة صحيحة يمكنه أن يتلقى الكثير من اللغة الإنسانية، كما يمكنه أن يتكلم سريعاً، ويكون في طليعة أقرانه من نفس السن. فقد وجد - من الأبحاث - أن الأطفال في الأسر ذات المهن العقلية تتلذذ أسرع من الأطفال في الأسر ذات المهن الحرفية. وقد أسفرت بعض التجارب الخاصة على أبناء بعض الأسر، أنه كلما كانت البيئة ثرية، وكلما أتيحت للطفل فرصه التنمو والمعرفة، كلما كان العائد مذهلاً، فقد لا يقتصر التمييز على مجال واحد، بل قد يمتد هذا التمييز إلى عدة مجالات، وهذا هو ما يجب أن يكون عليه النمو العقلى للطفل، بل إن ذلك قد يفسر لماذا يكون الطفل الأول في الأسرة مميراً وأكثر نجاحاً؛ فقد أشارت دراسات على عدد من العلماء من حيث ترتيبهم في الأسرة، وأشارت النتائج، إلى أن 70% منهم كانوا الطفل الأول في حياة أسرهم. فالوالدان يميلان عادة إلى تكريس كل الجهد من أجل الطفل الأول، وفور مجيء الطفل الثاني والثالث يتجرأ الاهتمام، ويتبعد الإحساس بالجديد.

غير أن هذا الاتجاه قد يتغير في الأسر الكبيرة، حيث يكشف الأطفال الأصغر عن تميز عقلي، وتفسير هذا أن الإخوة الكبار في الأسرة هم الذين يمثلون البيئة الثرية للصغار منهم، تعويضاً عن عدم اهتمام الوالدين، وهو ما يطلق عليه تأثير الأخ الأكبر، وهو من الأمور التي تفيد منها كثيراً الأسرة العربية عامة، والأسرة المصرية خاصة في تربية الأبناء.

ومنذ عشرات السنين، كشفت الدراسات العصبية البيولوجية لجريناو Greenough وزملائه في جامعة إلينوي، عن أهمية تأثير البيئة على التشابكات العصبية في المخ أثناء نمو الكائن الحي. وهذه النتائج دائماً ما يستند إليها في دعم مقوله أهمية ثراء البيئة في الطفولة، فقد أثبتت تجاربها التي أجريت على الفئران، أن البيئة الغنية بالمحفزات قد أدت إلى زيادة في نمو التشابكات العصبية في مخ الفئران بنسبة 25 % عنها لدى الفئران في البيئة الفقيرة. كما كشفت عن تعلم أفضل وأسرع. وتفسير ذلك أن البيئة الغنية بالمحفزات الحسية، قد قدمت تحديات ومغامرات، وشجعت على التدريب الجسمى، مما أدى إلى تزايد عدد النيرونات في المخ، ودعم وصول الدم إليه. غير أن هذه النتائج لم تقفز بالباحثين إلى القول إن البيئة الثرية أفضل للطفل، بل قد يكون من الدقة القول إن البيئة الطبيعية أفضل من البيئة المحرومة من المحفزات. ومن ثم فإن نتائج هذه الأبحاث قد تؤدي إلى القول إن هناك "عقبة استثناء" لثراء البيئة، ما يقل عنها يعد بيئة محرومة، يمكن أن تضر بالطفل (Blakemore, 2005, 33).

فضلاً عن هذا، فقد كشفت التجارب عن أن عائد ثراء البيئة بالمحفزات لا يقف عند حدود السن الصغيرة فقط، بل إن الخبرة يمكن أن تشكل مخ الفئران الكبيرة أيضاً، فقد كشفت تجارب جريناو عن حدوث نمو في الوصلات العصبية؛ استجابة للخبرات الجديدة واللعب في الفئران الكبيرة.

وفي عودة إلى مناقشة التعليم المبكر للطفل، فإن نتائج الأبحاث التي عرضت لا تدعم ضرورة وجود الدفيئة (hothouse) لنمو المخ، بينما دعمت القول إن إتاحة فرص التعليم والخبرات أمر مطلوب في كل المراحل العمرية، وإن البيئة الفقيرة في المحفزات تضر بالطفل، بالإضافة إلى ما أشارت إليه الأبحاث من أهمية الفترات الأكثر حساسية في نمو القدرات، خاصة القدرة البصرية.

ولكي نفهم ماذا تعنى النتائج السابقة إذن، وإلى أي مدى ترتبط بقدرة المخ على التعلم، وما أكثر المراحل أهمية في تطوره، وماذا تعنى الطفولة المبكرة في قدرة المخ على التعلم، هذا ما سنتناوله فيما يلى.

### تطور الدراسات عن نمو المخ:

في طحة تاريخية موجزة عن الاهتمام بالقدرات العقلية، وأهميتها للإنسان، كان المصريون والصينيون والهنود هم أول من انتبه إلى هذا الأمر، وقدموا بعض العلاقات بين الملكات العقلية وبين المخ. ومع اليونانيين، كانت أولى الإرهاصات عن توظيف المخ، فقد تحدث أرسطو عن ارتباط المخ بالقلب، وأن المخ هو الذي يقوم بتبريد الدم. أما أفالاطون فقد تحدث عن وجود ملكات التفكير داخل الرأس، وصور المخ على أنه شمع عقلي تسجل عليه الخبرات. وفي العصر التالي لهذا،

(1) الدفيئة: هي المستنبت الزجاجي عالي الحرارة، وتعنى توفير البيئة المناسبة لتسريع عملية التعلم لدى الأطفال الصغار، وهو ما أشرنا إليه ص 14 في هذا الكتاب.

استطاع أحد العلماء التحدث عن القدرات العليا عند الإنسان، وارتباطها بطيات المخ على السطح، وهو الأمر الذي لم تدرك أهميته إلا بعد ألفي عام بعد ذلك.

وفي عصر الرومان كانت هناك بعض الأفكار عن وجود مركز الروح في المخ، أما الهنود فقد كانوا يعتقدون أن العقل لا يتحدد بمكان بل إنه في كل الكائن، وهذه النظرية ما زال يعمل بها حتى الآن بعض علماء التربية في الهند. وقد ظلت هذه الاجتهادات حتى كان القرن الثامن عشر، حيث وضح تخصص المخ في القدرات العقلية وليس شيئاً آخر. ومع القرن التاسع عشر أصبح معروفاً أنه في حالة تدمير بعض مناطق في المخ، فإن ذلك يعني فقدان بعض الوظائف العقلية. وبدراسة الأشكال المختلفة للتدمير، استطاع Gall (1)، وهو عالم تشريح ألماني، أن يضع خريطة لسطح المخ، وتوزيع الوظائف عليها. ومن هنا بدأ فهو علم دراسة الدماغ "phrenology"، الذي بدأ بدراسة شكل جمجمة الإنسان. ومع بداية القرن العشرين، أصبح واضحاً أن الوظائف العقلية لا يمكن تحديدها بدقة. وفي الخمسين عام الأخيرة تطورت معرفتنا عن المخ إلى مدى بعيد، وأصبح علم النفس ذاته أحد المجالات التي شهدت تطويراً سريعاً في المعرفة؛ فقد تطورت تخصصات جديدة أفاد منها مثل علم النفس العصبي، وعلم النفس الفسيولوجي وعلم النفس الارتقائي... إلخ، وأصبح المخ الإنساني في مقدمة التحديات العلمية، وعادت مرة أخرى دراسات النشاط العقلي إلى مكان الصدارة. وكان تطور الحاسوب الآلي في الفترة بين أواخر الخمسينيات وأوائل السبعينيات قد أثر بدرجة كبيرة، حتى عرفت هذه المرحلة الانتقالية بالثورة المعرفية cognitive revolution. ويتحدث الباحثون من الحاسوب الآلي نموذجاً للأسلوب الذي تعمل به العمليات العقلية، فقد سمح للباحثين أن يحددوا الميكانيزمات الداخلية التي تحدد السلوك. ولقد لعب عالم اللغة، تشومسكي Noam Chomsky بالتعاون مع، آلان نيويل Newell، وهربرت سايمون Herbert A. Simon دوراً رئيسياً في هذه الثورة المعرفية. وحيثاً جداً، أصبح علم البيولوجى حيز كبير على خريطة هذا التعاون. وهناك من الجامعات في المملكة المتحدة من يختص قسم علم النفس بها للدراسات المعرفية العصبية البيولوجية للسلوك الإنساني Cogneuro biological studies، مثل جامعة جلاسجو بأسكتلندا، ومثل الأبحاث - في الوقت الحالى - على المخ ما يقرب من نصف مليون بحث علمي أو قد يزيد كل عام. فعلماء النفس، وعلماء فسيولوجيا الأعصاب هم الذين يهتمون بفهم المخ وقدراته، وبهتم عالم الكيمياء بدراسة ردود الأفعال الكيميائية التي تحدث ثانية بثنائية في المخ، كما يهتم عالم السيبرنطيكا بدراسة تطبيق نظرية المعلومات على المخ؛ لفهم إمكاناته غير المحدودة على التذكر. وهكذا تعدد الدراسات المتخصصة على المخ، مع تنوعها الشديد، بما يسمح بفهم الظواهر فهماً شمولياً يساعد على معالجتها

(1) علم فراسة الدماغ، هو العلم الذي يربط بين المللkatas العقلية والخصائص المزاجية، وبين تضاريس الجمجمة وأغوارها.

والإفادة منها إلى درجة كبيرة. ولعل من أكثر الإضافات أهمية عن المخ البشري، ما كشفت عنه الدراسات من إمكانية تعلم مخ الجنين داخل الرحم، أي أثناء فترة الحمل وقبل الولادة، وهو ما تناولته ماريان ديموند في كتابها المتميز عن المخ وأشجاره السحرية (ترجمة: صفاء الأعسر وعزبة خليل، 2005). فهل يستطيع مخ الجنين التعلم؟

### تعلم المخ داخل الرحم:

لقد ذكرت ماريان ديموند M.Diamond في كتابها عن الفترة الزمنية للحمل أن الأسابيع الأولى بعد الإخصاب تعد من أكثر الفترات حساسية؛ لتكوين ونمو مخ الجنين؛ لأن الأجزاء الأمامية من المخ والجهاز العصبي تظهر في هذه الفترة، وتنمو سريراً خلال الأسابيع الأولى من الحمل، ولذلك فإن هذه الأجزاء هي عرضة - بالتالي - لأى من المؤثرات الضارة التي يتعرض لها الوالدان كسوء التغذية، والعقاقير الطبية الضارة، أو غير ذلك. كذلك فإن تعرض الأم للانفعالات الشديدة، قد يؤثر أيضاً على نمو الجنين بالسلب. ومن ثم - وبناء على ذلك - فإن من المتوقع أن يكون للمحاولات الإيجابية في استثارة الجنين أثراً إيجابياً وملفيف في نمو المخ. وقد أوردت ديموند بعض نتائج التجارب التي قام بها العالم "أنتوني دي كاسبر"، من جامعة نورث كارولينا، التي تكشف بوضوح عن إمكانية تعلم الجنين لبعض الأشياء من خلال تعرّض الأم لها. ففي تجربته على ست عشرة امرأة حاملاً، لكي يقمن بالقراءة مرتين في اليوم خلال الشهر والنصف الأخير قبل الولادة، في قصة محددة لهن. وبمجرد ولادة الطفل، يتم اختباره، فكان من الواضح أن الرضيع يستمع بإنصات وعناية لما سبق أن استمع إليه من الأم. وفي تجربة أخرى في جامعة أوريجون، قام "ويليام سموتيرمان" بتعليم أجنة الفئران كراهية طعم ورائحة عصير التفاح، من خلال حقن الأم. وذلك بعمل الارتباط الشرطي بين عصير التفاح، وبين تناول أحد المحاليل (كلوريد الليثيوم) المركزة، التي تصيب الحيوان بالغثيان والتعب الشديد. وبعد ولادة الصغار، لاحظ أنه حتى مع الجوع الشديد، يجرون فراراً من الأم إذا ما طليت حلماتها بعصير التفاح. وقد أفاد العلماء من هذه التجارب في تفسير إمكانية إدمان الفرد للخمر، من خلال تعرّضه لها، وهو ما زال جنيناً في بطن أمه (ديموند، 2005، ص 92).

ولعل مجال الأبحاث في اللغة يعد من المجالات ذات الأهمية في الرد على هذا التساؤل. إن الطفل العادي الذي لم يتعرض لبيئة ثرية يبدأ في الكلام في عمر العام، ومع الشهر الثامن عشر يكون قد وصل إلى تعلم 6 كلمات، ومع بلوغ العامين يكون قد تعلم أكثر من 100 كلمة. لكن الدراسات أثبتت أنه عند الميلاد يستطيع الطفل أن يستجيب بإيجابية لنبرات الصوت التي يسمعها. فقد عرض أحد الأفلام الذي يصور استجابات الطفل بلامتحن الوجه على نبرات صوت الوالدين، ويحدث هذا الأثر مع أصوات الأشخاص، وليس مع الأصوات عامة. وقد يرجع ذلك - كما يفسره رسيل - إلى أن الطفل داخل الرحم قد تعلم بعض المهارات اللغوية البسيطة، من خلال سماعه لغة

الألم ونغمة صوتها، وصوت ضربات قلبها، وبعد الولادة يظل صوت ضربات القلب من أكثر النغمات المهدئة للطفل. ومن أكثر الأمثلة على التعلم داخل الرحم هو الألم التي كانت تغنى لطفلها وهو داخلها، وعندما ولد الطفل توقفت الألم عن الغناء، وما حدث للطفل هو أنه شب مولعاً بالموسيقى ويفضلها على أي شيء آخر حتى الطعام.

أما ريني فان دي كار، طبيب التوليد في هايوارد ب كاليفورنيا، فقد أسس جامعة ما قبل الولادة Prenatal University في السبعينيات من القرن العشرين، تقوم على الإيمان بفكرة استثارة الجنين باللمس، والتحدث إليه، وعزف الموسيقى؛ وذلك بهدف تنمية قدرته على الانتباه. ولقد قدم دي كار الأمثلة التي تدل على اختلاف الأطفال الذين تمت استثارتهم وهم أجنة في بطون أمهاتهم في سرعة النمو وتميزه. فقد تميز هؤلاء الأطفال في القدرات اللغوية، وفي القدرة على الرسم، وتدوين الموسيقى والانفعال بها، بل والتمييز في عزف مقطوعاتها لدى البعض منهم. وفي تجربة أخرى قام بها دونالد شيلتر، وهو أستاذ متخصص في مدرسة إبستمان للموسيقى في روشيستر بنيويورك، بدأ برنامجاً لاستثارة الجنين بالموسيقى منذ الشهر الخامس. واستمرت هذه الاستثارة حتى بعد الولادة على مدى عقد من الزمان، ولقد وجد شيلتر أن هؤلاء الأطفال الذين أجريت عليهم التجربة كانوا الأسرع في الكلام من غيرهم، ونميت قدراتهم الموسيقية نمواً أذهل شيلتر نفسه، وبعض النماذج منهم كشفت عن مواهب إبداعية في هذا المجال في الغناء المبكر (عند سن 21 شهراً) (دياموند، 2005، ص 95 - 100).

وكما يشير التراث إلى التجارب ذات المدلول الإيجابي المؤثر على قدرات الطفل وسلوكياته بعد ولادته، فقد أشار التراث كذلك - خاصة في رصد وظائف المخ، والاستعانة بالเทคโนโลยيا المتقدمة للخروج بالحقائق إلى الحيز المادي الذي يسمح بالمقارنة - إلى العوامل ذات التأثير السلبي، بل وقد يكون المدمر لنمو المخ، ومن ثم حجب ما يستطيعه من إمكانات وقدرات. ومن هذه العوامل: التدخين، وسوء استخدام العقاقير، وتعرض الألم لسوء التغذية، والتلوث البيئي.

فحديثاً، احتل تأثير التدخين على الجنين أثناء فترة الحمل، قدرًا كبيراً من الاهتمام، فهو يقلل من نسبة الأكسجين التي يزود بها الجنين؛ مما يؤثر على القدرات المعرفية للطفل. فكشفت النتائج عن أن الدرجات التي يحققها أطفال الأمهات المدخنات على اختبار القراءة أقل كثيراً من أطفال الأمهات اللاتي لم يدخنْ أثناء الحمل. فقد أشارت الكتابات الحديثة إلى أن التدخين أو التعرض للدخان يمكن أن يؤثر على مخ الأجنة؛ إذ يقدر الباحثون في هذا المجال أن إحراق التبغ يمكن أن يطلق ما بين 2000 و4000 مكون سام، إلى جانب نسبة الكربون مونوكسيد، وهذا من شأنه أن يقلل من نسبة الأكسجين الواصل للجنين، ويسبب التشوهات الخلقية في الوجه، وإتلاف جزء من المخ، ويقلل من حجم الجسم، وحجم الرأس. وقد يؤثر هذا على معدل الذكاء، والقابلية للتعلم، والمعاناة من صعوبات القراءة أو الكتابة. ولا يؤثر الدخان على الجنين من خلال الألم الحامل فقط، بل من

خلال الرجل أيضًا، فالرجل المدخن عرضة لتلف الحيوانات المنوية، ومخاطر إنجاب أطفال مرضى، أو لديهم صعوبات في التعلم.

إلى جانب التدخين، هناك الكثير من العوامل الأخرى ذات التأثير السيئ على النمو العقلي للأطفال، مثل الخمور، وارتفاع نسبه الرصاص في الهواء، وتلوث الماء، والحالة الانفعالية للأم، والعادات الاجتماعية للأم، وسلوك الآباء، والتعب، وكلها عوامل ذات تأثيرات قوية على نمو الطفل.

كما أن سوء التغذية من العوامل التي تؤثر على نمو المخ؛ إذ إنه من المعتاد أن يحمي المخ من سوء التغذية ما يسمى بفائق المخ brain sparing؛ إذ إنه في حالة وجود أي نقص في الفيتامينات الأساسية، أو البروتينات، أو الأحماض الأمينية، أو الأكسجين. فإن الأعضاء الأخرى تشكو من هذا النقص أولًا أثناء العامين الأول والثان من حياة الطفل، يكون لنقص التغذية تأثيرات قوية على نمو المخ، رغم وجود فائض المخ؛ إذ يؤثر هذا على حجم المخ فيكون أصغر، كما أن عدد خلايا "النسيج الضام" galia ينخفض، وكذلك مستوى الأنزيمات، كما وجد أن المخيخ يعاني أكثر من أي جزء في المخ من نقص الحجم، ربما لأن المخيخ هو آخر الأجزاء التي تتكون في المخ، فهو يتكون قبل الميلاد بثلاثة أشهر، ويستمر في النمو حتى نهاية السنة الأولى بعد الميلاد. فالمخيخ هو المسؤول عن تكامل حركات الأطراف، مما يفسر لماذا يؤدي نقص التغذية إلى ضعف تأثير حركة الجسم، كما أنه من نتائج ضعف التغذية أيضًا ضعف عدد الارتباطات بين الخلايا العصبية. ولدراسة تأثير هذا قام الباحثون بدفع مجموعة من صغار الفئران لأم لديها بالفعل تسعه فئران صغيرة ما زالت في مرحلة الرضاعة، وكانت الفئران الصغيرة لا تجد ما يكفيها من اللبن. وعندما كانت تبكي، كانت تتغذى على وجبة قريبة من اللبن، وبفحص هذه الفئران وجد أن الحجم الكلي للمخ أقل بـ23% من الفئران العادي، كما أن عدد الوصلات بين النيرونات قد انخفض بنسبة 41% أيضًا، كذلك دمرت كل جوانب النمو العصبي والعقلي بشدة بسبب التغذية الضعيفة.

كما يشير التراث أيضًا إلى مدى تأثير الضغوط النفسية Stresses على المرأة الحامل، وبالتالي على نمو الجنين. فقد وجد "سابلوسكي" أن الضغوط المزمنة تؤدي إلى التأثير على نمو الخلايا العصبية، حيث تتقلص امتدادات هذه الخلايا العصبية؛ مما يتسبب في ضعف الذاكرة، وتشوش التفكير، ونقص الابتكار. هذا فضلًا عمًا تؤدي إليه استمرار المعاناة من الضغوط إلى التوقف المؤقت في بعض الوظائف الحيوية، وهذا بدوره ينتقل إلى الجنين، و يؤثر على نمو الخلايا العصبية في المخ.

ومما يزيد الأمر سوءًا أن يضاف إلى كل ما سبق المؤثرات المدمرة للبيئة، مثل الفقر والعزوز مثلا. فمن خلال دراستين، إحداهما على أطفال المكسيك والأخرى على أطفال جاميكا، كشفت الدراسات أن الأطفال الذين لا يتعرضون فقط لنقص التغذية، بل يأتون أيضًا من بيئات فقيرة،

يعانون بقدر يفوق ما يعانيه الأطفال من نقص التغذية وحده. ومن ثم يشير هذا إلى تأثير البيئة على النمو العقلي والعصبي خاصة في العام الأول، وهو الأمر الذي أثبتته الدراسات التجريبية في مختلف المجتمعات. كما أنه من المؤثرات البيئية الضارة كذلك، العمل في مجال العقاقير، أو التعرض للإشعاع، والفيروسات والبكتيريا، هذا فضلاً عن التعرض للمبيدات، والزرنيخ، والديوكسيد، وهي من العناصر السامة. ولا يستثنى من ذلك المياه الملوثة في بعض البلدان بعناصر الـ (PCB)، بحيث تظهر هذه العناصر الكهربائية والكيميائية في لبن ثدي الأم، وهو ما يسبب بطء النمو، خاصة في العمليات المعرفية؛ كالذاكرة والانتباه.

ولقد حذرت دراسات حديثة من أن العديد من المبيدات المستخدمة قد تضر بمخ الأجنحة والأطفال الصغار؛ ذلك أن المبيدات قد صممت لكي تكون سامة لملح الحشرات والآفات الزراعية. ومن ثم، يمكن أن تكون سامة أيضاً لعقول البشر. وإذا أضفنا إلى ذلك أن مخ الجنين والطفل الصغير يكون أكثر حساسية للاضطرابات الكيميائية، يمكن تقدير مبلغ الضرر الذي يتعرض له بتعرضه للمواد السامة. وقد أجريت مجموعة من الدراسات على الأطفال المصابين بمرض السرطان؛ للتعرف على علاقة هذه الإصابة بالposure للمبيدات، وذكر من هذه الدراسات ما كشفت عنه دراسة دافيز وزملاؤه 1994 (Davis et al 1997) من نتائج تؤكد هذه العلاقة. وفي دراسته (Langrad, 1997)، أكد العالم أن الأطفال العاملين بالحقول، كانوا الأكثر عرضة للإصابة بمرض السرطان. وفي دراسة قام بها ونبييج Winnipeg عام 2004، أكدت النتائج مسؤولية استخدام المبيدات عن الإصابة بالسرطان خاصة في الأطفال. حيث أشارت الدراسة إلى أن 70% من السّموم تأتي عن طريق الأطعمة التي يتم أكلها في الخضروات والفواكه. ومن ثم، أوصت الدراسة بضرورة استخدام الأسمدة العضوية؛ للحفاظ على صحة الأطفال<sup>(1)</sup>.

وفي دراسة حديثة في المجتمع المصري عن تأثير التعرض المباشر (الاشتراك في عملية الرش)، وغير المباشر (التعامل مع الآباء الذين يعملون في صناعة المبيدات) للمبيدات المستخدمة في رش الأراضي الزراعية، وكانت العينة من الأطفال بين سن 10 - 14 عاماً، كشفت معالجة البيانات عن وجود تدهور في القدرات المعرفية للأطفال، بمقارنتهم بالأطفال العاديين الذين لا يتعرضون بصورة مباشرة أو غير مباشرة للمبيدات<sup>(2)</sup>.

(1) في تقرير مصرى عن تنفيذ الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل 2000، أشار التقرير إلى أن 83% من إجمالي عدد الأطفال العاملين، والذي يبلغ مليونين من الأطفال - يقطنون في المناطق الريفية. وتبلغ نسبة العاملين منهم في الأعمال الزراعية بصفة دائمة أو متقطعة حوالي 42%， وبذلك توجد نسبة كبيرة من الأطفال معرضين للمخاطر الصحية الناتجة عن استخدامهم، والتعامل مع المبيدات (تقرير مصر عن تنفيذ الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل، 2000).

(2) دراسة للحصول على درجة الماجستير في الآداب، من كلية البنات، قامت بها الطالبة / وسام، إشراف أ.د. عزيزة محمد السيد، كلية البنات، جامعة عين شمس، والاستاذ الدكتور / قدرى وشاحى محمود، كيميا مبيدات زراعية، كلية الزراعة، جامعة عين شمس، 2012.

وكما يشير التراث إلى أن استئارة الجنين، وإثراء حياة الجنين بالمؤثرات الصوتية والحركية، أمر له أهميته في ولادة أجيال أكثر يقظة وانتباها، وربما تميزت قدراتهم الإبداعية في بعض المجالات؛ كالرسم والغناء وعزف الموسيقى - فإنه يشير بوضوح كذلك إلى أن العوامل البيئية يمكن أن تلعب دوراً مهماً في الحد من نمو المخ، وبالتالي تقليص قدرات الطفل المعرفية. وبالطبع، فإن القول بأهمية إثراء حياة الجنين، والوعي بأهمية العوامل البيئية، وسلوكيات الآباء، لا يقلل - بالطبع - من أهمية مواصلة هذه الجهود بعد الميلاد، وتقديم المشيرات والمعلومات على دفع قدرات الأطفال خطوات للأمام، بما يضمن - قدر الإمكان - الوصول بالأجيال الصغيرة إلى أقصى طاقاتها الممكنة. وإذا كان هذا متطلب قد وعنه الدول المتقدمة - كما أشارت الدراسات السابقة - فظنني به أنه متطلب أكثر ضرورة وإلحاحاً للدول النامية؛ حيث تمثل الثروة البشرية مورداً رئيسياً لنهضة هذه الدول، ووصولها إلى مصاف الدول المتقدمة.

نمو المخ بعد الميلاد:

إن الشهور الأولى بعد الميلاد تعد الأكثر أهمية على مدى المراحل العمرية في نمو المخ. ففى هذه الشهور يتمتع المخ بمرنة وسهولة التشكيل تبعاً للبيئة المحيطة. وقد كشفت الدراسات الحديثة على الأطفال حديثي الولادة أن الفترة التي تعد ذهبية في تشكيل مخ الطفل هي بعد الولادة مباشرة؛ حيث يتمتع المخ بأعلى درجة من درجات سهولة التشكيل. وليس جديداً أن تتحدث عن أهمية الفترات الأولى في حياة الفرد، فقد تحدث فرويد من قبل عن لحظة الميلاد وانفصال الطفل عن أمه، وتناول صرخة الميلاد - التي يفسرها الأطباء تفسيراً فسيولوجياً صرفاً - بتفسير آخر، يختص بالعلاقة بأمه. كما أن ميلاني كلاين Melanie Klien كانت لها إسهاماتها في مجال سيكولوجية الطفل، وبينت إلى أي مدى يمكن أن تكون الشهور الأولى في حياة الطفل على درجة عالية من الأهمية في صياغة حياته. وتواترت اهتمامات العلماء بدراسة درجة تأثر حياة الفرد بالفترات الأولى من حياته، حتى أنه الآن يدور النقاش حول أهمية عملية الإخصاب، ومراحل تكون الجنين الأولى، وتأثير هذا على حياة الفرد الناضج.

وهناك أفكار مماثلة عن تربية الأطفال تدور جميعها في فلك أهمية الخبرات الأولى، وإعادة النظر في فصل الطفل عن أمه بعد الولادة، وضرورة التعامل برفق وتدريجياً معه بعد ولادته. فقد قام فرديريك ليبور (Frederick Leboyer) بعمل دراسة على عينة من الأطفال (120 طفلاً)، الذين توفرت لهم الظروف المثالية أثناء التكوثين في فترة الحمل، ووجد أنه في المتوسط كان النمو أسرع لديهم عن نظائهم، فكان السير مبكراً بشهرين عن الأطفال الآخرين، وكان النمو عاملاً سارعاً، وكانوا أكثر سعادة، وأقل تعرضاً لمشكلات النوم، أو ضبط عملية الإخراج.

ولعل نتائج التجارب على الطفل؛ جنيناً ثم مولوداً حديثاً، ثم طفلاً - تستثير التساؤل عن تعليل هذه النتائج: لماذا يؤدى إثراء البيئة أثناء الحمل وبعد الولادة، إلى صقل قدرات الطفل وتنميتها، وتحقيق قدر أكبر من تقدم الأداء في مجالات مختلفة؟

وقد حاولت ديموند - من خلال تجاربها على الحيوانات من صغار الفئران - أن تقدم إجابة عن التساؤل عن علة ما يحدثه الإثراء البيئي في مرحلة الحمل، وبعد الولادة في تميز الأطفال الذين حظوا بهذا الإثراء. فمن خلال تشريح المخ لصغار الفئران التي تعرضت لتجربة الإثراء، لاحظت ديموند أن الفئران الأصغر من ثمانية وعشرين يوماً، وقبل أن يفطموا، يظهرون قشرة مخية أكثر سماكة، وقدرتها في تجربتها بنسبة من 7% إلى 11% أكبر من القشرة المخية للفئران في المجموعة الضابطة التي لم تتعرض للإثراء البيئي. ومع زيادة فترة التدريب على المكونات البيئية التي وفرتها للعينة التجريبية، كشفت النتائج عن نمو المنطقة الخاصة بالتكامل بين المعلومات الحسية، بزيادة قدرها 16% عن المجموعة الضابطة.

وقدمت ديموند وزملاؤها نتائج عدد من الدراسات التي توضح تأثير الإثراء على بنية المخ، وانتهت بهذه الدراسات إلى مجموعة من الحقائق الرائعة عن تأثير الخبرة على تكوين خلايا المخ، ومن ثم يكون التغيير في القدرات المعرفية التي يستطيعها الفرد. ولم تقتصر هذه النتائج على تجارب ديموند فقط، بل كان لأنزولد شيبيل وروديريك سيمونند دورهما في عمل ملاحظات مماثلة على مخ عدد من الأطفال الذين تعرضوا للوفاة بين عمر ثلاثة شهور وست سنوات. ولقد كشفت نتائج الدراسات عن حقائق تتصل بنمو الخلايا العصبية في المخ، وانقسامها وتفرعها بتقدم الوليد في العمر، وما يصاحبها من خبرات السمع، والرؤية، والتذوق، واللمس، ثم الكلام في نهاية العام الثاني. وجميعهم قد أشار بيد ثابتة نحو تأثير الخبرة على خلايا المخ، بدءاً من التعرض لها من أربعة أيام، أو أسبوع أو أسبوعين، أو شهر، أو أكثر بالطبع. ولقد استطاع "سيث بروكس" - أحد طلاب ديموند - التوصل إلى اكتشافه الرائع عن الجينات والإثراء، وكيف أن تغير الخلايا ونموها في المخ يرتبط بدورها بقدرات الذاكرة، والقدرة على التعلم؛ حيث تؤدي الإثارة المتكررة للمخ ليس إلى نمو الخلايا فحسب، بل إلى إفراز بروتين معين في الخلايا العصبية في المخ، يرتبط بتنشيط طويل المدى لقوى الكامنة، ومعنى ذلك أن التنبية المتكرر سوف يغير الخلية العصبية تغييراً مادياً فعلياً، يؤدى لإصدار استجابات تستمر لأسابيع أو سنوات (ديموند، ص 329).

وانطلاقاً مما سبق، يتجدد التأكيد على أن للخبرة دورها في نمو العقل، وإطلاق طاقاته المعرفية والإبداعية. وبناء عليه تقدم ديموند في مؤلفها خصائص البيئة الإثرائية للمخ، والتي لابد من وضعها في الاعتبار من قبل الوالدين، الذين يريدون لأطفالهم حياة ناجحة متميزة. ومن هذه الخصائص:

- أن تتضمن مصادر ثابتة للدعم العاطفي.

- توفير الغذاء الشامل الذي يحتوى على البروتين والفيتامينات والمعادن والسعرات الحرارية.
- أن تحتوى على المثيرات التي تستثير كل الحواس.
- الخلو من الضغوط.
- تقديم التحديات المعتدلة للعقول الصغيرة.
- تسمح بالتفاعل الاجتماعي في معظم الأنشطة.
- تسمح بنمو المهارات الجسمية والعقلية والاجتماعية والعاطفية والجمالية.
- تعطى الطفل فرصة للاختيار بين الأنشطة.
- تسمح للطفل بمعرفة نتائج تصرفاته، وتعديلها.

#### **الفطرة في مقابل الرعاية :Nature and Nurture**

بقدر ما تدعوا نتائج التجارب السابقة - لدیاموند، وغيرها من زملائها وطلابها على المخ والخلايا العصبية - إلى التفاؤل بخصوص مستقبل الأجيال، وإمكانية الوصول بإمكاناتهم العقلية إلى المدى الذي يتميزون به على غيرهم، بتوفير الإثراء البيئي للمخ، فإنها بنفس القدر تثير حولها التساؤلات التي تضع الوراثة في مقابل البيئة في التأثير على القدرات العقلية للأطفال.

ومن ثم، إلى أي مدى إذن يكون الفرق بين ما هو موروث، وما هو مكتسب؟ بمعنى آخر: إلى أي مدى نستطيع التحدث الآن عن وراثة القدرات العقلية للطفل؟ وأيهما أكثر أهمية، الوراثة أم البيئة في تكوين القدرات العقلية للطفل؟

إن طرح هذا التساؤل الآن يتم تحت ما يسمى *nature-nurture*، أي الفطرة في مقابل الرعاية. فمؤيدو جانب الفطرة يقولون بأهمية وراثة القدرة؛ إذ إن موتسارت قد ورث قدرته الموسيقية من والديه، فهي مسجلة في الجينات. بينما نجد أن أصحاب جانب الرعاية يدعون أن وجوده في بيئه غنية بالقدرات الموسيقية هو الذي ساعده على تعلم الموسيقى، حتى وهو داخل الرحم؛ مما أدى إلى نمو موهبته الموسيقية.

ويضيف روسيل متغيراً ثالثاً - بالإضافة إلى الوراثة والبيئة - يفسر به نمو المخ والقدرات المختلفة، ألا وهو التغيرات الدقيقة التي تحدث داخل كيمياء الخلايا أثناء انقسامها. ومما يدعم هذا الزعم الثالث، الشواهد التي سجلت على البكتيريا المتماثلة التي تغذت تحت ظروف متماثلة، ثم أظهرت اختلافاً في سلوكياتها. إذن، من الممكن أن تلعب العوامل المتشابهة دوراً في نمو الجنين داخل الرحم، لكن يظل الحوار الأساسي، الذي يدور حول البيئة في مقابل الفطرة الموروثة. وقد أجريت الأبحاث العديدة في هذا الصدد على التوائم المتماثلة *monozygotic twins*، في مقابل

التوائم غير المتماثلة dizygotic twins، حيث إن الأولى تعنى مماثلتها في الجينات، أما الثانية فلا تعنى هذا التماثل، إلى الحد الذي تتشابه فيه التوائم المتماثلة عن غير المتماثلة يكون تأثير الوراثة. وأشارت الدراسات السابقة إلى أن الوراثة تلعب دوراً مهماً في القدرات العقلية. أما الدراسات الحديثة فقد أثبتت أن البيئة أبعد أثراً مما تم افتراضه، ومعنى هذا أن هذه القضية مازالت بعيدة عن الجسم. غير أن ما كشفت عنه الدراسات من أن العوامل المختلفة التي كان يظن في الماضي أنها ليست ذات أهمية في نمو المخ، أصبحت الآن محل اهتمام الدراسات والأبحاث؛ لما تقوم به من دور مؤثر في النمو، أدى إلى إعادة النظر في المقولات الخاصة بالإثراء البيئي، ودوره في تفسير الفروق الفردية، وكونه الآن العامل الأساسي الذي يفسر وجود العبرية.

فقد أشار هيسب (Hebb) عام 1953 إلى أن السلوك يتحدد بالوراثة والبيئة معًا، ولقد أدهش هيسب جيلًا من العلماء بهذه النظرية التي تربط بين الفسيولوجيا وعلم النفس. ولقد نبعت إضافته هذه من رؤيته للمشكلات النفسية على أنها مشكلات فسيولوجية، وأن المشكلات الفسيولوجية هي مشكلات نفسية، وأن تحقيق التقدم الحقيقي العلمي يتطلب توجهاً في الدراسات غير تخصصي.

وينظر إلى التعلم دائمًا على أنه في جانب "الرعاية nurture"، والتعلم عادة ما يتناقض مع البيولوجيا (الفسيولوجيا والجينات). ويشير "هيسب" إلى أن هذه القسمة - إلى ما هو خاص بالفطرة، وما هو خاص بالرعاية - أمر لا يفيد، بل إنه في بعض الجوانب قد يكون مضللاً لحقيقة العلاقة بين الرعاية - الفطرة. ففي بعض موضوعات علم النفس، هناك علاقة وثيقة بين الفسيولوجيا والتعلم؛ باعتبارهما جانبين لعلم النفس العصبي. ويضرب لنا كور Philip J. Corr مثلاً على ذلك - لتوضيح هذه الرابطة بين ما هو فطري وما هو رعاية - أن التعلم متطلب للنمو؛ فالنظام البصري يتأق قبل حدوث الرؤية، لكن تطور الرؤية تتطلب التعرض للمثيرات البصرية، التي تدعم بدورها عملية التعلم. وبالنسبة للتعلم، لكي يكون ممكناً، فإن النظم العصبية لابد وأن تكون مرنة؛ وذلك حتى تكون قادرة على إنتاج التغيير قصير المدى وتطويل المدى في الكيمياء الحيوية، وبناء الأعصاب التي تمثل تغيراً كاملاً في رد فعل النظام (Corr, J.Philip, 2006,203).

وخلاصة ما سبق، أنه من أجل الفهم الصحيح للظواهر، يجب النظر إلى هذين الجانبين؛ الرعاية في مقابل الفطرة، باعتبارهما في علاقة أكثر من كونهما منفصلين. وقد يقدم الفصل الرابع الذي خصصناه لعملية التعلم بين القديم والحديث بعض الإيضاح الذي يضيف إلى طبيعة هذه العلاقة.

لكنه من الجدير بالذكر - ونحن في معرض علاقة الإثراء بنمو المخ - أن نذكر ما أشارت إليه بلاكمور من احتمال وجود التأثيرات الجانبية، التي يمكن أن تترتب على إثارة المخ في المراحل المبكرة. إذ تقابل بلاكمور بين تأثير ثراء البيئة واستثمارتها للمخ في مرحلة الطفولة المبكرة وبين الفيتامينات. فكما أن تناول القليل من الفيتامينات يقي ويكون فعالاً، إلا أن هناك دائمًا تحذيرات من اللجوء إليها في عدم وجود الحاجة إلى ذلك. وبتطبيق ذلك على فاعلية إثارة المخ،

فقد أثبتت الدراسات أن الحرمان من المثيرات قد يضر بنمو القدرات، لكن ما لم يُبحث هو: هل يمكن أن تكون الجرعات العالية من تنشيط المخ في السن الصغيرة ضارة للمخ؟ وإلى أي مدى؟ لاشك أن هذه القضية في حاجة إلى المزيد من الدراسة والبحث، فهل هناك قدر أمثل من الإثارة للمخ، قد يؤدي تجاوزه إلى عكس النتائج المرجوة منه؟ قد تكشف الدراسات المستقبلية عما يفيد في الإجابة عن هذا التساؤل (Blackmore , 2005, P 34).

### تجدد خلايا المخ:

هل تتجدد خلايا المخ؟ إن المعروف جيداً من خلايا المخ هو النيرونات، فالمخ البشري يحمل منها حوالي عشرة بلايين. هذا الرقم يشير إلى أن الخلايا نفسها دقيقة للغاية، وأن المخ معقد إلى درجة كبيرة. والنيرون الواحد في القشرة المخية يقوم بعمل أكثر من عشرة آلاف ارتباط مع الخلايا الأخرى، كما أن العدد الكلي للوصلات العصبية في المخ يقارب عشرة تريليون على الأقل (10,000,000,000,000).

وعلى عكس خلايا الجسم الأخرى، فإن الخلايا العصبية في المخ لا تتجدد، فكل عضو من أعضاء الجسم يموت فيه خلايا باستمرار ويحل محلها خلايا أخرى، أحياناً بعد أسبوع، وأحياناً بعد شهر، وبعضاً بعد سنوات، غير أن خلايا المخ التي نولد بها أو التي تتحدد بعملية الإخصاب تظل كما هي حتى نهاية العمر.

ورغم أنه من المعروف أن عدداً من الخلايا في المخ قد يبلغ الألف يومياً، فهو معروف أيضاً أنها لا تتجدد. غير أن الدراسات التي تدعم هذا القول قليلة، ونتائجها غير مؤكدة، حيث أجريت عشر دراسات على الحيوانات، وعشر دراسات على الإنسان. وفي الدراسات التي أجريت على الإنسان، أثبتت خمس منها أن الخلايا تقل مع التقدم في العمر، بينما أثبتت الدراسات الأخرى أن هذا لا يحدث. أما بالنسبة للدراسات على الحيوانات، فقد كشفت النتائج عن تناقض الخلايا مع التقدم في العمر. ولكن في تجارب أخرى، وباستخدام متغير وسيط هو نوعية البيئة؛ من حيث درجة الإثارة التي تمثلها - قارنت الدراسات بين العينات التي عاشت في عزلة وعينات أخرى عاشت في مجموعات، ومع مستوى سوى من الإثارة، كشفت النتائج عن أن التقدم في العمر مع وجود الإثارة لم يحدث فقداً في عدد الخلايا مع التقدم في العمر. فضلاً عن هذا، إذا كان الفاقد هو 1000 يومياً من عدد الخلايا، فإن ذلك يعني أن ما يمكن أن يفقده الإنسان البالغ من العمر 80 عاماً، هو تقريباً حوالي 29 مليون، وهو ما يمثل نسبة 1% من عدد النيرونات لدى الفرد، أي أن تأثيرها على القدرات العقلية للفرد لا يعني شيئاً. إذا أضفنا إلى ذلك أن الارتباطات بين النيرونات تتزايد أثناء حياة الفرد، فإننا نتوقع إذن نمواً مستمراً في القدرات العقلية أكثر مما نتوقع تدهوراً.

وفي تفسيره لحدوث الاختلافات في أبنية المخ في ارتباطها بالثراء البيئي، يذكر "كور" أن مخ العالم "ألبرت أينشتين" قد استثار رغبة الباحثين في معرفة المزيد عن مخ المبدعين والمتفوقين، ولحسن الحظ أمكن الاحتفاظ بهذا المخ بعد وفاته في 18 أبريل عام 1955 للبحث العلمي. ومع 1970، اقتفي أحد الصحفيين أثر نتائج دراسة هذا المخ، التي أسفرت عن كتابة ثلاثة مقالات سترعرض لها في حينها. وقد ذكرت ديموند - لاهتمامها بالخلايا العصبية - أنه في الوظائف العقلية العليا تكون خلايا الجاليا (النسيج الضام) "galia" أكبر في العدد، بالنسبة للخلايا العصبية. ولذلك افترضت أن مخ أينشتين قد يكشف عن كثافة في هذه الخلايا الداعمة. كما كشف التحليل أيضاً - لهذا المخ - عن أنه في بعض المناطق من مخ أينشتين، خاصة في منطقة الفص الصدغي الأيسر the left inferior parietal area، كانت هناك خلايا النسيج الضام الخاصة بكل خلية بكثافة. فهذه المنطقة من المخ هي منطقة ربط، وهي مسؤولة عن تحليل المعلومات. وتؤديإصابة هذه المنطقة إلى وجود عجز في مهارات الكتابة والحساب والتهجى، وبناء عليه يمكن تفسير تميز أينشتين الرياضى بالدعم الذى تتلقاه الخلايا العصبية فى المخ من خلايا الجاليا، بما أدى إلى تعزيز كفاءة سبل الخلايا العصبية، بالإضافة إلى أنه يجب اعتبار أهمية ثراء البيئة في هذا الصدد؛ حيث وجد أن الفئران التي نشأت في بيئة ثرية كان عدد خلايا النسيج الضام لديها لكل خلية عصبية كبيراً. وإذا أضفنا إلى ذلك تحليلات كل من أندرسون وهارفى Anderson & Harvey عام 1996، بعد دراستهما لدرجة الكثافة، وتعنى حجم الخلايا العصبية، وعددتها في القشرة المخية، وجدوا أن مخ أينشتين يزن 1.230، بينما يزن المخ العادى 1.400. ولم تكن القشرة المخية أكثر رقة فقط، بل كانت تميز بالكثافة، حيث كان هناك تركيز أعلى للخلايا العصبية في منطقة صغيرة (Corr,J. Phillippe ,2006,pp: 86:87).

وفي دراسة لاحقة قام بها ويتسون وهارفى على مخ أينشتين عام 1999، أوردا فيها المزيد من التحليل عن نتائج تshirey ذلك المخ، فقد توجها في التحليل إلى التحديد المكانى للوظائف المعرفية، وبصفة خاصة فإنه - بالتعامل مع التصوير ذى الأبعاد الثلاثية، والتعميل الرياضى للمفاهيم المجردة - كانت هناك عناصر معرفية مهمة وأساسية، خاصة بنمو نظرية أينشتين في النسبية. كما بدا مخ أينشتين مختلفاً في نوعية الأحداث؛ يمين ويسار الفصوص الجدارية (وهذه الفصوص قد تكون مهمة للقدرة الرياضية). كما كان المخ أكثر اتساعاً من المخ العادى، بنسبة 15%. ولعل هذا التشريح لمخ أينشتين يثير العديد من التساؤلات ، عن العلاقة بين بناء المخ وبين وظائفه، في حاجة إلى الكثير من الدراسات؛ للتأكد من ارتباط بناء المخ بالتميز في القدرات.

### النصفان الكرويان: الوظائف والفرق:

هل تختلف وظائف النصف الأيمن من المخ عن وظائف النصف الأيسر؟ ولماذا يبدو النصف الأيسر مسيطرًا؟  
هل يمكن استخدامهما بالتساوي؟ هل يستخدم المعسرون النصف الأيمن من المخ بدرجة أكبر؟ هل هناك فروق بين الذكور والإإناث في وظائف المخ؟

تدور هذه التساؤلات المرتبطة بالمخ في أذهان الجميع، وهي تكشف عن مدى التطلع إلى معرفة المزيد من الحقائق المرتبطة بالمخ، كما تكشف في الآن نفسه عن ضآلته ما نعرفه عن أسرار هذا العضو المهم. فحقيقة أن المخ ينقسم إلى نصفين؛ أيمن وأيسر، ليس بالاكتشاف الجديد؛ إذ إن ذلك متاح للعين المجردة عند فحص الجمجمة، كما أنه أيضًا من المعروف في مملكة الحيوان. لكن المدهش فيه هو أنه في الإنسان قد طور كل منهما وظائف خاصة به. فالنصف الأيسر قد يبدو متميّزًا في بعض الوظائف، بينما يتميّز النصف الأيمن في وظائف أخرى. ومن الفروق الواضحة بينهما أن النصف الأيسر يستقبل الإحساسات ويتحكم في النصف الأيمن من جسم الإنسان، والعكس صحيح. والسبب في هذا ما زال غير واضح؛ إذ إنه بالرغم من وجود النظريات، إلا أن هذا الأمر لا يعد ميزة خاصة بالمخ البشري، إذ وجد ذلك أيضًا في مخ الثدييات، وفي مخ بعض الفقاريات، كما لاحظ المصريون القدماء كذلك أن الإصابات في أحد جانبي المخ تؤثر على النصف المغایر من جسم الإنسان.

ومع بداية القرن العشرين كان معروفاً أن تدمير مناطق معينة في النصف الأيسر من المخ يؤدي إلى فقدان الكلام، وضعف القراءة، وtedhor عام في التفكير المنطقي، بينما التدمير في النصف الأيمن من المخ يؤدي إلى وجود التدهور في الوظائف البصرية والمكانية، مثل تمييز الوجه، أو القدرة على تقديم الذات. وقد تعزى هذه الفروق في تأثير كل منهما على سلوك الفرد إلى القول بغلبة تأثير النصف الأيسر وهيمنته على سلوك الإنسان. إلا أن النتائج الحديثة تجبر علماء النفس على إعادة النظر في هذا التصور؛ وذلك لسبعين، أولهما: قد وجد أن النصف الأيمن من المخ نشط ومهم، مثل النصف الأيسر، وثانيهما: أن كل نصف يشارك - إلى حد ما - في أنشطة النصف الآخر، مما يجعل من الصعوبة وضع حد فاصل بين الوظائف. فعلى الرغم من أن نصف القشرة المخية منفصلان، إلا أنهما متربطان من خلال حزمة من الأعصاب يطلق عليها الجسم الجاسي corpus callosum، تضم 200 مليون من الألياف العصبية . وقد حاول بعض الأطباء قطع هذه الأعصاب التي تربط بين النصفين في مرض الصرع، تحت زعم أن هذه الأعصاب إذا كانت مرتبطة بأحد النصفين، فإن النصف الآخر يستمر في أداء وظائفه بصورة عادية. وكشفت النتائج عن عدم وجود تأثير على أداء أي من النصفين لوظائفه، بل كان له تأثيره الإيجابي على علاج الصرع، وهو ما أدى بعلماء النفس إلى القول بأن مجموعة الأعصاب تلك هي فقط من أجل الدعم الفسيولوجي لنصف المخ.

أما الأبحاث التي تولت بعد ذلك على الحيوان، فقد أشارت إلى وجود اضطراب وظيفي نتج من العملية ككل، وهو ما جدد إعادة فحص الأمر على الإنسان. ففي الستيينيات، قام روجر سبيري Roger sperry بدراسات مكثفة على مرضى الصرع، الذين أزييلت لديهم رابطة الأعصاب السابق الإشارة إليها. وقد كشفت النتائج عن أن المريض إذا أعطى شيئاً في يده اليمنى، يستطيع أن يميز هذا

الشيء ويعرفه. أما إذا أعطى شيئاً في يده اليسرى فإنه لا يستطيع وصف هذا الشيء، بل يمكنه فقط أن يخمن. وفي تجارب أخرى على الفروق الوظيفية بين نصف المخ، باستخدام النشاط الكهربائي من النصف الأيمن واليسير من المخ، وجد أنه عندما يكون المخ في حالة استرخاء نسبياً، يميل إلى الكشف عن نغمات ألفا، وهي موجات من 8 - 10 دوائر في الثانية. وقارن أحد العلماء هذه الموجات على عدد من العمليات العقلية، ووجد أنه إذا أعطى الفرد مشكلة رياضية لحلها، فإن الموجات تتزايد في النصف الأيمن من المخ، مما يشير إلى أن هذا النصف كان في حالة استرخاء، بينما تقل في النصف الأيسر، مما يعني أن هذا النصف في حالة انتباه ويقظة. أما إذا طلب إلى الفرد أن يقوم بتوسيع الدوائر الملونة، فإنه وجد أن موجات ألفا تتزايد في النصف الأيسر، وتقل في النصف الأيمن، مما يعني أن الفرد يستخدم النصف الأيمن من المخ.

وفي تجارب أخرى ثبت أن النصف الأيمن يستخدم بصورة أفضل في إدراك العمق، وفي تذوق الموسيقى، وفي تمييز الوجوه. وفي دراسة حديثة قام بها "لينج وزملاؤه": لاختبار قدرة النصف الأيمن من المخ على التذكر طويل المدى للصور، استعان بعينة من ستة وثلاثين مشاركاً من الذكور والإثاث، من ذوي استخدام اليد اليمنى، بمتوسط عمر خمس وعشرين عاماً. وتكونت الأداة من مجموعة كبيرة من الصور الملونة، وتضم موضوعات كثيرة، بين صور للحيوانات، وأخرى لوجوه البشر، ومناظر طبيعية. وكشفت النتائج عن تمييز العينة في تذكر الصور التي تم التعرف عليها باستخدام النصف الأيمن من المخ. كذلك أشارت النتائج إلى تفاوت درجة التعرف لدى الأفراد تبعاً لنوعية الصور المستخدمة؛ حيث كانت صور الوجوه والحيوانات هي الأكثر سهولة في التعرف، أما صور المناظر الطبيعية والرسوم التشكيلية فقد كانت أكثرها صعوبة. وخلصت التجربة إلى تأكيد قدرة النصف الأيمن من المخ على اختزان الصور على المدى الطويل بدرجة تفوق قدرة النصف الأيسر.

وكشفت الدراسات أيضاً عن حساسية النصف الأيمن من المخ للمخاطرة، الأمر الذي قد يتربّط عليه ابتعاد الأفراد الذين تزيد لديهم أنشطة النصف الأيمن من المخ، عن الأعمال التي تتضمن مخاطرة. وكان الباحثون يعمدون إلى تحديد أي الأيدي يستخدمها الإنسان - بصفة أساسية - لتحديد أي أنشطة المخ يعتمد عليها. لذلك استعان ستيفين كريستمان Stephen Christman وزملاؤه بعینتين من الشباب، إحداهما تعتمد على اليد اليمنى اعتماداً أساسياً في الأنشطة المختلفة، أما العينة الثانية فهي تستخدم اليدين معاً. وقد كان الفرض في هذه الدراسة أن الذين يستخدمون اليدين معاً يكونون أكثر مخاطرة من الذين يستخدمون اليد اليمنى. وعرضت على العینتين أداة تتضمن مجموعة من الأعمال التي تتميز بالمخاطر، وطلب إليهم أن يحددوا درجة المخاطرة المدركة في هذه الأعمال، ومليهم للاشراك فيها. وقد أسفرت النتائج عما يؤكّد حساسية

النصف الأيمن من المخ للمخاطرة. فالأفراد الذين تزايد لديهم أنشطة النصف الأيمن من المخ، أقل ميلاً للمخاطرة من الذين يستخدمون اليد اليسرى أو اليدين معاً بكفاءة.

كما كانت هناك الدراسات التي عنيت بدراسة مدى هيمنة النصف الأيمن على تفعيل الانفعالات السلبية اللاشعورية لدى الفرد. ونظرًا لوجود بعض الفروق التshireحية بين الذكور والإثاث في حجم الجسم الجاسئ، بالقياس إلى بقية المخ؛ إذ يكون أصغر في الذكور عنه لدى الإناث، كما توجد ألياف بدرجة أكبر في ملتقى الوصلات العصبية الأمامية لدى الإناث عنه لدى الذكور - لذلك فقد توقع الباحثون أن يكشف الذكور عن عدم تنظيمية hemispheric asymmetry في تعامل نصف المخ مع العمليات الانفعالية اللاشعورية بوضوح يفوق الإناث؛ لذلك اقتصرت العينة على الذكور دون الإناث، كما اقتصرت المثيرات على استخدام تعبيرات الوجه فقط، وقد كشفت النتائج عن هيمنة النصف الأيمن من المخ على عمليات الانفعالات السلبية اللاشعورية.

غير أن علماء الأعصاب حديثاً جدًا، يؤكدون على تضاد النصفين معاً في الأعمال العقلية، وذلك عن طريق مجموعة الأعصاب التي تربط بينهما. وزعموا أن دراسة وظائف نصف المخ لابد وأن تكون على مرضى المخ المنقسم split-brain patients، بفعل إزالة مجموعة الأعصاب التي تربط بينهما في عمليات الصرع مثلاً، أو في حالة إصابة هذا الجزء؛ حيث إنه في هذه الحالة ينقسم المخ فعلاً إلى جزئين مستقلين. ورغم نجاح هذه العملية في خفض نوبات الصرع، إلا أنها لا تجرى حالياً لأنها إجراء يتسم بالقسوة. وقد كشفت الدراسات على هؤلاء المرضى عن الكثير من المعلومات عن دور كل من النصفين في المخ (Blakemore, 2005, 58).

**لكن ماذا عن هيمنة النصف الأيسر من المخ على وظائف الإنسان؟:**

ساد الاعتقاد بأن الكلام واللغة من الوظائف التي ارتبطت بالنصف الأيسر من المخ - وخاصة منطقة بروكا - فترة ليست بالقصيرة، غير أن التجارب الحديثة قد كشفت عن قدرة النصف الأيمن أيضًا على تطوير قدرات لفظية؛ إذ إن تدمير الفص الأيمن من المخ لا يعني توقف اللغة تماماً، فبعض المرضى الذين دمر لديهم النصف الأيمن من المخ واجهوا صعوبات في القراءة والكتابة، وأحياناً في استخدام القواعد، لكنهم لم يفقدوا اللغة تماماً. ومن خلال بعض التجارب التي أجريت على النصف الأيمن من المخ أسفرت جميعها عن أن هذا النصف يستطيع فهم اللغة، والتعرف على الأشياء التي توصف له.

ولكن قد تكون فكرة الهيمنة قد أدت من الوظائف العقلية التي تحتل مكانة أكبر في المجتمعات. فنحن نهتم بالتفكير المنطقي، وقدرة الفرد على التعبير عن نفسه لفظياً، والقراءة الجيدة، والتميز في التفكير التحليلي بصفة عامة، بينما نضع تركيزاً أقل على القدرة المكانية، والتذوق الفني، والعمليات



الإبداعية، والتفكير الحدسي، وهي القدرات التي ارتبطت في الغالب بالنصف الأيمن. وهو الأمر الذي انعكس، وما زال على التعليم في المدارس، حيث غالبية الاهتمام نحو القراءة والكتابة والحساب، وهي من وظائف النصف الأيسر من المخ. أما الأنشطة الأخرى؛ كالرسم، والموسيقى وغيرها - إن وجدت - فهي من قبيل الرفاهية، حيث لا توضع درجاتها في الاعتبار، ولا تحظى بالاهتمام الكاف في توزيع ساعات الدراسة، أو متابعة المتميزة فيها ودعمها.

ومن ثم قد تكون هذه التربية في المدارس - التي تهتم بالتفكير التحليلي analytical thinking أكثر من التفكير التكعيبي synthesis thinking - هي التي أدت إلى القول بهيمنة النصف الأيسر من المخ. هذا فضلاً عن الضرر الذي لحق بالأطفال ذوي التميز في قدرات النصف الأيمن من المخ، حيث كانوا يصنفون باعتبارهم متاخرين، أو غير عاديين. ففي دراسة في جامعة هيوستن، كشفت الدراسة عن أن غالبية الأطفال الذين صنفوا على أنهم مختلفين عقلياً، كشفوا عن قدرات فنية متميزة أو عادية.

وقد كشفت الدراسات عن أن التحسن في قدرات النصف الأيمن من المخ، يؤدي إلى تحسن في قدرات النصف الأيسر. ففي تجربة قامت فيها مدارس ميد Mead في مقاطعة كونيكتكت بأمريكا، بزيادة المساحة الزمنية المخصصة لتدريس موضوعات الفن والموسيقى، أسفرت في نهاية التجربة عن تحسن ملحوظ في نتائج التلاميذ في موضوعات الرياضة والعلوم أيضاً. ولقد كررت بعض المدارس التجربة، وجاءت النتائج لتأكيد تأثير النصف الأيسر بالتحسين الذي يطرأ على النصف الأيمن. وخلاصة هذا أن كلاهما يتآثر بالآخر، فكلابهما لا يعمل بمفردهما، بل يدعمان بعضهما البعض. وهذه حقيقة لابد وأن تؤخذ في الاعتبار جيداً في النظام التعليمي؛ حتى يتم الاستفادة إلى أقصى درجة من إمكانات المخ. ولعل الأمثلة على العلماء الذين توصلوا إلى أشهر النظريات في المجالات المختلفة؛ لتؤكد استخدامهم لقدرات المخ كاملة بالنصفين معًا. فكما يذكر التراث أن أينشتين ذلك العالم المتميز بنظرية النسبية، قد يتبداء إلى الذهن أنه توصل إليها بالتفكير المنطقي واستخدام الأرقام والعمليات الحسابية فقط، لكن الحقيقة أنه لو لولا قدرة هذا العالم على استخدام التخيل في تصور مسار الضوء لما توصل إلى نظرية النسبية، فقد ولدت هذه النظرية ذات يوم بعد الظهيرة حينما كان أينشتين يرقد تحت أشعة الشمس، يتبع مسار الشعاع، ويتخيل ماذا لو استطاع أن يسافر على هذا الشعاع، وفجأة تبين جوهر الأمر، وهو الذي كون قلب النظرية النسبية الذي قدمها للعالم، وعبر عنها بالمعادلات والرموز الرياضية، واستخدم فيها التفكير التحليلي.

ومعنى هذا أنه لابد من تفعيل نصف المخ معًا؛ حيث إن ذلك يؤدي إلى الأداء المتكامل الذي لا يمكن الوصول إليه بتفعيل قدرات أحد النصفين وتجاهل قدرات النصف الآخر. والاطلاع على حياة العلماء المتميزين يكشف بوضوح عن تعدد قدراتهم، وتعدد مجالات اهتمامهم، مما يؤكد

استخدامهم لقدرات نصف المخ معاً. فعلى سبيل المثال، كان الفنان ليوناردو دافنشي بارعاً في الهندسة، وفي فن النحت، وفي الفن التشكيلي، والأمثلة على ذلك كثيرة تكشف عنها حياة العلماء.

وقد يرتبط بحدث الهيمنة للنصف الأيسر من المخ، هيمنة النصف الأيمن من المخ لدى الأفراد المعاصرین (يستخدمون اليد اليسرى بدلاً من اليمنى في غالبية أعمالهم)، فهل حقيقة أن الأمر كذلك؟

كشفت نتائج الدراسات عن أن اختلاف الأفراد في استخدامهم يداً محددة، لا يعني اختلافاً في هيمنة أي من نصف المخ؛ فغالبية الأفراد يستخدمون اليد اليسرى دون أن يعني ذلك هيمنة النصف الأيسر من المخ، كذلك فإن دراسة الأفراد ذوي التميز في استخدام قدرات النصف الأيمن من المخ، لم يرتبط لديهم ذلك باستخدامهم لليد اليسرى. كما أن الدراسات على عينة من الأفراد الذين انعكست لديهم قدرات النصفين في المخ، تميزت لديهم القدرات اللغوية في النصف الأيسر من المخ، لكن ذلك لم يكن مصحوباً لديهم باستخدام اليد اليسرى. لكن يظل غير معروف إلى الآن لماذا يستخدم البعض اليد اليسرى بكفاءة أكثر، ويستخدم البعض الآخر اليد اليمنى بكفاءة أكبر؛ لكن المهم في هذا الأمر أن ذلك لم يصاحبه تغير في وظائف نصف المخ.

#### الفرق النوعية ووظائف المخ:

لقد درجت الأبحاث - بصفة عامة - على فحص الفروق بين الذكور والإناث على الظواهر المختلفة، و لاشك أن القدرات العقلية من أكثر هذه الظواهر مداعاة لتناولها في ضوء الفروق الجنسية.

أشارت دراسات النمو من قبل إلى وجود فروق بين الجنسين في بعض القدرات، فقد وجد أن الذكور في المدارس يسجلون درجات أعلى في القدرات المكانية، بينما يسجل الإناث درجات أعلى في القدرات اللفظية. كما كشفت الدراسات أيضاً أن الإناث يبادرن ببنط الكلمات مبكراً عن الذكور، وخلال الأعوام الأولى من عمرهاهن يسجلن حصيلة من الكلمات أعلى مما يفعل الذكور. وإذا كان الذكور قد سجلوا الدرجة الأعلى على القدرة المكانية، فإنه يتحدد لديهم في النصف الأيمن من سن السادسة من عمرهم، إلا أن الإناث قد يظل لديهن التداخل بين نصفي المخ حتى سن الثالثة عشر. فهل هذه فروق فطرية بين الجنسين؟ أم هي فروق تعزى إلى الثقافة في تعاملها مع الذكور والإناث؟ هذا أمر مازال مطروحاً للدراسة والبحث.

لكن هناك من الشواهد والاستنتاجات التي يمكن أن تدل على بعض الفروق بين الذكور والإناث. من هذه الشواهد أن صعوبات القراءة لدى الإناث تمثل السادس فقط؛ مما يفسره العلماء بقدرة مخ الإناث على الاحتفاظ بقدر أكبر من المرونة والقدرة على التعويض. وتظل هذه القدرة مع استمرار الحياة، فقد لوحظ أن الرجال الذين يصاب لديهم النصف الأيسر من المخ، يعانون من تدهور كبير في وظائف اللغة أكثر مما يحدث لدى الإناث. أما عند الإناث فإنه قد يصعب تحديد

مكان الإصابة بدقة، مما يدل على تداخل وظائف نصف المخ. كما كشف النشاط الكهربائي في المخ عن أن الرجال يميلون إلى أنهم يملكون استجابة أقل نحو المثيرات، مثل الضوء والصوت، كما أنهم - بصفة عامة - أقل حساسية للحرارة المرتفعة، وأكثر حساسية للبرودة المرتفعة. كما أن الذكور يتميزون في مهارات متعددة، مثل إدراك عمق المساحات، وهي القدرة التي يجعلهم يحققون تفوقاً في القدرة الميكانيكية. كما أن تفوق الذكور في الرياضيات - خاصة في الهندسة وهندسة المثلثات - يدعم القول بتفوقهم في القدرات المكانية. أما الإناث فهن أكثر حساسية للمس أي جزء من أجزاء الجسم، ولديهن قدرة عالية على السمع، وأقل تحملًا للأصوات العالية، ولديهن قدرة جيدة على الرؤية ليلاً، كما أن الدراسات وأشارت إلى تفوقهن في القدرات اللغوية، وفي التأثير الحراري، ثم في سرعة المعلومات، خاصة الأعمال التي تتطلب اختياراً. كما أنهن يكشفن في طفولتهن عن حساسية للأصوات ومعناها الانفعالي، وأكثر سرعة في الاستجابة للمثيرات الاجتماعية وأكثر تعاطفاً.

ولكن يظل الأمر في حاجة إلى مزيد من الأبحاث التي تكشف دور البيئة ومثيراتها الاجتماعية في خلق هذه الفروق، كما تلقى الضوء على ما هو فطري، توارثه الأجيال، بغض النظر عن اختلاف المجتمعات. وقد يقول قائل إننا قد تجاوزنا أمر المقارنة بين الذكور والإإناث، على أن نتعامل معهما من منطلق الإنسان بصفة عامة؛ مما يعني أن في هذه الدعوة ردة إلى مرحلة تم تجاوزها، غير أن الدعوة الآن إلى الاهتمام بهذه الدراسات، بغرض تفعيل القدرات لكلا الجنسين إلى أقصى درجة ممكنة، فالمجتمع في حاجة إلى الجنسين معًا، كما أنه في حاجة إلى العمل المتكامل لنصف المخ؛ من أجل تحقيق التميز.

### كيف يسجل المخ خبرات الفرد؟

يعد أفالاطون من أوائل من اهتموا بدراسة الذاكرة في القرن الرابع قبل الميلاد، ولقد افترض ما يعرف بقرص الشمع wax tablet ووفقاً لنظريته فإن الانطباعات تسجل في العقل، كما تحفر الخطوط في الشمع باستخدام إحدى الأدوات. ومع الوقت تضعف هذه التأثيرات تاركة بعض الآثار الواهنة التي تدل عليها، وهو ما فسر به أفالاطون عملية النسيان. ومنذ أفالاطون توالى الافتراضات التي تفسر عملية حفظ المعلومات والخبرات في العقل.

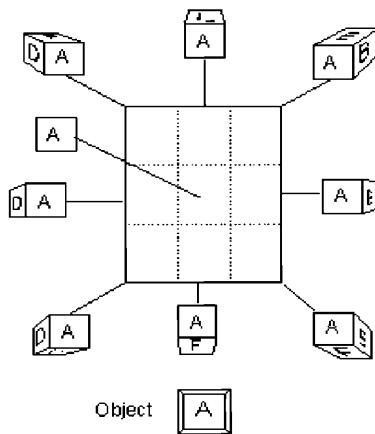
في العصر الراهن، تأثرت نظريات الذاكرة - في المقام الأول - بفكرة انعكاس القوس القشرى cortical reflex arc؛ إذ وفقاً لهذه النظرية، فكل أثر للذاكرة يتكون من ممر خاص بين النيرونات، كما أن الذكريات الجديدة يتم إرسائها، باعتبارها ارتباطات جديدة بين النيرونات. ومنذ ذلك الوقت، تم إدراك أن المخ لا يعمل كما تعمل آلة تغيير التلفونات المعقدة - كما تفترض نظرية انعكاس القوس القشرى ، ولا أن النيرونات تقوم بعمل ارتباطات لا نهاية جديدة مع كل تكوين ذاكرة جديدة. لكن النظريات الحديثة الآن تقترح أن اكتساب كل ذاكرة جديدة يرتبط بالكاف

والتسهيلات في الوصلات العصبية في المخ. فالذاكرة المتخصصة لا ينظر إليها الآن بارتباط مقرها بالوصلات العصبية، أو الممرات خاصة، ولكن ترتبط بنمط التغيرات الكيميائية والكهربية في المخ ككل. ويوضح هذا الأمر شرح الأساس الجزيئي في المخ، ومبدأ التصوير الوضعي التام للذاكرة، وهو ما نوضحه فيما يلي:

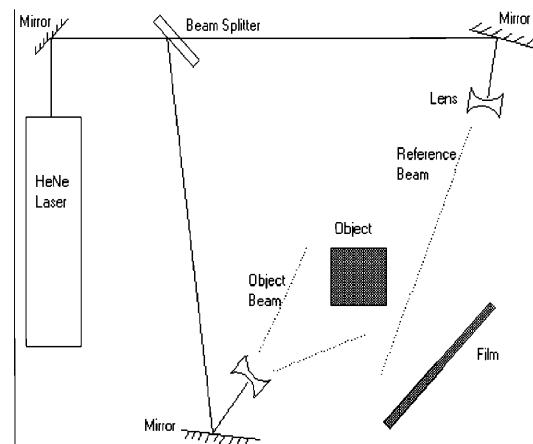
### نظريّة الهولوغرافيك (holographic) للعقل:

إن أول من استخدم كلمة **hologram** هو دينيس جابور Denis Gabor؛ لوصف عملية جديدة في التصوير، وحصل على جائزة نobel عليها عام 1971. ففي التصوير العادي، تخزن المعرفة البصرية، باعتبارها تمثيلاً مباشراً للصورة، حيث يمثل كل جزء من الصورة جزءاً من الشيء الذي تم تصويره. أما في طريقة **الـ (hologram)**، فإن صورة الشيء تخزن في كل نقطة من نقاط الصورة؛ إذ إن عدسة التصوير photographic plate تلتقط كل الأشعة الصادرة عن الشيء، ومن ثم فإن الكلمة **(holography)** تأتي من الكلمة اليونانية **(holos)**، وتعني الكل (whole).

ولقد طور جابور هذه الطريقة كوسيلة لتحسين الوضوحية في الصور التي تؤخذ باستخدام الميكروскоп الإلكتروني. ولم تجد هذه الطريقة المجال الأوسع لاستخدامها إلا بعد اكتشاف أشعة الليزر. والشكل التالي يوضح الفرق بين التصوير الفوتوغرافي العادي وبين التصوير الكل.



التصوير الكل



التصوير الفوتوغرافي

الشكل من رسيل

(Russel,P.,1990,P.152)

## فهل الذاكرة يتم تسجيلها بالطريقة الوضعية الكلية؟:

أشارت الأبحاث والدراسات على ذاكرة بعض الكائنات، بعد إزالة أجزاء من المخ، أن الذاكرة قد تصل إلى الاضطراب الشديد، لكنها لا تخفي تماماً. فقد قام كارل بريبرام k.Pribram من كلية الطب، جامعة ستانفورد، بمحاولة اختبار هذا الفرض على الذاكرة، والتوصيل إلى ما يكشف عن أن الذاكرة تسجل عبر خلايا المخ، كما في حالة التصوير الكلي، ولا تخزن في شبكة محددة من النيرونات، أو وصلات عصبية محددة. وقد خلص من تجاربها إلى أن الذاكرة تخزن عبر خلايا المخ، وليس في مكان بعينه من المخ. وكان تفسيره لهذا الأمر أن المناطق المختلفة في المخ ترتبط بآلاف من الممرات المترادفة التي تمثل أساساً للمكافئ العصبي للنشاط. وبما أن نمط النشاط الكهربائي يساندتها بالتغييرات الكيميائية، فإن الخبرة يتم تسجيلها بصفة دائمة. والخبرة الواحدة يتم تسجيلها كنمط من التغييرات الكيميائية عبر ترليونات من خلايا الوصلات العصبية والنسيج الضام، وتكون كل خلية من خلايا الوصلات العصبية مشتركة في بلايين الذكريات المختلفة، وهو ما يمثل التصوير الكلي الذي أشرنا إليه، فقد وجدت الظاهرة ذاتها في التصوير الكلي حيث تخزن الصورة في كل الشريحة، وكل شريحة من الشريحة تضم المعلومات الكلية عن الصورة، وتبدو الاختلافات فقط في التفاصيل التي تقدمها الشريحة حسب حجمها؛ فالصورة الكلية تتواجد، غير أن الاختلاف يكون في درجة الوضوح والتفاصيل.

ولقد أدى هذا إلى المقارنة بين الذاكرة البشرية وبين ذاكرة الحاسب الآلي، حيث يمكن أن تتعرض ذاكرة الحاسب الآلي للانهيار الكلي نتيجة تغيير إحدى التوصيات أو المكونات؛ ولذلك قد يتغير المحتوى الكلي تماماً أو ينهار، على عكس الذاكرة البشرية وظاهره التسجيل الكلي، التي تقاوم الانهيار الكلي. وهو ما سيتم تناوله بالتفصيل عند التعرض لاضطرابات الذاكرة.

كما وأشارت التجارب أيضاً إلى أنه - بطريقة التصوير الكلي - يمكن تسجيل عدد من الصور المختلفة، وذلك بتغيير الزاوية والترددات دون حدوث تداخل بين صورة وأخرى، وهو ما يمثل ما يحدث في المخ، حيث يمكنه تخزين ملايين الصور دون تداخل بين واحدة وأخرى (Russel,P., 1990,139-160).

## قدرة المخ على التكيف:

من الأقوال الخاطئة الشائعة، والتي يرددتها الغالبية أن القدرات العقلية تضعف بتقدم الإنسان في العمر بعد سن العشرين؛ إذ بينما تتميز القدرات العقلية بنمو مستمر من الطفولة حتى فترة الشباب، فإنها تتدحرج أثناء فترة النضج. غير أن الدراسات المختلفة لم تثبت خطأ هذا القول فقط، بل أفادت أن قدرات الفرد العقلية تظل في الزيادة خلال مراحل الحياة المختلفة، وقد تبدأ في التدهور بعد سن الستين، وقد لا يحدث هذا.

ويقف وراء هذا الزعم الخاطئ عدد من الأسباب عرض لها التراث، وتصدى البعض للرد عليها، منها:

- أن عدد النيرونات يتناقص بصفة ثابتة ولایتم تعويضه، كما سبق وأن أوضحتنا هذا من قبل: غير أنه يمكن الرد على هذا بأن هذا النقصان لا يعني تدهور القدرات العقلية؛ لما يلي:

1- أن المخ يحتوى على من 10-12 بليون من الخلايا، وحتى إذا كان المخ يفقد ألفاً من هذه النيرونات يومياً منذ الميلاد، فإن ذلك يعني أن يفقد المخ ما يقرب من 29 مليون طوال حياة الفرد حتى سن الثمانين، بما يمثل 1% مما يحتوى عليه المخ من الخلايا. فهل تحدث هذه النسبة تدهوراً في القدرات العقلية؟!

2- عندما يتعرض المخ لإصابة تؤدي إلى تدهور المخ سريعاً، فإن القدرات المرتبطة بالجزء المصاب تحتاج إلى فترة حتى يتم تدميرها، أو بالتطبيق على ما يفقده المخ من خلايا، يعني أن فقد نسبة 1% من خلايا المخ على مدى العمر لا يعني شيئاً في تدهور القدرات العقلية.

3- في ضوء الحديث عن قدرة المخ على التعويض، وتكامل عمل النصفين، فإنه يمكن للمخ تعويض عمل هذه الخلايا، هذا فضلاً عن أن هذا فقد التدريجي البطيء لهذه الخلايا لا يجعلها مركزة في منطقة بعينها؛ الأمر الذي لا يجعل من فقدان هذه الخلايا أمراً ذا بال في التأثير على القدرات العقلية للمخ.

أما الباحثون الذين انساقوا وراء هذا الزعم الخاطئ، فقد اعتمدوا على نتائج المقارنات بين عينات الشباب، في مقابل عينات كبار السن على تطور نمو التعليم عبر السن. غير أن المقارنات هنا تخص القدرة على التعلم، وليس القدرات العقلية عامه. ذلك أنه عندما أجري علماء النفس دراساتهم الطولية على أفراد بعينهم على فترات من حياتهم، خلصوا إلى أنه عندأخذ معدل الذكاء في الاعتبار، لم يكن هناك تدهور مع التقدم في العمر، فقد ظلت معدلات الذكاء لديهم كما هي حتى سن السبعين، غير أن التدهور الذي تم ملاحظته لديهم كان بعد سن الستين، إذ كانوا أقل أداء في المهارات التي تتطلب تآزر حركة عضلية مع توظيف عقلي. وفي الحالات التي لوحظ فيها تدهور في الذكاء أو في القدرات العقلية الأخرى، كان السبب يكمن في المرض، أو سوء التوظيف الفسيولوجي، ولم يكن تدهوراً في المخ ذاته.

فكما أشار المتخصصون إلى أهمية الأكسجين وضرورته لوظائف المخ؛ إذ على الرغم من أن المخ يمثل 2% من وزن الجسم - إلا أنه يستهلك 25% من الأكسجين الداخل إلى الجسم، فإذا نقصت هذه النسبة، تعانى وظائف المخ. أما إذا منع المخ من الحصول على الأكسجين أكثر من 2 - 3 دقائق، فإن المخ يبدأ في تدهور يتعدى إلغاؤه أو إيقافه. ومع تقدم الإنسان في العمر، فإن الشرايين الوالصلة إلى الرأس وإلى القلب، قد تضيق بفعل بعض العوامل، مثل الدهون التي تترسب على جدران

الشريين من الداخل. في إحدى الدراسات وجد أن الأفراد بين الخمسين والثمانين، كان في المتوسط ما يقرب من 50% لديهم انسداد في الشريين التي تغذى المخ، ولاشك أن ذلك من شأنه أن يؤثر على الوظائف العقلية، وعندما أزيلت هذه الدهون من الشريين، زادت نسبة الذكاء لديهم بوضوح، حوالى 4,6 درجة في القياس اللغظي، و 12 درجة في تنظيم الإدراك ، كما أشار قياس الشخصية لديهم عن انخفاض ملحوظ في القلق، والضغط، والشعور بالعصبية. إذن قد يكون نقص الأكسجين الواصل إلى المخ من عوامل تدهور القدرات العقلية؛ ولذلك يظل وارداً ضرورة اختبار هذه القضية، هل هو التقدم في العمر، أم أنه ضعف كمية الأكسجين التي تغذى المخ هو المسئول عن تدهور القدرات العقلية لدى الفرد؟

كما أن ارتفاع ضغط الدم لدى الفرد قد يمثل أحد العوامل التي تؤدي إلى نقص الأكسجين الذي يغذى المخ، وبالتالي يؤدي إلى نقصان القدرات العقلية. في جامعة ديووك، درست مجموعة من كبار السن على مدى عشر سنوات من سن الستينيات وحتى سن الثامنة والسبعين، وكان يطبق عليهم بعض الاختبارات النفسية والفيسيولوجية كل عامين ونصف، بما فيها قياس ضغط الدم. وقد وجد أن الأفراد ذوي ضغط الدم المرتفع قد عانوا من فقد كبير في القدرات العقلية، أما ذويو ضغط الدم العادي لم يكشفوا عن تدهور في القدرات العقلية.

#### استعادة المخ لكتفاته :recovery of the brain

أشرنا فيما سبق إلى قدرة المخ على التكيف بصورة واضحة خلال العاشرين الأول والثاني من حياة الطفل، وإذا ما أصيب جزء من المخ، أو أزيل، فإن المناطق الأخرى في المخ تعوض وظائف الجزء المصابة، ويمكن أن ينمو الطفل دون اضطراب ملحوظ. وهناك من الشواهد الكثيرة على الأطفال الذين ولدوا بنصف واحد من نصف المخ، أو الذين أزيل لديهم أحد نصفي المخ لأسباب طبية بعد الولادة. في هذه الحالات وجد أن النصف المتواجد من المخ يحل محل النصف الغائب من المخ، ويقوم بوظائفه. فقد يولد بعض الأطفال بدون وجود الجسم الجاسي الذي يربط بين نصفي المخ، وهي الظاهرة التي تعرف بتأخر النمو أو العنة agenesis، إلا أن الغالبية من هؤلاء الأطفال يشبون بصورة طبيعية دون تدهور في الوظائف. معنى ذلك أن المخ يستطيع أن يعوض فقد الألياف العصبية، وذلك عن طريق إعادة عمل جذور التوصيات بين النصف الأيمن والنصف الأيسر، من خلال طرق أخرى أكثر عمقاً في المخ. وقد عرف هذا التأثير لفترة طويلة، وقد يقوم الدليل عليه من استمرارية المخ في النمو، وقدرته على التوافق مع أي تدهور في بنائه. غير أن ذلك كان يتضمن أيضاً أنه إذا حدث هذا الأمر في سن الرابعة أو الخامسة من العمر، فإنه من المحتمل ألا يكون التعويض كاملاً، لكن الآن يتعدد القول بإمكانية مرونة المخ، وقدرته على إعادة التوافق والتعويض، ومع تزويده بالإثراء المطلوب والإثارة المتغيرة يمكن أن يستمر في النمو والتطور مدى الحياة.

وهنالك أمثلة عديدة على أفراد تعرضوا لإصابات في المخ أدت إلى تدمير شديد في بعض الأجزاء، وعانوا من نقص الكفاءة بدرجة واضحة، إلا أنه مع استعادة كفاءة المخ والتعويض، أمكن استعادة كفاءة القدرات كما كانت قبل الإصابة. ففي حالة كان العالم الروسي لوريما يتبعها، وهي حالة أحد الجنود الذين تعرضوا لجرح شديد في الرأس، أدى إلى معاناته من اضطراب الرؤية، وفقدان الذاكرة، وفقدان القدرة على الكتابة والقراءة والكلام. وعكف الرجل على تدريب نفسه من البدايات الأولى للقراءة والكتابة، ومن خلال التدريب المستمر والحفظ، علم نفسه أن يفهم، وأن يسترجع المعلومات، ثم أن يتكلم، ويقرأ ثم يكتب، وقد فعل كل ذلك بدون وجود جزء كبير من المخ، وفي فترة عمرية كان يظن فيها أن المخ قد استقرت وظائفه، لكنه من الثابت أنه كلما كان التدريب ثالثاً للإصابة دون تأخير كلما كانت النتائج أكثر إيجابية.

وحدير بالذكر هنا أن إصابة المخ وتدمير وظائفه ترتبط بحجم الإصابة، فقد تكون الإصابات الصغيرة المتعددة أقل أثراً من الإصابة الواحدة الكبيرة؛ فالإصابات الصغيرة مع تعددتها قد تؤدي إلى تهتك في أنسجة المخ، لكنها لا تؤدي إلى إعاقة توظيفه. فمثلاً إصابة النصف الأيسر من المخ قد لا تؤدي إلى إعاقة الوظائف اللغوية إذا حدثت الإصابة بصورة بطيئة وتدريجية. ففي دراسة على أحد القردة، أزيل الجزء الخاص بالحركة بصورة تدريجية وعلى أجزاء، وبعد إزالة كل جزء، كان القرد يخضع لتدريب مكثف في المشي، الأمر الذي أدى إلى استمرار القرد في المشي رغم إزالة الجزء الخاص بذلك من المخ.

ويمكن ملاحظة نتائج هذا الأمر بوضوح في الإنسان، وذلك من خلال المرضى، خاصة من أصيبوا منهم بالجلطة المخية، التي يترب عليها أن يكون المريض فاقداً للحركة تماماً. في الماضي كان ما يمكن فعله مع هؤلاء قليل للغاية، أما الآن فإن هؤلاء المصابين يشجعون تشجيعاً قوياً على الحركة، وتحريك أطرافهم، ويتعرضون لتدريب مكثف على الكلام؛ لمساعدتهم على استعادة قدراتهم اللغوية، وكلما بكرنا بالتدريبات والتدخل لإعادة كفاءة الفرد ووظائفه، كلما كانت النتائج أكثر إيجابية.

ولقد ساعد هذا الأمر على تعويض الأطفال الذين تعرضوا لإصابات في المخ، ففي مركز تنمية الإمكانيات البشرية في فيلادلفيا، قام الباحثان جيلين دومان Glen Doman وكارل ديليكتلوتو Carl Delicato فيه بتأهيل الأطفال الذين تعرضوا لإصابات في المخ أدت إلى إعاقتهم الجسمية. ومع والدى أحد الأطفال المصاب بالشلل النصفي تقريباً، كان الهدف هو تدريب الوالدين على كيفية التعامل مع الأطراف، بحيث يتعلم المخ بطريقة أفضل أن يتعامل معها. ونتيجة لهذا، فإن غالبية هؤلاء الأطفال قد تعلموا المشي والحبس، أما الآخرون الذين أصيبوا بالخرس نتيجة الإصابة، فقد بدأوا في الكلام. وفي حالات عديدة ارتفعت درجات الذكاء لديهم بدرجة كبيرة. وفي حالة واحدة فقد الطفل فيها كل نصف المخ، استطاع أن ينمو ويصل إلى معدل النمو العادي لدى أقرانه.

وخلص دومان Doman من هذا إلى أنه إذا كانت النتائج على هذا النحو مع الأطفال ذوي الإصابات المخية، فإن ذلك قد يكون أكثر فاعلية مع الأطفال العاديين. وبناء عليه بدأ تدريسيه للأطفال العاديين، ومن ثم أسفرت النتائج عما يستثير الدهشة والإعجاب معاً، فقد استطاع بعض الأطفال القراءة في سن الثانية، كما كشفوا عن درجة من النمو الانفعالي تفوق نظراهم في نفس السن.

وفي محاولة أخرى قام الباحث فلدنكريس M. Feldenkrais بإعادة تعليم مناطق الحركة في المخ، عن طريق التعامل مع العضلات، وبالتالي يستطيع أن يزود المخ بخبرة مباشرة في كيفية ضبط حركتها. واتخذ لهذا الهدف إحدى الحالات، رجل في الخمسين من عمره يعاني من التشنجات، وعن طريق تحريك الأطراف حركات خفيفة في كل الاتجاهات، استطاع أن يعلم المخ بعض الضبط الخفيف لحركة العضلات، واستطاع الرجل بعد التدريب لفترة قصيرة الوقوف على قدميه، ثم السير كالأفراد العاديين.

وكما أوضحنا فيما سبق، فإنه في بعض الحالات التي تم فيها فصل نصف المخ، وجد أنه بعد عشرة شهور، استطاع النصف السليم أن يقوم بوظائف النصف الآخر المحذوف، وذلك بدون تدريب، أما مع التدريب فقد استطاع المريض أن يصل إلى هذه النتيجة بعد ستة شهور فقط.

ومن هنا يثور السؤال: أليس في قدرة المخ أن يستجيب لإعادة التأهيل، واستعادة قدراته بالقيام بوظائفه إلى ما قبل الإصابة، على النحو الذي أشارت إليه نتائج التجارب السابقة ما يدعو إلى إعادة النظر فيما سبق قوله باعتباره حقيقة علمية عن المخ، وهي عدم تجدد النيرونات التي يفقدها المخ أو إعادة إنتاجها مرة أخرى.

#### إعادة إنتاج الخلايا العصبية:

حتى وقت قريب، كان من القول الثابت عن المخ أن الخلايا التي يفقدها المخ لا تتجدد مرة أخرى؛ الأمر الذي يقلل من عدد الخلايا في المخ، ومن ثم قد تقل كفاءته في أداء وظائفه بمرور الزمن. وهو الأمر الذي استتبعه بالضرورة وجود العلاقة بين التقدم في العمر وبين تضاؤل كفاءة عمل المخ. لكن مع نتائج التجارب المختلفة التي أشرنا إليها، ونجاح تأهيل المخ للقيام بوظائفه مرة أخرى، بل وأداء الوظائف التي فقدت بفقد الجزء الخاص بها من المخ، بدأت القضية تثور مرة أخرى. غير أن العلماء في بداية الأمر كانوا يفسرون نجاح المخ في إعادة التأهيل بعزوه أساساً إلى نمو الإمكانيات الفطرية في مناطق أخرى من المخ، وإلى الشفاء من الإصابة تدريجياً. أما النتائج الحديثة، فإنها تشير إلى أنه من المحتمل أنه بعد الإصابة، قد تستطيع النيرونات أن تولد أليافاً جديدة. إن دراسة تأثيرات إصابة المخ في القرآن قد أظهرت أن المناطق التي أصيبت في المخ لا تظل فارغة، بل إن النيرونات القريبة تتحرك نحو المناطق الفارغة لتملأ الفراغ. ففي دراسة إصابة نوع من القرآن

hamster في منطقة الرؤية في المخ، حدث إعادة توجيه للألياف العصبية، وتكونت عدد من الوصلات العصبية الجديدة. كما وجدت دراسات أخرى عن نمو بعض المحاور العصبية التي قطعت في بعض المناطق في المخ، حيث استطاعت نهاياتها التي مازالت مرتبطة بجسم الخلية توليد برامع دقيقة انتشرت عبر الجهاز العصبي، مكونة وصلات مع الوصلات العصبية الأصلية، حتى تم استعادة الوصلات القديمة. ورغم أن ذلك كان من الممكن حدوثه في الأعصاب الطرفية من العضلات إلى المخ، إلا أنها المرة الأولى التي تحدث داخل المخ ذاته.

ومن الاحتمالات الأخرى التي تشير إلى إمكانية نمو النيرونات مرة أخرى، هو أنه على الرغم من أن النيرونات لا تتضاعف، إلا أن فيها إمكانية الجينية على التكاثر. غير أن هذه الإمكانية قد تكون في حالة كف في الجهاز العصبي. وتشير التجارب إلى أن عامل الكف هذا قد يرتبط بالحالة الكهربائية للخلية. ومن ثم فإن تعرض الخلية لخفض القدرة الكهربائية خلال جدران الخلية، قد يؤدي إلى إمكانية الانقسام والتكاثر مثل الخلايا الأخرى. كما أنه يمكن مساعدة الخلية على التكاثر بوضعها في وسط غنى بالبوتاسيوم، هذا التغيير في تركيز الأيونات يؤثر على الغشاء الخلوي، كما يحدث في حالة إزالة الاستقطاب.

وقد يمثل هذا واحداً من الاكتشافات المثيرة التي يمكن أن تؤدي إلى ثورة في تفكيرنا عن طبيعة النيرونات، لكنها مازالت في حاجة إلى التأكيد.

#### الاستفادة المثلث من إمكانات المخ:

قدمت البحوث التي أجريت على قدرة المخ على التعافي مؤشرات جيدة على إمكانات المخ الكامنة وقدرتها على النمو. فإذا كان المخ المصاب قد أثبتت قدرة ملحوظة على التعافي، واستعادة الوظائف التي فقدت بفعل الإصابة، حيث استطاع تكوين وصلات جديدة، وقامت مناطق جديدة بالوظائف التي دمرت، إذن ماذا يمكن أن يفعل المخ السليم؟!

بل أكثر من هذا، بما إن المخ لا تعوقه إصابة بعض المناطق به، أو فقدان بعض الوصلات العصبية، فإن قدرات المخ السليم على النمو لاشك تكون أكبر كثيراً من توقعاتنا. ولكن نساعد هذه الإمكانات على أن تعبّر عن نفسها، وتخرج إلى حيز التحقيق، هناك أمراً لا بد من تنفيذهما:

- أن نستخدم المخ.
- أن نهتم بالمخ.

#### أولاً: استخدام المخ:

إن مخ الرجل الراشد مثل مخ الطفل على السواء، يعيش على الخبرة ويحيا بها. فإذا أردنا أن نفيد من إمكانات المخ الفطرية إلى أقصى درجة في نمو الإمكانات العقلية على مدى الحياة، علينا أن نقدم له البيئة الثرية، والمثيرة، والمتغيرة، التي تعمل على تحقيق هذه الإمكانات؛ إذ إن توقف التعليم

المنتظم بعد العشرينات يعد أحد الأسباب التي تؤدي إلى بدء القدرات العقلية في التراجع؛ حيث إنه بعد التخرج من الجامعة أو ما قبلها، يتوقف غالبية الأفراد عن استخدام المخ، بما يؤدي إلى ما يbedo تراجعاً في القدرات العقلية، مثل كل الأعضاء الأخرى في الإنسان، تفقد قدرتها إذا توقفت عن الاستخدام.

وال التربية education مشتق من الفعل يربى educate في اللغة اللاتينية، ويعنى أن يؤدي إلى lead out، أو أن يخرج كل إمكانات الفرد. إذا لم يحدث هذا عند سن العشرينات ولن يحدث، فذلك يعني أن تستمر عملية التربية. لابد وأن يستمر التعليم، وتستمر التحديات العقلية، وتستمر التدريبات العقلية أيضاً.

وقد استطاع روزنزيج Mark Rosenzweig وفريقه في جامعة كاليفورنيا أن يثبت بناءً على الفئران بخبرات البيئة التي يعيشون فيها. فقد وضعوا مجموعة من الفئران في بيئات غنية بالثيريات كالسلام، والعجلات، والمنحدرات، وقد لاحظوا أن هذا الثراء في البيئة قد أدى إلى زيادة وزن وكثافة القشرة المخية. كما لاحظوا أنه لم يكن هناك فروق بين الفئران الصغيرة والكبيرة في هذه النتيجة.

وحيث إنه لم يكن معروفاً سبب هذه الزيادة في وزن وكثافة القشرة المخية للفئران، هل هي بسبب رؤية هذه المثيرات، أم بسبب التفاعل مع هذه المثيرات، لذلك قام روزنزيج بتجربة قسم فيها الفئران إلى ثلاث مجموعات:

1- مجموعة الفئران التي تلعب بكل محتويات البيئة.

2- مجموعة الفئران التي تلاحظ فقط هذه المثيرات ولا تلعب بها.

3- أما المجموعة الثالثة، فهي التي تعيش في بيئه فقيرة خالية من المثيرات.

بعد شهر من فترة التجربة، تم فحص مخ الفئران، وأسفر البحث عن عدم وجود فروق بين مجموعة الفئران الملاحظة للمثيرات، ومجموعة الفئران في البيئة الفقيرة، أما مجموعة الفئران التي أتيحت لها فرصة التفاعل مع المثيرات، فهي التي كشفت عن نمو في وزن وكثافة القشرة المخية بدلالة واضحة عن المجموعتين السابقتين.

وبالتطبيق على الإنسان (للتشابه الكبير بين الجهاز العصبي لدى الفئران وبين الجهاز العصبي لدى الإنسان، وهو الأمر الذي يفسر استخدام الفئران في مثل هذه التجارب)، فإنه يمكن القول إن العيش في البيئة الثرية وحده غير كاف، لكنه لابد من التفاعل مع هذه البيئة لكي يستفيد المخ منها. فمشاهدة التلفزيون وحده ليست كافية لنمو المخ، بل الاحتكاك بالعقل الآخر، ووضع الفرد تحديات لذاته، ووضعه أهدافاً يحققها، ومباعدة مجالات جديدة وخبرات جديدة - كلها أعظم فائدة من ملاحظة الخبرات دون التفاعل معها.

ولاشك أن تاريخ بعض العقول التي أثبتت قدرتها على العطاء والتميز من الشباب وحتى سن الثمانين والتسعين، يؤكد أنه كلما كان هناك استخدام أكثر لإمكانات المخ، كلما كان في ذلك بقاوته وانتعашه وتضاعف قوته وإمكاناته. فهذه العقول باستمرارها في تعلم الخبرات، قدمت للمخ البيئة الثرية التي ينشدها. ونذكر من هذه العقول - على سبيل المثال - ألبرت أينشتين العالم، أحد أبرز المبدعين في تاريخ الإنسانية، ظل يعطى في تخصصه حتى سن السابعة والسبعين، وبرتراند راسيل الفيلسوف، متخصص الرياضيات والسياسة والتاريخ، الذي كشف عن ذاكرة متميزة، ظل يلعب دوره المتميز حتى سن الخامسة والتسعين. كذلك كان كارل يونج متقططاً ومنتجاً حتى نهاية عمره. وفي مجال الفن نذكر تشيكوفسكي، وباح، وهابدين الذين قدموا أشهر أعمالهم في السنوات الأخيرة من عمرهم.

**والخلاصة هي إذا أردت أن تزيد من فاعلية المخ، استخدمه قدر الإمكان (Use it or lose it).** وهناك أكثر من موضع في هذا الكتاب نعود فيه بين آونة وأخرى إلى أهمية هذه المقوله في حياة الفرد.

ثاني: الاهتمام بالمخ

ثبت من الدراسات أن التدريبات الرياضية ذات قيمة كبيرة للمخ؛ إذ بالنسبة للذاكرة قصيرة المدى، تمد المخ بالأكسجين اللازم له، وعلى المدى الطويل فهي تحافظ على الشرايين نظيفة. ففي دراسة على التلاميذ في المدارس الكندية - على مدى ست سنوات - كانت هناك متابعة على 300 من التلاميذ، وأسفرت هذه المتابعة عن أن التلاميذ الذين كانوا يمارسون تدريبات رياضية يومياً، وكانوا ذوي صحة جسمية جيدة، ارتفعت درجاتهم في التحصيل الأكاديمي للمقررات، هذا بالإضافة إلى أن ممارسة هذه التدريبات تؤثر بالإيجاب أيضاً على الشخصية ككل. فقد وجد أن ممارسة هذه التدريبات لا تؤثر فقط على اللياقة البدنية، بل قد ارتبطت بزيادة الاتزان الانفعالي، وزيادة الخيال، وزيادة الكفاءة النفسية. فهل يصدق تعليم هذا الكلام على قابلية المخ للتشكل عبر المراحل العمرية المختلفة؟ وهل يمكن تطبيق هذا التصور على المخ في حالاته المختلفة بين الصحة والمرض؟ في الفصول القادمة، هناك المزيد من التفصيلات التي توضح ما هو ما زال في حاجة إلى المزيد من الأبحاث للإجابة عنه، وما هو الأقرب إلى اتفاق العلماء بصدده.

ومن ناحية أخرى، فإن الراحة مهمة للوظائف العقلية، فالجهاز العصبي للإنسان يعمل على التغيير التبادلي بين الراحة والعمل، وأى اضطراب في هذه الدائرة يؤدى إلى اضطراب في إيقاع المخ. فأثناء النوم وخاصة أثناء فترة الحلم، فإن البروتين وبقية أنواع المواد الكيميائية في المخ التي تستهلك أثناء الأنشطة اليومية تتجدد، كما أن النمو يستمر أيضاً أثناء النوم. وبالنسبة للراشدين فإن خلايا الجسم تتجدد، كما أن الراحة مهمة أيضاً أثناء اليوم، فأوقات الراحة التي تتخلل أوقات العمل، تحسن مستوى التذكر، وتحسن عملية الفهم. كما أن أساليب الاسترخاء العميق، مثل الارتقاء الذاتي، إذا تم استخدامه بصفة منتظمة، فإنه يؤدى إلى تحسن القدرات العقلية. وهناك من نتائج



التجارب ما يثبت هذا، ففي دراسة على الراشدين الذين يمارسون الارتفاع الذاق بانتظام، في مقابل مجموعة ضابطة لا تمارس هذه التدريبات، على طول زمن الرجع الذي يسبق استجابة المجموعتين فور رؤيتهم لضوء حدد لهم، جاءت النتائج لتحدد تقدم المجموعة الأولى (0.3 من الثانية) في مقابل المجموعة الضابطة (0.5 من الثانية). وفي تجربة أخرى طلب إلى المبحوثين متابعة حركة الكرة السريعة، وتحديد مكانها بالضغط على زر قريب منهم. وبمقارنة مجموعة من يمارسون الارتفاع الذاق بمن لا يمارسون، أثبتت المجموعة الأولى تفوقاً على المجموعة الثانية في سرعة متابعة الكرة وتحديد مكانها.

وفي مجال الاهتمام بالمخ، نذكر أهمية نوعية الغذاء الذي يتناوله الفرد، فكلما كان الغذاء متوازناً، كلما ساعد على الأداء الجيد للمخ. فعلى سبيل المثال فيتامين (E) من الفيتامينات التي تساعد على استفادة الخلايا من الأكسجين، كما أن الفيتامينات (B,C) تساعد على رفع مستوى اليقظة العقلية، أما فيتامين (D) فإنه يساعد على تمثيل الأملاح المعدنية، التي ترفع بدورها من مستوى اليقظة العقلية.

وفضلاً عن الطعام وأهميته للمخ ووظائفه، فقد كشفت الدراسات عن وجود "معنى للحياة" لدى الفرد، له علاقته الوثيقة بالمشكلات الاجتماعية والجسمية التي يتعرض لها الفرد. ففي مرض السرطان يخبر المرضى درجة مرتفعة من الضغط النفسي، وقد أجريت دراسة على عينة من مرضى السرطان (420)، وكشفت الاستجابات على أن المعنى في الحياة له علاقة الوثيقة بمشكلات التوظيف الاجتماعي والجسمى، كما يبدو من قدرة الفرد على اختبار الضغوط.

وفي نظرية يطرحها كاززاوا Kanzawa عن الفروق بين المجتمعات الثرية، وبين الأقل ثراء، رأى أن الفروق بينهما ليس في مستوى الثراء، أو في نوعية الطعام، بل هي فروق في مستوى الذكاء. ولقد بنى دعواه على نتائج الدراسات الفارقة لمقارنة اجتماعياً بأن الذكاء هو العنصر الأساسي الذي يحدد طول العمر في جميع أنحاء العالم، بصرف النظر عن توافق الطعام أو الرعاية الصحية.

وكان كاززاوا قد قدم لهذه النظرية عام 2006 بأنه اعتماداً على ما كشفت عنه دراسات المخ من أن الإنسان في توافقه مع البيئة، يواجه مشكلات فهم والتعامل مع المشكلات التي لم ترد في هذه البيئة، وأن الذكاء يظهر باعتباره أحد أبعاد التكيف لحل مشكلات النمو الجديدة. وبما أن أكثر الأخطار التي تتعرض لها صحة الفرد في المجتمعات الحديثة هي من مستجدات التطور - فإن ذلك يتبعه أن أكثر الأفراد ذكاء هم الذين يعرفون ويعاملون مع هذه المخاطر، ويعيشون أطول. ومن خلال المقارنة بين 26 من المجتمعات، فإن الذكاء المتوسط له تأثير دال على صحة العامة، وأن الذكاء أقوى تأثيراً من الدخل على صحة الفرد، والناتج في عموميتها قد كشفت عن أن الأفراد في المجتمعات الغنية يعيشون أطول، وأكثر صحة، ليس بسبب الغنى، بل لأنهم أكثر ذكاء.

## الفصل الثاني

### الذاكرة وتحصيل المخ للمعرفة

**الذاكرة بين التجارب المعملية والحياة اليومية:**

إن الذاكرة هي إحدى مواهب الإنسان، إذ بدونها لا يكون هناك تعلم من الخبرة أو توظيف عقلي، أو نمو في اللغة، أو أي من الخصائص التي تميز الإنسان باعتباره إنساناً. ورغم أن غالبية الدراسات قد ركزت على دراسة الذاكرة من بين الوظائف العقلية، إلا أن ما يعرفه الإنسان عن كيفية تذكر المخ للأشياء، ولماذا يحدث النسيان، هو قدر ضئيل للغاية. فقد يتصور البعض أنه للإجابة عن هذه التساؤلات لابد من النظر إلى تشريح فسيولوجيا المخ البشري؛ حيث إنه من المتوقع أن تقدمنا معرفتنا النوعية هذه بالإجابة عن هذا السؤال. ورغم ما أحرزه علماء الأعصاب في السنوات الحديثة من تقدم كبير في فهم الجهاز العصبي، إلا أنهم لم يصلوا إلى النقطة التي يستطيعون معها الإجابة عن كل التساؤلات التي يثيرها المتخصصون في علم النفس عن الذاكرة. فعلى الرغم من معرفة بناء المخ، إلا أن هذا البناء لا يوضح كيفية عمل الذاكرة؛ حيث إن هذا الأمر لابد وأن يقوم على عمل المقاربة والتناظر مع الأشياء التي نعرفها ونفهمها.

إن الذاكرة الإنسانية لا يمكن رويتها أو الإمساك بها، لذلك فإنه لابد من النظر إليها باعتبارها عملية وليس شيء، ولذلك فإنه عبر التاريخ، كانت تعرف من خلال عمليات المقاربة، ومناظرتها بأشياء نعرفها. وهناك ثلاث محاولات متميزة عبر التاريخ تدل على ذلك، منها أن التفسيرات القديمة للذاكرة قد قامت على هذا الأساس. فأفلاطون، هو أول من استخدم هذه المقاربات في شرح معنى الذاكرة، حيث قال: تخيل ...، فقد كان يصور العقل على أنه يحمل بداخله كتلة كبيرة من الشمع، تختلف في الحجم، ودرجة الصلابة ودرجة التققاء، من فرد إلى آخر. ويقول إننا إذا أردنا أن نتذكر شيئاً نسمعه أو ندركه بعقولنا، فهذا الشيء ينطبع على الشمع مثل الختم تماماً. وبقدر النجاح في طبع الشيء بقدر النجاح في سهولة تذكره. لكن هذا التعريف لم يستطع أن يفسر لماذا يستطيع الإنسان تذكر بحيوية دافقة بعض الأحداث العاطفية التي مرت به مرة واحدة لم تترد، أو لماذا يتذكر الإنسان من قافية الكلمات أول الكلمات وأخرها بسهولة تفوق قدرته على تذكر الكلمات في وسط القافية، فقد يعني ذلك أن التذكر والنسيان يخضعان لأكثر مما هو تكرار للأحداث. ثم قدم بعد ذلك مقاربة أخرى حيث صور الذاكرة كأنها قفص الطيور الكبير، وممثل أجزاء المعرفة بداخله الطيور التي تم اصطيادها.

ثم قدم ويليام جيمس بعد ذلك تصوّره عن الذاكرة، مستخدماً أيّضاً المقاربة البصرية فقد صور عملية التذكر بمن يقلب منزله رأساً على عقب. ورغم اعتماده على مبدأ الاستبطان، إلا أنه قدّم عدداً من الأفكار والعمليات النفسيّة المهمة لفهم الذاكرة. ومن أهم ما أشار إليه ويليام جيمس هو أن الخبرات الجديدة لا تختفي في الحال من الشعور، لكنها تستمر في الوعي فترة قصيرة من الوقت، ولقد أطلق على هذه الظاهرة الذاكرة الأوليّة Primary memory . كما ذكر أن مكوناتها لا تحتاج إلى استعادة أو حفظ. وحسب نموذج جيمس، فإن محتويات الذاكرة الأوليّة تمر إلى الذاكرة الثانوية، حيث يتم تخزين كل المعرفة المطلوبة في مخزن دائم. وعلى عكس المعلومات في الذاكرة الأوليّة، فإنه في الذاكرة الثانوية لابد من استرجاع المعلومات قبل استخدامها.

وفي عام 1949 استطاع هيب Hebb وضع نظرية مشابهة عن الذاكرة في كتابه عن تنظيم السلوك، فقد ذكر أن الخلايا التي تتوهج معًا تلقائياً، هي أكثر ميلاً إلى تكرار هذا في المستقبل. وقد اتفق عدد كبير من علماء الأعصاب في أن ذلك قد يمثل الأساس العصبي للذاكرة؛ فالخبرة التي تغير من طريقة الارتباط العصبي قد تصنع أو تزيد من احتمالية - يمكن التنبؤ بها - التفاعل مع الخلايا الأخرى.

أما المحاولة الثالثة لتعريف الذاكرة فهي تحدّد في رؤية البعض للذاكرة باعتبارها "عضلة"، تقوى بالتدريب، وتضعف بالإهمال. ووفقاً لهذه الرؤية، فإن الساعات التي ينفقها الفرد في الحفظ واستظهار المعلومات تؤدي إلى تقوية العقل، وتسهل تذكر المعلومات.

لكنه لسوء الحظ أهملت هذه الأفكار المهمة عن الذاكرة لأكثر من منتصف القرن العشرين؛ ويعزى ذلك إلى التأثير الواسع للسلوكية على علم النفس التجاري في ذلك الوقت. فعلى الرغم من اهتمام الفلاسفة بدراسة الذاكرة قرابة الألفي عام، إلا أن ذلك لم يسفر عن تنشيط الدراسات العلمية عنها، لكن منذ إخضاعها للبحث التجاري- ما يزيد على مائة عام بقليل - فإنها قد أحرزت تقدماً كبيراً في مجال فهم الذاكرة، والقواعد التي تعمل وفقاً لها. والفضل في هذا يرجع إلى العالم "إنجهاووس"، العالم الألماني بدراساته للذاكرة في المعمل، وإخضاعها للضوابط التجريبية والمنهج التجاري الذي كان مكتشفاً حديثاً في ذلك الوقت، باعتبارها من العمليات العقلية العليا. فقد تبيّن إنجهاووس أن الذاكرة تتأثر بالمعنى والترابطات، ولضبط هذه العوامل استخدم الكلمات الصماء، فوضع قوائم كلمات من مقاطع لا معنى لها، قام بتجربتها على نفسه، وأمضى ست سنوات في هذه التجارب عن التعلم، وإعادة التعلم، استعاناً فيها بآلاف القوائم.

ولقد كشفت نتائج إنجهاووس عن كيفية تأثير الوقت المستغرق في عملية التعلم على المخزون المستعاد، أي كيف يتأثر النسيان بعامل الزمن. كما كشفت النتائج أيضاً عن ارتباط زيادة عدد محاولات التعلم الأصلي للمادة بتناقص عدد محاولات إعادة التعلم.

غير أنه من أهم إضافات إينجهاوس إلى علم النفس هو فك طلاسم المشكلة التي بدت عصية على الحل، والاقرابة منها تجربياً، بالإضافة إلى إمكانية حفض عدد متغيرات الموقف التي يمكن قياسها.

ورغم أن إينجهاوس قد تخير أن يتتجنب الذاكرة المركبة المعقدة كما هي في الحياة اليومية - وهو ما سنوضحه فيما بعد - وذلك باستخدام القوائم الصماء، ووضع الضوابط التجريبية لتجارب التذكر والنسيان، فقد استطاع أن ي sist الأمر ويخلص إلى أهم النتائج الخاصة بالذاكرة الإنسانية، والتي لم تكن معروفة من قبل. وتكمّن قيمة هذا العمل ليس في النتائج التي توصل إليها فقط، لكن في إثباته أن المنهج التجريبي يمكن أن يستخدم لفحص ظاهرة معقدة، مثل التعلم الإنساني والذاكرة الإنسانية.

وبصفة عامة، فإنه غالباً ما يرتبط إدراك الذاكرة باعتبارها القدرة على استدعاء الأحداث السابقة، إلا أن الذاكرة هي أكثر من مجرد الاسترجاع، فإذا سألنا أحد الأفراد عما تناوله أمس في الغداء قد يتذكر ما أكله في الغداء، لكن إذا ما طلب إليه أن يذكر ما تناوله في غدائه منذ عام مضى، قد لا يستطيع ذلك. غير أنه إذا تم تذكره بماذا تناول في ذلك اليوم، قد يستطيع التذكر ويُعبر عن ذلك بقوله: آه لقد تذكرت الآن. ومعنى هذا أن التخزين لا يتضمن الاستدعاء، فإذا خفق الفرد في تذكر شيء ما لا يعني أنه ليس لديه الذاكرة الخاصة بهذا الشيء؛ إذ إن هناك دلالات، تزايد بمرور الوقت على أن المخ يسجل كل الخبرات التي يمر بها.

وتعدّت التجارب التي تجري على الذاكرة، بعضها يخص التفرقة بين أنواعها، والبعض الآخر يخص التفرقة بين الذاكرة قصيرة المدى وبين ذاكرة التعرّف. كما أن الكثير من تجارب الذاكرة قد انطلقت من الحالات التي تضطرب فيها وظائف الذاكرة، مثل حالات إصابات المخ؛ نتيجة للتعرض للحوادث، أو الإصابة بالأمراض مثل الزهيمير، وكورساكوف، ومرضى الصرع واللورم، وهي الحالات التي ارتبطت باضطراب الذاكرة. وقد أسفرت هذه المحاولات عن العديد من النتائج التي اتفقت أحياناً واختلفت أحياناً، إلا أن هذا التباين قد أدى إلى نحو الدراسات عن الذاكرة، وقد ساعد على ذلك نحو دراسات المخ، وما كشفت عنه من معلومات جديدة أمكن للباحثين الإفاده منها في تجارب الذاكرة. فقدّما، كان يصعب تحديد أي مناطق المخ أكثر ارتباطاً بأي نوع من أنواع اضطراب الذاكرة، أما الآن فإن هناك نوعيات من الدراسات والأبحاث التي تساعده على ذلك. كما تجري العديد من التجارب التي تحدد علاقة نوعية الاضطراب بالأنشطة المحددة لنصف المخ، بل ومن بعضها الذي أجرى بالفعل، بدأ الباحثون ينشطون من جديد لإعادة النظر في

المقولات القديمة التي مثلت عقبة لفترة طويلة أمام نمو المخ، والإفادة من إمكاناته على مدى اختلاف المراحل العمرية التي يمر بها الفرد.

غير أن هذا الإصرار على ضرورة إخضاع الذاكرة للضوابط التجريبية، لم يمر دون أن يكون هناك ثمةً لذلك، إذ إن ما تم إجراؤه من الدراسات، لم يكن خاصاً بأكثر الجوانب ثراء في الذاكرة الإنسانية؛ لصعوبة الإمساك بها في المعمل وإخضاعها للشروط التجريبية. وقد ترتب على ذلك أن ما قدمت صياغته من نظريات عن الذاكرة، قد لا يصلح لفهم وتفسير ما يحدث خارج المعمل، أي في الحياة اليومية، وهو الأمر الذي أدى ببعض علماء النفس إلى توجيه اللوم إلى الباحثين في مجال الذاكرة؛ حيث إن ما اكتشفوه لا يساوي شيئاً، وأن الاهتمام بالضبط التجاري، وتحديد المتغيرات فيما يمكن قياسه، أدى إلى تقليص الأمر، وأصبح الناتج لا يساوي شيئاً، ومع ذلك ظلت هذه النوعية من الدراسات هي السائدة حتى أواخر الستينيات.

لكنه كما أن لكل شيء رد فعل قد يتساوى معه في الشدة، لكنه يختلف معه في الاتجاه - فقد أدى التمسك بدراسة الذاكرة في ضوء التجارب المعملية مع الضبط الشديد للمتغيرات، إلى إثارة الاتجاه المعارض تماماً لهذا التوجه. وحقيقة، إن هذا الاتجاه المعارض لم يظهر دفعه واحدة على أيدي مجموعة محددة، إلا أن الدعوات والمحاولات المتعددة مع تراكمها، قد أدت إلى بزوغ الاتجاه المعاصر للذاكرة في الآن والسائد في دراسات الذاكرة. فقد بدأت المحاولات مع فرانسيس جالتون عام 1883، ثم بارتلت 1932. حيث أثاروا العديد من التساؤلات المهمة عن الوظائف الثرية والمركبة للذاكرة في سياقها الطبيعي، مثلاً: عن توظيف الذاكرة في مجال ضبط حركة المرور، أو العمل على خطوط الإنتاج، أو وضع أرقام لخطوط التلفونات ... إلخ. كل هذا كان من شأنه أن يوقظ الاهتمام بدراسة الذاكرة وعملها في سياقاتها الطبيعية خارج المعمل.

وفي أواخر الستينيات استطاع الاتجاه المعرف في علم النفس أن يؤثر على دراسة الذاكرة. ويطلق هذا المصطلح - علم النفس المعرفي - على أكثر الاتجاهات مرونة في علم النفس، حيث امتد تأثيره إلى العديد من المجالات، ففي مجال الذاكرة، ينطبق هذا الاتجاه على النظريات التي قامت على، أو تأثرت بتطور استخدام الحاسوب الآلي، الذي أثر على النظريات النفسية، وذلك بتقديم المفاهيم الجديدة، واللغة الجديدة، مثل نظرية المعلومات، والمفاهيم مثل: (store) يخزن، ينظم، التغذية الراجعة، والتتميز (تحويل الرسالة إلى رموز)، استدعاء المعلومات، وتبنيها في مجال دراسة الذاكرة. وفي هذا السياق يتم أيضاً تفسير الذاكرة، بالمقارنة بينها وبين مثيلتها في الحاسوب الآلي، حيث ينظر إلى الذاكرة باعتبارها مجموعة موقع أو أماكن التخزين، يمثل كل منها مرحلة مختلفة في عملية المعلومات. حيث تطرق المعلومات أولاً إلى مخزن الحسّي، مكوناً الذاكرة التي تتأكد مكوناتها

بالآليات التجريبية الحديثة، فتدخل المعلومات الجديدة إلى الجهاز العصبي، من خلال واحد أو أكثر من الحواس. ولاشك أن هذا الفيض من الأفكار الجديدة قد أثرى دراسة الذاكرة، وخلال فترة قصيرة، بدأت الأدوات التجريبية القديمة تختفي من الدوريات العلمية. فضلاً عن هذا، ففي عام 1976 ، أطلق نيسر "Neisser" دعوته إلى أهمية وجود الصدق الإيكولوجي Ecological Validity في دراسة عمليات الذاكرة، ويعنى التأكيد على أهمية دراسة الإدراك والذاكرة في سياقها الطبيعي، في المواقف الحياتية للإنسان في المنزل والعمل والشارع... إلخ، بدلاً من الدراسة القاصرة في المعمل، أي استبدال دراسات المعمل في المواقف التجريبية المصطنعة بدراسة الظواهر في الواقع. ونشر نيسر كتاباً عن القراءة عام 1982 بعنوان "memory observed" ، حيث جمع فيه قدرًا كبيرًا من الأبحاث عن ذاكرة الحياة اليومية.

وقد كانت دعوة نيسر (Neisser) من العوامل التي أدت إلى تقدم التجارب في مجال الذاكرة في سياقها الطبيعي. فلم تعد قوائم الكلمات أو قوائم الأرقام هي محور التجارب، بل مثلت الظواهر الحياتية الخاصة بالذاكرة الإنسانية، التي يراها الفرد، لكنه لا يعرف كيف يفسرها، مثل مهارات الفرد في المحادثة مع الآخرين مثلاً، والقدرة على تمييز وجوه الآخرين، ومهارات تحطيط الطرق، وأهم القضايا التي تناقشها أبحاث الذاكرة. وهكذا وجدت دعوة نيسر إلى أهمية الصدق الإيكولوجي الكثير من الحماس، الذي انعكس على أدوات قياس الذاكرة والأرقام أو الأشياء أو الكلمات هي محور التجارب، بل احتلت الظواهر الحياتية قلب هذه الأبحاث، كما امتد مفهوم الصدق الإيكولوجي إلى مجالات أخرى في علم النفس المعرفي.

ودراسة الذاكرة في المواقف الحياتية تعنى التركيز على الجوانب الوظيفية من الذاكرة، أي النظر إلى الذاكرة باعتبارها جزءاً من ذخيرة السلوك الموجه إلى تحقيق أهداف محددة، فالذاكرة الذاتية أو الشخصية تعمل لبناء هوية الفرد، والمحافظة على بقائها، أما وظائف الذاكرة المستقبلية فهي تجعل الفرد قادرًا على تنفيذ المقصود والخطط، أما الذاكرة المكانية فهي ملاعدة الفرد على العيش في البيئة، والذاكرة الإنسانية مرتبطة بالسياق، وليس متبرحة منه، فالأشياء التي يتذكرها الفرد في المواقف الحياتية تتضمن قدرًا كبيرًا نوعيًّا من عناصر مختلفة، فتذكر شخص ما ملحوظته لأمر مهم، أو تذكر قائمة مشتريات المنزل، أو عدد الفواتير التي يجب دفعها في أول الشهر، أو الأفكار التي لابد من طرحها في اللقاء اليوم ... إلخ .. كل هذه الخبرات تتواجد في سياق غنى بأحداث الحياة، وإسكييمات يعيش فيها الفرد، كما أن هذه الخبرات تتأثر بالخبرات الماضية؛ بالتاريخ وبالثقافة، بالد الواقعية، بمساعر الفرد، بالذكاء وبالشخصية، بالأهداف المستقبلية، والخطط التي توضع لتحقيقها.

وقد يكون من الصعب وضع كل هذا في الاعتبار، لكنه يجب على أبحاث الذاكرة في المواقف الحياتية، أن تبين نوعية السياق الذي تحدث فيه الظاهرة، كما يجب أن تؤكد هذه النوعية من الأبحاث على حقيقة أن التذكر إنما يحدث في سياق اجتماعي، وأن من وظائفه أن يخدم التواصل بين الأفراد؛ فالذاكرة ليست مجموعة من البيانات الخاصة بالفرد، لكنها كما يؤكّد كوهن (Cohen, 1996) متبادلة، ومشتركة، وتراجع وتوضح من خلال تفاعلنا الاجتماعي. ولعل هذا الجانب يبدو واضحاً في دراسات المحادثة والحوارات دور الذاكرة فيها. ومن ثم، فإن التركيز على الوظيفة، وعلى السياق الموقفي والاجتماعي، هو الذي يسمح للصدق الإيكولوجي للذاكرة الحياتية بعبور الفجوة بين الأبحاث التطبيقية والنظرية.

فضلاً عن هذا، فإن أبحاث الذاكرة الحياتية تختلف عن الأبحاث التقليدية، في أن المعلومات التي يتم تذكرها في الذاكرة الحياتية قد تم تعلمها بالصدفة، أكثر من كونها مقصودة لذاتها. وهذا فارق مهم يحدد حقيقة أن أبحاث الذاكرة الحياتية من الضروري أن تكون عن عادات ومعايير عمليات الذاكرة، أكثر من الاهتمام بتحديد المتغيرات ووضع الحدود؛ فالذاكرة الحياتية هي حول ماذا يختار الأفراد ليتذكرون، وليس عن كم ما يستطيعون تذكره. ولذلك استخدم كورياهوست Koriahouste، وجولد سميث Goldsmith مصطلح بيت التخزين Storehouse، والتطابق correspondence؛ للتفرقة بين خصائص الأبحاث التقليدية عن الذاكرة، في مقابل ما تريده أبحاث الحياة اليومية عن الذاكرة، حيث يشير مصطلح بيت التخزين إلى أبحاث الذاكرة التي تعامل مع الذاكرة، باعتبارها مكاناً لتخزين المعلومات، ويستخدم من عدد وحدات المعلومات التي يمكن تخزينها، ويمكن استرجاعها قضايا لدراستها. بينما تكون - على العكس من ذلك - الأبحاث التي تعنى بدراسة الذاكرة في سياقها الطبيعي كما تحدث في الحياة اليومية؛ فهي تركز على أهمية درجة التطابق بين المدخلات الأصلية وبين ما تم تذكره، ومن ثم فهي تهتم بالذاكرة من حيث الكيف؛ كيف تستطيع الذاكرة أن تحافظ بالمعلومة حفظاً صحيحاً، وتماماً. ومن ثم، فالنسبيان - بناء على هذه النظرية - ليس هو ضياع المعلومات، لكنه ضياع التطابق، أو هو الانحراف عن الحقيقة؛ إذ إن صفة التطابق تحمل في داخلها النظر إلى الذاكرة باعتبارها كلاً مركباً، يؤدي فقدان الدقة في جزء منه إلى التأثير على الكل. وبذلك استطاع هذان العالمان أن يضيفا إلى أبحاث الذاكرة واحداً من أكثر الاتجاهات الحديثة والمهمة. فالتركيز على دقة الذاكرة من المناخي التي تثير وتغذي جزءاً كبيراً من أبحاث الذاكرة الحياتية.

ولكن هل يعني ذلك الاستغناء تماماً عن الدراسات المعملية عن الذاكرة، واستبدالها بما يفيد منه الإنسان في فهم ما يحدث في المواقف الحياتية؟

يرى بعض الباحثين هذا الرأي، وعلى رأسهم نيسير، إلا أن هناك بعضاً آخر يرى أن الدراسات المعملية عن الذاكرة أمر لازم بالإضافة إلى الدراسات الواقعية، وألان بادلي

( Alan Baddeley, 1997 ) على رأس هؤلاء، ولأنه باحث تخصص في دراسات الذاكرة، ونشر أكثر من عمل عنها، آخرها ما كتبه عن ذاكرة الأحداث ( Episodic Memory, 2008 ), يستطيع أن يرى أهمية الجمع بين الدراسات المعملية والدراسات الواقعية؛ ملزid من فهم الذاكرة ذات التنظيم المركب. كذلك ذكر Cohen أنه رغم أن الدراسات المعملية على الذاكرة ليست قادرة دائمًا على إلقاء الضوء على التذكر والنسيان في الحياة الواقعية، إلا أن الدراسة في المعلم لها مميزات كثيرة، فهي تسمح للمجرب بالضبط الصارم لطبيعة ما يتم تذكره، واستمرارية العرض وتوقيته للمادة المعلمة، كذلك ضبط التعليمات التي تلقى على المبحوثين، وضبط الظروف التي تتم في ضوئها التجربة. كل ذلك هو ما يعرف بالضبط التجربى للمتغيرات المختلفة، وهو الأمر الذى يصعب تواجهه في دراسة الذاكرة في المواقف الطبيعية في الحياة اليومية ( Cohen, Gillian, 1986, 15 ).

ولهذه المميزات في دراسة جوانب الذاكرة الإنسانية أهميتها في الوصول إلى القوانين العامة، التي تفسر عملية التذكر وألياتها بصفة عامة، لذلك فإن الجمع بين الدراسات المعملية والدراسات الواقعية له أهميته، فكل منهما يثرى نتائج الآخر ويوضحها، وقد يحدد متغيراته بدقة، فالدراسات الإمبريقية للظاهرة لا تعنى الاستغناء عن الدراسات التجريبية عليها؛ إذ إن تباين الأهداف يؤدى إلى تكامل النتائج بينهما.

وكما تحفظ البعض على الدراسات المعملية للذاكرة، كان هناك البعض الآخر الذي كانت له تحفظاته على دراسة الذاكرة كما تحدث في المواقف الحياتية، لذلك نسوق هنا بعض الردود على هؤلاء؛ بغرض توضيح أهمية الدراسات الإمبريقية أو شبه التجريبية للذاكرة في سياقها الطبيعي في الحياة اليومية على النحو التالي:

- \* أن كل جوانب الذاكرة قد يحال بيننا وبين دراستها في المعلم، فالذاكرة طويلة المدى، وكيفية احتفاظها بالمعلومات لفترة طويلة أمر قد يصعب دراسته معمليًّا. مثلاً كيف يمكن دراسة كيف يتذكر الأفراد ما تعلموه في الدراسة؟، وكيف يمكن التحكم في العوامل المرتبطة بها سلبًا أو إيجابًا! فضلًا عن هذا، فقد كشفت التجارب على الذاكرة الحياتية عن نتائج خاصة بعملية التخزين تختلف عما كشفت عنه تجارب المعلم. وفي مثال آخر، فإن هناك المانع الأخلاقى الذى يجعل من المستحيل عمل تجارب على الإنسان لدراسة تأثير الضغوط الشديدة على عمل الذاكرة، أو دراسة الذاكرة السلبية Passive memory، أو التذكر السلبي Passive remembering، ويقصد به الذكريات المؤلمة أو المحرجة، التى تقفز إلى الذاكرة؛ نتيجة للسياق الذى أدى إلى استثارتها، أو بالتفكير فيها، فكيف إذن استحضارها في المعلم؟ لاشك أن ذلك يبرر بشدة أهمية دراسة الذاكرة كما تحدث في الحياة اليومية.



\* أن هناك بعض الظواهر التي تحدث في المعمل، لكنه ليس من الضروري حدوثها في الحياة اليومية. مثلاً ظاهرة حفظ المعرفة والمعلومات عن العالم الحقيقي لا تتماثل مع وظائف التخزين التي توجد في التجارب. ومن ثم، لابد من دراسة الظواهر كل في سياقها، كما أن هناك أيضاً بعض الظواهر التي توجد داخل المعمل وخارج المعمل، مع اختلاف التفسير، مثل ظاهرة حداقة المعلومات، فقد وجدت هذه الظاهرة في الحياة اليومية فيما يخص بعض الأحداث التي قد مر عليها عدة شهور. ولاشك أن وجود هذه الظاهرة يفترض تفسيرًا مختلفاً لحداقة المعلومات، ونوعية هذه المعلومات، وأهمية المواقف التي ارتبطت بها، ومعناها للفرد ... إلخ؛ لذلك فإن وجود مثل هذه الظواهر في السياق الحياني يقتضي دراستها في سياقها.

\* اعترض البعض على استخدام بعض عينات من الأفراد مثل المرضى ذوي فقدان الذاكرة، أو كبار السن، وهي فئات لا تمثل كل المجتمع، ومن ثم يصبح الاستعانتة بنتائج الدراسات عليها فاقدة للمصداقية. غير أن الرد على الاعتراض يؤكد في مضمونه على أهمية الاستعانتة بعينات من المجتمع، حيث يسمح هذا بدراسة الظاهرة في ضوء اعتبارات الفروق الفردية في العمر، وفي الثقافة، والنوع، والشخصية، والمستوى الاجتماعي، والاقتصادي، وهي عوامل لاشك أن لها أهميتها في أعمال الذاكرة اليومية للأفراد. فضلاً عن هذا فقد كشفت دراسة عينات المرضى بفقدان الذاكرة عن إلقاء الضوء على الذاكرة الضمنية ودورها في عملية التعلم، وهو الأمر الذي لم تسمح به الدراسات المعملية.

\* كما أثير من قبل - في مجال المقارنة بين الدراسات المعملية والدراسات الواقعية عن الذاكرة الإنسانية - أن الدراسات المعملية لا تسمح إلا بقدر محدود من التعميم، لا يخرج عن إطار المعمل الذي تمت فيه التجربة، ومن ثم تكون الاستفادة منها محدودة أيضًا؛ إذ إن تصميم التجارب على درجة عالية من الضبط التجاربي، يسفر عن نتائج لها قيمتها فيما يخص الموقف التجاربي المصطنع التي تمت فيه، ومن ثم، فإن دراسة عمليات الذاكرة في سياقاتها الطبيعية من الممكن أن تؤدي إلى إثراء الدراسات المعملية عن الذاكرة، بالمزيد من الظواهر التي تتواجد في الواقع، الأمر الذي قد يساعد على اتساع رقعة الاستفادة من نتائج الدراسات المعملية ذات الضبط التجاربي الصارم، وتحديد المتغيرات، واستخلاص النتائج. فقد استطاع كوهن Cohen وفولكرn folkner مثلاً استخدام التسجيلات اليومية الخاصة بتذكر الأسماء ونسيانها التي تحدث طبيعياً في الحياة؛ لفحص ظاهرة النسيان مع الضبط الأفضل للعوامل مثل السن، والنوع، وعوامل الألفة ... وغيرها.

ومن الجدير بالذكر - في هذا الصدد - أن نمو العلم في أي من المجالات إنما يدين بشدة لاختلاف توجهات العلماء، التي تؤدي إلى تنامي اتجاهات دراسة المجال الواحد، ومن ثم ثراء

النتائج وتكاملها، بما يساعد على مزيد من الفهم والوضوح. وبناء عليه، فإن مجال دراسات الذاكرة ما زال يشهد تواجد التوجهين معًا في الدراسة، والاستعانة بالدراسات التجريبية والميدانية في سياق هذا الكتاب، تكشف بوضوح عن أهمية وجود التوجهين معًا في المجال، دون النظر إلى إحلال أحدهما مكان الآخر في البحث العلمي لدراسة الذاكرة.

### طبيعة الذاكرة:

ماذا نعرف عن الذاكرة؟ كيف نكتسب معلومات عن الأشياء المحيطة؟

كيف تربّط المعلومات المختلفة عن الشيء الواحد؟ ثم كيف يمكن أن نحتفظ بها لنتذكرها في الوقت المناسب؟ ثم، هل يتم تخزين كل المعلومات في مكان واحد، وإذا كان الأمر كذلك، لماذا يحدث في بعض أمراض الذاكرة أن يضيع جزء من هذه المعلومات ممّا، بينما تظل الأجزاء الأخرى واضحة في ذهن المريض؟ إن الإجابة عن هذه التساؤلات هي ضمنون الحديث عن طبيعة الذاكرة الإنسانية.

إننا - بصفة عامة - نتحدث عن الذاكرة باعتبارها شيئاً، فقد نتحدث عن ضعف ذاكرتنا أو عن مدى قوّة ذاكرتنا، وفي التعليم، غالباً ما ينظر إلى تذكر المعلومات باعتبارها أقل المستويات المعرفية. إن النظر إلى حياتنا بدون ذاكرة كيف تكون، يكشف إلى حد كبير عن أهمية الذاكرة للإنسان. إن هؤلاء الذين فقدوا ذاكرتهم، يفقدون الكثير من هويتهم؛ لأن ما نحصل عليه من معلومات ونقوم بتخزينه، هو الذي يحدد حاضرنا ومستقبلنا أيضًا. إن الذاكرة هي التي تعينا على أن نتعلم من الخبرة، لذلك فالذاكرة لها أهميتها في أن تستمر حياتنا؛ إذ بدونها لن تكون لنا قدرة على أن نتعلم، وأن نخزن، وأن نسترجع ما يساعدنا على الاستجابة للأخطار الحياتية، أن نعرف متى ينبغي أن نفر أو نتقدم؛ لذلك ففهم الذاكرة له أهميته الحيوية للجميع، خاصة للآباء والمعلمين.

يمثل التناول لبناء الذاكرة مدخلاً مهمّاً للتعرف على هذه الطبيعة، وقد يعرض لبناء الذاكرة من خلال تناول تقسيماتها المختلفة، التي عملت، وما زالت تعمل عليها الدراسات والأبحاث التجريبية والإمبريقية؛ حيث يعتبر أكثر ملائمة لفهم طبيعة الذاكرة. وتقسيم الذاكرة إلى أنواع ليس حديّاً، بل يرجع في تاريخه إلى عام 1949. وعلى إثرهما ظلت الأبحاث التجريبية تتولى منطلقة من هذه التقسيمات المترفرفة لأنواع الذاكرة، حتى كانت السبعينيات من القرن العشرين، حيث استشعر العديد من الباحثين في علم النفس ضرورة التعامل مع الذاكرة باعتبارها نظاماً واحداً، لا يتضمن تقسيماً. لكن سرعان ما عادت مرة أخرى رؤية الذاكرة الإنسانية باعتبارها عدداً من الأنظمة، في السبعينيات من نفس القرن، وكان التركيز على التفرقة بين الذاكرة قصيرة المدى في مقابل الذاكرة طويلة المدى، والذي وجد قبولاً على مدى واسع من المتخصصين. ومع نهاية القرن،

ووجدت تقييمات لهذين النظارتين إلى مزيد من الأنظمة الفرعية في كل منهما، ولاشك أن ذلك كان بناء على نتائج الدراسات التجريبية.

ولقد تبع هذا طرح العديد من النماذج التي توضح العلاقة بين تقييمات الذاكرة، غير أن أغلبها يميل إلى تناول الذاكرة باعتبارها ثلاثة أنظمة هي: الذاكرة الحسية، والذاكرة قصيرة المدى، ثم الذاكرة طويلة المدى. ومن أشهر النماذج الممثلة لهذا التقسيم نموذج أتكسون وشيفرين<sup>(\*)</sup> عام 1968، وقد اكتسب هذا النموذج صفة النموذج الشائع The Modal Model لكونه نفطياً ومؤثراً. في هذا النموذج يفترض أن المعلومات تأتي من البيئة، من خلال مجموعة متوازية من مصادر الذاكرة الحسية، ثم تذهب إلى أماكن تخزين الذاكرة قصيرة المدى، وهي من المفترض أن تقوم بعمل الذاكرة العاملة، وتكون قادرة على التعامل مع المعلومات، ثم ترسلها إلى الذاكرة طويلة المدى. ويوضح من ذلك أن الذاكرة قصيرة المدى تمثل حلقة وصل مهمة في هذا النموذج، وبدونه لا يكون تعلم الجديد، أو إعادة تجميع المعلومات ممكناً.

وفيما يلي نعرض بالتفصيل لأنواع الرؤى في تقسيم الذاكرة الإنسانية، وللأنظمة الفرعية التي يتضمنها كل نوع منها.

### أنواع الذاكرة:

اختلت الرؤى حول تقسيم الذاكرة، وقد يعكس هذا الاختلاف زاوية الرؤية التي يطل منها الباحثون على الذاكرة من ناحية، ومدى التقدم في البحث العلمي في الذاكرة من ناحية أخرى؛ إذ بينما قسمت تارة إلى الذاكرة قصيرة المدى في مقابل الذاكرة طويلة المدى، نجد هناك تقييمات أخرى للذاكرة طويلة المدى إلى ذاكرة الأحداث في مقابل ذاكرة المعانى. أو التقسيم إلى ذاكرة أولية في مقابل الذاكرة الثانوية، أو الذاكرة المعلنة في مقابل الذاكرة الضمنية. فضلاً عن هذا، فقد ارتبط تقسيم الذاكرة بمرحلة البحث في الذاكرة، والتقدم العلمي في اكتشاف المزيد من أسرارها؛ إذ مع بداية السبعينيات يعرض التراث لأنواع متعددة من الذاكرة، تتجاوز تقسيمات نموذج أتكسون وشيفرين إلى مزيد من التقييمات الفرعية، تعددت بتعدد السياقات، وهي كما يلى:

- 1- **ذاكرة الأحداث (Episodic memory):** وهي ذاكرة الأحداث الماضية في حياة الفرد.
- 2- **الذاكرة الواقعية (factual memory):** وهي ذاكرة الأحداث المميزة في حياة الشعوب مثلً (مثل وقوع حرب أكتوبر في 1973).
- 3- **ذاكرة المعانى (semantic memory):** وهي ذاكرة المعنى، حيث يرتبط الشيء بعده من المعانى. فمثلاً الفراشة هي حشرة ذات أربعة أجنحة ملونة، وهو ما يحمل في طياته إحساس ملمس بعينيه، والإنسان العادى يحفظ مئات الآلاف من الكلمات ومن المعانى.

(\*) سيتم تناول هذا النموذج واختلافه عن النماذج الأخرى بقدر من التفصيل في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

- 4- الذاكرة الحسية (Sensory memory): وهي ترتبط بالحواس، إذ يمتلك غالبية الأفراد ذاكرة بصرية قوية، فهم يستطيعون تذكرآلاف الوجوه للأفراد، وقد يعرفون أكثرها بوضوح شديد ( "in the eye of mind" ، كما يستطيع الغالبية أن يتذكروا أصوات القطع المفضلة لديهم في الموسيقى، أو شم رائحة الأطباقي الشهية لديهم.
- 5- المهارات (skills): تتضمن الذاكرة المهارات التي تعلمتها الفرد ويؤديها.. فالفرد يتذكر كيف يلعب الكرة بمهارة، وكيف يتحدث، وكيف يقود السيارة، فهي مهارات يتعلمها الفرد مبكراً في حياته.
- 6- الذاكرة الغريزية (instinctive memory) : يتذكر الطفل حديث الولادة أن يتلتصق بصدر أمها، كما يتذكر مخ الناضج كيف يتنفس، وكيف ينام، ويهضم ... إلخ. إن أساسات مثل هذه الأمور يورث ويحافظ في الجينات، هذه الذاكرة الجينية تحدد العديد من الخصائص الإنسانية فيزيقياً وعقلياً.
- 7- الذاكرة الجماعية (collective memory): ذكر علماء النفس - وعلى رأسهم يونج - أننا ربما نملك ذكريات تخص الجنس البشري كله، ويبدو هذا - بصفة أساسية - في الأحلام، كالرموز التي يتشاربه فيها الغالبية العظمى من الأفراد رغم كونها خارج نطاق خبرات حياتهم العادية.
- 8- ذاكرة الماضي (past life memory): يستطيع بعض الأفراد تذكر الأحداث في السنوات المبكرة من حياتهم، وأحياناً منذ عدة قرون مضت. وتحت تأثير التنشئ المغناطيسي، يمكن فحص هذه الذاكرة. وقد وجد أن ما يتذكره هؤلاء الأفراد يرتبط بما يحدث في الماضي، رغم أن الفرد قد لا يكون لديه أي معرفة بهذا الوجود (Russel, 1990, 82). ولذلك أن ما يعرضه روسيل يمثل أنواعاً متفرقة من الذاكرة، يستشعرها الفرد في المواقف المختلفة. غير أن هذه التقسيمات لم تقدم غير تفصيلات داخل نموذج أتكنسون، الذي يقدم رؤية كلية تدرج تحتها غالبية السلوكيات التي تنتمي إلى الذاكرة.

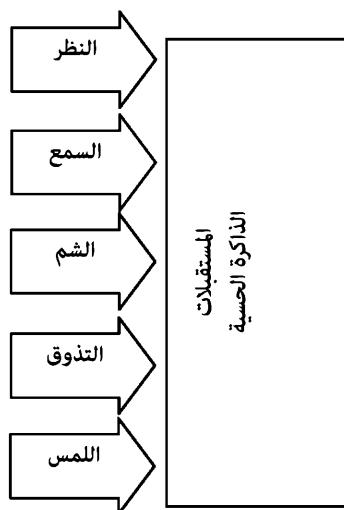
أما آلان بادلي Baddeley - وهو أحد أشهر الباحثين في المملكة المتحدة في أبحاث الذاكرة العاملة والتأصيل لها - فقد قصر تناوله لبناء الذاكرة على ثلاثة أنواع فقط، هي: الذاكرة الحسية، والذاكرة قصيرة المدى (الذاكرة العاملة)، ثم الذاكرة طويلة المدى، وهو ما يتفق مع النموذج الذي وضعه أتكنسون وشيفرين (Atkinson & Sheffrin, 1968). ويدين هذا النموذج بالتعديلات التي طرأت عليه للكثير من التخصصات، مثل علم الأعصاب، وعلم النفس المعرفي، وعلم النفس الارتقائي. واعتبر هذا النموذج - لعقود متعددة سابقة - نموذج تشغيل المعلومات، الذي نبع من

نظيرية تشغيل المعلومات، التي تعد نتيجة لاختراع الحاسب الآلي، وهو ما سنعرض له لاحقاً في الفصل الثالث. ويعد النموذج إطاراً تنظيمياً للذاكرة الإنسانية، يمكن النظر إليه باعتباره قليلاً وظيفياً أكثر منه بنائياً ملكونات نظام الذاكرة الإنسانية. ويعنى هذا، أن هذا النموذج لا يعني أن هذه الأنواع الثلاث من الذاكرة لها أماكن محددة في المخ، كما أنه لا يعني أنهم منفصلون كنظم متفردة. بل أكثر من هذا، أن الأنواع الثلاثة للذاكرة لا تمثل مراحل متمايزة ومحددة في عملية الذاكرة، بل هي أسماء اتفق عليها لتساعدنا على فهم العملية التي بواسطتها يستطيع المخ الإنساني أن يرمز بالمعلومة وي 저장ها، ويسترجع ويتكامل المعلومات الحديثة مع المعلومات التي سبق تخزينها. وفيما يلى نتناول كلاً منها بالتفصيل.

#### 1-الذاكرة الحسية:

ت تكون الذاكرة الحسية لدينا من التسجيلات الحسية، التي ترتبط بدورها بالحواس الخمس: السمع، الإبصار، اللمس، التذوق، ثم الشم. فهذه الحواس تساعد الفرد على التواصل مع البيئة، وعلى استقبال المعلومات الواردة منها. إن كل شيء في الذاكرة يبدأ كمدخل حسي من البيئة المحيطة، وإن دور الذاكرة الحسية يتركز في استقبال المعلومات الواردة للمخ من خلال المستقبلات، ثم تمسك بها لجزء من الثانية، حتى يصدر القرار بشأنها.

والشكل التالي يوضح مصادر الذاكرة الحسية



مصادر الذاكرة الحسية

ولقد ركزت الأبحاث على التسجيلات السمعية والبصرية بصفة أساسية؛ فالتراث يعرض لنوعين من الذاكرة الحسية، هما: الذاكرة البصرية، والذاكرة السمعية، حيث تتعامل الذاكرة البصرية مع المعلومات البصرية التي يمكن رؤيتها، والتي تستثير التسجيلات البصرية لها. وعن مدة الاحتفاظ بهذه المعلومات قدرتها الأبحاث ثنائية واحدة بعد اختفاء المثير، أما الذاكرة السمعية فإنها تتعامل مع المعلومات السمعية التي تثير التسجيلات السمعية، ويمكن الاحتفاظ بها ما يقرب من أربع ثوانٍ بعد اختفاء المثير.

ومن ثم فإن النظام الحسي يكون محدوداً، حيث إنه يستطيع الاحتفاظ بالمعلومات لفترة قصيرة للغاية، كما يستجيب فقط لكم محدود من المعلومات، وتعمل الذاكرة الحسية كأنها الفلتر الذي ينقى كل المعلومات المتاحة للفرد. أما العملية العقلية التي تقوم بعملية الانتقاء فهي الإدراك ، فكأن الذاكرة الحسية هي فلتر عملية الإدراك .

ويضرب بادلي مثلاً ليوضح به كيف تم عملية الإدراك البصري مثلاً لحدث ما. ويختبر هنا أحداث الفيلم السينمائي مثلاً، إذ حينما يذهب الفرد إلى السينما، فإنه يرى ما يجدوه له باعتباره منظراً مستمراً يتحرك فيه الأفراد بهدوء وبصورة طبيعية. غير أن ما يراه فعلًا هو عبارة عن مجموعة من الصور الجامدة التي تتخللها فترات قصيرة من الظلام. ولكن يراها صوراً دائمة التحرك، لابد أن تخزن النظام البصري في المخ المعلومات الواردة من إطار، حتى تأتي المعلومات من الإطار الآخر. إن مستودع الرؤية البصرية المسئول عن هذا، هو أحد مكونات أنظمة الذاكرة الحسية، التي تعد مسؤولة عن إدراكنا للعالم من حولنا. وفي داخل الذاكرة البصرية، هناك عدد من المكونات القادرة على تخزين المعلومات البصرية لفترة قصيرة. ولعل حركة السيجارة المشتعلة في حجرة مظلمة تكشف عن ذلك؛ إذ إن الحركة تترك بعدها أثراً، ويمكنك أن تكتب حرفاً ويرى غيرك هذا الحرف. ولقد استخدم هذا الأثر لقياس استمرارية أثر الذاكرة الحسية البصرية منذ عام 1740، على يد الباحث السويدي سينجر Segner، الذي أوصل جذوة مشتعلة إلى عجلة متحركة، فعندما تدور العجلة بسرعة، فإنه يمكن رؤية دائرة كاملة من النار؛ ذلك أن التأثير الذي ترك في بداية الدائرة ظل متوجهاً بعودة الجذوة إلى نقطة البداية، أما إذا دارت العجلة ببطء، فإن ما يمكن رؤيته هو دائرة جزئية؛ لأن التأثير قد ضعف أثناء الوقت الذي تم استغراقه لتعود الجذوة إلى نقطة البداية. وعن طريق قياس الوقت المستغرق في الدوران الواحد، حيث يمكنك الحصول على دائرة كاملة، حدده سينجر بأنه عشر الثانية. وتعرف هذه الظاهرة بأنها ظاهرة استمرار الرؤية persistence of vision وهذا يمكن إثباته بطريقة أخرى أكثر بساطة، وهي أن تفرد أصابع يديك، وتمررها أمام عينيك ببطء أوّلًا، ثم بسرعة. ستتجدد أنه في الحالة الأولى يبدو المنظر غير ثابت، أما في الثانية فإنه يبدو المنظر طبيعياً، رغم بعض تشوه الرؤية أو عدم وضوحها. ففي الحركة السريعة فإن تقطيع الرؤية يكون

ضئيلاً جدًا، بما يسمح لشبكة العين أن تسجل المعلومات، حتى تأتي الدورة الثانية قبل أن تضعف الرؤية السابقة. وتفسير هذا الأمر أن الضوء يستمر حتى بعد ذهاب الضوء ذاته، بما يتضمن أن هذا الضوء قد تم تخزينه. ولقد أشارت التجارب إلى أن تخزين الضوء يعتمد على أمرين، هما: شبكة العين، والتي تتأثر أساساً ب مدى توهج الضوء الذي تراه. أما الثاني فهو خاص بما يحدث في مكان داخل المخ بعد استقبال المعلومات الواردة إليه من كلا شبكتي العين.

ويحدث مثل هذا أيضًا في السمع؛ فالاستماع إلى نقر سريع في أحد أركان الحجرة التي أجلس بها، يساعد على تحديد مصدر هذا الصوت. ولكن يحدث هذه، فإنه على الفرد أن يفید من فارق الوقت القصير جدًا بين وصول الصوت إلى الأذن، وحدوده مرة أخرى، بما يشبه تسجيل السونار لتحديد مكان شيء ما. كما أن استخدام الطبيب للسماعة في سماع ضربات القلب يعتمد على الذاكرة الجيدة للأصوات واللغمات. ورغم تمثيل هذه النماذج للذاكرة الحسية، التي تمثل بدورها جزءاً من مكونات بناء الذاكرة، إلا أن ما تطرحه من قضايا يعالج في ضوء قضايا الإدراك السمعي والبصري.

وقد تبدو هذه العملية بسيطة نسبياً، إلا أنها مليئة بالمشكلات، لأن هذه المدخلات الحسية لا تصل دفعة واحدة لأجزاء متفرقة من المعلومات، لكنها تصل بصورة تلقائية. في خلال جزء من الدقيقة، تصل إلينا كمية عظيمة من المثيرات الحسية التي تقدم لنا كمّا كبيراً من المعلومات. فإذا كنت واعياً بكل الصور والأصوات والأحساسات اللسمية والشممية والذوقية التي تتعرض لها أجسامنا، فلابد أنك ستواجه حملًا حسياً زائداً، وبدون آلية ما لتنظيم المادة الحسية الخام وتحويلها إلى مادة ذات معنى، فلن تكون قادرًا على التفاعل معها. أما الدور الخاص بتتنقية المعلومات الكثيرة التي تفدي على الجسم من خلال الحواس المختلفة، فهو ما ندعوه بالذاكرة الحسية.

وقد يعزى إلى المخ - باعتباره إسفنجاً قائمًا بالمعلومات - وببعض القياسات، وجد أن المخ يرفض 99% من المعلومات فور وصولها إلى المخ، والسبب في هذا يرجع إلى أنها غير ذات علاقة في الوقت الراهن. فلاشك أن هناك أهمية ضئيلة للغاية في تذكرك مثلاً لكيفية إحساسك بالقلم بين أصابعك عندما كتبت به الأسبوع الماضي، والسؤال الأكثر أهمية هنا: كيف يستطيع المخ أن يميز بين ما يحفظ به وما يرفضه؟ وأي العوامل التي تؤثر على المخ لكي ينتبه لمثيرات بعينها دون أخرى؟

#### المؤشرات الحسية والانتباه:

كل المعلومات التي يتم استقبالها عن طريق المستقبلات الحسية لابد من إرسالها إلى القشرة الحسية المناسبة للتعامل معها، والمسؤولية في هذا تقع على عاتق منطقة المهداد. فكل البيانات الحسية ما عدا الشم تذهب أولاً إلى منطقة المهداد، ومن هناك تذهب إلى المكان المناسب من القشرة المخية؛ للتعامل معها وتحويلها من كونها أشعة من الضوء مثلاً، أو من موجات صوتية إلى مدرك. ويختص

الإدراك بالمعنى الذي يرتبط بالمعلومات عند إدراكتها من خلال الحواس. فقد تقع العين على صورة ما، لكن ما ندركه يتأثر بالمعلومات التي يختزناها المخ، أما إذا كان المخ ليس لديه المخزون الذي يستمد منه الفرد المعنى - كما في الأطفال وإدراك الأرقام - يظل الشيء المترئ أو المسموم بلا معنى.

هذا عن الإدراك وتحويل المؤشرات الصوتية أو الضوئية إلى معنى يفهمه الفرد، فماذا عن دور الانتباه في هذه العملية؟

كثيراً ما يتهم الأطفال بأنهم غير متنبهين، وهو قول غير صحيح علمياً؛ فالمخ دائمًا في حالة انتباه، لكن ما نعنيه بالفعل هو أن الطفل لا ينتبه إلى ما نتصور نحن أنه مهم، أو ذو علاقة. فالانتباه انتقائي، لكن كيف يقرر المخ ما الذي ينتبه إليه، وما الذي ينبذه؟ فإن هذه العملية الانتقائية تتم بشكل لاشعوري في أغلب الأحيان؛ حيث يقوم بها المخ اللاشعوري. وتعتبر عملية التتقية هي المدخل إلى هذا؛ إذ من خلال هذه العملية، يتم تحديد إذا ما كانت المثيرات القادمة إلى المخ من النوع الذي اعتدنا عليه أم يتميز بالجدة. هذا الجديد يفوز بالانتباه الفطري وغالباً ما يفيد المعلمون من هذه الخاصية، فيقدمون المعلومات بأسلوب جديد غير مألوف حتى ينتبه لها مخ الدارس.

وبالإضافة إلى خاصية الجدة في ارتباطها بالانتباه، هناك أيضاً خاصية درجة القوة، التي تمثل عاملاً آخر من عوامل الانتباه. فالصوت الأعلى، والضوء الأقوى هو الأكثر حظاً من الانتباه، ولاشك أن مصممي الإعلانات عن السلع يفيدون كثيراً من هذه الخاصية. والحركة هي العامل الثالث الذي يؤثر على عملية الانتباه، فنحن ننتبه إلى الأشياء التي تتحرك أكثر من الأشياء الثابتة، فالأضواء المتحركة فوق سيارة الشرطة هي أحد نماذج الاستفادة من استخدام الحركة في جذب الانتباه.

لكنه من الجدير بالذكر أن هذه العوامل تستمر لفترة، ثم تفقد فاعليتها بعد ذلك في جذب الانتباه؛ بسبب الاعتياد عليها. هل يعني ذلك أننا نظل تحت رحمة المخ النزوبي المتقلب، الذي يقاوم كل الجهود التي تقدم له للتريكز على مثيرات بعينها؟

والإجابة هي بالنفي؛ حيث يقدم المتخصصون عاملين من أقوى العوامل فاعلية في الانتباه إلى العوامل الوافدة إلى المخ، وفي بقائهما أيضاً، وهما: عامل المعنوي والانفعاليات.

#### المعنى والانفعاليات وعملية الانتباه:

سبق أن ذكرنا أن المخ يقوم بفحص المعلومات الواردة إليه، ويوازن بينها وبين المعرفة المخزنة في الشبكة العصبية، أو الدوائر العصبية للخلايا. ويعنى ذلك أن الشبكة العصبية تقوم بمراجعة المثيرات الحسية بمجرد وصولها للمخ؛ للتعرف على مدى انتماها للنماذج المألوفة للمخ. فإذا كان الأمر كذلك، يقوم المخ بالموازنة بين المعلومات الجديدة والنماذج المألوفة في المخ، ويحدد إذا ما كانت المعلومات الجديدة مألوفة أم لا، ومن ثم نستطيع القول إن المعلومات الجديدة ذات معنى.

أما إذا لم تحدث الملواءمة، فقد ينتبه المخ إلى المعلومات الوافدة بعض الوقت؛ لكونها جديدة عليه، لكنه إذا فشل في وجود معنى لهذه المعلومات، فإنه لن يتعامل مع هذه المعلومات مجدداً؛ لذلك هناك العديد من الإستراتيجيات التي يقدمها التربويون لإضفاء المعنى على المعلومات الجديدة للانتباه إليها، ثم للاحتفاظ بها.

أما الانفعالات فقد تفوق في تأثيرها على المعلومات الوافدة إلى المخ تأثير المعنى؛ ذلك أن برمجة المخ البيولوجية تقوم على الانتباه أولاً إلى المعلومات ذات المحتوى الوجданى القوى، كما أنه يتذكر هذه النوعية من المعلومات فترة أطول. فالمخ البشري مصمم لأن ينتبه للمخاطر الفيزيقية (مهاجمة حيوان شرس)، كما ينتبه لتعبيرات الوجه، وعلامات لغة الجسم التي تتضمن معلومات مشحونة بالانفعالات الضرورية للحياة اليومية للفرد. وفي اختبار ستروب (Stroop test)<sup>(1)</sup> ما يمكن أن يقدم قياساً نمطياً لدور الانفعال في عملية الانتباه؛ حيث يتعرض المشاركون لعدد من الكلمات المطبوعة بألوان مختلفة من الحبر، ويطلب منهم تذكر ألوان الحبر دون الالتفات إلى معانى الكلمات. أما في الصورة المطروحة من هذا الاختبار في المجال الإكلينيكي، فقد ضم عدداً من الكلمات، بعضها محمل بالانفعالات، مثل (يعتصر، يفرج، يفزع)، وكلمات أخرى محايدة، مثل (كرسي، يحفظ، حائط). وينطبق على الاختبار وجّد المشاركون في التجربة صعوبة كبيرة في تجاهل معانى الكلمات، وتذكر الألوان فقط. وقد يتعاظم هذا التأثير في المثيرات المرتبطة بشخص محدد، مثل كلمة ثعبان بالنسبة للفرد الذي يعاني من فوبيا الثعابين.

وفي تجربة أخرى، كان على المستجيب أن يميز شيئاً محدداً من بين أشياء كثيرة تم أمام عينيه سريعاً، من خلال جهاز عرض. ولقد وجد أن تمييز الوجوه السعيدة أو الغاضبة كانت أسهل من تمييز الوجوه المحايدة، التي لا تعبر عن معنى محدد. ولقد فسرت دراسات تصوير المخ ذلك بأن اللوزة Amygdala تكشف عن تشيسط قوى لتعبيرات الوجوه الخائفـة، بالقياس إلى الوجوه المحايدة.

وهكذا، فإن المثيرات التي تنهمر علينا من خلال الحواس، تجد طريقها إلى المخ، والقليل منها هو الذي يتم نبذه. فضلاً عن هذا، فإن هناك عوامل أخرى متعددة تلعب دوراً مهماً في الانتباه لهذه المعلومات، ومن ثم يتعامل معها المخ في المراحل التالية في الوظائف الأخرى كما سنوضح.

(1) هو أحد الاختبارات الشائعة في علم النفس؛ إذ يطلب إلى الفرد أن يذكر اسمَّاً للون الحبر الذي كتب به الكلمة، فمثلاً: تكتب الكلمة أخضر بالحبر الأحمر، وعلى المشارك أن يذكر اللون الأحمر، ويقيس الاختبار تشوش الذاكرة. والأفراد الذين يفشلون في هذا الاختبار غالباً ما يعانون من صعوبة التركيز. وحديثاً قد عدل هذا الاختبار في علم النفس الإكلينيكي، ولكن مع استبدال الاستجابة السابقة باستجابة أخرى تكشف عن الأضطرابات الانفعالية.

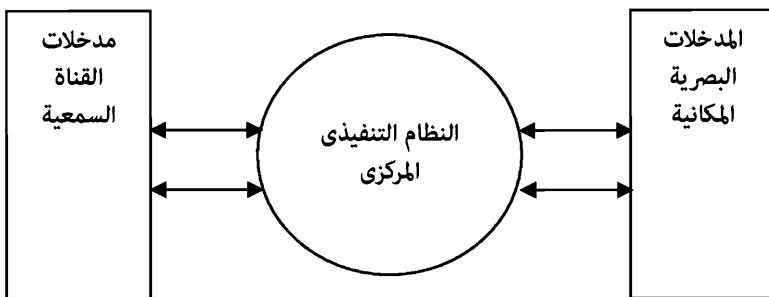
## 2-الذاكرة قصيرة المدى:

رأينا فيما سبق كيف أن الذاكرة الحسية تسبق عملية الانتباه، بل هي التي تضبط هذه العملية، أما عندما يتم الانتباه إلى المثير، فإنه يمر إلى الذاكرة قصيرة المدى، ويعنى ذلك أن الذاكرة قصيرة المدى تتكون مما تم الانتباه إليه في الحال. ومن ثم، فإنه حين تناول أن نتذكرة مجموعة من الأعداد في خلال ثوانٍ، فهذه العملية تحدث في الذاكرة قصيرة المدى. ومن ثم يمكن تحديد خصائص الذاكرة قصيرة المدى بأنها تشغّل مكاناً محدوداً للتخزين، وتستمر لفترة محددة.

ومزيد من الفهم لمعنى الذاكرة قصيرة المدى، نضرب المثال التالي: طلب إليك أخذهم أن تضرب  $27 \times 3$  بعقلك، حول نظرك عن الورقة التي بها الأرقام، وقم بتنفيذ العملية. لاشك أنك تحتاج أولاً إلى تذكر الأرقام السابقة، ثم تضرب  $7 \times 3$ ، وتتذكر أنه  $21$ ، كما تذكر أيضاً أن تضع الرقم  $1$ ، وتحتفظ بالرقم  $2$ ، ثم تعود مرة أخرى لضرب الرقم  $2 \times 3$ ، ثم تضيف إلى الناتج الرقم  $2$  الذي احتفظت به، ويصبح ناتج هذه العملية هو  $81$ . من الواضح أن تنفيذ هذه العملية يتطلب تعاملاً جيداً مع التخزين المؤقت للأرقام، التي لا بد من استرجاعها بدقة في الوقت المناسب. وب مجرد الانتهاء من العملية لا تعد هناك حاجة إلى تذكر هذه الأرقام، وبعد إجراء عملية ثانية وثالثة لاشك أن الفرد لا يستطيع تذكر الأرقام التي تعامل معها.

معنى ذلك أن الحاجة إلى المخزون المؤقت من المعلومات، تكون مهمة في عمليتي فهم اللغة والعمليات الحسابية؛ وذلك لتنفيذ الوظائف المختلفة لمساعدة على الفهم أو الحساب، وفور تنفيذ المهمة لا تعد هناك حاجة إلى هذه المعلومات. ومن هنا فإن مصطلح الذاكرة العاملة أو الذاكرة قصيرة المدى هو ما يطلق على هذا النظام، أو بالأحرى على هذه الأنظمة.

والشكل التالي يعد تمثيلاً للذاكرة العاملة، ومصادر المعلومات لها، كما يمثلها نموذج بادل وهيتسن:



(brain matters , p 90)

ولقد عرفت الذاكرة قصيرة المدى في الماضي على يد ويليام جيمس William James في نهاية القرن التاسع عشر، عندما ميز بين نوعين من تخزين المعلومات؛ قصير الأجل وطويل الأجل. وأطلق جيمس على هذين النوعين من الذاكرة: الذاكرة الأولية Primary memory في مقابل الذاكرة الثانوية Secondary memory . غير أنه ظلت هذه التعريفات دون أبحاث تضيف إليها وضوحاً، أو تحدد خصائص بذاتها للذاكرة قصيرة المدى، حتى كانت جهود جورج ميلر George Miller في الخمسينيات من القرن العشرين. فقد استطاع من خلال تجاربها أن يصل إلى الرقم السحري + أو - الرقم 7 . ويعني أن الفرد يستطيع أن يحفظ فقط بسبع وحدات نشطة في المخزن قصير المدى، وهذا الحد يؤثر على أداء مدي واسع من المهام المعرفية. وقد دعمه في هذا، نتائج التذكر قصیر المدى، والاستدعاء الصحيح للأرقام. ولكن، كيف تطورت الأبحاث في هذا الصدد، وكيف اختلفت المفاهيم وتبدل من الذاكرة قصيرة المدى إلى الذاكرة العاملة، وهل هناك فروق بينهما؟ أم أن الفروق في التسمية فقط؟ كل هذه التساؤلات نجيب عنها في الفصل الخاص بالذاكرة العاملة.

### 3-الذاكرة طويلة المدى:

تعتبر الذاكرة طويلة المدى هي أكثر الأنواع انطباقاً على معرفة العامة بما تعنيه الذاكرة. وهي تمثل تخزين المعلومات لفترة كبيرة. ويرى بعض الباحثين أن المعلومات التي تخزن في هذه الذاكرة لا تختفي، أو لا تضيع من الذاكرة، لكن ما يحدث هو أنه تزايد صعوبة الحصول عليها، أي استرجاعها. فتذكر اسمك، وكيف تتحدث، وأين كنت العام الماضي، وأين كنت تعيش عندما كنت طفلاً، كلها أمور تعتمد على الذاكرة طويلة المدى، وهذه الذاكرة، تعنى أساساً بتخزين المعلومات. وبالنسبة لعام النفس التجربى، فإن الذاكرة طويلة المدى تعنى المعلومات التي تم تخزينها بكفاءة لفترة تزيد على عدد من الثوانى؛ ذلك أن طريقة اختبار الذاكرة بعد دقيقةتين تمايل الطريقة التي تختبر بها الذاكرة بعد يومين أو عامين. ويعرفها بروننج أنها مستودع دائم للمعلومات، التي نجمعها على مدى فترة من الوقت، ربما أيام أو شهور أو سنوات ( Brunning, 1995 ). إذ بعد تعلمنا لحقيقة ما، نكون أكثر ميلاً لمعرفتها غداً، أو الشهر القادم، أو حتى على مدى العمر. وعلى عكس الذاكرة الحسية والذاكرة قصيرة المدى، فالذاكرة طويلة المدى غير محدودة، لا يمكن تعطيلها بسهولة، وهي لا نهاية في كفاءتها، كما تبدو أنها ثابتة إلى حد بعيد، وأثرها ثابت لفترة طويلة. ورغم أن النسيان قد يحدث، فإن هناك نقاش حول سبب حدوثه، هل بسبب حدوث تغيرات في الميتابوليزم، تؤدى إلى انهيار الذاكرة طويلة المدى، أم بسبب عدم القدرة على الاسترجاع منها.

وقد استطاع إندل تولفنج في كندا ( Endel Tulving, 1972 ) أن يميز بين نوعين من الذاكرة طويلة المدى، وهما:

### أـ. الذاكرة الشخصية .. ذاكرة الأحداث وذاكرة المعانى :Episodic , Semantic memory

ذاكرة الأحداث *episodic memory*, هي الذاكرة التي توصف بأنها المسئولة عن تخزين تسجيل الأحداث التي نمر بها في حياتنا، فهي تتضمن تذكر أحداث بعينها. غير أن الأمر المهم في هذه الذاكرة هو أن الاسترجاع يتضمن معايشة الخبرة مرة أخرى، ومن المعتمد أن يتضمن ذلك بعض الصور المرتبطة بالحدث. أما ذاكرة المعانى *semantic memory* فهي التي تعنى أساساً بالمعرفة العامة عن العالم؛ إذ إن معرفة معنى كلمة ما، أو عاصمة فرنسا مثلاً، أو التركيبة الكيميائية للملح مثلاً، كلها تمثل أمثلة لذاكرة المعانى. والخاصية الأساسية لذاكرة المعانى تكمن في أنها يمكن أن تستخدم بدون الرجوع إلى الأحداث التي كونت مضمونها. فعندما نستخدم اللغة، أو نقوم بعملية حسابية، تكون على غير وعي بالظروف الأساسية التي تعلمنا في ضوئها أن نفعل هذه الأشياء، كما أنه أيضاً يمكن أن نخزن معلومات عن أنفسنا في ذاكرة المعانى. لكن الفارق هو عندما نسأل عن رؤيتنا لشيء ما مثلاً، فإن الإجابة هنا لا تتطلب تذكر حدث بعينه؛ إذ إن لدينا الكثير عن أنفسنا الذي يمكن أن نعتمد عليه في الرد على السؤال.

ودراسة الذاكرة الشخصية تعنى كيف يمكن للأفراد أن يتذكروا الخبرات الشخصية من الماضي، ويكون التركيز على الأسئلة، مثل: أي الأحداث يمكن تذكرها بصورة أفضل؟ هل تتغير الذكريات عبر الزمن؟ كيف يمكن بحث هذه الذاكرة وتذكر أحداثها؟

وقامت ماري جولد ليتون (Marigold Linton, 1982) بدراسة على مدى ست سنوات على ذاكرتها، فكانت يومياً تكتب على كروت وصفاً مختصرًا على حدثين على الأقل من أحداث اليوم، وكل شهر تعيد قراءة حدثين فقط من أحداث الشهر - اختيار عشوائي، وتحاول تذكر تفاصيل هذين الحدثين؛ لتقدير تاريخ حدوثهما، والنظام الذي حدث به، كذلك كانت تحدد أهمية هذين الحدثين، والحالة الانفعالية لها وقت التسجيل ووقت الاستعادة.

ولقد استطاعت ليتون أن تحدد نمطين من النسيان، هما:

\* أولهما: يحدث نتيجة تداخل الأحداث المتشابهة مع بعضها البعض، وذلك يعني أن الأحداث المتشابهة تختلط معاً، مما يؤدي إلى فقدان العلامات المميزة لحدث منهم.

لذلك فإنه من المهم هنا التفرقة بين ذاكرة الأحداث وذاكرة المعانى في الذاكرة الشخصية، حيث تعنى ذاكرة الأحداث بتسجيل الخبرات الشخصية - الأحداث لا الأفراد، الأشياء التي واجهتك شخصياً. أما ما يخص ذاكرة المعانى، فهي تتكون من الحقائق عن العالم ككل بصفة عامة، ومن ثم فإن الفرد في ذاكرته الشخصية لابد أن يخزن معرفة شخصية عن الأشياء، وعن الأحداث التي تواجهه، وكل من نوعي الذاكرة؛ الأحداث والمعانى يتداخلون معاً، وبينهما تفاعل من أسفل إلى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل.

\* أما النوع الثاني من النسيان، فهو عند قراءتها لما دونته عن حدث ما، فإنها لا تذكر هذا الحدث كليّة. هنا نسيان لا يعزى إلى تداخل أو تشابه الحدث مع غيره، فقد وجدت ليتنون أن هذا النوع من النسيان يتزايد بمرور الوقت.

كما ذكرت ليتنون من خلال هذه الخبرة أن النوعين من النسيان يحدثان بصفة متوازنة، كما وجدت أن 30% من الأحداث التي سجلتها لنفسها، قد تم نسيانها تماماً مع نهاية العام السادس.

غير أنه مما يلفت الانتباه في تجربة ليتنون هو فشلها في إيجاد علاقة قوية بين الحالة الانفعالية وأهمية الحدث، وبين درجة التذكر، إذ يؤدى الإحساس العام إلى أن تذكر الأحداث المهمة أو الأحداث ذات الصبغة الانفعالية، أكثر من الأحداث الأخرى غير المهمة، أو التي لم تتميز بانفعالنا بها. ولقد فسرت ليتنون ذلك بأن الأحداث التي تسجلها على أنها مهمة ومشحونة بالانفعال في وقت حدوثها - قد تتغير بعد ذلك وتقلل أهميتها بالنسبة لنا، بعد مرور فترة من الوقت، وهذه الذكريات عرضة لحدوث النسيان. أما الأحداث التي تسجل على أنها مهمة وذات طبيعة انفعالية عالية وقت حدوثها، ووقت استرجاعها أيضاً، فهذه الذكريات هي التي تبقى وتبث في الذاكرة. كما درست أيضاً إستراتيجيات التذكر التي كانت تتبعها في تذكر الأحداث، وقد وجدت أنه في البداية كان يمكن أن تذكر الأحداث حسب تسلسلها الزمني، وكان يتم الاستدعاء بإعادة بناء الأحداث في النظام الذي حدثت به. وبعض الأحداث تم تنظيمها في فئات، وتم استدعاؤها في ضوء الفئة التي تدرج تحتها. ولقد لاحظت أنه بعد مرور عامين على الحدث، كان هناك تحول من البحث من خلال نظام التسلسل الزمني إلى الاستخدام الأكثر للفئات في البحث. وهذا التحول يعكس حقيقة أن مثيل ذاكرة الأحداث - بناء على عامل الزمن - قد استبدل بالبحث من خلال الفئة التي ينتمي إليها موضوع الحدث. كما كشفت أيضاً أن بعض الأحداث قد تتنظم حسب ما أسمته ليتنون للأحداث الممتدة، وهي عبارة عن موافق مستمرة، مثل العمل أو الزواج. في مثل هذه الأحداث، فإن هناك أحداًًاً بعينها تتنظم تحتها، وهي بدورها تتضمن تفصيلات خاصة.

ولكن يبقى القول إن هذه تجربة خاصة للباحثة، بقدر ما ألت الضوء على أشياء متعددة تخص الذاكرة الشخصية، إلا أنه لابد من الحذر في التعميم منها، لكنها لاشك تفتح الأبواب أمام البحث العلمي في مجال الذاكرة الشخصية.

ولاشك إذن أن هناك فروقاً بين ذاكرة الأحداث الشخصية للإنسان، وبين المعرفة العامة عن الكون المتطلبة في مرحلة بعینها من الزمن، وسواء مثل ذلك أجزاء مختلفة من نظام واحد أو أنظمة مختلفة، فهذا أمر ليس معروفاً حتى الآن. غير أن هذه التفرقة ذاتفائدة، ولقد اعتمدت الكثير من البحوث عن الذاكرة على المادة اللغوية، حيث تسهل استخدامها، ويمكن تسجيل استجابات الأفراد أيضاً. وفي السنوات الحديثة يثير الباحثون التساؤل الخاص بما إذا كانت الذاكرة اللغوية تمثل كل الذاكرة، خاصة وأن الذاكرة لما هو خبرات حسية وغير قابلة للتعبير عنها باللغة تعتمد على

أنظمة تذكر مختلفة تماماً. فنحن بلاشك نتذكر طعم الجبنة أو رائحة المطاط المحترق، أو صوت البحر، حيث يصطدم بالشاطئ الصخري، وذلك دون استخدام الوصف اللغوي لهذه الخبرات. فهل هناك أنظمة لفظية وسمعية مختلفة للتذكر؟ أم أن الكل يتبع نظاماً واحداً، قادرًا على تسجيل كل أنواع الخبرات؟ ما زال البحث جارياً في هذا الصدد.

ولقد دلت الأبحاث العلمية حول الذاكرة الشخصية، أن الأفراد المصابين بفقدان الذاكرة يمكنهم تذكر أحداث الذاكرة الشخصية. ففي المصابين بفقدان الذاكرة اللحقة للحدث، سواء تم اختبارهم بقوائم الكلمات أو بالصور، أو بوجوه الأفراد، أو باختبار القدرة المكانية - أيدت غالبية الدراسات على هؤلاء المرضى أنهم يواجهون صعوبة في استعادة معلومات أو خبرات جديدة حدثت لهم بعد الإصابة، أي بعد وقوع الحدث. وقد اختلفت نتائج الأبحاث في انطباق هذا الاضطراب على ذاكرة الأحداث الشخصية؛ فهناك بعض الدراسات التي أثبتت أن مرض فقدان الذاكرة يمكنهم تذكر أحداث من الذاكرة الشخصية (Hirst, 1994)، بينما أثبت البعض الآخر عكس ذلك. لذلك قام هيرست وماريا ميدفید (Hirst & Medved) عام 2006 باختبار هذه النتيجة مرة أخرى، على عينة من مرضى فقدان الذاكرة، وكان الغرض هو التعرف على إمكانية تذكر هؤلاء المرضى لما يسمى بمناطق المنعزلة في الذاكرة islands of memory. وهو يخص الذكريات الغنية بالتفاصيل التي يتذكراها مرضى فقدان الذاكرة، ويمكن تحديد وضعها مكائياً وزمانياً. كما يعزى هذا المصطلح إلى الذكريات التي تبدو متواجدة في محيط من النسيان، وغالباً ما يلاحظ وجود هذا النوع من الذاكرة لدى مرضى فقدان الذاكرة اللاحقة للحدث retrograde amnesia. حيث يمكن أن يتذكروا الأحداث السابقة على الإصابة. وقد اختلفت العينة في درجات الإصابة، غير أنها جميعاً من مرضى فقدان الذاكرة الماضية السابقة على الإصابة . وتكونت العينة من أربعة عشر مريضاً، ( 9 من الإناث - و 5 من الذكور )، ومتوسط العمر كان خمسين عاماً ( من 27 - 76 ). ولقد تم تسجيل الأحداث التي ذكرها المريض من حيث؛ الحدث، وقت الحدوث، المكان، التفاصيل، أو الانفعالات، أو الأفكار. كذلك تم تسجيل الحدث بعدد الكلمات ( كان يتم تسجيل الحدث من حيث الوقت، والتفاصيل والمكان وتعطى الدرجة على هذا الأساس من 3). لم تكن هناك تفرقة بين ذاكرة الأحداث وذاكرة المعانى في هذه الأحداث.

ولقد أسفر البحث عن وجود الذاكرة الشخصية اللاحقة للإصابة لدى ثمانية من المرضى، في مقابل ستة كانت لديهم الذاكرة الماضية السابقة على الإصابة، وكان متوسط الأولى 114 كلمة في مقابل 32 كلمة، وكذلك اختلفت الذكريات بينهما في التفاصيل. وخلاصة هذه الدراسة أن المصابين بفقدان الذاكرة، لا تكون الذاكرة لديهم مسطحة تماماً، حتى لدى المرضى منهم بشدة. ولقد أثارت هيرست ثلاثة تساؤلات مهمة، هي: لماذا لا يوجد اهتمام بمناطق المنعزلة في الذاكرة من قبل الباحثين؟ ما تأثير ذلك على الفرد ذي الإصابة العصبية؟ وعلى المستوى السيكلولوجي العصبي،

كيف يحدث ذلك مرضى فقدان الذاكرة؟ والأمر في حاجة إلى مزيد من الأبحاث على هذا النوع من الذاكرة؛ من أجل فهم طبيعة الذاكرة الشخصية، وكيفية مقاومتها للنسفان.

#### بـ- الذاكرة الإجرائية :Procedural memory

أعلن تولفنج عام 1972 فكرته عن ذاكرة الأحداث وذاكرة المعانى، ودعمتها الأبحاث في عام 1980، 1981، 1985، ومن أشهر التجارب في هذا الصدد، تجربة كاستروم Kihlstrom وتجربة جاكوبى Jacoby ودالاس Dalas. وقد مهدت هذه التجارب الطريق أمام إجراء العديد من التجارب، التي استمرت على خمسة عشر عاماً، حيث أضاف تولفنج عام 1985 مع آخرين نوعاً آخر من الذاكرة، وهو الذاكرة الإجرائية Procedural Memory، وهي ما يمكن تعريفها بأنها معلومات في الذاكرة طويلة المدى، لكن يصعب معايتها شعورياً، مثل قيادة الدراجة مثلاً، فهي مهارة مركبة، يعرفها الغالبية العظمى منها، لكن إذا أردت شرحها، يمكن أن تعطي تفسيراً سطحياً للغاية. كذلك الأمر في تحديد الفرد اللغة الأم له، لا يستطيع شرح كل القواعد المركبة التي تساعد على النطق أو الاستخدام الصحيح. وفي مقارنة هذا النوع من الذاكرة بغيره من ذاكرة الأحداث أو ذاكرة المعانى، فإنها تختلف عنهما اختلافاً بيئياً في إمكانية القياس.

وعلى الرغم من أهمية التمييز بين هذه التقسيمات الثلاث للذاكرة طويلة المدى (ذاكرة الأحداث - ذاكرة المعانى - الذاكرة الإجرائية)، فإنهم يمثلون نظاماً على درجة عالية من التفاعل، حيث يمكن أن يتأثر سلوك الفرد العادى بأى من المعلومات التى تصل إليه من إحدى الأنواع الثلاثة للذاكرة. هذا فضلاً عما تضيفه هذه الأنواع الثلاثة للذاكرة من محددات للسلوك، يمكن أن يتغير عبر الزمن، بناء على معلومات من ذاكرة الأحداث. مثلاً تعلم تكنولوجيا الحاسب الآلى، فاللغة التى يتعامل بها جديدة وغير مألوفة وتصعب على التمثيل بسهولة؛ فمثلاً مصطلح (to boot)، هي كلمة غامضة إذا لم يتذكر الفرد في مرة سابقة كيف ارتبطت هذه الكلمة بتشغيل الحاسب. ومع زيادة الاستخدام يصبح المصطلح جزءاً من المعرفة العامة للفرد بهذا الجهاز، ويمكن تحديدها بدون الرجوع إلى ذاكرة الأحداث. هذا النوع من التفاعل يحدث أيضاً في مهارات التعلم؛ فالطباعة على الحاسب الآلى، تتضمن في البداية حفظ حروف لوحة المفاتيح، وأماكن كل منها لوضع الأصابع وضعاً صحيحاً، ثم مع استمرار التدريب، تصبح المهارة أكثر آلية ومستقلة عن لوحة المفاتيح. وفي هذه المرحلة تتوقف عملية الطباعة عن اعتمادها على ذاكرة الأحداث أو ذاكرة المعانى، لتصبح أكثر انتماء إلى ذاكرة الإجراءات.

#### الذاكرة الضمنية في مقابل الذاكرة المعلنة<sup>(1)</sup> :Implicit & Explicit memory

إن هذا التقسيم إلى ذاكرة معلنة في مقابل الذاكرة الضمنية هو من التقسيمات التي يمكن أن تصنف وفقاً لها ذاكرة الأحداث وذاكرة المعانى، في مقابل الذاكرة الإجرائية. كان معروفاً لعدة

(1) قد يجد القارئ ترجمة أخرى لهذه المصطلحات في مصادر معرفية أخرى، فقد ترجم إلى الذاكرة الصريحة في مقابل الضمنية (محمود قاسم، 2003، سيرولوجيا الذاكرة، عالم المعرفة، الكويت، ص39).

سنوات سابقة أن المرضى شديدي فقدان الذاكرة، قد يظل لديهم القدرة على أنواع معينة من التعلم طويلاً المدى؛ إذ إن تعلم المهارات الحركية، مثل الكتابة على الآلة الكاتبة تحفظ كما هي، باعتبارها مدى كلياً من الظاهرة التي تعرف بأنها (priming)<sup>(1)</sup>. ويعود هذا اللفظ إلى ملاحظة أن تكرار سمع كلمة ما أو مشاهدتها، يجعلها أكثر قابلية لأن ترى أو تسمع في مناسبات أخرى. ومثال على ذلك أنه إذا قرأت حديثاً كلمة أربن، ستكون أكثر ميلاً إلى استخدامها إذا ما طلب إليك تذكر كلمة تمثل حرف الألف.

فالتعلم الذي يتم قياسه بهذه الطريقة يوصف بأنه تعلم ضمني؛ حيث لا يسأل الفرد عن آخر الأشياء التي تم تعلمها، بل ينعكس تأثيرها - بطريقة غير مباشرة - على سرعة أو طبيعة الأداء التالي، متلماً يحدث في المهام التي لا تتطلب استدعاء من الذاكرة. فهذا النوع من التعلم لا يتأثر بالعديد من العوامل التي تكون مهمة عندما يقاس التعلم بالقدرة على الاسترجاع من الذاكرة أو التمييز.

والبحث في هذا المجال ينشط حاليًا إلى حد كبير؛ إذ يختلف الباحثون حول إذا ما كان التعلم ضمني والتعلم الصريح، يتبع كل منهما نظاماً مختلفاً، أم أنهما يختلفان أصلاً في العمليات التي يتضمنها كل منهما. ويريد بادل القول بأن الذاكرة الخاصة بالأحداث والذاكرة الخاصة بالمعانٍ كلاهما يقوم على نظام خاص، وهو الذي يتم تدميره لدى المرضى بفقدان الذاكرة. ورغم أن هناك عدم اتفاق حول التفسير النظري للتعلم ضمني والتعلم الصريح، فإن الغالبية يتفقون على أن التعلم المحفوظ لدى المرضى بفقدان الذاكرة يميزه أداء المهمة، حيث يقاس التعلم بطريقة غير مباشرة، ولا يحتاج الفرد إلى تذكر إذا ما كان قد واجه هذه الخبرة من قبل أم لا؛ لكنه يستطيع أداءها الآن جيداً، كما في الطباعة على الآلة الكاتبة. بل على العكس فإن المرضى ذوي فقدان الذاكرة يؤدون أداء سيئاً على الأعمال التي تتطلب خبرة تعليمية سابقة، لأن يطلب إليهم تذكر قصة ما في جريدة الصباح مثلاً؛ لذلك يفضل البعض أن يستخدم المباشر وغير المباشر بدلاً من ضمني والصريح. وفي طريقة أخرى، قد يشار إليهما بالذاكرة المعلنة في مقابل غير المعلنة، حيث يقصد بالذاكرة المعلنة ذكرة الأحداث والحقائق، وغير المعلنة لكل ما عدا ذلك، غير أن هذه التسمية قد تكون معوقة أحياناً.

أما عن عمل الذاكرة طويلة المدى من حيث التخزين والاستدعاء، فإن الوظيفة الأكثر أهمية للذاكرة طويلة المدى هي أنها تستقبل المعلومات وتتخزنها؛ مما يهيء لاسترجاعها. فنحن نخزن المعلومات المهمة وذات الفائدة، ونتجاهل أو نستبعد المعلومات الأقل أهمية. ويقابل جونستون

(1) يعرف قاموس علم النفس للجمعية الأمريكية هذا المصطلح بأنه في علم النفس المعرفي، يعني أثر خبرة حديثة بمثابة ما على إعاقة أو تسهيل الأداء التالي على نفس المثير، أو على مثير شبيه به (VandenBos,Gary R. 2007,731).

Johnstone بين عملية تخزين المعلومات في الذاكرة واسترجاعها، وبين نظام الملفات في الحاسب الآلي. غير أنه في استرجاع هذه المادّة، يختلف الأفراد في طريقة تعبئتهم لهذه الملفات، وكيفية تنظيم المعلومات بها. ولقد أشار جونستون إلى ثلّاث طرق لتخزين المعلومات في الذاكرة طويلة المدى، هي:

لـ ١) تجد المعلومات الجديدة مكاناً مناسباً في المعلومات المتواجدة بالفعل، وتخزن، وقد يكون ذلك أحياً غير ملائم؛ حيث تم تخزينه في الملف الخطأ.

لـ ٢) أن التخزين دامغاً له تتبع خطى داخله، وقد يكون هذا هو التتابع الذي يتم به تعلم الأشياء.

لـ ٣) قد يكون آخر نمط للتذكر هو الذي حدث، عندما لم يجد المتعلم أي الملفات التي يمكن أن يربط بها المعلومات الجديدة.

ولاشك أن الطريقة الأولى هي ما أطلق عليها المتخصصون التعلم المشحون بالمعنى meaningful learning، وهو لا يمكن نسيانه، أما الطريقة الثالثة فهي طريقة الحفظ الصم Rot learning، وهو قد يؤدي إلى سوء الفهم الذي يصعب تغييره؛ لذلك فإن إلقاء الضوء على كيفية تخزين المعرفة قد يساعد على مزيد من الفهم للذاكرة طويلة المدى.

#### تخزين المعرفة:

نحن نعرف الكثير من المعلومات، فنحن نملك مخزناً هائلاً من المعرفة العامة التي نأخذ بها كمسلمات، والذاكرة السيمانتية هي نوعية الذاكرة التي تعنى بهذا الأمر. والمعلومات التي نعرفها قد تخص المعرفة المتخصصة في مجال عملي مثلاً، أو تخص المعرفة العامة عن السياسة، الموسيقى، والطب، وغيرها. كما تتضمن هذه المعرفة بعض المهارات التي يؤديها الفرد، مثل قيادة السيارة، والكتابة على الحاسب، واستخدام بطاقة السحب من الحاسب، واستخدام التلفون .. إلى آخر هذه المهارات. كما تتضمن هذه المعرفة ما يخص الهوايات، أو الزمن الماضي، أو اللغة الثانية. فما نعرفه ليس هيئنا.

إذا كان لدى الفرد حاسب آلي بمخزن ضخم، ويوجد مفاتيح لكل المعلومات الضرورية، فهل يستطيع أن يقوم بما تقوم به الذاكرة البشرية؟

لكي تستطيع أن تحصل على معلومة ما من الحاسوب، لابد وأن يراجع الفرد كل المخزون حتى يصل إلى ما يريد، لكن لك يحدث هذا لابد من مراجعة هذا المخزون بنظام محدد حتى تصل إلى ما تريده. وإذا كان العقل يعمل بهذا النظام، فإنه لك تصل إلى كلمة محددة لابد من مراجعة كل الكلمات في المخ، حتى تصل إلى ما تريده. فماذا إذن عن فهم حديث بين اثنين؟!

فالذاكرة كما تبدو لا تعمل بنظام مراجعة كل الأماكن والمواد التي تخزن بها المعرفة، بل إنها تفيض من أن اللغة يمكن التتبّع بها، فإذا سبقت الكلمة أداة تعريف مثلاً، فإن ذلك يعني أن ما يلحقها هو اسم. فضلاً عن هذا فإن معنى الجملة يساعد في سهولة الحصول على المعلومة المطلوبة. فالمعرفة

تكون منظمة في العقل - كما سيأتي بعد ذلك - ومن ثم يكون البحث في العقل عن الكلمة المطلوبة في سياقها، ولاشك أن هذا التنظيم هو الذي يسمح بسهولة تنظيم المعلومات الجديدة في سياق المعلومات المستقرة بالفعل. ومن إحدى التجارب على لاعبي الشطرنج، وبعرض بعض التحرّكات عليهم، من خلال أشهر المباريات بين الهواة، استطاع أحد أفراد العينة أن يحدد ما يجب أن يتلو هذه الحركة، كذلك تحديد التعديل الذي أجري على الحركة السابقة. وهو ما يشير إلى أن هناك نظاماً ينظم معرفته بلعبة الشطرنج، حتى إنه يمكن تحديد أي تغييرات طرأت على هذا النظام.

وقد أجرت لوفتز Louftz وزملاؤها عدداً من التجارب؛ للتعرف على أكثر الإستراتيجيات سهولة في عملية التذكر. ولقد وجدت أن استخدام الفئة يتبعها الحرف الأول من الكلمة ييسر عملية التذكر أكثر من استخدام الحرف الأخير منها مثلاً. وهناك العديد من الأمثلة التي تشير إلى أن المعرفة قد يتم تخزينها في أكثر من فئة، بما يشير إلى مرونة عملية التخزين وسهولة التذكر في آن واحد. فقد يخزن طائر الكتراريا مثلاً في فئة الطيور، وفي فئة الألوان، ومن ثم يكون هناك طريقتان لتذكر الكلمة التي تشير إليه.

#### **المخطط :Schemata**

غير أن تقسيم المعرفة وتسكينها حسب الفئات التي تنتمي إليها ليس كافياً لعملية الفهم؛ ومن ثم يكون تذكر المعلومة ضعيفاً. ففي تجربة على ثلاث من العينات، أعطيت لهم فقرة لفهمها ثم تذكرها. تركت المجموعة الأولى بدون أية تعليمات عن محتوى الفقرة، أو الموضوع التي تتحدث عنه (كانت الفقرة تتحدث عن كيفية استخدام غسالة الملابس الكهربائية)، أما المجموعة الثانية فقد ذكر لها الموضوع الأساسي قبل مطالبتها بالتذكر مباشرة. أما المجموعة الثالثة فقد ذكر لها الموضوع قبل قراءتها للفقرة. وقد كشفت النتائج عن أن المجموعة الثالثة كانت أفضلهم في عملية التذكر، بينما كانت المجموعة الأولى أسوأهم جميماً (Baddeley, 1999, 153).

وتدل هذه النتائج على أن توجه الفرد بمعنى ما يساعد على عملية الفهم، ومن ثم عملية التذكر. ولقد استخدم بارتلت من قبل كلمة الإسكيما Schema للإشارة إلى هذا السياق الذي يضفي معنى على المعلومات المطلوب فهمها. وفي النظريات الحديثة عن الذاكرة، قد يستخدم العلماء هذا المصطلح، أو يستخدمون مصطلحاً آخر بديلاً، هو الأطر frames or scripts، وهي من المفردات التي طورها علماء الحاسوب في تصميم برامج للحاسوب، تساعد على فهم المادة.

#### **النص المكتوب :Script**

وتعرف بأنها مجموعة متكاملة من المعلومات يمكن استحضارها؛ للمساعدة في تفسير أو فهم حدث ما. ففي فقرة تتحدث عن المطعم والقائمين بالخدمة فيه، لاشك أنها تستحضر في ذهن القارئ ما يعرفه عن المطعم من أنواع الطعام، ووجود من يقومون بالخدمة فيه، وتنظيم الأماكن

بصورة تعطى الاستقلالية للفرد في تناول طعامه ... أما إذا ذكر الملعب مع وجود القائمين بالخدمة، فإن ذلك يؤدى إلى البلبلة؛ حيث إن السياق الذى يفترضه الملعب يختلف عن السياق الذى يفترضه المطعم، فليس هناك في الملعب كلمة تخص القائمين بالخدمة.

ولقد طور شانك Schank مفهومه عن النص؛ ليكون أكثر مرونة، وأصبح يتضمن ما يعرف بـ(MOP)، إشارة إلى تنظيم مجموعات الذاكرة memory organization packets، إشارة إلى نقاط التنظيم المرتبطة بالمعنى thematic organization points، وهي تعزى إلى الفئات الأكثر اتساعاً، التي تضم عدداً أكبر من المفاهيم.

ولكي نعرف إلى أي مدى ساعدت هذه المفاهيم في تفسير ما يحدث في الذاكرة الإنسانية، فإنه تجدر الإشارة إلى أن الذاكرة طبولة المدى التي تعنى بالربط بين الكلمات، هي في حقيقة الأمر تعنى بأكثر من ذلك، فهي تعنى أيضاً بالربط بين المفاهيم أو الأفكار التي ترتبط بوضوح بالكلمات. ولقد أوضحت الدراسات المتخصصة على اللغة، كيف أن اللغة لا تعبر عن نظرة الفرد فحسب إلى العالم، بل هي أيضاً تحدد وتشكل النظرة إلى العالم. ومن هذا المنطلق يذكر وورف Whroff أن الأفراد الذين يتحدثون لغة مختلفة، يتذكرون العالم بطريقة مختلفة، أي أن الاختلاف في اللغة قد يؤدى إلى اختلاف في القدرات الإدراكية، وقد يدل على هذا صعوبة الترجمات من لغة إلى أخرى؛ فلكل لغة مفرداتها. ولاشك أن ذلك يمثل موضوعاً شيئاً للدراسة، فهل فعلًا تتأثر أطر إدراكتنا للأمور بمكونات اللغة التي نتحدث بها؟

في ضوء فهم اللغة، من الواضح أننا نفسر الكلمات في ضوء السياق العام للمعرفة بالعالم الواقعي. كما أن الذاكرة السيمانتية التي تعنى بالربط بين الكلمات قد تتحدد، فيما أطلق عليه الباحثون بالخطأ الرمزي، وهي تعنى ما يحدث لدى مجموعة من الأفراد في سفينة الفضاء، يحاولون معرفة معنى اللغات في العالم، من خلال الاستماع إلى موجات الراديو، دون أن يكونوا قادرين على ملاحظة الارتباط بين هذه الأشياء والأحداث، التي تشير إليها الكلمات، ومن ثم تتقلص قدرتهم على فهم اللغة.

ذلك يكون من الصعب تمثيل المعرفة المكانية في كلمات؛ ففى تجربة على عينتين إحداهما من أسكوتلند، والأخرى من إنجلترا، وطلب إليهما رسم الطريق بين عدد من المدن في شمال وجنوب المملكة المتحدة. كشفت التجربة عن أن رسوم عينة أسكوتلند كانت تميل نحو المبالغة في رسم حجم أو مساحة أسكوتلند، على عكس عينة إنجلترا، التي كانت تميل إلى المبالغة في رسم مساحة إنجلترا. لذلك فإنه من الصعب القول إن المعرفة المكانية تمثل في الذهن بالشكل اللفظي فقط، وكذلك أيضاً ذاكرتنا عن الوجوه والمذاقات والروائح.

ولكن هل يعني ذلك إذن أن الذاكرة السيمانтиة تخزن على شكل صور؟

لاشك أن الخصائص البصرية والمكانية مهمة؛ فهناك المفاهيم المجردة التي يصعب تمثيلها بالكلمات فقط، ومن ثم فإن المسلمبة الأقرب إلى المعقولية هي أنه من المحتمل أن المفاهيم تخزن في صورة رمز مجرد (شفرة)، قد تتم ترجمته إلى صورة لغوية أو لفظية، أو تتم ترجمته إلى صورة إذا احتاج الأمر. ففي الحاسوب، يمكنك أن تخزن المعلومة كصوت مثلاً، أو صورة على الشاشة، أو نسخة مطبوعة على الطابعة، أو كرمز على الديسك. فالمعلومة كلها واحدة غير أن أسلوب الحصول عليها يختلف باختلاف طريقة التخزين.

#### كيفية تعلم المفاهيم الجديدة:

في ضوء ما سبق، تعرفنا على كيفية تخزين المعرفة وكيفية الحصول عليها، لكن يظل السؤال الأكثر أهمية وهو ما يشغل العاملين في مجال البحث التربوي والتعلم بصفة خاصة، ألا وهو: **كيف تتشكل المفاهيم الجديدة؟**

إن هذا السؤال ليس جديداً على مجال البحث، غير أنه اتّخذ مسارات مختلفة للإجابة عنه؛ ففي الماضي، في الأربعينيات من القرن العشرين كان الاهتمام بتحديد المفاهيم، وليس باكتساب الجديد منها. ولقد أشارت نتائج التجارب المختلفة إلى أن عامل المعنى كان من العوامل المهمة، وأن المعلومات المحسوسة أيسر في التعامل معها عن المعلومات المجردة، كما أن التعرف على المفهوم في أكثر من سياق كاللون والشكل مثلاً، أفضل في التعلم والتذكر. ولقد قدم برانسفورد وتلاميذه العديد من التجارب التي تكشف عن كيفية اكتساب المفهوم، وعلاقة هذا بالتطبيق على العالم الواقعي. وقد كشفت هذه التجارب عن أن اكتساب المفاهيم من خلال الخبرة بالمواقوف المتنوعة تكون أكثر كفاءة في استخدام الفرد لها، والتعدين منها على المواقف الجديدة.

#### اضطراب الذاكرة السيمانтиة:

قد تتعرض الذاكرة السيمانтиة (ذاكرة المعانى) للاضطراب على أثر حادثة ما، ونظام إدراك الأشياء قد يضطرب في عدد من النقاط أو يخلط بين الشيء وبين ما يطرحه من معنى (أن يستبدل البنطلون بالجاكيت أو العكس - أن يستخدم الصورة بدلاً من الصندوق لوضع الأشياء). ويعرف هذا الاضطراب باسم العمه<sup>(1)</sup> "agnosia"، فهو اضطراب في الإجراءات المعتادة السوية للتحرك من إدراك الموضع. فعلى حين يوجد بعض المرضى الذين يستطيعون تسمية الأشياء التي يرونها، وليس التي يلمسونها، يكون هناك على العكس منهم، كما أن هناك أيضاً المرضى الذين يكشفون عن اضطراب في كل من اللمس والرؤية.

(1) عدم القدرة على الإدراك بالحس والتمييز بين الأشياء.

وقد يؤدي بنا ذلك إلى معرفة كيف تنتظم الذاكرة السيamentية. لقد عرف من خلال المرضى الذين يعانون من صعوبات في فهم اللغة والتعبير عنها، أنهم يواجهون صعوبة في تكوين كلمات من فئات بعينها؛ فقد يكون لدى بعضهم مشكلات مع الألوان، ولدى البعض الآخر مشكلات في تسمية أنواع الطعام، أو أجزاء من الجسم. ولقد استطاعت إليزابيث وارينجتون Warrington مع زملائها في جامعة لندن، أن تكشف من خلال الدراسات عن مزيد من التفصيات عن هذا الاضطراب. إن مثل هذه الاضطرابات في الذاكرة السيamentية قد يلاحظ وجودها مواكبةً للتهاب الدماغ الحاد، كما يمكن أن تحدث أيضًا في المراحل الأخيرة من مرض الزهيرم، حيث يكون تدهور الذاكرة السيamentية في تزايد، وقد يخص التدهور المفاهيم المحسوسة أكثر من المفاهيم المجردة، أو العكس، ثم تميل بعد ذلك إلى أن تكون عامة.

وفي المخ، فإن الفص الصدغي temporal lobe، هو الفص المعنى بحفظ المعلومات عن معنى الأشياء، غير أن الأبحاث ما زالت في بدايتها، لكن يبدو أن مناطق مختلفة من الفصوص الصدغية تختص بالمعلومات، بغض النظر عن الشكل أو الطعم. غير أن حدوث الأعراض السابق الإشارة إليها تعني أن أحد هذه المناطق قد تدهور أكثر من غيره.

#### الأساس الكيميائي للذاكرة:

يعد جيمس ماكونيل (James McConnel 1960) - أحد علماء النفس في جامعة ميتشجان - أول من أشار إلى الأساس الكيميائي للذاكرة، فقد أجرى تجارب على ديدان صغيرة الحجم، بتدريبها على الاستجابة للابتعاد عن الضوء. وكان يعرضها لصمة كهربية خفيفة عند فشلها في هذا، وبعد التيقن من تدريبها على هذا السلوك بما يقرب من 90%， قام بقطع هذه الديدان إلى نصفين. وفي مثل هذه الكائنات فإن الرأس تبدأ في تكوين ذيل آخر، كما أن الذيل يبدأ في تكوين رأس جديدة. وقد كان متوقًّا أن النصف الخاص بالرأس هو الذي سيكشف عن احتفاظه بالاستجابة نحو الضوء، إلا أن التجربة أثبتت أن النصف الآخر الخاص بالذيل قد كشف أيضًا عن احتفاظه بالاستجابة للضوء. ومن ثم خلص ماكونيل إلى أن الذاكرة لا تخزن فقط في المخ، بل تخزن في خلايا الجسم كله.

وفي التجارب على نوعية أخرى من الديدان planarians، ثبت عنها أنها إذا تعرضت للجوع، فإنها تأكل مثيلاتها، ومن ثم استطاع ماكونيل أن يختبر نظريته على نوعية أخرى، فقام بتدريب بعض هذه الديدان على الاستجابة للضوء على النحو السابق، ثم قام بقطع الديدان المدرية، وأطعم بها الديدان غير المدرية. وقد كشفت النتائج أن الديدان غير المدرية قد استجابت للضوء بالابتعاد عنه بعد أكلها لأجزاء جسم الديدان المدرية. وفي نتائج هذه التجارب ما يقدم دليلاً آخر على الانتقال الكيميائي للذاكرة عبر خلايا الجسم.

ثم انتقل ماكونيل بتجاربه عام 1966 إلى الحيوانات الأرقي، فأجرى تجاربها على الفئران، وذلك بحقن الفئران غير المدرية بما تم سحبه من مخ الفئران التي تم تدريبيها على الاستجابة للضوء، وقد أسفرت تجاربها، ليس عن انتقال الذاكرة فحسب، بل وأشارت النتائج إلى سرعة استجابة الفئران الجديدة للمثير (صوت الجرس - أو تيار هواء).

#### الذاكرة: (RNA)

يعزى الانتباه إلى حامض الريبيونيكليك "RNA" (ribonucleic acid)، وهو من المواد العضوية المركبة، والتي تحوى ملايين الذرات التي توجد في كل الخلايا الحية، وهي مسؤولة - مع عوامل أخرى - عن إنتاج البروتين في الخلايا الحية. وتنقل الـ (RNA) أجزاء الشفرة الحية من الحمض الريبوذى (DNA) ( deoxyribonucleic acid ). وتحدد المعلومات المخزنة في الشفرة النتائج الخاصة بالأحماض الأمينية التي تكون البروتين، وهو يمثل وحدات بناء الحياة، وقد كشفت الأبحاث المبكرة على (RNA) أنه يحتوى على نيرونات تتزايد مع عملية التعلم. كما أنه إذا تم حقن مخ الحيوانات بأنواع محددة من المحاليل الكيميائية التي تعوق عملية تكوين (RNA)، فإن عملية التعلم تضطرب اضطراباً شديداً، أو قد تمحى تماماً. وعلى العكس، فقد وأشارت نتائج التجارب التي استعانت بحقن المخ بما يساعد على إنتاج (RNA)، إلى تحسن عملية التعلم. والجدير بالذكر أنه ليس إنتاج الـ (RNA) هو المهم في عملية التعلم، بل هو البروتين الذي يتم إنتاجه.

#### جزيئات الذاكرة: Memory Molecules

استمرت الأبحاث في السبعينيات على يد جورج آنجر George Unger عام 1970، في كلية باليور للطب في هيوستن، حيث تجاوز إثبات مسؤولية البروتين المنتج عن التعلم، إلى بحث ارتباط نوعية بعينها من الجزيئات بنوعية محددة من التعلم. فقد درب نوعية بعينها من الفئران على تجنب الظلام باستخدام الصدمة الكهربائية <sup>(١)</sup>، ثم تم حقن الفئران غير المدرية بما تم الحصول عليه من مخ الفئران المدرية، وخلص إلى ما انتهت إليه الأبحاث السابقة من انتقال التعلم إلى الفئران غير المدرية، حيث عمدت إلى البقاء في المكان المضيء. وبتحليل ما تم سحبه من مخ الفئران المدرية، توصل آنجر إلى وجود نوعية بعينها من الأملالح الأمينية هي المسئولة عن تعلم تجنب الأماكن المظلمة، وقد أطلق عليها آنجر مصطلح الخوف من الظلام (scotophobia)، وهي من الكلمات اليونانية حيث تعنى (skotos) الظلام، وكلمة (phobia) الخوف. واستمرت الأبحاث للتعرف على نوعية الجزيئات

(١) تميل الفئران عادة إلى تفضيل الأماكن المظلمة على الأماكن المضيئة، ولذلك كان التدريب على عكس ما اعتادت عليه.

المسئولة عن تعلم الأسماء للتمييز بين الألوان. وحددها الباحثون بنوعية محددة من الأمينيات أطلق عليها (chromodiospin)، وتعنى نتائج هذه الأبحاث أن هناك تخصصاً في المواد الكيميائية التي تفرز في المخ، ترتبط بنوعية المهارة المتعلمة.

ولكن هل التعلم هو الذاكرة؟:

لا بالطبع، فهما شيئاً مختلفان، فالتعلم من خلال التجارب السابقة يتكون من تدريب الكائنات على الاستجابة لمثير ما، أما الذاكرة - خاصة في الإنسان - فهي تتضمن تخزينًا أكثر اتساعاً للمعلومات. ومن ثم فمن الصعب النظر إلى الذاكرة في ضوء العلاقة بين نوعية معينة من البروتين، باعتبارها مسؤولة عن تذكر موضوع ما، بل إن الذاكرة أكثر ميلاً إلى أن ترتبط بنمط من التغيرات الكيميائية في المخ ككل، وهو ما نوضحة بتناول العنصر التالي. تتضمن بجانب مكونات أخرى إنتاج البروتين في الخلايا الحية، وهذه الـ (RNA) تنقل أجزاء الشفرة الحية من الـ "DNA" (deoxyribonucleic acid)، وتحدد المعلومات المخزنة في الشفرة النتائج الخاصة بالأحماض الأمينية، ويكون هو البروتين الذي يمثل وحدات بناء الحياة.

التعلم والذاكرة :

افتضرت الدراسات المبكرة أن مكونات الـ (RNA) من الـ "DNA" تزيد بزيادة خبرة التعلم. وقد كشفت تجارب أخرى عن حقن مواد كيميائية تعوق إنتاج البروتين في المخ، أن التعلم يتأثر سلبياً بشدة، أو قد يمحى تماماً. وقد أسفرت التجارب على المواد الكيميائية التي تزيد من إنتاج (RNA) عن تحسن في الذاكرة، فقد كان من المعتقد أن التغيرات في (RNA) هي المسئولة عن الذاكرة والتعلم، وكان من المقترن أن اعتداءً مفروضاً من النبضات الكهربائية على الـ "DNA" قد يؤدي إلى وجود تغير خفيف ومستمر في بناء وحدات الـ (RNA). وهو ما قد يؤثر على البروتين المستخلص، وكنتيجة لذلك يمكن أن يؤدي إلى تغيرات في وظيفة الخلايا، هذا التغير هو الذي يكون أساس عملية التعلم. لكن يبدو الآن أنه ليس الـ (RNA) في ذاته المسؤول بقدر أهمية تزايد البروتين المستخلص من الـ (RNA). وهو ما قد يفسر فشل التجارب في إثبات ما خلص إليه ماكونيل، حيث كانوا يبحثون عن الـ (RNA)، وليس عن البروتين المستخلص (Russell, 1990, 142).

وقد قام جورج يونجر (George Unger) بتجارب أخرى في السبعينيات، خلص منها إلى أن البروتين الناتج هو المسئول عن انتقال أثر الخبرة، ليس هذا فقط، بل إنه خلص إلى تحديد بعض المكونات المسئولة عن نوعية التعلم. فقد درب يونجر مجموعة من الفئران على تجنب الظلام، حيث يفضل الفئران الظلام من أجل الرؤية، وقد استخدم الصدمات الكهربائية في حالة إخفاق الفأر في تجنب الظلام، ثم قام بحقن كمية من مخ هذه الفئران لغيرها غير المدربة، ووجد ما يؤيد النتائج السابقة من انتقال تعلم هذه الخبرة للفئران غير المدربة، ثم قام بتحليل المادة المستخرجة من مخ

الفئران المدرية (400 فأر)، فوُجِدَ نوعاً من البروتين الجديد (a string of 15 amino acid) أطلق عليه اسم (scotophobia)، ويُعنى الخوف من الظلام؛ لكن يُؤكَد أن هذه هي العناصر الكيميائية المسئولة عن الخوف من الظلام. كما وجد مجموعة باحثين آخرين أن هذه العناصر الكيميائية ذاتها كانت مسؤولة عن تجنب نوعية من السمك للظلام أيضاً. ومنذ ذلك الوقت اكتُشف آنجر وفريقيه عدداً منمجموعات الأحماض الأمينية التي تتخصص كل منها في نقل أثر التدريب لمهارة محددة. فقد قام بتحليل المادة المستخلصة من مخ الأسماك التي تدربت على التمييز بين اللون الأخضر واللون الأزرق، ووُجِدَ أن هناك نوعاً من البروتين أطلقوا عليه (cromodiopsin) هو المسئول عن التمييز بين اللون الأخضر واللون الأزرق. والاستمرار في هذا الاتجاه يعني أنه يمكن أن يكون لكل مهارة نوعية من البروتين التي يتم إنتاجها في مخ الكائنات الحية، مرتبطة بتعلمها لهذه المهارة أو تلك. ولكن إذا كان صحيحاً أن تعديل كل سلوك يرتبط بسلسلة البروتينات، فإن ذلك لا يثبت أن كل ذاكرة لديها الأساس ذاته؛ فالتعلم والذاكرة ليسا شيئاً واحداً، فالتعلم كما أثبتت التجارب السابقة يتضمن تدريب بعض الكائنات للاستجابة الآلية لمثير ما، وهو ما يقابل الارتباط الشرطي. أما الذاكرة - خاصة في الإنسان - فهي تتضمن مخزوناً أكثر اتساعاً من المعلومات. وهكذا فإن تقول إنك تعرف وجه (س) من الناس يعني أنك في الظروف المناسبة يمكنك التعرف على ذلك رأيت هذا الوجه من قبل. هذا بالإضافة إلى أن الذاكرة لا يمكن أن تعمل بارتباط كل خبرة تعلم بنوعية خاصة من سلسلة البروتين؛ لأن ذلك يؤدي إلى إجهاد الذاكرة، لكن على الأغلب أن الذاكرة تستجيب لأنماط من التغييرات الكيميائية في المخ.

ورغم اختلاف نظام التعلم عن نظام الذاكرة، فإنه يبدو أن الذاكرة يتم تمييزها، من خلال التعديل المباشر في نقاط الاشتباك العصبي، من خلال البروتين المؤلف في خلايا الجسم. ورغم أن النيرونات تنتج بروتيناً أكثر مما تنتجه خلايا الجسم، إلا أنه ليس من هذه البروتينات ما يفرز؛ إذ إن كلها تستخدم داخل النيرون ذاته، وقد أوضح روسيل أن الكثير من البروتينات تنتقل بسرعة، نزولاً إلى المحور العصبي، غالباً بمعدل بعض السنتيمترات القليلة في اليوم الواحد؛ لكي تصل إلى الوصلات العصبية، بحيث يكون البروتين الذي يفرز في جسم الخلية متواجداً في الوصلات العصبية خلال دقائق معدودة. فإذا كان البروتين متضمناً في الذاكرة، فذلك يعني أن التفرقة بين الذاكرة قصيرة المدى وطويلة المدى، يمثل الوقت المستغرق لكي يصل البروتين إلى الوصلات العصبية ويقوى الذاكرة.

#### تسجيل الخبرات وتذكرها:

هل كل ما تم تسجيله في المخ يمكن تذكره؟ فهناك مادة هائلة من الخبرات يمكن تذكرها، لكن قد لا يكون من السهل تنفيذ هذا الأمر. ومن خلال التعرف، يستطيع الفرد تذكر الوجوه التي صادفها في مناسبة ما منذ عام مثلاً إذا صادفها مرة أخرى، لكنه قد لا يمكنه استعادتها من

الذاكرة، وذلك يعني أن الذاكرة لا تضيع، لكنه في هذه الحالة لا يعرف بكونه تذكر، بل هو تعرف. وقد حاول العديد من الباحثين بحث الفروق بين التذكر وبين التعرف، وقد اعتمد وجود الفروق بينهما على الظروف التجريبية التي يمكن أن تساعد على مزيد من التعرف على ما تم تعلمه.

كما تكشف ظاهرة على طرف اللسان (on the tip of the tongue)، أن لا شيء يضيع من الذاكرة. فكم من المرات تشعر يقينًا أنك تعرف هذا الشيء أو تلك المعلومة، لكنك لا تتذكره، وقد يساهم معرفة الحرف الأول منها أو ما يشير إلى بعض الظروف التي تم معرفتها في سياقها، في تذكرها. وهو ما يدل على أن لا شيء يضيع من الذاكرة.

كما أن الاستعانة ببعض المعينات في عملية تسجيل الخبرة تؤدي بدورها إلى كفاءة أعلى في تذكر الخبرات التي يمر بها الفرد. وهي متعددة، وتبين في تأثيرها على عملية التذكر - وهو ما سنعرضه بعد ذلك - غير أن الأبحاث أثبتت أن أكثرها فعالية في استخدام الذاكرة البصرية، وتتفوق في هذا على المعينات اللفظية.

ويعد التنويم المغناطيسي أحد المؤثرات الأخرى على كفاءة الذاكرة البشرية، فقد دل استخدامه على قدرة الفرد على تذكر خبرات مرحلة الطفولة المبكرة، التي يbedo نسيانه لها واضحًا تمامًا، وذلك يعني أن ذاكرة أحداث الطفولة لا تنمحى قيامًا، فهي هناك في الذاكرة، لكن ليس من السهل استعادتها مرة أخرى. وقد ثبت من استخدام هذا التكنيك أن الفرد يستطيع أن يتذكر أحدًا من هذه المرحلة كأسماء أصحابه مثلاً، ووصف بعض الأماكن التي كان يتتردد عليها. وتشهد دراسات الذاكرة الآن اهتمامًا بذاكرة مرحلة الطفولة عبر المراحل العمرية؛ لمزيد من الفهم لكيفية حدوث نسيان أحداث هذه المرحلة وماذا، وهو ما سنعرض له في موضعه.

وتشير المصادر الآن إلى أن بعض قوى الشرطة بدأت في استخدام التنويم المغناطيسي في التحقيق في الجرائم في إسرائيل (في أحاديث التفجيرات)، وفي لوس أنجلوس كذلك؛ لحل لغاز الكثير من الجرائم. وفي دراسات على بعض الحالات في جرارات الجراحة، كشفت النتائج عن إمكانية استعادة المريض لعدد من العبارات التي قيلت أثناء العملية. فضلًا عن هذا فقد استخدم أحد الأطباء حالة التخدير للإيحاء إلى (المريض) بأن الحالة مطمئنة، وأنه سيشفى سريعًا. وقد كشفت النتائج عن فروق واضحة في عدد الأيام التي أمضاها المريض في المستشفى حتى تم شفاؤه، بمقارنته بالحالات الأخرى المماثلة له.

وتعتبر الأحلام - كذلك - أحد المؤشرات الدالة على أننا نستطيع أن نتذكر أكثر كثيراً مما يمكن أن نسترجعه على المستوى الشعوري. حينما يطلب إلى الفرد تسجيل أحلامه، فقد يكتشف الكثير من الذكريات بتفصيلاتها تعود إليه، وغالبًا ما تكون هناك أحداث اعتقد أنه قد نسيها تمامًا. ويفسر روسيل نسيان الفرد لأحلامه باختلاف الحياة اليومية للفرد عن عالم الأحلام، إلا أنه مع مصادفة

ارتباط أحد أحداث الحياة اليومية مع حلم ما للفرد، فإنه يستطيع حينئذ تذكر الحلم، ومعنى ذلك أن أحلامنا تسجل في الذاكرة أيضاً، لكننا لا نملك المفاتيح الصحيحة لاستدعائها.

أما خبرة الاقتراب من الموت، فهي تعد مؤشراً آخر على كفاءة الذاكرة، فقد يسمح اقتراب بعض الأفراد من الموت - كما يحدث مثلاً في حالة تعرض الفرد للغرق، ثم يتم إنقاذه في اللحظة الأخيرة - من مراجعة عامة وسريعة للغاية لكل خبرات الحياة. فقد ورد من هؤلاء الأفراد أنه قد مر أمام أعينهم شريط سريع عن أحداث حياتهم، ولقد أدى تحليل مئات الحالات المشابهة في بعض الأحداث، مثل تسلق الجبال، أو حوادث السيارات، والانفجارات، أنه فيما يقرب من 50% من هذه الحالات، قد ورد عنهم خبرتهم في رؤية أحداث حياتهم في سرعة كبيرة أمام أعينهم قبيل اقترابهم من الموت. ومثل هذا الأمر لا يشير فقط إلى أنه لا شيء في الذاكرة يضيع، بل أيضاً أن العقل يستطيع أن يعمل بسرعة تفوق ما نعرفها عنه كثيراً. وقد فسر روسيل ذلك أيضاً بأنه ربما اقتراب الفرد من عالم الموت هو الذي حرر الفرد من الحاجة إلى أن يظل متواصلاً مع العالم الخارجي، ويبدأ العقل في العمل بمعدله الطبيعي.

فضلاً عن هذا، فإن الإثارة العمدية للمخ قد كشفت كذلك عن أن شيئاً من الذاكرة لا يضيع، وأكثر الأمثلةوضوحاً على هذا ما يتم فيما يعرف بظاهرة بينفيلد<sup>(1)</sup> Penfield phenomenon . وحيث إنه لا توجد مستقبلات للألم داخل المخ، فإنه يمكن إجراء العمليات الجراحية للمخ تحت تأثير البنج الموضعي، ويظل المريض متيقظاً أثناء العملية. ومن خلال ما يقرب من ألف عملية في المخ بين 1936-1960، استطاع بينفيلد وزملاؤه الاستفادة من ذلك في إثارة بعض المناطق في المخ، باستخدام نوع دقيق من الإبر، وبسؤال المريض عما يراه، كشفت استجابات المرضى عن تذكرهم لأحداث محددة من الخبرات الماضية. ولاشك أن في هذا دلالة على أن المخ يسجل كل شيء يخبره الفرد، وسنعرض لهذه الظاهرة مرة أخرى حين نتناول حدوث التعلم في حالات التخدير.

#### تأثير تذكر الخبرات الماضية (reminiscence):

من أهم التعديلات التي أضيفت إلى تجارب التذكر، هو أنه بعد إتمام عملية التعلم الأساسية، قد تتحسن الذاكرة قليلاً أكثر من كونها تضعف، هذا التأثير هو ما يطلق عليه تأثير تذكر الخبرات الماضية (reminiscence). فقد وجد أن الأطفال الذين أعطيت لهم قطعة من الشعر لتعلمه، لكنه لم يسمح لهم بإنقاذه لهذا التعلم، قد تذكروها بدرجة أفضل في اليوم التالي من اليوم الأصلي للتعلم.

(1) سميت هذه الظاهرة كذلك نسبة إلى اسم العالم ويلدر بينفيلد، الذي اكتشفها، وأجرى عليها تجارب مع فريق البحث في معهد مونتريال للعلوم العصبية.

ولقد قام عدد من الباحثين في علم النفس بفحص هذه الظاهرة في مواقف مختلفة، ووجدوا أنها لا توجد في كل موقف التعلم؛ إذ إنها تعتمد على طبيعة المادة المعلمة، وطريقة الاختبار والأنشطة التي يشغل بها الفرد في الفترة بين التعلم الأصلي وبين إعادة الاختبار، فقد اختلف تأثير هذه الظاهرة باختلاف المادة، كونها ذات معنى أو صماء، كما اختلف تأثير هذه الظاهرة أيضًا بطبيعة المادة المعلمة، من كونها تعتمد على صور للوجوه مثلًا، أو كونها أعمالاً آلية. لكن ما زال تفسير هذه الظاهرة غير واضح، فنظريات الكف تفسر هذا بقولها إنه أثناء عملية التعلم الأصلي، يتغطى أداء الاستدعاء أثناء عملية التعلم، لكن يتبدد هذا التأثير بعد ذلك. معنى ذلك أن التحسن لا يحدث في المخزون ذاته، بل يحدث التحسن في استدعاء هذا المخزون المعرف. أما نظريات تعزيز الذاكرة *consolidation*، فهي تفسر هذه الظاهرة بقولها إن الذاكرة في فترة الراحة تختر مساراتها، وتقوى الذاكرة، وتتكامل، وتندعم بالمواضيع الأخرى في الذاكرة، ومن ثم تؤدي هذه العملية اللاشعورية إلى بقاء قوة التسجيلات.

#### تأثير البداية والحدثة:

حاول تطبيق هذه التجربة على نفسه. إليك عدد من الكلمات، عليك أن تقرأها بنفسك بصوت مسموع، فقط مجرد قراءة، وهي:

كتاب، قطة، حياة، منزل، كلب، فأر، منزل.

خط، هضبة، خروف، محصول، رياح، خنزير.

تفاحة، سنة، وردة، باب، بقرة، حجر، حمار.

أرنب، كرة، حقل، ماء، عظام، شكل، أدأة، رأس.

بعد قراءتها حاول أن تدون على ورقة منفصلة ما تذكره من هذه الكلمات دون تقدير بترتيب أو نظام. سترى أنك في عملية الاسترجاع قد دونت بعض الكلمات من البداية، وببعضها من الكلمات الأخيرة. إن احتمالية تذكر الكلمات التي ذكرت في بداية الكلمات هو ما يعرف بتأثير البداية (primacy effect)، والمميل إلى تذكر الكلمات الأخيرة هو ما يعرف بتأثير الحادثة (Recency effect)، وهو ما يعبر عنه بمنحنى مكانة التسلسل (serial position).

ويعتمد شكل المنحنى على عدد من المتغيرات، منها طول قائمة الكلمات، وطبيعة الكلمات، هل هي صور أم كلمات، وتعلم المهارة، وإلى أي مدى نظم الفرد المادة نفسها قبل تعلمها. ولقد ثبت تأثير البداية وتأثير الحادثة في العديد من التجارب، إلا أن الاختلاف كان في أغلبه أحد أنواع هذين التأثيرين على الآخر. ففي موقف المحاضرات قد يتغير شكل هذا المنحنى، فتكون الذاكرة جيدة في بداية المحاضرة، ثم تتحدر بالتدرج أثناء المحاضرة، ثم تعود تتحسن بشكل ملحوظ في نهاية المحاضرة.

## توزيع عملية التعلم وكفاءة التذكر:

وجد إينجهاوس أنه حينما قدم فترة قصيرة من الراحة بين فترات تدريب على التذكر، تحسنت كفاءة التعلم، ولقد أدى هذا إلى البلبلة في البداية حيث إنه من المعتقد أن فترة الراحة تؤدي إلى النسيان، ومن ثم ينخفض التعلم، غير أن التحسن قد أمكن تفسيره أخيراً بعامل تذكر الخبرات الماضية، كما أن تأثير البداية والحداثة من العوامل التي ترفع من قيمة فترات الراحة، خاصة إذا ما قسمت فترة التدريب إلى عدد من الفترات القصيرة؛ الأمر الذي يسمح بتعظيم الفائدة من البداية والحداثة عدة مرات.

## تأثير عامل الاستعداد على عملية التعلم:

يحسن الفرد أداءه في التدريبات البدنية إذا ما سبقها استعداد مبدئي (التسخين)، وهو ما يصدق بدوره على الأنشطة العقلية، فقد وجد أن معدل المخزون يرتفع إذا ما أجرى الفرد عملية مشابهة قبل التدريب مباشرة. فقد كشفت النتائج عن أنه إذا ما كان على الفرد أن يحفظ ثلاث قوائم، فإن حفظ القائمة الثانية يكون أسرع من القائمة الأولى، وتكون الثالثة أسرعهم جميعاً، كما أن الاستعداد قبل إعادة عملية التعلم يكون ذا فائدة في الإسراع بعملية التعلم. ففي تجربة على مجموعة من الأفراد أعطيت لهم قائمتان، مكونة من أزواج من الصفات لتعلمهما، وبعد مرور 24 ساعة أعطيت لإحدى المجموعتين الفرصة للتسخين، بينما لم تعط للمجموعة الثانية قبل إعادة تعلم القائمة. وأسفرت النتائج عن تحسن المجموعة التي قامت بعملية التسخين، ليس من حيث خفض معدل النسيان فقط، ولكن أيضاً من حيث تحسن معدل الأداء عن المرة الأولى. ويعنى ذلك أنه بالإضافة إلى تأثير التسخين، فإن التدريب القصير قبل إعادة التعلم يخلق الحالة العقلية المناسبة للفرد.

## تأثير ظاهرة von restoroff<sup>(1)</sup> على عملية التعلم :

أشارت نظرية عمليات الذاكرة إلى أن العنصر المميز في مجموعة من العناصر يسهل عملية تذكره بصورة أفضل من غيره من العناصر. فعلى سبيل المثال، في قائمة من الكلمات تم طبعها باللون الأزرق عدا كلمة واحدة طبعت باللون الأحمر، فإن الكلمة المطبوعة باللون الأحمر يكون تذكرها بدرجة أفضل من غيرها من الكلمات، وهو ما يسمى بتأثير ريستورف، أو تأثير التمييز. ففي عملية التعلم قد يتذكر الإنسان كلمة بعينها أكثر من غيرها، فقد وجد هذا الباحث أن هناك ثلاثة أرقام يكون تعلمهم أفضل من الأرقام الأخرى إذا ما وجدت في قائمة من الكلمات الصماء، أكثر من تذكرهم لو وجدوا في قائمة بها أرقام أخرى. وقد لوحظ هذا الأمر في المواقف التي تتميز فيها بعض

(1) جاءت تسمية هذا المصطلح نسبة إلى الباحث الذي اقترحه وهو هيدو بوج ريستورف عام 1933، وهو عالم نفس ألماني (1906 - 1962). وهناك معانٍ أخرى موازية لهذا المفهوم مثل: تأثير التمييز - تأثير العزل - أو ظاهرة ريستورف.

العناصر عن العناصر الأخرى. فالصورة ذات الألوان الزاهية تحتفظ بها الذاكرة أكثر من غيرها المحيط بها؛ وتفسir ذلك أن الألوان تجذب الانتباه، وبالتالي تكون أكثر بقاء في الذاكرة من غيرها؛ فالعناصر المميزة تؤدي إلى تذكر أفضل، ليس هذا فقط بل إن هذا التأثير يمتد إلى العناصر المجاورة للعنصر المتميزة كذلك.

العدد السحري (7):

قدم الباحث جورج ميلر - من هارفارد - دراساته عن سعة الذاكرة، وذكر أنها تبدو محددة بالعدد (7). ففي تجربة على عدد من الأفراد عرض عليهم مجموعة من القوائم للاطلاع عليها، ثم طلب إليهم تذكر أكبر عدد من العناصر المتضمنة في القوائم، فوجد أن جميعهم قد تذكروا ما يدور حول العدد (7) قد يزيد عليه 2 أو يقل عنه 2. ويمكنك أن تقوم بهذه التجربة على نفسك لمعرفة السعة الحالية للذاكرة.

ولا يهم في هذا الأمر نوعية العناصر، هل هي كلمات أم أرقام،ويرى ميلر أن سعة الذاكرة لا تتحدد بكم المعلومات المضمنة، لكنها تتحدد بعدد المجموعات التي يجب تذكرها. والذاكرة الحالية تستطيع أن تستوعب عدد (7) من هذه المجموعات، ومن ثم يمكن مضاعفة محتوى المعلومات، وذلك بتقسيمها وتجميعها في وحدات لا تزيد عن (7). فمثلاً العدد 543675789، وهو مكون من تسعة أرقام، يمكن حفظه في ثلاثة مجموعات فقط، وذلك بتقسيمه إلى ثلاثة مجموعات فقط: 543 مليون ، 675 ألف، 789. فهذا التجميع قد ساعد على زيادة المحتوى الذي يمكن حفظه.

كيفية الاستفادة من هذا في دعم كفاءة الذاكرة:

1- فترات الراحة: من الأفضل تقسيم العمل الواحد لاستيعابه، يتخلله فترات راحة لا تزيد عن 10 دقائق. وهو ما يعظم من تأثير الخبرات السابقة؛ إذ إنه بعد الدقائق العشر يتحسن مستوى استدعاء المعلومة، بل يتحسن أيضاً فهم وتذكر الأجزاء التالية.

2- الاستعداد (التسخين): إن قضاء دقائق قليلة في مراجعة المادة السابقة يساعد كثيراً في تهيئتك لموقف المذاكرة، كما يساعدك أيضاً على تهيئه العقل لما هو مقبل عليه.

3- الاستفادة من تأثير ريستورف: عندما ت يريد أن تذكر شيئاً عليك اتباع الآتي في الحفظ:  
أ- بالغ في عرضها؛ لكي تكون واضحة في الذاكرة.

ب- استخدم الأقلام الملونة والأشكال في التعبير عن المادة المطلوبة.

ج- عند القراءة ضع خطوطاً تحت النقاط المهمة.

د- أن تبرز الأشياء التي تميز الموضوع المطلوب، وتجعلها مختلفة عن غيرها.

4- الاستفادة من تأثير البداية والعداية في تحسين عملية التذكر: حيث يميل الفرد إلى تذكر البداية والنهاية من الموضوع، وحينما تقل كفاءة الذاكرة أن يستعين بكتابه النقاط المهمة، واستخدام ما يعين على إبراز الفكرة بالأشكال أو بالألوان، أو غير ذلك.

#### معينات الذاكرة (mnemonics)

قد يترجم هذا المصطلح بأنه فن تقوية الذاكرة، أو معينات التذكر الجيد، ما هي إذن هذه المعينات؟ وكيف تعمل؟ ومن أول من استخدمها؟ هل يمكن استعمالها مع أي شيء؟ هل يختلف الأفراد في كفاءة هذه المعينات؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه هنا.

تأتي كلمة معينات الذاكرة من الكلمة اليونانية (mneme)، وهي كلمة يتذكر، وكلمة المعين تعنى أي آلية أو تكنيك يساعد الفرد على أن يتذكر أفضل، فقد تكون نغمة أو صورة بصرية أو أي شيء آخر. إن أساس كل هذه التكتnikات هو تكوين ارتباطات قوية تكون حلقة وصل للذاكرة القوية، أو حلقة وصل بين أي بيانات سابقة غير مرتبطة يمكن استرجاعها مجتمعة.

إذا أردت أن تربط بين التفاحة وبين طائر الرخ مثلاً، يمكن رسم صورة لهذا الطائر على أن يكون في نهاية الذيل تفاحة، ومهما كانت الارتباطات، فعلى الفرد أن يفيد من العوامل التي ترفع من مستوى الذاكرة البشرية، وهي:

1- التفرد: لابد وأن يكون الارتباط متفرداً، بحيث لا يتدخل مع الارتباطات الأخرى.

2- الحسية: قد تكون الذاكرة المتصورة لدى الأفراد هي الأكثر شيوعاً، إلا أنه يمكن استخدام الروائح، والأصوات كلما أمكن ذلك.

3- التفاعل: الارتباط بين الأشياء لابد وأن يكون الملحم الأساسي أو الأولى للصورة؛ فعدم الارتباط لا يكون ذات تأثير جيد، إذ إن رسم الطائر داخل التفاحة يكون له تأثير أفضل من وجود التفاحة داخل الطائر.

4- البساطة: كلما كان الارتباط بسيطاً كلما كان أفضل.

5- الإبداع: يتضمن الإبداع أن تبذل جهداً في تكوين الارتباط، وتزيد من عمق العملية، فكلما كانت الصورة تتمتع بالأصالة كلما كانت أفضل في القدرة على التذكر.

6- معايشة الخبرة: ترتبط الذاكرة ارتباطاً قوياً بالخبرة الشعرورية، فكلما خبرت شيئاً بقوة كلما كان ذلك أفضل في تذكره؛ ومن ثم حاول أن تستمتع وتتدفق الصورة العقلية كاملة.

ويستخدم غالبية الأفراد معينات الذاكرة بصورة تلقائية بدون إدراكيهم لها، فهى تستخدم في حفظ التلاميذ لأعمالهم والحقائق التي يجب أن يعرفونها. كما وجد أن استخدام معينات الذاكرة في

تعلم اللغات الأجنبية، يساعد كثيراً أكثر من الحفظ فقط للكلمات. وقد أثبتت الدراسات التمهيدية في هذا الصدد أن استخدام معينات الذاكرة يساعد على تفعيل النصف الأيمن من المخ، فقد وجد الباحثون أن استخدام الصورة مرتبطة بالملوّنة، يؤدى إلى انتقال المعلومة إلى النصف الأيمن؛ مما يساعد على تذكرها بدرجة أسرع.

كما تستخدم معينات الذاكرة ملمساً معاذاً للأفراد ذوي الإصابات المخية، فحينما يصاب النصف الأيسر من المخ، وتضطرب الوظائف اللفظية، تكون هناك معاناة في الذاكرة. وباستخدام معينات الذاكرة المصورة، فإن هؤلاء المرضى يمكنهم تحسين ذاكرتهم، وذلك من خلال استخدام النصف الأيمن من المخ. فاستخدام معينات الذاكرة لا يعين فقط على عمليات الذاكرة الطبيعية التي يتلقاها المخ، بل إنها أيضاً تساعد على تكامل وظائف نصف المخ.

ولعل حالة المراسل الروسي سولومون فينيامينوفitch Solomon meniameonovitch تكشف بوضوح عن أهمية معينات الذاكرة والتخيل الترابط. فقد عكف على دراسته العام لوريا على مدى ثلاثين عاماً، وهو يشير دائماً إلى هذه الحالة بالحرف "ء". فقد أرسلته إليه المؤسسة التي يعمل بها، فهذا المراسل يرسل يومياً إلى مؤسسته قوائم من الأخبار بالتفصيل، وأرقام التلفونات، والعناوين ... اعتماداً على ذاكرته فقط دون حاجة إلى تدوين ملاحظات، وقد اختبره لوريا عدداً من المرات، بقوائم كلمات، وأعداد، ومقاطع صماء، وقطع من اللغات الأجنبية، وسائل حسابية معقدة لتذكرها، ولم يجد لوريا أي فروق في قدرة المراسل على التذكر. ولقد بدأ لوريا من قوائم تبدأ من ثلاثين إلى خمسين وحدة، ثم بقوائم تضم مئات المقاطع، ووُجِد أنه ظل يتذكرة كل شيء بدقة. ولم تكن النتائج تخص القدرة على التذكر فقط، بل أيضاً متانة الذاكرة وقدرتها على التحمل، فقد اختبره لوريا في استدعاء قوائم تم حفظه لها منذ 15 أو 20 عاماً، ولم تكن هناك مشكلة على الإطلاق في استدعاء القوائم، حتى ذوى المقاطع الصماء، وبين نفس ترتيبها. وقد كان المراسل في كل موقف من هذه المواقف يبدأ أولاً بوصف الموقف الذي تم فيه التعلم الأصلي للقائمة (هذه القائمة تم تعلمها في منزله)، وكانت أنت وأنا نجلس إلى ترابيزه في نهاية الحجرة، وكانت ترتدى سترة رمادية اللون، وتتنظر إلى كما تنظر إلى الآن، ولذلك أنا أستطيع أن أراك تقول لي ... ويبداً في سرد مكونات القائمة. وذلك يكشف بوضوح عن أهمية الارتباطات التي تُمده بها البيئة المحيطة.

واستطاع المراسل أن يحقق هذا التميز الملحوظ للذاكرة باستخدام التخيل، فحينما كان يعطى له قائمة من الأرقام العشوائية، كان يكون صورة تلقائية للأرقام، ويربطها ببعض الأشياء المحيطة في الطريق، في الشارع الذي يعرفه، أو في المكان الذي يألفه، وكان أحياناً ينسج قصة حول القائمة. وحينما يطلب إليه تذكر القائمة كان يعمد إلى استرجاع القصة منذ بدايتها، وحينما كان يسقط بعض

عناصر القائمة، كان يسأل عنه وكانت إجابته أن الصورة التي ارتبطت بهذا العنصر، قد اختلطت بأشياء أخرى، ولم تعد واضحة في ذهنه.

وقد كانت قدرة "د" الواضحة على التخييل قد ارتبطت بقدرتها المميزة على التأليف والتركيب، ففي هذه القدرة تفقد الحواس حدودها، وتبدأ في الاختلاط ببعضها البعض. هذه المثيرات البصرية قد تفجر القدرة على الشم، والتذوق، واللمس، وقد يؤدي الصوت إلى إنتاج صور بصرية. وعندما قدمت مع نغمة 50 هيرتز، ومع (amplitude 100)، رأى "د" خيطاً بنرياً، وراءه خلفية سوداء بها لسان أحمر كأنه الحافة، وكان لها طعم الحلوي اللاذعة. ومع 100 هيرتز، رأى "د" منظراً آخر.

فهذه القدرة تأتي تلقائياً في حياته، وقد تعوق الذاكرة أحياناً، فإذا كان يسترجع صوراً من منظر بصري، ويadar لوريما يقول "نعم" على كل جزء يسترجعه صحيحاً، فكانت كلمة "نعم" هذه تؤدي إلى وضع ضبابية على المنظر، وكان عليه أن يزيل هذا التأثير؛ حتى يستطيع أن يكمل بقية العناصر. وقد كانت من أهم مشكلاته كيف ينسى، فعندما كان يسترجع قائمة كتبت له على السبورة، فلا بد أن يكون حذراً لا يحفظ قائمة أخرى كتبت على نفس السبورة في موقف مشابه. ولقد حاول بطرق كثيرة أن يتغلب على هذه المشكلة فكان يكتبه على ورقة مثلاً، وهو الأمر الذي يتناقض تماماً مع ما اعتاد عليه الناس؛ لكي يتذكروا الأشياء. والحل الذي تبناه "د" كان غاية في البساطة، وهو أن يصدر هو أمر النسيان للمخ فيحدث ذلك.

ومن الحقائق المشوقة أيضاً أن "د" لم يكن يعتمد إلى تجريد المعلومات، أو يهتم بالأسسيات، بل إنه حين تعرض عليه القائمة لحفظها، كان يخلق من لدنه نظاماً يربط العناصر داخل القائمة. وفي كل هذا، لم يستخدم "د" كل إمكاناته، بل كان يستخدم إمكانات مألوفة للجميع، فكان مازال يعمل على جزء من قدرته (Wolf,2001,pp:178-182).  
(Patric

لشك إذن أن هذه الحالة تلقت الانتباه إلى أهمية ربط الأرقام أو الحقائق بالأشكال المتصورة؛ لسهولة استدعائها، دون الاعتماد على الحفظ سماعياً فقط، أو حفظ الشيء مجرد دون ربطه بالصور أو الأشكال. مثلاً إذا أردت أن تحفظ عشرة أشكال، عليك أولاً أن تعطي لكل شيء رقمًا. فإذا كان الشكل الأول برتقالية عليك أن تربط بين كل رقم وشكل أو صورة تميزه، مثلاً أن تربط بين الرقم "1"، وبين البنية التي توجهه لضرب البرتقالية. وكلما كانت الارتباطات غريبة وغير مألوفة، كلما كانت أكثر كفاءة في تذكر الأشياء المقصودة. وعلى ورقة بيضاء، اكتب الأرقام للأشياء العشرة، وحاول تذكرها، وغالباً ما يستطيع الفرد أن يحقق منها 8 أو العشرة جميعاً، أما إذا فشلت فراجع الارتباطات ربما تكون غير بصرية أو مألوفة ومعتادة.

أما في تذكر الوجوه، فقد تمثل أحد المجالات المهمة التي تتحقق فيها الذاكرة، فقد يتم تقديمك إلى عشرة من الأفراد تنسى أسماء نصفهم بعد خمس دقائق، وهنا يمكنك أن تستخدم طريقة التخيل الارتباطي في حفظ الوجوه. فبدلاً من سماع الاسم فقط أثناء المصادفة، حاول الربط بين الاسم وبين الوجه، أو بين أي جزء آخر واضح أو بارز، أو يكون غير مرتبط. لكن لابد من تخيل الصورة التي تربطها بالشخص كما لو كانت حقيقة، ويمكنك أن تسأل الفرد مرة أخرى عن اسمه؛ حتى تستطيع تخيل الصورة التي تربطها باسمه.

ومن المشكلات الأخرى الخاصة بالذاكرة مشكلة العقول الغائبة، وهو ما يمكن خفضها باستخدام التخيل الارتباطي. فقد تضع شيئاً ما في مكان وتنسى هذا المكان، لذلك عليك أن تخلق صورة تربط بين المكان وبين الشيء. وجدير بالذكر أن ظاهرة العقول الغائبة تحدث حينما يكون العقل غائباً، فأنت تفعل الشيء بنصف وعي.

ولقد تأثرت بعض نظريات الذاكرة بنظرية القوس القشري المنعكس. في هذه النظرية كل مسار للذاكرة يتكون من ممر خاص بين النيرونات، وتحل الذكريات الحديثة باعتبارها ارتباطات جديدة بين النيرونات. ومنذ ذلك الوقت تبين لهم أن المخ لا يعمل مثلما يعمل نظام التبديل في التلفونات - كما تفترض نظرية القوس القشري المنعكس (cortical reflex arc) - ولا أن النيرونات تقوم بعمل ارتباطات جديدة في كل وقت تتكون فيه ذاكرة جديدة. أما النظريات الحديثة فإنها تفترض أن اكتساب الذاكرة يعتمد على التسهيلات أو المعوقات التي تقوم بها الخلايا العصبية في المخ، وينظر إلى الذكريات على أنها تقيم في خلايا أو ممرات خاصة، لكنها تكمن في نوع التغيرات الكيميائية والكهربائية في المخ عامة. ومن أكثر الأبحاثفائدة في هذا الصدد كانت عن الأساس الجزيئي للذاكرة، وفي تطبيق نظرية ثلاثة الأبعاد (holography) على الذاكرة.

### كيف نحسن أداء الذاكرة؟

يميل الجميع إلى الشكوى من الذاكرة، حتى في حالات سوء الذاكرة وعدم وجود ما يشير إلى ضعفها أو اضطرابها، إذ يبدو أنه من المقبول اجتماعياً الشكوى من فقر الذاكرة، والتغلب به في حالات الإخفاق الاجتماعي، أكثر من عزوه إلى الغباء أو عدم الحساسية. لكن ماذا نعرف عن قوة ذاكرتنا؟ هل يمكن تحديد درجة هذه القوة؟ لكن نحدد درجة قوة الذاكرة، لابد وأن نحدد درجة إخفاقها؛ إذ إنه ليس بالأمر السهل على الفرد الاعتراف باضطراب ذاكرته، أو يستبصر بدرجة الضعف في تذكره للأحداث. فضلاً عن هذا، فإن الفرد في تقديره لقوة ذاكرته، قد يتخذ من ذاكرة الآخرين محجاً لذلك، مما قد يؤدي إلى تشويه المعرفة الصحيحة عن الذاكرة.

وفي السنوات الأخيرة، تزايد الاهتمام بقياس الذاكرة اليومية، ومن الأدوات التي تستخدم لذلك الاستخار الذي قام بوضعه هاريس وسندرلاند (Harris&Sunderland) عام 1983. ويعزو الباحثون عدم قدرة الأفراد على التقدير الصحيح لقوة ذاكرتهم إلى حقيقة أن الأفراد يعيشون أنماطاً مختلفة من الحياة. فقد يعيش الفرد حياة منظمة ومحكمة إلى درجة كبيرة، مما يخفف العبء عن الذاكرة، بينما يعيش آخر حياة نشطة مليئة بالمبادرات؛ ومن ثم فإن الثانى لا شك يواجهه مزيداً من إخفاقات الذاكرة أكثر من الأول؛ لذلك فقد يستعين بعض المعينات التى تسهل على الذاكرة أداء مهامها المتعددة والكثيرة.

ولقد قام هاريس ببحثه عن معرفة أي أنواع المعينات التي يستخدمها الأفراد؛ لمساعدتهم على التذكر، واستعan بعينة من طلاب الجامعة، وأخرى من ربات البيوت. وقد خلص الباحث إلى أن العينتين لم يختلفا في نوعية المعينات التي يستخدمانها في تذكيرهم للأحداث، فكلاهما يستخدم المذكرات اليومية، والتلائج، والقوائم، ومحددات الوقت. حالياً هناك من الأدوات التجارية التي تساعده على ذلك، منها الكمبيوتر المحمول، والتلفون المحمول، والحواسيب الآلية وال ساعات ... وغيرها.

#### • استخدام المعينات البصرية:

لقد أصبحت المعينات التي تعتمد على البصر أكثر اعتماداً من ذي قبل، وقد يرجع استخدام هذه المعينات إلى اليونان حيث استخدمها الشاعر سيمونيدس منذ 500 عاماً قبل الميلاد؛ إذ إنه عندما اكتشف قدرته الكبيرة على التذكر البصري، استطاع أن يستخدم هذه القدرة في حفظ الأشياء. وتتلخص الطريقة - والتي يمكنك تجربتها على نفسك - في تحديد مثلاً عشرة أماكن في منزلك، واضحة وبؤدي كل منها للآخر بسهولة ويسر. ثم حدد عشرة أشياء ووزعهم على هذه الأماكن، فذلك يساعد على حفظ الأشياء.

وتذكر باتريشيا وولف في مؤلفها (2001) أن الصورة تساوى - على الأقل - عشرة آلاف كلمة؛ إذ إن عيون الإنسان تحتوى على 70% من المستقبلات الحسية في الجسم، وترسل ملايين الإشارات كل ثانية، من خلال العصب البصري إلى مراكز عمليات الإبصار في المخ. وقد كشفت العديد من الدراسات كيف يعمل المخ، ويذكر المعلومات المصورة (Wolf,2001,p:152).

ومن أكثر الموضوعات التي تستخدم فيها هذه الطريقة هي تعلم اللغة الأجنبية. حيث يتدرج التطبيق من تعلم المعينات البصرية إلى تعلم الكورس كاملاً بالكلمات والقواعد. ولقد وجد أن استخدام المعينات البصرية مع القناة السمعية للفرد تلعب دوراً كبيراً في تعلم اللغة الأجنبية.



### • استخدام المعينات اللغظية:

رغم أن المعينات المعتادة تتركز في المعينات البصرية، وهي من الأساليب القوية في دعم عملية تسجيل الأحداث ثم تذكرها، إلا أنه في فترات تاريخية، كان ينظر إلى الصور باعتبارها مفعمة بالثراء، وتحض على الأفكار الآتية. كذلك تم رفض المعينات البصرية؛ لكونها تطالب الذاكرة بالكثير من المعلومات غير المرتبطة؛ ومن ثم كان الاهتمام بالمعينات اللغظية والاعتماد على الترابط المشحون بالمعنى. وقد ساد هذا النوع من المعينات في العصر الفيكتوري، حيث يتم تذكر التواريخ، من خلال نظام ترابط فيه الأرقام المكونة للتاريخ بحروف ساكنة، تكون كلمات يمكن حفظها، وتكون إشارة على التاريخ.

وفي حال استخدام المعينات اللغظية، يكون الاعتماد على الترميز اللغظى باستخدام الإيقاع والتنغيم، كما يحدث في كتابة الشعر مثلاً.

### • المحاكاة الشفهية والشعائر:

ورغم أن المعينات من الأشياء المهمة في المجتمع الغربي، إلا أن استخدامها ليس كثيراً؛ حيث تعتمد المعلومات على الكتابة أو التسجيل على شرائط. أما في المجتمعات غير المتعلمة، فالتقليد المتبعة هو الاعتماد على الذاكرة، ومن ثم تكون الأدوات التي تحفظ المعلومات تمثل جزءاً حيوياً من حفظ الطقوس. ومثل هذا النوع من المعلومات ذو فائدة كبيرة للمجتمع، ويمكن قياس تغير المجتمع في ضوئها.

وفي المجتمعات التي يقل فيها عدد المتعلمين، يكون الاعتماد على التقليد الشفهي بشدة؛ إذ إن الذاكرة تزود بالنغمة والإيقاع؛ لذلك فإن استخدام المعينات اللغظية في هذه المجتمعات ترتبط باعتمادها على الذاكرة.

### • المعينات القائمة على دقة الترميز :Elaboration coding mnemonics

من أنواع المعينات المستخدمة الرابط بين المعروف وغير المعروف لتذكر الجديد، ومثل هذه الآلية تستخدم في حفظ الأرقام مثلاً، أو في حفظ عدد الأيام في الشهور المختلفة. وهذه المعينات لا تستخدم للمساعدة في التذكر فقط، بل أيضاً تساعد على تعلم الأطفال ذوي صعوبات القراءة، حيث تساعدتهم على النطق الصحيح.

### • المعينات الخارجية:

والمعینات على التذكر ليست جميعها داخلية تعتمد على الفرد الذي يتعلم، بل إن هناك أنواعاً أخرى من المعينات، مثل القوائم، والملاحظات، وتدوين المعلومة على اليد أو المنديل. وقد قام هاريس Harris، 1980 بعمل دراسة للتعرف على أنواع المعينات التي يستخدمها الأفراد؛ لمساعدتهم على التذكر. وكشفت دراسته عن أن الأفراد أكثر ميلاً إلى الاعتماد على المعينات

الخارجية، ويتبين هذا الاتجاه بصفة خاصة لدى كبار السن، كما أن المعينات الخارجية أكثر الطرق فاعلية في تحسن الذاكرة لدى المصابين في المخ.

### كيف تحسن ذاكرتك؟:

تكشف الفصول السابقة عن أن الذاكرة البشرية هي نظام مؤثر لتخزين واستعادة المعلومات، غير أنها نشعر أن ذاكرتنا تتدحرج أحياناً، خاصة عندما نتقدم في العمر، وقد تكون سقطاتنا تافهة، ويمكن معالجتها بسهولة، فقد تضمن نسيان اسم أحد الأصدقاء مثلاً، وقد تكون بعض السقطات الأخرى لها أهمية أكبر، فقد يكون نسيان أحد المواعيد يرتبط بفقدان فرصة مهمة للعمل أو تحديد المستقبل. وطالما أنها لا نستطيع أن نغير ذاكرتنا، فالامر الوحيد المتاح لنا هو استخدام نظام الذاكرة لدينا على أفضل وجه ممكن. ويضع بادل قاعدة مهمة في التعامل مع الذاكرة مفادها مايلي:

"أول كل شيء لابد من تقبل الذاكرة على أنها نظام مغایر لنظام عمل القلب أو الرئتين، حيث يمكن تحسينه بالتدريب الرياضي. وقد كان هذا الاعتقاد الخاطئ شائعاً في القرن التاسع عشر بين علماء التربية، وما زال يتعدد حتى الآن؛ إذ إن تدريب الفرد الذي يشكو من ضعف ذاكرته على تمارين للتذكر، لا يعني علاج ذاكرته".

وليس هذا الأمر حديثاً بل يرجع إلى أوائل القرن العشرين، حيث استطاع هنتر Hunter, 1957 في كتابه المتميّز عن الذاكرة، أن يشير إلى إحدى التجارب التي قام بها سليت Sliggett على عينة من تلاميذ المدرسة المتوسطة بمتوسطة عمر اثنين عشر عاماً، وقسموا إلى أربع مجموعات، إحداها مثلت المجموعة الضابطة. أما المجموعات الثلاث، فقد اختصت كل منها بالتدريب على حفظ نوعية محددة من الموضوعات (قطع الشعر، حقائق علمية في الجغرافيا والتاريخ، ثم حفظ الحقائق الرقمية عن المسافات والمساحات) وقد تم تدريب هذه المجموعات اثنين عشرة ساعة، على مدى ستة أسابيع، بواقع نصف ساعة أربع أيام في الأسبوع. وبعد انتهاء فترة التدريب تم اختبار المجموعات الأربع على موضوعات عديدة، تتضمن الشعر، والقوائم الصماء، والأحداث التاريخية، وقوائم الأسماء وأماكن الأنهر والمحيطات على الخريطة، وقد كشفت النتائج عن عدم وجود فروق في أداء المجموعات التجريبية عن المجموعة الضابطة التي لم يتم تدريبها.

كذلك هناك بعض النتائج السلبية التي كشفت عنها تجارب دانييل واجزن Daniel Wagner, 1978 على الطلبة المغاربة في أمريكا، كلها تؤدي إلى النتيجة السابقة، وهي أن الذاكرة لا تتحسن بالتدريب على الحفظ (Badeley, 1999, p: 293-294).

ونتيجة للاهتمام الحديث بتجارب الذاكرة على الكبار والمصابين بإصابات المخ، قدم ماكفوي ومون *McEvoy & Moon* عام 1988 برنامجاً على أربع وثلاثين من المرضى من ولاية فلوريدا، بمتوسط عمر ثمان وستين عاماً. وكانت الموضوعات التي دار حولها التدريب هي:

- الأسماء والوجوه: حيث يتعلم الأفراد كيف يستخدمون المعينات البصرية في الربط بين الأسماء والوجوه.
- المواعيد: استخدام المعينات الخارجية، مثل النتائج، والمذكرات، في مراجعة المواعيد المستقبلية.
- الأعمال الروتينية: وتهدف إلى تحسين ثبات الأداء للأعمال الروتينية، مثل تعاطي الدواء مثلاً.
- التوجه المكانى: والذي يرتبط ببعض المشكلات، مثل مكان ترك السيارة، أو التوهان في مكان غير مألوف. فكان يتم تشجيع الأفراد على استخدام الرموز البصرية أو اللفظية، وتركيز الانتباه على العلامات، حتى يألف المكان.
- تسكين الأشياء: حيث من المعتاد نسيان أين وضعت الأشياء؛ إما لوضعها في غير المكان المعتاد، أو تكونها غير ظاهرة للعين، أو لوضعها في عدد من الأماكن وليس مكان واحد؛ لذلك لابد من التعود على وضع الأشياء في المكان المحدد دون تغيير، ويمكن استخدام الألوان لإظهار المكان الذي توضع فيه الأشياء.
- التركيز: حيث يتم التدريب على تركيز الانتباه عند سماع أو رؤية شيء، كذلك يتم التدريب على استخدام الإستراتيجيات في مراجعة المعلومات والأشياء.

وفي محاولة لقياس مدى نجاح البرنامج، تم تطبيق أحد الاستفتاءات على أفراد العينة المستهدفين قبل بدء البرنامج، ويتضمن المجالات الستة التي سبق ذكرها، بالإضافة إلى أربعة أخرى، لم يتضمنهم البرنامج. وكشفت النتائج بعد انتهاء التدريب عن تحسن في المجالات التي تضمنها التدريب، أما المجالات الأربع الأخرى، فلم يكن هناك تحسن يذكر.

#### الانتباه والاهتمام والتنظيم:

اتضح من الفصول السابقة إلى أي مدى يمثل الانتباه أمراً مهماً للاحتفاظ بالمعلومة في الذاكرة طويلة المدى. فعلى مدى التجارب السابقة، كشفت النتائج عن أن التكرار لا يعني شيئاً للاحتفاظ بالمعلومة، إذا لم يصاحب الاهتمام بها، والتعامل الإيجابي معها. وقد يوضح هذا ما يحدث في نسيان أسماء الأشخاص الجديد في حياة الفرد، إذ غالباً ما تمثل المقابلة الأولى أهمية للنظر إلى الشخص، وجمع الملاحظات السريعة المهمة عن مظهره، وكلامه، مما يؤدي إلى عدم التركيز على الاسم. فإذا أردت أن

تحسن ذاكرتك في أسماء الأشخاص، ركز الانتباه على الاسم، حتى وإن اضطررك الأمر إلى إعادة السؤال؛ فهذا من الأمور المقبولة اجتماعياً أكثر من التعبير عن نسيان الاسم في المقابلة التالية، والذي يعني عدم الاهتمام بالشخص، ولاشك أن استعادة الاسم من وقت لآخر يساعد على تثبيت الاسم في الذاكرة.

كما يمكنك الاستعاضة بالأسلوب ذاته في قراءة كتاب ما أو مقالة ما، إذ يساعد ذلك على بقاء المحتوى في الذاكرة. وعلى العكس من هذا، يمكن أن يؤدي التداخل مع معلومات أخرى - في الآن نفسه - إلى ضياع الجزء الأكبر من المضمون، لأن يجمع الفرد بين قراءة مقال ورؤية التلفزيون مثلاً. فضلاً عن هذا، فقد اتضح في الفصول السابقة أهمية تنظيم المادة المتعلمة على بقائها في الذاكرة؛ إذ إن التنظيم يعني وجود المعنى الذي يربط بين المعلومات الحديثة والخبرات السابقة للفرد، مما يقسمها إلى فئات أو موضوعات يسهل حفظها وبقاوتها في الذاكرة. وأحد الأمثلة الدالة على هذا ما عرضه إريكسون وشيز (Ericsson & Chas, 1982) من نتائج تجربتهما على إحدى الحالات التي استطاعت أن تحسن من مدى الذاكرة الرقمية، وتصل بها إلى سبعين رقمًا، على حين أن متوسط الاستعادة لدى الفرد هو ست أو سبع أرقام، والوصول إلى عشرة أرقام هو الاستثناء. ومن دراسة تلك الحالة، تبين أن التدريب قد شمل مائتي ساعة، موزعة على ثمانية عشر شهراً. فضلاً عن هذا، ففي المحاولة الخامسة للتدريب، استطاع المبحوث أن يفيد من خبرته الجيدة في رياضة قطع المسافات، والזמן المطلوب للميل الواحد، ثم كان تجميع الأرقام وترميزها بناء على هذا المعنى، مما ساعدته على تقسيم الأرقام إلى فئات أساسية، وفئات فرعية، الأمر الذي ساعد على توسيع مدى الذاكرة الرقمية لديه على النحو الذي سبق.

والأفراد الذين تقتضي طبيعة عملهم التعامل الكثيف مع الذاكرة، لابد وأنهم يطورون معينات خاصة بهم، تساعدهم على أداء عملهم بكفاءة. فعامل المطعم الذي يتعامل مع عشرات الزبائن في الوقت الواحد، كيف يمكنه أن يحفظ لكل منهم ما طلبه دون أخطاء؟ وفي دراسة على أحدهم، كشفت عن استعاته بعدد من الإستراتيجيات التي تبدأ من استخدام الرموز ذات المعنى، والمعينات البصرية، والحرروف الأولى من الكلمات؛ وذلك لحفظ الطلبات واضحة في ذاكرته.

وخلال هذه الأمثلة، أن الانتباه والاهتمام ثم التنظيم، من الأمور الضرورية لبقاء الذاكرة نشطة، والحفظ على معدل جيد من أدائها. لذلك أفردنا فصلاً لتنظيم الذاكرة وأهميته للتذكر الجيد، وكيف أن الذاكرة طويلة المدى هي أشبه بالمكتبة الكبيرة الثرية بالمعلومات، التي يلزم تخزينها بكفاءة وجود نظام يتبع في تصنيف الكتب إلى فئات. فالتنظيم يعين على أمرين؛ أولهما: يعطي كياناً لما تم تعلمه، بحيث إن استدعاء جزء من المعلومة يجعل الأجزاء الأخرى في متناول الفرد، وقدرته على

التذكر. أما ثانيهما: فهو أن التنظيم يربط بين الحديث من المعلومات بما سبق تعلمه، وهو بدوره يعين على إعطاء المعنى لما يتم تعلمه، بما يساعد بدوره على التذكر الجيد.

وفي الدراسات الحديثة على وظائف المخ، وباستخدام تصوير المخ بالرنين، قام ناييرج بدراسة معرفة الفرق بين القديم والحديث من المعرفة، بين ما تم تعلمه وما لم يتم تعلمه، مع تصوير أي المناطق في المخ تنشط في الحالتين. وكشفت هذه الدراسات عن قدرة المخ على التمييز بين ما تم تعلمه وما لم يتم تعلمه، وذلك من خلال نشاط مناطق مختلفة في المخ (Nyberg, Lars, 1999, 293-303).

لكن، من الجدير بالذكر هنا هو التأكيد على أهمية الممارسة، وتذكر هذه المعلومات بين آونة وأخرى؛ إذ لا نستطيع أن نهون من أمر الزمن، وتأثيره على قدرة الفرد على التذكر؛ حيث إن قدر ما تعلمه يتساوى مع الوقت الذي تنفقه في التعلم، وينطبق هذا على تعلم الأسماء، كما ينطبق على تعلم الحقائق العلمية. ومن ثم تصبح الممارسة أمراً مهماً لبقاء المعلومة في الذاكرة. ومن المهم هنا تذكر أن التدريب القليل المستمر يعطي نتائج أفضل كثيراً من التدريب المكثف غير المستمر.

فضلاً عن هذا، فإنه من المهم التأكيد على أن التعامل الإيجابي مع ما يتم تعلمه يعد أمراً مهماً لجودة الذاكرة. فمحاولة الرابط بين الحديث والقديم من مواد التعلم، وتوظيف المعلومة والاستفادة منها في مواقف جديدة - كلها من الأشياء التي تساعده على جودة التذكر. ولقد ذكر ويليام جيمس قدماً ما يلي:

"من بين رجلين، يحملان قدرًا واحداً من المعلومات، ويعايشان إطاراً مماثلاً من الخبرات، فإن الذي يفكر في خبراته، ويقارب بينها في علاقات منتظمة، يكون هو صاحب الذاكرة الأفضل" (Baddeley, 1999, 30).

\* \* \*

### الفصل الثالث

## الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة العاملة

إن القول بوجود شكل من أشكال الذاكرة يقوم بتخزين المعلومات لفترة قصيرة، لا يعد قوله حديثاً، بل إن الأفكار التي عنيت بطبيعة الذاكرة قصيرة المدى ووظيفتها، قد ترددت على مدى المائة عام السابقة، كما تغيرت المصطلحات التي تمس نظام التخزين من الذاكرة الأولية Primary Memory إلى الذاكرة قصيرة المدى Short term memory إلى الذاكرة العاملة Working Memory.

وترجع أول المناقشات في هذا الموضوع إلى عالم النفس ويليام جيمس (William James) الذي ميز بين نظامي الذاكرة؛ الذاكرة الأولية والذاكرة الثانوية، مستخدماً هذه المصطلحات؛ للدلالة على درجة علاقة الوعي بالمعلومات المخزنة. فقد رأى أن الذاكرة الأولية هي أول المستودعات المهمة التي تخزن بها المعلومات، وتكون متاحة لكل من الوعي والانتباه وعملية الاستبطان، ويمكن الوصول إليها بصفة مستمرة. كما قارن وليام جيمس بين الذاكرة الأولية وبين التخزين طويلاً المدى، الذي أطلق عليه مصطلح الذاكرة الثانوية، من حيث قابلية المعلومات للاسترجاع، دون الاستعانة بالعمليات المعرفية النشطة. وقد قدمت الإشارة في الفصل الثاني من هذا الكتاب، إلى بقية الجهود التي توالت على تقسيم الذاكرة إلى أنواع، جسدها أول نموذج قدمه أتكنسون وشيفرين عام 1968، ثم كانت محاولات بادلي وهيتشر Baddeley, Hitch ، وقدما نموذجهما عام 1974، كبدائل مطورة لنموذج أتكنسون وشيفرين.

ثم توالت محاولات بادلي على هذا النموذج، وكانت إضافاته إليه عام 2000، بما أطلق عليه المخزن المؤقت للأحداث buffer Episodic، وهو ما سترعرض له تفصيلاً في هذا الفصل، غير أن ما تجدر الإشارة إليه، وهو أن هذا التطوير في نموذج تقسيم الذاكرة، والإضافات التي لحقت به، قد تزامنت مع تغيير مسمى الذاكرة قصيدة المدى إلى الذاكرة العاملة، وذلك بالنظر إلى الدور الذي تقوم به الذاكرة قصيرة المدى، والذي يتجاوز التخزين المؤقت قصير المدى للمعلومات، أي تجميع هذه المعلومات من مصادر متعددة (السمعية والبصرية) ثم المتكاملة بينها ومعالجتها؛ لتحويلها إلى الذاكرة طويلة المدى.

وب قبل العرض للذاكرة العاملة والنماذج المفسرة والشارحة لها، نعرض بقدر من الإيجاز للذاكرة القصيرة، وألفاقيم التي ارتبطت بها.

## أولاً: ما هي الذاكرة قصيرة المدى؟:

على الرغم من جهود ويليام جيمس المبكرة عن التخزين قصير المدى للمعلومات، إلا أنه لم تكن هناك دراسات تجريبية توضح خصائص هذا النظام حتى الخمسينيات من القرن العشرين. ويرجع هذا الإهمال - في جزء منه - إلى سيطرة النظرية السلوكية في النصف الأول من القرن العشرين، التي أدت إلى تحويل الاهتمام بعيداً عن الدراسات المعرفية. ومع بدايات النصف الثاني من القرن العشرين بدأت جهود ميلر Miller عن الذاكرة قصيرة المدى تجذب انتباه المهتمين بالعمليات المعرفية مرة أخرى. فما قدمه ميلر عن سعة الذاكرة والطبيعة المرنة التي يمكن أن تزيد من هذه السعة، يمكن أن يرفع من كفاءة الذاكرة من سبع أرقام إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير، وهو ما سنتناوله بالتفصيل داخل هذا الفصل.

وقد عبر سير فرانسيس جالتون - العالم الإنجليزي - عن هذه الذاكرة، بقوله: "يبدو أن هناك حجرة الحاضر في عقلنا، حيث يسيطر الوعي تماماً، وحيث تكون هناك فكرتان أو ثلاث متاحة في نفس الوقت. وحجرة أخرى هي حجرة الانتظار تكون مكاناً للأفكار المتراقبة مع بعضها ، والتي تتوارد وراء الإدراك الكامل للوعي، وخارج نطاق هذه الحجرة ، فإن الأفكار ترتبط مع تلك التي في حجرة الحاضر ويبدو أنها تدعى إلى ذلك بطريقة منطقية آلية، وتأخذ دورها فيما هو متاح من الأفكار.(Baddeley,1999,29).

إن هذا المفهوم عن محدودية الوعي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الذاكرة قصيرة المدى short term memory (STM)، وهو نظام لحفظ المعلومات لفترة قصيرة من الوقت. إن طبيعة الوعي من المشكلات الأساسية والمدهشة في آن واحد. في مناقشة الذاكرة قصيرة المدى، نعرض لخصائص النظام الذي يسمح بالتعامل مع كمية محدودة من المعلومات، فهو يبدو كأنه نظام يعمل على قبض الأفكار التي تتلاشى سريعاً، والتي يمكن أن يتول مصيرها إلى النسيان، فيمسك بها، ويربط بينها، ويعامل معها في حدود الغرض منها. إن عدد هذه الأفكار ضئيل، لكنه يمكن مضاعفته بطرق أخرى عديدة.

## سعة الذاكرة:

اهتم مجموعة من الباحثين في القرن التاسع عشر بمعرفة مدى استيعاب الذاكرة قصيرة المدى، فلاحظ سير ويليام هامilton Sir William Ha' Milton ، أنه إذا بعثرت مجموعة من الأحجار الصغيرة على الأرض، فإن الفرد لا يستطيع أن يحصر منها أكثر من سبعة أحجار. وتعد تجربة جون جاكوب J.Jacobs عام 1887 من أولى التجارب العلمية في هذا الصدد، فقد كان يعمل مدرساً، وأراد أن يقيس سعة الذاكرة لدى تلاميذه، فأعاد أداته لقياس مدى سعة الذاكرة باستخدام الأرقام، والتي لعبت دوراً مهمّاً في علم النفس بعد ذلك. وهي عبارة عن مجموعات من الأرقام، تبدأ بثلاثة

أرقام، تزداد حتى تصل إلى عشرة أرقام، وتعرض هذه الأرقام على الفرد الذي يطلب إليه أن يعيدها بترتيبها. وعند الحد الذي لا يستطيع الفرد أن يعيد هذه الأرقام، يعتبر هذا هو مدى سعة الذاكرة لديه، ويستطيع الغالبية من الأفراد استرجاع حتى ستة أرقام أو سبع، بينما الأقلية التي تستطيع حتى عشرة أرقام، أو ربما أكثر، والأقلية أيضًا الذين يستطيعون ذلك حتى أربعة أرقام.

كما لاحظ أيضاً أن قراءة الأرقام بصوت مرتفع أفضل من قراءتها بالعين فقط، حيث إن سماع الأرقام والصوت الخاص بكل رقم، يساعد على تسجيل الأرقام في مخزن الذاكرة السمعية الشبيهة بالصدى (echoic memory). ومن الأساليب التي تساعد على الأداء الأفضل هو تجميع الأرقام في كتل، حيث إن ذلك يجنب الفرد الخطأ في استرجاعها. وقد أفسرت الدراسات المختلفة عن تجميع الأرقام، إلى أن التجميع في مجموعات ثلاثة هو الأفضل، مع وجود مسافة قصيرة بين كل منها. وقد يبدو ذلك واضحًا إذا أردت أن تعطي أحدًا رقم الهاتف الخاص بك، فحاول أن تقسم له الأرقام إلى مجموعات، كل منها ثلاثة أرقام أو اثنين؛ إذ إن ذلك يقلل - إلى حد كبير - من فرصة الوقوع في الخطأ.

وحقيقة الأمر، أن الإيقاع يلعب دوراً مهمًا في القدرة على التذكر، فهذا الإيقاع هو الذي يساعد على حفظ الشعر سريعاً، بل وبقائه. وتعد ذاكرة (A.C.Aitken) مثلاً واضحاً على هذا، فقد كان آتكن أستاذًا في الرياضيات، يملك ذاكرة أثارت إعجاب الآخرين ودهشتهم، وكان يستطيع أن يقوم بعمليات الضرب بعقله، دون الاستعانة بورقة وقلم. وقام Ian Hunter - أحد متخصصي علم النفس - بدراسة مواهبه المتميزة، وكشف عن أن آتكن يقوم بترتيب 500 رقم في عشر صفحات، على أن يضم كل منها 50 رقمًا، ثم يجمع كل خمسة أرقام في مجموعة، ويقرأها مع التنغيم، ويسترجعها بنفس الطريقة، فيكون من السهل عليه عدم الخطأ فيها. ولقد وصف هنتر إحدى المرات التي تم فيها اختبار آتكن كما يلى:

«كان يجلس مسترخيًا، يسترجع الأرقام الخمسمائة دون خطأ، ثم يتوقف لكي يتنفس، ويقدر الزمن الذي يستغرقه بـ 150 ثانية. وكان الإيقاع واضحًا حيث كان يسترجع خمسة أرقام في الثانية، يفصلهم عن الذي يليهم بحوالى نصف ثانية. وحينما طلب إليه أن يستعيد الأرقام رقمًا رقمًا، عبر عن ذلك بقوله: إن ذلك بطء شديد، يمثل صعوبة له؛ لأن يتدرّب الفرد على قيادة الدراجة ببطء شديد».

ومم توقف موهبة آتكن عند هذا الحد فقط، بل إنه في عام 1937 طلب إليه أن يسترجع قطعة من النثر مع قائمة مكونة من 25 كلمة، وبعد مرور 27 عامًا أخرى طلب إليه أن يسترجع هذه القطعة مع قائمة الكلمات، فاسترجعها جميعًا دون خطأ يذكر. ولذلك كان يعتمد عليه في إعطاء تقارير عن المؤشرات، واللقاءات التي يحضرها دون حاجة منه إلى تدوينها، بل معتمدًا فقط على الذاكرة.

### نظام التكتل أو التجميع (chunking):

إن من العوامل البارزة في نجاح أتكن، هو قدرته على تجميع مجموعة من الأرقام في كتلة واحدة(chunk)، حيث إن مدى الذاكرة يحدده عدد الكتل(chunks)، وليس عدد الأرقام. فعلى سبيل المثال إذا طلب إليك حفظ الحروف الآتية: ب ة س ع ص و ة ل ا ث ر ت ا، هل يمكنك حفظ هذه الحروف غير المرتبطة بسهولة؟ إذا لم يكن المطلوب استرجاعها حسب هذا الترتيب، يمكن وضعها في ترتيب آخر حيث يكون عدد من الحروف مجموعة يسهل استرجاعها، حيث تكون ص ع و ب ة (صعوبة)، وتكون الحروف: ا ل ا س ت ث ا رة (الاستثارة) كل منها يكون كلمة لها معنى، الأمر الذي يسهل حفظها واسترجاعها. ومنذ عام 1956، أشار ميلر إلى أن عدد هذه التجمعات في ذاكرة الفرد الناضج تتراوح بين 7 - 9. أما حديثاً فإنه قد تم تحديدها بالعدد 7 + ولتوسيع معنى هذه التجمعيات للمادة التي يتم حفظها في الذاكرة قصيرة المدى، فإنها يمكن أن تزيد كم المادة التي يمكن حفظها، ربما إلى عشرات الأضعاف؛ كمن يحمل معه حافظة نقود تسع أربع عملات، فإذا وضع فيها عملات ذات القرش الواحد فإنه يحمل معه أربعة قروش فقط. أما إذا كانت هذه العملات من فئة الجنيه، فإن الحافظة تحمل أربع جنيهات بما يوازي 400 قرش، وهذا يعني أن كيفية تقسيم المادة، والتعامل معها هو الذي يحدد كفاءة استخدام السعة المتعارف عليها.

وتقسيم الأرقام إلى مجموعات هو من الأمور التي يقوم بها الأفراد ذوو القدرة المتميزة على التذكر. هذا التقسيم قد يساعد عليه تكرار المادة نفسها، أو إمكانية التنبؤ بها؛ فكما في اللغة الإنجليزية مثلاً، هناك حروف يتبعها حروف بعينها، مثلًا الحرف q غالباً ما يتبعه الحرف u، والحرف T غالباً ما يتبعه الحرف h، وهو الأمر الذي يسهل عملية الحفظ والاسترجاع.

وفي دراسة قام بها فرناند جوبت، وجاري كلاركسون F.Gobet & Clarkson عام 2004؛ بهدف بحث مفهوم التجمعيات؛ للتعرف على كل من السلوك المتميز لدى الخبراء في لعبة الشطرنج، ولمعرفة كفاءة الذاكرة قصيرة المدى، حيث إنه قد ظهرت نظريات أخرى أكثر حداثة حول مفهوم التجمعيات، اختلفت اختلافاً بيناً في تحديد عددها، منها نظرية الـ(chunking)، ونظرية الـ(templates)، وكذلك اختلفت هذه النظريات حول سعة هذه التجمعيات.

وفي هذه التجربة، تم اختبار المفحوصين مرتين، ففي المرة الأولى باستخدام اللعبة بالحاسب الآلي، أما في المرة الثانية فكانت بممارسة اللعبة الحقيقة ذاتها في الواقع. وتضمنت العينة ثلاثة مستويات من التميز في هذه اللعبة، المتميزين أو الخبراء، ثم اللاعبين من الدرجة الثانية، أما المجموعة الثالثة فهم من حديثي الخبرة في هذه اللعبة. وقد كشفت الدراسة عن وجود علاقة خطية

بين مستوى المهارة وبين القدرة على استدعاء أماكن توزيع القطع على اللوحة، كما كشفت التجربة عن فروق بين المجموعات الثلاث في حجم التجميغات أو سعتها.

**ويثور السؤال:** ألا تطرح مثل هذه النتائج فرضية وجود علاقة بين كفاءة الذاكرة قصيرة المدى، وبين مستوى المهارة؟ لاشك أن الدراسات المستقبلية في هذا الصدد يمكن أن تجيب عن هذا التساؤل.

#### الذاكرة قصيرة المدى ومنحنى النسيان:

استمر التركيز على قياس مدى سعة الذاكرة ما يقرب من 60 - 70 عاماً من اهتمام العلماء، فلم يتتطور الاهتمام بدراسة الذاكرة حتى أواخر عام 1950، حيث ظهرت نتائج دراستين، إحداهما قام بها جون براون J.Brown عام 1958 في إنجلترا، والثانية قام بها بيترسون Peterson في الولايات المتحدة. ولقد أظهرت هاتان الدراسات أن الذاكرة تتعرض للنسيان إذا ما منع الفرد من التفكير، أو استعادة المادة التي تم حفظها.

قدم بيترسون وبيترسون دراستهما عام 1959، حيث تعرض على مجموعة من الأفراد لمجموعة من الحروف، هي ثلاثة حروف، وتزددها بصوت عال، ثم تغطي هذه الحروف، ويطلب من الفرد جمع عدد من الأرقام، وكتابة الناتج أسفل هذه الأرقام، وبعد فترة - تراوحت بين ثالث وثمان عشرة ثانية - يطلب إلى الفرد استرجاع الحروف التي تم حفظها في البداية. وخلص الباحثان إلى أن منحنى النسيان لا يتغير، سواء أكانت المادة المتعلمة أرقاماً أم حروفًا. وما أسفرت عنه نتائج هذه التجربة قد أكدتها أيضًا نتائج تجربة أخرى قام بها ميردوخ Murdock، أسفرت عن أن منحنى النسيان لم يتغير أيضًا. وخلصوا من هذا إلى أنه كلما زادت الفترة التي يبعد فيها الفرد عما تم حفظه، كلما زاد معدل النسيان ومال منحنى التذكرنحو الهبوط.

وفي محاولات أخرى لبيترسون، استخدم فيها مجموعات من الكلمات ذات المعنى، بعضها يخص أسماء الحيوانات، وأخرى تخص أسماء الفاكهة؛ وذلك لمعرفة أثر متغير المعنى في ضوء وجود متغير الزمن وعدم المراجعة، وقد خلصت التجربة إلى تغيير في منحنى النسيان، ولقد عزا الباحث ذلك إلى استخدام الباحث لفتئين في تكوين مجموعات الكلمات. فقد تذبذب منحنى النسيان بين الارتفاع والانخفاض تبعًا للتغير في مجموعة الكلمات التي تم حفظها؛ وذلك لأن التغير في نوعية الفتئتين التي تتتمى لها الكلمات قد ساعد على عدم التداخل، مما انعكس على قدرة الفرد على تذكرها، وهو ما أطلق عليه بادلي Baddeley التحرر من الكف التوقعى Release from proactive inhibition). وهذه الظاهرة لا تقتصر فقط على الذاكرة قصيرة المدى، بل إنها يمكن أن تكون ذات فائدة عملية في التذكر بصفة عامة.



الاستدعاء الطليق:

وهو يمثل وسيلة أخرى لدراسة الذاكرة قصيرة المدى، وهو على عكس الاستدعاء المنتظم (serial recall): ففي التداعي الطليق لا يشترط ترتيب الكلمات عند الاستدعاء، بل ترك الحرية للمتعلم. وقد لوحظ من النتائج أن استدعاء الفرد للكلمات أو الأرقام يكون متوسطاً بالنسبة للكلمات الأولى والثانية من القائمة، ويكون منخفضاً أو لا يكون للكلمات التي تتوسط القائمة (في الوسط)، بينما يكون متميزاً للكلمات الأخيرة في القائمة. وقد فسر الباحثون هذا بعزوه إلى عامل الحداثة (recency). لكن هناك بعض العوامل التي يمكن أن تؤثر على عامل الحداثة، على سبيل المثال، إن ألفة الفرد بالكلمات، وعرض الكلمات ببطء، والكلمات المعبرة عن الأشياء المعبرة عن المجردات، كل ذلك يمثل عوامل تؤثر على مدى فاعلية عامل الحداثة، وبالتالي تؤثر على أداء الفرد. فضلاً عن حدوث بعض التداخل، وتأجيل عملية الاستدعاء فترة بعد نهاية الحفظ - لأن يطلب إلى الفرد بعد قراءة القائمة أن يقوم بعملية جمع لبعض الأرقام قبل عملية الاستدعاء - يمكن أن يؤثر على منحني الاستدعاء. فضلاً عن أن عملية الاستدعاء مباشرة - بعد تعلم القائمة - هو أمر وثيق الصلة بالذاكرة قصيرة المدى، بينما يمثل الإجراء الثاني أمراً يخص جانباً من جوانب الذاكرة طويلة المدى. ويأتي السؤال:

هل تمثل الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة طويلة المدى نظامين منفصلين؟:

حتى فترة الستينيات من القرن العشرين، لم تكن هناك مناقشة لهذا الأمر بين الباحثين، ربما لأن الذين اهتموا بدراسة الذاكرة قصيرة المدى لم يكن من اهتماماتهم الذاكرة طويلة المدى، كما أن الذين درسوا الذاكرة طويلة المدى، لم تكن الذاكرة قصيرة المدى من اهتماماتهم أيضاً. في هذه الفترة كانت هناك دراسات على الذاكرة طويلة المدى قام بها العلماء من أمريكا الشمالية، استخدمت فيها القوائم الصماء؛ لكشف العلاقة بين المتغيرات. ولذلك كانت النظريات التي خلصوا إلى صياغتها تخص مفهوم التداعي والتداخل، وكيف يؤثر الشأن على العملية الأولى، وفي نفس الفترة تقريراً كانت دراسات الذاكرة قصيرة المدى على درجة من القوة في بريطانيا. لقد كان الباحثون من شمال أمريكا أو من بريطانيا يستهدفون التوصل إلى نماذج تفسيرية، تستخدم المفاهيم التي خلصت إليها الحواسب الآلية، التي كانت تتتطور بسرعة مذهلة في تلك الفترة. ومن الجدير بالذكر أن تجارب بيتسون وبيترسون وما أسفرت عنه من نتائج تخص النسيان في الذاكرة قصيرة المدى - قد كان لها تأثيرها في لفت الانتباه لدى الفريقين إلى بعض القضايا المشتركة بين الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة طويلة المدى؛ مما أدى إلى إثارة السؤال: هل من الضروري فرض وجود نظامين مختلفين لهذين النوعين من الذاكرة، أم أن الأمر لا يعود أن يكون وجود أساسيات واحدة تحكم الذاكرة طويلة المدى وقصيرة المدى؟ وللإجابة عن هذه الاستفسارات قام آرثر ميلتون (Arthur Melton) بمحاولات عديدة في هذا الصدد عام 1963. إلا أن هذه القضية مازالت محل مناقشات، حيث إن

الأمر على درجة عالية من التعقيد، بحيث لا يسهل البث فيه الآن. فضلاً عن هذا، فإن هناك من الباحثين الذين يرون أن هناك أكثر من نظامين للذاكرة؛ فالذاكرة قصيرة المدى ليست نظاماً متفرداً، بل أكثر من هذا، فهي مجموعة من الأنظمة المتحدة للذاكرة تعمل معاً، لكن الأمر ما زال بحاجة إلى الكثير من العمل.

غير أن الذين يؤيدون الفصل بين النظائر يعتمدون على عدد من الحقائق نوردها فيما يلي:

\* أن هناك عدداً من المهام الخاصة بالذكر، يbedo أنها تحدث بطرق مختلفة تماماً. وأكثر الأمثلة وضوحاً هو نتائج عامل الحداثة، الذي يؤثر كثيراً على نتيجة استدعاء العبارات الأخيرة في الترتيب إذا ما حدث تأجيل في عملية الاستدعاء، بينما لا يؤثر على العبارات الأولى في الترتيب. كما أن الأداء على العبارات الأولى يتعرض لتأثير عدد من العوامل، التي من المعروفة أنها تؤثر على التعلم طويلاً المدى، منها معدل عرض المادة؛ حيث يؤدي العرض البطيء إلى أداء أفضل، كذلك مدى الألفة بـالمادة؛ حيث إن الألفة بـالمادة تؤدي إلى استدعاء أفضل. أما التشتت الذي قد يحدث من عمل شيء آخر قبل الاستدعاء، فقد يؤثر على الأداء بالسلب. هذا فضلاً عن بعض المتغيرات الأخرى التي يمكن أن تؤثر على عملية التذكر؛ كالعمر، حيث يتذكر صغار السن بطريقة أفضل من كبار السن.

\* أما المجموعة الثانية من الحقائق، فتأتي من نتائج الأبحاث على الأفراد ذوي الإصابات المخية، الذين يعانون من مشكلات في الذاكرة غاية في التخصص؛ فالأشخاص الذين يعانون من فقدان الذاكرة (amnesia)، يجدون صعوبة كبيرة في تعلم الجديد، وقدرتهم على استدعاء قوائم الكلمات تكون لا نهاية لها، وأداؤهم اليومي في المواقف الحياتية يكون سيئاً لدرجة مفزعة، فهم يجدون صعوبة كبيرة في تذكر أين هم، أو تذكر أيام الأسبوع، أو ماذا تناولوا في الإفطار. غير أنهم يمكنهم أن يكشفوا عن التأثير بعامل الحداثة مثلاً. أما نوعية أخرى من المرضى فقد يكشفون عن أعراض مختلفة تماماً؛ فقد يتحدد مدى الذاكرة لديهم بكلمتين أو ثلاثة، وقد يتوقف تأثير عامل الحداثة لديهم على كلمة واحدة أو عبارة واحدة، إلا أنهم قد يكشفون عن قدرة عادية على التعلم.

فيهذا النطاق من المصابين بالإصابات المخية قد اختلفت أماكن الإصابات لديهم، فعندما ارتبطت مشكلات الذاكرة قصيرة المدى بالإصابة في الجانب الأيسر من المخ في منطقة قريبة من منطقة الكلام، فقد يكون لديهم مشكلات كلامية. أما فاقدى الذاكرة الذين كشفوا عن نقص في الذاكرة طويلة المدى، فإن الإصابة لديهم تكون في الفص الصدغي من القشرة المخية، وعلى عمق قد يصل إلى قرن أمون.

\* والمجموعة الثالثة من الحقائق التي يعتمد عليها دعوة القول بضرورة الفصل بين نظامي الذاكرة طويلة المدى وقصيرة المدى، فهي مشتقة من نتائج التجارب التي كشفت عن أن الذاكرة قصيرة المدى تعتمد على صوت الكلمة، أما الذاكرة طويلة المدى فتعتمد على المعنى، إذ إن كونزرا

عرض مجموعة من الأفراد لسماع عدد من الحروف، ثم طلب إليهم كتابة ما يتذكرونه مباشرة منها بعد ذلك، حسب ترتيبهم قدر الإمكان. ولقد وجد كونراد أن الأخطاء التي حدثت في الذاكرة قصيرة المدى لم تكن أخطاء عشوائية، بل وجد أن الحروف التي تتشابه في النطق من أكثر الأخطاء شيوعاً. أما إذا كانت الحروف متباعدة في النطق، فإنه يصعب الخطأ فيها؛ ومن ثم خلص من هذه النتائج إلى أن الذاكرة قصيرة المدى تعتمد على شكل من أشكال الرمز الصوتي، أو على الأقل على شكل يقوم أساساً على الكلام.speech based code

ولقد أراد بادلي أن يختبر ما وصل إليه كونراد، فأجرى تجربته مستبدلاً الحروف بكلمات؛ بعضها يتشابه في النطق، وبعضها يختلف. وطلب إلى المبحوثين أن يدونوا ما يتذكرونه من الكلمات بعد سماعها مباشرة، حسب الترتيب الذي عرضت به. وخلص بادلي إلى نتائج مشابهة لما خلص إليه كونراد، ووجد أن الكلمات المتشابهة في نطقها كانت أكثر عرضة للخطأ فيها، أما الكلمات المختلفة، فقد كانت أقل عرضة للخطأ. كما وجد أن التشابه في المعنى كان له أقل الأثر على الأداء، ومن ثم قد كان لكونراد الحق في القول إن الذاكرة قصيرة المدى بصفة خاصة ترتبط بشدة بالكلام.

أما عن الذاكرة طويلة المدى، فقد قام بادلي بإجراء التجربة السابقة مع زيادة عدد الكلمات إلى عشر كلمات في الصف الواحد، في قائمة مكونة من خمسة صنوف. وعرضها على المفحوصين بالتوالي، على أن يقاطع المفحوصين بعد نهاية عرض كل صف؛ حتى لا يسمح لهم بالحفظ. وقام بعرض القائمة أربع مرات؛ للتأكد من حدوث التعلم، ثم طلب إليهم استرجاع الكلمات حسب ترتيبها بعد مرور 20 دقيقة على آخر محاولة. في ضوء هذه الظروف، يمكن القول إن تأثير صوت الكلمة قد اختفى، ولقد عبر المبحوثون عن أن أكثر المشكلات في عملية الاسترجاع كانت بين الكلمات متشابهة المعنى. وهذا يعني أن الذاكرة طويلة المدى تعتمد على عامل المعنى، وليس على خصائص الصوت. وخلاصة هذا الأمر أن الذاكرة قصيرة المدى تعتمد على خصائص الصوت، أما الذاكرة طويلة المدى فتعتمد على المعنى الذي يبقى من المعلومات.

في السبعينيات بدأت آراء الباحثين تميل إلى الأخذ بوجود نظامين منفصلين لكل نوع من أنواع الذاكرة. وقد كانت هناك آراء مترفرقة ومتباعدة حول العلاقة بينهما، أو طبيعة كل منها، إلا أنهم كانوا يدورون في فلك النموذج الذي قدمه أتكنسون وشيفرين Atkinson and Shiffrin، فقد افترض هذا النموذج أن الذاكرة هي ثلاثة أجزاء كبرى، وأن الذاكرة طويلة المدى هي النظام الخاص بتخزين المعلومات بعد فترة من الزمن، وتتغير على ما تمده بها الذاكرة قصيرة المدى، التي تقوم بدور الضبط، وتعتمد على المعلومات الجديدة، وتختار عمليات بعينها لجذب المعلومات من الذاكرة طويلة المدى.

بينما تعتمد الذاكرة قصيرة المدى ذاتها على ما تقدمه لها الذاكرة الحسية، التي هي عبارة عن مجموعة من الذاكرة المرتبطة في الإدراك. هذه التسجيلات تلعب دور النظام، الذي يختار ويجمع

المعلومات الحسية، ويمكن النظر إليها باعتبارها مكوناً رئيسياً من مكونات الإدراك.

ويمثل مخزن الذاكرة قصيرة المدى قلب النموذج، ومن لهم أن نلاحظ أن هناك فصلاً بين الذاكرة قصيرة المدى - التي يعزى إليها أداء الفرد على الأعمال التي تتطلب تذكر قدر قليل من المادة، وبين مخزن الذاكرة قصيرة المدى، وهو من المفاهيم النظرية التي تستخدم لشرح النتائج التي نحصل عليها في تجارب الذاكرة قصيرة المدى. فالتجربة التي تحاول أن تسرّع غور الذاكرة العاملة، تميل إلى أن تعطى نتائج لا تتأثر فقط بأداء مخزن الذاكرة قصيرة المدى، بل أيضاً بالعوامل الأخرى؛ إذ إن حفظ الأرقام من 1 إلى 9، إذا طلب إليك أن تعيد ذكرها فلاشك أن ذلك يسير، وحتى إذا طلب إليك بعد فترة أن تعيد ذكر هذه الأرقام بترتيبها، فلن تكون هناك مشكلة. ويبعد من هذا أن الذاكرة قصيرة المدى تعتمد هنا على مخزن الذاكرة طويلة المدى؛ فالكثير من أعمال الذاكرة قصيرة المدى تتضمن مكونات من الذاكرة طويلة المدى، مما يجعل التفسير النظري أمراً غير سهل.

وعلى الرغم من أن نموذج أتكنسون وشيفرين قد وجد تشجيعاً في السبعينيات، إلا أن ظهور نموذج كريك ولوكمارت Craik & Lockhart عام 1972 عن مستويات العمليات (Levels of Processing) قد طغى عليه نسبياً، حيث يوضح نموذج أتكنسون أن الطريقة الوحيدة لتعلم المعلومات الجديدة، هي عن طريق الذاكرة قصيرة المدى وإرسالها إلى الذاكرة طويلة المدى. ومن الأساليب التي درست عبر التجارب على هذا النموذج كانت باستخدام القراءة بالصوت الواضح، حيث يكرر الحرف أو الكلمة مرات ومرات، حيث كان من المعتقد أنه كلما كان حفظ الشيء مدة أطول في الذاكرة قصيرة المدى، كلما كان حفظه في الذاكرة طويلة المدى سهلاً. وقد واجهت هذه النظرة بعض المشكلات، فقد ثبت من نتائج التجارب على المصابين بإصابات مخية، أنه حيث أظهروا ضعفاً شديداً في الذاكرة قصيرة المدى، إلا أنهم كشفوا عن ذاكرة طويلة المدى غير مضطربة. وذلك يعني أن الذاكرة قصيرة المدى ليست الممر الوحيد للذاكرة طويلة المدى، وهو ما مثل نقضاً لما مثله نموذج أتكنسون.

كما أن التجارب على الأفراد الأسيوية كانت لها نتائجها التي لابد وأن تؤخذ في الاعتبار في مناقشة نموذج أتكنسون. فقد أجرى كريك وواتكنز Craik & Watkins دراسة لاختبار العلاقة بين طول الفترة التي يتم فيها الاحتفاظ بملادة في الذاكرة قصيرة المدى، وبين مرورها إلى الذاكرة طويلة المدى. قارنا بين مجموعة من المبحوثين، عرضت على إحداهما قائمة من الكلمات، ثم طلب منهم الاحتفاظ بها في ذاكرتهم حتى يطلب منهم استدعاؤها. أما المجموعة الثانية فقد عرضت عليها القائمة، وطلب منهم استدعاؤها بعدها مباشرة. وقد كشفت النتائج أن المجموعة التي لم يتم لديها استدعاء القائمة إلا بعد فترة، وجدت صعوبة في تذكر الكلمات، أكثر من التي طلب منها استدعاء القائمة مباشرة بعد العرض، وذلك يعد نقضاً ثانياً لنموذج أتكنسون.

أما نموذج كريك ولوكهارت فإنه يطرح فكرة مؤداها:

أن الذاكرة قصيرة المدى أو النظام الأولي للذاكرة الذي يمكنه أن يتعامل مع المادة بطرق مختلفة، يبدأ من مجرد أخذ ملاحظات عن الخصائص البصرية للكلمة المطبوعة، ومن خلال الانتباه إلى الصوت المميز لها أو حفظها، تسجلها في ضوء المعنى الذي تعبّر عنه. فكل هذه العمليات تؤدي إلى الذاكرة طويلة المدى، كما أن كمية التعلم التي اعتمدت على نمط العمليات، التعامل مع العمليات الأكثر عمقاً في ضوء المعنى تؤدي إلى حفظ أكثر من التعامل السطحي. فالحفظ المستمر قد يؤدي بالمادة لأن تظل بعيدة عن الحصول عليها، وقد لا يؤدي إلى زيادة التعلم طويلاً المدى. إن النموذج الخاص بمستويات العمليات يعني أساساً بدور تسجيل الخبرة (الترميز) في التعلم، أي العلاقة بين الطريقة التي يتم التعامل بها مع المادة المتعلمة وبين احتمالية تذكرها.

إن نظرية مستويات العمليات قد تعد أساساً نظرياً في الذاكرة طويلة المدى؛ إذ إنها تفترض نظاماً للذاكرة قصيرة المدى، أو نظاماً أولياً يقوم بعملية الترميز (coding)، غير أنه لم يوضح تفاصيل هذه العملية. فقد ركزت هذه النظرية قليلاً على مكونات الذاكرة قصيرة المدى، والنجاح الذي حققه في توضيح العلاقة بين نظام الترميز، وبين الذاكرة طويلة المدى، إلا أنه يؤكد القول بوجود فصل بين الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة طويلة المدى. وحقيقة الأمر أن العمل الناتج عن نظرية المستويات إنما يسير في اتجاه البحث عن العوامل الحاكمة لعملية الاسترجاع من الذاكرة طويلة المدى. وأصبحت الدراسات عن الذاكرة قصيرة المدى أكثر ارتباطاً بمشكلات الانتباه، وبدور الذاكرة قصيرة المدى في الأعمال الأخرى، مثل القراءة، والعمليات الحسابية، الأمر الذي أدى إلى استبدال مفهوم الذاكرة قصيرة المدى بالذاكرة العاملة متعددة المكونات.

#### الذاكرة العاملة (working memory):

إن نموذج الذاكرة العاملة هو من أكثر النماذج قبولاً في الوقت الراهن، والعلماء الذين يستخدمونه ينظرون إلى كل من الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة طويلة المدى من منظور مختلف. ويمكن تقسيم التوجهات في تفسير الذاكرة العاملة إلى توجهين أساسيين، هما:

- التوجه التقليدي، ويعتله نموذج أتكنسون وشيفرين.
- النماذج المغايرة.

ومنذ أن طرح أتكنسون وشيفرين نموذجهما عن الذاكرة، والذي يتكون من ثلاثة مكونات، وهو يعبر معبراً عن النظرة التقليدية للذاكرة، إلا أنه تم اقتراح نماذج أخرى أضافت إلى هذه الأبنية الثلاثة، والجدول التالي يوضح الفروق بين الرؤية الأساسية أو التقليدية، وبين غيرها من النماذج (Sternberg&Mio,2009,192):

رؤى النظرة المغايرة	رؤى النظرة التقليدية	المصطلحات
<p>الذاكرة العاملة (الذاكرة النشطة) هي جزء من الذاكرة طويلة المدى، التي تتضمن معرفة كل الحقائق والإجراءات التي نشطت حديثاً في الذاكرة، متضمنة الذاكرة قصيرة المدى المختصرة وسريعة الزوال.</p>	<p>الذاكرة العاملة هي مسمى آخر للذاكرة قصيرة المدى، التي تميز عن الذاكرة طويلة المدى.</p>	تعريف الذاكرة
<p>الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة العاملة والذاكرة طويلة المدى، يمكن تصويرهم باعتبارهم دوائر متداخلة، حيث تتضمن الذاكرة العاملة الكم النشط الأحدث من الذاكرة طويلة المدى، وتتضمن الذاكرة قصيرة المدة المكونات القليلة من المعلومات سريعة الزوال من الذاكرة العاملة.</p>	<p>يمكن تخيل الذاكرة قصيرة المدة باعتبارها مميزة عن الذاكرة طويلة المدى، ربما جنباً معها أو مرتبطة بها.</p>	تصوير العلاقات
<p>تبقى المعلومات داخل الذاكرة طويلة المدى، وعندما تنشط تتحرك المعلومات في مكان الذاكرة العاملة المخصصة في الذاكرة الطويلة المدى، وتتحرك المعلومات داخل وخارج مخزن الذاكرة قصيرة المدى المتضمن داخليها.</p>	<p>تحريك المعلومات مباشرة من الذاكرة طويلة المدى إلى الذاكرة قصيرة المدى وتعود، لكن ليس في نفس المكان أو نفس الوقت.</p>	رحلة المعلومات
<p>دور التنشيط في تحريك المعلومات داخل الذاكرة العاملة ودور الذاكرة العاملة في عمليات الذاكرة.</p>	<p>التمييز بين الذاكرة طويلة المدى والذاكرة قصيرة المدى.</p>	موضع التأكيد



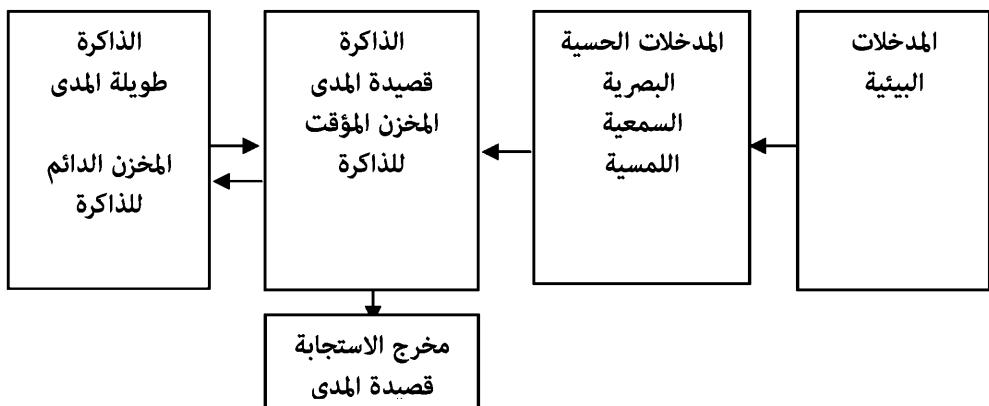
### ويوضح ستيرنبرج الفروق بينهما في النظر إلى الذاكرة العاملة فيما يلي:

- 1 بينما ينظر النموذج التقليدي إلى الذاكرة العاملة باعتبارها اسمًا مختلفاً للذاكرة قصيرة المدى التي تتمايز عن الذاكرة طويلة المدى، تنظر النماذج المغایرة إلى الذاكرة العاملة باعتبارها ذلك الجزء من الذاكرة طويلة المدى الذي يضم كل المعلومات والحقائق والإجراءات التي تم تنشيطها حديثاً في الذاكرة، متضمنة الذاكرة قصيرة المدى المختصرة، وسريعة الزوال.
  - 2 قد ينظر النموذج التقليدي إلى الذاكرة قصيرة المدى باعتبارها مميزة عن الذاكرة طويلة المدى، ربما قد تكون امتداداً لها أو - في الترتيب - مرتبطة بها، أما النماذج المغایرة فتتظر إلى كل من الذاكرة العاملة، والذاكرة قصيرة المدى، والذاكرة طويلة المدى باعتبارها دوائر متداخلة، حيث تحتوى الذاكرة العاملة على أكثر المعلومات حداثة من حيث النشاط، وتحتوى الذاكرة قصيرة المدى وطويلة المدى على كمية صغيرة جدًا من محتوى الذاكرة العاملة سريعة الزوال.
  - 3 في النموذج التقليدي، عند استدعاء المعلومات، تنتقل المعلومات مباشرة من الذاكرة طويلة المدى إلى الذاكرة قصيرة المدى، ومن ثم لا تعود المعلومات في الذاكرتين في آن واحد. أما في النماذج المغایرة، فإن المعلومات تظل في الذاكرة طويلة المدى، وعندما يتم تنشيطها، فإنها تتحرك داخل الجزء المخصص للذاكرة طويلة المدى في الذاكرة العاملة، والتي سوف تحرك المعلومات داخل وخارج مخزن الذاكرة قصيرة المدى المتواجدة به.
  - 4 بينما يميز النموذج التقليدي بين الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة طويلة المدى، تؤكد النماذج المغایرة على دور تنشيط تحريك المعلومات داخل الذاكرة العاملة، ودور الذاكرة العاملة في عمليات الذاكرة.
- ويعد نموذج بادلي وهيتشر من النماذج المغایرة التي عدلت من رؤيتها للذاكرة العاملة. وقاما بالعديد من التجارب؛ للكشف عن كفاءة تنشيط المعلومات، والاحتفاظ بها، والقيام بعمل الذاكرة العاملة، قبل القول بضرورة استبدال نظام الذاكرة قصيرة المدى بالذاكرة العاملة.
- فعلى سبيل المثال، يتميز الانتباه وعملية تنشيط المعلومات بالمرنة الكبيرة؛ فأنت إذ يمكنك أن تتصفح كتاباً، تنظر في نفس الوقت إلى وجوه الآخرين، وتشم رائحة ما، وحينما تقدم إليك معلومة ما عن أن أربعة أضعاف الرقم خمسة ناقص واحد يساوى تسعة عشر، فإنه يمكن ترديد هذه المعلومة أو الاهتمام بعمل هذه الحسبة مراجعة المعلومة. وقد انفعل بادلي وهيتشر بهذا التباين في رد فعل الفرد، وشعرا أن النظام الذي يقتربه أتكسون وشيفرين عن الذاكرة قصيرة المدى لا يمكنه أن يفسر كيفية حدوث هذا؛ لذا قاما بعدد من المحاولات لاختبار قدرة الذاكرة قصيرة المدى على القيام بهذه الأنشطة التي تنسب إلى الذاكرة العاملة.
- حاول بادلي وجراهام عام 1976 أن يختبرا قيام الذاكرة قصيرة المدى بعمل الذاكرة العاملة. لكن عدم وجود خصائص واضحة عن الذاكرة قصيرة المدى، قد مثل أحد المشكلات أمام هذه

المحاولة. غير أن النماذج المختلفة عن الذاكرة قصيرة المدى، رغم عدم اتفاقها على الكثير من النقاط، إلا أنها قد اتفقت جميعها على أمرتين غاية في الأهمية، هما: أن الذاكرة قصيرة المدى تحفظ مخزون وقدرة محدودة على العمليات، كما أن سعة الذاكرة اللغوية (أقصى عدد من رقم التلفون الذي يمكنك استرجاعه) تعتمد على الذاكرة قصيرة المدى.

ولقد افترض الباحثان أنه إذا كانت الذاكرة قصيرة المدى يمكنها القيام بعمل الذاكرة العاملة، فإن المبحوثين الذين ينشغلون في تعلم مجموعة من الأرقام المتتابعة، يصعب عليهم أداء أي عمل آخر يتطلب عمل المعلومات، مثل الفهم أو استخدام الاستدلال. وهذا التوجه يفترض أن نظام الذاكرة قصيرة المدى مثل برج المراقبة في المطار، هو المسئول عن جدولة وتنظيم كل الرحلات الآتية والمغادرة. تمثل العمل الذي طلب إلى المبحوثين القيام به في نفس الوقت الذي يقومون فيه بتعلم ستة أرقام يرددونها بصوت عالي - أن يصدروا أحكاماً منطقية على بعض المشكلات لفظياً. وقد تمثلت هذه المشكلات اللغوية في وضع عدد من العبارات، كل منها يصف النظام الذي يعرض به الحرفان A,B. على سبيل المثال: تقول العبارة: إن الحرف A يتبع الحرف B، إذن النتيجة هي AB. وأمام العبارة وضعت الاختيارات: صحيحة ----- خاطئة. وعلى المبحوث أن يضع علامة على الإجابة التي يراها معبرة عن مضمون الجملة. وقد أعطيت للمبحوثين جملتان على الأكثر أثناء ترديدهم للأرقام الستة، وقد كشفت النتائج عن عدم إعاقبة تعلم الأرقام الستة بفعل الأحكام التي كان على المبحوثين أن يصدروها. ومعنى هذا أن مخزون الذاكرة قصيرة المدى كان متضمناً في النظام الذي يقوم بعملية الاستنتاج، وأن هذين النظاريين يبدو أنهما متداخلان، لكنهما معتمدان كلية على نفس النظام ذي القدرة المحدودة. ونتيجة لهذا، بدأ بادلي وجراهام يصوغان مفهومهما عن الذاكرة قصيرة المدى، ويحددان المكونات الثانية.

ورغم المناقشات التي دارت حول عمل الذاكرة ومكوناتها، إلا أن أغلب الاهتمام كان يدور حول وظيفة التخزين. ولقد قدم أتكنسون وشيفرين (Atkinson& sheffrin) أول النماذج التي تفسر مستويات التخزين في الذاكرة.



الشكل يوضح نموذج أتكنسون وشيفرين ( Baddeley , 1999 , 10 )

والنموذج يوضح أن مدخلات المعلومات لا بد وأن تكون عن طريق السمع والبصر، وهي الذاكرة الحسية التي تستطيع أن تحفظ بالمعلومات لفترة قصيرة، ربما لثانية أو ثانية. كما أن جزءاً آخر من هذه المعلومات يختار لعمليات أخرى في الذاكرة قصيرة المدى. وفي مخزن الذاكرة قصيرة المدى، يتم التعامل مع المعلومات عن طريق التكرار، وتنتقل إلى الذاكرة طويلة المدى، ويحدث النسيان في الذاكرة الحسية بواسطة الانهيار التلقائي، أما في الذاكرة قصيرة المدى فيحدث عن طريق دخول معلومات أخرى جديدة.

وفي عام 1974، 1976، قدم بادلي وهيتشر نموذجهما عن الذاكرة العاملة، وقد بدأ الباحثان بفرض وجود نظام أساسي يكون مسؤولاً عن ضبط جميع الأنظمة الأخرى، وهو ما سمي بالنظام التنفيذي المركزي (central executive)، وأن هذا النظام يعمل بمساعدة بعض الأنظمة الأخرى slave systems، ومن ثم تكون الذاكرة العاملة من الأنظمة الآتية:

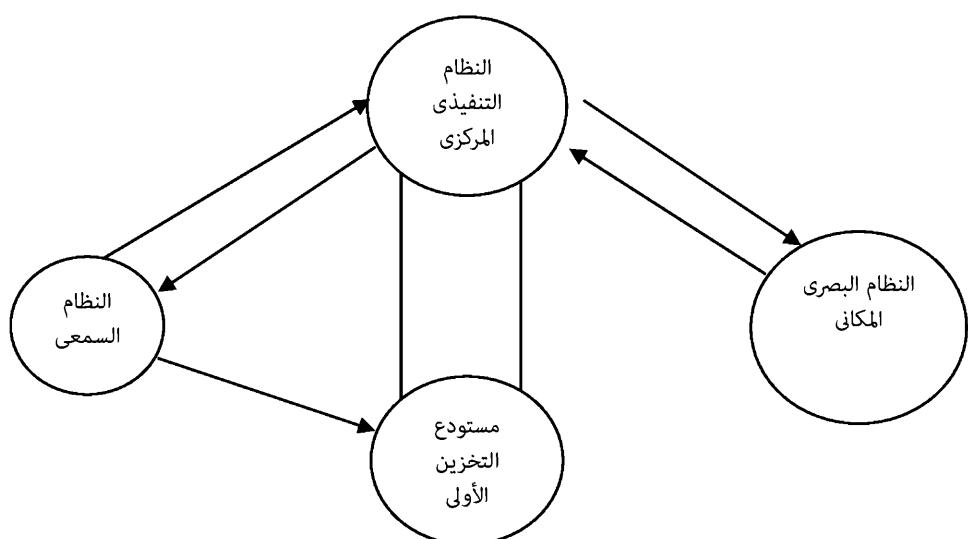
\* النظام السمعي.

\* النظام البصري المكانى.

\* النظام المركزي الرئيسي.

.ثم أضاف لهما بادلي وسالم (Baddley & Salam, 1982)، نظاماً رابعاً هو (Primary aquastic store)، ظاماً رابعاً هو

ولقد قدم كوهن تصوراً لأبنية هذه الذاكرة العاملة يوضحه الشكل التالي:



(هذا الشكل مقتبس من: Cohen , 1986,67)

ويوضح الشكل أن كوهن يتصور أن الذاكرة العاملة هي نظام يتدرج في مستويات، يمثل النظام التنفيذي قمة هذا التدرج، ويتمتع بالوظيفة المهيمنة على الأنظمة الأخرى؛ كالنظام السمعي والنظام البصري المكاني، ثم على نظام التخزين الأولى بدرجة أقل. ولذلك يعد النظام التنفيذي هو أهم هذه الأنظمة جمِيعاً؛ حيث إنه يستخدم مع كل مهمة ذات طابع معرفى.

وفيما يلى شرح مع بعض التفصيلات لكل من هذه الأنظمة:

#### 1 - النظام الرئيسي التنفيذي (The central Executive):

إن النظام الرئيسي المنفذ في الذاكرة العاملة، من المفترض أنه نظام ذو قدرة محدودة، حيث يقوم بعملية ضبط النظام السمعي والنظام البصري، ويربطهم بالذاكرة طويلة المدى. ولقد وصف بادلي وظيفة هذا النظام بأنها تعمل عمل نظم الانتباه، وقد سمي بالنظام التنفيذي لأنه يربط (allocate) بين الانتباه وبين المدخلات، ويوجه العملية في بقية المكونات الأخرى للذاكرة العاملة. ولاشك أن هذا النظام الرئيسي أكثر تعقيداً من النظائرتين السمعي والبصري، مما يجعل عملية الفحص أكثر صعوبة، وأجريت التجارب لمعرفة العلاقة بين مدى الذاكرة العاملة، وبين بعض العمليات العقلية الأخرى، مثل الفهم القرائي. وقد أسفرت النتائج عن وجود علاقة إيجابية بينهما، إذ كلما زاد مدى الذاكرة العاملة كلما زاد الفهم القرائي، وغالبية هذه التجارب قد أجريت على طلاب الجامعة.

وفي دراسة أخرى قامت بها الباحثة النفسية جان أوكيهيل Jane Oakhill على الأطفال الذين يقرأون بصوت مرتفع قراءة صحيحة، لكنهم لا يفهمون ما يقرأون، أسفرت النتائج عن أن هؤلاء الأطفال يعانون من نقص في مدى الذاكرة العاملة، ولذلك فإن قدرتهم على الفهم القرائي منخفضة، حتى عندما يستمعون إلى المادة. وفي تجربة عليهم، كان عليهم أن يستمعوا إلى قصة تحمل تناقضًا، ولا يتضح هذا التناقض إلا في نهاية القصة، وعلى الأطفال أن يجمعوا بين كل الحقائق للإجابة عن السؤال الذي يطرح عليهم. وكشفت النتائج أن الأطفال ذوي المدى المنخفض من الذاكرة قصيرة المدى، لم يستطعوا أن يصلوا إلى الرؤية الصحيحة لأحداث القصة، بينما الأطفال ذوو المدى المرتفع، استطاعوا ذلك بسهولة. ولقد فسرت أوكيهيل هذه النتائج بأنها قصور الذاكرة العاملة عن التعامل مع نصف المعلومات في أول القصة وفي آخرها، وليس مشكلة اللغة. لاشك أن مثل هذه النتائج جديرة بأن تجعل الباحثين في علم النفس على حذر حين يقتربون من قياس القدرات العقلية، مثل الاستدلال. هل الأمر يخص القدرات العقلية أم أنه يخص الذاكرة العاملة؟ لاشك أن الفارق له أهميته في حالات المعالجة، وتنمية القدرات التي تجد لها مجالاً واسعاً الآن في أبحاث المتخصصين، خاصة وأن الأبحاث قد أثبتت أن هناك علاقة قوية بين الذاكرة العاملة وبين القدرة على الاستدلال. غير أن الفارق بينهما يمكن في أن قياس الأولى يعتمد على سرعة المعلومات، أما قياس الثانية فيعتمد على المعرفة القبلية بالموضوع. وفي بعض التجارب التي أجريت للمقارنة بين كفاءة كل منهما في

التنبؤ، قدمت مجموعة من المبحوثين لدراسة مقرر في البرمجة للحاسب الآلي على مدى أسبوعين، ثم طبقت عليهم قياسات الاستدلال، وقياسات أخرى للذاكرة العاملة. وقد أسفرت النتائج عن أن نتائج الذاكرة العاملة كانت أكثر كفاءة في التنبؤ بنجاح الفرد في البرمجة من قياس الاستدلال، رغم ارتباط النتائج بالأسلوبين ارتباطاً قوياً.

وفي دراسة على الذاكرة العاملة وعلاقتها بالتحصيل الدراسي، اهتم الباحثون بدراسة العلاقة بين القدرة على حل المشكلات وبين الذاكرة العاملة. إذ قام جونستون (Johnstone & El Benna, 1986) بدراسة هذه العلاقة في الكيمياء على طلاب الثانوي لدى عينة من المدارس في جلاسجو، وأسفرت الدراسة عن وجود علاقة لها دلالتها بين المتغيرين. كذلك درس شين (Chen, 2004) هذه العلاقة على مادة الفيزياء، وكشفت الدراسة عمما يؤكد وجود هذه العلاقة الموجبة بينهما. أما كولوم (colom, 2003) فقد قام باختبار العلاقة بين كفاءة الذاكرة العاملة وبين الأداء على اختبارات الذكاء، وقد خلص الباحث إلى تأكيد هذه العلاقة الموجبة بينهما، وقد فسر هذا بقوله إنه قد يجد أن الذين لديهم ذاكرة عاملة جيدة، تساعدهم على أداء أعمال عقلية مركبة، مثل الاستدلال والاستنتاج والقدرة على التجرييد. وفي عام 2006، قام براشاد Barashad في الهند باختبار هذه العلاقة بين الذاكرة العاملة وبين أممأط التعليم لدى الفرد، على عينة من تلاميذ المدارس الإعدادية (662 تلميذاً من الذكور والإإناث)، وانتهت الدراسة إلى وجود علاقة بين كفاءة الذاكرة العاملة وبين النمط البصري في التعلم، لكنه لم يثبت وجود فروق في هذه الذاكرة تعزى إلى الجنس (إناث - ذكور)، أو إلى السن (13-15).

وفي دراسة حديثة قام بها كل من ليزت وزمير G.Lehnert & S.D.Zimmer في ألمانيا 2006، قدما فيها تقسيماً للنظام البصري المكان إلى: البصري الخفي والمخطط الداخلي، حيث يمثل الأول التخزين السلبي الذي يحفظ المعلومات البصرية، مثل لون الأشياء. أما المخطط الداخلي فإنه يمثل عملية الحفظ النشطة التي تنشئ المعلومات المحفوظة في الـ (cache). وقاما بإجراء ثلاث تجارب للتعرف على علاقة هذه التقسيمات بكفاءة الذاكرة العاملة لدى الفرد. وخلصا من هذه التجارب إلى أن الذاكرة العاملة هي عبارة عن شبكة من المكونات النشطة، موزعة على أنظمة مختلفة؛ بعضها يمثل نظاماً محدداً، وبعضها الآخر مشارك لغيره من الأنظمة.

## 2- نظام القناة الصوتية الملفوظة :The phonological ( articulatory) loop system

وأول هذه الأنظمة المساعدة ما أطلق عليه بادلي نظام القناة الصوتية الملفوظة the phonological loop system، فقد سبق وأوضحنا أن غالبية النماذج التي قدمت عن الذاكرة قصيرة المدى قد اتفقت جميعاً على ارتباط صوت الحرف بالذاكرة قصيرة المدى. وكانت المسلمة التي تفسر هذا يؤيدتها ثلاثة حقائق؛ أولها: ما أشارت إليه نتائج التجارب من تأثير التشابه بين الحروف

أو الكلمات في النطق، فوجود أخطاء في الاسترجاع. أما الثانية: فهي ما يرتبط بـ ملاحظة أن مقاطعة عملية التعلم بأنواع من التداخل، مثل حديث غير مرتبط أو أغاني، يؤدى إلى التأثير على عملية التعلم، ومن ثم عملية الاسترجاع. أما الثالثة: فهي التي خلصت إليها التجارب من تأثير طول الكلمة على سعة الذاكرة، وأسفرت عن وجود علاقة قوية بين طول الكلمة وبين زيادة مدى الذاكرة؛ إذ كلما قل حجم الكلمة كلما زادت القدرة على تذكرها. وقد فسر بادل سبب إعاقة طول الكلمة لكتابة الذاكرة بأن طول الكلمة يتطلب من الأفراد ترديد الكلمة بينهم وبين أنفسهم، ولاشك أن ذلك يتطلب وقتاً يتناسب مع طول الكلمة، الأمر الذي يؤدى إلى ضعف ذاكرة الكلمات التي تم تعلمها قبل ذلك. وفي محاولة لاختبار صحة هذا التفسير، قام بادل بعمل التجربة مرة أخرى مع من المبحوثين من الترديد الداخلي للكلمة، فطلب إليهم، وهم يتعلمون الكلمات الطويلة أن يرددوا بصوت عال أحد الحروف (the)، وبذلك حرموا من فرصة الاستفادة من تكرار الكلمة بينهم وبين أنفسهم، وهو ما أطلق عليه بادل القمع اللغظي (articulatory suppression). الأمر الذي أدى إلى خفض الأداء كما كان متوقعاً؛ إذ إن حرمان الفرد من ترديد الكلمة يعني عدم قدرته على تحويل ما يراه من الكلمات إلى القناة السمعية، ومن ثم إلى مستودع الذاكرة قصيرة المدى، ومن ثم فهي لا تتأثر بدخول أي مقاطعات إلى المستودع.

**وفي ضوء هذه النتائج أمكن إعادة صياغة تعريف سعة الذاكرة كما يعرفه بادل بأنها:**

كمية الوقت الثابت، وليس عدد الوحدات المتعلممة (baddeley, 1999, 48).

وفي عام 2001، حاول ساترو سaito (Satoru Saito) فحص العلاقة بين الذاكرة قصيرة المدى للإيقاع (rhythem)، وبين النظام الصوتي في الذاكرة العاملة، وهو من الأبحاث التي حاولت أن تختبر ذاكرة التنغيم، وهي إحدى الخصائص المميزة للغة، وأهملت أثناء دراسة الذاكرة العاملة. وقد كشفت النتائج عن وجود علاقة بين سعة الذاكرة، التي تعد قياساً لوظيفة النظام الصوتي، وبين أداء ذاكرة النغم. فقد ارتبط مدى الذاكرة السمعية ارتباطاً ذا دلالة بالدرجات على عمل الذاكرة الخاص بحفظ النغم. وهذا الارتباط يعني أن الفرد ذا المدى العالى في الذاكرة ينتج العدد الأكبر من الاستجابات الصحيحة على العمل الخاص بالنغم. كذلك ارتبطت سعة الذاكرة بسرعة القراءة في النظام الصوتي، والنظام البصري، وهو يعني أن أداء المدى يدعمه بعض الآليات اللغظية.

نخلص من هذا إلى أن القناة السمعية لها أهميتها في أنها آلية مهمة للمراجعة لحفظ وترتيب المعلومات، فمن الممكن استخدامها في قراءة نص على درجة من الصعوبة، على سبيل المثال. ولكن قد يجادل البعض أنه على الرغم من عدم القراءة بصوت مسموع، إلا أنه يظل هناك صوت نسمعه ونحن نقرأ، وأغلب الظن أن هذا الصوت لا يرتبط بالقناة السمعية، لكنه يرتبط بنظام آخر هو نظام سمعي تخيلي (auditory imagery system).

### النظام السمعي التخييلي :Auditory imagery system

هذا النظام هو الذي يسمح لنا بتخيل صوت مغنى بعينه، أو تخيل صوت الأصوات وهي تتلاطم على الشط، فهذه الأصوات لا ننتجه، وهذا يعني أن الخيال لا يقوم على الأنظمة الفرعية الخاصة اللفظية. ففى القراءة، قد يتخيّل الفرد أن الحكم على صوت الكلمات المكتوبة يحتاج إلى شكل من أشكال النظم الفرعية اللفظية. ولقد حاول بادلي اختبار هذا، وذلك بالحكم على أزواج من الكلمات، إذا ما كانت متشابهة في الصوت أم لا. وقد أجريت هذه التجربة مع استخدام الترديد الصوتي لبعض الحروف غير المرتبطة بالكلمات، وأسفرت التجربة عن أن الفرد يستطيع أن يقوم بهذا الحكم. وفي تجربة أخرى عرض على المبحوثين نوعية من الجمل التي بها أخطاء في كتابة بعض كلماتها: مثلًا: [بعض الناس لا يفهمون سريعاً]، وعند عرض هذه الجملة لم يكن من الصعوبة على المبحوثين أن يفهموا المعنى. وهذا يعني أن الفرد ليس في حاجة إلى نطق الكلمة حتى يفهمها.

ومن هنا كان السؤال: هل القناة السمعية مهمة لاكتساب اللغة؟ ماذا يحدث لو أغلقت القناة السمعية لدى الفرد؟

للتأكد من نتائج هذا، قام بادلي عام 1988 باختبار قدرة سيدة إيطالية حرمت من الذاكرة السمعية قصيرة المدى، نتيجة ضربة قوية مفاجئة. على فهم قطعة منقوقة تارة، ومكتوبة تارة أخرى، وقد كشفت التجربة عن وجود بعض الصعوبات خاصة في الجمل المركبة، لكن عمليًا لم تكن التأثيرات كبيرة للغاية.

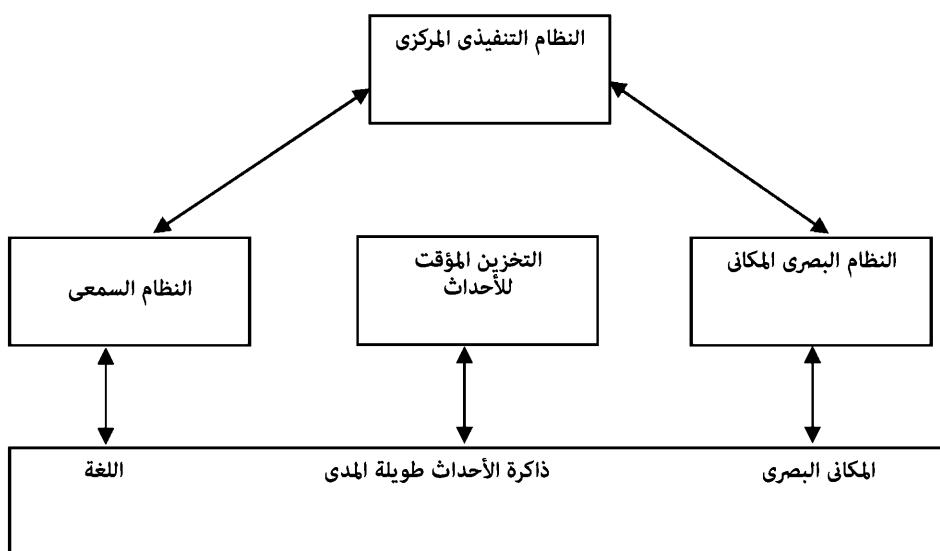
وفي تجربة أخرى تعرضت فيها السيدة لتعليم سمعي جديد، يتم فيها تعلم بعض كلمات روسية من خلال ربطها بكلمات مألوفة لها من اللغة الإيطالية. وفي تجربة ثالثة تم تعليم السيدة الرابط بين أزواج من الكلمات ذات المعنى من اللغة الإيطالية. وفي كل منها كان يتم مقارنة نتائج السيدة بنتائج عينة ضابطة. وقد كشفت النتائج عن صعوبة في تعلم السيدة للكلمات الروسية، لكنها أحرزت نتيجة جيدة في الرابط بين الكلمات المألوفة من لغتها الأساسية.

ومن نتائج التجارب السابقة، نخلص إلى أهمية وجود القناة السمعية لتعلم اللغة الجديدة. وقد أثبتت هذه النتائج أيضًا تجارب كل من بابجنو، وفالير Papagno & Valler عام 1992 في إيطاليا، وبعض زملاء بادلي مثل إليس Ellis، وبيتون Beaton. غير أن هذه التجارب تدل على أهمية القناة السمعية لتعلم اللغة الثانية بالنسبة للفرد، لكن ماذا عن أهميتها لتعلم اللغة الأساسية للفرد (اللغة الأم)؟

أجرى الباحثون التجارب على مجموعة من الأطفال المُشخصين على أنهم يعانون من صعوبات في اللغة، حيث إن مهاراتهم اللغوية تقل عن أقرانهم في العمر بحوالى العامين، رغم أن مستوى الذكاء غير اللفظي لديهم كان فوق المتوسط. ولقد كشفت النتائج أن هؤلاء الأطفال قد سجلوا

نقصاً كبيراً في القدرة على سمع وترديد الكلمات الصماء، وقد تساوت نتائجهم في ترديد الكلمات مع من هم أقل من عمرهم بأربع سنوات. وخلص الباحثون من ذلك إلى أن نقص كفاءة القناة السمعية قد أدى إلى نقص مستوى الأطفال في ترديد الكلمات.

وجدير بالذكر أن نتائج هذه التجارب وغيرها، قد ساهمت في تطوير نموذج الذاكرة العاملة، فلقد أفاد بادلي من نتائج هذه التجارب، في تقديم نموذج عن الذاكرة العاملة عام 2000، مضيفاً إليه نظاماً مساعداً آخر، يخص التخزين المؤقت للأحداث، أو هو ذاكرة قصيرة المدى للأحداث. والشكل التالي يوضح ذلك:



مقتبس من: (Baddley 2000, Trends in cognitive sciencs, vol.4 No.4)

ويذكر بادلي أن هذا الجزء الأخير، أي النظام المساعد الثالث، له قدرة محدودة ، غير أنه قادر على أن يكامل بين المعلومات من المصادر المتعددة؛ لتكوين وحدات متكاملة مثل ذاكرة القصة، أو ذاكرة فيلم سينمائي، كما يفترض أن يكون لنظام الخزينة المؤقت للأحداث ارتباطه بالذاكرة طويلة المدى والمعنى السيمانتي. ويذكر بادلي أن ملاحظاته على المرضى فاقدى الذاكرة، خاصة ذوى الذكاء المرتفع منهم، كانت وراء افتراضه لهذا النظام الثالث. فقد لاحظ أن هؤلاء المرضى فاقدى الذاكرة، وذوى الذكاء المرتفع، يفتقدون القدرة على تمييز المعلومات الجديدة والاحتفاظ بها في الذاكرة طويلة المدى، إلا أنهم يتمتعون بأداء جيد على الذاكرة قصيرة المدى في سرد القصص. ويبقى القول إن طرح بادلي الراهن عن الذاكرة العاملة بثلاثة أنظمة مساعدة ونظام تنفيذى مركزي، ينظمها ويهيمن عليها - قد أدى إلى وجود ثروة من الأبحاث في علم النفس التجريبى، وعلم النفس العصبى، والعلم العصبى المعرفى، إلا أن هذا النموذج يواجه نقداً من الباحثين في

المجال الذي أضافه عن الخازنة المؤقتة للأحداث، والذي ما زال في حاجة إلى الأبحاث التي تكشف عن وظيفته في أداء الذاكرة العاملة، بقدر أكبر من الموضوع.

### 3- النظام البصري المكاني : The visuo-spatial sketch pad

حظى النظام البصري المكاني بقدر من الاهتمام في السنوات الحديثة؛ ذلك أنه يلعب دوراً أساسياً في تعلم المواد اللغوية، فالمعینات اللفظية البصرية هي من أكثر الطرق المؤثرة في تذكر قوائم الكلمات، كما أن الكلمات التي يمكن تخيلها تكون أسهل في تذكرها من غيرها. وقد كان هناك نقاش حول إذا ما كانت الصور تخزن مباشرة في المخ، أم أنها تنشأ من المجردات. وأصحاب النظرة الأولى - الذين يؤيدون تخزين الصور مباشرة في المخ - يميلون إلى النظر في التشابه بين عملية الإدراك، وبين عملية قراءة المعلومات، ولقد نجحوا إلى حد كبير. ومن أكثر الباحثين تأييداً لهذا الاتجاه هو روجر شيبارد Roger Shepard من جامعة ستانفورد. وقد أجرى شيبارد العديد من التجارب التي تبحث العلاقة بين التخيل وبين الإدراك . ومن هذه التجارب ما يطلب فيها من المبحوث أن يستخدم قدرته على التخيل؛ لتحديد درجة المطابقة بين الأشكال.

والتخيل هو خبرة حسية تتم في المخ دون أن تتطلب وجود مقابل واقعي يزودنا بالإحساس الحالى بالملثير. ومن المحاولات المبكرة في هذا الصدد ما قام بها فرانسيس غالتون Francis Galton عام 1883، على مجموعة من مشاهير العلماء وغير العلماء، وطلب إليهم استرجاع خبرتهم بمائدة الإفطار كما كانت هذا الصباح، وأن يصفوا قوة وتفاصيل كل الأشياء، مع خبرة الشم والتذوق والطعم والملمس والإحساس بالجوع والبرد وعدم التوازن ... إلخ. ولقد وجد فروقاً كبيرة في الدرجة التي ورد بها الوصف، ففي بعض الحالات كان الوصف يكاد يكون حقيقياً كالمنظر الرئيسي في الواقع، واضحاً وثرياً، كما لو أن مائدة الإفطار أمامهم بالفعل، والبعض لم يقدم وصفاً يعبر عن خيال، والبعض الثالث قدم وصفاً يحمل صوراً أكثر إبهاماً وغموضاً .

وقد كشفت الدراسات الحديثة عن أن كل فرد يمتلك قدرًا من القدرة على التخيل، سواء أكان على وعي ومعرفة بهذا أم لا. ففي دراسة على خمسة آلاف فرد، ذكر 97% من العينة أنهم يملكون هذه القدرة سواء السمعية أو البصرية. ولكن تبدع صورة خيالية لابد وأن تتخيل، وقدرة الخيال وتأثيره لاحدود لها، ورغم أنه قد لا تكون هناك الخبرة الخاصة بالملوقة، إلا أنه ليس صعباً أن تخيل رائحة الزهور، ومنظر البحر تتلاطم أمواجه، وتتسابق للوصول للشط، مع الصوت الذي يصدر عن هذه الحركة. وهذه القدرة على وضع الصور معًا في المخ لخلق صور جديدة ضرورية، بل وأساسية لعملية الذاكرة. وقد لا تتضح أهمية هذه القدرة في الفرد الناضج إلا أنها ذات أهمية بالغة في حياة الطفل، خاصة في الطفولة المبكرة؛ فهي تساعده على تعلم الأرقام، حروف اللغة، أيام الأسبوع ... إلخ. ورغم أن الأطفال لا يعلمون كيف يستخدمون الخيال في حياتهم، إلا أن المخ يجد من

السهولة أن يربط بين الأشياء المجردة والمحسوسة، ويذكر نمط الصورة التي تتكون، فهي تضيف مزيداً من التنظيم للمادة المعلمة.

وفي تجربة لاختبار قوة التخيل في الذاكرة، أعطيت لعينة من التلاميذ قائمة من أزواج للكلمات المعبرة عن أشياء غير مرتبطة، وطلب إليهم أن يربطوا بين كل زوج من الكلمات بتخيل منظر بصرى، مثلًا: كلب - دراجة. وقد كشفت النتائج عن تباين في الصور التي قدمها التلاميذ للربط بين الكلمتين: أن يركب الكلب فوق الدراجة، أو يشد الكلب الدراجة، أو أن تكون الدراجة فوق الكلب، أو الكلب يقضى حاجته بجوار الدراجة. وفي مقارنة في القدرة على التذكر بين الأزواج غير المصورة، وبين الأزواج غير المصورة من الكلمات، مع توحيد زمن التعلم لكل منها، أسفرت النتائج عن أنه تم تذكر الأشياء المصورة بنسبة 80% من الأشكال، بينما لم يتم تذكر غير 33% من الكلمات غير المصورة (Bower, Gordon, 1972). وفي تجارب أخرى، خلصت النتائج إلى أنه كلما كانت الصور تعكس حياة وخبرات محسوسة وواضحة، كلما كان استرجاعها بقدر أعلى (95 %)، والعكس صحيح؛ إذ كلما كانت الصور غامضة وغير واضحة، كلما قلت القدرة على استرجاعها (70%).

وفي تجارب أخرى على الذاكرة اللغوية، باستخدام قوائم الكلمات وليس الأشكال، كشفت النتائج عن أنه كلما كانت الكلمات ذات قدرة على إثارة الخيال والصور العقلية، كلما كانت أيسر في الاسترجاع والتذكر. وذلك يعني أنه كلما كان التخيل مملوءاً بالحيوية، كلما كان أكثر ثباتاً في الذاكرة وأقل عرضة للنسيان. وذلك يعني أن التخيل مهم للذاكرة؛ لأنه يقوى العلاقات والارتباطات، وإذا لم يدعم التخيل هذه العلاقات بين الأفكار يصبح ذا قيمة ضعيفة للذاكرة.

وقد يمثل البعض ما يطلق عليه الذاكرة المصورة (photographic memory). هؤلاء قد تجدتهم ينظرون في الصفحة المكتوبة لعدة ثوان، ثم يستطيعون استرجاعها كما لو أنهم يقرأون من صورة لها في المخ. والمصطلح العلمي لهذه القدرة هو التخيل الكتابي (Edietic Imagery)، وهي تأتي من الكلمة اليونانية (edios)، وتعنى الشكل أو ما يمكن رؤيته. ولقد كانت هناك دراسات كثيرة على هذه القدرة حتى عام 1930، بينما بين عامي 1930 و1968، ظهرت دراسات فقط على هذه القدرة، إحداها استخدمت فيها النماذج التي يمكن تكوينها باستخدام الحاسوب الآلي، مكونة أشكالاً باستخدام النقط. واستخدم فيها الباحث نوعين من هذه النماذج، عرض أحدهما على العين اليمنى للعينة في اليوم الأول، ثم عرض النموذج الثاني في اليوم الثاني على العين اليسرى، ثم طلب من العينة استرجاع كل منهما على حدة. وقد كشفت النتائج عن أن أصحاب ذاكرة التخيل الكتابي استطاعوا أن يسترجعوا كلما منهمما على حدة، مما يعني أن التخيل الكتابي لديهم استطاع الاحتفاظ بالصورة على مدى 24 ساعة.

وفي التجربة الثانية، كان يعرض على عينة من الأطفال صورة تحمل بعض التفاصيل لشكل ما، ثم استبعدت، ثم تعرض عليهم الصورة الثانية بعض تفاصيل قليلة بصورة غير مبينة. بعدها طلب منهم تخيل شكل واحد من الصورتين السابقتين. واستطاع أصحاب ذاكرة التخيل الكتبي أن يخلصوا إلى صورة واحدة لوجه رجل، رغم وجود بعض الإضافات البعيدة عن الوجه، ويبدو أن هذا النوع من الذاكرة أكثر شيوعاً لدى الأطفال من الكبار. ولقد تبانت التقديرات حول مدى تواجد هذه القدرة، إذ بينما يذكر البعض أنها متواجدة في حوالي 50% من الأطفال، يذكر البعض الآخر أنها بين 3% أو 4% من الأطفال، وقد لا تتوارد إطلاقاً. ولقد حاول بعض الباحثين التعرف على مدى تغير هذه القدرة وفقاً للعمر، وخلصوا إلى أنها تتناقص سريعاً بعد العاشرة من العمر، وعلى مشارف الرابعة عشر من العمر، يصبح الأطفال مثل الكبار في هذه القدرة. ويحاول البعض تفسير هذا الأمر بعزوه إلى نظام التعليم، حيث يكون التركيز على القراءة والكتابة والرياضيات؛ الأمر الذي يعني التركيز على الوظائف المنطقية في النصف الأيسر من المخ، بما لا يشجع على التخيل البصري، الذي يعد من وظائف النصف الأيمن من المخ، ومن ثم تضعف القدرة وتتضاءل مع عدم الاستخدام. ولكن هل يمكن تقوية هذه القدرة في الناضجين؟ هل يمكن لبعض التدريبات أن تستعيد قدرًا منها؟

لاشك أن التوجه الحالي في النظر إلى قدرات الإنسان، والإيمان بإمكانية تعميمها، حتى ما يبدو عقلياً منها - يشجع على القول بإمكانية تنمية القدرة على التخيل. فحيث إن كلاً منا لديه قدر منها، فإن استخدامه هو الذي يحفظها من الضعف ثم التلاشي. فالتدريب المنظم على التخيل يساعد على تقوية هذه القدرة من ناحية، ويساعد الذاكرة من ناحية أخرى. فتكوين الصور التي تربط بين الأشياء التي يجب أن يتذكرها الفرد، أو أن تمضي بعض الدقائق في تذكر تفاصيل المكان الذي كنت به بالأمس، من الأنشطة التي تقوى القدرة على التخيل وتقوى الذاكرة في آن واحد.

ومن التدريبات أيضاً أن تعطي بعض الدقائق لتتذكر تفاصيل مكان تجده، مثلًا منزلك: أغምض عينيك وحاول أن تتذكر تفاصيل هذا المكان، من الخارج، الباب، الحائط، لون الباب، الموضع الذي يطل عليه، ثم ادخل ودع عقلك يتتجول داخل المنزل، ماداً ترى، ما اسم الراحلة التي تشمها، أي رائحة تلك ... وهكذا. دع عقلك ينتعش بالصور التي تأق بها الذاكرة.

وفي تدريب آخر يمكنك أن تتصور نفسك داخل شيء صلب، مثلًا قالب الطوب أو قالب الصابون ، ماداً تشعر وماذا تشم، ما مدى إحساسك بالحرارة في الحركة، وماذا عن إحساسك بالراحة ... إلخ. كما يمكنك أن تتصور نفسك داخل شيء يتغير كالماء مثلًا، ماداً لو وضعت في كوب صغير، أو كوب كبير. ماداً لو تم تسخينك، أو تبريدك، ماداً لو وضعت في إناء كبير في مثل

حجمك ... وهكذا. إن مثل هذه التدريبات إذا ما مورست بانتظام يومياً يمكن أن تقوى القدرة على التخيل، وبالتالي تقوى الذاكرة.

أما عن التخيل وعلاقته بالذاكرة العاملة، فإن بادلي يفترض أن المعلومات البصرية قد تخزن في الذاكرة طويلة المدى تحت أحد الرموز المجردة، لكن هذه الطريقة تكون عن طريق النظام البصري الذي يستخدم بعض أدوات الإدراك، ويعتمد في توظيفها على مكونات النظام التنفيذي الرئيسي في الذاكرة العاملة.

وفي تساؤل عن طبيعة التخيل، هل هو بصري أم مكاني، قامت الباحثة لي برووكس (Lee Brooks) بإجراء

التجربة الآتية:

قدمت ملحوظتها شكلاً أساسياً عبارة عن الحرف (F)، ثم طلبت منهم أن يحددوهازوايا المشتركة في الجزء الأعلى أو الأسفل من هذا الحرف، ذلك بأن تكون الاستجابة لفظية أو بالإشارة. ولقد وجدت برووكس من النتائج أن المبحوثين قد وجدوا صعوبة في استخدام الإشارة في الاستجابة، أي أن استخدام الإشارة قد تداخل مع عملية التخيل. لذلك في تجربة أخرى، استبدلت برووكس رؤية الشكل بأشياء تعتمد على السمع، فاستخدمت جملة واحدة طويلة، وطلبت من المبحوثين استخدام الإشارة؛ لتحديد نوعية ما يطلب منهم هل هو من الأسماء أو من غير الأسماء. وأسفرت النتائج عن أن الأداء كان جيداً مع استخدام الإشارة. وخلاصت برووكس إلى أنه في التخيل البصري، فإن العمل البصري المكاني مثل استخدام الإشارة لتحديد الاستجابة، يبدو أنه يستخدم قدرًا من القدرة على التخيل، ويترك القدر الأقل من هذه القدرة للتخييل العقلي، غير أن هذا العمل ذاته لا يتداخل مع الأعمال اللفظية، مثل تذكر شيء ما، أو تصنيف ما، يقوم على المعرفة بالقواعد.

ومن أقوى الأدلة على تحديد طبيعة التخيل إذا ما كان بصرياً أو مكانيًّا، ما جاء من دراسة على حالة الجندي بعد الحرب العالمية الأولى، قام بها العالم النيروولوجي جوردن هومز Gorden Holmes، وقد كانت إصابة هذا الجندي في المخ، وكان يستطيع تحديد الأشياء، لكنه لا يستطيع أن يحدد مكانها الصحيح.

ولقد أجرت مارثا فرح Martha Farah تجارب أخرى على هذه القدرة (التخيل البصري) عام 1988، وذلك على بعض المصابين بمتلازمة مخية، ووصفت في نتائجها إحدى الحالات التي لم تستطع القيام بالأعمال التي تعتمد على الخصائص البصرية للأشياء، مثلًا أن يحكم على الحجم النسبي للكلب في مقابل البقرة، أو الحكم على لون أحد الخضروات (مثلًا: الخس)، إلا أن هذا



المريض كان يستطيع أن يقوم بعمل التخييل البصري؛ للحكم على درجة مطابقة الأشكال (التدوير العقلي)، كما أنه يمكنه تحديد بعض المعلومات الجغرافية بتحديد وضع المدن والبلاد على الخريطة.

ومن خلال الدراسات السيكوفسيولوجية على كهرباء المخ، أو تدفق الدم في مناطق مختلفة في المخ، خلصت إلى أن تحديد الجوانب البصرية لتخيل النماذج أو الألوان، إنما يعتمد على الفص القذالي أو القفوي (occipital lobes) - في مؤخرة المخ -، أما تحديد الجوانب المكانية، فهي تعكس النشاط في المنطقة الجدارية (parietal) حول مركز المخ.

#### التخييل والتعلم طويل المدى:

هل هناك علاقة بين النظام البصري المكاني وبين التخييل في الذاكرة طويلة المدى؟

إذا لم تكن هناك علاقة بين النظام البصري المكاني وبين التخييل في الذاكرة طويلة المدى، فإن أي تدخل بصري يمكن أن يؤدي إلى إعاقة المادة القائمة على التخييل، مثلما تعيق المادة القائمة على غير التخييل. أما إذا كانت هناك علاقة بينهما، فإن الإعاقة تكون هنا للمادة القائمة على التخييل فقط.

ولذلك فقد استخدمت في التجارب التي أجريت للتحقق من هذا أشياء يمكن تخيلها بسهولة. فقد استخدم الباحثون قوائم من الأسماء والصفات المجردة والواقعية، والأسماء والصفات المجردة، مثل: مزاج - مرح، فكرة - أساسى. أما الأسماء والصفات الواقعية المحسوسة فكانت، مثل : ترابيزة - مربع، فراولة - ناضجة. وأسفرت النتائج عن أنه كلما كانت الأسماء والصفات يمكن تخيلها، كلما أمكن تذكرها بسهولة. إنه يبدو أن اختلاف نوعية المادة المجردة / المحسوسة لابد وأنها ترتبط بخصائص الكلمة التي تخزن في ذاكرة المعانى، حيث إنه مع الكلمة المحسوسة يكون تميزها أكثر قوة وثراء من الكلمة المجردة، وحتى الآن ما يُعرف عن كيفية تخزين المعنى في ذاكرة المعانى ليس كافياً، ويحتاج إلى الدراسة والبحث.

#### 4- مستودع التخزين الأولى (Primary Aquastic Store):

ويشبه مايكل أينزنك (Michael Eysenck) هذا النظام بأنه الأذن الداخلية، والمدخلات السمعية تصل إلى هذا المكان مباشرة، أما المدخلات البصرية فتصل إليه بطريق غير مباشر، حيث يجب أن تتحول إلى الشكل السمعى حتى تصل إليه.

أما عن كيفية تسجيل كل جزء من هذه الأجزاء المكونة للنموذج الذى ذكره بادلى وهيتشر، فإنه يتم كالآتى:

\* التسجيل البصري: ويقوم به النظام البصري، حيث يسجل المعلومات كخصائص بصرية، مثل اللون، والحجم، والشكل، كأنها صور بصرية.

\* التسجيل الصوقي: ويسجل المعلومات كخصائص سمعية، مثل النغمة، والارتفاع، وطبقة الصوت، ويطلق عليها أيضاً الرمز الصوقي (phonemic code).

\* التسجيل السمعي: ويمثل تسجيل المعلومات كما نتحدث بها، وهي تشبه المرحلة السابقة مباشرة، إلا أنها تتضمن حركة العضلات اللازمة لخروج الصوت، ويطلق عليها phonological code.

وفي تعليق أيزنك وكوهن على هذا النموذج من حيث كفاءته في توضيح مكونات الذاكرة العاملة، يقول إنه قد أضاف بحق إلى فهم الذاكرة؛ إذ إنه من الواقع أن نفترض أن الذاكرة العاملة تتكون من عدد من الآليات المستقلة للعملية، أكثر من كونها مخزناً فردياً أحادياً قصير المدى. كما أنه من الأكثر فائدة التعامل مع عمليات الانتباه، باعتبارها جزءاً من نفس النظام؛ لأنهما يستخدمان معًا معظم الوقت في الحياة اليومية.

غير أن هناك بعض التحفظات على هذا النموذج، تتمثل في ضآلة المعلومات التي تعرف عن النظام التنفيذي - أحد مكونات هذا النموذج -، فهو لا يشك له أهمية كبرى؛ حيث إنه يستخدم للتعامل مع متطلبات الأنشطة أو الأعمال، وربط الانتباه بجوانب عديدة في الأعمال التي تقوم بها، وتقييم النتائج وتكاملها. وقد أشار بادلى وهيتشن إلى كفاءته المحدودة، إلا أن التجارب التي أجريت لقياس هذه الكفاءة، لم تكن ناجحة.

كما أشار ريتشاردسون 1984 إلى قضية أخرى، خاصة بالنظام التنفيذي في نموذج بادلى، حيث ذكر أن الطريقة التي يبدو بها النظام التنفيذي، في تنفيذه للعديد من المهام المختلفة، تتشابه إلى حد كبير مع فكرة الذاكرة قصيرة المدى كنظام وحيد. ومن ثم فإن هذا النظام لم يقدم جديداً لعمل الذاكرة العاملة. كما اقترح أولبورت عام 1980 استبدال تسمية هذا الجزء بتسمية الموضع المركزي للانتباه (Central allocation of attention)، غير أن بادلى قد أجاب على هذا القول بأنه قد وضع إستراتيجيته لفهم الذاكرة العاملة، على أنها تقوم على تحديد أكبر عدد من الآليات المتخصصة في تنفيذ العمليات.

وقد يعني هذا أن ما عرف عن النظام التنفيذي يحتاج بالفعل إلى الكثير؛ لإماتة اللثام عن مكوناته. لذلك فقد وصفه أيزنك بأن "الجزء المسمى بالنظام التنفيذي قد يمثل المساحة المجهولة الباقية، غير أن وجود هذا النظام التنفيذي الرئيسي لتنظيم العملية أمر مطلوب، وإلا تحولت الأمور إلى الفوضى".

واستمرت محاولات الباحثين لاستكشاف طبيعة العلاقة بين هذه الأنظمة، وبين كفاءة الذاكرة، فقدم بادلى Baddley وليberman عام 1986، نتائج اختباراتهما الأولية عن الذاكرة البصرية وعلاقتها بالمهارات السمعية، وخلصا إلى أن الميثر السمعي البصري الشانوى (كما تمثل في بندول الساعة) كان معوقاً للأداء البصري. وقد أكدت دراسات سميث (Smith) وسكولى (Scholey) المشابهة عام 1994 ، النتيجة ذاتها، وأن الميثر السمعي المكانى الشانوى قد أدى إلى



اضطراب العمل البصري المكاني الرئيسي. كذلك كشفت تجربة ليزرت Lehnert وزمير Zemer عام 2006، عن علاقة كفاءة الذاكرة البصرية المكانية بنوعية المادة المقدمة. وكشفت النتائج عن أن أداء الذاكرة المكانية كان أفضل مع استخدام الصور، من استخدامها مع الأصوات، سواء في حالة استخدام الكلمات الصماء أو الكلمات ذات المعنى.

(Lehnert & Zemer, 2006, pp: 1080-1090).

فضلاً عن هذا، فقد قدم ليزرت (Lenert) و زمير (Zimmer) 2006 تجاربهم لاختبار العلاقة بين الذاكرة البصرية المكانية وبين القناة السمعية (phonological Loop)، فقد مثلت المعلومات البصرية السمعية موضوعاً في بعض الأبحاث السابقة عن الذاكرة العاملة. وفي التجارب الأولية لاختبار الذاكرة البصرية المكانية، كانت المثيرات السمعية هي المستخدمة، وهي لا تتنتمي مباشرة إلى المدخلات البصرية. كما لاحظ بادلي وليرمان (Liberman, 1986) أن الأداء في العمل البصري كان يتم تعويقه بأداء بصري سمعي ثانوي (مثل في صوت بندول الساعة). وفي عدد من التجارب المشابهة، قام بها سميث Smith وسكولي Scholey، أسفرت النتائج عن أن المثير السمعي المكاني الثانوي قد أدى إلى اضطراب الأداء البصري المكاني الرئيسي. وتدعى هذه النتيجة القول بأنه عند مستوى ما، تتقاسم المدخلات البصرية والسمعية مكوناً يخص الحفاظ على المعلومات المكانية في الذاكرة العاملة، وقد تم تسمية هذا المكون بالانتباه المكاني (Spatial Attention)؛ ذلك أنه أثناء عملية الاحتفاظ، يوجه الانتباه، المكاني إلى مناطق يتم ذكرها، فإذا تم توجيهه إلى المكان (على سبيل المثال: نحو الإشارة السمعية لعمل البندول)، فإن هذه النقلة تعوق الحفاظ على الأداء الرئيسي.

كما يعد ميرات وجرجير Merat & Groger من الذين أضافوا إلى تفسير كيف أن التداخل بين الإدراك السمعي المكاني وبين الذاكرة العاملة البصرية المكانية، لا يؤثر على الانتباه المكاني. فضلاً عن هذا، فقد أشارت بحوث ليزرت وزمير عام 2006 إلى أن مكان الذاكرة العاملة كان أفضل بالنسبة للصور، عنها بالنسبة للأصوات، سواء في حالة استخدام الكلمات ذات المعنى، أو الكلمات الصماء (Linnert, Zimmer, 2006, pp: 1080 - 1090).

وجماع هذه النتائج تؤدي إلى استمرار طرح التساؤل الخاص بكيفية حفظ المعلومات المكانية على بساط البحث العلمي.

#### الحمولة الزائدة وكفاءة الذاكرة العاملة:

وتساءل الباحثون عما يسمى بالحمولة الزائدة للذاكرة (overloading)، هل يمكن أن تحدث للذاكرة العاملة؟ ومني؟ وهل يمكن تجنب حدوث هذه الحالة؟ وكيف؟

ذكر ميلر (Miller) منذ عام 1956 أنه من الممكن أن يحدث ما يسمى بالحملة الزائدة للذاكرة، إذا لم تكن المعلومات منظمة، أو لا تدار في ضوء الفراغات المسموح بها في الذاكرة. وفي عام 1988 أكد باربر (Barber) على حدوث هذه الظاهرة في حالة وجود المعلومات التي تتجاوز الحد الأقصى لما تسمح به مساحة الذاكرة العاملة. وفي عام 1997، أكد جونستون (Johnstone) على هذا في حالات: وجود قدر كبير من المعلومات لابد من الاحتفاظ به، وليس هناك مكان يتناسب مع هذا الكم، أو في حالة وجود المعلومات غير المألوفة، أو المعلومات غير المترابطة، أو المفاهيم الجديدة أو المعلومات الصعبة. وقد أشار جونستون إلى أن الذاكرة العاملة قد تتعرض للتحميل الزائد في الدراسات العملية في العلوم؛ بسبب الأعمال الكثيرة التي يجب عملها في وقت واحد. ويفترض جونستون أنه في التعليم العالي - حيث تصبح المحاضرات أمر مهم للطالب - يمكن أن تحدث ظاهرة التحميل الزائد للذاكرة أثناء المحاضرات. كذلك قد تحدث هذه الظاهرة في الامتحانات، خاصة الموضوعات التي تتطلب القدرات العليا في التفكير كالرياضيات، وهو الأمر الذي يؤدي إلى الإجابات الناقصة والمختصرة.

كما أشار سلينج Seeling عام 1995 إلى أن تعلم اللغة الثانية قد يؤدي إلى حدوث ظاهرة التحميل الزائد للذاكرة العاملة.

#### كفاءة الذاكرة العاملة:

تقاس كفاءة الذاكرة العاملة بعمل مهمتين في آن واحد، إحداهما يتطلب التعامل معها بصورة ما، والأخرى تتطلب التذكر المنتظم لأحد أنواع المهام كالأرقام أو الكلمات. لأن يقرأ الفرد عدداً من الكلمات المتتابعة، يتبعها أو يتخللها إصدار حكم ما على مهمة أخرى. ويطلق على هذه العمليات المهام معقدة المدى (complex span tasks)، التي تتطلب تخزيناً تلقائياً في الذاكرة قصيرة المدى لبعض المعلومات، والتعامل مع الجزء الباقي من هذه المعلومات، وهما عادة مهام غير مترابطة، لذلك كان تعريف الذاكرة العاملة بأنها نظام للتخزين التلقائي والمعالجة في نفس الوقت.

ولقد كشفت دراسات كثيرة عن اختلاف هذا العمل للذاكرة العاملة عن المهام بسيطة المدى simple span "task" (الاستدعاء المتتابع للمهمة دون عمليات أخرى) باستخدام التحليل العامل. ويبعد أن المهام المعقدة أو المزدوجة التي تتضمن تغييراً في المعنى تكون غير متضمنة في المهام البسيطة؛ حيث يرتبط هذا التباين بشدة بازدواجية المعرفة. لذلك عرف إنجل وزملاؤه Engel et al كفاءة الذاكرة العاملة بأنها القدرة على الحفاظ المؤقت على وجود المادة المعرفة نشطة في مواجهة التشتبه، ويعبرون عنها بالمعادلة الآتية:

المهام معقدة المدى = المهام البسيطة + الانتباه المنضبط أو المحكم.

ولقد قام أوبرور Obeauer بإجراء تجربته للتحقق من:



- \* أن كفاءة الذاكرة العاملة تعكس القدرة على مقاومة أثر التداخل مع محتويات الذاكرة العاملة.
- \* مدى ارتباط كم التداخل باختلاف نوعية المواد المراد الاحتفاظ بها في الذاكرة، حيث من المتوقع أن يزداد التداخل في حالة تشابه المواد المطلوب تعلمها.

ولقد استعان أوبور بعشرين من طلبة الجامعة، من 17 - 19 عاماً (54 من الذكور، و66 من الإناث). وتضمنت المهام إحدى عشرة مهمة، 5 منها لفظية و6 مكانية. منها اثنان من المهام المكانية وواحدة من اللفظية كانت لاختبار المهام بسيطة المدى، أما الباقى فكانت لاختبار المهام المعقدة. ولقد تم عرض هذه المواد باستخدام الحاسب الآلى، وكشفت نتائج التجربة عما يدعوه إلى مزيد من البحث حول قضية مقاومة الذاكرة العاملة للتداخل، فلم تكن النتائج بالقوية التى تحسم القول في هذا الأمر.

وفي دراسة أخرى عن الذاكرة العاملة، حاول أببور أن يخبر مقوله أن كبار السن يختلفون عن الأصغر سناً في القدرات المعرفية؛ وذلك بسبب أن الكبار يواجهون صعوبة في ضبط المهام المعقدة؛ لأنهم لا يستطيعون بهاءرة قمع مكونات الذاكرة العاملة المرتبطة. لذلك يحدث لديهم المزيد من التعارض في المهام المعقدة. كما ذكر البعض الآخر أن الأطفال ذوى صعوبات القراءة أو الحساب لديهم قدرات منخفضة على إزاحة المعلومات غير المرتبطة من الذاكرة العاملة. ولقد كشفت التجربة عن وجود فروق بين كبار السن وبين الأصغر عمرًا على أداء المهام المركبة، تعزى إلى صعوبة ضبط تداخل المواد غير المرتبطة. ولقد تكونت العينة من أربعين من صغار السن بمتوسط عمرى 19 عاماً (30 من الإناث، وعشرون من الذكور)، أما عينة كبار السن فقد تكونت من أربعين فرداً بمتوسط عمر 69 عاماً (24 من الإناث، 16 من الذكور).

جدير بالذكر أن الذاكرة العاملة ما زالت في حاجة إلى الكثير من الأبحاث، التي تزيدها وضوحاً؛ من حيث مكوناتها: النظام السمعي، والنظام البصري المكانى، وعلاقة النظام السمعي في الذاكرة العاملة بنظرية في الذاكرة طويلة المدى، كذلك علاقة كفاءة الذاكرة العاملة بطول الكلمة، فضلاً عن علاقتها بالقدرات العقلية الأخرى. وفي ضوء الاهتمام بالمتميزين والمتفوقين، يمثل الاهتمام بدراسة الذاكرة العاملة أمراً ذا أهمية خاصة وأن هناك من الأبحاث ما أشار إلى وجود علاقة موجبة بين الأداء على اختبارات الذكاء وبين كفاءة الذاكرة العاملة، ويبقى المجال في حاجة إلى جهود الباحثين في علم النفس المعرفي بما يضيف إلى فهم ما غمض علينا من طبيعة الذاكرة الإنسانية، والمشكلات التي يعاني منها الإنسان في هذا الصدد بفعل السن، أو أحداث الحياة، أو الأمراض التي تصيب مخ الإنسان وتأثير على قدرات الأداء في هذا العضو. ولاشك أنه في ضوء ما تسفر عنه الدراسات التجريبية، والتشخيصية والمقارنة، قد نستطيع التقدم خطوات في مجال الارتقاء بكفاءة الذاكرة.

### ذاكرة الحياة اليومية:

درس العلماء الذاكرة على مدى مائة عام أو أكثر، غير أن الغالبية العظمى من هذه الأبحاث كانت داخل المعمل، وباستخدام التكتيكات التجريبية المقننة؛ للإجابة عن الأسئلة النظرية، عن القوانين العامة التي تحكم أداء الذاكرة. وفي التجارب المعملية، يستطيع المجرب أن يتحكم في الزمن المحدد للتجربة، فضلاً عن انتقاء أفراد العينة التجريبية بعناية، والتحكم في المتغيرات المرتبطة بهم، ثم ضبط عملية تقدير التغيير المتوقع، كما يبدو في التحكم في المتغير التابع كميًّا وكيفيًّا.

ولقد استطاعت هذه التجارب أن تكشف عن حدود قدرات الذاكرة، وتحدد بعضًا من الضوابط التي تحكم النظام. وظهرت بعض القوانين العامة والتي أمكن تعميمها عبر المواقف التجريبية. على سبيل المثال: قسمة الذاكرة إلى ذاكرة قصيرة المدى، وأخرى طويلة المدى، والتي تم قبولها على مستوى واسع، ومدى الانهيار في عملية التذكر، ودور الحفظ والاستظهار في عملية التذكر، ثم دور الاحتفاظ بالمادة، وتأثير التعارض على المادة المستدعاة، ويشار إلى هذه الأبحاث ونظائرها باعتبارها TLR (الأبحاث التقليدية المعملية) التي تم تراكمها عبر عشرات السنين ومازالت مستمرة . وكما يذكر بادل فإن هذه الأبحاث المعملية قد اتخذت اتجاهين واضحين، مثلت أبحاث إينجهاووس Ebbinghaus والمقطاع الصماء أحدهما، أما الاتجاه الثاني فقد مثلته تجارب بارتلت Partlett على استدعاء المادة غير المألوفة. واستمر الصراع بين هذين الاتجاهين حتى كان تصريح نيسر Neisser عام 1978 في مؤتمر عن الجوانب العملية للذاكرة، وأعلن نيسر في كلمته عن: ما هي الأسئلة المهمة عن الذاكرة؟ وكأنه بهذا يلغى مائة عام من الأبحاث المعملية عن الذاكرة. وعدُ هذا التصريح حجر الأساس - دون منازع - لعلم نفس الذاكرة؛ إذ اعتقاد نيسر أن الأسئلة الأكثر أهمية عن الذاكرة هي التي تتبع من خبرات المواقف اليومية، وأعن أنه يجب اكتشاف كيف تعمل الذاكرة، وكيف يكون لدى البعض ذاكرة أفضل من الآخرين ولابد من اكتشافنا لماذا نتذكر بعض الأشياء دون البعض الآخر، وكيف نتذكر هذه الأشياء المتبااعدة عن بعضها البعض كأسماء الأشخاص، وقطع الشعر وأسماء المدن، والأحداث العالمية ... إلخ.

إنه وفقًا لقول نيسر، فإن الأبحاث التقليدية قد فشلت في تقديم الإجابة عن هذه المشكلات المهمة وغيرها، ودعا إلى اتجاه جديد، يركز على البحث التفصيلي على ظواهر الذاكرة التي تحدث بصورة طبيعية في العالم الواقعي، مع الانتباه بصفة خاصة إلى الفروق الفردية في هذه الظواهر، وبناء على هذا الاتجاه، لابد وأن يتبنى العلماء توجهاً يمثل الذين يدرسون سلوك الحيوان في الواقع وليس في المعمل.

غير أن جيليان كوهن G. Cohen يذكر في مقدمته لكتابه عن الذاكرة في العالم الواقعي 1996، أن رياح التغيير من التجارب المعملية المحدودة على الذاكرة إلى التجارب الواقعية الأكثر ارتباطاً



بأداء الفرد في حياته اليومية، لم تبدأ منذ دعوة نيسر فقط، بل قدم عدداً آخر من المؤشرات التي لم تكتمل تارة، أو تعرضت لرياح النجاح والفشل تارة أخرى، أو ظهرت معه بعض الفروع الحديثة في علم النفس تارة ثالثة، ليثبت أن هذا الصراع بين نتائج الأبحاث المعملية من ناحية وبين المشكلات اليومية الحياتية للفرد من ناحية أخرى، لم يفارق أذهان العلماء والباحثين ومن هذه الأدلة: ما قدمه جالتون ومن بعده بارتلت عن التوظيف المركب والثري للذاكرة، والتي قدر لأفكارهما أن تهمل سنتين عدة، ثم تعود مرة أخرى في اهتمام الباحثين في بريطانيا وأمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية. كذلك وحدياً جداً، فإن المدرسة الجديدة في علم النفس المعرفى التي ظهرت في أواخر السنتينيات، قد تبنت اتجاهًا أكثر اتساعاً وأكثر تاماً من الاتجاه الخاص بتجارب التعلم اللغظى التقليدية، فقد واجه الباحثون مشكلات عن إستراتيجيات الذاكرة، والتي أدت إلى فحص العديد من الظواهر التي تميز استخدام الذاكرة في الحياة اليومية، مثل: استخدام التخييل، والمذكرات، وظاهرة على طرف اللسان، ومميزات استخدام التنظيم الفئوي.

وخلالصة هذا العرض هو أن أفكار نيسر قد وجدت استقبلاً مشجعاً، وأن رياح التغيير قد اشتدت منذ ذلك التاريخ، وجلبت معها كمًّا من الأبحاث المثيرة إلى درجة كبيرة، والمتتنوع والثري عن تطبيقات الذاكرة في الحياة اليومية. والجدير بالذكر أن هذا التقدم في أبحاث الذاكرة لا يرتبط بعلم نفس الذاكرة فقط، بل ارتبط بالموضوعات العديدة في علم النفس المعرفى، والاهتمام بالحياة العقلية للأفراد العاديين في حياتهم اليومية، ومن أمثلتها: كيف يحدد الأطباء تشخيص الأمراض؟ أو كيف يقرر المقامرون وضع علاماتهم؟ ما هي المهارات المتضمنة في سلوك المناقشة؟ أو التخطيط للطرق، أو في تمييز الوجوه . وكلها من الموضوعات رهن الدراسة والبحث. وعندما عقد المؤتمر الثالث عن الذاكرة عام 1994 ، كان واضحاً أن دعوة نيسر قد صادفت حماساً شديداً من الباحثين في علم النفس.

ويسوق إلينا بادل مثلاً عن المشكلات الحياتية اليومية التي يعاني منها غالبية الأفراد، إن لم يكونوا كلهم، وهي ظاهرة الذاكرة المستقبلية Prospective Memory ، أو القدرة على تذكر أن نفعل شيئاً معيناً في وقت محدد أو مكان محدد، وهو يماطل تماماً أن ننسى أن نفعل شيئاً محدداً في وقت بعينه، ثم نشكو من اضطراب الذاكرة، ولكن على الرغم من أهمية هذا الأمر الشديدة للإنسان، إلا أن الأمر بعيد عن الفهم أو الوضوح، عن كيفية عمل الذاكرة المستقبلية. لا شك أن تنفيذ شيء محدد في وقت محدد، وفي مكان محدد، يتطلب التذكر، حيث إن مرضى فقدان الذاكرة يميلون لأداء شيء على مثل هذه الأمور، غير أن الصغار، الأكثر ذكاء لا يتميزون كذلك على هذه الأمور؛ لذلك فالآن تعدد الذاكرة المستقبلية من الموضوعات المهمة جداً في الدراسات والقياسات اليومية، والملاحظة ، وذلك بالتكامل مع الدراسات المعملية المنضبطة. إلا أن بادل يحذر من الخطير القادر من سيطرة التدخل المعملى الشديد على دراسة مثل هذه الموضوعات. إذ على الرغم من الدراسات القائمة

والنشطة عن اضطرابات الذاكرة، واستخدام القياسات التقليدية عن كفاءة الذاكرة وقياسها على هذا النحو، مثل: تعلم الأزواج المرتبطة من الكلمات، واسترجاع الأشكال المركبة، أو استخدم قوائم الكلمات المألوفة وغير المألوفة، إلا أن المرضى يحددون دائمًا مشكلتهم ليس في تعلم هذه المواد، ولكن في تذكر الطرق المحيطة بالمستشفى، أو المواعيد أو أسماء الأفراد.

ولقد قام سامدرلاند وزملاؤه Sunderland et al عام 1983، بمراجعة صدق نتائج هذه الاختبارات على أخطاء الذاكرة التي يذكرها المرضى ورعاياهم، في تجربة على عينة من مصابي المخ، ومقارنتهم بمجموعة من كبار السن الأصحاء، وكشفت التجربة عن إصابات المخ، والتقدم في العمر، من العوامل التي أدت إلى خفض الأداء على أغلبية الاختبارات الموضوعية.

واهتماماً بهذا الأمر، قامت باربرا ويلسون B.Welson بتكوين اختبار لقياس الذاكرة في المشكلات التي وردت من مرضها، التي ورد فقدان الذاكرة لديهم من جروح بالرأس أو إصابة المخ، أو الحوادث، وكانت اختبار (RBMT) (Rivermead Behavioral Memory Test)، ويتضمن 12 مكوناً فرعياً يختبر:

- القدرة على التذكر واستدعاء أسماء جديدة.
- معرفة الوجوه السابقة والحالية غير المألوفة.
- معرفة الأشكال السابقة والحالية غير المألوفة.
- معرفة الصور السابقة والحالية غير المألوفة.
- الاستدعاء الفوري لقطعة تم تعلمها.
- الاستدعاء الفوري والمؤجل لمعظم طريق سهل.

ولقد ثبتت حساسية هذا الاختبار في قياس اضطرابات الذاكرة، وقدرته على تشخيص فشل الذاكرة كذلك. وجدير بالذكر أن هذا الاختبار وأمثاله، قد نبع من محاولة تطوير أدوات قياس الذاكرة، في ضوء الواقع الذي يواجه المرضى، وكيف سيتكيفون معه، وليس باعتبارها أدوات مساعدة للأدوات المقتنة عن وظائف الذاكرة أو أنها لها. ويعد اختبار بادلى عن الذاكرة الشخصية Autobiography Memory Inventory 1990 ، بموجأ واضحا على ذلك، كذلك يعد اختبار الأبواب والأشخاص Doors and People ، لقياس الاستدعاء البصري واللفظي لبادلى 1994، بموجأ آخر على هذه الأدوات.

ويذكر كوهن أهم الموضوعات التي تكون مضمون الذاكرة الواقعية اليومية فيما يلى:

- ذاكرة الأهداف والأفعال والخطط.
- ذاكرة الأماكن والطرق والخرائط ووضع الأشياء.



- ذاكرة الأحداث والإدلة بالشهادة.
- ذاكرة الأشخاص والوجوه والأصوات والأسماء.
- ذاكرة الخبرات الشخصية والذاكرة الشخصية.
- ذاكرة المعارف وما وراء المعرفة.
- ذاكرة الأفكار والأحلام.
- ذاكرة المناقشات والقصص والموضوعات.
- ذاكرة الخبرة والتميز (Cohen, Gillian, 1996).

\* \* \*

## الفصل الرابع

### التعلم والذاكرة بين القديم وال الحديث

حين نعرض اليوم لقضايا التعلم والذاكرة، لاشك أنه لابد وأن يؤخذ في الاعتبار أبحاث علم الأعصاب وما أسفرت عنه من نتائج تخص وظائف المخ البشري والإمكانات اللامتناهية لهذا العضو على التعلم والاستفادة من الخبرات التي يعايشها لحظة بلحظة، وقدرته على التشكل مع هذه الخبرات ليس في مرحلة الطفولة فحسب، بل على مدى امتداد عمر الفرد.

إذ إنه من أهم ما يستطيع أن يقدمه علم الأعصاب للعملية التعليمية هو توضيح طبيعة عملية التعلم في ذاتها. فقد ثبت من دراسات هذا العلم على بناء المخ ووظائفه، وتصوير نشاط مناطق المخ في الحالات المختلفة - بالاستعانة بما أسفر عنه التقدم التكنولوجي من أجهزة دفعت البحث في هذا المجال قدمًا، لم تكن ممكنة من قبل - أنه ليس هناك نمط واحد للتعلم لكل شيء مثلاً، فتعلم الرياضيات يختلف عن تعلم القراءة. وكلماهما يختلف عن تعلم مهارة العزف الموسيقي على آلة ما. فكل من هذه الأنواع من الذاكرة يعتمد على نظام مختلف في المخ، ويواصل نموه بايقاع مختلف وفي وقت مختلف. وقد كان في عرض أنواع الذاكرة في الفصول السابقة ما يشير بوضوح - ويقدم في الآن نفسه - إلى ضرورة إعادة النظر في عملية التعلم، في ضوء نتائج الأبحاث الجديدة في علم الأعصاب؛ بغرض تحقيق التعاون بين التخصصات العلمية المختلفة، والإفاده من بعضها البعض؛ لتحقيق الفائدة الأكبر للفرد وللمجتمع.

غير أن ذلك لا يعني غض الطرف تمامًا عن تاريخ الاهتمام بقضايا التعلم والذاكرة في الفترات السابقة، كما لا يعني - في الآن نفسه - أن يجور تخصص ما، مهما كانت جدة النتائج التي توصل إليها في عملية التعلم، على جهود تخصص آخر يتقاسم معه الاهتمام بالقضايا ذاتها. بمعنى أن رؤية قضايا التعلم اليوم في ضوء نتائج الدراسات الحديثة من علم دراسة فسيولوجيا الأعصاب لا يعني تجاهل الجهود السابقة في مجال علم النفس، الذي استطاع بجهود علمائه منذ فترات طويلة، أن يضيف الكثير إلى فهم الظواهر التي غمض فهمها على المتخصصين في المجال فترة ليست بالقصيرة. فعلم النفس لديه ثروة هائلة من المعلومات عن القدرات المعرفية للطفل، مثلاً أثناء السنوات العشر الأولى من حياته. ومن ثم يبقى إعادة النظر إلى هذه الثروة من المعارف والمعلومات، في ضوء الحقائق التي أسفرت عنها دراسات علم الأعصاب عن نمو المخ. لذلك قد يكون وجود ما يسمى

علم النفس المعرف البيولوجي بمثابة حلقة الوصل بين السلوك، وبين التغيرات التي تحدث في أبنية المخ. فعلى الرغم من البدايات الحديثة للاهتمام بقدرات المخ التعليمية، إلا أن لديه الكثير الذي يمكن أن يثير العملية التعليمية لدى الفرد. لذلك يتضمن هذا الفصل كيف أن هذه النتائج قد ألقت الضوء على بعض ما غمض فهمه في إطار العملية التعليمية، مثل التعليم المبكر للطفل، وثراء البيئة وتنشيط العمليات العقلية، ومكانة التعلم في المراحل المبكرة من العمر واستجابة العقل لهذا النوع من التعلم. وكلها تمثل قضايا ساخنة تطرح على بساط علاقة التعلم بأبحاث علم الأعصاب في المخ وإمكاناته وحدوده كذلك.

#### أولاً: المخ وإمكانية التعلم:

خلق المخ لكي يتعلم ويعمل؛ فالمخ هو الآلة التي تسمح لكل أشكال التعلم أن تحدث، بدءاً من تعلم الطفل كيف يحبو، وتعلم الطير كيف يطير، وتعلم الأطفال كيف يقودون الدراجة، حتى تعلم الكبار لغة جديدة، أو التعامل مع مكتشف إلكتروني جديد. وكما يسمح المخ بكل هذه الأشكال من التعلم، فهو أيضاً الذي يضع حدوداً للتعلم؛ فهو الذي يحدد ما الذي يمكن تعلمه، وإلى أي مدى، وبأي درجة من السرعة. ولاشك أن معرفة إمكانات المخ، وكيف يعمل، كانت - وستظل - لها التأثير الأكبر على عملية التعلم؛ إذ إن فهم الميكانيزم الذي يحدد التعلم والذاكرة، وتأثير الجينات والبيئة والانفعالات والمراحل العمرية على عملية التعلم، يمكن أن تساعدنا على وضع الإستراتيجيات التربوية، وعلى تصميم البرامج التي تدفع عملية التعلم عبر المراحل العمرية المختلفة. كما أن فهم كيفية اكتساب العقل للمعرفة، وللمهارات، يمكننا من معرفة الكثير عن كفاءة المخ وحدودها.

وفي السنوات القليلة الأخيرة، كثف الباحثون اهتمامهم بدراسة المخ وإمكاناته، ومن ثم فإن ما يعرفه العلماء الآن عن المخ، وأسرار هذا العضو ليس بالشيء الهين. إلا أن ما يدعو إلى الدهشة أنه مازال تطبيق هذه المعرفة في مجال التعلم والتعليم بعيداً عما يمكن تحقيقه من تقدم في هذا المجال. فما زالت هناك التساؤلات التي تحتاج إلى إجابات، من جانب المتخصصين في علم الأعصاب؛ لتطبيق هذه الحقائق عن كفاءة المخ ووظائفه في تعلم الفرد. وقد يعزى وجود هذه الفجوة جزئياً إلى عدم التواصل بين علماء التربية وبين علماء الأعصاب، كما قد يفسرها كذلك حداثة هذه المعلومات في بعض المجتمعات. إذا أضفنا إلى هذا، صعوبة توافر الإمكانيات التي تعين على إجراء الدراسات عبر التخصصية، قد نستطيع تفسير الأمر تفسيراً مقبولاً.

وتقدم ساره بلاكمور<sup>(1)</sup> Sarah J. Blackmore تفسيرها لمعوقات هذا الفهم عبر التخصصي بين التربية وبين علم الأعصاب، ببعض القصور الذي يخص علم الأعصاب والباحثين فيه؛ فقد يكون ظهور النتائج ونقضها في آن واحد من أسباب عدم الثقة في الحقائق التي تم التوصل إليها. رغم أن ذلك يمثل جزءاً لا يتجزأ من نمو المعرفة العلمية. كذلك فإن القول إننا لا نستخدم غير نسبة محددة من خلايا المخ كما سبق أن أشرت (بين 5% و10%) يقدم الدلائل العلمية القوية على صحة هذا القول. وتضيف إلى هذا بعض ما كشفت عنه بعض الحالات التي تعرضت لإصابات بالغة في المخ، ومع ذلك استطاعت أن تحيا حياة أقرب إلى الطبيعي. لا يؤودي ذلك إلى إعادة النظر في هيمنة المخ على سلوك الفرد؟!

غير أن هذه النتائج - على اختلافها عن المتوقع - قد تطرح العديد من القضايا الجديدة والجديرة بالبحث، مثل درجة الرجوعية واستعادة الحيوية<sup>(2)</sup> resilience التي يتمتع بها المخ، وقدرته على تعويض وظائف الأماكن المصابة، وكذلك حدود هذه القدرة، وطبيعة الإصابة التي تعرض لها المخ.

### ١- تعلم الكلمات والأعداد في الطفولة المبكرة:

هل اللغة فطرية؟ قد يجيب عن هذا السؤال القديم بـ (نعم) و (لا) في نفس الوقت، فهي ليست فطرية؛ بدليل وجود العديد من اللغات التي تتباين في صعوبة تعلمها، غير أن هناك عدد من القواعد المجردة التي تشتراك اللغات جميعها في التأثير بها. ومعنى ذلك أن القدرة على تعلم اللغة الأم فطرية، فالطفل ينتبه إلى الكلام وغالباً ما يفعل ذلك كل الأطفال، ثم مع تدرجه في النمو يستطيع أن يتكلم اللغة التي شُبّ عليها بيسير ودون جهد، وقد يتفاوت الأطفال بين بعضهم البعض في سرعة التعلم.

**لكن كيف يستطيع المخ الذي مازال في عملية نمو أن يكتسب اللغة الأم؟**

هناك أدلة على أن تعلم الأصوات للغة الأم يبدأ في الرحم، فاللأطفال حديثو الولادة يستطيعون التمييز بين الجمل التي تنطق بلغة آبائهم، وبين الجمل التي تنطق بلغة أخرى. فقد أشارت الأبحاث إلى أن الطفل بعد ولادته بأيام قد يستجيب لسماع نطق حرف ما بفتح فمه، كمن يحاول تقليد نطق الحرف، كما لو أنهما مبرمجين على تقليد الأصوات التي يستمعون إليها، حتى قبل

(1) هي سارة جين بلاكمور، الباحثة في معهد علم الأعصاب المعرف بجامعة لندن، وقد شاركت في أبحاث عن نمو المخ في مرحلة المراهقة، وفي الإدراك الاجتماعي لدى طفل الأوتيريم. كما شاركت في الحوارات التي دارت عن السن المناسب لبدء التعليم الرسمي في المدارس في المملكة المتحدة عام 2000.

(2) إن مصطلح resilience من المصطلحات الخالقية التي لم يستقر المختصون على ترجمتها، فهي تقترب في معناها من مفهوم اللياقة، إلا أن هذا المعنى يصدق على الجانب الجسدي من الفرد. لذلك تعرفه صفاء الأعسر بأنه (الصمدود)، ولكننا أكثر ميلاً إلى تعريفه بمصطلح الرجوعية، أو القدرة على استعادة الحيوية.

معرفتهم بأى شيء. وفي تجربة قام بها الفريق الفرنسي في باريس، بعمل مسح على مخ الأطفال في عمر ثلاثة شهور، أثناء نومهم واستمع لهم إلى الكلام، كشفت الأبحاث أن الأماكن التي تم إثارتها في مخ هؤلاء الأطفال هي نفس المناطق التي تستثار في مخ الناضج عند استماعه إلى كلام بلغته الأم. ومعنى هذه النتائج أن تنظيم المخ ليس من الضروري أن يتاخر سنوات لكي تتراءم الخبرات، بل إن ميكانزم العملية ي العمل بالفعل، فكأن مخ الأطفال حديثو الولادة مهياً لكي يتعلم ويفهم اللغة في سن صغيرة للغاية.

وتعلم اللغة يحتاج إلى تصنیف للأصوات التي تؤلف اللغة، وهو ما يسمى بوحدة الكلام الصغرى، التي تميز نطق كلمة عن أخرى (phonemes) ، وكما تذكر بلاكمور أن الأطفال حديثو الولادة يستطيعون التمييز بين كل أصوات الكلام، فالأطفال أكثر حساسية من الكبار للأصوات التي تميز بين كلمة وأخرى. وهو يشبه اكتشافات العلم فيما يخص قدرة الأطفال على التمييز الدقيق بين الوجوه؛ حيث لا يستطيع الناضج أن يميز بين وجوه الشمبانزي التي تتشابه كثيراً، يستطيع الأطفال أن يقوموا بهذا العمل على مدى السنة الأولى من حياتهم. ومع نهاية العام الأول يبدأ الطفل في فقد هذه القدرة على تمييز الأصوات التي لا يتعرضون لها.

فقد أشارت التجارب على اليابانيين بصفة عامة، أنه لا يمكنهم التمييز بين الحرفين L ، k ، غير أنه بدراسة الأطفال حديثي الولادة اليابانيين، من حيث قدرتهم على التمييز بين هذين الحرفين، اتضحت قدرتهم على التمييز بينهما حتى الشهر العاشر من عمرهم. أما الأطفال اليابانيون الذي نشأوا في الثقافة الأمريكية، فقد كانت لديهم هذه القدرة على التمييز بين هذين الحرفين؛ ذلك أنهم في تعلمهم للغة الإنجليزية يتعرضون دوماً لهذين الحرفين. وقد يذكّرنا هذا بما سبق أن أشرنا إليه في حديثنا عن الفترات الأكثر حساسية لتعلم مهارة ما في حياة الطفل، والتي تعمل باعتبارها نافذة للتعلم. وبعد هذه الفترة قد تغلق هذه النافذة ويصعب استرجاع ما لم يتم تعلمه. لكن في تعلم اللغة، قد يكون الاتصال مع من يتحدثون اللغة أحد العوامل التي تدفع إعادة تعلم اللغة بعد انتهاء الفترة الأكثر حساسية لتعلمها. وقد يتصل هذا بتعلم الطفل للغة الثانية، وقد لا توجد هذه المشكلة في المجتمع الغربي حيث يتعلم الطفل باللغة الأم. أما في مجتمعات أخرى قد يتبعن على الطفل تعلم لغة مغایرة للغة الأم، ولاشك أن بداية ذلك مع السن الصغيرة قد يؤدي إلى التوافق الجيد مع اللغتين. أما الطفل الذي ينشأ منذ البداية في منزل يتحدث باللغتين، فقد يؤدي هذا إلى التأخير في اكتساب اللغة الأم. ولعل في هذا ما يجيب عن تساؤلات علماء التربية عن صحة التعلم في مدارس اللغات في مرحلة رياض الأطفال باللغة الإنجليزية المغایرة للغة الأم في المجتمع المصري.

فضلاً عن هذا، فقد أشارت الدراسات إلى أن تعلم اللغة الثانية بعد سن العاشرة قد يؤثر على اكتساب اللهجة (accent) بالسلب، أي يعوق تعلم اللهجة تعلمًا صحيحاً، وأن الكثير من التدريب لعدة سنوات قد يساعد على تحسينها، ولكن بدرجة قليلة.

ومن الملاحظ أن الأطفال قبل نطق أي من الحروف، يبدأ بما يعرف بالمناغاة (babbling)، ومن الدراسات على الأطفال ذوي الإعاقة السمعية، للتعرف على قدرتهم على هذه المناغاة، قمت المقارنة بين عينة من الأطفال الصم لآباء صم، وبين عينة من الأطفال العاديين لآباء عاديين، في السن من 10-14 شهراً. وقد كشف البحث عن أن الأطفال الصم يقومون بنفس المناغاة التي يقوم بها الطفل العادي، لكن باستخدام الأيدي. وفي دراسة حديثة 2004 للباحثين ذاتهم، وجدوا أن الأطفال العاديين لآباء صم يقومون بعمل هذا التبديل بالأيدي. وذلك يعني أن المناغاة هي جزء من تعلم اللغة، ولا يهم هنا ما هي اللغة، وهي علامة واضحة على أن الأطفال يكتشفون كيف يستقبلون اللغة الأم؛ سمعياً أو بصرياً.

ومع نمو الطفل يبدأ في تعلم الكلمات، وبين الثامنة عشر شهراً والعامين يستطيع الطفل أن ينطق بعض الكلمات القليلة، ثم يتسارع نمو هذه الكلمات، ثم الجمل ذات المقطاع، حتى يصل إلى سن الخامسة من العمر ولديه حصيلة جيدة. وتستمر القدرة على تحصيل كلمات جديدة مدى الحياة، ومع تزايد كلمات الطفل التي يستخدمها، يبدأ في الجمع بينها مؤلفاً جملًا. وهو في هذا في حاجة إلى أن يطور بعض الاستخدام لقواعد اللغة. وقد ثبت من الإشارة إلى أنواع الذاكرة، أن تعلم قواعد اللغة يخضع للذاكرة الضمنية، وليس للذاكرة المعلنة الواضحة، حيث يكتسبها الطفل من المحيطين وحديثهم معه، وليس من خلال التعليم الواضح المعلن. غير أن الأطفال يختلفون في تعلمهم لقواعد، وقد يخفق بعضهم في تعلمها، وقد أشارت الدراسات إلى أن بعض الأطفال قد يفشلون في تعلم القواعد؛ بسبب قصور في المخ.

## 2- تعلم القراءة والكتابة وإمكانات المخ:

بعد تعلم اللغة المنطقية، يبدأ تعلم اللغة المكتوبة. فكل من القراءة والكتابة، تقوم على أساس النطق الجيد للغة أولاً. وتقسيم الحروف إلى فئات، وتعلم حروف اللغة يتضمن الانتباه إلى صوت هذه الحروف، وقد أجرى بيتر بريانت (Peter Bryant) في جامعة أكسفورد، وهو عالم نفس، أجرى دراسته وخلص منها إلى أن أطفال الحضانة يستمتعون بهذه المرحلة وما تضمه من أغانيات منغمة، وقد أرجع هذا إلى وجود الوعي الضمني للأطفال بالصوت والنغمة أو الإيقاع (rhythms) للغة المنطقية. وحتى لو حاولت أن تستبدل إحدى الكلمات في أغنية يتعلمونها الطفل بكلمة أخرى تؤدي نفس المعنى لكنها لا تتفق في النغمة، فإنه يبادر بتصحيحها على الفور حسب ما تعلمها. فأغانيات مرحلة الحضانة لطفل الثالثة من العمر هي الأسهل في تعلمها؛ لأنها منغمة، ويصعب نسيانها حتى بعد ذلك بكثير جداً.



وبمقارنة اللغات ببعضها في بحث بجامعة لندن، وجد أن اللغات الأخرى لا تتضمن الإيقاع كما تتضمنه اللغة الإنجليزية. غير أن ذلك لا يعني أن الإيقاع ضروري جدًا لتعلم الكتابة والقراءة، لكنه قد يكون علامة على مساعدة جهاز الكلام على النضج. أما تعلم الحروف والأصوات فيبدأ معًا لدى الطفل، ولا تستطيع القول أيهما بدأ قبل الآخر؛ إذ إن تنمية القراءة بالإسراع في رفع الوعي بالصوت بدون وجود الحروف، يبدو أمرًا مشكوكًا فيه. لكنه ليست هناك حتى الآن دراسات تكشف عن قدرة المخ على العملية التي تحكم عملية الت椿يم، والوعي بالصوت، والانتباه إلى شكل الحروف، ومهارة القراءة والكتابة، لكنه قد يكون في حالة وجودها ما يساعد على إلقاء الضوء على الأساس الذي يحكم هذه العمليات في المخ.

وفي الأبحاث والدراسات التي أجريت لتصوير المخ لدى الكبار؛ لاختبار مهارات الت椿يم، فقد كشفت نتائج التصوير أن المناطق التي نشطت في المخ استجابة للأسئلة الخاصة بال椿يم والإيقاع، هي جزء من النظام الذي يستخدمه المخ في تعلم القراءة والكتابة واللغة بصفة عامة. كما أن هذا الجزء أيضًا ينشط عندما تحاول تذكر مجموعة من الأصوات تعلمتها، أو رقم تلفون. ومن ثم فإن جزءًا كبيرًا من نظام المخ في تعلم اللغة يبدو أنه مشارك بدرجة كبيرة في تعلم الأصوات. وفي الصم، فإن الجزء الخاص من المخ بتعلم اللغة، المسئول عن عملية الكلام، لا يستجيب للأصوات، بل يستجيب للإشارات، وهي لغة بلا أصوات.

أما في تعلم الكتابة فقد ثبت من الدراسات أن الطفل الذي تنمو مهارة الحكى لديه، يستطيع أن يقرأ ويكتب أسرع من غيره الذي لم تتطور هذه المهارة لديه. ولتعلم الكتابة فإن الطفل في حاجة إلى أن يكون لديه مهارة ضبط حركة الأصابع. والجزء الحركي (motor cortex) المسئول عن هذا الضبط في المخ لا يتم نضجه إلا مع نهاية السنة الخامسة من عمر الطفل، ويكون الأطفال الذكور أبطأ من الإناث في هذا؛ لذلك يتفاوت الأطفال في تعلمهم الكتابة، وغير معروف حتى الآن مدى تأثير التدرب على ذلك في تحسين مهارة الكتابة.

فمن المعروف أن بعض الأطفال لديهم بعض الصعوبات الجامحة، وقد تكون نتيجة لعدم كفاءة المخ في عمل التآزر، وهو ما يسمى خلل التآزر الحركي (dyspraxia)<sup>(1)</sup>، وتبدو في عدم قدرة الطفل في التعامل مع الأزرار، والإمساك بالقلم بطريقة صحيحة، ودفع الكرة والتقطها، ثم في بعض الحركات الآلية للجسم.

وماذا عن اللغة وعلاقتها بالمخ؟ فاللغة المكتوبة تؤدي إلى وجود عالم جديد من الأشياء والرموز والحرروف التي ترتبط بقوة بصوت الكلام. وعن تأثير هذا التعلم على المخ، فقد كشفت الدراسات

(1) وتعرفه ذخيرة علم النفس بأنه عطب التنسيق أو عطل تنسيق الحركات أو تلف جزئي للقدرة على أداء حركات المهارة، دون وجود عيب في الجهاز الحركي يقترب به.

المتخصصة أن المخ المتعلّم يختلف عن المخ غير المتعلّم، وقد يؤدّي هذا إلى القول إن المخ المتعلّم قد نظم بصورةٍ تختلف عن المخ غير المتعلّم. ومن خلال عدد من الابحاث التي قام بها عالم النفس لوز كاري (L.Cary) وزملاؤه على عينتين من البرتغال من المجتمع الريفي، تعرضت إحداهما للاستفادة من فرصة التعليم، مع بقائهما في مجتمعها الريفي، في مقابل عينة أخرى من نفس المجتمع لم تحظ بفرصة التعليم. وقد استخدمت هذه التجارب اللغة المنطوقة أحياناً، والصور أحياناً أخرى. وكشفت النتائج عن قدرة العينة المتعلّمة على فهم اللغة أكثر من العينة غير المتعلّمة. كما أن العينة المتعلّمة كانت أكثر تعرضاً على نطق الكلمات الصماء، من العينة غير المتعلّمة التي كانت تردها دائماً إلى الكلمات ذات المعنى. وفي دراسة أخرى على كبار السن من هذا المجتمع، ومع استخدام تصوير نشاط المخ أثناء التعامل مع الكلمات المنطوقة والمكتوبة، كشفت عينة غير المتعلّمين عن نشاط شديد في الفصوص الأمامية من المخ، في حالة إعادة الكلمات الصماء. أما في العينة المتعلّمة، فقد كان نشاط المخ واضحاً في الفص الصدغي، وهي المنطقة المخصصة لعمليات اللغة، وهذا يرتبط بأن العينة الأخيرة تنظر إلى الكلمات الصماء باعتبارها أمراً ممكناً، لكنها ليست كلمات حقيقة. أما عينة غير المتعلّمين فقد تعاملوا مع الكلمات الصماء باعتبارها كلمات حقيقة بل كانوا يردونها إلى المعروف من الكلمات ذات المعنى. ومن ثم اختلفت المناطق التي تستثار في المخ لدى العينتين على العمل الواحد، وهو دلالة على أن المخ المتعلّم يختلف في استجابته عن المخ غير المتعلّم.

وفي عدد من الدراسات على نشاط المخ، والمناطق المثارة فيه، واختلافها باختلاف اللغة التي تم بها التعلم، كشفت الدراسات أن هناك تباينات ردها الباحثون إلى اختلاف اللغات. في دراسة مقارنة عن طبيعة وكم الجهد الذي تتطلّبة اللغة الإنجليزية التي لا يتواافق نطق الكلمة فيها مع كتابتها، والجهد العقلي الذي يتطلّبه التعلم باللغة الإيطالية التي يتواافق فيها نطق الكلمة مع كتابتها، قامت التجربة على اختبار أداء عينتين إحداهما تعلّمت باللغة الإيطالية والأخرى تعلّمت باللغة الإنجليزية، وقد طلب إليهما نطق بعض الكلمات بلغة كل منهما. ومع تصوير المخ، فقد كشفت النتائج عن تمايز في المناطق المسؤولة عن نظام القراءة في المخ. ويكون هذا النظام من الجزء الأمامي من الفصوص الأمامية، وهو منطقة بروكا (Broca)، وجزء في منتصف القشرة الجدارية الصدغية (parietotemporal cortex)، وتضم منطقة رينيك (Wrenicke's area)، والثالث في مؤخرة الفصوص الصدغية. غير أن الاختلاف بين العينتين كان في أكثر المناطق الثلاث نشاطاً أثناء قراءة الكلمات، وقد اختلفت هذه المناطق باختلاف اللغة المتعلّمة.

ولعل هذه النتائج التي تخص توضيح مناطق نظام القراءة في المخ، يفسّر لماذا يختلف الأفراد في قدراتهم على استخدام اللغة بعد إصابتهم في النصف الأيسر من المخ، الذي غالباً ما يحدث بفعل حدوث الجلطة. فقد يفقد بعضهم القدرة على الكلام تماماً، وقد يفقد البعض الآخر القدرة على

القراءة والكتابة. كما يمكن أن يفسر من جهة أخرى ماذا تعنى صعوبات القراءة لدى بعض الأطفال، رغم قيام مستواهم العقلي، وهو ما نتناوله فيما يلى.

### 3- التعلم و صعوبات القراءة (Dyslexia):

قد يعاني بعض الأطفال من صعوبة القراءة حتى بعد التدريب والمران عليها، وهؤلاء الأطفال يواجهون صعوبات شديدة في القراءة، في الوقت الذي يكتشفون فيه عن قدرات متميزة في المهام الأخرى. وهذه الظاهرة شائعة، وتمثل 5% من مجموع الأطفال مثلاً في المملكة المتحدة، وتنتشر في الأسر. وقد عرف الآن عنها أن لها أساساً في المخ، وأن لها أساساً في الجينات. وكما سبق أن أشرنا إلى أن اللغة المكتوبة هي التالية والمعتمدة على اللغة المنطقية، ويعد الكلام أول عائق لتعلم القراءة والكتابة؛ إذ إن الكثيرين من ذوي صعوبات القراءة يكون لديهم صعوبات في اللغة المنطقية وفي الذاكرة اللغطية. فهم لديهم مثلاً صعوبات في تذكر وتكرار كلمات جديدة، لكن ليس لديهم مشكلة في فهم الكلمات. كما يعاني هؤلاء الأطفال كذلك من نقص الانتباه، وبعضهم قد يكون لديه مشكلة قصور النظر، والخلط بين شكل الحروف، والبعض أيضاً قد يكون لديه مشكلة في السمع، والكثير منهم قد يكون لديه مشكلات التأثر الحركي، فتوجد لديه صعوبة الإمساك بالقلم بالطريقة الصحيحة. ويتساءل الباحثون: إلى أي مدى ترتبط هذه الظواهر جميعاً، وإلى أي مدى تعد هذه الظواهر أسباباً لحدوث صعوبات القراءة؟

أجابت الدراسات الحديثة التي قام بها فرانك راماس Franck Ramus ويوتا فريث Uta Frith، والزملاء في جامعة لندن على فحص هذه المشكلة بالنفي. فقد أكدت هذه الدراسات على أن هذه الظواهر التي ارتبط وجودها بوجود صعوبات القراءة ليست هي السبب، فلم تكن هناك فروق بين الأطفال ذوي صعوبات القراءة الذين يعانون من هذه الظواهر، وبين ذوي صعوبات القراءة الذين لا يعانون من هذه الظواهر. وقد كشفت دراسات راماس أن كل الأطفال في الأغلب الذين يعانون من صعوبات القراءة سواء كانوا أطفالاً أو ناضجين، لديهم صعوبات في النظر. وقد تعلم الناضجون القراءة بدقة، ولكن ببطء في مقارنتهم بالآخرين. ويساعدة طرق التدريس المعاونة، تمكن هؤلاء الأطفال من تحقيق نصر كبير في التغلب على هذه الصعوبة، في وجود الرغبة القوية للقراءة، ومع وجود المعلم الجيد. وتظل القراءة بطيئة ومصاحبة ببذل الجهد، وتظل هناك أخطاء في الهجاء، أما الذاكرة اللغطية، والقدرة على التكرار، وتعلم الكلمات الجديدة - فإنها تتطلب ضعيفة، وهو أمر متوقع من فرد يعاني من صعوبة لها أساسها في المخ.

غير أن هناك فروقاً فردية بين الأطفال الذين يعانون من صعوبات القراءة حسب نقاط القوة والضعف لدى كل منهم؛ فقد يتتفوق بعضهم في أعمال الفن والإبداع والحاسب الآلي، ولذلك لا بد من بذل الجهد في مساعدة الأطفال ذوي صعوبات التعلم على تقوية ما لديهم من مواهب.

وحتى الآن ليس هناك علامات بيولوجية مميزة لدى هؤلاء، في اختبار الدم أو في اختبار الجينات. ومع ذلك فإن فهم وظائف المخ التي تحدد وتشكل أساساً لحدوث صعوبات القراءة، سوف تسمح للباحثين بالقيام بتشخيص أفضل للأطفال، حيث يمكن أن يتلقى الأطفال ذوى الجينات المنذرة بالخطر تدخلاً مبكراً يساعدهم على القراءة، قبل الوصول إلى المراحلة التي يجب أن يتعلم فيها القراءة.

ولاشك أن المدرس الجيد لابد وأن يكون واعياً بالفترة التي يكون فيها تغذية الدافعية لدى الطفل أمراً مهماً، فيكون على دراية بالطرق المبتكرة التي تجعل من تعلم الدرس أمراً يستحق المكافأة قدر الإمكان. ويفضل أن تكون البداية قبل تكون المشاعر الرافضة لعملية القراءة والكتابة؛ لذلك فإن اتجاه "انتظر لترى" ليس أمراً مفضلاً، والبداية المبكرة أفضل كثيراً.

والوراثة تلعب دوراً مهماً في صعوبات القراءة، وذلك بنسبة تراوح من 25-50% بين هذه الحالات. ويعتمد تشخيص صعوبات القراءة على أن يكون أداء الفرد على اختبار القراءة أقل كثيراً من أدائه على اختبار القدرات المعرفية الأخرى، أو اختبار القدرة العامة؛ حيث إن عدم قدرة الطفل على القراءة أو الهجاء ليس كافياً لتشخيص إصابته بصعوبات التعلم؛ لأنه في غياب الملامح البيولوجية، لابد من الاعتماد بشدة على ما يتم ملاحظته من أعراض؛ حتى يتتوفر لدينا من نتائج دراسات المخ ما يساعد على التشخيص الأكثر دقة.

وقد كشفت أبحاث ماجي سنولنج Snowling - من جامعة يورك في إنجلترا - عن وجود صعوبات السمع لدى الأطفال ذوى صعوبات القراءة، فهولاء الأطفال والبار منهم يجدون صعوبة في تصنيف الأصوات في اللغة. ويعتقد الباحثون أن لهذا الاضطراب في الأصوات الكلامية علاقة بوجود شذوذ طفيف في نمو المخ، كما يرتبط مباشرة بضعف التعلم في كل من اللغة المنطوقة والمكتوبة. وترى سنولنج أنه في مرحلة الحضانة يمكن اكتشاف الأطفال ذوى صعوبات التعلم، وذلك عن طريق تحديد تأخرهم في نمو الكلام، فهولاء الأطفال يكتسبون أسماء الكلمات أبطأ من غيرهم من الأطفال، وفي سن الثالثة والرابعة يكون تذكرهم للكلمات ضعيفاً. وقد يعزى البعض هذا الأداء إلى ضعف في الاستثنارة، إلا أن هذا الأمر غير وارد هنا؛ حيث إن هؤلاء الأطفال يأتون من بيئات مليئة بالإثارة، ولديها التعود على وجود الكتب والتشجيع على التعلم.

#### 4- صعوبات القراءة ودراسات المخ:

قام نورمان جيشويند Norman Geschwind - عالم الأعصاب - بدراسة أسباب حدوث فقد المفاجئ لمهارات الكتابة والقراءة لدى مصابي الجلطة، ولدى هؤلاء الناضجين الذين يعانون من صعوبات القراءة دون التعرض لإصابة المخ. ولقد أفاد في دراساته المعملية على ذوى صعوبات القراءة الذين توفوا وتبرعوا بمخ للدراسات العلمية، وانتهى منها إلى أن حجم السطح الصدغي (planum temporal) في المخ يكاد يكون متباوياً في نصف المخ، والطبيعي أن يكون هذا الجزء في



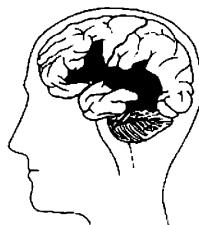
النصف الأيسر أكبر حجماً. ولقد أدت هذه الحقيقة إلى القول إن صعوبات القراءة هي مشكلة في المخ أساساً، وقد يتضمن هذا حالات صعوبة القراءة المكتسبة (acquired dyslexia). ويطلق هذا اللفظ على وصف مشكلات القراءة التي تظهر بعد تعرض الفرد لإصابة المخ. ولقد وجد عالم الأعصاب الجلابوردا (Al Galaburda) - في جامعة بوسطن - أن المجموعات الصغيرة لخلايا الأعصاب في المخ ذي صعوبات القراءة، ليست في مكانها الصحيح؛ حيث إنه أثناء نمو المخ تتجلو بعض الخلايا فوق سطح الطبقة العليا من القشرة المخية (cortex)، وترى كأنها ندبات متناهية الصغر، ومثل هذه الندب تكون شائعة في المناطق الصدغية الوسطية medieval temporal regions ، وهي مركز نظام القراءة في المخ، الذي يشارك في عمليات الكلام. وقد يكون لهذه الندبات علاقة بحدوث صعوبات القراءة، بالإضافة إلى اضطرابات الرؤية والسمع والحركة.

وقد أظهرت دراسات تصوير المخ حقائق أخرى عن المخ ذي صعوبات القراءة، ومن أهم هذه النتائج أن الطبقة البيضاء التي توجد تحت سطح المخ، وتضم كل الأنسجة المغطاة بالنخاع (myelin-covered fibers)، التي تربط بين الأعصاب معاً - أقل كثافة في هذا المخ الذي يعاني من صعوبات القراءة، عن المخ العادي. وقد يرجع ذلك إلى ضعف الارتباطات بين الأجزاء الثلاثة المكونة لنظام القراءة في المخ. فضلاً عن هذا، فقد كشفت الدراسات أيضاً على ذوي صعوبات القراءة من الناضجين أنه أثناء القراءة، يكون نشاط الأجزاء المكونة لنظام المخ ضعيفاً؛ ومن ثم فإن ذلك ينعكس على محاولة علاج هذه الحالات وتعليمها القراءة، وليس هناك حتى الآن العلاج الحاسم، لكن حالات صعوبات القراءة يمكن تحسينها إلى درجة كبيرة. فإذا ثبت أن الحالة لها علاقة بوجود صعوبة عملية الفونيم وارتباطها بالهجة - فمن المتوقع أنهم لا يتعلمون بالطريقة العادية التي يتعلم بها الأطفال العاديون؛ فهم في حاجة إلى تعلم خاص بهم. فقد استخدم المدرسوون لفترة طويلة التعليم البطيء مع هؤلاء الأطفال، وقد أدى إلى نتائج ناجحة في تحقيق الربط التدريجي بين الحرف والصوت. ولابد وأن يعاد عدة مرات للتأكد من وجود هذا الرابط، ثم يتم الانتقال إلى مرحلة أخرى، وهي تهدف إلى تكوين واستقرار القاموس الداخلي لدى الفرد لشكل الكلمات المكتوبة، حيث يتم الارتباط بين الكلمة المنطقية وبين شكل الكلمة المكتوب. قد يكون ذلك صعباً في بعض اللغات، مثل اللغة الإنجليزية؛ حيث إن الكلمات تحفظ، أما في اللغات الأخرى مثل اللغة الإيطالية مثلاً - وفي اعتقادى اللغة العربية أيضاً - يكون الأمر أكثر سهولة. وهناك العديد من البرامج الناجحة في هذا الصدد غير أن جميعها يؤكد على الربط التدريجي بين الحرف والصوت، وي يكن الاستعانة ببرامج الكمبيوتر لتعليم هؤلاء الأطفال.

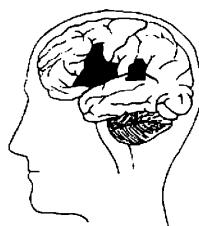
ومن خلال دراسات المقارنة بين ذوي صعوبات القراءة، الذين تحسنوا إلى درجة كبيرة، وبين الذين لم يحققوا درجة متميزة من التقدم، على نشاط المخ أثناء القراءة لدى عينة من الناضجين -

خلصت الدراسات إلى أن المخ في العينة التي حققت تقدماً كبيراً في القراءة، كانت المنطقة الخاصة بنظام القراءة تنشط أثناء فعل القراءة. أما في العينة الثانية التي لم تحقق تقدماً كبيراً فإن المنطقة الخاصة بالذاكرة هي التي تنشط أثناء فعل القراءة. فضلاً عن هذا، فإن العينة التي حققت تقدماً كبيراً قد كشفت عن استخدامها للجزء الخاص بالفص الجداري (parietal lobe) في النصف الأيمن، تعويضاً عن استخدامه في النصف الأيسر. وبصفة عامة، فقد أثبتت البرامج العلاجية التي تقوم على تكرار الكلمة والربط بينها وبين صوت الحروف تقدماً في علاج صعوبات القراءة لدى الناضجين، مما يكشف عن طباعية المخ للتغير.

والشكل التالي يوضح المناطق التي تستثمار في المخ في عملية القراءة، بين المصابين، وذوى صعوبات القراءة والأسياء.



نظام القراءة في المخ السوى



نظام القراءة في المخ لذوى صعوبات القراءة

(Blackmorr, 2005, 106)

#### 5- تعلم الأعداد وعمليات الجمع:

بناء على ما أشار إليه بياجيه، فإن الطفل لا يستطيع أن يقوم بأعمال رقمية حتى السنة الرابعة أو الخامسة من العمر، وذلك بناء على نتائج الأطفال على اختبار حفظ الأرقام (conservation test)، وخلص منه إلى أن الطفل يرى أن الرقم يعتمد على الحجم. وقد كان لنظريات بياجيه الكثير من التأثير على التعليم في المجتمع الغربي. وغالباً ما يفترض أن تعليم الرياضيات قبل سن ست سنوات للطفل يقوم على مجرد الحفظ، بدون فهم للمفاهيم التي يتعامل معها.

وقد كشفت الدراسات التي قامت لاختبار نظرية بياجيه في تعلم الطفل للأرقام - ومنها دراسات جاكس ميهلر Jacques Mehler عالم النفس المعرف في جامعة بوسطن - عن أن طفل



الثالثة من العمر يستطيع أن يتعامل مع المفاهيم ضمنياً، لكنه لا يستطيع التعبير عن ذلك؛ ومن ثم فإن اختبار قدرة الطفل على حفظ الأرقام قد تتوارد في الذاكرة الضمنية، غير أن ذلك في حاجة إلى المزيد من الدراسات لاختباره.

غير أن هناك من الدراسات الحديثة على الأطفال ذوي الأشهر الذين لم يكملوا عامهم الأول بعد، كشفت عن أنهم يستطعون أن يتعاملوا مع الأرقام، ولديهم الفهم عن عملية الجمع والطرح. فقد قامت كارين واين Karen Wynn من جامعة بيل، بدراسة على أطفال ذوي الشهور الخمسة، وكشفت عن أن لديهم الفهم لعملية الجمع والطرح. فقد تضمنت التجربة إظهار إحدى العرائس للأطفال، ثم بعد ذلك قامت بإخفائها وراء الساتر أو الشاشة، ثم أظهرت لهم لعبة أخرى، وبعدها قامت بإخفائها وراء الساتر أيضاً، ثم بإزاحة الساتر، كشفت لهم لعبة واحدة من اللعبتين. وقد قدرت استمرار تركيز الأطفال على الساتر بعد إظهار اللعبة الأولى بمعرفتهم بأن هناك لعبة أخرى ينتظرون ظهورها، وهو ما فسرته بأن ذلك يعني أن الأطفال لديهم مفهوم الجمع. غير أن هذا القول بوجود هذه المفاهيم لدى الأطفال الذي لم يبلغوا من العمر إلا شهوراً - وهو عكس ما أشار إليه بياجيه - يحتاج إلى المزيد من الدراسات لاختباره.

ولقد فسر عالم النفس العصبي الفرنسي ستانيسلاس ديهان Stanislas Dehaene سر وجود هذه الظاهرة لدى الأطفال حديثي الولادة، بأن المخ قبل الولادة يستطيع - من خلال الضبط الجيني - أن ينمي نموججاً مخصصاً للأرقام، مثلما يكون المخ حديث الولادة مجهزاً بنظام بصري، قبل تعرضه للإثارة البصرية، ومن ثم فإن المخ قد يكون مجهزاً بأدلة لنظام الأرقام. ولكن هذا التفسير في حاجة للدراسات التي تثبته؛ إذ إن ذلك قد يفسر - في نفس الوقت - سبب وجود ظاهرة صعوبات الحساب (dyscalculia) لدى بعض الأفراد على ندرتهم.

#### 6- تعلم المخ للرياضيات:

لقد درس علماء المخ كيفية قيام العقل بالعمليات الحسابية، ووجدوا أن هناك مناطق مختلفة في المخ تختص بالعمليات الحسابية وعمليات التخمين. فقد كشف مرضى إصابات المخ الذين فقدوا فجأة مهاراتهم الحسابية، الكثير من المعلومات عن هذه العمليات. ولقد ألمت هذه الدراسات الضوء على الفروق بين نصف المخ في ضوء الفروق الجنسية، وقد أشارت الدراسات على ذوى إصابات المخ أن الفص الجداري الذى يشارك في عملية رؤية الأشياء وتذكرها، يرتبط كذلك بمعرفة الأرقام والعمليات الحسابية. فمنذ الثمانينيات من القرن العشرين، يدرس ستانيسلاس وزملاؤه المصابين في المخ، وقد خلصوا إلى أن هناك العديد من المشكلات الحسابية التي يمكن أن تظهر نتيجة الإصابة في بعض المناطق في المخ. ومن أمثلة هؤلاء المرضى من أصيب في النصف

الأيسر من المخ، وبالتالي في الجهة اليسرى من الفص الجداري. وعلى أثر هذه الإصابة، أصبح بالكثير من الأعاقات، ومن بينها مشكلات حسابية عميقة، مثل عدم القدرة على إجراء العمليات الحسابية البسيطة، (مثل  $2+2=4$ )، بالإضافة إلى فقد القدرة على إدراك الأرقام، غير أنه يؤدي بنجاح الاختبار الخاص بأسماء الأرقام ، ولكن بعد العد من 1 حتى يصل إلى الرقم المطلوب، كما استطاع أيضًا المفاضلة بين الأرقام (الأكبر والأصغر). واستخدام التقرير في إجاباته؛ كان يجيب عن سؤال عن عدد ساعات اليوم بـ 22 ساعة تقريبًا، وأن عدد أيام السنة 350 تقريبًا. ورغم أنها غير صحيحة، لكنها قريبة من العدد الصحيح. ومن هذه الدراسات خلصوا إلى أن مناطق إجراء العمليات الحسابية تكون في النصف الأيسر من المخ، غير أن هناك مشاركة من النصف الأيمن من المخ في حل المشكلة، كما حدث في التقرير.

فضلاً عن هذا، فقد كشفت الدراسات عن أن الإدراك المكانى يرتبط بالقدرات الرياضية، فهذا الفص الجداري يقوم بعملية التمثيل المكانى للأشياء، وهى ضرورية في الحياة اليومية، للحصول على الأشياء، وفى توجهنا المكانى في البيئة. ويرتبط التمثيل المكانى بالرياضيات؛ ولذلك ترتبط الرياضة بالهندسة، ولقد كشف الأفراد عن الارتباط - بدرجة عالية - بين القدرة الرياضية، وبين القدرة المكانية على اختبارات الاستعداد، لكن ذلك لا يمنع من وجود بعض الأفراد الذين لا يتواجد لديهم هذا الارتباط، إلا أن ذلك ما زال في حاجة للدراسات التي تكشف عن أسباب ذلك.

وعلى الرغم من سيادة الاعتقاد بأن نصفى المخ يختص كل منهما بأنواع محددة من أنماط التفكير، وأن نمط التفكير الشائع لدى فرد ما يعني هيمنة أحد نصفى المخ على تفكيره - فإن الدراسات الحديثة على المخ تشير - بوضوح - إلى عدم صحة هذه المعلومات. فكلا النصفين يشتركان في أي عمل عقلى، فقد يقال إن التعليم يرتبط بننمط التفكير الذى يخص النصف الأيسر التحليلي، المنطقي، الدقيق، فى مقابل التفكير الحسى، الإبداعى، الانفعالى والذاق، الذى يخص النصف الأيمن من المخ. ولتشجيع عملية التعلم، فإن ذلك يتضمن الكثير من المهام المختلفة والمهارات. وتقول بلاكمور إنه من الصعب تقسيم هذه المهام على المخ الأيمن والمخ الأيسر؛ فقد ثبت من الدراسات العلمية أن الأفراد الذين فقدوا النصف الأيمن من المخ لا يعدمون تماماً القدرة على الإبداع، وأن الأفراد الذين يفقدون النصف الأيسر من المخ - رغم معاناة الغالبية منهم من معرفة اللغة - يكونون قادرين على التفكير التحليلي. فاللغة توجد في حوالي 67% من الأفراد في النصف الأيمن، ومن ثم فإن القول إن التعليم يتتأثر بما إذا كان الفرد من ذوى النصف الأيمن أو النصف الأيسر، فذلك أمر ما زال محل نقاش حتى الآن. ويعتقد متخصصو العلوم العصبية أن اعتماد التعليم على هذا يمكن أن يعوق عملية التعلم.



وفي مزيد من الدراسات على وظائف الفص الجداري المسئول عن تعلم الرياضيات، وباستخدام تصوير نشاط المخ، وجد الباحثون أن نشاط المناطق داخل هذا الفص قد يختلف باختلاف العملية الحسابية ما بين عمليات الضرب، والقسمة، ومقارنة الأرقام ببعضها. بعض العمليات تعتمد في إجرائها على اللغة، بينما يعتمد البعض الآخر على التخييل البصري. وتدل هذه الحقائق على أن التمييز في الرياضيات يعني التفاعل بين إدراك الكم، والتتمثل البصري واللغوي للأعداد، وهي من وظائف نصف المخ معاً.

ويثور التساؤل الذي طالما أشارت إليه نتائج الأبحاث الفارقة بين الذكور والإإناث على القدرة الرياضية، هل ترتبط هذه القدرة بال النوع؟ هل يتفوق الذكور على الإناث في هذه القراءة؟

وفي كلمة قصيرة عن الفروق النوعية بين الذكور والإإناث في تعلم الرياضيات، فقد أجريت العديد من الدراسات، ودللت النتائج على أنه، حتى مع وجود هذه الفروق، فهي ليست فروقاً بيولوجية صرفة؛ إذ لا يمكن تجاهل التأثير الثقافي المرتبط بنوع الفرد. ففي الوقت الذي تفوق فيه الذكور على الإناث في كل من الصين والولايات المتحدة الأمريكية، فإن أداء الإناث في الصين تفوق على أداء الذكور في أمريكا. ومن خلال الدراسات أيضاً كشفت النتائج عن أن الفجوة بين الذكور والإإناث في الرياضيات قد انخفضت على مدى ثلثين عاماً، مما يعني أن هذه الفروق قد تعزى إلى العوامل الاجتماعية.

وفي حقيقة الأمر، فإن بعض الدراسات على المخ لدى الذكور والإإناث قد كشفت عن وجود بعض الفروق، بينما وأشارت الغالبية من نتائج هذه البحوث إلى غير ذلك. وتبينت الآراء في تفسير هذه الفروق؛ فقد عزاهما البعض إلى توقيت النمو النيرولوجي لكل جنس، إلا أنه من الحقائق القوية أن عقول الذكور أكثر كثافة من حيث عدد اللفافات، التي تتميز بالغزارة في الفصوص الصدغية، بما يتضمنه ذلك من اللوزة وقرن آمون. ولقد تم ترجمة معنى هذا في دراسة حديثة قامت بها تينا جود Tina Good وزملاؤها في لندن، عن الفروق البنائية في المخ بين الجنسين، وقد وجدت جود أن اللحاء الأمامي هو أكثر كثافة لدى الإناث عن الذكور. كما أن اللحاء الجبهي أيضاً أكبر لدى الإناث، وهو ما كشفت عنه دراسة روبين جر R.Gur وزملائه في فيلادلفيا. وكل من هذين الجزأين له تأثيره على العمليات الانفعالية، وقد يعكس هذا الفروق النوعية بين الذكور والإإناث في الجوانب الانفعالية؛ فالنساء تتتفوق على الذكور في الإدراك الانفعالي والحساسية الاجتماعية. لكن الأمر ما زال في حاجة إلى المزيد من الدراسات؛ إذ إن وجود الاستثناءات لدى الذكور والإإناث يؤدى إلى استمرار النقاش والبحث.

وفي دراسات حديثة على القدرة المكانية لدى الإناث وارتباطها بالهرمونات، أجرت دورين كيمورا Dureen Kimoura دراستها على المرأة في مرحلة الطمث الشهري؛ لمعرفة القدرة المكانية.

وقد كشفت النتائج عن وجود ارتباط بدرجة كبيرة بين القدرة المكانية وبين مستوى الأستروجين لدى المرأة، كما وجدت كذلك أن القدرة المكانية لدى الذكور، ترتبط كذلك بهرمون الذكورة التستسترون، الذي يحسن الذاكرة المكانية ويزيد من حجم الهيبوكامبوس- قرن آمون - لدى كل من الذكور والإإناث. وقد خلصت الأبحاث من هذا إلى أنه توجد فروق بين الجنسين في بناء المخ. فحيث وجدت القدرات المكانية بصورة أفضل لدى الذكور، فسر ذلك تفوق الذكور تاريخياً على الإناث في الرياضيات، بينما يتتفوق الإناث في اللغة. وترى بلاكمور أن التقدم في استخدام براماج الحاسب الآلي قد يعوض كلا الجنسين عما هو غير متوفّق فيه، فتكون أقرب في عملها إلى استخدام العدسات الطبية لتعويض قصر النظر.

ولكن هل يعني ذلك عدم وجود صعوبات في الرياضيات؟

إن الدراسات كشفت عن وجود من يعانون فعلاً من صعوبات الحساب والتعامل مع الأرقام من الجنسين، منها دراسة في جامعة لندن لدراسة نماذج من هذه الحالات التي لا تستطيع الحكم على أي من الرقمين أكبر، كما لا يستطيعون العد السريع. وتسمى هذه المشكلات بصعوبة القدرة الحسابية النمائية (developmental dyscalculia). وفي ضوء مثل هذا القصور يعاني الأفراد من عدم القدرة على اكتساب مهارات الحساب أو اضطرابها، وقد تظهر هذه الصعوبة لدى مرضى صعوبات القراءة أيضاً، لكنه غير معروف إلى الآن معنى ارتباطهما معًا، وغالباً ما يكشف هؤلاء الأطفال عن معدل عالٍ من الذكاء.

وفي محاولة من علماء الأعصاب لتفسير هذه الصعوبة، وفي ضوء ما أشرنا إليه من قدرة الأطفال حديثي الولادة على التعامل مع الأرقام، فإنهم يفسرون وجود هذه الصعوبة بعدم تواجهها الفطري في المخ، أي عدم وجود وحدة القياس (module) هذه في المخ. أي أن هذا النموذج فقد النمو الصحيح، ربما بسبب إصابة مبكرة في المخ، أو سوء تنظيم جيني وراء الدائرة العصبية في المخ. وقد كشفت الدراسات على العقول المصابة لدى الناضجين، والتجارب التي استعانت بتصوير المخ، أن كلاً من الفص الأيمن والأيسر من اللحاء الجداري (parietal cortex)، التي تشارك في العمليات المكانية البصرية، ترتبط بالمعرفة بالكميات، والعلاقة بينها. فإذاً فإن هذا الجزء لدى الكبار يوجد الجلطة أو بإصابة الرأس قد تؤدي إلى صعوبات الحساب. فضلاً عن إصابة هذا الجزء كسبب لهذه الصعوبة، فإن مفهوم الارتباط بين الكمية وبين الرقم الصحيح قد أعيق نموه نموًّا صحيحاً، مثلًا أن يتعلم الطفل عمليات الطرح بالحفظ، ومن ثم يفشل في ربطها ببنية الكم؛ مما يؤدي إلى الكثير من الأخطاء.

وفي عودة إلى البداية عن تعلم الرياضيات، يثور التساؤل عن تعليم مثل هؤلاء الأفراد ذوي صعوبات القدرة الحسابية، فهل القول باحتتمال ارتباط هذا النقص بوجود نقص في المخ يؤدي إلى التسلیم بالأمر أم أن هناك ما يمكن تقديميه لهؤلاء الأفراد؟



في حالة وجود السبب الخاص بإصابة المخ، ليس من المنطقى أن يكون حفز الدافعية لدى الفرد وتقدير الذات والثقة بالنفس، هي المدخل الصحيح لعلاج هذا النقص، وذلك يعنى أن إستراتيجيات التعلم في حاجة ماسة إلى نتائج الدراسات العصبية ودراسات علم النفس معًا؛ لتطوير مدخلاتها في التعامل مع مشكلات التعلم المختلفة. فتعثر بداية التعلم الصحيح لا تعنى عدم وجود التعلم البطئ لدى الأفراد المعينين، والتعلم البطئ له إستراتيجياته، التي لا شك تختلف عن تعليم الفرد السوى.

فضلاً عن هذا، فإن دراسات تصوير المخ مطالبة بالكشف عما يحدث داخل مخ أمثال هؤلاء الأفراد، الذين استطاعوا تخطىء هذه الصعوبة وحققوا تقدماً ملحوظاً، فمثل هذه المعرفة أمر مهم للغاية في تصميم برامج أفضل للتدريس.

#### 7- التعلم والاضطرابات الاجتماعية الانفعالية (الأوتيزم الذاتوية):

يعتبر الأوتيزم (الذاتوية) من الاضطرابات النمائية التي تميز بصعوبات في الاتصال والتفاعل الاجتماعي، وبالاهتمامات المحدودة والسلوك غير المرن. ويعزى السبب الذي يؤثر على فهو المخ قبل الميلاد إلى الجينات، وتظهر العلامات والأعراض تباعاً، ويمكن ملاحظتها في العام الثاني للطفل، وتأقى الأوتيزم الذاتوية مختلفة، ومتعددة إلى مدى واسع، ويمكن أن تحدث متزامنة مع انخفاض الذكاء أو ارتفاعه. فقد تجد من بين هؤلاء الأطفال من لا ينطق كلمة واحدة أو ينظر إليك، ويسلك بصفة عامة كما لو أنه وحده في هذا العالم. وقد ترى طفلاً آخر - على النقيض من هذا - يتحدث إليك، وإن كنت تجد أنت صعوبة في فهم ما يقول. ومن ثم فإن جوهر هذا الاضطراب يتمثل في فشل التواصل الاجتماعي على كل المستويات، وفي كل الأعمار. ويمكنك تمييز هذا الفشل، بالرغم من انهيارك بمعلومات من الأنسلوبيديا التي يقدمها لك الفرد المريض، أو حتى في حالة الاختلاف البين، وعدم القدرة على الفهم. وبسبب تعدد أشكال مرض الذاتوية، فقد ارتفعت الحالات التي تم تشخيصها، وتقدر النسبة الآن بست حالات من كل ألف حالة (006). ومن أشكال هذا المرض:

##### \* أعراض الأسبرجر ومرض الذاتوية:

قد يصاب بعض الأفراد على المتصل الذاتي إصابة متوسطة، فلا يتأثر نموهم المبكر بشدة، وقد يعني ذلك أن تشخيصهم قد يتم في سن الثامنة من العمر، كما يتم إدراك مشكلاتهم إدراكاً متأخراً، أى بعد وقوعها بالفعل. في مثل هذه الحالات يستخدم مصطلح أعراض الأسبرجر، وغالباً ما يكون أطفال هذه النوعية من مرتفعي الذكاء، ولديهم الرغبة في تعلم القواعد الاجتماعية، مما يمكن أن يؤدي إلى تغطية مشكلات هؤلاء الأطفال في التواصل. لذلك يوجد هؤلاء في المدارس بين الأطفال العاديين، وقد لا يكون قد تم تشخيصهم بعد. والمدرس والتلاميذ في حاجة إلى معرفة

هذا العرض، وكيف أنه يحد من التواصل الاجتماعي للفرد، ويتمتع أفراد مرض الذاتية بموهبة هائلة في حفظ التواريخ، رغم أنهم قد يحققون درجات متواضعة في اختبار الذكاء، كما أن من القدرات الشائعة لديهم كذلك ذاكرة دقيقة للحقائق، متميزة، وكلمات واسعة الانتشار، ومهارات تعلم ذاتي للقراءة، والشعر والموسيقى والأدب، وهذه جميعها يمكن أن تكون من الومضات المضيئة للمخ.

ولقد تم بحث هذه الظاهرة عدداً من السنوات في جامعة لندن، وخلصت هذه الدراسات إلى أن المخ يكون متخصصاً في مختلف النماذج والأنظمة، غير أن بعض هذه الأنظمة في المخ يتأثر بمرض الذاتية، وقد يكون السؤال هو: أي هذه النماذج أو الأنظمة الذي فشل وأدى إلى ظهور أعراض الذاتية؟

هناك عدد من النظريات التي حاولت تفسير أعراض الذاتية، وتعد نظرية العمى العقلى mind blindness إحدى هذه النظريات، التي تفسر أعراض الذاتية. ويعنى هذا المصطلح أن القدرة العقلية على عزو سلوك الآخرين، ومشاعرهم، ورغباتهم واعتقاداتهم، قاصرة عن أداء هذا الأمر. ومن المصطلحات الأخرى الجديدة لوصف هذه الحالة هو قصور القدرة على العقلنة، أو التعاطف مع الآخرين. والقدرة على العقلنة مثلاً هي ما يحدث حينما تفسر وقوف سائق السيارة التي أمامك فجأة، فتجد نفسك تفكير فيما وجده أمامه السائق، وأدى إلى وقوفه المفاجئ. هذه العقلنة هو ما نفعله بصورة آلية وسهلة، ربما لأن العقل لديه النظام الذي يقوم بهذه المهمة، أما لدى أطفال الذاتية فهو هذا النظام قد تعرض للعطب بصورة ما.

ويعد كوهن سيمون بارون Cohen Simon Baron Firth ويوتا فيرث Leslie Alen من جامعة لندن - أول من وضع هذا المصطلح عام 1980. ثم تم تطويره على يد الكثيرين من الباحثين بعد ذلك، وجوهر هذه النظرية هو أن القدرة على استخدام الحدس لفهم الآخرين مفقودة لدى مرضى الذاتية. وفقدان هذه القدرة له أساسه في المخ، ويعبر عن نفسه في مراحل عمرية مختلفة بطرق مختلفة، فالقدرة على عقلنة الأمور تتكون لدى الطفل العادي بسرعة، ومع بلوغ سن الخامسة يكون لديه القدرة على فهم أعقد السيناريوهات مثل التمثيل والخداع والكذب الأبيض. أما أطفال الذاتية فهم غير قادرين على ذلك، لا يستطيعون فهم أن الآخرين لديهم رؤية مختلفة عن رؤيتهم؛ إذ إن أول المشكلات التي تم ملاحظتها على مرضى الذاتية، هو نقص مشاركة الآخر انتباهه، وكذلك القدرة على التمثيل الذي يتضمن فهم أن هناك فرقاً بين الحقيقة والرأي أو الاعتقاد. ويمكن أن يحدث ذلك لديهم، ولكن بتأخر خمس سنوات عن حدوثه لدى الطفل العادي. وقد كشفت دراسات المخ على أطفال مرض الذاتية أن المخ لديهم أكبر حجماً وأنقل وزناً من غيرهم الأسيوياء. بالإضافة إلى أن الدراسات على الناضجين المصابين بمرض أسبرجر، الذين تم عمل فحص للمخ عليهم أثناء قيامهم ببعض عمليات العقلنة، كشفت النتائج أن هناك ثلثا



مناطق في المخ تستثار أثناء هذه العملية، وهي اللحاء قبل الأمامي في اتجاه خط النصف (the medial prefrontal cortex cortex) والأخدود الصدغي الفوقي (superior temporal sulcus)، والأقطاب الصدغية المجاورة للوزة (temporal poles adjacent to amygdala). وفي حالة أفراد الذاتوية فإن الارتباط بين هذه المناطق الثلاث يكون ضعيفاً للغاية؛ وهم لذلك أقل نشاطاً.

#### 8- التعلم ومرض الذاتوية:

يتمثل مرض الذاتويةتحدياً للعملية التعليمية، ولحسن الحظ أن الأقلية من الأطفال هم الذين يتأثرون به بدرجة كبيرة، وهم الذين يحتاجون لطرق خاصة في التعليم تختلف عن طرق تعليم العاديين من الأطفال. لكن يظل أن التعليم هو السبيل إلى تحسين الحياة لدى هؤلاء الأطفال وليس للشفاء من المرض.

أما عن علاج المرض، فقد كشفت دراسات المخ عن القدرة التعويضية في مناطق المخ، حيث إنه عندما يفشل نموذج ما من مذاجر العقل في التطور والنمو، تستطيع الأنظمة الأخرى بالمخ تعويض هذا الفشل، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك بمزيد من التفصيل في الفصول السابقة. وبناء عليه، فإن المعلم والوالدين يمكن أن يساعدوا في هذا الأمر؛ إذ إن التعليم المعلن عن استخدام الطفل للمنطق، يمكن مع المراقب والتدريب أن يؤدي إلى نمو الوعي، وفهم الحالة العقلية للآخرين، والذاكرة التفصيلية للأحداث التي مرت، وماذا تعنى. لكن ذلك يحتاج إلى الصبر والدافعية العالية والجهد لدى كل من الطفل والطرف الآخر.

وفي إحدى الحالات التي عرضتها روث كامبل R.Campbell في كتابها عن دراسة حالة لعدد من الذين يعانون من الحالات الخاصة، مثل فقدان السمع أو البصر، أو بعض المهارات المعرفية مثل أطفال الذاتوية؛ بغرض فحص ما تم فقدانه في المخ فعلاً، ونتج عنه فقدان هذه القدرة أو تلك. من هذه الحالات كانت لطفلة الذاتوية، التي عرض لها كوهن سيمون بارون Simon Baron Cohen. ويكشف العرض لهذه الحالة ومناقشتها عن ماذا يعني ألا يدرك هذا الطفل آراء وأفكار الآخرين، وكيف يحمل الطفل الذاتي ذاكرة حادة عن التواريخ والأرقام، وماذا يعني تركيزه كل الوقت على تكرار سؤال بعينه أو معلومة بعينها. غير أن ذلك لم يعُق هذه الحالة عن تحقيق التقدم في القراءة والكتابة.

وعن إمكانات المخ لدى هؤلاء الأطفال، يذكر كوهن أن الدراسات قد أشارت إلى أنه هناك ما يخص هؤلاء الأطفال معرفياً؛ إذ إن حوالي 65% منهم يكون معدل الذكاء لديهم أقل من المتوسط، وبين هؤلاء غالباً ما يكون الذكاء اللغطي أقل من الذكاء البصري المكاني. وقد يكون العمى العقلاني الذي ذكرناه آنفًا ليس كاملاً، ففي الحالة التي عرضها كوهن هنا، أنه على الرغم من فشلها في إدراك

ما وراء الآخرين وتوجهاتهم، فقد كشفت عن وعي بالتمييز بين الحزن والسرور على وجوه الآخرين، كما استطاعت أن تدرك رغبات الآخرين؛ ماذا يحبون وماذا يكرهون. غير أن العلم حتى الآن ليس لديه الإجابة على إمكانية علاج مثل هذه الحالات من أوجه النقص التي يعانون منها (Campel,R. 1992,11-23).

#### 9- نقص الانتباه المصاحب بالنشاط الزائد (ADHD):

يتميز وجود هذا الاضطراب لدى الأطفال باندفاعية غير ملائمة، ونقص الانتباه، وفي بعض الحالات يكون مصحوباً بالنشاط الزائد. وينعكس هذا اجتماعياً على نقص وجود الأصدقاء، ويكون من الصعوبة انخراطهم في أعمال تعاوينة جماعية، كما يقوم بتشتيت الجماعة، الذي يؤدي إلى اضطراب الأداء. وفي غالبية الحالات، فإنه يكون هناك سوء توظيف في نمو المخ، ولذلك أشارت الدراسات إلى أنه من الممكن - أسوة بمرض الذاتوية - أن يكون لهذا الاضطراب أساس في الجينات.

ويبدأ (ADHD) في الطفولة، ويترافق بانتظام نحو مرحلة النضج، ورغم اكتشافه حديثاً إلا أنه ينتشر في الأطفال والناسожين في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، فهو يكون مثلاً 5% من بينأطفال أمريكا. والكثيرين الذين يعرفون الآن أنهم (ADHD) كانوا يشخصون في السابق على أنهم ذوو النشاط الزائد (hyperactive).

ويطلق هذا اللفظ على مجموعة من الأعراض، تتضمن صعوبة الحفاظ على الانتباه، وصعوبة اللعب أو الاستماع بهدوء، بالإضافة إلى الإفراط في الكلام والتململ العصبي. وهي تتوارد على مدى يصعب التوافق معها، ويدرجة لا تتفق مع مستوى نمو الطفل، وتؤدي إلى حدوث اضطراب في المنزل والمدرسة، والمشكلة هي أن غالبية الأطفال تتطبق عليهم هذه الصفات.

ومن متطلبات القدرة على حفظ الانتباه أن أجزاء من الفصوص الأمامية في المخ تصل إلى مستوى محدد من النمو أو النضج، وأن هذه الفصوص تنضج في مدى زمني ممتد، وفي بعض الأطفال تنضج ببطء شديد، لذلك هناك مخاطرة في المبالغة في تشخيص هذا الاضطراب.

وفي الوقت الحالى، بات معروفاً إلى أي مدى يمكن أن تسهم البيئة بمدخلاتها في تسهيل أو تأخير ما نسميه بضبط الذات. وقد كشفت الدراسات أن الخبرة ضرورية لتكوين عادات حفظ الانتباه، وعلى الناسожين - والوالدين والمعلم - أن يشجعوا ويدفعوا ضبط السلوك باللفظ أحياناً، وباستخدام المكافآت أحياناً أخرى. وتلعب نماذج الدور دوراً مهماً في التأثير على نمو هذه العادات.

أما عن دور المخ في حدوث هذا الاضطراب، فقد كشفت دراسات تصوير المخ في منتصف التسعينيات، وبعد عمل أشعة (MRI) على مخ عينة من هؤلاء الأطفال، بين الخامسة من العمر والثامنة عشر، ومقارنتهم بعينة ضابطة، كشفت النتائج عن أن منطقة اللحاء قبل الجبهى (Prefrontal cortex)، والتي توجد في مقدمة الفصوص الأمامية وخلف الجبهة مباشرة، وكذلك



مناطق العقد الرئيسية (basal ganglia)، كانت أصغر في الأطفال ذوي الاضطراب. ويعتقد أن هذه المناطق تلعب دوراً مهماً في التخطيط، وصنع القرار، وضبط الانتباه، وفي كف السلوك غير المناسب، أما العقد الرئيسية (basal ganglia) فهي شبكة من الأبنية توجد في عمق المخ، وتعمل على توليد الحركة، وترتبط بالجزء السابق، ويرسل الجزء قبل الجبهي الأوامر ببدء العمل أو نهايته.

وحيث إن الأطفال لم يكتمل لديهم نمو هذه الفصوص، يكون من الصعوبة عليهم كف الكلام أو الحركة، ويبدو تصرفهم اندفاعياً، بعض النظر عن السياق الاجتماعي. غير أن استمرار هذه التصرفات وشدتها هي التي تميز أطفال (ADHD)، ويفسر هذا بسوء توظيف منطقة اللحاء قبل الجبهي في هؤلاء الأطفال.

ويعالج هذا الاضطراب غالباً بالعقاقير التي تؤدي إلى زيادة إفراز الدوبامين والأدرينالين في المخ. وقد يعجب الفرد؛ حيث إن العلاج يعمل على زيادة النشاط والإثارة والشعور بالنشوة، لكنه غير معروف إلى الآن لماذا هذا التأثير المختلف في هؤلاء الأطفال. والعلاج لا يعمل على الشفاء من الاضطراب، لكنه يعمل على أن يسلك الطفل بطريقة أفضل في المدرسة والمنزل. كما ثبت من نتائج الدراسات أن هذا العلاج يعطي نتائج أفضل إذا ما استخدم معه أنواع أخرى من العلاج النفسي، مثل العلاج الأسري أو العلاج المعرفي الذي يعمل على مساعدة الطفل على تحسين عادات ضبط الذات والانتباه، ويساعد الأسرة على تعلم أفضل الطرق للتواافق مع الطفل وضبط سلوكه.

#### 10- التعلم مدى الحياة:

يحدث التعلم في كل المراحل العمرية، فقد ثبتت مرونة المخ وقابليته للتشكل والتواافق مع الظروف المتغيرة، واكتساب المعرفة الجديدة، حتى مع التقدم في العمر. فقد أشارت الدراسات في السنوات القليلة الماضية إلى أنه ليس هناك عقل يتمتع بالمرنة كعقل الطفل. ومرنة المخ تعنى قدرة النظام العصبي على التكيف المستمر مع البيئة المحيطة المتغيرة، وهو ما يحدث في عقل الفرد الناضج مع تعلم الجديد، بدءاً من رؤية وجه جديد، إلى تعلم لغة جديدة. كما تعزى المرنة أيضاً إلى طريقة المخ في التكيف، وتعلم طرق جديدة بعد تعرض المخ للإصابة. وهذا على العكس مما كان سائداً منذ ثلاثين عاماً، مثلاً عن عدم قدرة المخ على التشكل أو التعويض بعد سن محددة.

ولقد كشفت أبحاث تصوير المخ عن مرنة المخ، ومن الدراسات التي أجريت لاستعادة المخ لكتفاته في المرضى ذوي إصابات المخ، ما أشارت إليه الدراسات من أن منطقة قرن آمون في المخ ضرورية للإدراك المكاني والذاكرة المكانية، وهو الذي يساعد على تذكر مكان الأشياء، وتذكر الطرق. وقد كشفت التجارب على الحيوانات أن هناك ما يعرف بخلايا المكان (place cells) في هذا الجزء تستجيب لبحث الفرد عن الأماكن.

ولقد تدعمت هذه النتائج بدراسات تصوير المخ الحديثة على سائقى التاكسي في لندن، فقد قام إلينور ماجوير (Eleanor Maguire) وزملاؤه بعمل هذا على عينة كبيرة من سائقى التاكسي أثناء

تذكراهم للطرق المختلفة التي يمكن أن يسلكونها، وصولاً إلى نقطة محددة. وقد كانت المنطقة التي استثيرت أثناء هذا الأداء هي منطقة قرن آمون. غير أن من النتائج الأكثر أهمية أنه - بمقارنة تصوير المخ بين عينة سائقى التاكسي وغيرهم - وجدت فروق بينهما في حجم قرن آمون. فقد وجد أن قرن آمون الخلفي *posterior hippocampus* في سائقى التاكسي أكبر من نظيره في العينة الضابطة، وهذا الجزء يرتبط بالوقت الذي يمضيه سائق التاكسي في هذا العمل، مما يعني كم الوقت الذى أمضاه السائق فى استخدام الذاكرة المكانية.

ومن النتائج المهمة في هذه الدراسة أيضاً أن منطقة قرن آمون الأمامي (*anterior hippocampus*) لدى هؤلاء السائقين كانت أصغر. ويرتبط هذا أيضاً بالوقت الذى أمضاه السائق في هذا العمل، ولكن بعلاقة عكسية. ويعنى ذلك أن كبر جزء من المخ إنما يؤثر على غيره من الأجزاء، وإلا تنفجر الرؤوس.

ومن الأمثلة على وجود المرونة في المخ، ما تشير إليه الدراسات على من فقدوا بعض الوظائف الحسية. فقد كشفت دراسة الباحثين في جامعة أكسفورد عن التعويض الذي يحدث لدى الأفراد الصم، حينما لا يعمل اللحاء السمعي (*auditory cortex*) استجابة للأصوات، ويبدأ العمل مع حركة الشفاه. كذلك الأمر حينما يبدأ اللحاء السمعي في الاستجابة لاستخدام إشارات اليد، وهناك أمثلة متعددة تميزة على قدرة المخ على التكيف مع الظروف المتغيرة.

ويحدث هذا النوع من المرونة أيضاً لدى الأفراد غير المبصرين الذين يقرأون باستخدام طريقة برايل؛ إذ يكتفى اللحاء البصري (*visual cortex*) عن العمل مع المثيرات المصورة لدى الفرد فاقد البصر. وكشفت الدراسات في جامعة لندن أنه بدلاً من أن يظل هذا الجزء الكبير من المخ معطلًا، يبدأ هذا الجزء في الاستجابة للمثيرات الحسية المتاحة، مثل طريقة لمس الحروف، وبعد ذلك من العلامات المميزة للمرونة في المخ؛ لأن المناطق التي تستجيب للمس، وهي منطقة الإحساس البدني، بعيدة جدًا عن اللحاء البصري، وبذلك تأخذ القراءة بطريقة برايل مكان القراءة برؤية الكلمات. ومن ثم يبدأ اللحاء البصري في العمل، بالتعامل مع المعلومات الملمسية. ولاشك أن ذلك يمثل دلالات على قدرة المخ على التكيف لتعديل وظائفه.

وتعرضلينداBring Linda حالتها الرايحة عن الطفلة التي فقدت بصرها فجأة في منتصف العام الثاني من عمرها. وتوقف على إثر هذا تقديمها الملحوظ في اكتسابها اللغة، وتميزها بين اللعب، وحبها الشديد للكتب المصورة. غير أنها بدأت بسرعة شديدة في استخدام صدى الصوت؛ لتمييز الأماكن في الحضانة التي التحقت بها، ومنها إلى مدرسة غير المبصرين مع مساعدة الوالدين، واستطاعت أن تحقق تيميزاً في توافقها مع المشكلة، فقد حققت تيميزاً في اكتساب اللغة وتعلمتها، كما شهد بذلك مدرسوها. كما حصلت على درجات عالية في اختبار الذكاء (140 درجة)، ومما استلفت النظر إلى هذه الطفلة - فضلاً عن تميزها العقلي والأكاديمي - ما كشفت عنه من قدرة

فائقة على الرسم، باعتمادها على اللمس وال العلاقات المكانية بين أجزاء الشيء. ويثير السؤال: ألا تعكس هذه الحالة كيف يستطيع المخ أن يتواافق مع الظروف الجديدة التي تواجهه بل ويتفوق في ذلك؟ (Pring,Linda, 1992, 24-). (44)

وخلالهذا ما يدعونا إلى التأكيد على قدرة المخ على تغيير مكان وظائفه (functions), إذ يمكن أن تغير خلايا المخ العمل الذي تقوم به؛ اعتماداً على كم الاستخدام لهذه الوظيفة، كما يحدث أيضاً لدى المرضى ذوي إصابات المخ، حيث تغير مكان الوظيفة من جزء إلى آخر، ويعدل المخ نفسه في حدود بالطبع، ولاشك أن بهذه المعلومات عن قدرة المخ على المرونة والتشكل والتعديل في فترة النضج، فائدتها في التطبيق على التعلم مدى الحياة. وما زالت الدراسات المتخصصة على المخ مستمرة؛ للكشف عن المزيد من إمكانات المخ البشري، وقدراته الفائقة.

#### 11- تغيرات المخ والممارسة:

كم يحتاج المخ من الوقت حتى يحدث التغيير نتيجة الخبرة؟  
إذا كانت الخبرات الجديدة تؤدي إلى تغيير المخ وتؤثر على نموه، فكم من الوقت يلزم حتى يحدث هذا التغيير؟

في التجارب على تعلم العزف على الآلات الموسيقية، كشفت الدراسات عن أنه في خلال خمسة أيام، تستطيع المناطق الحسية والحركية في المخ الناضج أن تتوافق مع مدى استخدامها. في جامعة لندن، تم تدريب عينة من الناضجين المتطوعين على الرابط بين الرموز البصرية وبين أصوات محددة، وحينما تعلم الفرد الرابط بين لون معين وبين صوت محدد، فالم منطقة البصرية في المخ، والمنطقة السمعية، بدأت في الاستجابة لهذه الأصوات. وفي المنطقة البصرية التي خصمت لعمليات البصر والمثيرات البصرية بدأت تستجيب إلى الصوت المحدد، مرتبطة باللون. كذلك حدث العكس في المنطقة السمعية، وبدأت في الاستجابة للون مرتبطة بالصوت المحدد.

أما عن سرعة تغيير المخ نتيجة هذه الخبرة، فقد تم تصوير المخ بعد تعلم الخبرة وتم رصد التغيير. وفي تجربة أخرى على تعلم عينة من الناضجين لألعاب الحيل الذهنية - كان التدريب لمدة دقيقة واحدة على مدى ثلاثة شهور - كشف فحص المخ على هذه العينة عن زيادة في حجم منطقتين؛ هما: منطقة الوسط الصدغية (the midtemporal area) ومنطقة الجزء اليساري الخلفي في الفص الجداري (the left posterior intraparietal area). ولكن

بعد توقف التدريب بثلاثة شهور أعيد الفحص مرة أخرى، وكشف عن عودة هذه المناطق إلى حجمها السابق.

ومعنى هذا أن المخ ليس بالشيء الثابت، حتى في مرحلة النضج، فإن الوصلات بين التيرونات ليست ثابتة، وإن التغيير هو دالة الاستخدام. وقد دلت أبحاث لييف فينكل Leif Finkel وجيرالد إيديلمان Gerald Edelman - من جامعة روكيهيلر - على أن التيرونات لا تعمل منفصلة، فهي

تواصل مع النيرونات الأخرى، وتكون شبكة عصبية. وتنظم هذه النيرونات ذاتها في مجموعات، وتكون كل مجموعة متخصصة في التعامل مع مثيرات بعينها؛ إذ إن لمس أحد الأصابع يؤدي إلى إثارة مجموعة الأعصاب الخاصة في المنطقة الحسية البدنية. وداخل هذه المجموعة من الأعصاب يؤدي المستوى العالى من الاستimulation إلى مزيد من الوصلات بين هذه النيرونات. ومع كل لمسة للإصبع، فإن هذه الوصلات داخل هذه المجموعة تقوى وتتدعم. ونتيجة لهذا تصبح هذه المجموعة العصبية متخصصة في الإحساس باللمس من هذا الإصبع. وذلك يعنى أن البناء الفسيولوجي للمخ ليس هو الذى يغير الخبرة، بل إن التعلم أيضًا يعدل من الخصائص الكيميائية في المخ. وما زالت الدراسات مستمرة للتعرف على طبيعة هذا التغيير ومداه أيضًا.

#### 12- التعلم والممارسة:

نحن نعرف من الخبرة، ومن نتائج الدراسات أن التدريبات الرياضية البدنية مهمة للصحة النفسية للفرد، والصحة الجسمية أيضًا، حتى باتت هذه النصيحة من المسلمين التي لا تحتاج إلى مزيد من النقاش. كما أشارت الدراسات الحديثة أيضًا إلى أن لهذه التدريبات فائدة أخرى، تمثل في دفع عملية التعلم من خلال زيادة كفاءة المخ. وهناك عدد من الدراسات التي كشفت عن أن ممارسة بعض التدريبات الرياضية البدنية في الصباح تساعد التلاميذ على الأداء الأفضل داخل الفصل.

وحسب المقوله الشائعة - والتي ذكرناها في الفصل الأول من هذا الكتاب - أن المخ يفقد ما يقرب من ألف من الخلايا كل يوم بعد سن الأربعين. ولا نستطيع تحديد إذا ما كان ذلك أمراً سيئاً أو جيداً؛ فقد يكون فقد هذه الخلايا مهمًا لعملية التعلم، إذ مع كل نتائج الدراسات يزداد الاعتقاد في أهمية تعزيز المخ وتوظيفه (use it or lose it). فالحياة اليومية للفرد هي تدريب للمخ، فضلاً عن أن استخدامنا للمخ في مهارات غير غرضية يشجع على نمو الوصلات الجديدة بين الخلايا، فالتعليم والتعلم أمر مهم لكل المراحل العمرية.

فضلاً عن هذا، فقد كشفت الدراسات أن الخلايا يمكن أن تتجدد في المخ الناضج. ففي الدراسات الحديثة على الفئران الناضجة للتعرف على أثر التدريبات على نمو المخ، في جامعة كاليفورنيا - قام الباحثون بالمقارنة بين عينتين من الفئران المتماثلة، ووضعت إحداهما في قفص يضم الطعام والشراب فقط، بينما وضعت الأخرى في قفص يتسع لوضع عجلة للدوران، وتعنى أن لعب الحيوان على هذه العجلة يعني الجري مسافة خمسة كيلو مترات يومياً. وبعد استمرار التجربة ستة أسابيع كاملة، كشف الفحص على مخ الفئران عن زيادة عدد الخلايا في منطقة قرن آمون إلى الضعف، بالمقارنة بالعينة الأخرى. ولاشك أن قيمة نتائج هذه التجربة تشير إلى دحض تلك المقوله عن عدم تجدد الخلايا في المخ في مرحلة النضج، فقد كانت الفئران في تلك التجربة في مرحلة

النضج. ولم تكن هذه النتائج على تجارب الحيوان فحسب، بل على الإنسان أيضًا، وقد دعمت النتائج بعضها البعض في دحض فكرة عدم تجدد الخلايا، أو تعرضاً لها للزيادة في مرحلة النضج.

غير أن النتائج السابقة على تأثير التدريب، وتعلم الخبرات الجديدة على البناء الفيزيقي للمخ - تفتح أبواب البحث العلمي أمام المزيد من الدراسات التي تكشف عن العمل على توظيف إمكانات المخ البشري؛ من أجل حياة أفضل للإنسان في مراحل العمر المختلفة.

#### ثانيًا: الأبعاد النفسية وعملية التعلم:

كشفت الدراسات في الجزء السابق - عن المخ وإمكانات التعلم لدى الفرد - عن قدرة المخ غير المحدودة، وقابليته للتشكل والتعلم، حتى في مراحل العمر المتقدمة. ولقد تدعمت هذه النتائج من خلال الأبحاث والتجارب الحديثة على الكائنات. غير أنه من الجدير بالذكر، أن عملية التعلم ليست ذات شق فسيولوجي فقط، ينحصر في إمكانات المخ البشري، وسلامة الوصلات العصبية فحسب، بل هي تعتمد كذلك على الأبعاد النفسية للمتعلم، والتي تمثل في مستوى الدافعية لدى الفرد، ورغبته في تعلم الجديد، ودرجة تكرار موضوع العلم، وثقافة التعلم، ووجود عامل المعنى لدى المتعلم، وتأثيره على بقاء المعلومات، وعلى ثبوت عملية التعلم. فضلًا عن هذا، فإن هذا البعد أيضًا يضم طرق التعلم وتأثيرها على كفاءة التعلم، ونوعية الغذاء وتأثيره على عملية التعلم، بالإضافة إلى بعض المتغيرات النفس فسيولوجية: كالنوم، أو التعرض لعمليات التخدير، وأثرهما على عملية التعلم.

ومن ثم، فعملية التعلم ليست بالعملية السهلة، ذات البعد الواحد، والمتمثل في إمكانات المخ البشري، وسلامة الوصلات العصبية في المخ، ومنه إلى سائر أعضاء الجسم، بل هي عملية معقدة تتطلب شبكة من العوامل التي تؤثر على كفاءة هذه العملية، ومن ثم تستوجب دراستها توجهات عبر تخصصية (interdisciplinary approach)، تساعده على الرؤية الشمولية، والأكثر توضيحاً للموقف التعليمي.

#### وفيما يليتناول هذه الأبعاد بقدر من التفصيل:

##### الدافعية والاستثارة والتعلم:

ما معنى الدافعية؟ هل يمكن رؤيتها؟ وما طبيعة علاقتها بالتعلم؟

الدافعية هي مفهوم فرضي، لا يمكن رؤيتها مباشرة، لكن كل ما يمكن رؤيته هو السلوك الذي يمكن أن يدل على وجودها. فالدافعية إذن يستدل على وجودها، ولا يتعارض هذا مع إمكانية

قياسها، أو تحديد مستوياتها. وهذه الدافعية هي التي تحفز سلوك الفرد وتوجهه نحو تحقيق الهدف، ومعنى هذا أن الدافعية لها وظيفتان:

\* الوظيفة التنشيطية (activating): حيث إنها تستثير السلوك وتحفظه إلى العمل.

\* الوظيفة التوجيهية (directing): حيث إنها لا تحفز السلوك فقط، بل توجهه نحو تحقيق الهدف المرتبط بالسلوك.

وهنالك نظريات عديدة في تعريف الدافعية وتحديد أنواعها ومستوياتها، ولأن المجال لا يتسع لعرض نظريات الدافعية تفصيلاً، فإننا نشير إلى أهمها دون استفاضة.

#### -1 نظرية الحاجات: لأبراهام ماسلو (Abraham Maslow) من 1930-1940

وهذه النظرية تقدم إطاراً عاماً لتقسيم دافعية الفرد في ضوء المستويات الخمس الآتية:

- الحاجات الفسيولوجية للفرد.
- الحاجة إلى الأمان والأمان.
- الحاجة إلى الحب والانتماء.
- الحاجة إلى التقدير والاحترام.
- الحاجة إلى تحقيق الذات.

وتعد نظرية أبراهام ماسلو من أكثر النظريات استخداماً في مجالات الإدارة والتعليم؛ حيث تتميز بالشمولية، واختزال المفاهيم، وهما من أكثر الخصائص المميزة للنظرية الناجحة. وفي عام 1972، تم اختزال هذه المستويات الخمس لنظرية الحاجات إلى ثلاثة مستويات فقط على يد ألدرفير Alderfer، وهي:

- حاجات الوجود (الحاجات الفسيولوجية، والجامعة إلى الأمان).
- حاجات القرب "relatedness" (الجامعة إلى الحب والانتماء).
- حاجات النمو (تقدير الذات، وتحقيق الذات).

ويذكر الباحثون في مجال التربية أن نظرية ألدرفير أكثر بساطة وملاءمة للمجال التربوي من نظرية أبراهام ماسلو.

## - 2 - نظرية الإثابة :Reward theory

نتيجة لتركيز الاتجاه السلوكي على أهمية التدريم للسلوك، كان النقد الذي وجه إلى نظرية الحاجات في الدافعية، فقد أشار سكتر Skinner إلى أهمية العوامل الخارجية في استثناء سلوك الإنسان، حيث لا تقتصر الإثارة على العوامل الداخلية الخاصة بالفرد، كما ذكرتها نظرية الحاجات فقط، بل إن الأفراد يستثنوا كذلك بعوامل الإثابة الخارجية، ومن ثم عرف الدافعية بأنها الاستخدام الفعال للإثابة.

**ولقد وضع هامنر (Hamner) عدداً من القواعد للاستخدام الفعال للإثابة، وهي:**

- أن تكون مناسبة للعمل، فهي تدرج من كلمة استحسان إلى الترقى في العمل.
- أن تكون محددة وواضحة، أي لابد من توضيح علام قمت الإثابة.
- أن تكون ممكنة.
- يمكن رصد تأثيراتها .

ومن الجدير بالذكر أن سحب الإثابة أيضاً يلعب دور المثير للسلوك. فضلاً عن هذا، فإن الإثابة قد تكون داخلية أيضاً، فالإحساس بالارتياح أو السعادة لعمل ما قد يكون دافعاً للاستمرار في هذا السلوك أو تكراره.

## - 3 - نظرية التوازن (Equity theory)

تعزى هذه النظرية إلى جون ستاسي آدمز John Stacey Adams، عالم النفس السلوكي، الذي وضع نظريته عن التوازن عام 1963، في هذه النظرية يكون الوعي وإدراك الموقف بشموليته والمقارنة، من الملامح القوية في نظرية التوازن، أكثر من أي من النماذج السابقة عن الدافعية.

ولهذا فإن نموذج نظرية التوازن يمتد إلى ما وراء الذات الفردية، وتتضمن تأثير ومقارنة مواقف الأفراد الآخرين كالزملاء، والأصدقاء في تكوين نظرة مقارنة ووعياً بالتوازن، والذي يتضح بعامة كشعور بالعدالة؛ إذ عندما يشعر الأفراد بمعاملة العادلة والمثيبة، فإن ذلك يعمل عمل الدافع لديهم، بينما يؤدي شعورهم بعدم العدالة لأن يكونوا أكثر عرضة لعدم الرضا، وانعدام الدافعية نحو العمل، وطريقة قياس الأفراد للشعور بالعدالة هو ما يمثل قلب نظرية التوازن.

وقياس التوازن أو ما ترتب على الشعور به من مواقف، لا يتم بناء على اعتقاد الفرد في الدرجة التي يزيد بها العائد أو يقل عن الجهد المبذول، بل إن التوازن والشعور بالعدالة الذي يحرك الدافعية، يعتمد على المقارنة التي يعقدها الفرد بين العائد الذي يحصل عليه والعائد الذي يحصل عليه الآخرون في الموقف المتشابه.

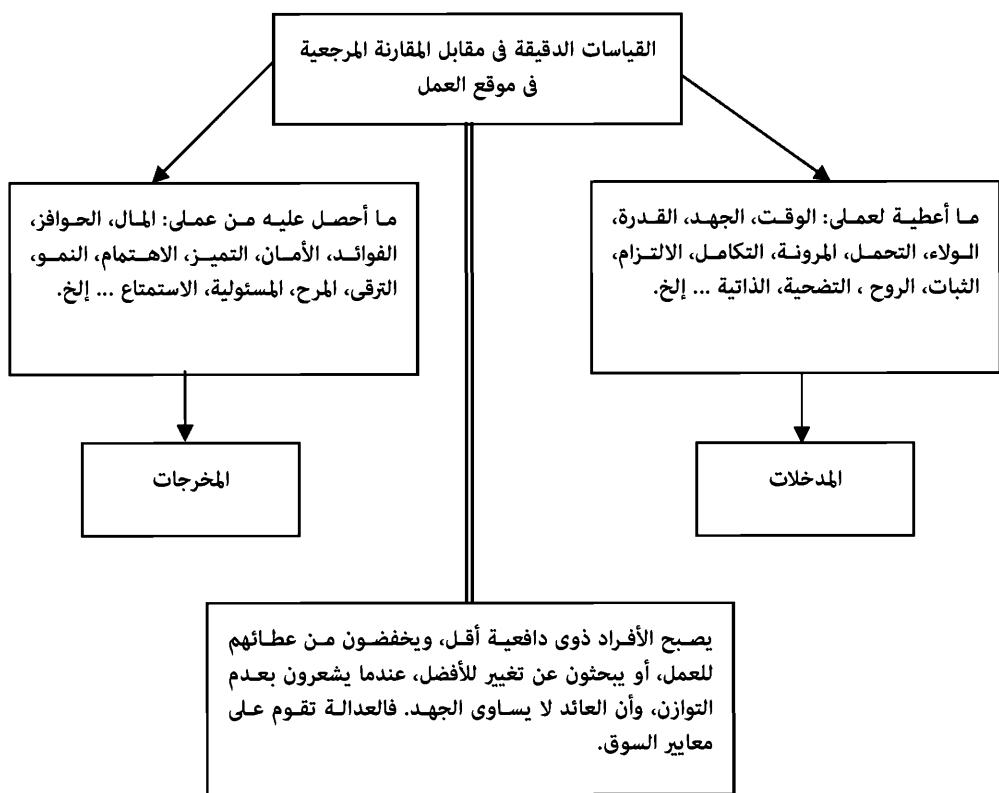
ويطلق آدمز على كل من الجهود والعوايد وقضايا الأخذ والعطاء مفهومين أساسيين، هما: المدخلات Inputs والمخرجات Outputs، فالمدخلات هي ما نضعه في عملنا. أما المخرجات فهي كل شيء يعود علينا في المقابل. وتساعد هذه المصطلحات في التأكيد على أن ما يضعه الأفراد في عملهم، يتضمن عوامل أخرى بجانب ساعات العمل، وأن ما يعود عليهم من عملهم يتضمن أشياء عديدة بجانب الحصول على المال.

كما استخدم آدمز أيضًا مصطلح مرجعية الآخرين Referent Others، ويقصد بها الآخرين الذين نقارن في ضوئهم موقفنا، وهو ما يعد الجزء الحيوي من النظرية. فنظرية آدمز في التوازن تذهب إلى ما وراء، بل وتختلف تماماً عن القياس المجرد للجهد والعائد، فهذه النظرية تضيف منظوراً أساسياً إضافياً، يتمثل في المقارنة بالآخرين المرجعيين.

وهكذا فإن نظرية التوازن تشرح لماذا لا يعد المال أو ظروف العمل هي المحددة لدافعي الأفراد. لذلك تعد نظرية التوازن نموذجاً لقياس الدافعية أكثر تركيبة من مجرد قياس الجهد (المدخلات) أو العائد (المخرجات). فعلى سبيل المثال، تفسر نظرية التوازن لماذا يكون الفرد سعيداً بموقفه يوماً وشقياً يوماً آخر، رغمبقاء ظروف العمل ومفرداته على حالها دون تغيير، كما أنها تفسر أيضاً لماذا تؤدي الإثابة أحياناً إلى خفض الدافعية لدى الفرد وإيقابه على العمل. لا شك أن المقارنة بالآخرين المرجعيين هي مفتاح هذا الأمر.

وتجدر بالذكر أن الكلمات مفردة عن الجهد والعائد، والعمل، والدخل، هي تبسيط مخل، حيث إن آدمز استخدم مصطلحات المدخلات والمخرجات لتغطي جميع جوانب ما يقدمه الفرد، ويفضلي به، ويتحمله في عمله، وكل ما يستلمه الفرد، والفوائد التي يجنيها من عمله، وتحصصه الواسع. إن فهم نظرية التوازن، وخاصة الجانب المقارن، يساعد المدراء وصانعي السياسات على تقدير أن تحسين أوضاع العاملين، يمكن أن يجيب على احتياجات الفرد في حالة الاستجابة للتغير بالقبول من جانب الأفراد، وإلا أدى ذلك إلى توليد المشكلات أكثر من المتوقع. وتذكرنا هذه النظرية بأن الأفراد يرون أنفسهم من خلال كيفية معاملتهم في ضوء البيئة المحيطة، والفريق الذي يعملون معه، والنظام ... إلخ؛ لذلك لابد من إدارتهم ومعاملتهم بناء على ذلك.

والشكل التالي يوضح نموذج آدمز عن الدافعية:



الشكل يوضح نموذج آدمز عن التوازن - الدافعية في العمل عام 1963.

- 4. نظرية التوقع (Expectancy theory).

فدمها فيكتور فروم (Victor Vroom) من مدرسة ييل Yale للإدارة عام 1964. ويفيد فروم على النتائج وليس على الحاجات، كما فعل إبراهام ماسلو. وتقتضي النظرية بأن شدة الميل إلى عمل سلوك بعينه، يعتمد على شدة التوقع بأن الأداء سوف يتبعه نتيجة محددة، وعلى مدى جاذبية النتائج بالنسبة للفرد.

إن نظرية التوقع تعنى أن دافعية الفرد العامل هي نتاج للمدى الذي يحدده الفرد عن العائد الذي يريده، وقياس ما إذا كان الجهد سوف يؤدي إلى الأداء المتوقع، والاعتقاد فيما إذا كان الأداء سوف يكافئ المنفعة. ويعنى ذلك أن المنفعة لها الأهمية الأكبر عن النتيجة المتوقعة؛ ومن ثم فالأهم هو الرضا المتوقع وليس الرضا الفعلي.

والتوقع هو الإيمان بأن الجهود الأفضل تؤدى إلى أداءات أفضل، ويتأثر التوقع بعوامل منها: امتلاك مهارات مناسبة لأداء العمل، ومدى إتاحة المصادر الصحيحة المناسبة، وإتاحة المعلومات الازمة، والحصول على الدعم المطلوب لإتمام العمل.

ومن ثم فإن نظرية التوقع تركز على العلاقات الثلاث:

- علاقة الجهد بالأداء.
- علاقة الأداء بالعائد.
- علاقة العائد بالأهداف الشخصية.

**مميزات هذه النظرية:**

- تقوم النظرية على الاهتمام الذاتي للفرد الذي يريد الحصول على أكبر قدر من الإشباع، وأقل قدر من عدم الرضا.
- تركز هذه النظرية على الإدراك والتوقعات، حيث التركيز على ما هو واقعي و حقيقي، في مقابل ما هو غير مادي.
- تؤكد النظرية على البعد النفسي، حيث يستطيع الفرد الحصول على أقصى درجات السعادة، وأقل نسبة من المعاناة والألم.

**أما عن تطبيقاتها:**

- يستطيع المديرون ربط النتائج بمستوى الأداء المستهدف.
- تأكيد المديرين الدائم على مستويات الأداء المستهدف.
- مكافأة العاملين المتميزين في الأداء.
- العدالة في توزيع المكافآت - حسب مستوى الأداء - داخل المنظمة.
- القياس الدورى لداعية الأفراد العاملين بأدوات مختلفة (الاستبيانات - المقابلات الشخصية).

وعلى الرغم من اهتمام النظريتين ( التوازن والتوقع ) بالمجال المهني، وعلاقته بسلوكيات العامل، إلا أن لهما أهميتها في فهم داعية الفرد، وكيفية شحذها، والاستفادة القصوى منها؛ للحصول على أفضل الأداء، سواء في المجال المهني أو في المجال التعليمي، أو غيرهما. فلاشك أنه يمكن الاستفادة من هذه المفردات وتكييفها حسب طبيعة الموقف والأداء المتوقع أو المطلوب. ولعل تناول موضوع الاستثارة الأمثل في علاقتها بالأداء، يزيد من وضوح ارتباط الداعية بالأداء، وهو ما نوضحه على النحو التالي.



## الاستشارة والأداء:

أما عن الاستشارة والتعلم، فلاشك أن الفرد يخبر عدة حالات من الاستشارة، فهو ليس دائمًا في أعلى حالات الاستشارة؛ حيث إن المزاج والمستوى العام من الاستشارة الفسيولوجية تتدرج من النوم العميق إلى حالات اليقظة. وأحياناً يعيش الفرد بعض حالات الاستشارة العالية، وهي التي تميل لأن تكون مصاحبة للتغيرات في النشاط الكهربائي في المخ، كما سجله جهاز EEG، وزيادة في ضربات القلب، وإفراز العرق. كما يمكن تغيير حالات الاستشارة بتغيير الظروف البيئية، أو من خلال استخدام العقاقير؛ إذ إن الضوضاء العالية تزيد من درجة الاستشارة، ومادة الكافيين في الشاي والقهوة تزيد أيضاً من درجة الاستشارة. كما أن المواد الأخرى كالكحول مثلًا يكون لها تأثيرها المركب والأكثر تعقيداً على حالة الاستشارة لدى الفرد.

### فإلى أي مدى تؤثر حالات الاستشارة على الذاكرة؟

لاشك أن الأداء يتاثر بدرجة الاستشارة لدى الفرد، فالأداء يتحسن مع زيادة الاستشارة لدرجة معينة، يتدهور بعدها، وهي العلاقة التي تعرف بقانون يركس- دودسون Yerkes-Dodson law نسبة إلى الباحثين اللذين كانوا أول من أشار إليها. أما حالات الخوف الشديد somnolence أو الرعب فهي ليست من الحالات المثلثة للمخ لأداء عمل ما. فما هي إذن حالة الاستشارة المثلثة للذاكرة؟ إن الإجابة ليست بالأمر اليسير؛ إذ إن ذلك يعتمد على متى سيتم استدعاء المادة المتعلمة. فإذا كان الاستدعاء سيتم بعد التعلم مباشرة، فإن الاستشارة المنخفضة هي الأفضل؛ فقد تؤدي الاستشارة العالية إلى أداء سيئ.

ولقد أجرى كلينسميث وكابلان (Kleinsmith & Kaplan) عام 1963 مجموعة من التجارب لإثبات النتيجة السابقة. استخدم فيها أنواعاً من الكلمات ما بين الكلمات عالية الاستشارة (الاغتصاب - إغماء - غثيان)، وكلمات أخرى أقل كثيراً في الاستشارة (يسبح - يرقص)، وقد أسفرت التجربة عن سهولة تعرض الكلمات قليلة الاستشارة للنسiano، أما الكلمات عالية الاستشارة فإن استرجاعها يتحسن بمرور الوقت. ولاشك أن مستوى الاستشارة لدى الفرد يتعرض للتغيرات أثناء اليوم، فمع اليقظة تكون الاستشارة في درجاتها الأقل، ثم تزايد أثناء اليوم حتى المساء، ثم تبدأ في الهبوط مرة أخرى. ومنذ تجارب إنجهاوس، فقد ثبت أن قدرة الفرد على التعلم تتغير أثناء اليوم، وأن أفضل فترات اليوم للتعلم ترتبط ببعضه استرجاع المادة المتعلمة، وهل يتم الاسترجاع بعدها مباشرة، أم بعدها بفترة.

ولقد أجرى فوكارد Folkard وزملاؤه في جامعة Sussex تجاربهم عام 1977، التي انتهت كذلك إلى إثبات أن ملائمة وقت التعلم ترتبط ارتباطاً قوياً بتحديد فترة الاسترجاع للمادة المتعلمة.

فقد عرضوا على مجموعتين من التلاميذ دراسة إحدى القصص، إحداهما لدراستها صباحاً، والأخرى لدراستها في فترة الظهيرة. ولقد وجدوا أنه في حالة اختبارهم بعد دراستها مباشرة، كان أداء المجموعة التي درست صباحاً أفضل من المجموعة التي درست في فترة الظهيرة. أما عندما تأجلت عملية الاستدعاء، فقد كانت المجموعة التي درست في فترة الظهيرة هي الأفضل (Folkard, et al, 1977). وقد تساءل الباحثون في ضوء هذه النتائج عن الظروف الأكثر مناسبة لتعلم الرياضيات، إذ تشير الجداول الدراسية إلى أن حرص الرياضيات غالباً ما تكون في بداية اليوم الدراسي، وحيث إن الاسترجاع لا يتم مباشرة لهذه المادة بعد اليوم المدرسي، فهل يمكن من الأفضل لتعلم الرياضيات أن يتم في فترة الظهيرة؟ بمعنى هل يمكن أن يؤدي تغيير فترة تعلم مادة الرياضيات إلى تعلم أفضل لها؟ قد يكون في الإجابة عن هذا السؤال ما يعين على تكوين الجدول المدرسي بطريقة أفضل لعملية التعلم.

#### التكرار والتعلم:

تقترح بعض نظريات التعلم أن تكرار الفرد للمادة التي تعلمها هو كل ما يحتاجه لكي يحدث التعلم. غير أن التجارب الحديثة في التعلم قد كشفت عن أن التكرار وحده دون تدخل من الفرد لتنظيم المادة، قد لا يؤدي إلى التعلم. وفي تجربة قام بها بادلي وزملاؤه، عن تأثير بعض المعلومات التي تقدمها الإذاعة البريطانية، تحدد فيها موجات جديدة ليستمع إليها المواطن الإنجليزي. وعلى مدى شهرين، كان يتم قطع الإرسال بانتظام؛ لكي تتم إذاعة المعلومات. وباختبار 50 مواطناً تطوعوا للمشاركة في التجربة، مثلت ربات البيوت أغلب أفراد العينة. وبسؤال العينة عن ميعاد تغيير الموجات، أجاب 84% منهم بالإجابة الصحيحة. أما عن الأرقام الدالة على هذه الموجات، فلم يعرفها من العينة إلا 25% فقط. ولقد استدل بادلي من ذلك أن التكرار وحده ليس كافياً للتعلم، كما أن إذاعة هذه المعلومات على مدى شهرين كاملين قد أدى إلى تكون هذه المعلومات بشكل مقطعي، وقد يتم تجاهلها. هذا فضلاً عن أن الإعلان يفترض أن المستمع يدير مؤشر الراديو على أساس طول الموجات.

وخلال تلك التجربة أن التكرار وحده لا يأت بالتعلم في حالة المعلومات المركبة، بل قد يؤدي إلى أقل ما يمكن من التعلم.

#### عامل المعنى والتعلم:

من أهم النتائج التي خلصت إليها تجربة الإعلان على الإذاعة البريطانية أن التعلم يرتبط بمعنى الشيء بالنسبة للفرد. ورغم أن تجارب إينجهاووس قد حاولت تجنب تأثير عامل المعنى على التذكر باستخدام القوائم الصماء، إلا أنه كان مقتنعاً أنه قلل فقط من دور المعنى في تجارب الذاكرة. غير أن



من تبعوه بعد ذلك كانوا أقل تيقناً من أنهم استطاعوا أن يمنعوا المبحوثين في هذه التجارب من استخدام المعنى، الذي يمكن أن يكتشفوه في المادة المقدمة. ففي عام 1930، تم تصنيف القوائم الصماء التي استخدمت في التجارب، وقد وجد أن أكثر القوائم تعلمًا، كانت أكثرها اقتراحًا من وجود ارتباط ما بين الكلمات التي تتكون منها.

وقد يعترض البعض بأن القليل مما نتعلمه في الحياة الواقعية يكون بدون معنى، وذلك يعني أن ما توصل إليه علم النفس عن الذاكرة له قيمته المحدودة. إلا أنه في السنوات الحديثة، وُجه الكثير من الاهتمام إلى التجارب على الكلمات ذات المعنى بالنسبة للفرد. ولاشك أن الكلمات تتباين في درجة قابليتها للتذكر، غير أن الكلمات المرتبطة بالأشياء المحسوسة، والتي يمكن أن ترتبط بالصور الذهنية، أو التي يمكن تكوين صور ذهنية عنها - هي أكثر الكلمات طوعية للتذكر، أما الكلمات المجردة، فهي أكثرها صعوبة في الاستدعاء أو التذكر. فضلاً عن هذا، فإن احتمال تذكر الجمل وتعلمها يكون أفضل من تعلم الكلمات غير المرتبطة في قائمة؛ ذلك أنه توجد علاقة قوية تربط بين كلمات الجملة معاً، أما كلمات القائمة فليس بينها رابطة؛ الأمر الذي يسمح بإمكانية التنبؤ في عملية الاستدعاء، بل ويساعد عليها.

وقد تسهم نظرية المعلومات - وهي توجه إحصائي لفهم اللغة - في تفسير هذه العلاقة. ويوضح تأثيرها على علم النفس من خلال تأثير التكرار أو القابلية للتنبؤ؛ حيث إن كلمات الجملة ليست مستقلة، بل يعني أن هناك قواعد تحكم بناء الجملة، وترتيب الأسماء والأفعال والصفات ... إلخ. ومن ثم يمكن توقع ترتيب ما لكلمات الجملة، والتنبؤ بالكلمات المفقودة مثلاً، أو توقع تكملة ما ... وهذا يعني أن التنبؤ بكلمة ما يتوقف على علاقة هذه الكلمة بالكلمات المحيطة بها، التي تسبقها والتي تلحق بها. ومن ثم إذا عُرض على الفرد عدد من المقاطع المكونة من كلمات لها معنى، غير أنها تختلف في ترتيب هذه الكلمات داخل القطعة، فإن أكثر المقاطع طوعية للتذكر هي التي تتبع الترتيب المنطقي لكتابية الجملة؛ حيث إن ذلك يساعد على تكوين المعنى بصورة أفضل، كما يسمح بدرجة أفضل في التنبؤ بالكلمات.

وفي تجربة قام بها بادلي للتعرف على العلاقة بين بناء الجملة، وبين قدرة الفرد على التنبؤ بالكلمات المفقودة، عرض على مجموعة من المبحوثين تعلم مقطع يتكون من عدد من الجمل، حيث حذفت كل خامس كلمة من المقطع، وترك مكانها شاغرًا، وطلب من الأفراد تخمين الكلمة المفقودة. وقد قارن في هذا بين نوعين من المقاطع، أحدهما من قصص للأطفال، والثانية من قصة عاطفية للكبار. وقد وجد أن تخمين الكلمات المفقودة في قصة الأطفال كانت أفضل منها في القصة العاطفية، ولم يكن هناك تفسير من بادلي على هذه الفروق، غير أنه خلص إلى أنه بقدر ما تكون المادة مكررة، ويمكن التنبؤ بها، كلما كانت أيسر في الاستدعاء والتذكر.

ومن ثم، فإن عامل المعنى يلعب دوراً مهماً في عملية التذكر، وفي كفاءة الذاكرة. ولكن هل يعني ذلك أن تجارب إينجهوس قد ضلت الطريق عندما استخدمت القوائم الصماء، وتجنبت تماماً دراسة دور عامل المعنى في عمل الذاكرة؟ من المهم التأكيد على أن أكبر الاكتشافات عن الذاكرة كانت على يد إينجهوس، والذي أثبت أنه يمكن دراسة الذاكرة دراسة علمية، بعد أن كانت من اهتمامات الفلسفة، هذا فضلاً عن أنه بإقصائه لعامل المعنى، استطاع أن يقدم أهم ملامح الذاكرة الإنسانية. غير أن الاهتمام بعامل المعنى كان من اهتمامات العالم فرديك بارتلت (Frederick Bartlett)، وهو ما سنعرض له فيما بعد بالتفصيل.

### طرق التعلم وأداء الذاكرة:

هناك طرق متعددة للتعلم، تتدرج من التعلم دون وجود المعنى - كما يحدث في التعلم بالاستظهار (rot) والحفظ عدة مرات - إلى التعلم الذي يستعين فيه الفرد بمعنى تارة، وبالتخيل البصري تارة أخرى، وبعمل الارتباطات بين الأشكال والاصوات تارة ثالثة، والتعلم من خلال العلاج تارة أخرى. وفي كل هذه الأنواع، يختلف أداء العقل من واحد للآخر.

ويستخدم التعلم بالحفظ والاستظهار عبر مراحل التعليم المختلفة، وعبر ثقافات متباعدة. ففي الهند - على سبيل المثال - يتم حفظ أقدم الكتب المقدسة عن الديانة الهندوسية التي تمت كتابتها منذ 1500 عاماً قبل الميلاد، ويتم نقل هذه المعلومات من جيل إلى جيل لفظياً. كما يعرف رجال الدين هذه المعلومات عن ظهر قلب، وتدربيوا على إلقائها، حتى إذا لم يعرفوا معناها. والتعلم بالحفظ من أنواع التعلم التي تتأثر بالتقدم في العمر؛ فكلما تقدم العمر كلما أصبح التعلم بالاستظهار أمراً صعباً. وهو الأمر الذي له علاقة بكفاءة الذاكرة قصيرة المدى واختلافها عبر مراحل العمر، وهو ما سنعرض له تفصيلاً عند تناول الذاكرة والتقدم في العمر.

### أما السؤال الذي يطرح هنا، هو: هل لهذا النوع من التعلم أساسه في المخ؟

حاولت الدراسات الحديثة تصوير المخ أن تختبر هذا الأمر، ومعرفة كيف يؤثر حفظ الكلمات مثلاً على نشاط المخ. وقد كشفت هذه الدراسات - بما يشبه الاتفاق - عن أن مناطق بعينها في المخ هي (premotor cortex and inferior frontal cortex في النصف الأيسر من المخ تتم إثارتها عند حفظ الكلمات، سواء أكان ذلك جهراً أو سراً. كما يعرف الآن أن هذه المناطق هي المعنية بحدث الكلام.

أما عن علاقة هذا النوع من التعلم بالذاكرة، فإنه الأكثر ارتباطاً بالذاكرة قصيرة المدى. فكما كشفنا تناولنا لها في الفصول السابقة، فإنها محدودة الزمن ومحدودة السعة أيضاً، وإن المعنى هو الذي يمكن أن يزيد من كفاءة هذه الذاكرة في استدعاء المعلومة.



وقد انقسمت الآراء حول أهمية التعلم بالاستظهار؛ فقد يرى فريق أنه يؤدى إلى التأثير بالسلب على القدرات الإبداعية، فضلاً عن كونه سهلاً لبعض الفئات، مثل الأوتیزم مثلاً، لكنه يكون غاية في الصعوبة على من يعانون من صعوبات القراءة. هذا بالإضافة إلى أنه لا يعطى الفرد فرصة للإفادة من قدراته. أما الفريق الآخر فقد يرى أنه في عدم إتاحة الفرصة للفرد للتعلم بالاستظهار هو نوع من العيب؛ فهو يفيد في تعلم الكلمات في اللغة الأجنبية، وفي حفظ جدول المواعيد مثلاً، أو حفظ خطبة. كما أن الأطفال قبل تعلمهم القراءة، يستطيعون تعلم الكثير بالحفظ. ومن ثم يمكن الإفادة منه في مراحل بعضها من النمو المعرف للطفل، وفي نواعيّات من ذوي الاضطرابات السلوكيّة والانفعالية من الأطفال، كذلك في نوعيّات بعضها من المعلومات.

أما في التعلم باستخدام التخييل البصري (visual imagery)، فهي الطريقة التي تعنى استخدام عين العقل في التعلم. وقد ثبت لهذه الطريقة قوتها في دعم أداء الذاكرة، وقد سبق أن عرضنا بعض التفصيات فيتناول معينات الذاكرة. ولعل كفاءة هذه الطريقة ترتبط كذلك بسهولة تعلم الأشياء المحسوسة أكثر من تعلم الأشياء المجردة، حيث يمكن تخيل هذه المحسوسات. أما ما يُعرف اليوم عن رياضة الذاكرة (memory athletes)، وتتفوق بعض الأفراد ذوي القدرات الفائقة في التذكر، فقد كشفت الدراسة التي قامت بها إلينور ماكجوير (Eleanor Macguire) في جامعة لندن، على هؤلاء الأفراد الذين فازوا في مباريات الأولمبياد لقدرتهم على التذكر، عن عدم اختلاف هؤلاء الأفراد في مستوى الذكاء عن غيرهم من العاديين. كما لم يختلف بناء المخ لديهم عن غيرهم، بل إن ما حدث هو أنهم قد دربوا أنفسهم على مزيد من تخزين المعلومات واسترجاعها، كما كشف جميعهم عن استخدام التخييل البصري في هذا التدريب. أما عن المناطق التي استثمرت في المخ نتيجة لهذا التدريب، فهي منطقة قرن آمون (hippocampus)، وهو ما يشتراك فيه كل الأفراد، وتدل هذه الدراسة على أن الذاكرة قصيرة المدى قابلة للتتدريب.

وقد ساعد تصوير المخ على معرفة الكثير عن الأساس الذي يقوم عليها التعلم المعتمد على التخييل - (imagery based learning) والذاكرة. فقد كشفت الدراسات التي قام بها ستيف كوسلين Steve Cosslyn وفريقه، في جامعة هارفارد، أنه في تخيل الشيء فإن ثالثي المناطق المعنية في المخ تنشط، بالمقارنة بحالة نشاط المخ عند رؤية الشيء ذاته. فضلاً عن هذا، فقد كشفت الدراسات عن أن استجابة العقل للأشياء المجردة في مقابل الأشياء المحسوسة ترتبط بالفارق في النظام العصبي الذي يحدد ذاكرة الأشياء ذات الدرجات المختلفة من القابلية للتخييل. وبصفة عامة، فإنه كلما كان الشيء محسوساً، كلما كان نشاط المناطق المعنية بالتخيل البصري في المخ أكبر. كما أشارت نتائج دراسات تصوير المخ، أنه في حالة تذكر كلمتين غير مرتبطتين، فإن المنطقة قبل الأمامية من المخ هي التي تنشط، وهي المنطقة التي تلعب دوراً مهماً في القدرة على سعة الحيلة (resourcefulness). ومن

ثم فإن نشاط هذه المنطقة يكون مهمًا إذا ما كان على الفرد أن يوجد ارتباطًا ذا معنى بين أشياء غير مترتبة. فضلاً عن هذا، فقد كشفت هذه الدراسات أيضًا عن أن تخيل المناظر المشحونة بالانفعال تثير مناطق في المخ أكثر مما تثير رؤية المناظر المحايدة. فقد وجد أن هذه النوعية من المناظر تثير عدة مناطق في المخ، وتعد منطقة الجزيرة المعلوقة الأمامية (anterior insula) هي المعنية بتسجيل حالة النشاط الذاتي في الجسم، مثل ضربات القلب، والتنفس ... وفي خلق المشاعر العميقه من صميم الفؤاد. ومعنى ذلك أن رؤية المناظر المؤثرة لا تؤثر فقط على الجسم، بل تؤثر كذلك على المخ الانفعالي.

ويعد التقليد أو المحاكاة (imitation) من إستراتيجيات التعلم، ويوجد الكثير من أشكال هذا التعلم بين الحيوانات، إذ تتعلم الحيوانات من بعضها البعض، وقد يتعلم بعضها من الإنسان، كما في حالة الشمبانزي. وفي الطفولة المبكرة، تستطيع أن ترى قدرة الطفل في الشهر الثالث على تقليد بعض حركات الوجه من المحظيين به، وهو الأمر الذي كشفت عنه دراسات أندرو ميلتزوف A. Meltzoff من جامعة واشنطن في سياتل. كما يتعلم أيضًا الطفل من أقرانه، فقد أشارت الدراسات إلى أن تأثير القرآن يكون واضحًا جدًا في تعلم اللغة، إذ يميل الأطفال إلى التقاط لهجة القرآن في تعلم اللغة أكثر من تأثيرهم بالوالدين. وفي عالم الكبار فإن الناضجين يميلون إلى تقليد التعبيرات الوجهية، لكنه قد يكون بصورة أقل كثيراً من الأطفال، وتلاحظ هذا في محادثة بين فردتين مثلاً، وهذا التقليد الاجتماعي قد يؤثر على علاقات التواصل بين الأفراد بالإيجاب.

وقد كشفت دراسات المخ عن أنه عند رؤية فرد يتحرك فإن ذلك يثير المنطقة المماثلة في المخ، والتي أدت إلى هذه الحركة؛ حيث إن مناطق الحركة في المخ لدى الملاحظ تنشط بمجرد رؤية الحركة حتى قبل أن يتحرك. وقد أشارت دراسات تصوير المخ أن النشاط في المناطق الحركية في المخ يتزايد إذا لاحظ الملاحظ فعل فرد آخر بقصد تقليده فيما بعد. ومعنى ذلك أنه حينما يتفاعل فردان مع بعضهما البعض فإن الأبنية المتماثلة في كلا العقلين تنشط معاً تلقائياً، ولاشك أن ذلك يسهل حدوث التعلم.

وقد كشفت دراسات جياكومو ريزولاتي (Jiacomo Rizzolatti) في إيطاليا، أن القردة تشارك مع الإنسان في هذه الظاهرة. وبتشريح المخ، وجد أن ما يحدث هو أن النيرونات في المنطقة قبل الحركية ( premotor cortex )، وهي المنطقة التي تعنى بضبط الحركة في المخ في مخ القردة، تنشط عندما يلاحظ فرداً أو حيواناً آخر من نوعه، يتناول شيئاً حتى في حالة عدم تحركه. وهذه الظاهرة تعرف بظاهرة النيرونات المرآة (mirror neurons).

وقد يتساءل البعض إذا كان تصوير النيرونات موروثاً في المخ، فلماذا لا نقلد كل ما نراه؟ وقد أجبت الدراسات على ذوى الإصابات بالمخ، خاصة إصابات اللحاء الأمامي، بأنهم غالباً ما يكتشفون عن تكرار متزايد لأفعال الآخرين؛ لأن هؤلاء المرضى لم يعودوا قادرین على قمع سلوكهم، فهم يقلدون أفعال الآخرين، حتى غير المناسب منها، وذلك يعني أن التقليد إنما يحتاج إلى الفص الأمامي لضيبله.

ومن طرق التعلم الأخرى ما يحدث في التعلم عن طريق العلاج؛ فالعلاج السلوكي الذى ينجح غالباً في معالجة المشكلات، مثل الخوف المرضى والسلوك القهري - قد أفاد من دراسات الحيوان. فالفرضية التى قام عليها العلاج السلوكي في علاج المخاوف المرضية تتلخص في أن الفرد المريض لديه خبرة سلبية مع الشيء موضع الخوف، وأن تجنب هذا الشيء يساعد على عدم حدوث الخوف منها، ومن ثم يتعامل العلاج السلوكي مع المريض بتعليمه مواجهة ما يخاف منه في ظروف آمنة.

كذلك يفيد العلاج المعرفى في تغيير سلوك الفرد؛ إذ إنه يعمل على إعادة تدريب الفرد على الطريقة التى يفكر بها في موضوع ما. وقد كشفت دراسات تصوير المخ التي قامت بها هيلين مايبرج (Helen Mayberg) وزملاؤها أن العلاج المعرفى يؤدى إلى تغييرات فيزيقية في المخ، بما يؤدى إلى تغيير وظيفى في المخ. وقد يساعد ذلك في المستقبل على إعادة تأهيل الأفراد الذين لم يحصلوا على التعليم الكافى في فترة الطفولة، أو أولئك الذين يريدون تحسين قدراتهم التعليمية.

### التعلم الضمنى:

إن إحدى إضافات علم دراسة الأعصاب إلى العملية التعليمية، هي توضيح طبيعة التعلم في ذاته، فليس هناك نوع واحد من التعلم. ففي فصل سابق أشرنا إلى ما يسمى بالذاكرة الضمنية في مقابل الذاكرة الواضحة أو المعلنة، وقد بينا أن المرضى بفقدان الذاكرة يستطيعون تعلم أداءات حالية، شريطة ألا تتطلب خبرة سابقة بهذا الأداء. ويعنى هذا أن هناك أنواعاً من التعلم تختلف عن النوع الذى فرغنا منه تواً، والذي يمكن تسميته بالتعلم الصريح أو المباشر، الذى يقوم على الاستخدام النشط للانتباھ. أما النوع المختلف الذى يمكن أن يكون لدى مرضى فقدان الذاكرة، فهو التعلم الضمنى، والذي يبدو أنه يقوم على أساس مختلفة.

وبالاشارة إلى أبنية المخ، فإن تعلم الرياضيات يختلف عن تعلم القراءة، أو لعب آلة موسيقية مثلاً. فكل نظام من نظم الذاكرة يعتمد على نظام مختلف في المخ، ويتطور في مدى زمني مختلف؛ إذ إن تذكرك ملن تكون يختلف عن تذكرك لأين أنت. وقد وضح في الفصل الثاني كيف تختلف أنواع الذاكرة: ما بين تسجيل للأحداث الحياتية (كما في ذاكرة الأحداث)، وبين ذاكرة الأسماء والأعداد والتواريخ والحقائق (ذاكرة المعانى). كما أن أداء المهارات الحركية العقلية - مثل ركوب الدراجة -

يعنى التعامل مع ذاكرة مختلفة (ذاكرة الإجراءات). وهذه الأنواع من الذاكرة يتم تعامل المخ معها بشكل منفصل؛ مما يعنى أن التعلم يمكن أن يكون معلناً أو ضمنياً.

وبالتطبيق على حالات فقدان الذاكرة، فإن هذا المرض تميزه أعراض اضطراب ذاكرة الأحداث (Episodic memory)، وصعوبة كبيرة في إضافة معلومات جديدة إلى ذاكرة المعانى، غير أن الفرد يكون قادرًا على الوصول إلى المواد التي تم تعلمها، ومنها اللغة والفهم. ومع ذلك، فإن مدى كبرًا من أنواع من التعلم تظل بحالة جيدة في مرضى فقدان الذاكرة. هذه الأنواع من التعلم تكون بالأداء، وليس بإعادة تجميع خبرات التعلم؛ فهناك أنواع من التعلم الصبغي، التي تعتمد على أنواع مختلفة من أبنية المخ. ويشير هذا النوع من التعلم إلى أنه قد يحدث تعلم دون أن نكون واعين به، إلا أنها جميعًا تشتراك في عدم اعتمادها على ذاكرة الأحداث. ومن أنواع التعلم هذه ما يلى:

#### التمييز (Priming)

فور إدراك الفرد للشيء أو التعامل معه، يكون من اليسير إدراكه في المرة التالية، ويعمل التمييز من خلال مدى واسع من الأنظمة الحسية الحركية التي تحدث على مستويات مختلفة. فعلى سبيل المثال، فإن رؤية صورة للطائرة، تيسّر على الفرد تجميع أجزاء الطائرة التي تعرضت متفرقة في موقف آخر. وبصفة عامة، فإن التمييز يميل إلى أن يكون محدودًا جدًا، رغم أنه قد يسهل بعض الجوانب الإدراكية الأخرى، فهو كما أشرنا من المهارات التي يحتفظ بها الأفراد ذوو فقدان الذاكرة. ففي إحدى التجارب، عرضت مجموعة من الكلمات على عينة من مرضى فقدان الذاكرة، ثم تم اختبارهم بطريقتين؛ الأولى: أن تعرض عليهم الكلمات ذاتها مقسمة إلى حروف مع حذف إحداها، مثلًا: كلمة تفاح، تعرض (ت . ف . ا ...)، وعلى الفرد أن يستكمل الحرف الناقص، ويتعرف على الكلمة، وهذه الطريقة لاختبار التعلم الصبغي أو الذاكرة الصبغية. أما الطريقة الثانية فهي لاختبار التعلم الصريح أو الذاكرة المعلنة، وذلك بوضع الكلمات التي تم تعلمها للمريض ضمن قائمة أخرى من الكلمات التي لم يتم تعلمها لها، وعلى الفرد أن يحدد كل الكلمات إذا كانت قديمة (تم تعلمها) أم جديدة (لم يسبق أن رأها). فماذا كانت النتائج؟ إن أداء المرضى على طريقة اختبار الذاكرة الصبغية أفضل كثيراً من أدائهم على اختبار الذاكرة الصريح، وذلك بمقارنتهم بالعينة الضابطة من الأفراد العاديين.

وفي تجربة أخرى لقياس محدودية تأثير التمييز قام بها شاكتر et al وزملاؤه عام 1990، على مجموعتين؛ إحداهما من مرضى فقدان الذاكرة، والأخرى ضابطة من العاديين، وقد عرضت عليهما قائمة بمجموعات من الرسوم، وطلب إليهم الحكم على مدى إمكانية تكوين الأشياء التي تعبّر عنها كل مجموعة من مجموعات الرسوم، وقد كانت بعض هذه الأشكال تتضمن البعد الثالث في الرسم. ولقد وضح تمامًا تأثير التمييز في أداء المجموعتين، حتى في تكوين

الأشكال المعتمدة على هذه الرسوم، وقد خلص شاكرت من هذا إلى أن هناك مدى واسعاً من العمليات الإدراكية التي تحدث، معتمدة على المخزون الحالى من المعلومات، وهذه العمليات تعتمد على أجزاء أخرى من المخ وجدت لدى مرضى فقدان الذاكرة، ولا ترتبط بقرن آمون، والمناطق الأخرى المرتبطة بالتعلم الواضح.

وهناك تجارب أخرى حديثاً أجريت على مجموعات الأسوبياء؛ وذلك للتأكد من أن العوامل التي تؤدي إلى التعلم الواضح لا تؤثر على التعلم الضمني، والعكس صحيح. ومن الخصائص الأخرى التي تم اختبارها الطريقة التي يؤثر بها التمييز على منطقة الوعي. فقام جاكوبى وزملاؤه Jacoby بدراسة دقيقة عام 1988، حيث تعرض الأفراد لتعلم قائمة من الكلمات، ثم مع خلفية موسيقية (كانت ثابتة من حيث مستوى الصوت)، طلب إليهم أن يحددوا مستوى الصوت مع كل كلمة تعرض عليهم. وقد وضعت الكلمات التي تم تعلمها ضمن قائمة أخرى تضم كلمات جديدة، ومع كل كلمة تقرأ عليهم كان يطلب منهم تحديد مستوى الصوت في الخلفية الموسيقية. وقد أسفرت التجربة عن أن الأفراد كانوا يحكمون على مستوى الصوت بأنه أهدأ في حالة الكلمات التي تم تعلمهم لها، بينما حكموا على مستوى الصوت بأنه مرتفع في حالة الكلمات الجديدة والتي لم يتعلموها. ومعنى هذا أن تأثير التمييز قد ساعدتهم على أن يسمعوا الكلمات التي تعلموها أفضل، وهو ما عبروا عنه بأن الموسيقى كانت أهدأ، مع العلم أن درجة الصوت كانت ثابتة مع كل الكلمات. وتفسير هذا هو أن التعلم الضمني هو الذي أتاح لهم تعلم الكلمات في المرة الثانية بطريقة أفضل.

وفي تجربة أخرى قام بها جاكوبى أيضاً عام 1989، عرض فيها مجموعة من الأفراد لتعلم مجموعات من الأسماء، وبعدها مباشرة طلب إليهم الاستماع إلى مجموعة أخرى من الأسماء تضمنت الأسماء السابقة التي تعلموها دون إخبارهم بذلك، والحكم على بعضها إذا كان مشهوراً أم لا. وأسفرت النتائج عن ميل خاطئ من الأفراد إلى الحكم على الأسماء التي تم تعلمها بأنها من الأسماء المشهورة، وهي غير ذلك. وفي محاولة أخرى أعملن للأفراد صراحة أنه لا اسم من الأسماء التي تم تعلمها له علاقة بالشهرة، إلا أن الأفراد ظلوا يحكمون على الأسماء التي تعلموها في الجزء الأول من التجربة على أنها مشهورة، وفي هذه النتائج ما يشير بوضوح إلى تأثير التعلم الضمني.

#### \* الارتباط الشرطي:

بناء على ما أسفرت عنه تجارب بافلوف عن الارتباط الشرطي الكلاسيكي، فإن استمرار ارتباط مثير غير شرطي بالثيرط الطبيعي، يؤدي إلى قدرة المثير غير الشرطي على استثارة الاستجابة الطبيعية. فارتباط ظهور الكرة بظهور الطعام، أدى إلى أن ظهور الكرة وحدها يؤدي إلى ظهور الاستجابة، وهي إفراز اللعاب. ولقد أجرى النيرولوجي كلابارييد Claparede تجاربه في الاشتراط الكلاسيكي على بعض مرضى فقدان الذاكرة. ففي تجربة على أحد هؤلاء المرضى، وضع له (دبوسا) في يده أثناء

مصاحفته لهذا المريض، وفي اليوم الثاني رفض المريض مصافحة الطبيب رغم أنه لم يسترجع شيئاً من الخبرة السابقة. وفي تجربة أخرى على هذه النوعية من المرضى، تم تدريبهم على غلق أعينهم عند الاستماع إلى الصوت، وذلك عن طريق تمرين تيار هواء ضعيف مع لحظة صدور الصوت .. وقد أظهر المرضى شديداً فقدان القدرة على هذا التعلم الشرطي، ولم يسترجعوا شيئاً عن الخبرة السابقة في التعلم.

كما أن هناك نوعاً آخر من التعلم الضمني الذي يمكن أن يتواجد لدى مرضى فقدان الذاكرة، وهو الاشتراط التقييمي (evaluative conditioning). فعلى سبيل المثال، هناك ميل من الأفراد نحو الأشياء المألوفة أكثر من الأشياء غير المألوفة. ومن ثم، إذا استمع فرد إلى قطعة موسيقية من ثقافة مختلفة، قد لا يستحسنها في المرة الأولى، وقد يتحسن حكمه عليها بعد ذلك. وفي تجربة استمع فيها مجموعة من الأفراد، إحداهم من مرضى فقدان الذاكرة والأخرى من الأفراد العاديين، لمعزوفات موسيقية من الثقافة الكورية. وفي الفترة التالية استمعت المجموعة إلى عدد من القطع الموسيقية من بينها المعزوفات الكورية، وطلب من الأفراد في المجموعتين أن يحكموا على القطع الموسيقية، إذا ما كانت تستثير السرور أم لا. وخلصت النتائج إلى ميل الأفراد في مجموعة المرضى والعاديين إلى تقييم الموسيقى الكورية التي استمعوا إليها قبل ذلك، بأنها تستثير الشعور بالسرور، رغم أن المرضى ذوي فقدان الذاكرة لا يستطيعون استدعاء الخبرات السابقة.

وبالانتقال من مجال الدراسات على المرضى إلى الدراسات على الأشخاص، وخاصة الأطفال، فإن من أكثر الاستجابات الاشتراطية التي درست في الإنسان هي ما يسمى استجابة طرفة العين eye - blink response. فإذا ما تم الاستماع إلى نغمة موسيقية بعينها مرتبطة بحدوث تيار خفيف من الهواء على العين، فإنه مع تكرار هذا الموقف، تستطيع النغمة الموسيقية وحدها أن تؤدي إلى حدوث طرفة العين؛ ذلك أن المخ قد تعلم الربط بين النغمة الموسيقية وبين تحريك تيار الهواء للعين. وقد كشفت الدراسات أخيراً عن أن هذا التعلم يتحكم المخيخ (cerebellum) والأطفال الصغار يستطيعون التعلم بالاشتراك منذ الشهر الثالث، فهم يتعلمون أن الصراخ المستمر مثلاً يؤدي إلى وجود الوالدين، أو أن وجود التلفون المحمول يعني الموسيقى. وخلاصة هذا أن الأطفال يستطيعون التعلم دونوعي بذلك.

#### \* تعلم المهارات:

ويؤدي التعلم بالارتباط الشرطي إلى تعلم المهارات الحركية، وهو ما يسمى بالذاكرة الضمنية. وتعتمد هذه الذاكرة على العقد الرئيسية، وهذا البناء العميق في المخ لا يكون مكتملًا عند ميلاد الطفل، لكنه مع اكتمال الشهر الثالث يصبح قادرًا على الأداء. ففي هذه الفترة يستطيع الأطفال أن يتعلموا أن شد الأشياء بطريقة معينة تتيح لهم الفرصة أن يمسكوا بها، وبالتالي يصبح ما يمكن أن يتعلموه إجرائيًّا أكثر تعييًّداً، مثل الحبو، الوقوف، المشي، وكلها من الأمور المعقدة التي على العقل

أن يتعلّمها، كما أن الميالات التي تشارك في هذا النوع من التعلم تختلف تماماً عن التي تشارك في تعلم الحقائق مثلًا أو تذكر الأحداث.

أما عن هذا التعلم لدى مرضى فقدان الذاكرة، فقد وجد أنهم يتعلّمون مهارات جديدة، مثل المهارات الحركية، أو الميالات المعرفية، مثل حل الألغاز، أو الميالات الإدراكية، مثل قراءة فقرة في المرأة. وفي تجربة على طفلين في سن الخامسة عشر فقدا الذاكرة، استطاعا أن يقوما بمهارة حركية تعتمد على متابعة مؤشر ما في حركة دائرة مستمرة، وقد استطاعا تعلم هذه الميالة بمقارنتهما بطفلي عاديين. بل وأكثر من هذا استطاعا الاحتفاظ بهذه المهارة بعد أسبوع من تعلّمها، رغم إنكارهما أنّهما قد شاهدا هذه الأداة من قبل.

وقد كشفت الدراسات على هؤلاء المرضى أنّهم يستطيعون اكتساب الميالات، دون تذكرهم أنّهم قد تعلّموها من قبل. ويفسر المتخصصون في علم الأعصاب ذلك بأن العقد الرئيسية تظل في حالة جيدة، رغم إصابتهم، فتظل قادرة على التعلم الإجرائي، وعلى الاحتفاظ بالميالات التي تم تعلّمها من قبل، وهذا على العكس مما يحدث في مرضى باركنسون تماماً، حيث تضطرب هذه المنطقة من المخ في ظائفها. فهؤلاء المرضى لديهم ذاكرة جيدة للأحداث وللحقائق، لكنهم لا يستطيعون تعلم مهارات جديدة. وقد تدعمت هذه النتائج بالدراسات الحديثة بالتصوير الوظيفي للمخ، وكشفت عن وجود النشاط في منطقة قرن آمون، وعدم وجوده في منطقة العقد الرئيسية في حالة تعلم معلومات جديدة. بينما يتواجد النشاط في منطقة العقد الرئيسية، ولا يتواجد في منطقة قرن آمون في حالة تعلم الميالات الحركية الجديدة.

#### \* التعلم غير المترابط (non- associative learning)

أجريت العديد من التجارب على التعلم الضمني، مع التركيز على كيفية تعلم الأفراد لأعمال على درجة من التعقيد لدرجة الإتقان والخبرة، إلا أنّهم لا يستطيعون أن يوضحوا كيف وصلوا إلى هذا الأداء الناجح. والمثال الواضح على هذا هو معرفة الفرد بالقواعد في اللغة، فالأطفال يتعلّمون اتباع قواعد اللغة في لغتهم الأم، قبل أن يستطيعوا أن يحدّدوا مكونات هذه القواعد بفترة طويلة. فالطفل يستخدم الزمن الماضي والحاضر والمستقبل في لغته مع الآخرين، قبل أن يدرس أن هذا الزمن الماضي، وكيف يتكون ... إلخ.

وقد درس البعض قدرة الأفراد على التمكّن من المثيرات الخاصة بالحاسوب الآلي للأعمال المعقدة، مثل إدارة مصنع مثلاً (Berry & Dienes, 1993). وقد أظهر الأفراد المرضى بفقدان الذاكرة قدرتهم على هذا النوع من التعلم، على الأقل في المراحل الأولى من العمل. كما أثبتت هؤلاء المرضى أيضًا قدرتهم على اكتساب بعض المفاهيم البسيطة، مثل القدرة على تحديد نمط انتظام مجموعة من النقاط بناء على بناء النمط العام للشكل.

والذاكرة الضمنية أو غير المعلنة هي منطقة قد حظيت باهتمام الباحثين على مدى السنوات الخمس الأخيرة منذ عام 1994. فقد تم تناول التعلم الضمني في هذه الأبحاث بدءاً من الارتباط الشرطي الكلاسيكي وانتهاء بحل المشكلات، ومن تكملة كلمة إلى إصدار الحكم. وبالرغم مما يبدو أن كل هذه الظواهر تعتمد على نظام واحد، إلا أن العكس هو الصحيح؛ فالتعلم الضمني يقاس بالأداء الفعلي، وما إذا كان قد تم سريعاً أو بكفاءة، ولا يعتمد على الوعي بالخبرة السابقة للعمل، أما الذاكرة المعلنة، فهي تهتم باستدعاء أو إدراك الخبرة السابقة. ومن الجدير بالذكر، أن اختبارات الذاكرة نادراً ما تكون قياسات دقيقة خاصة من الجوانب الأخرى المحددة للنظام. وبناء عليه، فإن غالبية النتائج التجريبية تميل إلى أن تعكس - على الأقل - بعض مكونات الذاكرة الضمنية غير المعلنة.

وقد كشفت الأبحاث على هذا النوع من التعلم، عن أن الأفراد يستطيعون تعلم معلومات في غياب الوعي؛ فالمخ يستطيع أن يتعامل ويخزن المعلومات دون أن نعرف نحن عنها. ففي التعلم المعلن، نتعلم معلومات واعين بها جيداً، ونعرف أنها تعلمناها. أما في التعلم الضمني فإنه يمكن معرفته مثلاً حين يظهر الفرد شعوراً غامضاً بالألفة لشخص أو لشيء. وقد كشفت الأبحاث النفسية عن هذا النوع من القدرة، وخلصت إلى أن الأفراد يمكنهم تعلم قواعد معقدة بالposure للتتابعات التي تساند هذه القواعد.

وفي إحدى هذه التجارب، تعرض أفراد العينة لرؤية عدد من الحروف، وقيل لهم إن هناك عدداً من القواعد التي تحكم ترتيب هذه الحروف كما عرضت عليهم. ويقاس ذلك بزمن الرجع الذي يستغرقه الفرد للوصول إلى القاعدة، وفي الحرف الذي يكمل به السلسلة.

ولكي نعرف ماذا حدث في المخ في مثل هذه التجربة، تكشف بلاكمور أنه باستخدام أشعة الـ positron emission tomography (PET)، استطاع جوناثان كوهن (Jonathan Cohen) وزملاؤه من جامعة بيتسبurg، تصوير مناطق المخ التي تستجيب للتعلم الضمني في هذه التجربة. وقد وجد أنه فور اكتشاف وجود تغير طفيف، يحدث تدفق للدم في الأماكن؛ المنطقة اليسرى من المنطقة قبل الحركية، والمنطقة الداخلية من العقد الرئيسية، بينما يتناقص تدفق الدم في الجزء الأمين من اللحاء قبل الأمامي الأمين ("right prefrontal cortex"). (Blakemore, 2005, 142)

التخدير وحدوث التعلم:

التخدير هو من المواقف التي تسمح بقياس درجة الاستثارة التي يتعرض لها الفرد، وهو بالطبع ليس من المواقف المثلثي للتعلم أو للتذكرة، إلا أن هناك بعض الدلالات - على الأقل - لإمكانية التعلم، والتذكرة. فقد أعلن بعض المرضى أنهم كانوا على وعي ببعض مكونات موقف العملية، وهم تحت تأثير المخدر. ويورد بادلي (Baddeley) بعض التجارب التي تتمتع بدرجة عالية من الثقة،



ومن المواقف الأخلاقية على إجرائها، والتي تؤدي جميعها إلى القول إن المريض يمكن أن يتذكر بعض ما يحدث في موقف العملية أثناء وجوده تحت تأثير التخدير (Baddeley, 1999, 80).

ومن بين هذه التجارب أنه طلب من المريض في حالة فهمه لما قيل، أن يعطي أي إشارة، علامаً على الاستجابة. وقد تختلف أنماط العلامات التي يطلب من المريض الكشف عنها باختلاف الثقافات.

ويفسر بادلي حدوث هذا النوع من التعلم بتأثير الذاكرة الضمنية، والتي سبق أن تحدثنا عنها؛ ومن ثم قد يحدث التعلم حتى دون أن يكون ظاهراً للمريض، أو يستطيع التعبير عنه. وفي تجربة على هذا الأمر، تم تعليم المريض أثناء وجوده تحت التخدير بعض الكلمات من فئة ما (فئة الحيوانات مثلاً)، كما تم تعليم مريض آخر كلمات أخرى، لكنها تنتمي إلى نفس الفئة. وبعد حدوث الإفاقة، طلب من المرضى أن يذكروا عددًا ما من الكلمات التي تنتمي إلى فئة الحيوانات. وقد كشفت الإجابة عن استجابة كل مريض بالكلمات التي تم تعليمها لها أثناء وجوده في حالة التخدير. وبالطبع، لا يستطيع المرضى استدعاء ما تم تعليمهم أثناء العملية، لكنه يبدو أن نوعاً ما من التعلم يحدث، لكنه تعلم يعتمد على الذاكرة الضمنية، وليس الذاكرة الصريحة الواضحة.

لكن ما حدود هذا النوع من التعلم؟ من الواضح أن الفرد لا يخبر المثير؛ إذ يكون تحت تأثير التخدير، كما أن هذه الخبرة سرعان ما تتعرض للنسبيان؛ وذلك بسبب مستوى الاستثناء المتواضع الذي يخبره المخ. وفي مزيد من التوضيح لحدود عملية التعلم التي تتم لفرد أثناء التخدير، قام بادلي بتجربته - بالتعاون مع أطباء التخدير أنفسهم - وذلك على أطباء التخدير ذاتهم، فقد كانوا يقومون ببحث للتعرف على مستويات الوعي وتطوير الأدوات التي يستخدمونها لهذا. وكونه من الصدق للقياسات الفسيولوجية الكهربية، قام بادلي بتطبيق الأدوات لقياس التعلم والذاكرة مع أطباء التخدير أنفسهم كعينة، وطلب إليهم عمل إشارة تدل على سماعهم، ثم فهمهم للكلمات التي يتم نطقها (مع ملاحظة أن المادة المخدرة لم تتضمن ما يؤدي إلى استرخاء العضلات). وقد كشفت نتائج هذه التجربة عن أن تعلم بعض الكلمات قد تم في ضوء وجود المستوى المتوسط من التخدير (sedation). ولكن مع زيادة مستوى التخدير، كان الأداء أكثر سوءاً، إلا أنه مازالت هذه النتائج في حاجة إلى المزيد من التجارب التي تزيد حدود هذا التعلم وضوحاً في ضوء الظروف المختلفة.

### ثالثاً: الجديد في قضايا التعلم:

سوف يشهد المستقبل مزيداً من الأساليب لدفع إمكانات المخ وقدرته على التعلم. وفيما يلى نعرض لعدد من الأبحاث والدراسات عن الطرق الجديدة التي يتعلم بها العقل، وكيف يؤثر كل من النوم، التنويم المغناطيسي، الانفعالات، الإثابة، اتخاذ المخاطرة، ثم الطعام والفيتامينات، على تعلم العقل.

## 1- النوم وقدرات التعلم:

إن دائرة النوم - اليقظة، هي جزء مهم من النمط اليومي للجسم، وتسمى (circadian rhythms) من المصطلح اللاتيني الدائرة اليومية. فالنوم الكافي يؤدي إلى تنظيم الدائرة اليومية اليقظة، والقدرة المعرفية، وتوظيف الحركة. أما القلق والضغوط فهي تؤدي إلى إعاقة اكتمال هذه الدائرة اليومية، والتي قد يكون لها التأثيرات القوية على عملية التعلم. ولقد أكدت نتائج الأبحاث الحديثة على الدور الحيوي الذي يقوم به النوم في طريقة تعلم الأفراد ومستوى أدائهم؛ فالنوم يؤثر على السلوك ومهارات الجديدة التي نكتسبها، وعلى طريقة تذكرنا للمعلومات وعلى قدرتنا على التفكير.

والنوم هو حالة من اللاوعي يسلك فيها العقل بطريقة تختلف عن حالة اليقظة. وهناك نمطان لحالة العقل أثناء النوم: النمط الأول حيث ينشط فيه العقل لدرجة كبيرة، وهي حالة الحركة السريعة للعين rapid eye movement (REM)، وفيها تكون كل عضلات الجسم في حالة شلل إلا عضلة العين، وهي الحالة التي تحدث فيها غالبية الأحلام. أما النمط الثاني فيعزى إلى الموجات البطيئة أثناء النوم. فأثناء هذه الحالة يولد العقل نبضات بطيئة ومستمرة أو متتابعة، وأثناء هذه الحالة أيضاً قد يحدث المشي أثناء النوم، والكلام؛ ذلك لأن في هذه الحالة لا تكون العضلات في حالة شلل. وفي تجربة قامت بها شيara بورتاس (Chiara Portas) على عينة من المتطوعين؛ لمعرفة ماذا يحدث داخل المخ أثناء النوم، وذلك باستخدام أشعة الرنين المغناطيسي (fMRI)، حيث استمرت العينة في حالة يقظة طوال الليل، وذهبت إلى النوم في الصباح. وعندما اطمأنت إلى دخول العينة إلى نمط الاستغراق في النوم، أرادت أن تعرف ما إذا كان العقل في هذه الحالة يستجيب لمثيرات من العالم الخارجي. فعمدت إلى مناداة كل حالة باسمها أكثر من مرة، وقد كشفت النتائج عن استجابة مناطق من المخ لسماع الاسم بما في ذلك اللحاء السمعي. ومعنى ذلك أنه حتى في حالة استغراق العقل في النوم، فإنه ما يزال يتلقى المعلومات، خاصة المعلومات ذات المعنى بالنسبة للنائم.

بالإضافة إلى هذا، فإن دائرة النوم - اليقظة تقوم بعملية ضبط الوظائف، مثل حرارة الجسم، وضغط الدم، ومستوى هرمونات الدم، كما تنظم القدرة على الانتباه، والتفكير الواضح، واستخدام القدرات الحركية بكفاءة. فالقدرة الجسمية والقدرة العقلية تتغير أثناء فترات اليوم، كما أن الضوء النهاري مهم في تنظيم دائرة النوم - اليقظة لدى الإنسان. وتوجد ساعة الجسم (clock circadian) في مكان في المخ يسمى النواة التصالية (suprachiasmatic nucleus "SCN"). هذا المكان هو الذي ينظم إنتاج الملاطونين في الغدة الصنوبية أثناء الليل، وهو الذي يحدث الشعور بالحاجة إلى النوم.

وقد كشفت الأبحاث عن أن التأثير طويل المدى لفترات الفاصلة يكون أكثر خطورة من مجرد الشعور بالتعب أو الشعور بالترنج. فالباحثون في جامعة بريستول في المملكة المتحدة، قاموا بعمل فحص على مخ عدد من النساء اللائي عملن في شركة للطيران كأحد أفراد طاقم الطائرة، على مدى



خمس سنوات. وتكونت من مجموعتين؛ أولاهما تعمل في شركة تسمح بفترة قصيرة - أقل من خمسة أيام - بين الرحلات الطويلة. أما الثانية فتسمح بإعطاء فترة أسبوعين للراحة بين الرحلات الطويلة. وكشفت النتائج عن أن العينة التي تحظى بفترات قصيرة بين الرحلات الطويلة كان أداؤها أكثر سوءاً على اختبارات القدرة المكانية من العينة الأخرى، كما أن مستوى المجموعة الأولى على إفراز هرمون الضغوط (كورتيزول) كان يفوق مستوى المجموعة الثانية. ثم إن حجم مكونات قرن آمون والفص الصدغي (وهي المناطق التي ترتبط بالتعلم والذاكرة) - كانت أصغر حجماً في المجموعة الأولى عنها لدى المجموعة الثانية.

ويبدو من ذلك، أن نظام الفترات الفاصلة يؤدى إلى اضطراب دائرة النوم - اليقظة في المخ، التي ترسل بإشارات، مثل إفراز الكورتيزول والميلاتونين لتنظيم وظائف الجسم. وهذه التأثيرات - كما أشارت الأبحاث قد يكون لها تأثيراتها طويلة المدى على المخ، وعلى القدرة المعرفية إذا لم يكن هناك الوقت الكافي من الراحة بعد سهر فترات طويلة.

كما كشفت الدراسات عن التأثير السلبي للحرمان من النوم على تعلم الفرد، خاصة إذا تبع التعرض للحرمان من النوم أداء ما على مهام أو أعمال؛ حيث إن الأداء ينخفض لدرجة كبيرة. وفي دراسة على متاوبات العمل وتأثيرها على أداء الفرد، كشفت الدراسة عن تشتت كبير قد يعرض أمن المؤسسة للخطر. وفي تجربة على عينة من ضباط الجيش، تم حرمانهم من النوم ست وثلاثين ساعة متواصلة، أدى ذلك إلى صدور القرارات الخطأ.

وقد أشارت نتائج الأبحاث أن المخ قد يستطيع التغلب على تأثير الحرمان من النوم، ولكن لفترة قصيرة ومؤقتة، ففي دراسة على تأثير الأرق والحرمان من النوم على قدرات الفرد، تأثرت القدرات التعليمية والتراكيز لدى الفرد بدرجة كبيرة، بعد عدد قليل من الليالي بلا نوم. كما كشفت دراسات أخرى عن أن الحرمان من النوم ليلة واحدة يتزك بصماته بالسلب على القدرات الإبداعية للفرد، وعلى القدرة على صنع القرار، ثم على كيفية الاستفادة من المعلومات الجديدة في معالجة المواقف.

ومن جهة أخرى، فقد أشارت الأبحاث الحديثة على المخ إلى أن النوم يمكن أن يحسن عملية الاستبصار. ففي مقارنة بين ثلاث مجموعات من المتطوعين على إكمال منظومة أعداد بالإضافة العدد التالي، بناء على فهم القاعدة التي رتب بها هذه الأعداد - تم إجراء العمل على المجموعة الأولى بعد يقظة استمرت ثمان ساعات أثناء العمل اليومي، أما المجموعة الثانية فقد كان أداء العمل بعد سهر ثمان ساعات أثناء فترة الليل. أما المجموعة الثالثة فقد تم اختبارها بعد نوم ثمان ساعات. وقد كان أداء المجموعة التي نالت ثمان ساعات من النوم أفضلهم جمیعاً. وقد كشفت دراسات المخ كذلك عن أن المخ يناضل من أجل تعويض الحرمان من النوم؛ فقد كشف تصوير بعض هذه العقول أن الفص الصدغي من المخ قد أثیر باستخدام أحد المهام اللغوية، وذلك بعد ليلة من النوم الطبيعي، لكنه لم يمكن إثارته بعد الحرمان من النوم، بينما قمت إثارة الفصوص الجدارية في حالة

الحرمان من النوم. ومعنى هذا أن المخ يحاول أن يقوم بعملية التعويض عن وظيفة الفصوص الصدغية في حالة الحرمان من النوم.

وفي تفسير أهمية النوم للمخ، فقد أشار بعض الباحثين إلى أن العقل يجدد طاقته أثناء النوم، وقال البعض الآخر إن خلايا المخ تزيل سميتها أثناء النوم، كما يمكن أن يتم إعادة تخزين أنسجة وخلايا الجسم. ومن القضايا التي مازالت على بساط البحث ما يخص دور النوم في عملية التعلم، فقد أضافت الأبحاث الحديثة على الحيوانات والإنسان دعماً كبيراً لهذه المقوله، وذلك بمعنى أنه أثناء النوم يظل العقل نشطاً. فقد وجد العلماء أن الأماكن المعنية بالتعلم في المخ يعاد تشتيتها أثناء النوم، وتدعم ما تم تعلمه أثناء النهار، كما بدا من تحسن أداء الأفراد على المهام التي تم تعلمها، وخلص العلماء من ذلك إلى أن النوم يحسن مهام التعلم والذاكرة. وفي مجموعة من الدراسات التي قام بها روبرت ستيكجولد Robert Stickgold في جامعة هارفارد مع فريق الباحثين، كشفت هذه الدراسات عما يشير إلى أهمية النوم بعد تعلم الجديد؛ وذلك يحفظ عملية التعلم، مما ينعكس على الأداء في اليوم التالي.

ولقد دعمت هذه النتائج أيضاً دراسة ستيفن جيس Steffen Gais وزملائه عام 2007، على أثر النوم على الاسترجاع، أي: الذاكرة المعلنة، وبالاستعانة بعينات من طلاب الجامعة في تجربتين عن القدرة على تذكر الكلمات. وقد كشفت نتائج التجربتين عن تحسن في ذاكرة العينة المعلنة في حالة حدوث النوم بعد التعلم مباشرة، بغض النظر عن وقت النوم أو الحالة الجسمية للفرد من تعب مثلاً. وقد عمد الباحثون إلى استخدام الكلمات ذات المعنى؛ لارتباط هذا بذاكرة الحياة اليومية. وتعنى هذه النتائج أن الذاكرة المعلنة يحدث لها التدعيم (consolidation) كلما قلت فترات اليقظة بين التعلم وبين النوم، كما يستمر هذا التأثير على مدى 48 ساعة. وهذا يعني التخزين الأمثل للمعرفة، أما عن أشكال التعلم المكتشف، مثل التعلم في المدرسة، فلابد وأن يتبعه بفترات نوم .(Gais, S. 2007 ,498-505)

## 2- التنويم المغناطيسي والتعلم:

يعد التنويم المغناطيسي من الظواهر الجاذبة لعلماء دراسة المخ، وهم يعتبرونه نوعاً من تركيز الانتباه والانغماس في الأفكار، والصور والنشاط. فالدخول إلى هذه الحالة من خلال التنويم المغناطيسي يمكن أن يحسن من استجابة الفرد للإيحاء بدرجة ما. والأفراد ذوو الدرجة العالية من القابلية للتقويم - وهم يكونون تقربياً 15% من المجموع - هم هؤلاء الذين يستجيبون لما تم الإيحاء لهم به أثناء التقويم. أما الأقل قابلية للتقويم - ويقدر عددهم كذلك بـ15% أيضاً - فهؤلاء لا يستجيبون لما تم الإيحاء لهم به أثناء التقويم، أو يستجيبون للقليل جداً منه.



وفي الدراسات على التنويم باستخدام تصوير المخ، وجد أن التنويم يكون مصحوباً بنشاط في أماكن من اللحاء البصري والفصوص الأمامية. غالباً ما يكون الأفراد الذين كشفوا عن القابلية للتنويم هم ذوو القدرة المتميزة في التخيل البصري، وقد يأتى اليوم الذى يقاد فيه من التنويم لزيادة التعليم.

### 3- الانفعال واستجابة العقل:

بدأت الدراسات والأبحاث على وظائف المخ تعنى بدراسة العلاقة بين الانفعال والذاكرة، هذه العلاقة التى من خلال خبراتنا الخاصة نستطيع القول بعلاقة التفاعل بينهما، فالانفعال يتضمن الذاكرة والذاكرة تتضمن الانفعال، والأحداث الانفعالية يمكن تذكرها أفضل من الأحداث المحايدة، وأكثر ما يصدق هذا القول على الأحداث السلبية. فالأبحاث التي أجريت على كل من الحيوانات والإنسان قد خلصت إلى أن منطقة اللوزة (amigdala)، وهى جزء مهم من نظام المخ الانفعالي، تكون معنية بتكوين الذاكرة طويلة المدى المرتبطة بالأحداث التي تشير الحزن أو الخوف. وقد تم تصوير المخ لعينة من المتطوعين أثناء تذكيرهم لفيلم يثير انفعالاتهم، ووجد أن اللوزة تستثار أثناء رؤية الفيلم الانفعالي، بينما لم ترصد هذه التغيرات في هذا الجزء أثناء رؤية أو رواية الأحداث المحايدة، وهذا يؤكد أن هذا الجزء هو جزء مهم جداً للذاكرة الانفعالية، وأن إثارتها أثناء المواقف الانفعالية، يؤدى إلى التذكر الجيد لهذه الأحداث.

كما كشفت الأبحاث كذلك عن أن هذا الجزء يتفاعل مع قرن آمون، وهو جزء قريب ومهم للأحداث غير الانفعالية، وقد تكون العلاقة بين الجزاين هي التي تؤدى إلى تواجد ذاكرة الأحداث الانفعالية واستمرارها لفترة طويلة. وقد أشارت الأبحاث على الحيوانات أيضاً إلى أهمية وجود اللوزة لحدوث التعلم الارتباطي للخوف؛ فهى المسئولة عن حدوث التعلم اللاشعوري للخوف، وهى تميز عن بقية مناطق المخ المسئولة عن التعلم الشعورى؛ فالذكريات المحايدة الشعورى يكون مكانها في قرن آمون وأجزاء من اللحاء قبل الأمامي. ومن ثم فإن التعلم اللاشعوري الانفعالي الذى يكون آلياً واندفاعياً، والعمليات ذات الدرجة المعرفية العالية، مثل فهم لماذا كان هذا الموقف مثيراً للخوف - يظهران مستقلان في المخ. وهناك العديد من الوصلات القوية بين هذه الأجزاء في المخ. وهذا النمطان من الذاكرة يحددان ما الذى سيفعله الفرد في موقف ما، فضلاً عن هذا، فإن اللوزة تعنى أيضاً مقاطعة أي نشاط للتنبيه إلى خطورة الموقف. ومن الوظائف الأخرى رفع مستوى إدراك الخطر، وهى أداة مهمة ليست لحياة الفرد فقط، بل لوضع أولويات لإرساء الأمان في المكان؛ كالمدرسة مثلاً أو المصنع أو الملعب.

والانفعال بالشيء أمر مهم للتعلم الأمثل، وذلك يتضمن أن يكون الفرد قادرًا على أن يكتسب جماح نفسه، و يتحكم في ردود أفعاله الانفعالية للأحداث؛ كالتعامل مع مواقف تعليمية جديدة، أو موضوعات جديدة أو معلم جديد، أو التعاون مع الزملاء الجدد. ويجب على أبحاث المخ أن تقدم

المساعدة للمعلمين على كيفية التعامل مع الأطفال ليصيغوا أكثر كفاءة انفعالياً، فالابحاث على اللوزة والجوانب الاندفاعية في العمليات الانفعالية تؤدى إلى القول إن القدرة على الفعل ورد الفعل مع الذكاء الانفعالي، يرتبط بعمل الاتصال بين أجزاء مختلفة من المخ. وهذا يتطلب التفاعل بين المناطق التي تدير الانفعالات آلياً ولاشعورياً وسريعًا، والأبنية في المخ التي تشارك بدرجة قوية في التعامل مع أكثر العمليات المعرفية الشعورية، مثل التخطيط وإصدار القرار.

ولكي يحدث التعلم الأمثل للطفل في المدرسة لابد وأن يتعلم ضبط السلوك الانفعالي، وكف ردود الأفعال الانفعالية للأحداث. وقد أشارت دراسات كثيرة عن تدريب الطفل على ضبط هذا السلوك إلى أمرتين مهمتين، هما:

\* لابد من مراعاة أن الجزء الخاص بضبط ردود الانفعال في المخ لم يصل بعد إلى درجة النضج، وأن كل الفصوص الأمامية في المخ التي تساعد على ضبط النبضات والمقاومة، لا تصل إلى مرحلة النضج إلا في مرحلة الرشد.

\* أن الأطفال الذين استطاعوا تأجيل ردود أفعالهم، قد أثبتت الدراسات التبعية لهم في مرحلة المراهقة تقييزهم في الأداء المدرسي.

#### 4- الشعور بالسرور والتعلم:

إن المخ يفرز عدة مواد كيمائية تسمى الناقلات العصبية، ويعد الدوبامين أحد أنواع هذه المواد، وهو الذي يشارك في سلوك اتخاذ المخاطرة وفي الإثابة. ويوجد الدوبامين في الفصوص الأمامية من المخ، وفي النظام الانفعالي من المخ، وهو يرقد عميقاً في منتصف المخ، ويستجيب للمثيرات الجالبة للسرور الداخلي، بما فيها الطعام وبعض المشروبات الروحية. وقد كشفت الدراسات التي استخدمت لتصوير استجابة المخ للنيكوتين والكوكايين عن أن التأثير المكافئ لهذه المشروبات يرتبط باستجابة النظام الانفعالي في المخ وفي اللحاء الداخلي. فالإحساس بالسرور - الذي يتم وجوده عن طريق هذه المناطق - قد يوضح جزئياً لماذا يتم إدمان بعض المواد، كما أن هذه المناطق ذاتها تستجيب لسلوك المخاطرة لدى غالبية الأفراد.

كما كشفت الأبحاث كذلك عن أن بعض الخبرات الإيجابية لا تجلب الشعور بالسرور فحسب، بل يمكن أن تحسن الذاكرة. ففي تجربة على ثلاثة مجموعات من المتطوعين، على حفظ قوائم الكلمات، وجه الشكر للمجموعة الأولى بعد الأداء، أما المجموعة الثانية فقد تم مدحها أمام الجميع على اشتراكها في التجربة، والمجموعة الثالثة تم مكافأتها بإعطاء جنيه لكل فرد بعد الأداء. وبعد أسبوع من التجربة تم استدعاء الأفراد مرة أخرى، وأعيد لهم الاختبار على القوائم التي تم حفظها، وكان أداء المجموعة الثالثة التي تمت مكافأتها مادياً أفضل الأداءات جميعاً. وقد خلص الباحثون من



ذلك إلى أن المكافأة المادية يمكن أن تكون داعمة للاستجابة لفترة أطول من تأثير المكافأة الاجتماعية فقط. ومن الدراسات الطريفة على تأثير المكافأة الاجتماعية على إثارة المخ، التجربة التي أجراها نت كامب Knut Kamp في جامعة لندن، باستخدام تصوير المخ. وفي هذه التجربة عرض على المتطوعين مجموعة من الوجوه من الجنس المغاير للحكم عليها. كشفت التسجيلات باستخدام التصوير أن النظام الانفعالي في المخ كانت تتم إثارته بناء على ما إذا كان الوجه في اتجاه الفرد. وقد خلصت التجربة إلى أن نظرة التحديق إلى وجه فرد يتمتع بالجاذبية، يؤدي إلى إثارة المخ. أما إذا كانت النظرة بعيداً عنك، وينظر إلى فرد آخر فإن ذلك يعد إحباطاً، وبناء عليه يكون هذا كرد فعل أيضاً من النظام المكافئ في المخ، أما النظر إلى الوجوه غير الجاذبة، فلم تؤد إلى أي استجابة من المخ.

#### 5- الغذاء وحالة العقل:

إن المخ يتطلب مصدرًا مستمراً للأكسجين؛ لكي يستطيع أن يقوم بوظائفه المختلفة، كما أنه في حاجة أيضاً إلى الماء والجلوكوز لأداء وظائفه؛ إذ إن أكثر من 80% من المخ ماء. لذلك كما - سيأتي فيما بعد - فإن الإسهال يؤدي إلى اضطراب الذاكرة والتعلم بشدة. ويحصل العقل على غالبية طاقته من الجلوکوز، فلذلك يعد الحرص على تناول الطعام في أوقات محددة أمراً ضرورياً لاستمرار طاقة العقل.

ويبدو أن نقص عناصر الطعام على أداء وظائف العقل في مرضي الفينيلكتونيونور (phenylketonuria<sup>(1)</sup>)، وهو يعزى إلى اضطراب الميتابوليزم؛ حيث لا يستطيع الجسم هضم العناصر التي تحمل هذه المادة، ومن ثم يتعرض المخ للكثير من التأثيرات الكيميائية، وخاصة الفصوص الأمامية، وتكون النتيجة انخفاض في القدرات العقلية للفرد، ونقص القدرة على التخطيط وضبط الانتباه. ويمكن كشف هذه الحالة باختبارها عند الولادة، وقد وجده أن الحالات التي تم تعويضها بنظام غذائي محدد، قد تحسنت وظائف المخ لديها، كما زادت درجاتهم على اختبار الذكاء. وتعد الأغذية مثل السمك وغيرها الغنية باثنين من الأملاح المعدنية، وهما: الترتوفان والفينيلانين (Phenylalanine) - هما اللذان يثيران وأمسؤلان عن الشعور بالسعادة في المخ. فالترتوفان وحده يمكن أن يحسن المزاج لدى مرضى الاكتئاب، ويحسن دائرة المزاج في المخ، وهو في الأطعمة مثل البيض، اللبن، الموز، وزيت عباد الشمس. ويعتبر التيروسين أحد الأملاح المعدنية التي تؤدي إلى وجود الشعور بالحيوية والنشاط، ويستخدم في مختلف العمليات الكيميائية لإنتاج كيميائيات المخ، مثل الدوبامين والنورادرينالين، وهو يوجد في السمك والخضروات. أما الأندورفين فهو أيضاً من كيميائيات المخ المسئولة عن الشعور بالسعادة، ويوجد في الدواجن

(1) يعني وجود الفينوكيتون في البول.

والألبان والجبن. وما يعرف بأوميجا 3، وأوميجا 6، فهما من الزيوت المشبعة (fatty acids)، وهما ضروريان لنمو المخ ووظائفه؛ فهما وحدة البناء لجدار الخلايا في المخ، وبناء ما يقرب من 30% من المخ. فلهذه الزيوت تأثيرها على الصحة العامة، وعلى المزاج والقدرات المعرفية خاصة. وقد أشارت بعض الأبحاث في العلوم العصبية إلى أهمية هذه الزيوت لتحسين المزاج والقدرات المعرفية، خاصة لدى ذوي صعوبات القراءة.

وقد يتضح مما سبق وجود العديد من المواد الغذائية مهمة للقدرات العقلية والتعلم، وهي جميعها توجد في الغذاء المتوازن، غير أن ذلك لم يؤد بعلماء الأعصاب إلى القول بضرورة تناول جرعات إضافية لهذه المواد، بالإضافة إلى الوجبة المتوازنة (Blakemore, 186, 2005).

وفي خلاصة هذا الجزء عن عوامل دفع عملية التعلم في المخ، يمكن رؤية ما تقتربه بلاكمور من إمكانية تواجد علم جديد للتعلم، هذا العلم الذي يعد عبر تخصصي بين علم فسيولوجيا الأعصاب، وعلم النفس، ثم التربية. كما يمتد مدى هذا العلم فلا يختص تعليم الأطفال والمرأهقين فحسب، بل يمتد إلى التعلم في مراحل العمر المختلفة، ويوضع في الاعتبار أهمية التعلم مدى الحياة. ويكون لهذا العلم ثلاث ركائز يعتمد عليها، هي:

- 1 أن الوصلات داخل المخ تتغير بصفة مستمرة، فالمرونة والقابلية للتشكل هي القاعدة الأساسية في التعرف على طبيعة المخ، وأن كل ما يتم تعلمه، يؤثر على المخ، دون ارتباط بمرحلة عمرية محددة.
- 2 أن التأثير على مرونة المخ هي أحد المتنافذ لكي يصبح أكثر توازناً بواسطة الخبرة؛ فهذه العملية رغم أنها تؤدي إلى فقد بعض مرونة المخ، إلا أنها تمثل جزءاً حيوياً من النمو؛ لأنها تمنحه الكفاءة والاستمرارية.
- 3 أن التعلم والبيئة المحيطة يلعبان دوراً مهماً في تغييرات المخ، ولا يعني ذلك أن التعلم يؤثر على العقل فقط، بل يؤثر كذلك على بناء المخ، فمع كل جديد يتعلمه الفرد، شيء ما في المخ يتغير.

لكن هل يعني ذلك أن التعليم يمكن أن يؤدي إلى وجود عقول أفضل؟

في ضوء ما سبق، وفي استمرار البحث في وظائف المخ وقدراته اللامتناهية، وما يضيفه العلم والبحث العلمي من جديد يوماً بعد يوم، كشفاً لأسرار هذا العضو في الإنسان - لا شك أنه يمكن الإجابة بنعم. غير أن ذلك لن يتحقق إلا بتضادف التخصصات الثلاث التي أشرنا إليها، وهي فسيولوجيا الأعصاب، وعلم النفس، ثم التربية.



## الفصل الخامس

### التذكر والنسيان

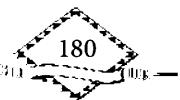
لقد تأثرت دراسة الذاكرة في مجال علم النفس - على مدى مائة عام - بعاملين أساسين، هما:

1- ما نتج عن أبحاث إينجهاوس، الذي ركز على القياس الدقيق لأعمال الذاكرة تحت ظروف الضبط القوية. وقد كانت أكبر مميزات هذا العمل هو خفض مشكلة فهم نظام الذاكرة الإنسانية المعقّدة، وتفتيتها إلى عدد من المشكلات الفرعية، التي يمكن التعامل معها. وقد مثل هذا بداية جيدة لبدء الدراسات العلمية للذاكرة في المواقف الحياتية، كما استمر وجودها كعلامة مميزة للدراسة العلمية للذاكرة، والتي بدورها إذا لم تحدوها الرغبة في التركيز على هذا الاتجاه من قبل المهتمين، لما أحرزنا تقدماً في دراسة الذاكرة، لكنه يظل واضحًا أن هذا التوجه ذاته، قد يؤدي إلى إبعاد بعض جوانب الذاكرة الإنسانية المهمة، بل وأكثرها أهمية وقيمةً للحياة الإنسانية من مجال التجريب.

2- أما العامل الثاني فيخص الاتجاه إلى إجراء التجارب على الذاكرة خارج نطاق المعمل، في الحياة اليومية كما يخبرها الفرد. وهو الأمر الذي ميز اتجاه بارتلت، ومن بعده الكثيرين في دراسة الذاكرة في سياقها الطبيعي. وعلى الرغم من أنه يشار دائمًا إلى كل من إينجهاوس وبارتلت، باعتبارهما أصحاب الفضل في نشأة الاهتمام بدراسة الذاكرة، إلا أن إضافة كل منهما إلى هذا المجال تباعيًّا كاملاً. فكلاهما كان باحثًّا ميدانيًّا، وضع كل جهوده في دراسة الذاكرة، من خلال الملاحظة والتجربة، إلا أن اختلافهما كان في نمط التجارب ونوع الملاحظات، الأمر الذي يعكس بوضوح الانتفاء النظري لكل منهما. فقد ركز إينجهاوس جهوده لفهم عمل الذاكرة بعيداً عن تدخل عامل المعنى، أما بارتلت فكان تركيزه على عملية التذكر والعوامل المرتبطة بها سلبيًّا أو إيجابيًّا.

ولقد حرص بارتلت على أن يُذكَر المتخصص في علم النفس - سواء في استخدامه للتجارب أم لا - أنه لا يتعامل مع مجرد ردود أفعال فقط، لكنه يتعامل مع إنسان، وعليه أن يهتم بالسلوك اليومي للفرد العادي، فيدرس التذكر باعتباره وظيفة نفسية في حد ذاتها.

وجدير بالذكر أن كلاً من أداء التذكر والنسيان مفاهيم تكمل بعضها بعضاً، فإذا تم تذكر 15 كلمة من بين عشرين كلمة، فإن الكلمات الخمس قد تم نسيانها. ولاشك أن التمثيل العقلي لهذه الكلمات الخمس موجود، ولكن ما الذي حدث لهذه الكلمات الخمس؟ هل حدث انهيار لهم، أم أن النسيان يعني أن المعلومات المخزنة لم يكن التوصل إليها. فالخبرات اليومية تكشف لنا كيف



يحدث أن تهرب الأسماء من ذاكرتنا، ثم كيف نتذكّرها بدون جهد بعد ذلك. هذا الموقف يعرف بأنه فشل الاسترجاع (retrieval failure)، وغالباً ما يعزى إلى العمليات التي أعاقة الاسترجاع.

### المفهوم الأول: التذكر ونظرياته : Remembering

إن فعل التذكر في حد ذاته يتضمن أن هناك أماكن تم تخزين المعلومات فيها في الذاكرة طويلة المدى، ويعد تجديدها في مستوى الشعور مرة أخرى، حتى يحدث التذكر. هذا الشرح النظري لعملية الاستدعاء، لابد وأن يوضح كيف أن عملية التذكر تتضمن الحصول على معلومات بعينها من بين المعلومات الكثيرة في الذاكرة طويلة المدى، ولكن يحدث هذا لابد وأن توجه عملية التذكر هذه بدرجة ما؛ إذ صور ولIAM جيمس عملية التذكر على أنها عملية إعادة البناء، حيث تساعد المعلومات الحالية على نشأة وتوجيه البحث عن المعلومات في الذاكرة طويلة المدى. ولقد مر تفسير عملية التذكر بعدد من المراحل، التي تعكس دورها مراحل الدراسة العلمية للذاكرة، حتى وصلت إلى التناول الحديث لسلوك التذكر. إذ بعد دراسات إينجهاووس باستخدام القوائم الصماء، والتي كشفت عن قوانين تفسر التذكر في ضوء عدد مرات التكرار، والزمن المنقضى بين التعلم والتذكر وغيرها - كانت ردود الأفعال من قبل المهتمين بدراسة القدرات المعرفية لدى الإنسان، والذي ترتّب عليها المزيد من الدراسات، التي طرحت مداخل أخرى لدراسة الذاكرة.

ففي عام 1932 نشر العالم سير فريديريك بارتلت (Sir Fredrick Bartlett) كتابه عن التذكر (Bartlett,Sir Fredric C., 1995<sup>(1)</sup>)، حيث هاجم فيه اتجاه إنجهاوسن في دراسة الذاكرة الإنسانية، الذي سيطر على مجال علم النفس على مدى أربعين عاماً. ولقد عارض بارتلت استخدام القوائم الصماء؛ لكونها فاقدة إلا على توضيح أهمية إعادة التكرار، وذلك بإقصائها لعامل المعنى. وإبعاد عامل المعنى عن تجارب الذاكرة يعني إبعاد أهم الخصائص الأساسية والمميزة للذاكرة الإنسانية. ويمكن إيجاز هذه الانتقادات فيما يلى:

\* ليس في الإمكان حذف عامل المعنى من عملية التذكر؛ حيث إن له القدرة على استثارة استجابات الفرد.

\* أن الجهد الذي بذل من أجل هذا، أدى إلى خلق مناخ مصطنع لكل تجارب الذاكرة، وأصبحت هناك دراسات لنشأة وبقاء عادات التكرار.

\* أن تفسير استجابات الأفراد على تلك التجارب كان يقوم على أساس اختلاف المثيرات، وترتيبها، وعدد مرات تكرارها، ونمط العرض. وهذا يعني التجاهل الخطير للعوامل التي تتتساوى

(1) نشر هذا الكتاب في طبعات عديدة، آخرها عام 1995، تبعاً لجامعة كمبردج، وقدم له والتر كينش (Walter Kintsch)، وهو مدير معهد العلوم المعرفية في جامعة كلورادو، بولدر.

ف درجة أهميتها في استجابة الفرد، مثل التنظيم الذاق، واتجاه الأفراد الذي يحدد أيضًا ردود أفعالهم. ولذلك جاءت أبحاث بارتلت وتجاربه معتمدة على المادة المشحونة بالمعنى، وكانت عملية التذكر تتم في ضوء الظروف الطبيعية. فعن طريق استخدام القصص والصور في تجاربه على الأفراد، توصل إلى مجموعة من النتائج لها أهميتها في فهم عمل الذاكرة الإنسانية في السلوك اليومي، وأشار إلى أن خطأ المتخخصص النفسي في دراسته للذاكرة أن يتخد من مجرد معدل التذكر المنظم للمادة (accurate recall) محاً لفاء الذاكرة لدى الإنسان. ولكي يتتجنب هذا يجب عليه الآتي:

- \* أن يعتبر الباحث النفسي ذاته باحثًا إكلينيكىًّا، عليه أن يدرك أن دراسة أي وظيفة نفسية لا تتوارد بحق إلا في ضوء دراسته تاريخ هذه الوظيفة، وماذا حدث قبل هذا الفعل، وكيف أثر ذلك على الفعل ذاته. فلكي نفهم كيف وماذا تذكر، لابد وأن نضع في الاعتبار كيف، وماذا ندرك.
- \* أن الباحث في علم النفس عليه أن يوضع في اعتباره أنه يتعامل مع عدد من الاستجابات لها طابعها البيولوجي.

ولذلك بدأ بارتلت دراساته عن الذاكرة بدراسات عن الإدراك، وكيف يدرك الفرد الأشياء، وقدم في كتابه العديد من التجارب عن الإدراك، والتصور، والتذكر. واستخدم فيها أساليب عديدة، منها وصف الشكل مثلًا، أو إعادة كتابة العمل، أو كتابة الأفكار والمشاعر التي يوحى بها العمل. والهدف كما سبق وأن أوضحتنا له يكن كم ما يمكن تذكره، بقدر الاهتمام بماذا تذكره، وكيف تذكره. هذا فضلًا عما أشارت إليه تجاربه من تأثير عملية التذكر بالمؤثرات الاجتماعية، ففي عمليات الإدراك، والتصور، والتذكر، تظهر عادات الجماعة واهتماماتها، واللغة التي تستخدمنها.

وخلص بارتلت من تجاربه إلى أن مذكرات الفرد يتم تخزينها باستخدام المعرفة الموجودة بالفعل، وهي التي تتوارد في صورة (schemas). ولقد أخذ هذا المصطلح من عمل الباحث النيرولوجي سير هنري هيد Sir Henery Head، الذي كان مهتمًا بضبط الحركة عند الفرد. فقد أورد هيد أن الفرد يخزن المكان الحال للأطراف في ضوء نموذج إسكيما، يتم تغييرها وتحديثها طول الوقت حسب تحرك الأطراف. وقد افترض بارتلت أن معرفتنا عن العالم تخزن في ضوء عدد كبير من الأسكيما، وهي تتعدل بحيث تشمل المعلومات الجديدة، وعندما تحد هذه المعلومات عما عليه إسكيما معرفة الفرد، فإن الأخطاء تقع.

وقد لاحظ بارتلت أنه في عملية التذكر، فإن أول ما يستدعيه الفرد من المادة المتعلمـة هو اتجاهـه نحوـها، ويكون الاستدعاء حينـئذ يقـوم - بالقدر الأكـبر - على أساس اتجاهـات الفـرد. وهذا يعني بوضـوح أن ما يتم تـذكره يـتـحدـد - بدرجـة كـبـيرـة - بـانـفعـالـاتـ الفـردـ، وـاستـجـابـتهـ للـحدثـ. فـالـتجـارـبـ المـعـمـلـيةـ لاـ يـبـدوـ ذـلـكـ أـمـرـاـ مـهـمـاـ، لـكـنـهـ قدـ يـمـثـلـ مـلـامـحـ مـمـيـزةـ لـغـالـيـةـ التـذـكـرـ خـارـجـ المـعـمـلـ، وـيـبـدوـ ذـلـكـ وـاضـحـاـ فـيـ اـسـتـجـابـاتـ الأـفـرـادـ عـلـىـ الـحـدـثـ الـواـحـدـ، سـوـاءـ أـكـانـ هـذـاـ الـحـدـثـ قـصـةـ سـمعـهاـ.

الفرد أو قرأها، أو مبارأة للكرة شاهدها، أو فيلماً شاهده ... إلخ. لذلك لم يكن اهتمام بارتلت في المقام الأول بعملية الاسترجاع، بل كان يطلق عليها (جهد ما بعد المعنى)، وتضمنت المادة التي استعان بها في تجاربها بقعة الخبر، وصورةً لوجوه بشريّة مختلفة التعبير؛ وذلك لبحث أثر اهتمام المبحوثين وعملياتهم الابتكارية على عملية التذكر.

### النظريات الحديثة لعملية التذكر:

قبل مناقشة عملية التذكر، لابد من توضيح الفرق بين ثلاثة أنواع من التذكر، وهي:

1- الاستدعاء الحر (free recall): حيث يحاول الفرد تذكر المعلومة، دون أن يكون لديه معلومات خارجية تعينه على ذلك.

2- الاستدعاء المحدد (Cued recall): حيث يعطى للفرد بعض المعلومات التي تساعده على تذكر المادة المطلوبة (مثلاً: الحرف الأول من الكلمة، أو لون...).

3- التعرف (recognition): حيث يتطلب إلى الفرد أن يتذكر كلمة ما سبق له أن تعلّمها، فيتعرف عليها من بين عدد من الكلمات تجمع بين ما تعلمه سابقاً وبين الجديد.

وتجدر بالذكر أن نتائج التجارب على عملية التذكر قد كشفت عن ارتباط أعلى درجات التذكر لدى الفرد باستخدام التعرف، ثم بالاستدعاء المحدد، وأخرها باستخدام الاستدعاء الحر. ولاشك أن ذلك يتفق مع ما يحدث معنا في الحياة اليومية، حيث يتحقق الفرد في تذكر اسم شخص ما، لكن ما أن نرى صورته سرعان ما نستذكره؛ لذلك لابد لنظريات التذكر أن تضع في اعتبارها تميز عامل التعرف في عملية الاستدعاء أو التذكر.

وفي أحد التفسيرات لهذا الأمر، قدم كينتشن Kintsch فكرته عن قوة الذاكرة، وهي ما عرف بنظرية القوة (Strength theory)، حيث يتطلب الاستدعاء درجة من قوة الذاكرة، بينما يتطلب التعرف درجة أقل (Kintsch, 1970)، غير أن هذا التفسير لا يتفق مع ما أسفرت عنه تجارب التذكر. فقد كشفت هذه النتائج عن أن استدعاء الكلمات المألوفة أسهل من تذكر الكلمات غير المألوفة، أو نادرة الاستخدام. بينما في نتائج التعرف أشارت إلى أن الكلمات النادرة وغير المألوفة يتم التعرف عليها أسهل من المألوفة، وهذا لا يتفق مع نظرية القوة لكينتشن، حيث تؤدي هذه النظرية إلى القول بأن ما يتم تذكره بسهولة يمكن التعرف عليه بسهولة.

ولقد أدى بحث العوامل المؤثرة على التذكر والتعرف، إلى القول بأنهما عمليتان مستقلتان عن بعضهما البعض. ولقد كان هذا القول أساس النموذج الذي كونه كينتشن بعد ذلك مع أندرسون وبور (Anderson & Bower)، وهو يعرف بالنموذج (generation-recognition) (GR). وهذا النموذج يوضح كيف يتذكر الفرد الكلمات في تجارب التعلم اللفظي، ويفترض هذا النموذج وجود بناء أشبه بذاكرة المعانٍ، حيث يكون لكل كلمة معروفة لدى الفرد مثيلاً بنقطة، وعندما يدرس الفرد كلمة، فإنه من المفترض أن شكلاً ما من العلامات توضع؛ لكن تشير إلى أن هذه الكلمة هي

جزء من القائمة المحددة. وعندما نتذكرة، فإن الأفراد يبدون في استخدام البحث عن العلامة، والتي في حالة وجودها تؤدي إلى التعرف، ثم إلى التذكر. ولذلك فإن التذكر المحدد يكون أكثر كفاءة من التذكر غير المحدد؛ إذ إن التحديد بمؤشر (cue) يساعد على توجيه جهد الفرد، وفي التعرف يكون الأمر أكثر سهولة؛ حيث ينحصر الجهد في البحث عن العلامة فقط، وتكمّن أهمية هذا النموذج في أنه يجعل قياس التنبؤ أمراً ممكناً. فلكي يتم التذكر، لابد وأن تتم عملية الخلق والتعرف بنجاح، وذلك يعني أن كل ما يتم تذكره بنجاح لابد وأن يتم التعرف عليه بنجاح أيضاً.

ولقد قام تولفنج وثومسون Tulving &Thomson عام 1973 باختبار الفرض السابق، الخاص بالذكر والتعرف. تكونت التجربة من أربع مراحل: في المرحلة الأولى كان على المجموعة أن تتعلم مجموعة من الكلمات، كل كلمة وضعت أمامها كلمة أخرى (مثلًا كلمة: آلة وكلمة أسود)، على المجموعة أن تنتبه لها، لكن ليس من الضروري أن تحفظها. أما في المرحلة الثانية، كان على المجموعة تعلم قائمة أخرى من الكلمات، وطلب منهم أن يضعوا أمام كل كلمة، كلمة أخرى. وقد اختبرت الكلمات القائمة، بحيث يمكن أن تسفر عن ارتباطات مع كلمات القائمة الأولى (مثلًا: كلمة بخار). أما في المرحلة الثالثة على المجموعة أن تنظر في الكلمات التي وضعتها لترى أيّ منها كان من القائمة الأولى. وفي المرحلة الرابعة عرض على المجموعة الكلمات المصاحبة للكلمات الأساسية في القائمة الأولى (مثل كلمة أسود التي كانت مصاحبة لكلمة آلة)؛ وذلك بغرض تذكر الكلمات الأساسية في تلك القائمة. والنتيجة الأكثر أهمية في هذه التجربة هو أن المبحوثين في المرحلة الرابعة تذكروا كلمات لم يستطعوا التعرف عليها في المرحلة الثالثة، وبذلك فشلت التجربة في إثبات الفرض السابق، وهو أن كل ما يمكن تذكره بنجاح لابد من التعرف عليه بنجاح أيضاً. وقد أدى هذا إلى رفض هذا النموذج (GR)، واستبدلواه بعامل خصوصية التمييز (encoding specificity principle)، ومضمون هذا العامل هو أن الاستدعاء (recall)، والتعرف عمليتان غير مستقلتين عن عملية التذكر (retrieval process)، بل ينظر إلى التذكر على أنه عملية واحدة، تتفاعل فيها المعلومات الحالية مع مكونات الذاكرة. ويعتمد حينئذ نجاح عملية التذكر على مدى التعارض بين المعلومات الحالية وبين المعلومات السابق تخزينها. وكلما كان التداخل كبيراً كلما كان نجاح عملية التذكر. وما يطرحه هذا العامل يتناقض مع ما أسفرت عنه تجربة تولفنج السابقة عن أن الاستدعاء للمادة التي تم تحديدها كان أفضل من عملية التعرف، وذلك يعني أن تميز المادة بشيء ما يؤدي إلى سهولة تذكرها. غير أنه في الرد على هذا، يرى باركن أن هناك عوامل أخرى - بالإضافة إلى تحديد المادة - هي التي أدت إلى نتائج تولفنج السابقة، مثل أن السياق التي تعرّض في ضوئه المادة، قد يكون له التأثير الأكبر على عملية التعرف. وقد فرق هوويت (Hewitt) عام 1973 بين نوعين من السياق هما:

\* **السياق الداخلي**، ويقصد به أجزاء من المادة ذاتها تخضع للتغير (تغير لونها - أو حجمها).

\* **السياق الخارجي**، ويقصد به تغيير الأشياء المحيطة بالمادة (كأن ترى الشيء في غير المكان المعتاد).

ومعنى هذا أنه ليس التعرف على إطلاقه يكون أفضل من الاستدعاء، فهناك عوامل متعددة تحدد الناتج، ولابد أن يكون الباحث على وعي بها.

إلا أن عامل خصوصية الترميز قد تعرض للنقد؛ لعدم كفاءته في تفسير عمل الذاكرة، والفرق بين التذكر والتعرف. ورغم هذا فقد كان له إضافته في توجيهه الانتباه إلى أهمية دور وجود السياق في عملية التذكر.

### عملية الاستدعاء، وفهم الذاكرة البشرية:

جدير بالذكر أن هناك عدداً من المصطلحات التي يعرضها التراث الأجنبي، تشير جميعها إلى عملية التذكر، وهي: (remembering , recall, retrieval). غير أن هناك بينهم فروقاً دقيقة للغاية، وهو ما ينعكس على تناولنا في هذا الفصل للتذكر، باستخدام كلمة الاستدعاء تارة، إذا كان التذكر مقصوداً في موقف تجريبي، كما قد نعمد إلى استخدام الاسترجاع كمرادف للكلمة السابقة، وكلاهما يستخدمان بالتبادل مع مصطلح التذكر، غير أن التذكر قد يعكس أحياناً الفعل في الموقف المقصود أو غير المقصود.

ل لكن ماذا مثل الاستدعاء العملية المفتاحية لدراسة الذاكرة؟

وي يكن ملاحظة هذا من خلال تاريخ البحث في الذاكرة، سواء على الحيوان أو على البشر، ومنذ بدايات إنجهاوس، ومع استمرار البحث على يد بارتلت، ثم ما تلاه من الدراسات الحديثة بعد ذلك، غير أن تولفنج قد أشار إلى ذلك صراحة عام 1991، حينما قال:

"إن الاستدعاء هو العملية المفتاحية للذاكرة". غير أن التذكر وحده يتطلب - بالفعل - أن يكون هناك ترميز جيد للمعلومة، ثم تخزين دقيق لها، ومن ثم يأتي الاستدعاء أو استرجاع المعلومة، باعتباره المرحلة الثالثة والمهمة للذاكرة. (Tulving,1991,p.45) ويعنى ذلك أن العمليات الثلاث هي عمليات مهمة، فلماذا إذن يعتبر الاستدعاء أكثرهم أهمية؟ لأن الاستدعاء هو دالة على حسن ترميز المعلومة، وجودة ودقة تخزينها، حتى يتم استدعاؤها بسهولة.

دور التنظيم وأهميته للتذكر:

هل التنظيم مهم للذاكرة؟ ولماذا؟

كيف يخدم البحث عن النظام الذي تتبعه المادة المراد تعلمها عملية التذكر؟ هل ذلك أفضل أم التعلم القائم على الحفظ؟

أثبتت التجارب التي أجريت على عامل المعنى في علاقته بكفاءة التذكر، أن الفرد يستخدم تنظيماً ما ليتذكر المادة التي تعلمها. ففي تعلم قائمة الكلمات مثلاً، كان يقسم الكلمات إلى عدد من الفئات حسب النوع مثلاً أو الاستخدام، أو في مادة التكوين أو الوظيفة. كما أكدت تجارب أخرى هذا

المعنى، حيث تضمنت بعض القوائم، بعض المفردات التي لا تنتمي إلى فئة بعينها، فكان يصعب على الفرد تذكرها بسهولة، أو بدرجة عالية من الكفاءة. وخلاصة هذا أنه كلما كان هناك نظام ما تنتظم حوله المادة المعلمة، كلما سهل هذا تذكرها بكفاءة.

وهذا النظام قد يكتشف الفرد وجوده، أو يعمل هو على وجوده ليتعلم المادة حسب نظام ما، وهذا التنظيم الذي يطرحه الفرد على المادة المعلمة قد يتم على المستوى الشعوري أو المستوى اللاشعوري؛ ولذلك يسمى بالتنظيم الذاتي. ولقد قام إندل تولفنج Tulving - من جامعة تورonto- بتجربة لقياس درجة هذا التنظيم الذاتي. أعد ست عشرة كلمة ذات المعنى، ثم كون ست عشرة قائمة تضم الكلمات السابقة، مع مراعاة تغيير وضع الكلمة الواحدة في القوائم الستة عشر، ومن ثم تتغير الكلمة التي تسبقها، والتي تليها في كل قائمة عن الأخرى. وكانت تقرأ كل قائمة بصوت عال مرة واحدة، ويدون الأفراد بعدها مباشرة ما يتذكرونها من الكلمات. وبعد فحص النتائج تبين لتولفنج ما يلى:

- \* أن الكثير من الكلمات التي تم استدعاؤها كانت تتقدمها الكلمات التي تسبقها، والكلمات التي تبعها. وذلك يعني أن هناك تنظيماً ما اتبעה الفرد في دراسة قوائم الكلمات.
- \* يتزايد التنظيم الداخلي لمادة التعلم كلما تقدمت التجربة، رغم أن الكلمات كانت مختلفة الترتيب في كل مرة.
- \* كان هناك ارتباط موجب بين درجة التنظيم الذاتي، وبين القدرة على استدعاء القائمة، فكلما زادت درجة التنظيم كلما كان الاستدعاء أفضل.

وتعنى هذه النتائج أن مجرد التكرار لا يعين على التعلم، لكن مع التكرار ينشئ المخ ثيارات ويدخل تنظيمه الذاتي على المادة المعلمة، بالإضافة إلى أن التكرار يعطي المخ فرصة لعمل الارتباطات، وهى أحد أنواع التنظيم، ويزيد فاعلية التنظيم مع أوقات الراحة التي تخلل أوقات الدرس أو التعلم.

وفي تجربة للمقارنة بين العينات لقياس أثر التنظيم على التذكر، أعطيت لعينتين من الأفراد مائة من الكلمات على كل منها كلمة، وطلب من المجموعة الأولى أن تنظمها في فئات فقط، أما المجموعة الثانية فطلبت منها حفظها، وبعد الفترة المحددة (15 دقيقة) طلب من المجموعتين تذكر أكبر عدد ممكن من الكلمات. وكشفت النتائج عن عدم وجود فروق ذات دلالة بين المجموعتين في عدد الكلمات التي تذكروها، دلالة هذا أن البحث عن نظام لتصنيف المادة المعلمة قد عادل الجهد الذى بذل في الحفظ. لكن إلى أي مدى يمكن أن تكون هذه النتيجة صحيحة؟

إليك المثال التالي لتجربته على نفسك:

إذا أعطيت لك ثلاثة مجموعات من الأرقام لحفظها وتذكرها، أيها يكون الأسهل وأيها يكون الأصعب؟

9 8 7 6 5 4 3 2 1 0

1 3 5 7 9 0 2 4 6 8

6 3 9 0 2 7 5 4 8 1

أي هذه المجموعات الثلاث أسهل في عملية التذكر؟

لاشك أن المجموعة الأولى هي الأسهل؛ حيث إن ترتيب الأرقام يتبع الترتيب العادي للأرقام من صفر إلى 9. أما المجموعة الثانية، فقد تكون صعبة نسبياً، لكن يمكن تذكرها، باكتشاف النظام التي تتبعه الأرقام. أما المجموعة الثالثة فهي أصعبها جميعاً، حيث لا يوجد نظام واضح تتبعه الأرقام. ولكن يتم حفظ هذه المجموعة الثالثة وتذكرها يمكن أن يكون التكرار هو البديل المطروح، لعله مع التكرار يستطيع المخ أن يدخل نظاماً ما على المادة، فيرتبها ويتذكرها بعد ذلك. أو البديل الآخر المطروح هو تقسيم الأرقام إلى كتل لحفظها، كما يحدث في أرقام التلفونات.

وقد يبدو أثر التنظيم في عملية الحفظ واضحًا بعد فترة من عملية التعلم، فقد قام جورج كورونا George Corona بتجربة على مجموعتين من الطلبة، طلب إلى إحداهما حفظ مجموعة من الأرقام، أما الثانية فقد طلب منها اكتشاف النظام الذي تنتظم تبعاً له هذه الأرقام، وخصص للتجربة ثلاثة دقائق فقط، وفي نهاية الفترة كان متوسط استرجاع المجموعة التي حفظت الأرقام 33% من حصيلة الأرقام، في مقابل 38% من المجموعة التي قامت بالبحث عن النظام. وبعد ثلاثة أسابيع من التجربة، قمت عملية الاستدعاء مرة أخرى، وأسفرت النتائج عن 23% متوسط استرجاع المجموعة، التي قامت بالبحث عن النظام، في مقابل صفر للمجموعة التي قامت بالحفظ فقط. ولاشك أن الدليل هنا واضح، حيث كان تنظيم المادة أكثر كفاءة في عملية التذكر، حتى بعد فترة من انتهاء التجربة، وذلك يعني أن التنظيم يكسب المادة المتعلمة المعنى الذي يسهل عملية الحفظ من ناحية، كما يعمل على بقاء الجزء الأكبر منها ويسهل تذكره.

وفي تجربة أخرى عن دراسة أهمية وجود التنظيم للمادة المتعلمة في التأثير على كفاءة الفرد في استعادتها من الذاكرة مرة أخرى، أراد أحد الباحثين أن يدرس ذاكرة اللاعبين المهرة في لعبة الشطرنج، ومقارنتها بمتوسطي المهارة في هذه اللعبة، وفي أحد التجارب تم عرض لوحة الشطرنج التي تشكلت لعرض مرحلة من مراحل اللعبة، على مجموعة اللاعبين، ينظرون إليها لفترة خمس ثوانٍ فقط، وبعد ذلك يطلب إليهم إعادة تكوين الشكل الذي رأوه على لوحة أخرى. وأسفرت النتائج عن أن مجموعة المهرة قد استطاعوا تكوين 90% من الشكل الذي عرض عليهم تكوينًا ناجحًا، أما مجموعة أنصار المهرة في هذه اللعبة فقد استطاعوا أن يعيدوا تكوين 40% من الشكل

الذى عرض عليهم تكويًّا ناجحًا. وخلص الباحث من هذا إلى أن تميّز مهارة اللاعب في هذه اللعبة أدت إلى قدرته على إدراك لوحة الشطرنج، باعتبارها كلاً منظماً، أكثر منها مجموعة قطع متفرقة. وهو ما يحدث مع خبير الإلكترونيات مثلاً حينما يطلب إليه تذكر دائرة كهربية مصممة جيداً، ففي مثل هذه الحالات، يكون الماهر قادرًا على تنظيم المادة داخل نموذج ذي معنى.

وبالإضافة إلى إكساب المادة المتعلمة معنى من خلال وضعها في إطار تمت معرفته - فإنه يمكن إكساب المعنى للمادة أيضًا، عن طريق إطار يطلب إلى الفرد ابتكاره بنفسه. وقد يكون هذا الإطار قصة ينسجها الفرد، تضم المادة التي يجب تعلمها، أو تكون تقسيمًا إلى الفئات، أو المحاور التي يتخيرها الفرد؛ محور الشكل أو الثمن أو ندرة الوجود أو السعر ... أو أي من المحاور التي يرى الفرد ملائمتها لتصنيف مادته حسبيها. ومن الجدير بالذكر أنه كلما كان هناك وضوح في المادة المتعلمة، كلما سهل هذا عملية الفهم والتنظيم والحفظ، ثم التذكر. ولاشك أن التعامل الكفاء مع المادة المتعلمة يحتاج إلى انشغال عميق بالمادة، وهو ما يترجم في درجة انتبه العقل، ومن ثم يكون هناك تسجيل جيد للمادة، الأمر الذي يكشف عن ذاته في التذكر الأفضل، وفي تعلم الجديد منها بسرعة وكفاءة. أما إذا لم يكن هناك الانتبه الوعي من العقل، فسيكون تسجيل المادة ضعيفاً باهتاً، الأمر الذي ينعكس بالضرورة على كم القدر المحفوظ منها في عملية الاسترجاع.

ومن المداخل أيضًا لتنظيم المادة الاعتماد على التصور البصري (visual imagery)، واستخدام الذاكرة البصرية، وهو الأمر الذي عرضنا له عندتناولنا لمعينات الذاكرة. وذكرنا أن استخدام الصور في ربطها بالمادة المطلوب تعلمها، من الأمور التي تسمح بجودة التعلم، ومن ثم جودة الاستدعاء. كما ثبت من التجارب أن خلق التفاعل بين المادة المتعلمة وبين الصور والأشكال، يساعد على هذه الجودة. ولا ننسى في هذا الصدد أن ذكر الحالة التي أشرنا إليها سابقًا، والتي ظلت تحت الدراسة على يد العالم الروسي لوريما (A.R.luria)، وكتب عنه كتابه الشهير (The mind of a Mnemonist) عام 1969، هذه الحالة التي تم اكتشافها أثناء عمله بالصحافة، عندما لاحظ رئيسه في العمل قدرته المدهشة على تذكر الأحداث، دون حاجة إلى تدوين نقاط أو ملاحظات عنها. ومن ثم أرسله إلى لوريما لدراساته؛ حيث إنه حالة تشد عن العادي أو المألوف، وأخضعه للكثير من التجارب؛ لاختبار قدرته على الحفظ، ومن ثم الاسترجاع، بدءاً من قوائم تضم المئات من الأرقام، إلى عدة مقاطع من الشعر بلغات غير معروفة، وقوائم كلمات صماء لا معنى لها، وأشكال مركبة، ومعادلات علمية ... إلخ. وقد كان يستطيع تذكر هذه الأشياء دون حدود لسعة الذاكرة لديه، فلم تتأثر بعامل الزمن كما أوضحتنا سابقًا، ولم تتأثر بعامل الترتيب. ولقد ثبت من البحث على هذه الحالة أن ما يميز هذه الذاكرة الشاذة هو القدرة الفائقة على التخيل، فهو إلى جانب أنه كان يستطيع تكوين وابتكر ثروة هائلة من الصور البصرية، كان أيضًا لديه قدرة فائقة على استخدام أحد الحواس أو بعضها، وهو ما يطلق عليه التزامن الحسي "synesthesia". هذا



المصطلح الذي يستخدم لوصف قدرة المثير في حدث ما على أن يستثير صورة في حدث آخر. والمعدل المتوسط من هذه القدرة قد يكون مألفاً، إذ إن غالبية الأفراد لديهم هذه القدرة بقدر متوسط، فيستطيعون مثلاً الربط بين الأصوات العالية، وبين الألوان البراقة، وبين الأصوات المنخفضة، وبين الألوان القاتمة. كما يستطيع بعض الأفراد الربط بين أيام الأسبوع وبين الألوان، لكنه في الحالة التي كان يتبعها لوري، كانت هذه التداخلات بين الأشياء كثيرة جدًا. فعلى سبيل المثال، كان إذا عرضت عليه نغمة عند شدة معينة (2000 وحدة في الثانية)، كان يقول: "إنها تشبه الألعاب النارية ذات الرائحة، مع لون أحمر قاتم. هذا اللون يبدو خشنًا وغير باعث على السرور، وله طعم كريه، مثل المخللات شديدة الملوحة، التي تستطيع أن تؤلم يدك بوضاعها فيها" (Baddeley, 1999, p.103). وهكذا كان الرجل يطرح الحياة في كل مادة يطلب إليه تعلمها، ليس فقط بالصور البصرية، ولكن أيضًا بالأصوات والروائح، والملمس. ولقد أصبح الرجل يعبر عن ذاكرته المتميزة على خشبة المسرح، ويدق قدرته الفائقة على التزامن الحسي بواسطة آليات، متضمنة تصوّر الأشياء المنتسبة إلى جوانب عادية أو مألفة؛ ليكون قصصًا تربط بينها جميًعاً.

ولقد أعطى بادلي أيضًا نموذجًا آخر على أسلوب تعلم هذا الفرد لمعادلة معقدة إلى درجة كبيرة. فقد نسج قصة عن فرد وعلاقته بأشياء يحبها ويألفها، ويعبر كل منها عن أحد مكونات المعادلة. وبهذه الطريقة كان هذا الرجل يتذكر المعادلة دون أخطاء، ليس فقط وقت تعلمها، لكن أيضًا بعد ذلك بخمسة عشر عامًا.

ورغم أنه يبدو أن هذه القدرة على التزامن الحسي أو الاستخدام المتزامن للحواس، هي من مميزات هذه الحالة، إلا أنه كانت هناك بعض المشكلات. فلو حدث مثلاً أن عطس أحدهم أو سعل أثناء تعلمها للمادة المطلوب تذكرها، فإن هذا السلوك يمثل كما لو أن ضباباً يغشى طريق استعادته لهذه المادة. كذلك أيضًا في حالة تعلمها مادة ما عن طريق محادثه شفويًّا بها، فإن أي تغير في صوت المتحدث يمكن أن يغير الصورة. فكأن كل كلمة تكون صورة ما، وهذه الصور تتجمع بعضها إلى بعض لتكون كلاً ذا معنى، فإذا حدث واختلفت إحدى هذه الصور بفعل نغمة الصوت مثلاً، أو بفعل سلوك لا يتتسق مع الفعل نفسه - فإن الصور المترکونة تمثل شيئاً لا معنى له، يمكن أن يؤثر على عملية التذكر.

ولقد كان هذا الرجل ناجحًا تمامًا في عمله، ومع ذلك كان يجد صعوبة شديدة في النسيان، ومن ثم كان يجد ذاكرته مزدحمة بالكثير من المعلومات التي لا يرغب في تذكرها. ولقد اتبع لذلك طريقة أنت بنتائج جيدة، وهي أنه كان يتصور المعلومات التي لا يرغب في تذكرها مكتوبة على لوحة، ثم تمحي هذه الكتابة من على اللوحة، وقد نجحت هذه الطريقة معه إلى درجة كبيرة؛ ليتخفف من المعلومات التي لا يريد تذكرها.

وعلى الرغم من تكرار الحالات التي تعد من أصحاب الذاكرة فوق العادة، إلا أنها جمِيعاً كانت أقل من الحالة السابقة التي تابعها لوريا. حيث يذكر بادلي *نُموذجاً* لهذه الحالات التي تابعها، وهي حالة تميزت بالقدرة الفائقة على تذكر الأرقام. ومن المثير للدهشة هو اعتماد هذه الحالة على التعلم عن طريق السمع (phonological learning)، والتي نتجت عن كفاءة متميزة للنظام السمعي، الذي أشرنا إليه عند تناولنا للذاكرة العاملة ومكوناتها. ولقد استطاع بادلي اختباره، ليس على الأرقام فقط، لكن أيّضاً على الكلمات، والذاكرة اللغوية لديه على تذكر الكلمات غير المترابطة، وذاكرة التعرف ليس للمادة اللغوية فقط (مثل أسماء الأفراد)، بل أيّضاً للمادة المصورة البصرية (مثل صور الأشياء). ولقد أثبت أنه يملك ذاكرة لغوية قصيرة لمدى جيدة، لكن أداؤه لم يكن قوياً.

أما عن تميزه في ذاكرة الأرقام، فقد ذكرت الحالة أنه قد نشأ في الهند، حيث أهمية الحفظ (Rot memorization). وكان عضواً في أسرة، أجبت الكثيرين الذين تميزوا في الرياضيات. ولقد وصف كيف أنه عندما كان عمره خمس سنوات، أهمل في حفل عيد الميلاد الأول لأخته، فأمضى الوقت في حفظ أرقام السيارات للأسر التي حضرت الحفل. ولقد مدح كثيراً لهذا الفعل، واعتبر من العناصر المتميزة بحفظ الأرقام منذ ذلك الوقت. ومع سنوات التعليم والتدريب، استطاع أن يচقل هذه القدرة الفطرية لديه. ولقد أشار إريكسون Ericsson، من خلال أبحاثه المتعددة على المهرة في مجالات كثيرة؛ كالفن، والمهارات العضلية، والموسيقى - أن هذه الحالات تعتمد على التدريب بدرجة كبيرة، وهو ما يتفق مع نظرية الإفراز (perspiration)، وليس نظرية الإلهام Inspiration في تفسير التميز.

وفي عودة مرة أخرى للتنظيم في علاقته بكفاءة عملية التذكر، نخلص إلى أن التنظيم عملية ضرورية ولازمة؛ إذ بدونها لا يمكن أن يتم تخزين المادة المتعلمة وفق طريقة منظمة ومحدة، حتى يمكن تذكرها بسهولة ويسر. فالذاكرة بدون هذا التنظيم هي أشبه بالمكتبة، بها حجرات كثيرة، والحجرات مزدحمة بالكتب غير المقسمة إلى اهتمامات وتفاصيل أو عناوين تنظمها. فإذا أراد أحد المتخصصين في التاريخ مثلاً أن يطلع على ما كتب عن الثورة الروسية، أو الثورة الفرنسية، فعليه أن يبحث وسط آلاف الكتب إلى أن يعثر على بعض ما يريد، وقد لا يستطيع ذلك. فمثل هذه المكتبة لاشك تكون عديمة الفائدة ملئ يزيد أن يعرف شيئاً.

غير أن التنظيم أيضاً ليكون ذا فائدة، لابد وأن يكون مناسباً لمادة التعلم. ففي مثال المكتبة السابقة، ليس من المنطقي أن تصنف الكتب بها حسب لون غلاف الكتاب، بل إن أكثر النماذج المناسبة لتنظيم الكتب داخل المكتبة هو حسب التخصصات، حيث يضم التخصص الواحد الكتب المعنية به، فيسهل على الفرد أن يصل إلى ما يريد في تخصص ما.



وخلاصة ما يطرحه عنصر التنظيم في علاقته بعملية التذكر، أن الذاكرة شبكة واسعة من الترابطات وال العلاقات بين المعلومات، فكل فكرة أو صورة قد يكون لها مئات بلآلاف الارتباطات، حيث ترتبط أيضًا في الشبكة العقلية بعدد لا يحصى من الأفكار. ومن ثم فإن ما يسجل في الذاكرة ليس حروفاً أو كلمات، لكنها مفاهيم ترتبط فيما بينها لتكون شبكة ذات معنى (Semantic network). فالذاكرة ليست وعاء يمتلك بالتدريج، أو تترافق فيه المحتويات دون تفاعل بينها، لكنها أشبه بالشجرة التي تنمو عليها الأغصان، فتعلق عليها المواد التي تم تعلمها، ومع دخول كل جديد من المعلومات، تنمو هذه الأغصان وتمتد وتداخل مع بعضها البعض، وتكون على أهبة الاستعداد لتعلم المزيد. فكلما عرفت أكثر، كلما ثبت قدرتك على أن تعرف أكثر وأكثر.

#### التذكر وظاهرة على طرف اللسان (On the tip of the tongue):

غالبًا ما تشبه الذاكرة المكتبة الكبيرة، التي ترخر بالمعلومات القيمة. ولكل يحسن استخدام هذه المكتبة، لابد وأن تكون المعلومات في متناول الفرد، وذلك يعني أنها في حاجة إلى التنظيم والتبويب والالفهرسة. وكما سبق أن أوضحنا أن عملية التنظيم هي عملية غاية في الأهمية؛ إذ إنه إذا لم تخزن المعلومات بطريقة منتظمة، يصبح من الصعب الحصول عليها في الوقت المناسب، والذاكرة غير المنظمة تشبه المكتبة المليئة بالكتب، المخزنة بطريقة عشوائية. فإذا ما أراد رجل التاريخ الحصول على معلومات في التاريخ عن الثورة الفرنسية مثلاً، فعلية أن يبحث في آلاف الكتب قبل الحصول على ما يريد، وقد لا يستطيع، ومن ثم تصبح هذه المكتبة عديمة الفائدة. وليس للتنظيم في حد ذاته أولوية في أهمية الاستفادة من المكتبة، لكن نوعية التنظيم هي الأكثر أهمية. فلاشك أن التنظيم بناء على لون الكتاب لا يكون ذا فائدة للقارئ أو الباحث، بل إن التنظيم القائم على الموضوعات، يكون أكثر فاعلية في تحقيق الهدف.

وتعتبر الذاكرة طويلة المدى هي أشبه بالمكتبة التي تضمآلاف المعلومات عن الأحداث اليومية التي يعيشها الفرد، لكن استرجاعه لهذه المعلومات يكون أقل كثيراً من نسيانه لها. فكم من المعلومات أو الأحداث التي نخفيق في تذكرها في الوقت المناسب، فهل تم تخزين كل ما مر به الفرد من خبرات؟ هذا لا يمكن إثباته بسهولة، فقد يكون ما تم تخزينه هو بعض هذه الخبرات، أو بعض ما تم إدراكه من هذه الخبرات، ومن ثم نخلص إلى أن ما نعرفه أكثر كثيراً مما نستطيع تذكره. فعلى الرغم من أنه قد نفشل في تذكر معلومة ما في الوقت المناسب، إلا أننا قد نستطيع تذكرها في وقت لاحق باستخدام الرمز الذي يرتبط بها. وبناء على ذلك، فإن رمز التذكر أو رموز الاستدعاء تسمح للفرد أن يربط بين المعلومات.

وفي المثال التالي ما يوضح ذلك:

إليك عدد من الكلمات، حاول حفظها واسترجاعها كما هي (كوخ، نهر، قائد، بركان، ألومنيوم، وردة، قبطان، خيمة، فندق، منشار، فودكا، مسمار، نحاس، هضبة، ذهب ، منزل، منحدر، مساعد قائد، خشب، برونز، ويستكي، مفك، عاصفة، حفار، الأوركيد).

حاول أن تكتب ما تتذكره من هذه الكلمات.

ثم عرفت بعد ذلك أن هذه الكلمات تنقسم حسب فئات، هي: الإقامة، الزهور، المشروبات الروحية، عدة التجارة، ظواهر طبيعية، المعادن، الرتب. حاول أن تحفظها في ضوء هذه المعلومات الجديدة، واسترجع ما يمكن تذكره منها. لابد وأن يكون هناك فرق؛ حيث إن تنظيم الكلمات في فئات يساعد الفرد على التذكر.

وتنظيم الكلمات حسب الفئات يقوم مقام الرموز التي تستخدم للربط بين المعلومات، ومن ثم تلعب دوراً مهماً في مساعدة الفرد على التذكر، واستدعاء المعلومات، فهي توجهه للبحث في المكان المناسب في الذاكرة. Baddeley, Allan D. (1999).  
ويضيف بادلي أن هذه الرموز تعين الفرد على التذكر، حتى في حالات ضعف مسارات التذكر

لكن ما الذي يحدث في ظاهرة على طرف اللسان؟

قد يطرح على الفرد سؤال هو على يقين أنه يعرف إجابته، لكنه يخفق في استدعاء الإجابة في هذا الوقت بالذات. ومعنى هذا أن الذاكرة تتطوى على معلومات قد لا يتاح للفرد تذكرها في الوقت المناسب، غير أنه يشعر أنها على طرف اللسان. ولقد حاول براون وماك نيل (Brown & Mc Neil) اختبار وجود هذه الظاهرة، وذلك بعرض قائمة من التعريفات على المبحوثين، وعليهم تحديد الشيء الذي يشير إليه التعريف، على أن يحدد الفرد أشياء تذكره باسم الشيء إذا ما كان على طرف لسانه أم لا. ولقد وجد الباحثان أن وجود الحرف الأول من اسم الشيء يساعد الفرد كثيراً على التذكر.

وخلال هذه، أن شعور الفرد بأنه يعرف هذا الشيء لكنه لا يتذكره، هو مؤشر جيد على أنه يعرفه. ومن ثم فإذا سلمنا أن كل ما نخبره في الحياة تسجله الذاكرة، فإنه أيضاً ليس ما نتذكره هو كل مانعرفه، بل نعرف ما هو أكثر مما نستطيع تذكره، غير أن الأمر يعتمد على كيفية تمييز هذه المعرفة وتنظيمها داخل الذاكرة. ومن ثم نعود مرة أخرى إلى وصف الذاكرة بالملكتبة الكبيرة الراخقة بكل ألوان المعرفة، حيث إن تذكرنا يعتمد على التمييز والتبويب الجيد لهذه المعرفة. فكل من التمييز والاستدعاء هما عمليتان متراقبتان إلى درجة كبيرة.

## تصنيف المعلومات والذكر:

إذن هناك اتفاق على أهمية تصنيف المعلومات الواردة إلى المخ؛ حتى يمكن تخزينها، ثم يسهل استدعاؤها بعد ذلك. ولكن هل تتساوى جميع طرق تصنيف المعلومات؟ أم هناك تمييز بينها تكشف عنها كفاءة استدعاء المعلومات؟

بالعودة مرة ثالثة إلى مثال المكتبة وتصنيف المعرفة التي تضمها، كلما كانت طريقة التصنيف ترتبط بالموضوع التي تدرج تحته، كلما سهل ذلك عملية الحصول على المعرفة المطلوبة. وفي تجربة على مجموعة من الطلبة، طلب منهم دراسة ثم استدعاء قائمة مكونة من ثلاثين كلمة، تم تصنيفهم في المرة الأولى على أساس الشكل (شكل الحروف المكونة للكلمة)، وفي المرة الثانية على أساس تشابه نطق الكلمات (قمر - قدر)، وفي المرة الثالثة على أساس المعنى الذي تنتهي إليه الكلمة (فتحة الحيوانات، أو فئة الأشياء). ولقد كشفت النتائج عن أن تصنيف الكلمات ببعض المعنى كان من أفضل التصنيفات؛ حيث ارتبط بأعلى درجة معبرة عن عدد الكلمات التي تم استرجاعها (of processing). وبناء عليه قدم الباحثان تفسيرهما لهذه النتائج في ضوء مصطلح عمق العملية (Depth) (Craikand Lokhart,1972)، حيث ترتبط كمية المعلومات التي تخزن في الذاكرة طويلة المدى ارتباطاً موجباً بكيفية التعامل مع الكلمة، الذي ينتقل وبالتالي إلى نطق الكلمة، والذي يؤدي إلى إثارة المعنى الذي تقصده. وفي كل فعل من هذه الأفعال، يتم تسجيل الكلمة. ومعنى ذلك أن التعامل العميق مع المعلومة هو مرادف للثراء أو الاتساع في التعامل مع المعلومات. والتعامل مع المعلومات من حيث الشكل والنطاق والمعنى، لا شك أنّه أكثر اتساعاً وثراء من التعامل مع الشكل وحده. وبناء عليه، فإن المعلومات التي يتم تخزينها وفقاً مثل هذا النظام الثري والمفصل، تكون أكثر قابلية للوصول إليها، من المعلومات التي تم التعامل معها في ضوء نظام أقل ثراء وأقل تنظيماً.

## رموز (مفاتيح) التذكر (Retrieval cues):

يرجع الفضل في استخدام هذا المصطلح إلى إنجل تولفنج، الذي أضاف الكثير إلى تراث الذاكرة الإنسانية. وقد عنى تولفنج بهذا، حيث إن المعلومة إذا تم تعليمها في ارتباطها بأحد المفاتيح التي تشير إليها (قد تكون الإشارة ليست قريبة في المعنى بدرجة كبيرة) - فإن ذلك يساعد على تذكر المعلومة واستدعائها بسهولة أكبر، لكنه اقترح لكي يتم ذلك - أن يتم ظهور الرمز أو المفتاح أثناء عملية التعلم.

ويذكر بادل أن الرائحة من المفاتيح التي يمكن أن تحفظها الذاكرة، وقد أجريت عدة تجارب على درجة احتفاظ الذاكرة بالرائحة، وأسفرت التجارب عن عدم حدوث النسيان للرائحة لدى الذاكرة قصيرة المدى (من 3 إلى 30 ثانية)، وبناء عليه حاول روس وإنجن (Ross & Engen) اختبار

هذا الأمر على الذاكرة طويلة المدى، ومدى قدرتها على الاحتفاظ بالرائحة وسهولة استرجاعها. وقد قاما بالتجربة على ثمان وأربعين نوعاً من الروائح، وتم اختبار المبحوثين على التعرف على عشرين من هذه الروائح من بين أربعين رائحة، بعد مرور ثلاثة أيام. وقد سجل المبحوثون نجاحاً في تحديد الروائح التي تم تعلمهم لها بنسبة 67%. وقد ارتفعت هذه النسبة إلى 77%， مع خفض عدد الروائح التي طلب من المبحوثين التعرف عليها.

وتشير النتائج السابقة إلى أن تذكر الروائح قائم النسيان، ويفسر بادل حدوث هذا الأمر بأن الشم منفصل عن خبرات الذاكرة. ففي تذكر الكلمات، لاشك أنه يمكن استخدام كلمات بعينها في سياقات مختلفة، (فتعليق - في طلب أو استفسار)، وكذلك المثيرات البصرية يمكن أن ترتبط بعدد من الخبرات البصرية. أما في حالة الشم والتذوق فإن هذا الأمر محدود للغاية، لذلك فإنه في برامج تنمية التفكير الإبداعي (CPS)، كانت بعض التدريبات تقوم على اختبار الفرد للشيء، والتعرف عليه باستخدام أغلب الحواس قدر الإمكان: الملمس، الرائحة، الطعم، الشكل. ولاشك أن لذلك أهميته في كشف المزيد من العلاقات بين هذا الشيء والأشياء الأخرى. كما أن لذلك فائدته في استخدام النظام الذي متعدد الأبعاد والمصادر، في تسجيل الشيء في الذاكرة، مما يستثير إمكانات المخ، ومن ثم الذاكرة لدى الفرد من ناحية، كما يعمل على تعدد المسارات التي يتم تسجيل الشيء داخل الذاكرة من خلالها، من ناحية أخرى.

وبإضافة إلى ذلك، فكلما تعددت المفاتيح التي يستخدمها الفرد في تعلم المادة أو المعلومة المراد تعلمها، كلما عنى ذلك كفاءة استدعاء هذه المعلومة. ولاشك أن تعامل الفرد والقيام بنشاط ما في تعلم المادة هو أحد هذه المفاتيح التي تساعد على استدعاء المعلومة بكفاءة ويسراً، كما أن ذلك يقاوم تأثير الزمن على تذكر المعلومات؛ فكتابه المعلمات، أو استخدام الرسوم في التعبير عنها، من العوامل التي تؤدي إلى تحسن مهارة استرجاع المعلومات. ومن ثم يبدو أن قوة مسار الذاكرة، والقدرة على التذكر، تتبع من حقيقة أنها قد تم ترميزها في الذاكرة في ضوء نظام ثري يضم الصورة والمعنى والفعل.

وتوضح قوة نظام تعدد المفاتيح - بصفة خاصة - في استدعاء النوعية المنغمة ذات الإيقاع من المواد المتعلمة، حيث لا تستطيع أخطاء الذاكرة أن تؤثر على النغمة أو المعنى الكلي. وقد قام ديفيد روбин (David Rubin) عام 1995، بدراسة مكثفة على أنواع التذكر الشفهي، متضمنة ذاكرة الحكايات الشعبية، التي يغنينها المطربون الشعبيون. وقد وجد روбин أن هؤلاء المطربين رغم اختلافهم في بعض التفاصيل الصغيرة، إلا أنهم يحتفظون بالمعنى الكلي للأغنية أو الحكاية، كما يحتفظون بالنغمة. وفي خلاصة هذا البحث ذكر روбин أن المادة التي تتضمن إيقاعاً والحكاية الشعبية التي تقاوم تأثير الزمن على الذاكرة؛ إنما يتسرى لها ذلك لأنها تجمع في ترميزها بين ثراء المعنى والتنغير والإيقاع .(Rubin,D.,1995)

### السياق الخارجي، وأهميته للتذكر:

تحدثنا فيما سبق عن عملية تنظيم المعلومات، وأهميتها للذاكرة طويلة المدى، ويقصد بالسياق الخارجي هنا البيئة الخارجية التي تم فيها وقوع الحدث. فهل لإعادة تمثيل البيئة التي تم فيها وقوع الحدث تأثير جيد على ذاكرة هذا الحدث؟ هل يمكن لوجود السياق أن يعطى تدفقًا للذاكرة عن التفاصيل التي يصعب الوصول إليها في حالة عدم وجود السياق؟ إننا نجد هذا الأمر واضحًا بصفة خاصة في أدب الخيال البوليفي .. إذ كم من القصص البوليفية والأفلام التي تعرض لأهمية البيئة - موضع وقوع الحدث - في تذكر الشاهد للأحداث التي تتعرض للنسopian. فهل هناك أدلة علمية على أن إعادة تمثيل البيئة التي تم فيها التعلم، تساعد على دفع عملية التذكر، والعكس أيضًا؟

يقدم بادلي الأدلة على ذلك من الملاحظات العامة على من يعيشون بالخارج لفترة، وينتقدون اللغة الخاصة بهذا البلد؛ للتعامل مع أهله، وعند عودتهم إلى بلدتهم، وبعد مرور عامين تقريبًا، يفقد الفرد - شيئاً فشيئًا - اللغة التي اكتسبها من البلد الآخر. لكن إذا ما قدر له العودة مرة أخرى إلى ذلك البلد، فإنه يبدأ في استعادة قدراته على تحدث اللغة مرة أخرى بسرعة، ومعنى هذا أن اللغة لم تفقد، لكنها كانت بعيدة عن سهولة الحصول عليها.

وفي عام 1975، استطاع دانكان (Duncan) اختبار مدى صحة هذا الفرض الذي يقضى بأهمية البيئة (السياق) لعملية التذكر، وذلك على أحد المواقف العملية الخاصة بتدريب الغطاسين في أعماق البحار، على مشاهدة سلوك الأسماك في التوجه نحو أو الهروب من الشبك المخصوص لاصطيادها. وقد وجد أن المبحوثين بعد خروجهم من الماء، قد نسوا الكثير من السلوك الذي شاهدوه من السمك تحت الماء.

وفي تجربة أخرى، تم تعليم عينة من هؤلاء الغطاسين أربعين كلمة مرتبطة بعام البحار، وأخرى عن الأرض. وباستخدام أجهزة تسجيل تحت الماء، طلب من المبحوثين - أثناء وجودهم في العمق - أن يذكروا أكبر عدد من الكلمات التي تعلموها. وقد كشفت النتائج عن وجود علاقة موجبة بين البيئة التي تم فيها التذكر، وبين عدد الكلمات المرتبطة بهذه البيئة. يمعنى أن تحت الماء كان تذكر الكلمات الخاصة بعام البحار أعلى كثيرًا من تذكر العينة لهذه النوعية من الكلمات بعد خروجهم من الماء، وكذلك كان الأمر بالنسبة لتذكر الكلمات الخاصة بمعلومات عن الأرض. وتعنى هذه النتائج إذن، أن وجود الفرد في السياق المرتبط بمادة التعلم يساعد كثيرًا على تذكرها.

### السياق الداخلي للفرد، وأهميته للتذكر:

ترد هذه الحالة في التراث الخاص بالذاكرة تحت ما يسمى بالذاكرة المعتمدة على الحالة (State dependent memory)، أي تغيرات البيئة الداخلية للفرد، ومدى تأثيرها على كفاءة عملية التذكر. فكما يؤثر السياق الخارجي على كفاءة التذكر، فإن تغيير الحالة الداخلية للفرد - كما يحدث في

حالة تعاطي الكحوليات - يؤثر على الذاكرة، ولقد استطاع جودوين (Goodwin) عام 1969، أن يقوم بدراسة بعض الحالات من متعاطي الكحوليات بشدة، الذين يتربدون على العيادة، واستخدم لذلك أدوات متعددة. وخلص إلى أنه بصفة عامة ما يتم تعلمه أثناء وجود الفرد تحت تأثير التعاطي، يمكن تذكره بصورة جيدة تحت تأثير التعاطي أيضاً. فمن التجارب التي أجريت على أفراد هذه العينة أنه طلب منهم وضع بعض الأشياء الخاصة بهم في مكان ما، وهم تحت تأثير التعاطي (نقود - الحافظة)، وبعد زوال تأثير الخمر طلب منهم استرجاع ما تم حفظه في المكان الذي يعرفونه، إلا أنهم فشلوا في هذا، غير أنهم قد نجحوا في تذكر المكان بعد عودتهم مرة أخرى لوجودهم تحت تأثير التعاطي. وقد كررت هذه التجربة مع استخدام مواد أخرى مثل الماريجوانا، وأسفرت عن نتائج مماثلة (Eich Goodwin, 1969 – 1980). كما أضافت الدراسات الحديثة، أن هذا التأثير على الذاكرة لا يليد إلا في اختبارات التذكر، بينما يختفي الأثر في اختبارات التعرف. وهذه النتائج تعني أن عملية التذكر ليست عملية واحدة، بل إن لها مكونين؛ يهتم المكون الأول بالعثور على مسار الذاكرة الخاص بالمعلومة المطلوبة، بينما يختص المكون الثاني بتقييم هذه المعلومة.

#### الحالة المزاجية والذاكرة:

عندما يطلب من الأفراد المكتتبين أن يذكروا بعضًا من ذكرياتهم الشخصية، يميلون إلى تذكر الأحداث غير السارة في حياتهم، وكلما زادت درجة الاكتئاب، كلما كانت سرعة الذاكرة في تذكر هذه النوعية من الأحداث. وقد يكون تفسير هذا أن الأفراد المكتتبين لا شك يعيشون حياة غير سارة وغير مشبعة، وقد تفسر هذه الحياة إصابتهم بالاكتئاب؛ لذلك فقد أجريت التجارب على الأسوية، وذلك بوضعهم تحت تأثير المزاج السيئ (قصة مؤثرة - أو فيلم قصیر محزن)، ثم يطلب منهم بعد ذلك التفكير في بعض العبارت السيئة والسعيدة، وسرد الأحداث الشخصية المرتبطة بكل منها. وقد كشفت البحوث عن أن الأفراد كانوا أكثر ميلاً إلى تذكر الأحداث غير السارة، من ميلهم إلى تذكر الأحداث السارة.

وقد مثلت العلاقة بين الذاكرة والحالة المزاجية موضوعاً، حصل على قدر من اهتمام الباحثين لدراسته، فقد طلب بوير (Bower, 1981) من عينة البحث أن يقوموا بتدوين مذكراتهم عن حياتهم الانفعالية على مدى أسبوع واحد. وبعد مرور هذه الفترة، حضرت العينة إلى المعمل، وتم تجريب خلق الحالة الانفعالية لديهم تجريبياً، حيث تعرض الأفراد أثناء تنويعهم مغناطيسيًا، للإيحاء إليهم بشعور السعادة، أو بشعور الأسى والحزن، ثم طلب منهم بعدها أن يذكروا الأحداث التي مرت بهم أثناء الأسبوع السابق على موقف التجريب. ولقد وجد بوير تطابقاً بين نوعية الأحداث التي تذكرها الفرد و الحالة الانفعالية له، فالأفراد الذين تم الإيحاء إليهم بمشاعر السعادة، كان تذكراهم للأحداث السعيدة من حياتهم في ذلك الأسبوع يفوق كثيراً تذكراهم للأحداث غير السعيدة. كما أن

الأفراد الذين تم الإيحاء إليهم بمشاعر الأسى والحزن كان تذكرهم للأحداث السيئة يفوق كثيراً تذكرهم للأحداث السعيدة.

وفي تجربة أخرى، قام بوير وزملاؤه باستخدام رواية القصة لتغيير مزاج الأفراد، واستعان بقصة تجمع بين المواقف السعيدة والمحزنة معًا من خلال الأحداث، وخلص منها أيضًا إلى أن تذكر نوعية الأحداث قد خضع كذلك لنوعية المزاج السائد.

وببناء عليه، خلص بوير إلى أن خبرات الفرد التي يتم تذكرها، تخضع للحالة المزاجية للفرد وقت التذكر. غير أنه كانت هناك بعض الوفقات أمام تأثير المزاج السيئ على تذكر الفرد للأحداث، فقد وجد لويد وليشمان (Lloyd & Lishman, 1975) من خلال دراستهما على مرضى الاكتئاب، أن الزمن الذي يستغرقه مريض الاكتئاب لتذكر الخبرات السالبة، يقل كلما أصبح أكثر اكتئاباً. كما وجد برودبنت و ويليام (Broadbent & William, 1986) أن مرضى الاكتئاب الذين أقبلوا على الانتحار ونجوا، كانوا يواجهون صعوبة كبيرة في تذكر الأحداث التي تستخدم فيها الكلمات الإيجابية لاستثارتها. و لم يتيسر لهم ذلك، إلا باستخدام الكلمات المفتاحية السلبية. وفي تجربة أخرى قام بها ما�و (Mathews) عام 1992، عن مرضى القلق المرضى في مقارنتهم بالآسيوياء، لقياس قدرتهم على تذكر الأحداث الحياتية باستخدام الكلمات المفتاحية المحايدة - كان تذكر الأفراد القلقين للخبرات السالبة المرتبطة بالقلق يفوق كثيراً ما تذكره الآسيوياء من هذه النوعية من الأحداث.

وبصفة عامة، تشير هذه التجارب وما أسفرت عنه من نتائج إلى أن حالات المزاج تؤدي إلى تأثيرات مهمة على الذكريات التي يسترجعها الفرد، وقد يفسر لنا ذلك بقاء الاضطرابات الكلينيكية عند الأفراد، والدور المتساند لكل من الحالة الانفعالية ونوعية الذكريات في دعم بقاء هذه الحالات. وقد يمثل هنا تأثير المزاج على الذاكرة، ما سبق أن عرضنا له في تأثير السياق الخارجي على الذاكرة، حيث يتم تذكر الحدث في مثل الظروف البيئية التي تم تعلمه فيها، أي أن هناك اتفاقاً أو تطابقاً بين المزاج وبين ذاكرة الفرد. لذلك فإن التوجهات المعرفية في علاج الاكتئاب تتضمن مساعدة المريض على تذكر المزيد من الأحداث الإيجابية في حياته التي تعرضت للنسيان في خضم الحلقة المفزعية من الأحداث المؤلمة وغير السارة التي يدور المريض فيها.

#### الذاكرة وشهود العيان (Eyewitness Testimony):

إن علماء النفس يهتمون بدراسة ذاكرة الشهادة منذ قرن تقريباً، ففي عام 1895، أورد كاتل (Cattel J.M) بعض الاستفسارات عن دقة ما يلاحظه تلاميذه ويتذكرونها عن الأحداث اليومية. فقد استخدم السؤال عن "حالة الجو منذ أسبوع مضى"، وكانت إجابات غالبية التلاميذ (5.87 %)

خالية من تضمنها لبعض الحقائق. وقد فسر ذلك بأن الأفراد قد لا يستطيعون التفرقة بين حالة الجو من أسبوع مضى، وبين حالة الجو منذ أسبوع.

ثم وجه لهم كاتل سؤالين آخرين، هما:

\* أى أنواع الشجر (شجر الجوز أو شجر البلوط يفقد أوراقه في الخريف قبل الآخر؟

\* في أى اتجاه تنمو حبوب التفاح؟

ولقد وجد كاتل أن دقة الإجابة لم تكن أفضل كثيراً من نتيجة التخمين الصرف للإجابة. فقد أجاب 59% من العينة إجابة صحيحة عن السؤال الأول، بينما أجاب 39% عن السؤال الثاني إجابة صحيحة.

وتعود التجارب على ذاكرة الشهادة من الاهتمامات الحالية بدراسة ذاكرة الحياة اليومية؛ ولذلك يمكن اختبارها بعدد من المواقف الواقعية التي تحاكي ما يحدث في الواقع، ولكن مع ضبط المتغيرات. وتعنى هذه التجارب ببحث دقة الشهادة لدى الأفراد، وكيف يستطيع الأفراد وصف الحدث الذين شاهدوه من فترة مضت، وما هي العوامل التي تجعل من تقاريرهم أكثر دقة أو أقل دقة؟ ولاشك أن هذه التساؤلات ليست أكاديمية فقط، بل هي مهمة لرجال البوليس وللقضاء. وقد أجريت التجارب العديدة في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، وأغلب هذا العمل يعزى إلى إليزابيث لوفتس وزملائها (E. Loftus) في الثمانينيات، وهو ما سنعرض له في حينه.

ففي تجربة قام بها نيكرسون وآدمز (Nickerson & Adams, 1979): للتعرف على مدى دقة تذكر الفرد للأشياء التي يتعامل معها يومياً مثل النقود. فقد طلب من العينة أن يذكروا له ملامح قطعة النقود الأمريكية (إحدى الفئات التي حددها لهم) على الوجهين. وقد أسفرت النتائج عن أن غالبية العينة قد ذكرت ثلاثة من ملامح قطعة النقود من بين ثمانية ملامح لقطعة، بينما الأقلية هي التي زاد عدد ما ذكرته عن ثلاثة.

وفي تجربة أخرى عام 1983، طلب روبن وكوتنيس (Rubin & Contis) من أفراد العينة رسم قطع النقود المعدنية التي يتم التعامل بها في المجتمع الأمريكي، اعتماداً على الذاكرة فقط. ولقد تشابهت جميع القطع في ملامح مميزة وردت في رسوم العينة، وحينما طلب منهم اقتراح شكل آخر للعملة، جاءت الرسوم معبرة عن الشكل السائد، مما يؤكد أن هناك إسكيماً "schema" (مخططًا عامًّا) للعملة أكثر من وجود ذكريات خاصة بالفرد (دينية أو غيرها).

ومن ثم فإنه يمكن القول إن رؤية الشاهد موقف تمثيلي يحاكي الجريمة تجعله في موقف أفضل من حيث تذكر الأحداث؛ حيث إن الاعتماد على الذاكرة وحدها لا يتتيح له هذه الفرصة. ومنعى



هذا أن هناك عدداً من العوامل التي تعمل على تشويه أو طمس معالم الحدث في الذاكرة .. فالشاهد يرى الحدث مرة واحدة، وعادة ما يكون غير متوقع، وعادة يكون ما يراه الفرد في وقت قصير، كما أن القائم بالجريمة يكون حريضاً على أن يقلل فرص كشفه أو تمييزه.

وينظر التراث عدداً من هذه العوامل فيما يلى:

#### - ١- تأثير العنف:

إلى أي مدى يمكن أن يؤثر الموقف على دقة الشهادة؟ أثبتت البحث على 235 من محامي الدفاع عن المتهمين في دراسة أمريكية أن 82% منهم يشعرون أن مستوى الانفعالات المرتفع، قد يؤدي إلى اضطراب إدراك الوجه. وبينما وافق 32% من محامي المدعين ( أصحاب القضية ) على هذا الرأي، لم تتوافق الأغلبية منهم. ونعود للسؤال: أيهما على صواب؟ هل يؤدي الانفعال الشديد إلىبقاء الحدث دون تشويه في ذاكرة الضحية، أم أنها تؤدي إلى خفض كفاءته على استرجاع الأحداث نتيجة للكبت؟ وقد أجريت العديد من الدراسات، إلا أنها لم تصل إلى إجابات محددة.

ومن الطرق المتبعة لدراسة استدعاء الفرد وتذكره للأحداث المشحونة بامتعني، أن يتعرض الفرد لفيلم أو موقف تمثيل عن الحدث، يرتبط بالعنف نحو المرأة مثلاً، أو نحو الطفل. وقد أشار الباحثون إلى أن ذاكرة الأحداث العنفية تكون أقوى من ذاكرة الأحداث المحايدة، أما ذاكرة التفصيات المرتبطة بالحدث فهي تكون أقل منها. ولقد استخدم تركيز العين كمؤشر على درجة انتباه الفرد لجميع جوانب الحدث المشحون بالعنف، وغير المشحون بالعنف. فالعنف يميل إلى أن يزيد من كم الانتباه الذي يعطيه الفرد للحدث الرئيسي، بالمقارنة بالتفاصيل الفرعية .. هل معنى ذلك إذن أن تمييز وجه المعتدى يمكن تحديده في ضوء رؤية الضحية له باعتباره حدثاً رئيسياً، أو أن السكين الذي في يده كان هو الحدث الرئيسي؟ ففي الأحداث التي تتضمن استخدام أدوات كالسكين أو المسدس مثلاً، قد يكون تركيز الانتباه على الأداة أكثر من تركيزه على المجرم نفسه. وفي تجربة أجريت في جامعة ميتشجان، حيث تم تمثيل الحدث تارة باستخدام المسدس، وأخرى بدون. وقد طلب من المفحوص أن يقف خارج المعمل بالقرب من الباب. ففي الحالة الأولى حيث الحدث بدون استخدام المسدس، قامت مشادة لفظية بين فردين داخل المعمل، على إتلاف أحد الأجهزة، وفي نهايتها، خرج أحدهم حاملاً في يده قلماً وعلى يده شحم، وكانت تصدر منه بعض الكلمات حتى سار بعيداً. أما في الحدث الآخر المصاحب بالعنف، فقد استمع المفحوص إلى مناقشة عنيفة بين فردين، انتهت بسماع أصوات تكسير للزجاجات، والكراسي، ثم خرج أحدهما من المعمل يحمل في يده فتاحة مغطاة بالدم، وكانت تصدر منه أيضاً بعض الكلمات، ثم سار بعيداً.

ثم قدم الباحث للمفحوص خمسين صورة؛ لكي يحدد وجه الرجل الذي خرج بعد وقوع الأحداث في المعمل في كلتا الحالتين. وقد كشفت النتائج أن تحديد المفحوصين لوجه الفاعل في حالة عدم استخدام العنف 49%， أما في حالة استخدام العنف فكان تحديد الوجه بنسبة 33% فقط.

لاشك أن مثل هذه النتائج قد تدعم الرأي القائل إن في الأحداث المشحونة بالعنف، يتشتت انتباه الشاهد بين أكثر من متغير في الموقف، مما يؤثر بدوره على الذاكرة. أما في المواقف غير المصحوبة بالعنف، فإن الذاكرة تكون أكثر قدرة على التمييز. وفي تجارب أخرى أجريت على ذاكرة الشهادة في مواقف الخوف، ظهر أن الشعور بالخوف يؤدي إلى تضييق حيز الانتباه، أي أن الشعور بالخوف قد يؤدي إلى وضع الملامح المهمة للموقف في نقطة الارتكاز، لكنه قد يقلل من التركيز على التفاصيل الفرعية في الموقف.

#### - الأسئلة الموجهة (leading questions) :

يتعرض شهود العيان لاستجوابهم عن تفاصيل الحدث الذي وقع دون توقع وبسرعة، وفي مثل هذه الظروف، يكون الاستجواب - خاصة الطريقة التي توجه بها الأسئلة - قد يؤدي إلى تشويه استدعاء الفرد وتذكره لتفاصيله. وقد أجرت لوفتس (Loftus) عدداً من التجارب، كانت في أغلبها تستخدم فيلماً عن حادثة اصطدام سيارة، وكانت تستخدم تعبيرات مختلفة مع المفحوصين، تدرج من الوصف المحايد للحادثة، ثم تحرّف نحو الوصف العنيف (مثل: يدمر). وقد وجد أن استجابات الأفراد تتغير تبعاً للكلمات التي يستخدمها الباحث في التعبير عن الحادثة، فمع استخدام كلمة يدمر، كان الأفراد أكثر ميلاً إلى إعطاء تقديرات عالية لسرعة السيارة، أما مع استخدام الكلمات الأخرى، فقد كانوا يميلون إلى إعطاء تقديرات أقل.

وفي تجارب أخرى، حاولت اختبار إلى أي مدى يمكن أن يغير الشاهد ما يتذكره عن الحدث، مع استخدام معلومات جديدة أثناء الاستجواب. ففي إحدى التجارب، عرض على المفحوصين مجموعة من الشرائح المعبرة عن حادثة تعرض فيها أحد المارة لاصطدام بأحد المركبات، وجرى سائق السيارة (الخضراء) سريعاً دون أن يتوقف، وسارع أحد مالكي السيارات التي شهدت الحادثة إلى التعاون مع سيارة البوليس التي وصلت إلى مكان الحادثة، ثم طلب من المفحوصين الإجابة عن اثنى عشر سؤالاً، وكان أحدهم يسأل عن السيارة المعنية (الزرقاء) التي تسببت في الحادثة، وأسرع صاحبها دون توقف. وبعد مرور عشرين دقيقة، سُئل المفحوصون مرة أخرى عن لون السيارة التي أسرعت ولم تتوقف بعد الحادثة، فكان المفحوصون يستجيبون بأنه اللون الأزرق أو الأخضر المائل إلى الزرقة ، أي أنهم استخدمو المعلومات الخاطئة التي تم استخدامها أثناء الاستجواب الأول.

وخلصت لوفتس من هذه التجارب إلى أن تمثيل الذاكرة لحدث ما، يمكن أن يعدل بالمعلومات اللاحقة. فقد ادعت لوفتس أن هذه المعلومات الجديدة يتم دمجها في الذاكرة، فتححدث الذاكرة، وتزيل أي من المعلومات الأصلية التي لا تنسق معها. وبناء على ما تراه لوفتس أنه فور اتحاد المعلومات الجديدة الخاطئة مع الذاكرة الأصلية، فإن الفرد لا يستطيع تمييز مصدرها، فهو يعتقد تماماً أن هذه المعلومة الخطأ وجدت فعلاً في موقع الحدث (Loftus, 1979).

غير أن لوفتس تشير إلى أنه ليس من السهل تضليل الشاهد دائمًا، فقد كشفت بعض التجارب عن مقاومة الذاكرة الأصلية للتضليل في بعض الأحداث، غير أن ذلك يعتمد أولاً على نوعية المعلومة التي يراد تضليل الشاهد بشأنها. فإذا كانت هذه المعلومة أساسية في الحدث، فإنه يصعب تضليل الشاهد أو التأثير على معلوماته. فعلى سبيل المثال من تجربة على حادثة سرقة الحافظة الحمراء من سيدة، حينما سئل المبحوثون أجاب 98% على وصف الحادثة وتحديد لون الحافظة إجابة صحيحة، ثم قرأوا وصفاً مكتوبًا لهذه الحادثة، تضمن لوغاً مختلفاً للحافظة (خقراء)؛ وذلك بغض تضليل الشاهد. غير أن الغالبية - فيما عدا فردين - أظهروا مقاومة للموافقة على هذا الخطأ الواضح من المعلومات. وهكذا فإن الذاكرة الواضحة للمعلومات المهمة التي تم إدراها بدقة في وقتها، ليس من السهل تشويهها. فقد كان تذكر لون الحافظة صحيحاً لأن الحافظة كانت مركز الحدث، وليس معلومات ثانوية، كما أشارت التجربة أيضاً إلى أنه فور إدراك الفرد جزءاً يسيراً من التضليل، يكون أكثر حذراً ومقاومة لأى معلومات خاطئة عن الحدث.

ومن ثم يمكن تحديد ظروف ميل الفرد إلى التأثر بالمعلومات الخاطئة عن حدث ما إذا كانت هذه المعلومات:

\* تخص المعلومات الثانوية في الحدث.

\* قدمت المعلومات الخاطئة بعد فترة من مشاهدة الحدث، حيث تكون الذاكرة عن الحدث الفعلى قد ضعفت.

\* أن يكون الأفراد على غير وعي بأنهم مستهدفون بمعلومات مضللة، ومن ثم ليس لديهم سبب لعدم الثقة في أي معلومات تقدم لهم.

وبناء على هذه النتائج، يكون السؤال: هل تغير تقرير الفرد عن الحادثة يعني أن ما يتذكره حقيقة عن الحادثة قد تغير؟ أم أنهم قد غيروا أقوالهم فحسب؟

لقد قامت لوفتس بعدد من التجارب التي حاولت أن تعرف من خلالها الإجابة عن السؤال السابق، وانتهت من هذه التجارب إلى أن ما يحدث هو تغير مسار الذاكرة الخاص بهذا الحدث أو ذاك، وليس مجرد تغيير أقوال.

إذن، ماذا عن الواقع واستفادة المحامين من هذه النتائج؟

إن هناك بعض الإجراءات التي تتبع بالفعل الآن في استجواب الشهود، مثل حرص المحامي على حضور التحقيق، وأن الشهادة وحدها لا تكفي بدون وجود الأدلة على ذلك، ثم عدم رؤية الشاهد لصورة الفاعل قبل الاستجواب. كما أن الأبحاث السيكولوجية في هذا المجال قد أضافت إلى تحسين أدوات المقابلة التي تقدم على أساس نفسية، منها جدول المقابلة المعرفية "cognitive Interview Schedule"، الذي قام بوضعه عدد من الباحثين (جيسلمان "Geiselman" وزملاؤه)، ويقوم على أربعة أسس علمية عن التذكر، وهي:

- 1 إعادة التمثيل العقلي للبيئة، وأى اتصال شخصى تم أثناء وقوع الجريمة.
- 2 تشجيع الإفصاح عن كل التفصيات، بغض النظر عن علاقتها الثانوية بالحدث.
- 3 محاولة وصف الواقع بطرق متعددة.
- 4 محاولة تقديم التقرير عن الواقع، من خلال وجهات النظر المختلفة.

وتقوم الخطوطتان الأولى والثانية على مفهوم خصوصية التمييز "specifity"; وذلك في محاولة لتوضيح الفرق بين السياق الذي شوهدت فيه الجريمة، وبين السياق الذي يتم فيه تذكر أحداث الجريمة.

أما الخطوطتان الثالثة والرابعة، فهما يقumen على فكرة أن تذكر الماداة يمكن أن يتم باستخدام مسارات مختلفة، تقدم مزيدًا من المعلومات عن جوانب أخرى من الحدث.

ومن خلال عدد من التجارب، ثبتت صلاحية هذه الأداة، بل وقام جيسلين وفيشر بعد ذلك بتطويرها، وأصبحت تتضمن بعض الأسئلة مفتوحة النهاية إلى جانب الأسئلة المغلقة، كما قمت مقارنة هذه الأداة بغيرها من الأدوات في سبع وعشرين تجربة، وقد أسفرت النتائج في غالبية هذه التجارب عن تفوق هذه الأداة في قلة عدد المعلومات الخاطئة التي ترد في تقارير الشهود عن الأحداث ( Baddeley, 1999, 203 ).

### -3 تذكر الوجوه : "Remembering Faces"

قد يذكر البعض أنهم لا ينسون أبدًا وجهاً رأوه. إلى أي مدى هذا الادعاء صحيح؟ لقد كان هذا المجال من اهتمامات الباحث موريل وودهيد "M.Woodhead"، إذ قام بتجربة على مائة من ربات البيوت، حيث عرض عليهم مجموعة من صور الشخصيات غير الشهيرة، ثم طلب منهم التعرف على هذه الصور مرة أخرى بعد إضافتها إلى عدد آخر من الصور الجديدة، كما طلب منهم تقييم

جودة ذاكرة الوجوه لديهم. وقد كشفت نتيجة التجربة عن وجود فروق كبيرة بين هؤلاء الأفراد في أدائهم الفعلى على اختبار التعرف، أما النتيجة الأكثر أهمية فهي عدم وجود علاقة بين تقييمهم لجودة ذاكرة الوجوه لديهم، وبين درجتهم على الأداء الفعلى، فالبعض الذي قدم تقريراً جيداً عن جودة الذاكرة لديه، كان أداؤه متواضعاً، وكذلك العكس أيضاً.

وبعد مرور عامين، استطاع وودهيد إعادة اختبار بعض أفراد من هذه العينة مرة أخرى، فدعا عينة من الذين أدوا أداء جيداً، والذين أدوا أداء سيئاً في التجربة، وأعاد اختبار قدرتهم على التذكر، مع استخدام مواد أخرى غير صور الوجوه. وقد كان الغرض من هذه التجربة الوقوف على مدى شيوخ قدرة هذه العينة على نوعيات أخرى من التذكر لدى الأفراد، وقد استخدم لهذا الغرض صوراً من الطبيعة، إلى جانب بعض المواد اللفظية. ولقد كشفت النتائج عن حصول العينة صاحبة الأداء الجيد على صور الوجوه، على درجات متغيرة على تذكر الصور الطبيعية التي عرضت عليهم. بينما لم تختلف العيستان عن الأداء الضعيف على الذاكرة اللفظية. لا يمكننا التعميم إذن على كل جوانب الذاكرة، بل إن ما يخص الذاكرة البصرية يختلف عما يخص غيرها من الذاكرة.

وقد يرى البعض أن ذاكرة الوجوه تعتمد على نظام خاص في مكان خاص في المخ، وأحد الدلائل على هذا تأق من الدراسات على مرض "prosopagnosia"<sup>(1)</sup>، وهي من الحالات النادرة، حيث يكون الفرد غير قادر على تمييز الوجوه التي كان يعرف أصحابها جيداً، لكنه ليس لديه أي صعوبة في تمييز الأشياء. وفي تفسير آخر، يرى أن إدراك الوجوه وتمييزها ينبع من الزاوية التي تم رؤية الوجه منها، حيث إن الوجوه المقلوبة أصعب في تمييزها من البناء المقلوب، وكذلك أيضاً يصعب جدًا تمييز التعبيرات الانفعالية في الوجوه المقلوبة.

وفي دراسة على المرضى المصابين بالنصف الأيمن من المخ، وادراكهم للوجوه والمبانى في حالى الاعتدال والقلب - كشفت النتائج عن أنه في حالة الوجه المعتدلة كان إدراك العينة لها أقل كثيراً في مقارنتها بأداء المجموعة الضابطة من مرضى إصابات المخ الأخرى. أما في حالة قلب الوجوه، فقد

(1) يذكر في القاموس الطبى أن agnosia تعنى "العمى"، أو عدم القدرة على الإدراك بالحس والتمييز بين الأشياء، بينما تعنى كلمة prosop الوجهى، أو ما يرتبط بالوجه؛ ومن ثم يصبح معنى المصطلح: المرض الخاص بعدم القدرة على التمييز بين الوجوه. (ميلاد بشاي، وفيغان بشاي القاموس الطبى الصيدلاني، ص: 37). (657).

حدث العكس، فكان إدراك العينة أفضل كثيراً من العينة الضابطة. وتشير هذه النتائج إلى أن ذاكرة الوجوه من السهل تعرضاً للخطأ. لكن هل يمكن تحسينها؟ هل هناك من التكتيكات التي يمكن أن تساعد الفرد على تذكر أفضل للوجوه؟ هل يمكن للتدريب أن يكشف عن تحسن ذاكرة الفرد في تذكر الوجوه؟

في عام 1980، كانت هناك تجربة تتضمن التدريب على بعض التكتيكات التي تهدف إلى تحسين قدرة الفرد على تمييز الوجوه وتذكرها، وقد قامت هذه التكتيكات في الأساس اعتماداً على نظرية جاكوب بوزي "Jacques Penry" ، مبدع النظام الذي عرف بـ "Fit-Photo". ويتضمن هذا النظام صندوقاً يحتوي على ملامح الوجه (العينان - الأنف - الذقن - أنواع من الشعر ...)، كلها مأخوذة من صور واقعية لأفراد، وهذه الأجزاء يمكن استخدامها لتأليف عدد من الوجوه التي يمكن أن تعطى اطباعات مختلفة. ويعتقد بوزي أنه لو كان الفرد وجهًا ما ويذكره، لابد وأن يجرد هذه الملامح، ويضعها في فئات منتظمة، أي أنه يحدثنا هنا عن قراءة الوجه Reading Face ملامح الوجه<sup>(1)</sup>.

ولقد تم التدريب على هذا البرنامج باستخدام المحاضرات، والأفلام، والمناقشات، والتطبيقات الواقعية. أما عن قياس مدى فاعلية هذا التدريب في تحسين ذاكرة الوجوه، فقد أجريت التجارب التي تقارن بين الذين تلقوا هذا التدريب على إدراك الوجوه، وبين العينة الضابطة التي تستخدم طرقها الخاصة في إدراك الوجوه. ولاشك أن النتائج قد جاءت متسقة مع ما يقضي به الإحساس العام تجاه هذا الإجراء. فقد كان أداء العينة التي تلقت التدريب أكثر سوءاً من العينة الضابطة!.

وتشير هذه النتائج إلى عدم فاعلية هذا البرنامج في تحقيق تحسن ذاكرة الأفراد عن الوجوه. وقد يدافع البعض عن هذه النتائج متعللاً بقصر فترة التدريب، حتى تكون فاعلة (ثلاثة أيام). ورغم وجاهة الدفاع إلا أن التجارب التي لا تؤدي إلى فروق دالة في جانب المتغير المستقل، تكشف عن بدایات تنبؤية قد تساعد على القول بأن المزيد من الوقت قد يساعد على تعميق الأثر الإيجابي للمتغير المستقل. ومن ثم فإن الخروج بنتائج تكشف عن تدنى أداء أفراد المجموعة التي تدرست عن المجموعة الضابطة، يطرح تساؤلاً آخر يختص بالبرنامج المستخدم، فقد يكون اعتماد هذا البرنامج على فكرة تحليل الوجه وتجريد قسماته، لا يتفق مع طبيعة الذاكرة البشرية عن الوجوه، فقد كشف لنا

(1) يذكر التراث أن هذا التوجه يعزى إلى ليوناردو دافنشي، الذي تعرض لمناقشة ذاكرة الوجوه في treatise of painting، موحياً إلى الفنان أن يقسم الوجه إلى أربعة أقسام: الجبهة ، الأنف، الفم، ثم الذقن. وقد أشار على الفنان أن يدرس الأشكال الممكنة من هذه الملامح، ثم يطبقها على أي من الوجوه التي يراها. وادعى دافنشي أن هذا يساعد الفنان على تذكر الوجه في نظرة خاطفة واحدة (Baddeley, 1999, 211) ("glance").

التراحم السابق عن الذاكرة، عن أهمية المعنى لبقاء المعلومة. كما كشفت الذاكرة طويلة المدى عن أهمية الجمع بين الواقع، وبين المعنى الذي تطرحه هذه الواقع؛ لكن نضمن بقاء الأحداث في الذاكرة. ومن هنا فإن في التجربة التي قام بها باترسون "Patterson" بالتعاون مع بادلي دلالة على أن الأساس التي قام عليها البرنامج التدريسي السابق - وفقاً لنظرية بنري - لا تتسق وطبيعة الذاكرة البشرية عن الوجه.

لقد اعتمد باترسون على مفهوم عميق تفعيل العملية "depth of processing"، والذي أشرنا إليه في تناولنا لتصنيف المعلومات، وما يطرحه هذا المفهوم من ثراء في تمييز الخبرة على أكثر من مستوى، واستخدامه في إدراك الوجوه وتذكرها. وقد قامت التجربة بهدف المقارنة بين نظام إدراك الوجوه حسب نظرية بنري السابقة، وبين استخدام مفهوم عميق العملية في تصنيف هذه الصور (أن يصنف أفراد العينة مجموعة من صور الوجوه لأشخاص غير مألوفين حسب المعنى الذي تطرحه الوجه، مثل: الأمانة - الذكاء - الحيوية)، كما تضمنت التجربة عامل آخر وهو التنكر، وذلك بمعنى أن ارتداء الفرد للنظارة، أو وجود اللحية من عدمها، أو وجود الشعر من عدمه، يمكن أن يؤثر على شكل الوجه أكثر مما يؤثر شكل الأنف مثلاً أو حجمه. لذلك كان على المفحوص أن يألف شكل الفرد أولًا بدون لحية أو نظارة، ثم تعرض عليه صور الفرد مع واحدة من هذه الأشياء أو أكثر؛ حتى يألف صورة الفرد وهو يرتديها، بعد ذلك يتم اختبار ذاكرة المفحوص، وذلك بأن يطلب منه تحديد الوجه التي تعرف عليها في كل حالاتها، من بين مجموعة من الوجوه التي ضمت الوجه المعنية، بالإضافة إلى وجوه جديدة. فماذا كشفت النتائج عن ذاكرة الوجوه؟

لقد كشفت عما يلي:

- أن أداء العينة التي تم تدريبيها باستخدام مفاهيم الأمانة والذكاء ... كان أفضل كثيراً من استخدام طريقة تحليل الوجه التي استخدمها جاكس بنري.
- أن تأثير إضافة الأشياء مثل اللحية والناظرة والشعر المستعار، كان له تأثير فعال في خفض درجة إدراك الوجوه.

ونعود مرة أخرى إلى ذاكرة الشهود، بناء على نتائج هذه التجارب المتعددة عن كيفية خداع الذاكرة البشرية عن الوجوه. فغالباً ما يستخدم رجال الشرطة طريقة الوصف لتحديد شكل المجرم الذي ارتكب الجريمة؛ إما وصفاً لفظياً، أو بالرسم، أو بطريقة جاكس بنري في تأليف الصورة. ولاشك أن أقلهم كفاءة هو الوصف اللفظي للشكل.

لذلك نتساءل: ماذا عن ذاكرة الشهود في تذكر وجه مرتكب الجريمة، بناء على الطرق التي يستخدمها رجال الشرطة؟

لقد قام مجموعة من الباحثين في جامعة أเบردين "Aberdeen" في أسكتلندا باختبار هذا الأمر، وجاءت النتائج - بصفة عامة - سلبية، فقد عجز أفراد العينة عن تكوين الصورة التي تحاكي الوجه المطلوب. لاشك أن هذه النتائج تدعم نتائج تجربة باترسون وبادلي السابقة، بأننا لا ندرك الوجوه باعتبارها ملامح مجردة، كما أشارت نظرية بنري، ولكن ندركها في ضوء النمط المصحون بالمعنى، إلا أن ذلك لن يمنع رجال الشرطة من استخدام أدواتهم في التعرف على المجرمين.

#### 4- عرض الجناء وذاكرة الشهود:

سبق أن ذكرنا أن طريقة التعرف على الوجوه أفضل كثيراً من تذكرها اعتماداً على الذاكرة، لذلك فإن طريقة عرض الجناء على الشهود من الطرق المهمة لتحديد الجاني، وهي تتضمن عرض المشكوك فيه بين عدد آخر من غير الجناء، الذين يماثلونهم في الخصائص، حيث يقومون بدور المثيرات المشتبهة للشاهد. ولقد حذر الباحثون من التحيز في تكوين مجموعة المشتبئين، بحيث لا يكونوا مختلفين عنمن هو موضع الشك، سواء أكان ذلك في الشكل أو الجنسية أو الخصائص الديموغرافية، كالسن مثلاً، وكذلك يعد الملبس من العوامل التي يمكن أن تلعب دوراً مهماً في هذا الصدد.

ونتيجة للأخطاء التي تحدث من استخدام طريقة العرض لتحديد الجاني، أراد بعض المتخصصين في علم النفس أن يطوروا بعض الأدوات لاستخدامها، خاصة في حالة الاستعانة بالأطفال الذين يمكن أن يفزعوا من مواجهة عدد من الناضجين؛ ليحددوا من بينهم من حاول مهاجمتهم، أو إيهادهم مثلاً. من هذه الطرق استخدام الفيديو في عرض الجناء على الطفل؛ حيث إن ذلك يجنبه مشاعر الخوف من المواجهة فيكون حكمه أفضل. فضلاً عن هذا، فإن هناك طريقة عرض المشتبه بهم دفعه واحدة، أو في سياق متسلسل، فقد وجد الباحثون في علم النفس ( Lindsay et al , 1991 ) أن عرض المشتبه بهم دفعه واحدة يزيد من فرصة وقوع الشهود في الإدانة الخطأ لأحد الأفراد أكثر مما لو تم عرض هؤلاء المشتبه بهم واحداً بعد الآخر.

وحدير بالذكر أن الكثير من الدراسات على ذاكرة الشهادة قد عنيت - في المقام الأول - بعدم الثبات في رواية الواقع، وبالطرق التي يمكن أن تحدث تشويهاً في معلومات الفرد. ولكن ماذا عن الجهود النفسية التي بذلت لتحسين استدعاء الحدث؟ هذا ما نتناوله فيما يلى.

## تحسين ذاكرة الشهادة:

سبق أن أشرنا إلى اهتمام علماء النفس بدراسة دور تنظيم المادة المتعلمة في سهولة استرجاعها ودقته. لكنه في حالة الشهادة، فإن التعلم قد حدث بالفعل، والمطلوب هو الاستدعاء وتذكر الحدث. ويقترح فيشر وجيزمان "المقابلة المعرفية" cognitive "interview" (Fisher & Geiselman)، وتقوم هذه المقابلة على أربع من معينات الذاكرة، وهي:

- 1 على المستوى العقلي، يعيد الفرد ترتيب أحداث البيئة والأفراد التي حدثت في الواقع.
  - 2 تشجيع ذكر أي من التفصيات المرتبطة بالحدث، بغض النظر عن كونها تفصيات أساسية أم تفصيات هامشية.
  - 3 محاولة رواية الحدث بأكثر من طريقة، من البداية للنهاية، ومن النهاية للبداية.
  - 4 محاولة إعطاء تقرير عن الحدث من وجهة نظره كشاهد، ومن وجهة نظر الأفراد المشاركون في الحدث.
- ولقد تم اختبار فاعلية هذه المقابلة، بالمقارنة بالمقابلات التي يقوم بها رجال البوليس مع الشهود، وكذلك مع نتائج المقابلة باستخدام التنويم المغنطيسي، الذي يرفض علماء النفس الآن استخدامه؛ بسبب قابلية الفرد المرتفعة للإيحاء تحت تأثيره. فعرض الباحثان أفراد عينة البحث لرؤية فيلم من أفلام الجرائم، وبعد ثمان وأربعين ساعة تمت مقابلة أفراد العينة مع رجال البوليس باستخدام واحدة من الركائز الأربع السابقة، وقد تحدد المتغير التابع في تقدير عدد الواقع الدقيقة التي تم ذكرها، وعدد المعلومات الخاطئة التي تم إدخالها. وقد كان المتوسط لمجموعة المقابلة العادية مع رجال البوليس، ومجموعة التنويم المغنطيسي، ومجموعة المقابلة المعرفية، على التوالي هي: 40,29 - 38 - 41,2. بالإضافة إلى أن المجموعات الثلاث لم تختلف في عدد الاستجابات الزائفة التي تم إضافتها إلى الحدث. وقد أجريت العديد من التجارب لاختبار فاعلية هذه المحكمات في المقابلة المعرفية في مواقف متعددة، وأشارت النتائج إلى أهمية دورها في تقليل الاستهداف لاستدخال معلومات خاطئة عن الحدث، كذلك في رفع مستوى ذاكرة الشهادة من حيث الكم والكيف (Fisher & geisman, 1988,34-39).

## الحواسيب الآلية والذاكرة البشرية:

سبق أن ذكرنا أن البحث في الذاكرة البشرية قد تأثر في السنوات الأخيرة بالبحث في الحاسوب الآلي. ولقد كانت نماذج التذكر من الجوانب التي تأثرت إلى حد كبير، والحقيقة أن التذكر هو مشكلة كبيرة، وتبدي وضحة إذا حاول الفرد أن يخزن معلومات في الحاسوب الآلي. ويبدو واضحًا كذلك أن البرامج الحالية أقل كثيراً من الذاكرة البشرية في المرونة؛ فالحاسوب الآلي يخزن المعلومات في أماكن محددة، وحيث أمكن الوصول إليها، يكون التذكر جيداً، لكن بدون الوصول إلى هذه الأماكن

المحددة، يصبح التذكر غير ممكن. أما الذاكرة البشرية فهي على النقيض من ذلك، حيث يمكنها أن تزودنا بأكثر الملامح أهمية للحدث، رغم ضياع التفاصيل الثانوية، والمعلومات في الحاسوب الآلي تخزن في مكان واحد، بحيث إذا حدث تلف لهذا المكان، فإن ضياع المعلومات هي النتيجة المؤكدة، أما الذاكرة البشرية، فهي تتمتع بما يعرف بخاصية التدهور البسيط "graceful degradation"<sup>(1)</sup>. حيث يصبح التذكر مع تدهور المخ أكثر بطيئاً، وأقل تفصيلاً، غير أن المعلومات الأساسية الخاصة بالفرد تبدو أكثر مقاومة للفقد والضياع، وذلك يعني أن إصابة المخ قد تؤدي إلى فقد بعض المعلومات، لكنها لا تؤدي إلى الانهيار الكامل؛ وذلك لأن الذاكرة البشرية تتمتع بخاصية قابلية توجيه المحتوى "content addressability"، بمعنى أن معرفة جزء من المحتوى يمكن أن يذكر الفرد ببقية التفاصيل. فعلى سبيل المثال: إذا قيل لك إنه في بداية الثمانينيات، اغتيل أحد رؤساء جمهورية مصر العربية، ستعرف مباشرة أن الحديث عن الرئيس أنور السادات، ويمكنك أن تقدم معلومات أكثر عن الحدث، وهو ما تعجز عنه ذكرة الحاسوب الآلي.

غير أنه في السنوات الحديثة، كان هناك عدد من المحاولات لتطوير برامج الحاسوب، محاكاة لإمكانات الذاكرة البشرية، فكانت هناك محاولات لتكوين البرامج باستخدام التوزيع المتوازي للعمليات "parallel distributed processing" (PDP)، حيث تخزن المعلومات داخل شبكة للمعلومات تعمل بالتوازي، وليس بالتوالي، كما هو الحال الآن في الحواسب الآلية. ولاشك أن شبكة المعلومات خاصة التدهور البسيط، أي أنه يمكن أن تدمر بعض المعلومات دون أن ينهار النظام كله.

#### المفهوم الثاني: النسيان ونظرياته:

ماذا فعلت بالأمس؟ ماذا فعلت في نفس اليوم في الأسبوع الماضي؟ أو العام الماضي؟

مهما كانت الأسباب، فهناك صعوبة في تذكر الأحداث التي مرت بك في فترات سابقة؛ لذلك فإن دراسة النسيان هو الحلقة المكملة لدراسة التذكر. فكما تعرفنا على التفاصيل الخاصة بكفاءة الذاكرة في استدعاء المعلومات، لابد أيضاً أن نتعرف على كيفية ضياع المعلومات، كيف يفقدها الفرد؟ أي كيف ينسى الفرد؟ وكيف يحدث النسيان؟

إن هذا السؤال هو الأكثر صعوبة، وقد اختلفت النظريات في الإجابة عنه، إذ قدم ثورنديك (Thorndike) 1913 قانون إساءة الاستخدام "law of misuse" ليفسر به حدوث النسيان. فوفقاً لهذا القانون يكون تدهور الذاكرة نتيجة طبيعية مرور الزمن، ولقد وجد هذا التفسير قبولاً إلى درجة كبيرة في ذلك الوقت، حتى عام 1932؛ ذلك أن ماكجوش "McGeoch" أثار في هذه الفترة اعتراضين أساسيين على هذا التفسير، وهما:

(1) هذا المصطلح يدل على وجود التدهور، ولكن بدرجة لا تساوي الانهيار.

1- في الكثير من المواقف لا يؤدى إساءة استخدام الشيء إلى النسيان.

2- إذا كانت إساءة الاستخدام تؤدى إلى النسيان، فإن ذلك لا يفسر كيف يحدث النسيان.

ولقد قدم ماكجوش تصوّره عن ذلك بعمل المقاربة مع صدأ المعادن مثلاً بمرور الوقت، إذ ناقش فكرة أن حدوث الصدأ في المعادن بمرور الزمن لا يعني أن الزمن هو سبب الصدأ، بل إن الزمن هو المطلوب المنطقي لكي تحدث عملية الأكسدة التي تؤدي إلى تكون الصدأ. وبالتطبيق على ما يحدث للذاكرة لدى الإنسان، فإن الذاكرة تضعف مع إساءة الاستخدام، وليس الزمن هو السبب في هذا، بل هناك شيء آخر يحدث أثناء مرور هذا الزمن. وبذلك قدم ماكجوش أساساً لنظرية التعارض التي سنعرض لها بالتفصيل، لتفسير حدوث عملية النسيان.

لقد أشارت الدراسات التقليدية التي أجرتها إينجهاووس على الذاكرة - متخدّاً من ذاته موضوعاً للبحث والدراسة، ومن المقاطع الصماء أداه له - إلى أنه قد استطاع أن يتعلم 169 من هذه المقاطع، ثم إنه أعاد تعلم كل قائمة بعد فترة تراوحت ما بين 21 دقيقة إلى 31 يوماً، وكشفت النتائج عن حدوث قدر من النسيان في محتوى هذه القوائم، ومن ثم خصل إلى وجود علاقة واضحة بين كم الوقت، وبين كم المادة التي يتم نسيانها.

ولقد ذكرنا - في محور حديثنا عن التذكر، ومن قبل عن التعلم - أن هناك علاقة خطية بين التعلم والتذكر، حيث إن مخزن الذاكرة طويلة المدى يبدو كأنه الحوض الذي يمتلك بواسطة صنبور مفتوح بمعدل ثابت. ولكن ماذا عن النسيان إذن؟ هل هو ما يشبه خلع سداده هذا الحوض بما يؤدى إلى ضياع المعلومات بنفس القدر؟ أم أن العلاقة أقل استقامة من ذلك؟

إن النتائج التي تم الحصول عليها من تجارب إينجهاووس تكشف عن أن النسيان يكون سريعاً في البداية، لكنه يخف بالتدريج، وذلك يعني أن معدل النسيان يكون لوغارتمياً "logarithmic" أكثر منه خطياً. ولقد عبر عن هذه العلاقة فيما بعد بقانون "jost's" بعد القرن التاسع عشر، ومفاده: أنه إذا ما تقابل نوعان من الذاكرة، على درجة واحدة من القوة في وقت محدد، يبدأ الأقدم منهما في النسيان تدريجياً ببطء، وتبعاً لقانون الهدم، فإن الذاكرة تزداد قوة مع العمر، مما يؤدى إلى مقاومتها مزيد من الهدم أو الضياع، ثم تعرّض للهدم تدريجياً.

ولقد التزمت غالبية الدراسات عن النسيان - مثل تجارب إينجهاووس - بالكثير من العلمية نحو المادة التي استخدمت، مثل قوائم إينجهاووس الصماء، أو الكلمات غير المرتبطة. بينما كانت هناك بعض البحوث النادرة عن فترات التذكر التي تزيد عن الشهر أو أكثر، فيما عن التجارب التي استخدمت المواد الأكثر واقعية في حياة الفرد لاختبار عملية التذكر؟

لك يمكن متابعة الأحداث، ومعرفة معدل نسيان الفرد، ودرجة تذكره للحدث، كان لابد وأن يستعين الباحث بمادة معروفة ومعلنة للجميع، لذلك فقد قدم وارينجتون وساندر

Warrington Sanders عام 1971، حلاً لهذا باستخدام الأخبار التي تصدر في المجلة البريطانية، بدءاً من عام 1970 وحتى قبل ذلك بثلاثين عاماً. سألوا أفراد العينات عن هذه الأخبار؛ إما بالذكر أو بالتعرف، وكشفت النتائج التي خلصت إليها هذه التجارب أن النسيان لهذه الأحداث العامة قد يحدث، وعلى عكس الاعتقاد الشائع أن الأصغر في العمر يتذكرون أفضل من الكبار لكل من الأحداث الحالية والسابقة، فقد أشارت النتائج إلى وجود تشابه كبير بين نتائج الكبار والصغار في العمر في درجة التذكر. ولقد أكد هذه النتائج دراسات سكوير "Squire" في الولايات المتحدة، باستخدام الذاكرة عن الرابحين في سباق الخيول في الولايات المتحدة، أو أسماء مذيعي البرامج التي استمرت لدورة واحدة. فماذا كانت النتائج؟ هل ظل منحنى النسيان الذي تحدثنا عنه مع المواد الحالية من المعنى، أو الكلمات غير المترابطة مع هذه المواد الحية التي يعايشها الأفراد؟

لقد أوضحت دراسة ويتلنجر وباهرريك "Wittlinger & Bahrick" عام 1975، على عينة تكونت من 395 من طلاب المدارس الثانوية، وتم سؤالهم عن أسماء زملائهم في الفصل وأشكالهم. وقد كشفت هذه الدراسة عن أن القدرة على تمييز الوجوه والأسماء من بين ما هو غير مألوف من الأسماء والأشكال، والقدرة على مطابقة الاسم مع الوجه، ظلت في مستوى التذكر الجيد على مدى ثلاثين عاماً. بينما على العكس من ذلك، كان تذكر الاسم كاستجابة للشكل أقل جودة، وكشفت عن نسيان كبير. وكشفت دراسة هذه العينة بعد خمسين عاماً عن اضطراب في الأداء، تضمن أنه قد يكون التقدم في العمر له تأثيره السلبي على الاضطراب العام في القدرات العامة للفرد.

كما أشارت النتائج إلى أن النسيان يرتبط إلى حد كبير بنوعية المادة المتعلمة؛ ففي تجربة قام بها هاري باهرريك "Harry Bahrick" في جامعة ويسيلينيان في أوهايو، على طلبة التخرج؛ للتعرف على مدى معرفتهم بجغرافيا المدينة التي يدرسوها بها، و اللغة الأجنبية التي يدرسوها في الكلية - كشفت النتائج عند إعادة التجربة عليهم بعد تخرجهم بعمرٍ، ثم بعدها بخمسين عاماً، أن حدوث منحنى النسيان كان مؤثراً على مدى سهولة المادة المتعلمة، وطريقة التعلم، إذا ما كانت الطريقة الكلية أو طريقة المادة الموزعة. كما أن نوعية المادة أيضاً يمكن أن تحكم عملية النسيان، فقد أسفرت النتائج عن أنه بقدر اعتماد المادة على تعلم المهارات، وبقدر الاعتماد على التعلم الضمني، يكون حظ المادة من الحفظ والبقاء في الذاكرة، الأمر الذي أدى إلىبقاء مادة الإحصاء بدرجة كبيرة.

**هل يعني ذلك أننا لا ننسى المهارات؟**

يشبه بادلي عملية التعلم بقيادة دراجة بطيء، وتعثر في البداية، لكن فور أن يحدث التعلم، فإنه يمكن قيادتها مرة ثانية بدون إحباطات، كما أنه فور تعلم السباحة يستطيع الفرد أن يؤدي هذا الفعل. ولكن هل هذا يعني أنه فور اكتساب المهارة، لا يمكن أن يحدث النسيان؟

يبدو أنه للإجابة عن هذا السؤال لابد من الحصول على مزيد من المعلومات. غير أنه في تجربة على عينة لتعلم الطيران من خلال التدريب على البرنامج من خلال الكمبيوتر، وبعد فترة تراوحت بين تسعة شهور وأربع عشرين شهراً، أعيد اختبارهم على هذه المهارة، وكشف الأداء عن ثبات عال على أداء المهارة، غير أن ذلك قد لا يكون الحال مع كل المهارات؛ فقيادة الطائرة أو قيادة الدراجة تتضمن مهارة مستمرة، أو مهارة ذات حلقة مغلقة closed loop skill، حيث إن كل فعل فيها يعد مؤشراً للفعل الذي يليه، على عكس المهارة ذات الحلقة المفتوحة "open loop skill".- مثل الطباعة على الآلة، حيث إن كل زر يتضمن استجابة منفصلة لمثير منفصل.

والكثير من المهارات يعد خليطاً من المهارات المغلقة والمفتوحة الحلقة، غالباً ما تحتاج إلى معرفة منظمة معملنة، لكن هل هناك من الأسس التي يمكن باتباعها الحفاظ على المادة من الضياع؟

إن ذلك يعتمد على طبيعة المادة؛ إذ إنه مع المهارات الحركية البسيطة المستمرة، فإننا نحتاج إلى القليل للحفظ عليها كما سبق وأوضحنا، أما في المهارات المركبة فإن الأمر يحتاج إلى جهد أكبر.

### تغيرات المخ وحدوث النسيان:

ناقش دانييل شاكتر "Daniel L. Schacter" قضية النسيان تحت عنوان أكثر مرونة، يضم أنواعاً من أخطاء

- "absent mindedness" - غياب العقل "Transience"
- "misattribution" - "blocking" - التحيز "bias" - القابلية للإيحاء - "Suggestability" - سوء العزو
- والاستمرارية "persistency".<sup>(1)</sup>

ومن الملاحظ أن الأنواع الثلاثة الأولى تمثل ثلاثة أنواع من النسيان؛ حيث يتضمن الأول تناقص إمكانية الحصول على المعلومة بمرور الوقت. أما الثانية فتتضمن عدم الانتباه، الذي يعزى إلى ضعف ذاكرة الأحداث الراهنة، أو نسيان عمل شيء في المستقبل القريب. والثالثة تعزى إلى القصور المؤقت في المعلومة المخزنة في الذاكرة. أما الأخطاء الأخرى فهي تتضمن عدم الدقة، فقد يحدث النسيان بسبب عزو المعلومة إلى المصدر الخطأ، أو إلى الذاكرة التي زرعت في وقت الاستدعاء، أو إلى التحيز الذي يتضمن التأثير اللاشعورى، والتشوه الارتجاعى الذى يلحق بتذكر الأحداث الماضية المرتبطة بالمعرفة الحالية، أو أن يحدث بسبب التذكرة المرضى للمعلومات أو الأحداث التي لا يستطيع الأفراد نسيانها، حتى لو قمنوا بذلك.

(1) من المعانى المرتبطة بهذا المصطلح: التثبيت ، الإصرار، الإلحاح. ويعنى الميل للبقاء على مجريات الأمور رغم المعارضة أو المشقة، وقد يعني هنا فى مجال أخطاء الذاكرة الإلحاح فى استمرارية نتيجة ما، أو أثر ما رغم توقف المثير المسبب له (ذخيرة علوم النفس، 1990، ص1055).

ومن واقع الدراسات الحديثة على الذاكرة باستخدام تكتيكات التصوير الوظيفي للمخ، مثل: "positron emission tomography" وتصوير المخ باستخدام الرنين المغناطيسي الوظيفي "functional magnetic resonance imaging" ، وهما يقومان معاً بتصوير وقياس التغيرات التي ترتبط بتغيرات نشاط النبرونتات. وجدير بالذكر أن التصوير العصبي للمخ قد أحرز تقدماً كبيراً في الوقت الراهن (Buckner, 1998, Cabeza, 1997).

وقد استطاعت هذه الدراسة التي قام بها شاكتر الكشف عما يلى:

- كشف التصوير الوظيفي عن بدايات قوية نحو شرح وتفسير نظام المخ الذي يرتبط، وقد يكون مسؤولاً عن عدد من أخطاء الذاكرة.
- ما تم بحثه من هذه الأداءات الخاطئة للذاكرة لم يتضمن الإيحاء أو التحيز، حيث لم يستخدم معهما التصوير الوظيفي للمخ.
- لكي يتحقق الفهم الدقيق لأخطاء الذاكرة التي أشار إليها شاكتر، لابد من الرجوع كذلك إلى نتائج الدراسات العصبية النفسية، والدراسات المعرفية، ودراسات الحاسوب الآلي (الذكاء الاصطناعي) (Schakter, D., 1999, 119-132).

ولاشك أن هذا البحث المتعدد الأبعاد لوظائف الذاكرة يلقى بالكثير من الأضواء على بعض جوانب وظائف الذاكرة، ومنها النسيان بتنوعه وأشكاله.

النظريات المفسرة لحدوث النسيان:

هناك عدد من التوجهات النظرية المفسرة لحدوث النسيان، ولقد قدم إينجهاووس عدداً من الاقتراحات التي تفسر حدوث ظاهرة النسيان، وهي:

- 1- أولها يفسر حدوث النسيان بالتعارض، الذي يعني أن المادة المعلمة يطغى عليها تعلم المواد الجديدة.
  - 2- تعرض مسار الذاكرة الخاصة بمعلومات ما للانهيار بمرور الوقت (الزمن).
  - 3- أن النسيان يتضمن التفتت إلى أجزاء، فقد المكونات المستقلة، بدلاً من الإخفاء العام للمكونات.
- ومم تسمح له بترجح أحد هذه التفسيرات على الآخر.

وفي علم نفس الذاكرة، هناك تناقض بين نظريتين لتفصير النسيان؛ نظرية الهدم، ثم نظرية التداخل. وتعتمد نظرية الهدم على عامل الوقت؛ باعتباره حاسماً في هذا، أما نظرية التداخل فتعتمد على عامل تزايد عدد المحاولات التي بذلت، والتي تؤدي إلى حمولة معرفية، ثم نتيجة له يحدث

تدهور في أداء الذاكرة، وإذا تم حذف هذه الموضوعات المشتلة، يستطيع الفرد أن يسترجع ما تعلمه.

ولقد تم تحديد عدد من العوامل لتفسير فشل أداء الذاكرة، هي: مدة بقاء المعلومات، وكم نشاط المواد المشتلة، ثم التشابه بين المواد، حيث يتزايد فشل أداء الذاكرة مع تشابه المواد المتعلمة.

ولقد فسر بعض الباحثين أن أثر التداخل يتحدد بالمعلومات الجديدة، كما يحدث في الكف الاستباقي للذاكرة "proactive". ولقد وجد كليميش "Klimesch" - من خلال تجاربه - أن النشاط المشتلة لا يؤثر على أداء الذاكرة، وهو ما أدى إلى القول إن الانهيار في أداء الذاكرة يعزى إلى تجاوز حدود القدرة على الانتباه، وهو ما يعني أن المعلومات الجديدة قد يتم تمييزها بصورة ضعيفة، أو لا يتم تمييزها على الإطلاق.

وفي تفسير نسيان الأحداث اليومية، كما يحدث مثلاً في ظاهرة على طرف اللسان، حيث تصعب مكونات الذاكرة غير متاحة بصفة مؤقتة - فقد استخدمت العديد من المصطلحات لوصف ما يحدث: تخزين الأثر "trace" ، والاستفادة من الأثر "storage utilization" ، وسهولة الحصول على شيء "availability/ accessibility" ، وإمكانية الاستردادability / availability retrievability / availability" بمعنى فرط تذكر أحداث الماضي، وهو يستخدم ليعنى موقف تزايد كم استرجاع الفرد نتيجة لتزايد المحاولات. ويعنى مصطلح الـ "reminiscence" تذكر الخبرات الماضية والتحدث عنها، معنى إن نسيت كلمة ما أثناء الاختبار في البداية، فيمكن أن يتم تذكرها بعد ذلك، وهنا يمكن تشابه الظاهرتين (Klimesch, 1994).

ويتحدد تأثير ظاهرة فرط تذكر أحداث الماضي بعدد المحاولات الاختبارية، حيث تتزايد كم الاستجابات المسترجعة (من 19 في المرة الأولى إلى 33 في المرة الأخيرة)، لكنها تتوقف عند حد معين. وتعتمد قوة هذه الظاهرة على عدد مرات الاختبار، وعلى طريقة عرض المثيرات؛ حيث تستثير الصور مزيداً من نشاط فرط تذكر الأحداث الماضية أكثر مما تفعل الكلمات، بينما تزيد الكلمات مع التعليمات المصورة من هذه الظاهرة أكثر من الكلمات بدون التعليمات المصورة.

وظاهرة حدة الذاكرة من الظواهر المثيرة في علم نفس الذاكرة، وتفسر بأنها قد ترجع إلى أن الفرد أثناء الاختبار تسمح له ذاكرته بإعادة بناء ما تم هدمه من المادة، أو أن الفرد أثناء الاختبار يتعلم أن يستخدم المزيد من طرق البحث، أو إستراتيجيات للتذكر تسمح له بالتذكر الأفضل.

#### • بكت الأحداث وحدوث النسيان:

وأول هذه التوجهات هو ما قدمه فرويد، ليسود المجال عدداً من السنوات. هذا التوجه الذي عبر عنه في كتابه التحليل النفسي لأحداث الحياة اليومية، ويقضي هذا التوجه بأن جزءاً كبيراً من

نسيان الفرد اليومي قد ترجع أصوله إلى عملية كبت الأحداث التي ارتبطت بالقلق. وقد قدم مثالاً على ذلك بالرجل الذي كان في استرجاعه لقطعة من الشعر يتوقف دائمًا عند أحد الأبيات الذي يصف الشجرة المغطاة بالثلوج، كأنه المنديل الأبيض. وفي عملية الاستدعاء الحر، كشف الرجل عن أن هذا المنديل يذكره ببغاء الملوى، والذي ارتبط لديه بموت أخيه حديثاً بأزمة قلبية، وكان يخشى أن يواجه نفس المصير. وترى هذه النظرية أن الحدث الذي يرتبط بالألم يتم نسيانه أسرع من الأحداث التي ترتبط بالسرور. لكنه من الجدير بالذكر أن المؤشرات التي تؤكد صحة نظرية فرويد في النسيان لم تأت من نسيان الأحداث في الحياة اليومية، بل جاءت من الدراسات على نسيان المرضى، الذي ارتبط بحالات العصاب، وهو ما س تعرض له ببعض التفصيل عند العرض لفقدان الذاكرة الهستيري.

#### • عامل الزمن وحدوث النسيان:

أما التوجه الثاني فيناقش حدوث النسيان بعزوه إلى الهم، أو فقد التدريجي بفعل الزمن حتى تتلاشى تماماً المادة المتعلمة. أي أن التدهور أو النسيان يحدث تلقائياً، وذلك يعني أن كم ما هو باق من المادة إنما يعني كم من الزمن قد مر عليها. فكلما زادت الفترة الزمنية كلما زاد نسيان الكم الأكبر من المادة، والعكس صحيح. وبالطبع كانت هناك بعض التجارب لاختبار عامل الزمن على الكائنات، مثل الأسماك والحشرات، وقد أسفرت هذه التجارب عن أن النسيان كان أكبر لدى الكائنات الأكثر نشاطاً، أما الكائنات التي لا تنشط فهي أقلها نسياناً. وهذا يوضح أن الشاط عامل من العوامل المهمة، غير أن ذلك قدواجه بعض الاعتراضات الخاصة بأن الكائنات غير النشطة قد أظهرت بعض النسيان، كما أن عملية الأيض قد تكون أحد العوامل في حدوث النسيان، وهو ما يتم بحثه.

وغالباً ما يصعب فصل أهمية الوقت عن أهمية الأحداث، فقد تحتل أهمية الحدث مكانة متقدمة فيوعي الفرد، مما يقاوم بها النسيان، رغم مرور الزمن عليه. ففي دراسة قام بها بادلي وهيتتش (Baddeley & Hitch, 1977) على أفراد فريق لكرة القدم، طلب إليهم تذكر أسماء لاعبي الفرق التي لعبوا معها في هذه الدورة، وقد كشفت النتائج عن نسبة أهمية الوقت في عملية التذكر، بينما وضحت إلى حد كبير أهمية عدد المباريات؛ مما يفسر حدوث النسيان في هذه الحالة بسبب التعارض، وليس بسبب الهم، ولكن هل يعني ذلك أن التحكم في وجود التعارض بالإلغاء يمكن أن يقلل من حدوث النسيان إلى درجة كبيرة؟

كشفت التجارب عن أنه إذا حدث التعلم قبل النوم مباشرة، كانت نسبة الاحتفاظ بمادة التعلم على مدى الأربع والعشرين ساعة التالية أفضل من مثيلتها في حالة حدوث التعلم في الصباح (بداية اليوم)، ويتلوي الانحراف في الأحداث اليومية للفرد. وقد يفسر هذا بحدوث العملية الفسيولوجية

لدعم الذاكرة، والتي قد تحدث بكفاءة أثناء الليل، فالجسم البشري لديه عدد من الدورات التي تتغير كل أربع وعشرين ساعة، ومن أكثر هذه الدورات، دورة النوم واليقظة، لكن يرتبط بها عدد من الدورات الأخرى، مثل حرارة الجسم، التي ترتفع أثناء اليوم، وتتحفظ في الليل. وكذلك إنتاج قدر من الهرمونات التي قد تكون لها أهميتها في نمو وتنمية المسارات الفسيولوجية، التي تحدد عملية التعلم. ومن ثم فإن نتائج هذه التجارب قد ووجهت بالنقد؛ حيث إن استخدام النوم في هذه التجارب أثناء اليوم، كشف عن تأثيره على تقليل النسيان للمادة المتعلمة، وكان النقد أن التأثير هنا لا يرجع إلى النوم في حد ذاته، بل قد يكون بعض المكونات الكيميائية في المخ تأثيرها في تقليل النسيان؛ ومن ثم فإن من الخطأ القول بأن النوم في حد ذاته يقلل النشاط العقلي؛ فوجود الأحلام عالمة على وجود النشاط أثناء النوم.

#### • التعارض وحدوث النسيان:

أما التوجّه الثالث فإنه تفسّر حدوث النسيان بأن الذاكرة تضطرب بدخول مواد تعليمية أخرى عليها، أي يحدث النسيان بسبب الأحداث التي يتزامن حدوثها أثناء عملية التعلم. وذلك يعني أن العامل الحاسم في عملية النسيان هو الأحداث التي تقع وقت التعلم؛ ومن ثم يؤثّر التعارض على نسيان المادة التعليمية. ولقد صادف هذا التوجّه في تفسير حدوث النسيان الكثير من التأييد من قبل الباحثين، وقد قامت التجارب لاختبار هذا الفرض على أساس مبدأ الترابط "associationism"، والذي يفترض أن التعلم يمكن اعتباره تكويناً لعدد من الترابطات بين الأحداث التي لم يتم ترابطها من قبل، وهو المبدأ الذي تفسّر به الذاكرة أيضًا.

#### التعارض اللاحق والكف السابق:

##### "Retroactive interference / Proactive inhibition"

يتحدّث التراث عن نوعين من التعارض يسبّبان بإعاقة عملية التذكر للمادة المتعلّمة: أولهما: يتناول التعارض اللاحق أو الارتجاعي "retroactive inference"، وغالباً ما يشار إليه في التراث بـ "RI" ويعني أن يؤثّر تعلم الجديد على استدعاء القديم، بما يؤدّي إلى حدوث النسيان. وقد يفسّرها الباحثون بأن المادة الجديدة تحل محلّ المادة القديمة، ويزيّد هذا النوع من التعارض مع تزايد كم المادة المتعلّمة حديثاً، ويبدو أثر هذا أكثر سوءاً مع الذاكرة الضعيفة. ولقد درس هذا النوع من التعارض بكثير من الاهتمام بين الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وقد استخدمت في التجارب القوائم الزوجية، حيث يتم التعلم للأزواج المرتبطة من الكلمات. وقد أسفرت التجارب عن أنه كلما زاد معدل التعلم الجديد، كلما زاد التعارض الذي يؤثّر على المادة المتعلّمة الأصلية. ولقد أجريت الكثير من التجارب (Munsterberg, 1977, Lofus, 1980)، لمعرفة كيف

يمكن تشويه الذاكرة عن حدث ما بمعلومات جديدة خاطئة، وقد كشفت التجارب عن تأثير ذاكرة الأفراد عن الحدث بالمعلومات الجديدة.

أما النوع الثاني من التعارض، فهو التعارض السابق أو الكف الاستباقي "proactive inhibition" على تعلم المادة، ويشار إليه بالرمز "P1". ويتضمن هذا المصطلح أنه على الرغم من عدم تعرض المادة المتعلمة للتعارض مع مادة لاحقة لها، إلا أنها تتعرض للنسيان.

ويعد الباحث الأمريكي بنتون أندرود "Benton Anderwood" أول من أشار إلى هذا النوع من التعارض، فقد كان معنِّياً بدراسة سبب حدوث النسيان للمادة المتعلمة في غير وجود عامل التداخل اللاحق الذي أشرنا إليه، عندما أعاد إعادة تذكر المقاطع الصماء التي تعلمتها العينةمنذ أربع وعشرين ساعة. ولذلك فقد فسر ظاهرة النسيان هذه بأن ما تم تعلمه قبلًا قد يكون المسئول عن حدوث النسيان "P1". ولقد أوضح أندرود أن غالبية التجارب على التعلم اللغطي والتذكرة، كانت تتم في المعامل بالاستعانة بطلاب الجامعة النظاميين، الأمر الذي قد يعني اشتراك العينة في عدد من التجارب في وقت واحد، ومن ثم قد تكون القوائم التي يتم تعلمها في التجارب المختلفة قد لعبت دور التعارض الاستباقي الذي أدى إلى كف عملية تذكر للمعلومات.

ونخلص من هذا إلى أن التعارض اللاحق والكف الاستباقي للمادة المتعلمة إنما يعكس حقيقة أن خبراتنا تميل إلى التفاعل مع بعضها البعض، الأمر الذي ينتج عنه أن ذاكرتنا عن موضوع ما لا تنفصل انفصلاً تاماً عن ذاكرتنا عن الموضوعات الأخرى، وكلما كان هناك تشابه بين الموضوعات، كلما زاد احتمال التفاعل بينها. وفي حالات كثيرة يكون هذا التفاعل مساعداً، فيتم بناء التعلم الجديد على أساس القديم، بينما تظهر المشكلات مع ضرورة الفصل في الذاكرة بين موضوع آخر، حيث يؤدي ذلك إلى زيادة كمية النسيان، الأمر الذي لا بد من الانتباه إليه. وقد قام ماكجوش وماكدونالد "McGeoch & McDonald" بتجربتهما للمقارنة بين أنواع من التداخل الذي يحدث، وبين كم الفاقد من المادة التعليمية. ففي تجربة على ستين من طلاب الجامعة، تم تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات، تعلمت المجموعات الثلاث قائمة من الصفات على مدى عشر دقائق، قسمت إلى فترتين تعلم. غير أن الاختلاف بينها كان في نوعية النشاطات التي قامت بها المجموعات بين فترات التعلم؛ إذ كان على المجموعة الأولى القيام بحفظ عدد من الأرقام بين فترتي التعلم، بينما كان على المجموعة الثانية أن تستريح دون أن تفعل شيئاً، أما المجموعة الثالثة فكان عليها أن تتعلم قائمة أخرى من الكلمات المشابهة للقائمة الأصلية. وقد وجد الباحثان تبايناً في معدل نسيان المجموعة تبعاً لنوع التداخل الذي تعرضت له، فحيث كانت الراحة وعدم الانشغال بتعلم شيء آخر، كان أقل معدلات النسيان، يليها مجموعة تعلم المادة المختلفة (مجموعة الأرقام)، ثم تأتي مجموعة تعلم المادة المشابهة (قائمة الكلمات). وخلاصة هذه التجربة، أن من خصائص تأثير التداخل على عملية النسيان هو أن التقارب والتشابه بين المواد المتعلمة يعني المزيد من النسيان، والعكس صحيح تماماً.

ولكن، هل يعني هذا أن تفرد الحدث يساعد على بقائه في الذاكرة ومقاومته للنسيان، رغم مرور فترات زمنية عليه قد لا تكون قصيرة؟

في دراسة قام بها شابиро (Shapiro, 2003)، مستخدماً حادثة 11 سبتمبر لضرب بعض المنشآت الحيوية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ للتعرف على ما إذا كانت الذاكرة عن هذا الحدث وملابساته التي أحاطت به، يمكن أن تتأثر بمرور الوقت أم لا. فقد أشارت الأبحاث السابقة إلى أن الفرد يستطيع أن يتذكر جوانب كثيرة من حياته بوضوح وتفصيل إذا كانت هذه الأحداث عامة وغير متوقعة، مثل اغتيال الرئيس كينيدي على سبيل المثال في أمريكا، واغتيال الرئيس السادس في مصر، أو دخول الجيش الأمريكي العراق واستيلائه عليها. ويفسر كوليوك وبراون Kulik & Brown بقاء هذا النوع من الذاكرة، بأن ذاكرة التخزين في الذاكرة طويلة المدى، والتي تتكون من خالل آلية محددة في المخ تنشط كلما كان الحدث مثيراً للدهشة، ويحمل دلالات شخصية لفرد. ورغم اختلاف التفاصيل المرتبطة بالحدث، إلا أن هذا الاختلاف لا يشير إلى غياب هذه الذاكرة، غير أن غياب العلامات الرئيسية - بحيث يتغير معنى الحدث - هو الذي يعني غياب هذا النوع من الذاكرة.

وفي دراسة شابиро، تكونت العينة من واحد وستين طالباً جامعياً، تم قياسهم ثلاث مرات على مدى أحد عشر أسبوعاً، وقد تم تحديد فئات الاستجابة المتطلبة في مكان الفرد وقت وقوع الحدث، وماذا كان يفعل في هذه الدقيقة، ومصدر معرفة الحدث، ثم تأثير هذا الحدث على حياته.

ثم أتبع شابиро هذه التجربة بأخرى؛ وذلك للمقارنة بين قدرة التذكر لدى الفرد مثل هذا الحدث بعد مرور عام آخر عليه. واستعان لذلك بمجموعة أخرى من الطلبة (85)، قسموا إلى مجموعات ثلاث، تم قياس الذاكرة عن هذا الحدث على فترات أخرى، ومن ثم خلص إلى النتائج الآتية:

\* كان هناك اتساق بين استجابات العينة على الاختبارات التي تمت خلال الفترة (أحد عشر أسبوعاً)، بما يعني أن الفترة الزمنية لم يكن لها تأثير في تغيير استجابات الأفراد الأساسية عن الحدث.

\* أن تقديرات أفراد العينة في المرة الثالثة كان يعكس مزيداً من وضوح التفاصيل المرتبطة بالحدث، وقد خلص الباحث من ذلك إلى أن المراجعات التي قام بها الفرد أثناء المرة الأولى والثانية من هذه التجربة، يمكن أن تؤدي إلى تحسين عملية التخزين في الذاكرة طويلة المدى.

\* لم يستطع البحث أن يكشف عن العلاقة بين بقاء الحدث في الذاكرة، وبين الأبعاد الذاتية للفرد، فقد يكون هذا الأمر في حاجة إلى أدوات أخرى للقياس.

وخلاصة ما سبق أن تفرد الحدث وأهميته في حياة الفرد لاشك من الأمور التي تعين على تذكره ومقاومة نسيانه.

### النسيان والذاكرة المستقبلية:

حينما يشكو الأفراد من اضطراب ذاكرتهم، لا يقصدون بذلك ذاكرة اللغة الإنجليزية التي تعلموها مثلاً. فقد يكونون أكثر ميلاً إلى الشكوى من نسيان المواعيد، أو نسيان عمل شيء كان من الضروري عمله في عودتهم للمنزل. ولم تتضمن نظريات النسيان إجابة عن هذه الأحداث، أو تفسيراً لضعف الذاكرة من هذا النوع. وحديثاً أسررت جهود ميشام (Micham, 1977)، عن تحديده لمصطلح الذاكرة المستقبلية "Prospective memory"، الذي قد يفسر مثل هذه الأحداث. وهيئز المصطلح بين نوعين من الذاكرة المستقبلية : "prospective / retrospective memory". وتعنى الذاكرة المستقبلية المتوقعة "prospective memory" متى يجب تذكر شيء ما، وتكون المعلومات التي في حوزتها قليلة للغاية، أما الذاكرة المستقبلية الاستعادية retrospective memory فتعنى بماهية هذا الشيء. فالذاكرة المستقبلية المتوقعة تعنى بمقابلة (س) من الأفراد في ميعاد محدد، أما الذاكرة المستقبلية الاستعادية فهي التي تعنى بحفظ المعلومات عن هذا الميعاد مع من؟ وعن أي موضوع؟ وما هو رأيك فيه؟ .. ومن ثم فإن نسيان الذاكرة المتوقعة يحمل الكثير من المحتوى الأخلاقي، غالباً ما يؤدي إلى الشعور بالاضطراب والحرج، الأمر الذي يشير إلى الأهمية الاجتماعية للحدث، بينما الذاكرة المستقبلية الاستعادية تكون أكثر حيادية في هذا الصدد.

والذاكرة المستقبلية لا ترتبط بالذاكرة طويلة المدى، فأن يكون لدى الفرد ذاكرة طويلة المدى جيدة لا يعني أن يكون جيداً في الذاكرة المستقبلية. وقد يعتقد البعض أن ضعف هذا النوع من الذاكرة قد يرتبط بال الكبر في السن، غير أن الشواهد الواقعية أشارت إلى أن الأمر غير ذلك، ربما لأن كبار السن يحرصون على تنظيم الحياة إلى درجة النمطية، كما يستخدمون المعينات الخارجية؛ حتى لا يتعرضون لسقوطات الذاكرة (Baddeley, 1997, 187).

### ظاهرة بينفيلد وتفسير النسيان:

ولمزيد من التقدم في فهم ميكانيزمات المخ للذاكرة الإنسانية، يعد النظر داخل رأس الإنسان أثناء حدوث عملية التذكر أو التعلم، أمراً ضرورياً، حيث تخضع الطواهر لمزيد من الملاحظة والرصد، غير أن هذا الإجراء حتى الآن مازال أقرب إلى الخيال العلمي منه إلى الواقع. لكن من خلال بعض المحاولات التدخلية لعلاج مرضي الصرع، استطاع متخصص الأعصاب ويلدر بينفيلد في كندا أن يقوم بشيء يقترب من هذا. كان التدخل الجراحي حينئذ يقوم على محاصرة الخلايا المصابة، وعزلها، أو قطع اتصالها بغيرها من الخلايا في المناطق المختلفة من المخ؛ وذلك لمنع انتشار التوبة الصرعية في المخ. كان ذلك منذ فترة الخمسينيات، حيث كان يتم كشف المخ، ثم يعرض لموجات كهربية،

وحيث إنه ليس بالملح مستقبلات للألم، فإنه بعد إزالة الجمجمة، يمكن أن تتم العملية تحت تأثير التخدير الموضعي، ويمكن للمرضى أن يتحدثوا عن خبراتهم التي تحدث نتيجة للاستثارة الكهربائية لخلايا المخ ( Steven , 1992).

وباستخدام هذه الطريقة، قام ويلدر بينيفيلد "Penfield" بتقديم هذه النوعية من التدخل الطبى لعدد من ألف ومائة على مرضى الصرع في فترة الخمسينيات؛ للتخفيف من حدة النوبات. وكان المرضى في البداية يخدرن تماماً، حيث تفتح الجمجمة في المنطقة المحددة وينكشف المخ. وقد لاحظ بينيفيلد أثناء العملية، أن الاستثارة كانت في منطقة محددة بذاتها (وهي منطقة الفص الصدغي "temporal lobe"). وهذه المنطقة تتضمن التأثيرات السمعية، والبصرية، والسمعية البصرية. مثل الأصوات، والموسيقى، والمناظر والأشخاص، وكذلك الأفكار، وكلها ذكريات من الماضي. ومع حدوث الاستثارة، أدى ذلك إلى استدعاء المرضى لخبرات حياتية خاصة بهم تدريجياً، بدءاً كأنها الحلم، لكن مع استمرار الاستثارة الكهربائية تزداد وضوحاً، وتصبح أكثر تحديداً واكتاماً. وقد تكون هذه الأحداث ثانوية في حياة الفرد، لكنها خبرات مليئة بالحياة، محملة بالتفاصيل .. الأمر الذي خلص منه أنه لا شيء يضيع من ذاكرة الفرد. فكل خبرات الفرد تسجل كاملة؛ ومن ثم يفسر بينيفيلد حدوث صعوبات التذكر بالكسب المتزايد للمعلومات والخبرات في الذاكرة. فكما أن الذاكرة هي أشبه بكاميرا الفيديو التي تسجل بأمانة كل تفاصيل الحياة للفرد، فإن النسيان إذن هو إما فشل في عملية التسجيل، أو فشل في عملية التذكر.

**لماذا ننسى إذن؟**

إذا كانت الشواهد تقضى بأن الذاكرة يفترض أنها غير محدودة، لماذا إذن يبدو أنها ننسى؟

يحدد روسيل عدداً من الأسباب التي يعزّو إليها النسيان فيما يلى:

**- 1 : الكبت "repression"**

وهو أحد العوامل التي فسر بها فرويد حدوث النسيان لدى الفرد، فالفترة التي يصاحبها الإحساس بالألم أو التوتر تنسى لا شعورياً، فإذا تم نسيانها فذلك يعني عدم الشعور بالإحساسات المصاحبة لها. وقد يسفر هذا عن حالة يطلق عليها حالة الفقدان الوقتي للذاكرة ("الشروع" "fugue" ، حيث يفقد الفرد كل ذاكرته عن الماضي. وفي الأفراد ذوي الصحة النفسية، فإنه رغم حدوث الكبت أحياً، إلا أنه لا يخص إلا عددًا محدودًا من الأحداث.

**- 2 : الهدم "Decay"**

بناء على نظرية الهدم فالذاكرة تضعف بالتدريج بمرور الوقت، وهكذا فإنه إذا كانت الذاكرة يتم ترميزها بتغيرات البروتين خلال المخ، فلابد أن يتواجد الهدم، كما تعود البروتينات إلى أصولها، ومع

زيادة الهدم، تستمر الذاكرة في الضعف حتى يصعب استرجاع المعلومات. ورغم أن هناك بعض الشواهد على حدوث الهدم، خاصة في الذاكرة قصيرة المدى، إلا أن الحديث يدور الآن حول دور التعارض في حدوث النسيان، الأمر الذي يبشر بإمكانية التحكم في حدوث هذا الأمر حتى مع كبار السن.

### -3 التعارض "interference":

تفصي نظرية التعارض بأن النسيان يحدث لأنه لا يمكن فصل الذاكرة عن التداخلات المستمرة، فالتأثير نفسه قد لا يضعف بالضرورة، ولكن مع تراكم المعلومات والأحداث، خاصة ذوى الارتباطات المتشابهة، والمعنى المتشابه، فقد يكون من الصعب استدعاء الخبرات الأصلية، حيث تتدخل الخبرات مع بعضها البعض. ويحدث التعارض ليس بسبب تراكم الأحداث والمعلومات فقط، ولكن أيضًا بسبب نقص استخدام مفاتيح مناسبة للاستدعاء؛ للتمييز بين ذاكرة وأخرى، وقد سبق أن عرضنا بقدر من التفصيل لأنواع التعارض، ومدى تأثيره على حدوث النسيان.

### -4 البحث "Search":

ترتبط نظرية البحث بنظرية التعارض السابقة؛ إذ بناء على هذه النظرية، فإن عملية الاستدعاء من الذاكرة هي أكثر من مجرد عملية حل المشكلات، فقد كشف دونالد نورمان D.Norman عن أنه إذا سئل فرد عما كان يفعل يوم الاثنين في الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر منذ عامين، فإنه يستجيب كما يلى:

\* آه ... وكيف لي أن أعرف.

\* منذ عامين .. لنرى.

\* كنت وقها في المدرسة الثانوية.

\* وكانت في مدرسة كذا.

\* وكانت في السنة النهائية.

\* والأسبوع الثالث من سبتمبر يعني بعد الصيف مباشرةً أي فصل الخريف.

\* وكانت أدرس العملي في مادة الكيمياء في المعمل.

ومع استمرار عملية الاستدعاء مع استخدام المزيد من المفاتيح، يصبح العثور على الذاكرة أمراً ممكناً.

### -5 الحالة العقلية "mental set":

من الأشياء الواضحة أن النسيان يحدث كنتيجة لتغير الاستعداد العقلى "mental preparedness"، وكما أن التسخين يساعد على وضع الجسم في حالة استعداد، فإن وضع

الفرد في خبرات مرتتبطة بما سبق، يساعد على وضع العقل في الحالة العقلية المطلوبة، ويفجر الذكريات. ولكن كيف يفيد الفرد من هذا على المستوى الشخصي؟

**هناك عدة استخلاصات مما سبق يمكن الاستفادة منها وهي:**

- 1- أثناء الدقائق الأولى، يمكن لبعض التدريبات الجسمانية أن تساعد على إفراز البروتين في المخ.
  - 2- في اليوم التالي لتعلم خبرة ما، يمكن إعادة تذكر ما تم تعلمه؛ حيث إن إعادة تعلم الخبرة الأصلية يرفع مستوى التذكر لهذه الخبرة، لذلك يظل واضحًا أهمية وضع نظام للمراجعة لأى مادة أو شيء - تم تعلمه. فالنظام الجيد يعني بمراجعة الشيء المتعلم بعد الانتهاء منه مباشرة على مدى عشر دقائق؛ حيث إن هذا لا يعزز البروتين المفرز فقط، ولكن أيضًا يساعد على حسن الاستفادة من تأثير تذكر الخبرات الماضية، حيث تكون الذاكرة في أعلى كفاءتها في هذه الفترة؛ فقد أثبتت الأبحاث أن خمس دقائق مراجعة للخبرة التي تم تعلمها يحسن من مستوى الاستدعاء فيما بعد.
  - 3- أما عن الميعاد الثاني للمراجعة فيكون بعد يوم من تعلم الخبرة لمدة 3 - 5 دقائق؛ لأن ذلك يعظم الاستفادة من تأثير تعزيز الذاكرة الذي يحدث أثناء النوم، ويعوض أي هدم للذاكرة.
  - 4- أما الاسترجاع الثالث فيكون بعدها بأسبوع لمدة 2-3 دقائق؛ لأن ذلك يعظم الاستفادة من تأثير الاستغراف طويل المدى في تذكر الخبرات الماضية، ويساعد على استقرار الذاكرة فترة أطول.
  - 5- بعد ذلك يكون هناك مراجعة بعد مرور شهر مدة بين 2-3 دقائق، ثم يليه استرجاع بعد ستة أشهر أيضًا. بعد المراجعة الأخيرة تكون غالبية المادة قد سجلت في الذاكرة، ويمكن دفع عملية تعزيز الذاكرة وتماسكها، عن طريقأخذ الملاحظات مثلاً، أو إضافة بعض معينات التعلم الأخرى.
- لاشك أن اتباع مثل هذا النظام في المراجعة يساعد على تقليل الفاقد من الخبرات المتعلمة؛ إذ بدلاً من سقوط الذاكرة سريعاً حوالي 80% بعد اليوم الأول، يمكن تدعيمها بالمراجعة المستمرة في فترات التعزيز الحرجية، ويمكن أن تصل إلى 100% تحسن. لذلك لا بد من التركيز على وجود نظام للمراجعة، يعظم الفائدة من عدد الساعات التي يقضيها الفرد في التعلم.

\* \* \*

## الفصل السادس

### العمليات العقلية والذاكرة

#### والتقدم في العمر

منذ منتصف القرن العشرين، بدأ كبر السن والتقدم في العمر يمثل قضية مهمة للمجتمعات، أما قبل ذلك، فكان العدد القليل هو الذي يحيا حتى المرحلة المتقدمة من العمر، إذ يقدر ذلك بـ 61% في القرن السابع عشر، ثم ارتفع إلى 4% في القرن التاسع عشر، أما الآن فيقدر بـ 12% من مجموع السكان، ويتوقع أن يصل إلى 25% عام 2030<sup>(١)</sup>. ويعبر حالياً عن النمو السكاني في المجتمع الغربي الحديث بالشكل المستطيل، وذلك في مقابل الشكل المثلث الذي كان يعبر عن النسبة الصغيرة لكتاب السن، مقارنة بالمراحل العمرية الأصغر. ولاشك أن هذا يمثل عدداً من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن هذا فقد تعتبر هذه المشكلات تخص المرأة قبل الرجل؛ فقد ورد أيضاً أنه حتى الخامسة والأربعين من العمر تكاد تتساوى نسبة الذكور إلى الإناث في المجتمع، أما بعد ذلك فقد سجلت الإحصائيات تدهوراً في نسبة الذكور، حيث تزداد نسبة الوفيات من الذكور بالمقارنة بالإناث. هذا في المجتمعات التي تنعم بالسلم، أما في المجتمعات التي تواجه الصراعات والحروب، فلاشك أن النسبة تزداد بوضوح .(Hamilton, 1994, 4)

وال الكبر أو التقدم في العمر - كما تعرفه القواميس المختلفة - يعني تراكم التغيرات التي تحدث للفرد عبر الزمن، ويعزى الكبر في الإنسان إلى حدوث جملة من التغيرات الفيزيقية والنفسية والاجتماعية. ومع الكبر قد تزدهر بعض الظواهر، بينما ينكش ويتدهور البعض الآخر، فقد تنمو المعرفة والحكمة مع التقدم في العمر؛ حيث نجد أن رد الفعل تجاه الأحداث يقل ويتضاءل. وكما يعكس الكبر التغيرات البيولوجية في الإنسان، فإنه يعكس أيضاً الأوضاع الثقافية والاجتماعية للمجتمعات.

وهناك عدد من الطرق التي يحدد بها التقدم في العمر؛ أولها: أن يؤخذ في الاعتبار الخصائص التي تم تحديدها من كتاب السن، وتكون لها صفة العمومية بين أفراد المرحلة العمرية الواحدة. أما الطريقة الثانية فهي التي تتطلق من الاعتقاد بأن مرحلة الكبر هي إحدى مراحل النمو التي يمر بها الفرد على

(١) إن هذه التقديرات قد وردت في بعض المراجع التي عنيت بدراسة التقدم في العمر (Kermis, 1983; Bromley, 1988)، كما وردت أيضاً في التقرير الفرنسي عام 1988 (OECD, 1988)، لذلك فقد يصدق هذا على المجتمعات الغربية في المقام الأول، إلا أنه لا يبعد كثيراً عن التقديرات العالمية.



مدار حياته. ومن الصعوبة أن يحدد أين انتهت مرحلة النضج، وأين بدأت مرحلة الكبر؛ فالفرد لا يصبح كبيراً بين يوم وليلة، لذلك فقد لجأ المختصون إلى التقسيم القسري لمراحل العمر الذي يميزون به بين مرحلة وأخرى، وهو ما يعرف بالتعريف وفقاً للتسلسل الزمني "Chronological age".

أما التحديد الثالث للتقدم في العمر فهو التعريف الاجتماعي، الذي يعتمد على إدراك المجتمع وتوقعاته من الأفراد في مرحلة محددة. ففي المجتمع الغربي، يتوقع من الأفراد فوق الستين أن يميلوا في سلوكياتهم إلى البطء، والهدوء وعدم الاستثارة، وبالتالي تم تحديد كبر السن بإحالة الفرد إلى التقاعد، بينما في المجتمعات البدائية، يعد كبر السن إيذاناً للفرد بأن يحيا حياة دينية مليئة بالطقوس التي تميل إلى المثاليات أكثر منها إلى الواقعية.

لذلك فإن أكثر التحديدات قريراً من الموضوعية هو التحديد الزمني، ومن ثم يتحدد الكبر عبر غالبية المجتمعات بين الستين من العمر والخامسة والستين. رغم أن البعض قد اقترح تقسيماً للمراحل داخل مرحلة الكبر، حيث تقسم إلى مرحلة صغار الكبار "young old" من 60-69، ثم المتوسطين من الكبار "middle - aged old" من 70-79، ثم مرحلة كبار المتقدمين في العمر "old-old" من 80-89، وأخر هذه المراحل من 90-99، وهي مرحلة "very old-old".

وقد نشطت الدراسات لتحديد التغيرات التي ترتبط بالتقدم في العمر، واستخدمت لذلك العديد من المقاييس لرصد التغيرات البيولوجية والنفسية. وقد سجلت النتائج عدداً من الخصائص البيولوجية المهمة التي ارتبطت بالتقدم في العمر<sup>(1)</sup>، منها اضطراب القدرة على الإبصار، والسمع، وكذلك تغير درجة المرونة في العضلات والخلايا. كما رصدت بعض النتائج تغير النظام الحسي، فتفقد بعض الحواس حساسيتها، بينما يظل البعض الآخر يعمل بكفاءة. هذا فضلاً عن التغيرات الأخرى في الجهاز العصبي، وتغير النيرونات تبعاً للتغير في العمر. ومن غير شك، فإن لهذه التغيرات البيولوجية تأثيراتها على الجوانب النفسية بمختلف مكوناتها لدى الفرد، الأمر الذي أدى إلى نشاط حركة الأبحاث التجريبية والفارقة لمزيد من الفهم لهذه المرحلة، وللعوامل المرتبطة بالتقدم في العمر.

وقد مثل الاتجاه نحو دراسة العمليات العقلية لدى كبار السن، والتعرف على كفاءة وظائف المخ في هذه المرحلة العمرية قلب هذه الدراسات، كما نشطت إلى جانب هذا حركة تكوين البرامج التي تعين على المساعدة، وتحسين مستوى الأداءات المعرفية لدى الكبار على مختلف المستويات، بدءاً من تحسين مستوى التذكر، وانتهاء بتنشيط الوظائف المعرفية الأخرى؛ من تعرف، وتخطيط وغيرها.

(1) لأن هذه النتائج ليست موضع الاهتمام في الدراسة الراهنة، ومن المراجع المقترحة لمزيد من العلم بها ما يلى:  
Weg,1983 - Corso , 1987 - Bromley,1988, -

ولاشك أن ذلك جاء استجابة لما كشفت عنه الدراسات من ارتفاع متوسط العمر لدى الإنسان بما قد يصل إلى 75 عاماً، الأمر الذي يضيف إلى حياة الفرد ما يقرب من الثلث. ومن ثم، تزايد الاهتمام ببحث كيفية أن يعيش هذه الحياة بطريقة صحية وسليمة. كيف يتواافق مع متطلبات الكبر دون أن يضيف أعباء على الأجيال الأصغر سنًا، أو على المؤسسات المعنية؛ كالمستشفيات مثلاً وغيرها؟ لذلك نشطت الحركة العلمية لمزيد من فهم هذه المرحلة العمرية، وتقديم المساعدات الممكنة لتحسين الأداء والإبقاء على الكفاءة.

فضلاً عن هذا، فقد أشار البعض إلى أهمية التعرف على القدرات العقلية للفرد كمؤشر على القدرة الوظيفية للملحق؛ إذ وفقاً لنموذج "terminal drop model" ، الذي تحدث عنه كليمير "Kleemier" ، وريجل "Riegel" 1972، وميشام "Meacham" 1990، فإن التدهور المستمر على مدى عدد من السنوات (قد تقدر بعشر سنوات) قد ينبع بقرب نهاية الفرد؛ حيث إن هذا ثبات في حالة التدهور - في ضوء النموذج - يصور العقل كما لو أنه ينسحب تدريجياً "wind down" ، وبعد نفسه للموت (Hamilton , 1994,38).

ومن ثم تتضمن أهمية التعرف على القدرات العقلية للفرد، ومدى تدهورها عبر التقدم في العمر، مزيداً من الأهمية؛ باعتبارها منبئه بحالة الفرد في الفترات المسبقة.

#### أولاً: التقدم في العمر والمهارات العقلية:

كما سبق أن ذكرنا أن هناك ما يربط بين التقدم في العمر، وبين المزيد من الخبرة والمعلومات التي يحصلها الفرد على مدى سنوات عمره، الأمر الذي يطرح ارتباط التقدم في العمر بالحكمة "Wisdom" ، ووصف كبار السن بالحكمة. فقد وجد ستربيرج وبيرج (Sternberg &Berg, 1992)، في نتائج دراستهما على وصف الشخص الذي يتميز بالذكاء من أعمار الثلاثين والخمسين والسبعين، أنه في حدود المدى العمري 30-50، كان وصف العينة يدور حول التعامل مع المواقف الجديدة. أما في وصف الفرد من مرحلة السبعين، فكانت صفة الذكاء تعنى الحكمة (wisdom). كما كشفت النتائج أيضاً عن أن 3.8 % من العينة وافقت على أن الذكاء يظل ثابتاً مدى الحياة، بينما اتفقت النسبة الباقية على تغيره على مدى العمر إلى الأفضل أو إلى الأسوأ (Berg & Sternberg,1992,221-231).

وحتى وقت قريب كان ينظر إلى الذكاء باعتباره مهارة كلية، نسبة إلى شارلز سبيرمان "Spearman" ، والقدرة العامة للذكاء التي حددتها بالعامل "G". غير أن الأمر قد تغير كثيراً بعد نظرية الذكاءات المتعددة، فأصبح المتخصصون في الدراسات النفسية أقل ميلاً إلى قبول نظرية العامل العام. غير أن هناك دراسات قد اعتمدت على بعض المفاهيم في قياس الذكاء، منها الذكاء السائل "Fluid intelligence" والذكاء المكتسب "Crystallised Intelligence" ، ويعقّل الذكاء

المتبلور كمية المعرفة التي حصلها الفرد على مدار حياته، وهو يمكن قياسه بالأسئلة المباشرة التي تقيس المعرفة العامة. أما الذكاء السائل فيمكن قياسه بقدرة الفرد على حل المواقف الجديدة التي لم يسبق أن تعلمتها من قبل. ومن التدريبات على ذلك سلسلة الأرقام التي عليه أن يكتشف النظام الذي وضعت به، ويكمّل، كذلك في الحروف، ومثل هذه التدريبات تكون محددة بزمن.

ويرى هاملتون أن هذا التكوين للذكاء - بناء على نظرية كاتل في الذكاء - أقرب التصنيفات التي يمكن أن يتم قياس الذكاء في ضوئها مع التقدم في العمر، إذ يمكن أن تساعد في التفرقة بين الذكاء كمهارة "wit"، وبينه حكمة "wisdom". في دراسة سابقة عن الذكاء وأمراحل العمرية، وجّه هورن وكاتل "Horn & Cattell" أن الذكاء المتبلور قد يظل ثابتاً، بينما يتدهور الذكاء السائل بالتقدّم في العمر.

ومن أولى الدراسات التي أجريت للتعرف على تأثير الكبر على الذكاء كانت في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وقد جاءت النتائج محبطة لكل من هو فوق الثلاثين. فقد كشفت النتائج أن الذكاء يتزايد حتى منتصف العشرينيات، ومن بعدها يحدث تدهور مستمر، رغم أن الباحثين قد أثبتوا أن المهارات اللغوية لا تتأثر بهذا التوجه، واستمرت الأبحاث في دعم هذه النتائج وتديفنت في هذا الاتجاه. وجدير بالذكر أن هذه الدراسات كانت في أغلبها - إن لم يكن جميعها - تلجأ إلى الدراسات المستعرضة cross sectional studies التي تستعين بعدد من العينات من أعمار مختلفة في وقت واحد؛ كسباً للوقت<sup>(١)</sup>. ورغم مميزات هذا الاتجاه في دراسات النمو، إلا أن من أهم عيوب هذه الدراسات هو أن الباحث لا يستطيع التأكد من عزو نتائجه إلى المتغير المستقل وحده، وهو ما يعرف في التراث بتأثير الجماعة "cohort effect". ولتحقيق هذا الخطأ، تستخدم الدراسات الطولية، غير أن لهذه الدراسات أيضاً عيوبها التي تؤثر بدورها على النتائج؛ من حيث نوعية العينة، والعدد الذي يصمد عبر المراحل البحثية المختلفة، هذا فضلاً عن التحسن الذي يمكن أن تكتسبه العينة من تكرار الاختبار على الأدوات الواحدة. ورغم هذا فإنه ما زال الباحثون يستخدمون كلا التوجهين لدراسة الظاهرة الواحدة؛ بغرض تحقيق التكامل بين النتائج، وصدق ما يمكن أن تسفر عنه هذه الدراسات. وجدير بالذكر أن الإشارة إلى بعض ما يخص مناهج البحث أو المشكلات المنهجية في دراسة الذاكرة هنا، ليس تزييداً من الباحث أو خروجاً على النص، بل هو في قلب الموضوع؛ لعلاقته الوثيقة بنوعية النتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسات، وما تعنيه فيما يخص العمليات العقلية في مرحلة الكبر، محور اهتمامنا في هذا الفصل.

(١) الدراسات المستعرضة تستعين بعدد من العينات التي تتبادر على المتغير المستقل موضع الدراسة، وذلك في مقابل الدراسات الطولية التي تستخدم العينة الواحدة عبر مراحل زمنية مختلفة.

أما عن نتائج الدراسات على اختبارات الذكاء على الكبار وفقاً لنظرية كاتل، فقد كشفت الأبحاث عما يدعم النتائج السابقة التي أسفرت عنها دراسة كاتل وهورن عام 1967، من أن الذكاء المتببور يظل ثابتاً مع التقدم في العمر، بينما يتعرض الذكاء السائل للتدهور. ومن الأمثلة على ذلك دراسات كننجهام وآخرين "Cunningham, 1975" وهيسليب وشتينر (Hayslip & Stern, 1979)، ومن الأدوات التي استخدمت لقياس الذكاء السائل اختبار رافن "Raven's Progressive Matrices" عام 1992، تضمنت مراجعة عامة لعدد من الدراسات على الذكاء السائل لكتاب السن، أعاد تنظيم الدرجات التي حصلوا عليها في هذه الدراسات، في ضوء الانحراف المعياري لدرجات العينات صغار السن، وقد وجد أن متوسط عينة الكبار كان أقل من الانحراف المعياري لمتوسط عينة صغار السن بـ 7.5. وجدير بالذكر هنا أن هذه الدراسات كانت من نوعية الدراسات المستعرضة، وفسر هامiltonون هذا بأن الفرد المتوسط من عينة كتاب السن، كان أداؤه عند مستوى منخفض جداً، بالمقارنة بعينة صغار السن، فضلاً عن احتمالية تدخل المؤثرات الأخرى، مما يتطلب الحذر في تفسير النتائج.

وهناك بعض الدراسات التي أشارت إلى أن تأثيرات العمر على الذكاء السائل للأفراد قد لا تكون عامة عليهم جميعاً، بمعنى أن هناك ممن هم في العمر المتقدم من يمثلون نماذج استثناء من هذه القاعدة. فقد عمد رابيت (Rabitt, 1984)، في دراسته المقارنة على ستمائة من المتطوعين، تراوحت أعمارهم بين 50-79 عاماً، إلى تطبيق اختبارات الذكاء لقياس الذكاء المتببور والذكاء السائل. وقسم عينته إلى عدد من الفئات العمرية (من 50-59، ومن 60-69، ثم من 70-79). وأسفرت نتائج هذه الدراسة عن عدم وجود فروق جوهرية بين متوسط درجات العينات الثلاث على اختبارات الذكاء المتببور، بينما في الذكاء السائل، كان متوسط تقديرات المجموعة الأكبر عمراً هو أقلهم جميعاً، كما أن توزيع درجات هذه العينة كان متغيراً، حيث تزايدت الدرجات المنخفضة لدى الأكبر سنًا. لكن يظل أن هناك البعض من الأكبر سنًا (من 70-79) من استطاعوا أن يحققوا درجات عالية على اختبارات الذكاء السائل. ولقد فسرت هذه النتائج بأن التدهور في المهارات السائلة ليس بالأمر الذي يستحيل تجنبه مع التقدم في العمر؛ فالالتدهور لا يعم جميع المتقدمين في العمر.

ولقد دعمت هذه النتائج دراسات كل من رابيت عام 1993، ومورس (Morse, 1993)، حيث خلصت هذه الدراسات إلى أن المتقدمين في العمر يكشفون عن تباينات فيما بينهم، أكثر من صغار السن، ومن ثم يصعب الحديث عن نمط لكتاب السن (Hamilton, 1994, 37). فضلاً عن هذا، فقد يثار النقاش حول مدى مصداقية هذه النتائج وانطباقها على كتاب السن، إذ قد يعترض البعض على تفسير الاختلاف بين كتاب السن وبين الأصغر سنًا على اختبارات الذكاء بالتقدم في العمر لما بعد مراحل النضج، بل قد يرجع إلى القدرات العضلية في مرحلة الكبر، والتي تتسم بالتراجع عن ذي

قبل. ويعنى ذلك أن الأمر هو الزمن الذى يستغرقه الكبار في إنجاز الاختبار مقارنة بالأصغر سنًا. ولكن هل يعنى ذلك أنه إذا لم تكن هناك قيود تحديد الزمن في اختبارات الذكاء السائل، هل يمكن أن تختفى هذه الفروق بين العينات المتباعدة في المراحل العمرية؟ هل المشكلة تكمن في السرعة، وليس في القدرات العقلية ذاتها؟

لقد حاولت سورانت (Sorandt, 1977) اختبار هذا الفرض، وذلك بمقارنة أداء العينة على اختبار للتوصيل محدد بزمن هو تسعون ثانية ( يصل الفرد بين الشكل وبين الرقم الذى يعبر عنه )؛ وذلك لمعرفة كم من الأشكال استطاع الكبار أن ينجزوها في الزمن المحدد، ثم مقارنة نتائجهم بدرجاتهم على اختبار الذكاء، وكان أداء الكبار في الحالتين سيًّا. وقد خلص من ذلك إلى أن 50% من الفروق بين كبار السن وبين الأصغر تعزى إلى النقص الفيزيقى أو نقص قدرة العضلات على الإسراع في العمل. لكن يظل السؤال قائماً: هل يعنى تدهور الأداء على اختبارات الذكاء السائل تدهوراً في القدرات العقلية ذاتها؟ أم أنه يعزى إلى تدهور القدرة العضلية في الكتابة أو الرسم، مما ينعكس على زمن الأداء، وبالتالي على الدرجة؟ قضية بحثية جديرة بالدراسة لمزيد من الفهم عن موقف القدرات العقلية في مرحلة الكبر.

#### تدهور القدرات العقلية وسوء الاستخدام:

أثار بعض الباحثين أهمية التدريبات العضلية لتحسين الحالة العقلية للمتقدمين في العمر. فقد ذكر هوكنز "Hawkins" وزملاؤه أن برنامجاً من التدريبات العضلية على مدى عشرة أسابيع قد أسفر عن تحسن ملحوظ في عملية الانتباه (Hawkins, 1992)، وقد فسرت هذه النتائج بأن الجسم الصحى يساعد على أداء جميع الأنظمة في الجسم بكفاءة وانتظام، خاصة النظام الوعائي القلبي "cardiovascular system"، كما أن الجسم الصحى يساعد على دفع عملية توظيف النيرونات، ومن ثم الأداء العقلى.

ومن التعبيرات التي تستخدم دائماً هو "استخدم الشيء وإن فقدته" "use it or loose it" ، ويقابل هذا في تراث علم النفس ما يعرف بنظرية سوء الاستخدام "misuse theory" ، حيث يعزى التدهور المرتبط بالتقدم في العمر إلى الفشل في استخدام الفرد مهاراته، ومن ثم تتدحر. غير أنه في مقابل هذا، أشارت بعض الدراسات إلى أن التدريب على مهارة ما قد لا يمنع تأثير التقدم في العمر بالسلب. فقد وجد سالثوس من دراسته على الطيارين وعلى مهندسي البناء، أنهم - فيما يخص القدرات المكانية - كشفوا عن تدهور مرتبط بالتقدم في العمر (Salthouse, 1992). غير أن ذلك لا يؤدى إلى القول بعدم تجنب تأثير التقدم في العمر على المهارات العقلية للفرد، فقد تختلف هذه النتائج باختلاف نوعية المواقف؛ إذ إن أغلب هذه النتائج من مواقف مصطنعة في المعمل، فهل سيظل الأمر كذلك لو أن المواقف من الحياة اليومية الحياتية للإنسان؟ فهناك بعض الدراسات

القليلة التي أشارت إلى إمكانية تعويض الخبرة لدى كبار السن، فحققاً نتائج مقاربة - لدرجة كبيرة - للأصغر سناً. ففي تجربة سابقة لسالثوس 1984، للمقارنة بين كبار السن وصغار السن على مهارة الكتابة على الآلة الكاتبة، رغم أن النتائج قد أشارت إلى فروق في زمن رد الفعل، وفي حركة الأصابع، إلا أنه لم تكن هناك فروق في سرعة الكتابة. ولقد فسر هذا بأن خبرة الكبار في هذا العمل قد ساعدتهم على التخطيط بما لديهم من مدى جيد للتآزر بين اليد والعين، مما عوضهم عن ببطء الحركة.

ولاشك أن تعارض النتائج فيما يخص تأثير العمر على المهارات العقلية للفرد، يمثل دافعاً قوياً لدى الباحثين لمزيد من البحث والدراسات المقارنة؛ حتى يمكن الوصول إلى ما يفيد علمياً في تفسير إذا ما كان للخبرة تأثيراتها الإيجابية في تعويض تأثير العمر، ومع أي المهارات.

#### زمن الرجع وكبار السن:

زمن الرجع "Reaction time" يعني الوقت المنقضي بين رؤية المثير وبين استجابة الفرد له، وكلما قل هذا الوقت كلما عنى ذلك سرعة الاستجابة، والعكس صحيح. وقد تضمنت التجارب على زمن الرجع نوعين، هما: زمن الرجع البسيط "Simple reaction time" (srt)، ويعني سرعة استجابة الفرد على موقف يضم مثيراً واحداً، ويطلب استجابة واحدة، مثلاً: أن يتطلب من الفرد الضغط على زر كلما سمع الصوت، أو كلما رأى الضوء. أما النوع الثاني فهو زمن الرجع في حالة الاختيار "Choice reaction time" (crt)، وفيه يواجه الفرد عدداً من المشيرات، ويطلب منه اختيار الاستجابة المناسبة من بين عدد من الاستجابات، كأن يتطلب من الفرد الضغط على الزر الأحمر في حالة رؤيته للضوء الأخضر مثلاً، والضغط على الزر الأسود مع رؤية الضوء الأبيض، وهكذا. وتميل الاستجابات أن تكون أكثر بطئاً مع النوع الثاني من زمن الرجع حيث تتعقد المشيرات، وتتعدد الاستجابات كذلك.

ومن المعروف بين علماء الشيخوخة "gerontology" أن زمن الرجع يزداد مع التقدم في العمر، وهناك العديد من نتائج الدراسات التي دعمت هذا الرأي (Kermis,1983,Salthouses,1985,lindenberger,1993). وفي تفسير أسباب هذا السلوك لدى كبار السن، أشار التراث الخاص بدراسة التغيرات البيولوجية المرتبطة بالتقدم في العمر في الجسم، إلى أن تغير النيرونات في المخ مع التقدم في العمر، يؤثر على الشكل التشريحي للمخ، ومن ثم على الوظائف العقلية؛ إذ إنه من أهم المناطق التي تتأثر بالتقدم في العمر هي منطقة تحت المهداد، كما أن فقدان النيرونات في المخ يؤثر بصفة رئيسية على الفص الأمامي في القشرة ومنطقة قرن آمون "Hippocampus" وهي المناطق الأكثر ارتباطاً بالذاكرة والوظائف المعرفية. ولقد ساعد التقدم العلمي على قياس هذه التغيرات في المخ، ومن هذه الأدوات (CT) "computed tomography"؛ لاستخدام أشعة إكس لتصوير المخ

وكذلك أشعة "Positron emission tomography" (PET)؛ وذلك لتحديد مستوى نشاط المخ. وأسفرت غالبية الدراسات على الكبار الأسيوياء، وعلى مرضى فقدان الذاكرة خاصة، أنه مع التقدم في العمر، تقل كتلة المخ (الوزن) والتمثيل الحيوي، ويرتبط هذا بنقص أداء الذاكرة والقدرات العقلية. كما أن استخدام الرسم الكهربائي للدماغ ("EEG" electroencephalograph)، وهو من الأساليب غير الحديثة لتحديد النشاط الفيزيقي للمخ، وذلك بقياس النبضات من خلال فروة الرأس، وجد أن هذه النبضات تكون أكثر بطئاً مع التقدم في العمر. ومن ثم فإن هذا البطء في النبضات العصبية يفسر طول زمن الرجع مع التقدم في العمر، ومن ثم كلما تعقدت العمليات المطلوبة، كلما زاد عدد الأعصاب المشاركة في أداء المهمة، ولذلك، فإنه في السن المتقدم، كلما تطلب العمل زيادة عدد الأعصاب المشاركة في أداء المهمة، كلما زاد تدهور سرعة العمليات؛ لذلك فإن ببطء الحركة يعبر عن ببطء زمن الارجاع (Selkoe, 1992).

غير أن سالثوس يثير رأياً آخر، وهو أنه إذا تم ضبط تأثير عامل السرعة إحصائياً، فإن ذلك يمكن أن يقلل من الفروق بين المجموعات العمرية أو قد تتلاشى، وهو ما سبق أن أشارت إليه نتائج سورانت من قبل Salthouse (1991)، كما يطرح رؤية ضرورة وضع خبرة الفرد وتعلمها في الاعتبار.

وخلاصة هذا - أن اعتبار طول زمن الرجع مؤشراً على التقدم في العمر وتدهور القدرات المعرفية لدى الفرد - لابد وأن يؤخذ بشيء من الحذر؛ حيث إن هناك عدداً من العوامل التي تكمن وراء طول زمن الرجع وبطء استجابة الفرد، ومن ثم فهو ليس مؤشراً على تدهور القدرات العقلية في ذاتها.

#### نقص الانتباه والتقدم في العمر:

الانتباه هو القدرة على التركيز، رغم وجود العوامل المشتركة، ويكشف الانتباه عن نفسه في عدد من الأشكال، فالقدرة على التركيز على ما تؤديه في اللحظة الراهنة دون تشتيت يسمى الانتباه الثابت "sustained attention" وهذا المهارة هي من المهارات التي لا تتأثر بالتقدم في العمر إلا بالقدر البسيط للغاية. أما القدرة على الانتباه إلى ما تؤديه في اللحظة الراهنة رغم وجود مثيرات أخرى جاذبة، فهو يعرف بالانتباه الانتقائي "selective attention" ومن الطرق التي تستخدم لقياس هذا النوع من الانتباه المهام البصرية، حيث تعرض الكثير من الحروف مثلاً، ويطلب تحديد واحد منها. وقد كشفت الدراسات عن أن أداء كبار السن أكثر بطئاً من صغار السن على هذا العمل، كما أن التدريب على العمل لا يؤدي إلى تحسن الأداء لديهم، وأن تغيير وضع المثير في العرض لا يؤدي أيضاً إلى تحسن أدائهم (albert, 1988). وفي تجربة لقياس الانتباه الاننقائي عبر الفروق العمرية بين المجموعات، قام ماكડود وفيلوون (McDowd & Fillion, 1992) بعمل تجربة تتضمن المقارنة بين

مجموعتين عمريتين (كبار السن في مقابل الأصغر سنًا)، وتضمنت المهمة الاستماع إلى مسرحية من خلال الراديو في وجود عدد من النغمات الموسيقية في ذات الوقت، وطلب من أفراد العينتين تجاهل هذه النغمات الموسيقية، والتركيز مع المسرحية، وقد تحدد المتغير التابع في هذه الدراسة في قياس استجابة الجلد وضربات القلب كمؤشر على الجهد الذي يبذله الفرد في التركيز رغم وجود المشتتات.

وبعد بدء التجربة ومع الدقائق الأولى من عزف النغمات المشتتة، استطاعت عينة صغار السن تجاهل المشتتات، والتركيز مع المسرحية؛ حيث إن قياسات الجلد ونبضات القلب لهم لم تسجل تغييرًا يذكر. أما عينة الكبار فقد سجلت تغييرًا ملحوظًا استمر معهم وبينفس المستوى منذ بداية المهمة وحتى النهاية (McDowd & Fillion, 1992).

أما النوع الثالث من الانتباه فهو الانتباه المنقسم "devided attention"، ويعزى إلى القدرة على التعامل بتلقائية مع أكثر من مصدر للمعلومات، أي تتعدد الموضوعات التي تعامل معها الذاكرة العاملة. ومن أفضل المهام لقياس هذه القدرة هو الاستماع المنقسم "dichotic listening"؛ إذ إنه باستخدام سماعات الأذن، يستمع الفرد إلى عدد من الرسائل في كل من الأذنين، وعليه أن يحدد أي الرسائل قد استمع إليها في كل أذن. وأشار عدد من الباحثين إلى سوء أداء كبار السن على هذه المهمة، مثل هورن "Horn" وسالثوس. ولقد فسر سالثوس هذه النتيجة في ضوء العمر وعلاقته بتعقد الظاهرة، ومن الأدلة التي يسوقها على ذلك أن أداء الكبار على مهام الانتباه البسيط الذي يتضمن مثيرًا واحدًا لم يختلف عن أداء صغار السن، كما أن خفض كم المعلومات في المهمة قد يؤدي إلى تلاشي الفروق الخاصة بالتقدم في العمر. ومعنى هذا أن سالثوس يقدم الدليل على أن كبار السن لا يختلفون عن صغار السن في تغيير وتركيز الانتباه في المهام التي تتطلب انقسام الانتباه، أي أنهم يستخدمون ذات المهارات في الذاكرة العاملة، إلا أن الكبار يعانون من نقص مصادر العمليات، معنى أن نقص كفاءة الخلايا العصبية، أدى إلى نقص كفاءة القدرات العقلية على التعامل مع هذه المهام كما كانوا في فترة الشباب.

#### التنظيم العقلى والتقدم في العمر:

كما أن زمن الرجع يقيس رد الفعل الحالى للعقل على المثيرات المختلفة، فإن التنظيم الفكرى أو العقلى يقصد به القدرة على التعامل المجرد مع هذه المثيرات؛ بغرض كشف الأسس التى تنظم وفقاً لها، مثلًا: الرجل، والفيل، والبقرة، هي كائنات مختلفة في الشكل وحتى الفئة التى تنتمى إليها، لكن على مستوى التفكير المجرد فهى جمیعها تنتمى إلى الثدييات. كذلك الأمثال والحكم المختلفة، لا تؤخذ معناها الحرف بل إن قيمتها في فهم مدلولها<sup>(١)</sup>. ولقد أشار بعض الباحثين إلى أن كبار السن قد

(١) من أمثلتها: من بيته من زجاج، لا يقذف الآخرين بالحجارة - معظم النار من مستصغر الشر.

يجدون صعوبة في الانتقال من التفكير العيني إلى التفكير المجرد. فقد أشار ألبرت "Albert" وزملاؤه عام 1987 إلى أن كبار السن قد حصلوا على الدرجات الأسوأ في تفسير هذه الأقوال. ولاشك أن هذه النتائج تتعارض مع ما سبق أن أشرنا إليه، وهو أنها تتنمّى إلى الذكاء المتبلور الذي لا يتأثر بالتقدم في العمر، فكيف إذن تتدحر قدرة كبار السن بمقارنتها بصغار السن في تفسير المعنى الذي تتضمنه هذه الأقوال؟

غير أن هناك بعض الأبحاث الأخرى التي أشارت إلى عكس النتائج السابقة التي خلص إليها ألبرت وزملاؤه، فمن خلال الأداء على مهمة العشرين سؤالاً<sup>(1)</sup>، والمقارنة بين المتقدمين في السن في مقابل الأصغر سنّاً، كان أداء الكبار يفوق كثيراً أداء الأصغر سنّاً؛ حيث إن كفاءة الأداء على هذه المهمة تتطلب قدرة من المبحوث على توجيهه الأسئلة، التي تفيد في التوصل إلى الشيء المحدد، وعدم التعجل في طرح أمثلة لهذا الشيء في بداية البحث، إلا بعد استكمال المعلومات المطلوبة للنجاح في معرفة الشيء.

وفي عودة مرة أخرى إلى جملة العوامل الدخيلة التي يمكن أن تؤثر على النتائج، والتي أشرنا إليها سابقاً، فإن هذا النوع من التفكير لاشك أنه يتأثر ببعض هذه العوامل، مثل حظ الفرد من التعليم مثلاً، إلا أن الأمر في حاجة إلى مزيد من الأبحاث، حيث التحديد الدقيق لعينة البحث، والضبط الجيد لهذه العوامل الدخيلة قدر الإمكان، حتى يمكن الوصول إلى نتائج في هذه القضايا الخلافية عن كبر السن وقدراته العقلية.

### القدرة الإبداعية والتقدم في العمر:

كثيراً ما يربط التراث بين القدرة الإبداعية وبين التفكير الفارق أو التباعدي "Divergent thinking" ، وقد كشفت الأبحاث عن ضعف قدرة كبار السن على التفكير الفارق أو التباعدي، بمقارنة بصغار السن على هذه القدرة. ولكن هل يمكن البناء على هذه النتائج بأن القدرات الإبداعية قاصرة على السن الأصغر، وأنه كلما تقدم الإنسان في العمر كلما قلت لديه هذه القدرات؟

لاشك أن هذه العلاقة بين التقدم في العمر وبين نقص القدرات الإبداعية لدى الفرد، ليست من البساطة والوضوح التي يمكن الباحث من التعميم؛ فقد ثبت من دراسة النماذج الممثلة للمبدعين في مختلف المجالات بين العلم والفن والأدب، أن هناك نماذج إبداعية ظلت على مستوى عطائهما حتى مرحلة متأخرة من العمر. فضلاً عن هذا، فإن الدراسات الوصفية والتدخلية قد كشفت عن الطبيعة التعددية لهذه القدرات؛ إذ إن القدرة الإبداعية هي قدرة عامة تنطوي تحتها العديد من القدرات

(1) تخلص هذه المهمة في أن يحدد الباحث شيئاً أو حيواناً ما، أو غير ذلك، لا يعلمه للمبحوث، وعلى المبحوث أن يوجه للباحث عدداً من الأسئلة المتتابعة لتحديد هذا الشيء الذي لم يعلمه الباحث.

الفرعية التي تتطلب نوعيات من قدرات الفرد. فهل ارتباط التقدم في العمر بتدور الإبداع يعم هذه القدرات جمیعاً؟ أم أنه يخص بعضها فقط؟ إذا أضفنا إلى هذا أن هناك من المبدعين من ظل على عطائه الإبداعي رغم فقدانه لبعض القدرات الأخرى، مثل بيتهوفن، وغيره كثيرون في مجالات أخرى غير الفن. ولاشك أن الإجابة عن هذه التساؤلات تتطلب العديد من الأبحاث التي يتحقق في ضوئها الكثير من الضبط للعوامل المستقلة؛ من أجل مزيد من الدقة في النتائج المستخلصة.

### ثانيةً: تغيرات الذاكرة والتقدم في العمر:

يذكر التراث أن الانتقال من حياة الطفولة إلى مرحلة النضج وما بعد النضج، يصحبه تغيرات في الذاكرة، حيث يعاني غالبية الأفراد من ضعف في الذاكرة، وهي من الظواهر التي تعد شائعة مع كبار السن، فهوّاء رغم قدرتهم على تذكر الأحداث البعيدة في فترة الطفولة، يصعب عليهم تذكر ماذا أكلوا بالأمس مثلًا. وعادة ما يتم الربط بين هذا وبين مرحلة الكبر، أو ضعف قدرات المخ، وبلغة الحاسب الآلي، يفسر البعض حدوث ذلك بأن الذاكرة قد امتلت، ولا تستطيع استقبال المزيد. خاصة وأن هناك خطأ شائع في عقول الكافحة عن تدھور القدرات العقلية بعد سن العشرين، إذ يظل النمو والتقدم من الميلاد وحتى الشباب، ثم يحدث التدهور بعد سن العشرين، وقد يقف وراء هذا الاعتقاد الخاطئ الحقيقة العلمية الخاصة بأن عدداً من التيرونات تموت بانتظام في المخ، دون أن يحدث إحلال لها بأخرى في أي فترة من فترات العمر. غير أن روسيل وهو المتخصص في علم الأعصاب، وأجرى الكثير من التجارب على وظائف المخ، وكانت له كتابات في هذا الصدد<sup>(١)</sup> - يقدم الحجج المنطقية لدفع هذا الادعاء، وبيان مدى بعده عن الحقائق العلمية، ومن هذه الحجج مايلي:

- 1- أن المخ يحتوى على ما يقرب من 10-12 بليون من التيرونات، فلو قدر مثلاً أن ما يموت من هذه التيرونات في اليوم هو ألف نيرون، فإن ما يفقده المخ طول عمر الفرد حتى سن الستين، يمثل أقل من 1% من عدد نيرونات المخ.

- 2- عندما يتعرض المخ للإصابة، وتتلف وظيفة ما بالتدرج، فإن هذا الفقد يعوضه المخ، بحيث لا يكاد التلف أو فقد الوظيفة أن يكون ملحوظاً، كما سبق وأوضحنا ذلك في الفصل الأول. فهل مع فقد المخ لما يمثل 1% من إمكانياته، يكون له التأثير على تدهور كفاءة المخ؟ أم أنه لا شك يستطيع أن يعوضه سريعاً؟!

(١) كان اهتمام بيتر روسيل الرئيسي يتحدد في اكتشاف إمكانيات المخ وتنميتها، لذا فقد اهتم بدراسة علم النفس التجربى في جامعة كمبريدج، وشارك في أبحاث عن الارتقاء النفسي "Psychology of meditation"، وفي دراسة الإبداع والحالة العقلية. ومن الكتب الأكثر مبيعاً في إنجلترا كتابه "The Brain Book" ، عام 1979، وظل يطبع بعد ذلك حتى عام 1990.

- 3 - حيث إن الخلايا التي تموت ينتشر وجودها في أماكن مختلفة من المخ، فلاشك أن ذلك يجعل من فقد أمراً غير محدد بوظائف بعينها. وحيث إن هناك درجة من الوفرة أو الغزارة في خلايا الجهاز العصبي، فإن فقد هذا العدد الصغير من الخلايا قد لا يكون له تأثير ملحوظ بالمرة؛ طالما أنه يحدث ببطء، وعلى امتداد الحياة.

وقد يضلل الباحثون باعتقادهم في هذه المقوله، وهي أن القدرات العقلية تضعف وتنهار مع التقدم في العمر؛ لأن هناك اعتبارات لها أهميتها في تمية القدرات العقلية للفرد، منها مراحل التعليم التي مر بها، وقد تكون المهنة من الاعتبارات المهمة أيضًا في هذا الصدد. فإذا كانت الدراسات قد كشفت عن وجود فروق بين الأفراد في القدرة على التعلم تعزي إلى الفروق العمريّة، حيث تكون قدرة الفرد في سن العشرين تفضل قدرة من هم في سن السبعين - فإن هناك الدراسات الطولية التي قام بها علماء النفس، وكشفت عن أن معامل الذكاء للفرد لا يتدهور بالتقدم في العمر، فقد ظل الذكاء ثابتاً حتى سن السبعين، وقد يحدث التدهور بعدها، أو لا يحدث.

كما كشفت الدراسات أيضًا عن أن النقص الملحوظ في القدرات، كان بعد سن الستين غير أن ذلك النقص يخص القدرات العضلية، أما الحالات التي كشفت عن تدهور في معامل الذكاء، فقد ارتبط ذلك بالحالة المرضية للفرد، أو سوء الاستخدام الجسدي، ولم يكن الأمر تدهورًا في المخ، وبناء على هذا فإن روسيل يحدد تدهور المخ بعاملين، هما:

\* نقص الاستخدام.

\* توقع التدهور.

ومن ثم يعزّ روسيل نقص الذاكرة في الكبر إلى عوامل لها طابع نفسي. ولقد استعان روسيل لدعم هذه النظرة بنتائج الأبحاث التي كشفت عن بقاء الذاكرة طويلة المدى لدى الكبار؛ لارتباطها بحدوث مكوناتها في فترة الشباب، حيث الاهتمام والانتباه إلى هذه الأحداث في ذلك الوقت. وهناك الكثير من الأبحاث التي توالت ببحث علاقة القدرات العقلية بالتقدم في العمر، كشفت في بعضها عن تمايز ذاكرة الكبار بخصائص معينة، تفتقد إليها ذاكرة الصغار أو صغار الكبار (وهي الفئة التي تقع من حيث العمر بين الثلاثينيات وحتى نهاية الأربعينيات).

والواقع أن تصميم التجارب لقياس تغيرات الذاكرة مع التقدم في العمر ليس بالأمر الهين، فإن من أكثر الاتجاهات شيوعًا في هذا القياس هو مقارنة المجموعات المستعرضة "Cross-Sectional"، حيث تكون المقارنة بين عدد من المجموعات التي مثل مراحل عمرية متباينة. غير أن ما يسفر عادة عن هذه المقارنة من ضعف أداء الذاكرة لدى الكبار، قد يكون أمراً مضللاً؛ لأن هناك عوامل أخرى قد تشارك في صنع هذه النتيجة، ولم تؤخذ في الاعتبار. فقد يكون بعض هؤلاء الكبار في أولى مراحل

الأمراض التي تصيب المخ، مثل الزهايمر "Alzheimer"، ويمكن تجنب مثل هذا التداخل بتطبيق بعض الاختبارات التي تكشف عن هذا.

فضلاً عن هذا، فإن الأداء السيئ للكبار على اختبارات الذاكرة يمكن أن يكون متغيراً تابعاً لبعض العوامل، مثل تعاطي المواد النفسية، والخمور، أو الجراحات الصغيرة بالمخ، أو الكتاب، أو الظهور المتأخر لمرض السكر. وقد كشفت بعض الدراسات عن تأثير مثل هذه العوامل على الذاكرة. ودراسة هوكس وزملاؤه "Houx" عام 1991، قد أوضحت أهمية هذه العوامل، إذ كان على مجموعتين من الكبار والأصغر عمرًا، تذكر مجموعات من الأرقام، ثم يعرض عليهم بعد ذلك رقم آخر؛ ليحددوا إذا ما كان متضمناً في مجموعة الأرقام السابقة أم لا. وكما هو متوقع فقد وجدت فروق كبيرة بين الكبار والصغار في الوقت الذي استغرق حتى قمت عملية التذكر، إلا أنه بوضع العوامل السابقة في الاعتبار قلت الفجوة إلى حد كبير بينهما.

وكذلك أيضًا يعتبر مستوى التعليم، وعدد السنوات التي أمضاها الفرد في التعليم من العوامل التي لابد منأخذها في الاعتبار؛ لذلك لابد من وضوح هذا المتغير في أبحاث الذاكرة لدى كبار السن.

ومن ثم، أدت المشكلات التي أثيرت من جراء الاستعانة بالمجموعات المستعرضة إلى تجربة الدراسات الطويلة، التي تقوم على تتبع المجموعة الواحدة فترات عمرية متتالية على الظاهرة الواحدة، غير أن هذا التوجه البحثي كان له مشكلاته أيضًا؛ أولها: صعوبة التتبع للمجموعة عبر سنوات طويلة، وثانيها: أن صعوبة استمرار التزام أفراد المجموعة بأداء متطلبات العمل، يسفر عن تناقض أفراد المجموعة على مدى الوقت، وهو الأمر الذي قد يؤدي في نهاية الدراسة أن تكون النتائج هي متوسطات الأفراد الذين حرصوا على الانتظام، وبذلك أصبحوا عينة لا تمثل المجموع العادي. فضلاً عن هذا، فقد يؤدي إعادة التطبيق للأدوات على العينة الواحدة إلى الألفة بالأداة، وينتج عنه تحسن في الأداء؛ مما يؤدي إلى القول بإمكانية تحسن الأداء نتيجة التدريب على الأدوات، ومن ثم إلى زيف النتائج. وقد ثبت ذلك من خلال تجربة قام بها أونز "owens" على عينة بدأت بثلاثة وثلاثة وستين طالبًا من طلاب الجامعة، وانتهت في نهاية الدراسة بعد إحدى عشر عاماً بالعدد 96. فضلاً عن هذا فقد رصد أونز من تحليل النتائج تقدماً كبيراً مع التقدم في العمر، وهو الأمر الذي يكشف عن إمكانية تلوث نتائج الدراسة الطويلة بعامل الألفة بالاختبارات، الذي يؤدي إلى تحسن غير حقيقي في الأداء.

ويضيف ألكس كومفورت "Alex Comfort" مشكلة أخرى خاصة بالتجريب على الكبار، تنصصر في تأثير البعد النفسي على هذه العينة في الدراسات التجريبية، وهي مشكلة الثقة. ففي كتابه عن العمر الجيد "Good Age"، ذكر أنه لاحظ على العينات في مرحلة الكبر "أنهم رغم قدرتهم على التعلم، إلا أنهم يكونون محبطين وقلقيين؛ بسبب الخوف من الفشل، فقد يؤثرون عدم الإجابة على

الإجابة الخطأ، مما يؤدي إلى خفض الأداء؛ إذ إن عدم الثقة بالنفس هو أحد العوامل التي تؤثر على أداء الذاكرة في كبار السن" (Comfort , 1979 , P. 120).

وبناءً على هذه المشكلات المنهجية التي تتعرض لها دراسة الذاكرة في مرحلة الكبر، حظى التوجه نحو دراسة الذاكرة من خلال التماذج المرضية لفقدان الذاكرة بالكثير من القبول، حيث أسفرت عن عدد من النتائج أدى إلى التقدم نحو مزيد من فهم الذاكرة، والتغيرات التي تتعرض لها عبر مراحل العمر المختلفة.

#### **ذاكرة الكبار والأبحاث الحديثة:**

كشف الحديث عن التقدم في السن وعلاقته بالذاكرة، عن تناول الذاكرة - بصورة عامة - دون التفرقة بين أنواعها، ونصيب كل منها من الاعتقاد الشائع عن تدهورها مع التقدم في العمر؛ لهذا فقد حرصنا في عرض نتائج الدراسات الحديثة عن الذاكرة، أن يكون هناك تمييز - قدر الإمكان - بين أنواع الذاكرة التي تناولتها الأبحاث، وما أسفرت عنه من نتائج؛ وذلك بهدف فهم التغيرات التي تطرأ على مكونات الذاكرة في ضوء تقدم العمر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بهدف الاستمرار الصحيح في الأبحاث العلمية، فنحظى القضايا الجديدة بالاهتمام من قبل الباحثين في مجال علم النفس المعرفي، أو علم النفس العصبي المعرف، ودراسات المخ، والوظائف المعرفية لدى الإنسان.

#### **الذاكرة العاملة والتقدم في العمر:**

أما عن الذاكرة العاملة، ذلك النظام الذي يسمح لنا بالتعامل بتلقائية مع المعلومات، والتي يمكن تمييزها باعتبارها نظاماً يساعد على دعم المعلومات المتطلبة لاستمرار العمليات المعرفية - فإن بادل يسوق من نتائج الأبحاث ما يدل على البطء التدريجي في أداء الذاكرة العاملة مع التقدم في العمر. ولقد أشارت نتائج الأبحاث الحديثة أيضاً إلى ما يدعم هذا القول، ففي دراسة تيموثي سالثوس وكاريين سيدليكي "Salthouse & Siedlecki" عام 2006 عن كفاءة القدرة المعرفية لدى الكبار، استعنوا بعينة من ثلاثة وثمانين وعشرين في المرحلة العمرية من 18-93 عاماً، وتم تقسيمهم إلى مجموعات عمرية ثلاثة: من 18-39، ومن 40-59، ثم من 60-93. وقد مثلت طريقة اختيار الطريق Route selection الأداة في هذه الدراسة، وهو أحد الاختبارات المعرفية التي تتطلب قدرة على اتخاذ القرار، وقدرة على التخطيط حتى يصل الفرد إلى الهدف المحدد، بالإضافة إلى كيفية تفادي الحواجز، وزيارة الأماكن المحددة، عن طريق أقصر الطرق وأكثرها مباشرة. وقد استخدم هذا الاختبار في عدد من الأبحاث؛ لاختبار القدرة المعرفية لدى الفرد، وتم تحديدها في: الذكاء، وذاكرة الأحداث وسرعة الإدراك، ثم القدرة اللغوية. وتضمن هذا البحث تحقيق الهدفين التاليين:

\* بحث القدرات المعرفية للفرد في علاقتها بالأداء على أداة اختيار الطريق.

\* بحث الفروق العمرية بين العينات في كفاءة اختيار الطريق.

وقد تم تحديد المتغيرات التابعة في هذا البحث في: الزمن الذي يستغرقه الفرد حتى ينتهي من الأداء، ثم المسافة التي يبعد بها الطريق الذي تم اختياره عن الأماكن التي تم تحديدها في الأداة، وعدد الأخطاء التي يرتكبها أثناء تخطيط الطريق، وكان يتم حساب هذه الأخطاء بحذف أو تكرار المكان. أما الأداة فهي عبارة عن خريطة لحدائق الحيوانات، تتحدد له ستة أماكن في هذه الحديقة لزيارتها، وعليه أن يختار الطريق الأقصر والأكثر كفاءة في أقصر وقت ممكن لتحقيق الهدف. ومن الجدير بالذكر أن هذا العمل لا يتطلب قدرة على تذكر الطرق؛ إذ إن المجال مكشوف للمبحوث تماماً، وعليه أن يختار منه، وهذا له أهميته من حيث إن هذا العمل لا يقيس القدرة على التذكر أو استدعاء المعلومات السابقة.

وقد كشفت النتائج عما يلى:

\* ارتباط الزمن المستغرق وعدد الأخطاء ارتباطاً موجباً بالمرحلة العمرية، حيث تزايد الزمن المستغرق وعدد الأخطاء بالتقدم في العمر، وقد أوضحت النتائج أن هذه العلاقة كانت أكثر وضوحاً لدى العينة من ستين عاماً فأكثر.

\* تزايد المسافة بين الأماكن المحددة لزيارة في الأداء مع التقدم في العمر لدى العينة، وتزايد المسافة يعني عدم كفاءة اختيار الطريق المستخدم، بما يعني تدهور كفاءة اختيار الطريق الأمثل بالتقدم في العمر.

\* ارتبط اختيار الطريق على المتأهله بكل من سرعة الإدراك ومعامل الذكاء، فكان ارتباط المستوى الأعلى من الذكاء باختيار الطريق الأفضل لزيارة الأماكن المقترنة.

\* لم تظهر ارتباطات بين عدد الأخطاء على اختيار الطريق، وبين القدرات المعرفية التي تم قياسها.

إذن معنى ذلك أننا نصبح أكثر بطئاً كلما تقدمنا في العمر، فإذا كان معدل تدفق المعلومات لا يخضع لقدرتنا على التحكم، فنحن نكون أكثر ميلاً إلى عمل عدد من الأخطاء أكثر، أما إذا كان العمل لا يخضع لعامل السرعة في الأداء، فإن الأداء المتمهل يؤدي إلى خفض عدد الأخطاء التي يمكن الوقوع فيها.

ولم تختلف نتائج هذه الدراسة عن دراسة فيليب آلان التي قام بها في فرنسا عام 2005، مستخدماً خريطة حديقة الحيوان لاختبار التوظيف التنفيذي للذاكرة العاملة، من خلال القدرة على التخطيط أيضاً، غير أن تلك التجربة قد تضمنت اختبار هذه القدرة لدى الأفراد على مستويين:

- المستوي الأول: وهو المستوى الأكثر صعوبة، ويطلب فيه أن يحدد الفرد رؤيته للنظام الذي سيتبعه لزيارة الأماكن المحددة (formulation level).

- المستوي الثاني: وهو المستوى الأقل صعوبة، ويطلب فيه إلى الفرد أن يتبع طريقاً داخل الخريطة لكي يصل إلى الأماكن المحددة (execution level).

وقد تضمنت العينة ثمانى عشر من كبار السن الأصحاء، بمتوسط عمر ثمانين عاماً، وستة عشر في مرحلة الرشد بمتوسط عمر ثمان وعشرين عاماً، من الأصحاء أيضاً.

وقد أسفرت النتائج عن تغير قدرة كبار السن في المستوى الأول عنه في المستوى الثاني، كما أن نتائج كبار السن على المستويين الأول والثاني (الشكلى والتنفيذى)، كانت أقل كثيراً بالمقارنة بالأصغر سناً.

وخلال هذه النتائج هي أن التقدم في العمر يعني مواجهة بعض المشكلات على مستوى الإستراتيجيات المنطقية التي تسمح بعمل التخطيط المسبق لخطوة ما، رغم وجود القدرة على تنفيذ بعض الخطط المركبة المحددة سلفاً.

وفي دراسة حديثة عن النظام البصري وكفاءاته، قام آرثر ووالتر Arthur & Walter, "، باختبار استخدام تكوين الخلية في البحث البصري، أو وجود العلامات الواضحة على كفاءة الأداء لدى عينات من الأعمار المختلفة، وتم اختيار عينة من كبار السن وأخرى من متوسطي العمر، وقد أسفرت التجربة عن ارتباط الأداء الأفضل لدى العينتين بوجود التحديد الخارجي للشكل، أو في وجود العلامات الواضحة، غير أن كبار السن قد كشفوا عن استفادة أفضل من العلامات الواضحة.

مما يعني أن الأداء الجيد للذاكرة في المراحل المتقدمة من العمر، قد يكون في حاجة إلى معينات أخرى، تعمق من عملية الانتباه، وتساعد على كفاءة عملية التمييز للمعلومات داخل المخ.

ولاشك أن التحكم في أداء الذاكرة العاملة والأنظمة التي تتكون منها، يعود - كما سبق وأوضحنا - إلى النظام التنفيذي الذي يقوم بعملية الضبط لهذه الأنظمة، ومن ثم يؤثر على أداء الذاكرة العاملة. وقد أجريت الكثير من التجارب على هذا النظام التنفيذي؛ للتعرف على العوامل التي تؤثر على قدرته في الضبط والتحكم. ومن الأمثلة على هذه التجارب ما اختص منها بدراسة تأثير ازدوج المهام، التي يطلب من الفرد أداؤها، وأثر هذا على الأداء. وقد اختلفت نتائج هذه التجارب فيما يخص التقدم في العمر، فعلى حين أثبت البعض أن تدهور الأداء على المهام المزدوجة قد ارتبط بالتقدم في العمر، أثبت البعض الآخر عكس ذلك. وقد طرح هذا التناقض في النتائج عدداً من القضايا التي ترتبط بالأنظمة المعاونة في الذاكرة العاملة، وهي النظام السمعي والنظام البصري،

ومدى التداخل الذي يمكن أن تحدثه المهام المستخدمة في هذه التجارب. كذلك أيًضاً ما يخص نظام توقيت وقوع الأحداث الخاصة بمهام، والفرق الزمني بين نوعي المهام التي تضمنها التجارب.

وفي دراستهما عن تأثير الأداء المزدوج على النظام التنفيذي في الذاكرة العاملة لكبار السن وعلاقته بالفروق العمرية، قام هولتزر وراكين (Holtzer & Raktinin, 2004)، بالاستعانة بعدد من كبار السن (ستة عشر فرداً) بين الخامسة والستين والخامسة والثمانين، وستة عشر فرداً آخرين بين تسعه عشر عاماً وثلاثين عاماً، من الذكور والإإناث، بعد الاطمئنان طبياً إلى وضعهم الصحي؛ ذلك لما للمرض من تأثير على الجوانب المعرفية للفرد، وتضمنت المهام عملين؛ أحدهما سمعي، والآخر بصري. وتحددت القضايا البحثية هنا فيما يلي:

\* بحث العلاقة بين نوعية المهام المستخدمة في التجربة، وبين تأثير السن على الأداء المزدوج. وقد كشفت النتائج عن تأثير التقدم في العمر على أداء النظام التنفيذي في الذاكرة العاملة، كما بدا في انخفاض الأداء لدى عينة كبار السن، بمقارنتهم بالعينة الأصغر سنًا. هذا على الرغم من حرص الباحثين على اختيار مهتمين مختلفتين، يخاطب كل منهما نظاماً مختلفاً من أنظمة الذاكرة العاملة.

\* أما القضية الثانية، فهي تخص التداخل الزمني في عرض المثيرات على أفراد العينة. ولقد كشفت نتائج زمن الرجع، ودرجات الدقة عن حصول كبار السن على تقديرات تناسب عكسياً مع تزايد الفترة الزمنية لعرض المثيرات، أي أن التداخل الشديد في عرض المثيرات كان أكثر تأثيراً بالسلب على أداء كبار السن، وتعنى هذه النتائج أنه بما أن الاحتفاظ بالمعلومات يبدو مقاوِماً للتعارض وتأثيره السلبي، فإن زيادة التعارض في عملية الترميز وعملية الاسترجاع تمثل عبئاً على النظام التنفيذي في الذاكرة العاملة، وصعوبة أو سهولة إدارة هذا الأمر يبدو أنها ترتبط بالمرحلة العمرية للفرد.

\* أما القضية الثالثة، فهي تخص حساسية عملية الترميز والاسترجاع لعامل التداخل في السن المتقدم. وقد كشفت النتائج أن عملية الترميز والاسترجاع تتطلب اهتماماً أكبر من النظام التنفيذي في الذاكرة العاملة، ومن ثم أدى التداخل لدى عينة كبار السن إلى أخطاء في عملية الاسترجاع تفوق أخطاء العينة صغيرة السن. وخلاصة الدراسة السابقة تشير إلى أن التقدم في العمر يؤثر - على نحو أو آخر - على أداء الذاكرة العاملة، حيث يزداد زمن الرجع حتى تحدث الاستجابة، وتزيد الحساسية للتداخل الزمني في عرض المثيرات، وللتداخل في نوعية هذه المثيرات.

لكن ماذا عمّا هو إيجابي وفي صالح التقدم في العمر، فيما يخص الذاكرة العاملة؟ في تجربة قام بها سالثوس أيضًا، للمقارنة بين مجموعتين من الأفراد الذين يقومون بالكتابة على الكمبيوتر، إحداهما تمثل أواسط العمر، والأخرى تمثل العمر الأصغر، وجدت فروق واضحة بين

المجموعتين على سرعة المعلومات، وعلى زمن رد الفعل، إلا أنه لم توجد فروق بينهما على الزمن المستغرق في الكتابة، أي أن سرعة الكتابة لم تفرق بين الأكبر عمراً وبين الأصغر. ولقد فسر الباحث هذه النتيجة بأن الأكبر سنًا قد استطاع الإفادة من خبرته السابقة في تقدير العمل والزمن اللازم، أي أنهم قد أفادوا من قدرتهم التنبؤية، مما أدى إلى هذا الأداء.

وبالنسبة لمكونات الذاكرة العاملة - كما عرضنا لها في الفصول السابقة - فإن النظام السمعي كما تكشف التجارب، يظل يؤدي أداء جيداً مع التقدم في العمر. أما بالنسبة للنظام البصري المكانى فإنه الأكثر عرضة للاضطراب مع التقدم في العمر، سواء تم قياسه من خلال التعامل مع الصور المكانية، أو من خلال أداءات أكثر واقعية. فقد قام رابيت "Rabitt" بدراسة على عينتين عمريتين مختلفتين (الكبار في مقابل الأصغر عمراً)، يقيمان منذ ثلاثين عاماً في المنطقة السكنية، وطلب منهم من خلال نزهة عقلية - حيث إنهم يعرفون المنطقة جيداً - في أحد شوارع المنطقة، أن يصفوا المحلات التي توجد في ذلك الشارع. وكان أداء الكبار أقل على هذا العمل حيث كان التذكر هنا حرّاً تماماً، لكن عندما وجهت إليهم أسئلة محددة عن وجود مكان بعينه (مثلاً لبيع المخبوzات)، كانوا أكثر كفاءة في الإجابة عن الأسئلة. وعندما أعيد إجراء التجربة في مدينة أخرى على عينة أخرى، وذلك مع استخدام الشوارع الأكثر تعقيداً، كشف الكبار عن أداء أكثر سوءاً من نتائج التجربة السابقة.

وفي تجربة ثالثة على عينتين من الكبار أيضاً ومن الصغار، قام بها آلن وكيرازك (Allen & Kirasic, 1985) للحصول على أشياء من مستودع كبير للأغذية. وقد كشفت النتائج أنه في حالة التعود على هذا المكان، لم توجد فروق بين المجموعتين، أما في حالة أن يكون المستودع جديداً على العينتين، فإن أداء عينة صغار السن كان أفضل من أداء الكبار.

ومن المهام التي تتضمن كفاءة النظام التنفيذي في الذاكرة العاملة الشطرنج، فقد قارن كارنس (Charness, 1985) بين مجموعتين عمريتين مختلفتين من أصحاب هذه المهارة، وقد خلص كارنيس إلى أنه حيث يميل الصغار في العمر إلى الاهتمام بمدى واسع من التحركات، كان الكبار أكثر ميلاً إلى تحليل كل حركة تحليلًا جيداً قبل تنفيذها، مما يعني وجود الفروق بين الكبار والصغار في الوقت المستغرق لأداء الحركة الواحدة.

كذلك تعد اللغة من المهام التي تكشف عن كفاءة النظام التنفيذي في الذاكرة العاملة، فقد قامت سوزان كيمبر "Susan Kemper" - من جامعة كانساس - بعده من التجارب على العلاقة بين العمر وبين اللغة. وقد استطاعت كيمبر أن تقوم بدراسة طولية على مدى سبعين عاماً لبعض أفراد عينتها، فقد طلت إلى أفراد العينة الكتابة عن مذكراتهم الشخصية في مراحل مختلفة من العمر، ثم قامت بالمقارنة بين أنواع الكتابات التي حصلت عليها. وأسفرت المقارنات عن اختلاف استخدام الضمائر في الإشارة إلى الشخصيات مع التقدم في العمر، حيث يقل استخدام في الكبر عنه في

مراحل العمر الأصغر، وفي حالة استخدامها تكون الإشارة غير واضحة. كذلك لاحظت كيمبر أن الاختلاف أيضًا كان في تكوين الجمل، فمع الكبر يأق الخبر الذي يكمل معنى الجملة في نهاية الجملة، وليس في بدايتها. على سبيل المثال: التعليم من حق كل فرد أن يحصل عليه، بينما القول الأكثر صحة هو القول المباشر: من حق كل فرد أن يحصل على التعليم. كذلك أيضًا خلصت كيمبر من نتائجها إلى أن مع التقدم في العمر كانت الكتابات عن الأحداث الماضية، بينما في المراحل العمرية الأصغر كانت الكتابات عن الأحداث اليومية. فضلاً عن هذا، فقد استعانت كيمبر بعده من متخصصي اللغة (في الكتابة الإنسانية)؛ وذلك لتقييم الكتابات التي حصلت عليها في المراحل العمرية الأصغر، والمراحل الحالية (مرحلة الكبر)، وقد كشف التقييم أن كتابات الكبار كانت تتضمن تنظيماً واهتمامًا.

ورغم هذه الفروق، والتي لم تدل حرقها - لدى الباحثة - من التفسير في ضوء تغيرات الذاكرة العاملة لدى الفرد، إلا أنها تلقى الضوء على أن ثمة تغيرات في هذه القدرات، لا يهم مقارنتها بالمراحل العمرية الأصغر، بقدر ما يهم دراسة هذه التغيرات لمعرفة خصائصها، بما يمكن أن يعين على فهم مرحلة الكبر وما تميز به، فقد تؤدي المقارنات بين المراحل العمرية إلى عدم معرفة خصائص المرحلة، أو ما تميز به من قدرات، بحيث يمكن الإفادة من ذلك في دفع كبار السن إلى تنمية ما لديهم من إمكانات، وهو الهدف الذي تصبو إليه غالبية المجتمعات اليوم، كما يمثل أحد التوجهات الحديثة في علم النفس الإيجابي.

### الذاكرة طولية المدى والتقدم في العمر:

#### ١- ذاكرة الأحداث ونتائج الدراسات:

في دراسات حديثة عن التقدم في العمر وذاكرة الأحداث الشخصية، قام بها سانت جاكوبس وبريان ليفين (St.Jacques & Brian Levin, 2007) عن ذاكرة الكبار عن الأحداث المشحونة انفعاليًا والأحداث المحايدة - تم وضع الدرجة على متغيرين، هما: كم الأحداث، ثم على التفاصيل الخاصة بكل حدث. واستخدم الباحثان عينتين من صغار الكبار (في المراحل العمرية بين تسعه وثلاثين عامًا وبين خمسين عامًا)، ومن الكبار (في المراحل العمرية بين الستينيات وبين نهاية السبعينيات)، وقد كشفت النتائج عن تميز فئة صغار الكبار بعدد الأحداث التي تذكروها، غير أن فئة الكبار قد تميزت في كم التفاصيل التي تخص المعنى في كل حدث.

ولأن ذاكرة الأحداث هي من أكثر أنواع الذاكرة حساسية للتقدم في العمر، فقد كشفت العديد من الأبحاث التي عمدت إلى المقارنة بين العينات المستعرضة، عن وجود فروق بين كبار السن، وبين من هم في المراحل العمرية الأصغر، في كم المعلومات التي يتذكراها كل منهم. هذا بينما أظهرت الدراسات الطويلة تناقضًا في النتائج، ففي أحدث الدراسات في هذا الصدد 2007، في

مقارنة على دراستين طوليتين عن ذاكرة الأحداث في مرحلة الكبر، قام بإحدهما روجر ديكسون "Roger Dixon" وزملاوه في كندا على عينة من أربععمائة فرد، تم تتبعهم من سن 54 وحتى سن 94، بينما قام بالدراسة الثانية آن ويلين "Ake Wahlyin" في السويد على عينة تكونت من مائة وثمان وستين فرداً، تم تتبعهم أيضاً من سن 54 وحتى سن 94. والدراسة التتبعتية تم تحديدها إجرائياً في مقابلة هذه العينة على مدار الفترة ثلاثة مرات فقط؛ لعمل القياسات العقلية المختلفة لمستوى الذكاء، وكفاءة الذاكرة، وبعض القدرات العقلية، مثل القدرة على التصنيف مثلًا.

وقد كشفت النتائج عملياً:

- 1 تغير ذاكرة الكبار تغيراً تدريجياً، سواء بين المتعلمين تعليماً عالياً أو متوسطاً، وهو ما يدعم النظرية العامة عن الكبر، بأن متوسط الذاكرة يقل قليلاً، وبالتدريج.
- 2 لم تكشف النتائج على اختبارات القدرات المعرفية عن تراجع هذه القدرات بالتقدم في العمر.
- 3 ورغم أن الفروق الجنسية لم تكن في الاعتبار منذ البداية، إلا أن النتائج قد كشفت عن تدهور ذاكرة الأحداث لدى الرجال عن النساء، وهو ما أشار إليه كوف "Coffy" وزملاؤه من قبل عام 1998. وعلى المستوى المعرفى، فقد دعمت نتائج الدراسة وجود هذه الفروق أيضًا.
- 4 لم تختلف القدرة على التصنيف باختلاف المراحل العمرية.

ولقد أرجع الباحثون هذه الفروق ليس إلى التقدم في العمر في ذاته، ولكن إلى عملية التمييز "encoding"، بينما في دراسات أخرى تم عزو هذه الفروق إلى التغير في عملية التمييز والاسترجاع معاً.

ومن اللافت للنظر في هذه الأبحاث التفريق بين القدرات المعرفية لدى الكبار وبين القدرات العقلية. فحيث أشارت النتائج إلى عدم وجود ما يشير إلى تدهور القدرات العقلية كالذكاء مثلاً؛ إذ ظل المعدل كما هو حتى سن السبعين - نجد أن هناك بعض المؤشرات التي تدل على أن الأداء المعرفى قد تغير لدى الكبار.

ويقدم سانت جاكس وليفين "ST.Jacques & Levine" بعدها آخر لابد من وضعه في الاعتبار عند بحث الذاكرة الشخصية، ألا وهو الجانب الانفعالي، فقد قاما بدراسة الفروق العمرية بين عينة من كبار السن وأخرى من متوسطي العمر على القدرة على استرجاع الذكريات الشخصية المشحونة انفعالياً، وغيرها من الأحداث المحايدة. ولقد تفوقت العينة الأصغر من حيث عدد الأحداث

الشخصية التي تذكرها، بمقارنة بعينة الكبار سنًا. غير أن عينة الكبار كان تذكرها لتفاصيل ذات المعنى، يفوق تذكر العينة الصغرى لها. ومن الجدير بالذكر أن كلا العينتين كان تذكرها للأحداث المشحونة انتفعاليًا أفضل من تذكر الأحداث المحايضة. وقد تشير هذه النتائج إلى أن الفروق العمرية في ذاكرة الأحداث المشحونة انتفعاليًا قد تعكس نمذجةً أكثر عمومية عن التغيرات المرتبطة بالعمر في الذاكرة، وباضطرابات التذكر لمكونات الأحداث، ST. البقاء النسبي لجانب المعنى في ذاكرة الأحداث الشخصية لدى الكبار، عند مقارنتهم بعينات الأصغر سنًا (Jacques, & Levine, 2007).

وفي دراسة أخرى، قامت بها سوزن بلواز ومارشيا جونسون "Bloise & Johnson" لدراسة الفروق النوعية بين الذكور والإثنيات على تذكر الأحداث المشحونة بالمعنى، وذلك باستخدام نص مكتوب، يتضمن أحديًا انتفعالي، وأخرى محايضة؛ وذلك بهدف اختبار متغير النوع (جنس المبحوث) والمرحلة العمرية، في علاقتها بتذكر الأحداث. واستعانت لذلك بعينة من الجنسين تضم مرحلتين عمريتين (الكبار في مقابل متوسطي العمر)، وطلب من العينة قراءة النص المكتوب أولاً، ثم كتابة مضمونها لنصيحة يقدموها للشخصيات في هذا النص. وقد كشفت النتائج عن تميز النساء بتذكر المعلومات الانفعالية والمحايضة بدرجة تفوق تذكر الرجال لها، على الرغم من اختلاف المرحلة العمرية بين أفراد العينة (Bloise, Suzanne & Johnson, 2007).

وفي مقابل هذه النظرة التي ترفض تماماً الربط بين التقدم في العمر وبين تدهور قدرات المخ، يقدم بادلي (1) رؤيته التي يرى انتفاءها إلى التوجه الإيجابي في تفسير العلاقة بين التقدم في العمر والذاكرة. وقد حرص بادلي على الموضوعية في عرض رؤيته، حيث عمد إلى أن يسوق من الأدلة ما هو إيجابي وما هو سلبي؛ حتى يضع الحقائق أمام الباحث كاملة. فالتقدم في العمر لا يعني تدهور كل شيء؛ إذ إن هناك ما يتدهور مع التقدم في العمر، غير أن هناك ما يتحسن أيضًا مع التقدم في العمر.

ففي تناوله للعلاقة بين العمليات المعرفية والتقدم في العمر، يضع بادلي مسلمة واضحة لأبد من أخذها في الاعتبار، وهي أن العمليات المعرفية تقل تدريجيًا مع التقدم في العمر، وإذا كانت الذاكرة من أكثر القدرات توضيحاً لهذه العلاقة، إلا أنها ليست وحدها. ويستشهد بادلي بنتائج البحث الذي قام به وارنر سكاى (Warner Schaie, 1989)، الذي قام ببحث القدرات المعرفية لدى عينة من الأفراد في مدينة سياتل على مدى فترة من الزمن، وتضمنت الاختبارات قياس الاستدلال، والقدرة

(1) آلان بادلي هو أحد المتخصصين في دراسة القدرات العقلية للإنسان، خاصة الذاكرة التي أصدر فيها أكثر من كتاب، آخرها كتابه عن ذاكرة الأحداث "Episodic Memory" عام 2005. ثم عن : أسس الذاكرة الإنسانية، 2013.

اللفظية والبصرية. وقد كشفت النتائج عن وجود تدهور متدرج، يبدأ مع العقد السادس من العمر، ولا يتتسارع هذا التدهور حتى العقد الثامن من العمر. ولاشك أن نتائج هذه الدراسة تعتمد على المتوسطات، وليس على الأداء الفردي. ويفترض بادلي أن الذكاء السائل "Fluid Intelligence" - الذي يعتمد على التعامل الحالى مع المعلومات أكثر من اعتماده على المعرفة السابقة - هو الذى يتعرض للتدهور، أما الذكاء المتبلور "Crystallised Intelligence" - الذى يعتمد على المعرفة المتراسمة - فهو يظل ثابتاً، وقد يتحسن. وقد خلص إلى هذه النتيجة من خلال التجارب التى أجريت على الكبار للتفرق بين نوعية الكلمات، أما عن سرعة الأداء المعرف فقد أثبتت الأبحاث أنه مع التقدم في العمر، فإن قدرة الجهاز العصبى على استقبال المعلومة ونقلها تصبح أقل، ومن ثم تقل القدرة على سرعة الاستجابة، وليس على صحتها أو كفاءتها.

من الملاحظ على الأبحاث التى تعرض في هذا الفصل، أو التى عرضنا لها سابقاً، تأثيرها إلى حد كبير بالتأصيل النظري للذاكرة، والذى يقسمها إلى ذاكرة طويلة المدى في مقابل الذاكرة قصيرة المدى، وعلاقة كل منهما بالتقدم في العمر. وقد كشفت غالبية الدراسات عن تأثير الذاكرة قصيرة المدى، كما تقادس بدى ذاكرة الأرقام، عن عدم التدهور مع التقدم في العمر. وقد ثبتت هذه النتائج من خلال الأبحاث على الذاكرة الرقمية على مدى عدد من السنوات، (Kausler, 1991)، غير أن النتائج على اختبارات أخرى قد كشفت عن نتائج مختلفة. فقد أجرى وينجفيلد "Wingfield" تجربته للمقارنة بين كبار السن وبين الأصغر عمرًا، على ثلاثة أنواع من الأدوات لقياس الذاكرة قصيرة المدى: مدى تذكر الأرقام، ومدى تذكر الكلمات، ثم مدى تذكر الكلمات مع ما طرحوه من معنى. وقد أسفرت التجربة عن وجود فروق ضئيلة بين العينتين على ذاكرة الأرقام وذاكرة الكلمات. أما في تذكر الكلمات التي صاحبها تذكر المعنى، فقد كان أداء عينة الكبار منخفضاً بدرجة كبيرة عن أداء عينة الأصغر سنًا.

وفي بحث العلاقة بين التذكر وبين التقدم في العمر، قام بادلى وزملاؤه بتطبيق عدد من الاختبارات للتذكر والتعرف على عينة تمثل مدى واسعاً من العمر (من 16 عاماً وحتى ثمانين عاماً)، مقسمة إلى خمس فئات عمرية (من 16-31، ومن 32-47، ومن 48-63، ومن 64-79 ثم من 80 فأكثر). وقد أسفرت النتائج جميعها عن تدهور في قدرت التذكر والتعرف مع التقدم في العمر، إلا أن التذكر كان أكثر تأثراً من القدرة على التعرف. وهناك محاولات أخرى على قياس التذكر من خلال التعرف، كشفت عن عدم وجود هذا التدهور. ففي تجربة كرييك وماكડود (Craik & McDowd, 1987)، لمعرفة الفروق في القدرة على التعرف في علاقتها بالمرحلة العمرية، وباستخدام اختبار للتعرف على درجة من الصعوبة، حيث كان الفرد يتعلم قائمة من الكلمات، ثم تعرض عليه هذه الكلمات ضمن عدد آخر من الكلمات التي لم يسبق له أن تعلمها في القائمة، وعليه أن يحدد إذا

ما كانت هذه الكلمة قد تضمنتها القائمة أم لا، وقد كشفت النتائج عن عدم وجود فروق تعزى إلى المراحل العمرية، أي أن الأداء على اختبار التعرف لم يتأثر بالمرحلة العمرية للفرد.

وفي تجربة أكثر تعقيداً عن القدرة على التعرف وعلاقتها بالتقدم في السن، قام كوسنر بتصميم تجربة الأداء بعنوان "MIRM" (Multiple item recognition memory)، ومضمونها كالتالي: أن يعرض على المبحوث عدد من مجموعات الكلمات، حيث تكون كلمة واحدة في كل مجموعة هي محور الأداء التالي للفرد، بينما بقية الكلمات لا ترتبط بهذه الكلمة مثلاً: (مجموعة الكلمات: بيغاء ، منديل، جهاز، مفك) تعرض عليه مجموعة الكلمات هذه على هذا النحو، وبعد عرض بقية مجموعات الكلمات في القائمة. وفي قياس التذكر يعرض على المبحوث مجموعات الكلمات السابقة، بدون الكلمة المستهدفة (وهي بيغاء)، وعلى الفرد تذكر هذه الكلمة. وبقياس عدد الأخطاء، كانت أخطاء العينة الأصغر سناً أقل كثيراً من العينة الأكبر سناً.

ولفهم هذا التناقض في النتائج، لابد من مناقشتها في ضوء أدلة القياس، وليس بعيداً عنها. ففي التجربة الأولى لكريك وماكدود، كانت الأداة تتطلب الإجابة بنعم أو لا على الكلمة المعروضة، أما في تجربة كوسنر فقد كانت التجربة تتطلب استدعاء الكلمة المطلوبة، والتي سبق أن تعرف عليها المبحوث، من خلال سياق يعرض غيرها من الكلمات، الأمر الذي يجعل للألفة بالكلمة دوراً في تذكرها بسهولة عن غيرها من الكلمات الجديدة التي لم يرها المبحوث قبل ذلك في القائمة. أما في تجربة "MIRM"، فقد كان الأداء أكثر تعقيداً؛ حيث كان يعرض على المبحوث كل من الكلمات المقصودة والكلمات المشتقة معاً، ومعنى ذلك أن عامل الألفة هنا قد حدث لهما معاً، الأمر الذي يجعل من الصعوبة استدعاء الكلمة المعنية فقط. وللتتأكد من تأثير عامل الألفة على قدرة التعرف لدى كبار السن، قام باركن ووالتر (1992) بدراسة ذلك، وكشفت النتائج عن اعتماد قدرة التذكر لدى كبار السن باختبار التعرف على فاعلية الألفة بالمشير؛ ولذلك يمكن وضع عامل الألفة "Familiarity" من العوامل التي تؤدي إلى التأثير على قدرة التعرف لدى الكبار، لكنه أمر ما زال في حاجة إلى التجارب، التي توضح إلى أي مدى يمكن أن نفيد من هذا في تحسين ذاكرة الكبار.

ولقد قام بالتس "Baltes" عام 1992 بعدد من التجارب أيضاً للمقارنة بين الأصغر سناً والأكبر سناً في القدرة على التذكر، بعد تعرضهم لخبرة تعلم عدد من الإستراتيجيات المساعدة على التذكر. وقد أسفرت النتائج عن تحسن نتائج المبحوثين من الصغار والكبار، كما كان أداء الكبار أفضل من أداء الصغار الذين لم يتعرضوا لخبرة التدريب، ومعنى ذلك أن التدريب يعين الكبار على الأداء الأفضل.

وقد أضاف نيلسون (Nilson, 1994) عدداً من المحاولات الأخرى لمقارنة قدرة التذكر بين الكبار في مقابل الأصغر عمرًا، غير أن هذه المحاولات قد تميزت بتفاعل المبحوث مع المادة المراد

تعلمها. فقد استعان بقوائم الكلمات، على أن يتم التعامل مع الكلمة تعاملاً محسوساً، أي أن الكلمة القلم تعنى أن يمسك الفرد بالقلم ويكتب به، وهكذا جمبع كلمات القائمة، وهذه الطريقة هي ما تسمى "Self-performed task". ولقد أسفرت هذه الإستراتيجية في التعلم عن عدم وجود فروق بين المبحوثين في درجة التذكر تبعاً للاختلاف في المرحلة العمرية. ولقد فسر نيلسون هذا التحسن بأنه نوع خاص من ترميز الذاكرة الذي يتم بصورة آلية، غير أنه عاد مع مزيد من الأبحاث، ففسره بأن المعلومات وفق هذه الإستراتيجية يتم ترميزها في الذاكرة ثلاثة مرات؛ مرة عن طريق الرؤية البصرية، وأخرى عن طريق التعلم اللفظي، أما آخرها فعن طريق الفعل ذاته، وهكذا فإنه يكون هناك ثراء في ارتباط المعلومات بأكثر من مصدر لها، لذلك فهي تصلح لأن تكون إستراتيجية لتنمية الذاكرة ورفع كفاءتها، لكنها حتى الآن لم يتم الإفاده منها، وتحتاج إلى الكثير من الأبحاث؛ للتأكد من ذلك، وتحديد المتغيرات المصاحبة.

## 2- ذاكرة المعانى في علاقتها بالتقدم في العمر:

إن ذاكرة الأحداث وذاكرة المعانى، هما النظائر المرتبطان بصفة خاصة في الذاكرة، فمكونات هذين النظائر يتم تمثيلهما وحفظهما من خلال شبكة عصبية واسعة، خاصة في المناطق شبه القشرية في المخ، وإذا كانت ذاكرة الأحداث هي ذاكرة الأحداث الشخصية أو هي تذكر ما حدث أين ومتى - فإن ذاكرة المعانى هي ذاكرة الحقائق العامة عن العالم، ويعزى تعريف ذاكرة المعانى إلى وعي الفرد وتفكيره عن وجود العالم والأشياء والأحداث، وغيرها باستقلال عن الزمن، أو الوعى الذاق الذى يخص الفرد.

فعلى سبيل المثال لعبة الكرة: بينما تزودنا ذاكرة الأحداث بوقت الحدث ومكانه، ومشاعرنا تجاهه وقيئه - فإن ذاكرة المعانى تتعامل مع هذه اللعبة بمعرفة قواعدها وتذكرها؛ ومن ثم فذاكرة الأحداث هي الموجه أو المرشد لذاكرة المعانى، فإذا راك وجوه الشخصيات أو الوجوه المرتبطة بالأحداث الشهيرة قد تتضمن كلاً من ذاكرة الأحداث وذاكرة المعانى معاً. وقد أكدت دراسات الباحثين على الحالات المختلفة من المرضى بفقدان الذاكرة، إمكانية حدوث فقدان لذاكرة المعانى مع الاحتفاظ بذاكرة الأحداث. وقد أكدت دراسات الباحثين على هذه النتائج، ففي دراسة جروسى وزملائه، كشفت غالبية الأبحاث على ذاكرة الأحداث عن حدوث اضطراب في هذا النوع من الذاكرة، يعزى إلى التقدم في السن، غير أن ذلك لم يكن هو ما كشفت عنه الدراسات على ذاكرة المعانى لدى فاقدى الذاكرة. ومع ذلك يظل التناقض بين النتائج مائلاً، والذي ارتبط إلى حد كبير بطبيعة الأداء المطلوب في التجربة، فكلما ارتبط المطلوب في التجربة بالمعرفة السابقة للمبحوث وخبرته المترادفة منها، كلما كان أداء الفرد متميزاً، وقد يفوق الأصغر سنًا، كما ثبت ذلك من تجارب سالثوس (Salthouse, 1982)، لكن الاعتماد على نتائج التجارب الخاصة بالكلمات فقط قد يكون مضللاً؛ إذ إنه من غير المنطقى ألا تكون حصيلة المتقدم في العمر من الكلمات ذات وزن، وقد تفوق حصيلة الأصغر سنًا. لذلك فقد كانت هناك مكونات أخرى للتجارب لاختبار جوانب ذاكرة

المعاني لدى الفرد، ففي تجربة قام بها الباحثون عام 1974، للمقارنة بين عينتين مختلفتين في المرحلة العمرية (كبار السن في مقابل الأصغر سنًا) على حصيلة المعرفة بالكلمات، لم تكن هناك فروق بين المجموعتين تعزى إلى المرحلة العمرية، إلا أن المجموعة الأصغر سنًا قد حصلت على درجات أفضل في نوعية التعريفات التي وضعتها للكلمات. وفي دراسة قام بها بولز وبوبون ("Bowles & poon") عام 1985، وجد أن عينة صغار السن قد حققت نتائج أفضل على اختبار الكلمات العكسي، الذي يتطلب إنتاج الكلمة التي تقابل التعريف. ففي هذه التجربة، كان يطلب من المبحوث أن يذكر الكلمة التي تكافئ التعريف الذي يعرض عليه (مثلاً: إذا كانت الكلمة المطلوبة هي الحيوان وحيد القرن، كان التعريف الذي يقدم له هو: حيوان بقرن فوق رأسه)، وكانت تقدم له مؤشرات تساعدته على التعرف على الحيوان المطلوب. وقد اختلفت هذه المؤشرات، فكانت عبارة عن كلمة على وزن الكلمة المطلوبة، أو كلمة تماثلها في المعنى. وقد كشفت النتائج عن أداء أفضل لعينة الكبار التي استعانت بالكلمات التي تمثل الكلمة المطلوبة من حيث الشكل، من أداء العينة التي استعانت بالكلمات التي تمثلها في المعنى.

وفي تجربة قام بها هوارد (Howard, 1986)، لمعرفة قدرة كبار السن على ما أسماه هو بالترميز المترابط "associative priming"، حيث يعرض على المبحوث كلمة قد تكون اسمًا لشيء أو لكتائن، ثم يتبعها عرض مجموعة من الحروف التي يمكن أن تكون في مجموعةها كلمة ذات معنى أو بدون معنى، أو تكون مرتبطة بالكلمة التي عرضت قبلها أو لا تكون مرتبطة. وعلى المبحوث أن يقرر بسرعة إذا ما كانت الحروف تكون كلمة ذات معنى، أم لا. وقد وجد هوارد أن العينة الأصغر عمرًا استطاعت أن تكشف عن تأثير الترميز "priming"، حتى مع تقليص الوقت بين عرض الكلمة وبين عرض الحروف التي تليها إلى أقل من ربع الثانية. أما عينة الكبار فقد كان أداؤها جيداً، لكن مع زيادة الوقت بين عرض الكلمة وعرض الحروف إلى نصف ثانية أو أكثر؛ حيث كان كبار السن يدركون الارتباطات مثل صغار السن، غير أنهم كانوا يحتاجون إلى وقت أطول.

وعن الذاكرة الضمنية "implicit memory"، فقد أشرنا سابقاً إلى أن تعلم المهارات الحركية يظل في متناول الفرد حتى مع التقدم في العمر. ففي تجربة سالتوس التي أشرنا إليها عن سرعة الطياعة على الآلة 1984، والمقارنة بين المتقدمين في العمر وبين غيرهم من الأعمار، لم تكشف النتائج عن فروق في متوسط الزمن المستغرق، لكن ذلك لا يعني أنه ليس هناك بظاء في أداء عينة كبار السن؛ إذ كشفت التجارب عن تفاوت زمن الرجع بين كبار السن، وبين غيرهم من العينات العمرية.

وفي الأبحاث الحديثة، قام روسو وباركن (Russo & Parkin, 1993) بتجربة للمقارنة على الذاكرة الضمنية في ضوء الأعمار المختلفة، باستخدام نموذج تكميل الصور، إذ يرى الفرد أولاً تابع متدرج للصور، حتى يصل الفرد إلى تكوين فكرة الموضوع الذي تطرحه الصور، وبعد مرور أربع وعشرين ساعة، يعاود الفرد رؤية الصور السابقة مع صور أخرى جديدة. وكما هو متوقع، كشفت النتائج عن قدرة في تحديد الصور الأصلية لدى صغار السن بدرجة أكبر من كبار السن، بما يعني أن الذاكرة الضمنية لدى الكبار أقل أداء.

**ماذا تعنى هذه النتائج؟**

يمكن وضع خلاصة هذه الدراسات جمِيعاً عن الذاكرة لدى الكبار كما يلى:

\* أن الأداء على اختبارات الذاكرة قصيرة المدى لا يتأثر بالتقدم في العمر، إلا إذا تضمن الأداء ما يخص الذاكرة العاملة.

\* يسفر التقدم في العمر عن اضطراب واضح في القدرة على الاستدعاء، خاصة الاستدعاء غير المحدد.

\* رغم أن ذاكرة التعرف لا تتأثر كثيراً بالتقدم في العمر، إلا أنها تتأثر تأثراً كيبياً، حيث يصبح الأداء أكثر اعتماداً على عامل الألفة.

\* هناك بعض الشواهد القليلة على تدهور الذاكرة السيمانتية (ذاكرة المعانى)، كما أن سرعة أداء كبار السن تقل بوضوح.

\* هناك بعض الدلائل علىبقاء الذاكرة الضمنية في حالة جيدة رغم التقدم في العمر.

**كيف نفسر هذه التغيرات؟**

\* أما عن تفسير هذه التغيرات في الذاكرة مع التقدم في العمر، فإن التراث الحالى يشير إلى تدهور بعض المصادر الرئيسية في الذاكرة. ومن أكثر المصادر التي تم بحثها هي سرعة العمليات "processing speed" ، أي أن الزمن المستغرق في العملية العقلية قد يكون هو الآلة المسئولة عن الفروق في الأداء بين الأعمار على مختلف عمليات التوظيف المعرفية. وهذه الآلة ينجم عنها عدد من النتائج الخاصة بالذاكرة، مثل: ضعف التمييز "encoding" ، والبطء في الاستدعاء، وعدم كفاءة القدرة على التنظيم. وقد يكون اقتراح هذه الآلة هو الأكثر منطقية؛ حيث ارتبطها بالدلائل الفسيولوجية التي تشير إلى أن نشاط النيرونات يقل مع التقدم في العمر .(Cremer & Zeef ,1987)

ولقد حظى هذا الفرض بالعديد من التجارب التي أيدته، منها تجارب سالثوس (1985، 1994)، على سرعة الاستدعاء، وعلى الاستدعاء الحر، وخلص إلى أن سرعة العمليات هي التي تفسر وجود الفروق العمرية على هذه القدرات.

\* أما المصدر الثاني لتفسير سبب تدهور الذاكرة في مرحلة الكبر فهو مصادر الانتباه "Attentional Resources" ويقضي هذا الفرض بأن تختلف أداءات كبار السن عن مراحل العمر الأخرى في أداء عمليين في وقت واحد. وهو الأمر الذي يؤدي إلى تقسيم الانتباه بين العملين، وعن طريق التجارب المختلفة التي قام بها هارتلي (Hartley, 1993)، وسالثوس 1991، تعارضت النتائج في تأكيد هذا الفرض؛ إذ بينما أيد بعضها ارتباط تدهور القدرة على تقسيم الانتباه بالتقدم في السن، اختلفت نتائج البعض الآخر، وقد يكمن وراء هذا الاختلاف تباين العمل المطلوب أداؤه، إذ بينما اتضحت الفروق العمرية في القدرة على الاستدعاء الحر، لم تتضح في نتائج التجربة باستخدام الصور مثلاً. ومن ثم، فإن ارتباط وجود الفروق أو اختلافها بنوعية العمل المطلوب أداؤه، والأدوات المستخدمة يهون من درجة الثقة في تفسير تغيرات ذاكرة الكبار بعامل تقسيم الانتباه.

\* وفي تفسير آخر للفرق العمرية في الذاكرة، أشار البعض إلى الذاكرة العاملة وتأثيرها بعامل التقدم في العمر. غير أننا قد أشرنا سابقاً إلى تكون الذاكرة العاملة من عدد من الأنظمة التي يتوسطها النظام التنفيذي، إلا أن النتائج قد كشفت عن عدم تأثر الذاكرة الرقمية بالتقدم في العمر، بينما كانت الفروق فيما يخص ذاكرة تكوين الجمل؛ لذلك كان القول بتأثر النظام التنفيذي بالتقدم في العمر. هذا فضلاً عما أضافه سالثوس وزملاؤه - من خلال تجاربهم - إلى إمكانية خفض هذه الفروق بين الأعمار على الذاكرة العاملة، إذا ما أخذ عامل سرعة العمليات في الاعتبار.

\* ويقدم هاشير وزاكس (Hasher & Zacks, 1988) تفسيراً آخر لوجود هذه الفروق تمثل في ضعف القدرة على كف الاستجابات الخطاً "disinhibition" ، ويعرف هذا العامل بأنه عدم القدرة على قمع المعلومات غير المرتبطة بالعمل المطلوب، بما يسمح ببقاء هذه المعلومات في الذاكرة العاملة بمجرد تنشيطها، ومن ثم تؤدي إلى بقاء الكثير من المعلومات التي يجب ترميزها، أو تجعل من الصعوبة الوصول إلى المعلومة المطلوبة من بين معلومات كثيرة قد لا تكون مرتبطة كما يحدث في الاستدعاء. ولقد قام كلوس أوبيرير (Klaus Oberauer, 2001) بتجربته؛ لاختبار وجود هذا العامل وتأثيره على الأداء في مراحل عمرية مختلفة، وذلك باختبار القدرة على إزالة المعلومات غير المطلوبة أو غير المرتبطة بمهام المطلوبة من الذاكرة العاملة، ومدى اختلاف هذا باختلاف الأعمار. وقد كشفت النتائج عن أن كفاءة تركيز الانتباه والقدرة على كف المثيرات غير المرتبطة ترتبط بعدد المثيرات غير المرتبطة التي يعرض في ضوئها المثير المرتبط؛ إذ كلما زادت المثيرات، كلما قلت القدرة لدى كبار السن على التمييز، وبالتالي تضعف القدرة على كف الاستجابات غير المرتبطة. غير أنه لم

تكن هناك أدلة واضحة على أن كبار السن كانوا أقل كفاءة من الأصغر سنًا في إزالة المعلومات غير المرتبطة من بؤرة تركيز الانتباه، واختلاف النتائج هنا يعني الحاجة إلى مزيد من الأبحاث التي يمكن أن تفسر سبب ضعف أداء الذاكرة لدى الكبار.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن بعض المصادر في دراسة المخ البشري تذكر أن القدرة على الكف هي من وظائف الفص الأمامي "frontal lobes"، ويكون الفص الأمامي ثلث القشرة المخية "cerebral cortex"، ويقوم بالعديد من الوظائف، وهو ما سنعرض له تفصيلاً عند تناول أمراض الذاكرة الإنسانية، لكن ما نود التأكيد عليه هنا، هو أنه مع التقدم في العمر، يفقد المخ عدداً من النيرونات - كما أوضحتنا سابقاً - ورغم عدم وجود المكان المحدد لهذه النيرونات في المخ، كما يقول روسيل، إلا أنه مع التقدم في العمر يمكن القول الآن إن غالبية هذه النيرونات التي تفقد هي في الفص الأمامي من القشرة المخية (Parkin, Alain, 1997). وقد أدى هذا إلى القول بأن فقدان الذاكرة المرتبط بالعمر قد يكون مرتبًا بفقدان قدرات الذاكرة، خاصة المرتبط منها بالفص الأمامي. وقد سبق أن ذكرنا في أكثر من موضع أنه مع التقدم في العمر، تعتمد القدرة على التعرف على عامل الألفة، وقد ثبت من التجارب على المخ أن زيادة الاعتماد على عامل الألفة، قد ارتبط بالمزيد من اضطراب وظائف الفص الأمامي من القشرة المخية. وفي تجربة قام بها باركن وزملاؤه للمقارنة بين المراحل العمرية، استخدم لذلك أداة لقياس القدرة على التعرف، ثم قدرة الفرد على تجميع المعلومات المرتبطة بالموضوع الأصلي الذي عرض عليه (مثلاً: أي قائمة هي التي كانت أساسية؟ وهل عرضت على الناحية اليمنى منك أو اليسرى؟)، ولم يجد فروقاً في القدرة على التعرف ارتبطت بالفارق في المرحلة العمرية، لكن أداء الأكبر سنًا كان سيئاً على اختبار الذاكرة.. كذلك وجدت علاقة بين سوء الأداء على الذاكرة في السياق، وبين وظائف الفص الأمامي، الأمر الذي يطرح فرض ارتباط بعض جوانب الذاكرة بوظائف الفص الأمامي من المخ، كما أثبتت ذلك أيضًا تجارب جليسكي وزملائه "Glisky" عام 1995.

وكما يتضح من نتائج الأبحاث، أنه ليس هناك قول نهائي عن العلاقة بين التقدم في العمر وبين وظائف الذاكرة؛ فالقول بتدحرج الذاكرة العاملة كتفسير لهذه العلاقة، رغم موافقته للمنطق، إلا أن نموذج الذاكرة العاملة يفتقد إلى التخصص في تحديد أي أعمال الذاكرة يصب مباشرة في عملية التنفيذ. كذلك أيضًا القول بنقص الانتباه لتفسير ضعف الذاكرة، لم يثبت صدقه أمام تغير نوعية المهام التي تقوم بها الذاكرة، كما أنه رغم وجود الدلائل على وجود عامل عدم القدرة على كف الاستجابات الخاطئة مع التقدم في العمر، إلا أنه مازال يفتقد إلى الكثير من المحاولات التي تكشف عن علاقته بالذاكرة.

غير أن أكثر التفسيرات النظرية التي بحثت من خلال دراسات عديدة، وكانت في نتائجها أقرب إلى الاتفاق، هي القول بسوء سرعة العمليات، وسوء تأثير الفص الأمامي على الذاكرة، حتى الآن.

ويبدو أنهم يعنian شيئاً واحداً، فقد أثبتت التجارب أن الفروق العمرية على الفص الأمامي من المخ، قد كشفت عن أن غالبية الفروق العمرية التي أمكن قياسها تم عزوها إلى فروق في سرعة العمليات. كذلك فإن قياس مهام الفص الأيمن من المخ قد تم قياسه في ضوء سرعة العمليات بصورة أو بأخرى، مما يؤدي إلى القول إن سرعة العمليات تمثل قلب التفسير للفروق العمرية، لكنه من المهم الإشارة إلى أن سرعة العمليات لم تصمد كتفسير في بعض التجارب. وخلاصة هذا القول هو أن تفسير تغيرات الذاكرة مع التقدم في العمر يصعب أن يكون أحدى الاتجاه، بل الأقرب إلى واقع الأبحاث يقضي بأن يكون الاتجاه متعدد العوامل، هو الأكثر صحة حتى الآن في تفسير هذه التغيرات.

### ثالثاً: التأثير البيولوجي والذاكرة:

من المؤكدـ كما تشير الأبحاثـ أن هناك تغيرات فسيولوجية تحدث للإنسان مع تقدمه في العمر، وقد يكون بعض هذه التغيرات تأثيراتها على التعلم والتذكر، فقد أشارت الأبحاث إلى أهمية الحفاظ على مستوى السكر في الدم لأهميته لعملية التذكر. فمن خلال تجربة على عينة من كبار السن قام بها هول وجولد (Hall & Gold, 1990)، حيث تم إغفال وجبة الإفطار عن عمد، ثم أجرى عليهم عملين لاختبار الذاكرة طويلة المدى، أحدهما يتضمن تعلم قائمة من الكلمات، والثاني يتضمن حفظ مضمون فقرة عرضت عليهم. ثم بعد ذلك تم تزويدهم بشراب يتضمن الجلوكوز، وأعيد اختبارهم، وقد كشفت النتائج عن تحسن ملحوظ في أداء العينة بعد تناولها للشراب، بينما لم تكشف التجربة عن نتائج مكافئة لدى صغار السن؛ لأن الصغار يستطيعون الاحتفاظ بمعدل لسكر الدم أفضل من الكبار. وقد تشير هذه النتيجة إلى أنه من الأفضل للكبار تناول الوجبات الصغيرة على مدار اليوم أفضل من تناول وجبة واحدة ثقيلة.

ومن العوامل البيولوجية أيضاً، ما ارتبط بتأثير الشعور بالضغط النفسي على الأداء، فقد قام باحثان بدراسة تأثير العمر على الأداء في وجود الضغط النفسي، وتخيروا لهذا عيتيتين من لاعبي الجولف (الشباب، في مقابل متوسط العمر في الخمسينيات)؛ للمقارنة بينهما من حيث تأثير التدريب على الأداء في المبارزة في مبارزة للمنافسة. وقد وجد الباحثان أن الأداء الجيد لعينة الكبار في التدريب قد انعكس على الأداء غير الجيد في المبارزة، بينما في عينة الشباب استطاع أفراد العينة الاحتفاظ بالأداء الجيد في التدريب وفي المبارزة. ولتفسير ذلك في ضوء التغيرات الفسيولوجية التي تحدث لدى لاعب الجولف، أوضح الباحثان أن عملية التركيز في إصابة الهدف في هذه اللعبة ترتبط بتتسارع نبضات القلب في لحظة التحضير لإصابة الهدف، ثم تبدأ في التباطؤ عند فعل التصويب نحو الهدف. وبينما تحدث هذه التغيرات بانتظام لدى صغار السن من اللاعبين، إلا أنها لا تكون كذلك لدى كبار السن، في ضوء وجود الضغط النفسي.



لكن يظل مع هذا أهمية وجود الفروق الفردية، وتبادر الأفراد على درجة تحملهم للضغوط ومقاومتهم لها. ولعل وجود النماذج المتميزة في الرياضة حتى سن متقدمة يعد دليلاً على هذه الفروق، ولا يخص هذا الأمر نتائج هذه التجربة فحسب، بل إنها قد تنساب إلى النتائج السابقة الخاصة ببار السن وتدهور الأداء.

وقد ترجع هذه الفروق إلى مدى وجود العامل الخاص يتدهور الصحة العامة، الذي ارتبط باضطراب الأداء المعرفى؛ فإنه مع الكبار الأصحاء، هناك مدى واسع من اختلاف الأداء، مما يجعل من الصعب القول بالعمى، ليس بالنسبة للأفراد فقط ولكن أيضاً بالنسبة للقدرات، فتدور القدرات مع التقدم في العمر لا يسير بصورة منتظمة أو بصورة جماعية، بل يختلف هذا المعدل. فمن خلال دراسة قام بها سكاى (Schaie, 1989)، على خمس من القدرات المعرفية هي: التوجه المكانى، والمعنى اللغوى، والمهارات الرقمية، ومهارة الاستدلال، ثم طلاقة الكلمات، وذلك على مدى عمرى من 32 عاماً وحتى ثمانين وثمانين عاماً. وقد كشفت النتائج أن التدهور يحدث بمعدلات مختلفة، حيث كانت مهارة الاستدلال قد حققت أقل معدلات التدهور لدى سن الثمانى والثمانين، بالقياس إلى القدرات الأخرى. ولعل ما أشرنا إليه في بداية هذا الفصل من عدم تدهور عامل الذكاء حتى سن السبعين، قد يفسر المعدل المنخفض في مستوى التدهور الذى حققه القدرة على الاستدلال في هذا البحث.

فضلاً عن هذا، فإنه من الأكثر صواباً النظر إلى مستوى القوة في قدرات الفرد على مدى عمره في ضوء عدد من المتغيرات الأخرى، والتي أشرنا إليها سابقاً في مواضع مختلفة، مثل: الحالة الصحية للفرد، و الجنس الفرد - حيث يختلف المعدل من الذكور إلى الإناث - ومستوى التعليم، ثم استخدام إمكانات العقلية للفرد قدر الإمكان، وهو ما نتناوله ببعض التفصيل فيما يلى وفي الفصل التالى.

**وقد يتساءل الكبار: ماذا بعد؟**

وخلاله ماسبق أن الذاكرة تتأثر بالتقدم في العمر، إذ بينما تتأثر قليلاً الذاكرة قصيرة المدى، والذاكرة الضمنية وذاكرة المعانى - نجد أن الذاكرة المعلنة تتضاعف إلى درجة كبيرة. ومن أكثر القدرات المعرفية تأثراً القدرة على الاسترجاع، بينما لا تتأثر القدرة على التعرف كثيراً بالتقدم في العمر، وتصبح أكثر ارتباطاً بعامل الألفة. ويعزى تدهور الذاكرة المرتبط بالعمر إلى تدهور في عدد من المصادر، خاصة سرعة العمليات، أو إلى تدهور وظائف الفص الأمامي من المخ، الذي يرتبط بال الكبر في السن، أو تتأثر الذاكرة إلى درجة كبيرة في مرض الزهايمر (الضمنية والمعلنة)، على العكس من مرض فقدان الذاكرة. وما زالت الدراسات مستمرة لمزيد من المعرفة عن الفروق بين الأنواع المختلفة من صور خرف الشيخوخة.

وقد يتساءل كبار السن ماذا بعد؟ هل من الأفضل أن تظل عقولهم في نشاط دائم، عملاً بالقول المعروف: استخدم عقلك، أو أنك ستفقد "to use it or to loose it" ؟ أم أن ذلك قد يؤدي إلى إرهاق العقل؟

تذكر سوزن جريينفيلد "The Private Life Of The Brain" في كتابها عن الحياة الخاصة للعقل أن العقل كأى عضلة أخرى في الجسم، يقوى بالتدريبات ويضعف بالإهمال، أى أنه يتمتع بالمرنة العصبية "neuronal plasticity". وتقدم مثالاً على هذه المرنة العصبية من حالة طفل إيطالي في السادسة من عمره، أصيب بالعمى في إحدى عينيه، ولم يستطع الأطباء معرفة السبب. وبالدراسة ثبت أن مرد هذا العمى هو إصابة هذه العين بفيروس عندما كان الطفل في عامه الأول، الأمر الذي أدى إلى تعطيل هذه العين عن العمل، وربطها فترة طويلة. وفي العام الأول حيث يكون المخ في نشاط دائم للنمو والاستجابة للمثيرات القادمة من العالم الخارجي عن طريق الحواس، بدأ المخ يستجيب للمثيرات القادمة من العين السليمة، بل وأكثر من هذا، فقد بدأت العين السليمة أيضاً تستخدم وتستغل إمكانات العين المصابة، ومع إزالة الضمادة عن العين المصابة، كانت النيرونات الخاصة بها قد وظفت في مكان آخر، وهو العين السليمة، ولذلك ظلت العين التي شفيت غير قادرة على الرؤية طوال عمر الطفل. ويكشف هذا المثال عن مدى حساسية المخ للمثيرات القادمة إليه من خلال الخبرة الحسية. وتقدم سوزن أيضاً براهين أخرى على المرنة العصبية للمخ من خلال الأمثلة المتعددة من حالات الغيبوبة التي أفاقت بعد عدة شهور، وأحياناً بعد سنوات؛ نتيجة للمحاولات المستمرة من القائم برعايتها أو أحد الأقارب بالتحدث المستمر إليها أو لعب الموسيقى بجوارها، مما أدى إلى استثارة المخ، وحدوث معجزة الإفاقة، كما أن الحالات التي تعرضت لحدث جلطة بالمخ، والتي قد يتحول الإنسان كامل الطاقة والحيوية إلى لا شيء في لحظات، يكشف تدرج الشفاء منها واستعادة هذا المريض لقدراته الحركية والعقلية بعد ذلك، عن مدى استجابة المخ مرة أخرى للمحاولات المختلفة لإثارته، إلى جانب المحاولات العلاجية لإزالة الآثار الفسيولوجية لحدث الجلطة. وتخلص سوزن من هذه الأمثلة إلى أن تعدد المخ يعني زيادة إمكانات في الارتباطات العصبية فيه .(Greenfield, S., 2000,65)

وقد يكون لنا في بعض نتائج التجارب على الحيوانات ما يقدم المزيد من الأدلة على مدى استجابة المخ في بنائه لنوعية البيئة التي ينمو بها. ففي تجربة على الفئران في بيئتين مختلفتين؛ بيئه ثرية بالثيرات في مقابل بيئه أخرى يميزها الحرمان من التثيرات، معرفة أثر هذا على نمو المخ، كشفت النتائج عن نمو في نيرونات المخ لدى الفئران التي كانت في البيئة الثرية بالثيرات. ومن ثم فإنه يمكن القول إنه كلما كانت البيئة أكثر ثراء بالثيرات، كلما كان المناخ الأفضل لإمكانات المخ؛ حيث يقل الفاقد من نيرونات المخ (Cohen,1990).

ولصعوبة اختبار مثل هذا الفرض على البشر؛ لما فيه من محاذير أخلاقية كثيرة، يقدم آلان باركين "Allan Parkin" بعض الأدلة على ذلك من دراساته على كبار السن من المتقاعدين. فقد تكون خبرة التقاعد بالنسبة للبعض خبرة جيدة، كالاستمرار في العمل الجامعي، مع بعض الأدوار الأخرى، مثلًا أدوار الجد والجدة. بينما قد تكون هذه المرحلة غير إيجابية لدى البعض الآخر، وقد تنتهي بهم إلى دور الرعاية مثلًا حيث المنشآت المتواضعة، من خلال الأنشطة المحدودة.

ولقد جذبت العلاقة بين مكان الإقامة وبين اضطرابات الذاكرة عدًّا من الباحثين، الذين أضافوا من خلال نتائجهم المزيد من المعلومات التي تزيد هذه العلاقةوضوحًا. فقد كشفت نتائج وينوكر (Winocur, 1982) أن أداء كبار السن المقيمين في دور المسنين على اختبارات الذاكرة، أقل من أداء المسنين المقيمين في منازلهم مع ذويهم. كما أشارت نتائج كريك وماكડود (Craik & McDowd, 1987)، بعد المقارنة بين المسنين على أداء الذاكرة، المقيمين في بيئات تختلف من حيث الأنشطة وتفاعل المسن معها، من خلال المقارنة على ثلاثة مذاجر من البيئات؛ أحدهما على البيئة الطبيعية للفرد (في منزله)، مع ممارسته للأنشطة المختلفة، والثانية على المسنين في دور خاصة بهم، لكنها غنية بالمبادرات والأنشطة، أما الثالثة فهي دور للمسنين نمطية من حيث تمثيل أقل نسبة من المثيرات، وأسفرت النتائج عن تميز أداء المسنين في البيئة الأولى والثانية عن أداء المسنين في البيئة الثالثة.

وفي دراسة قام بها كوكبرن وسميث (Cokburn & Smith, 1993)، على الذاكرة المستقبلية "prospective" (تذكر فعل شيء ما مثل محادثة تلفون، أو دفع فاتورة ما، أو التحضير للقاء...)، فقد كشفت النتائج عن ضعف هذا النوع من الذاكرة لدى المسنين الذين أحيطوا بالرعاية المبكرة، سواء من ذويهم أو من المؤسسة التي يقيمون بها. وتعنى هذه النتائج أن المؤسسات باعتمادها لدرجة كبيرة على الروتين، لا تسمح بالكثير من الأنشطة خارج نطاق الروتين، الأمر الذي قد يؤدي إلى فقد بعض أنواع من الذاكرة.

وفيما يتعلق بنقطة البداية، هل يستخدم المسن إمكاناته العقلية أم لا، فلاشك أن النتائج السابقة تشير بوضوح إلى أهمية تشغيل هذه الإمكانيات قدر الإمكان. فكلما تزايدت المثيرات التي يتعامل معها المسن وتباينت، كلما كان ذلك أفضل لنمو الذاكرة لديه. فقد علمنا الكثير عن معينات الذاكرة، والتي يمكن للفرد باستخدامها أن يحسن من أداء الذاكرة، غير أن الممارسة تأتي في المقدمة؛ إذ لا تفيد المعرفة دون تطبيق. وفي محاولة للمساعدة، قام (McEvory and Moon, 1988) بتقديم مجموعة من الإستراتيجيات لتحسين الذاكرة في برنامج لتعليم كبار السن، نعرضها فيما يلي:

- **الأسماء والوجوه "Names and faces"**: فقد تعلم الأفراد إستراتيجية استخدام التخيل، مع ربطها بالأسماء والوجوه للأفراد التي تعرف عليها الفرد حديثاً، مع التأكيد على عملية تكرار الاسم على فترات تتبع بانتظام؛ وذلك لتأكيد عملية التعلم.
  - **المؤاعيد "Appointments"**: ويعني هنا التركيز على الاستخدام المنظم للمعینات الخارجية، مثل كتابة الملاحظات والاستعانة بالنتيجة للأيام والتاريخ، مع أهمية مراجعة المؤاعيد المتوقعة في المستقبل.
  - **المهام الروتينية "Routine tasks"**: وتعنى هذه الإستراتيجية بأداء المهام الروتينية مثل تعاطي الدواء، فالتيكنيات المناسبة لأداء هذه المهام هو الاستعانة ببعض المعینات الخارجية للذاكرة، مثل: عمل القوائم، أو المذكرات اليومية للتذكرة. هذا بالإضافة إلى تعلم المعینات الداخلية الخاصة بالفرد، مثل المحافظة على أداء هذه المهام دائماً في ميعادها، وربطها بالحدث ذاته، مثلاً تناول الدواء دائماً بعد تناول الإفطار، أو رى الحديقة دائماً بعد رؤية البرنامج الأسبوعي عن رعاية الحدائق.
  - **التوجه المكانى "Spatial orientation"**: وهو يتناول المشكلات التي يخبرها الكبار عادة، مثل مكان السيارة منذ الأمس، وصعوبة التوجه في مكان للمشتريات، أو فقد الطريق في مدينة جديدة. ومن ثم فقد تضمنت الإستراتيجيات التي تم تعلمها هنا كلاً الأسلوبين اللفظي والبصري لتسجيل الخبرة والاستفادة من الإشارات المتواجدة في المكان، ثم التطلع في المكان للتعرف على محتوياته؛ حتى تحدث الألفة وتسهل عملية الرجوع مرة أخرى. كذلك تم تعليمهم فحص المكان الذي سيذهبون إليه باستخدام الخرائط، والمعرفة بأهم المعالم التي توجد في المكان، ثم الممارسة التي تعتمد على ريادة الأماكن المتداخلة والمعقدة مع مجموعات.
  - **وضع الأشياء "Locating things"**: ويقصد بها مشكلة نسيان أين وضعت الأشياء، فإذاً إستراتيجيات التغلب على هذه المشكلة هو وضع الأشياء في الأماكن التي تشير إلى وظيفتها، حيث تذكر هذه الوظيفة بالشىء والعكس. كذلك وضع الأشياء التي تتعرض دائماً للفقد - مثل حافظة النقود، والنظارة، وفتحة المنزل - في مكان واضح من المنزل، والاستعانة على تمييزه باستخدام الألوان الزاهية.
  - **التركيز "concentration"**: وهو يمثل آخر الإستراتيجيات التي تضمنها ذلك البرنامج، وهو أن يتدرّب على التركيز مع القصة التي تعرض مثلاً في فيلم، أو التي يقوم بروايتها الباحث، ثم يعيد الفرد روایتها على من يعرّفها، فذلك يعد تدريجاً له على التركيز.
- ولقد تم تطبيق هذا البرنامج على أربع وثلاثين من كبار السن (متوسط 68 عاماً)، حضروا خمسة لقاءات بمتوسط ساعة واحدة في اللقاء، ولتقييم فاعلية هذه الورشة، فقد تم إعطاء أفراد العينة استفتاء يضم المشكلات التي تواجههم في كل هذه المجالات الستة السابقة، وعدد مرات تكرار هذه المشكلات، ومقارنة ذلك بالمشكلات التي تواجههم في مجالات أخرى لم يتضمنها

البرنامج، مثل المحادثة مع آخرين، أو تعلم الجديد، واستدعاء أشياء متعددة، ثم استدعاء المعرفة القديمة. وبالتقريب بعد مرور أسبوعين من انتهاء التدريب، أجبت العينة على الاستفتاء مرة أخرى، ثم قمت المقارنة قبل تلقي البرنامج وبعده، والتي كشفت عن تحسن دال في بعض المجالات، مثل حفظ الوجوه والألقاب، والمعلومات والمهام الروتينية والتوجه المكانى. لكن لم يحدث التحسن في التركيز، أو في وضع الأشياء، أو المهارات التي يتضمنها التدريب، ورغم الشكوك في مدى مصداقية التقرير الذاق للفرد عن مشكلاته، إلا أن ما أسفرت عنه هذه المحاولة، يدعى الباحثين إلى عدم التعميم الجارف لإمكانية تحريف النتائج؛ إذ يبدو أن حرص الكبار على تحسين مواجهة المشكلات التي يواجهونها في الذاكرة، كانت الدافع وراءأمانة التسجيل لما أسرف عنه البرنامج من نتائج، لكن الأمر لا يمنع من استخدام مزيد من مصادر الصدق التي تؤكد صحة التقرير الذاق للفرد، مثل الاستعانة بمن يلazمون حياته؛ الزوج أو الزوجة أو الأم (Baddeley , 1997,141).

\* \* \*

## الفصل السابع

### اضطرابات الذاكرة

كشفت دراسات اضطرابات الذاكرة في الإنسان والحيوان عن معلومات مهمة لفهم كيفية تنظيم الذاكرة ومكوناتها من الخلايا والجزيئات. وعندما يحدث الاضطراب، فإن السؤال يكون عما يعنيه هذا الاضطراب، هل هو اضطراب في تخزين المعلومات أم اضطراب في الحصول عليها؟ وقد ثبت من مراجعة الأبحاث في هذا الصدد بين 1970 و1980، أنه اضطراب في تخزين المعلومة، كما وجدت مشكلات تخص عدم الوضوح في تطبيق مفهوم التخزين والاسترجاع، خاصة عندما تكون الشواهد غير مباشرة، وتقوم على أساس التحليل النفسي السلوكي (Squire,Larry,2006).

وتنقسم اضطرابات الذاكرة إلى نوعين، هما: الاضطرابات المؤقتة للذاكرة والاضطرابات الدائمة.

**وتضم الاضطرابات المؤقتة نوعين من هذه الاضطرابات، هما:**

- 1 اضطرابات ذات أصول عضوية، تبع من سوء التوظيف العضوي بالمخ.
- 2 اضطرابات ذات أصول سيكولوجية.

وسنعرض فيما يلي لكل منها بالتفصيل.

**أولاً: اضطرابات الذاكرة ذات المنشأ العضوي بالمخ:**

وتتضمن هذه الفئة من اضطرابات الذاكرة عدداً من الأنواع التي ترتبط ارتباطاً واصحاً بسوء التوظيف العضوي بالمخ، وهي تشتمل على سبعة أنواع من هذه الاضطرابات، نعرض لكل منها بشيء من التفصيل فيما يلي.

#### 1- اضطراب فقدان الكل المُؤقت للذاكرة "Transient Global Amnesia"

في دراستهما لحالة رجل في البوليس، أورد ريجارد ولانديس "Regard & Landis"، أن هذا الرجل أثناء أدائه بعض التدريبات الرياضية، فَقَدَ ذاكرته فجأة، وعند عودته إلى العمل، أخذ يكرر السؤال أكثر من مرة، ولم يجد الطبيب أي علامات مرض عصبي يرتبط بهذه الحالة. وأجريت للمريض الاختبارات اللازمة في المستشفى، ولم تكشف عن علامات على المرض، بينما كشفت الاختبارات السيكولوجية عن اضطراب شديد في الذاكرة، فقد كان المريض يعرف من هو، وأين يسكن، لكن اضطرابه كان شديداً في إدراك الزمن، وفقدان الذاكرة فيما يخص الشهور الماضية القريبة، وهو ما يعرف بفقدان الذاكرة التالي للحدث "Retrograde Amnesia". لم يستطع أن يتذكر

كلمة واحدة من بين قائمة الكلمات التي تعلمها بعد مرور أربعين دقيقة، وكان أداؤه أفضل قليلاً على اختبار الذاكرة البصرية، غير أن ذاكرته الرقمية كانت في المستوى العادي، والقدرات المعرفية الأخرى كانت بالمعدل العادي أيضاً. بعد تسع ساعات من حدوث هذه التغيرات على ذاكرته، استطاع الرجل أن يستعيد ذاكرته عن الشهور السابقة فيما عدا الأيام القريبة جداً. وبعد مرور اثنين وسبعين ساعة، كانت ذاكرته قد عادت إليه بقدر كبير، وفي خلال شهر، كان قد استعاد ذاكرته بالكامل، وهذه الحالة تجسد تماماً ما يعرف باضطراب فقدان الذاكرة المؤقت للذاكرة (TGA)، ويحدد جولدنبрг "Goldenberg" الأعراض الكبرى لهذه الحالة فيما يلى:

- ظهور مفاجئ لفقدان الذاكرة للأحداث القريبة، مصاحب لفقدان الذاكرة عن أكثر الأحداث حداة في حياة الفرد.
- اضطراب الزمن، لكن مع الاحتفاظ بمعونة الفرد لهويته.
- يدرك الفرد أنه يعاني من اضطراب في الذاكرة.
- تكرار الأسئلة والاستجابات النمطية للمريض.
- ليس هناك اضطراب في أي من الوظائف السيكولوجية الأخرى.
- تستمر هذه الحالة فترة قصيرة، من دقائق إلى أيام، غير أن المعدل المتوسط للاستمرار هو خمس ساعات.

والحقيقة أن ما يعرف عن هذه الحالة في التشخيص ليس قليلاً، فضحاياها دائماً من الذين يتمتعون بصحة جيدة، وفي المرحلة العمرية تقريراً بين الخمسين والسبعين. وتحدث بنسبة ضئيلة (أربع حالات من بين كل مائة ألف من مرضى الأعصاب)، ويمكن أن تحدث هذه الحالة لأسباب كثيرة، تتضمن التغيرات المفاجئة لدرجة حرارة الجسم (بعد أخذ حمام بارد مثلاً)، أو التعرض لضغط وإجهاد عضلي، أو تناولأكلة دسمة. ومن أكثر العوامل التي ترتبط بهذه الحالة هو كليوكينول، وهو يعرف باحتواه على مكونات مضادة للإسهال. وقد أكدت بعض الأحداث هذه العلاقة، فحينما حدث فيضان كبير في اليابان 1966، وتم توزيع هذا العقار بصورة واسعة، لمحاصرة الإصابة بالدوستاري، أدى ذلك إلى إصابة ما يقرب من مائة شخص بحالة فقدان الذاكرة الكلية، ومن بين الحالات التي رصدتها ممنتالر وزملاؤه "Mumenthaler" عام 1979، حالة طالبة جامعية أصيبت بحالة إسهال شديدة في رحلة بحرية، تم إعطاؤها العقار لوقف الإسهال، وبعد عودتها إلى المنزل لم تتمكن شيئاً عن الرحالة.

لكن ما زال غير معروف لماذا تحدث هذه الحالة، فقد فسرها البعض بحدوث ما يسمى **شيوخ الهبوط "Spreading Depression"**، وهي ظاهرة تعنى أن تصبح نيرونات المخ غير قابلة للعمل "depolarized"، ومن ثم تصبح معطلة. وفي تفسير آخر، أشار هودجز ومارلو

"Hodges & Marlow" عام 1990، إلى وجود علاقة بين هذه الحالة وبين مرض الصداع النصفي، فقد ثبت من فحص المخ أثناء وجود نوبات الصداع أن هناك تشابهًا بين ما يعانونه من اضطرابات المخ، وبين التغيرات التي تم رصدها في مخ الحيوانات التي تم حقنها بما يؤدي إلى شيوخ الهبوط.

وفي تفسير آخر لسبب حدوث هذه الحالة، أن "TGA" هي شكل من أشكال تجلط مؤقت في المخ "transient cerebral ischemia"، تؤدي إلى خفض مؤقت في تدفق الدم إلى مناطق المخ المعنية بوظائف الذاكرة، غير أن هذا التفسير يؤدي إلى الربط بين حدوث هذه الحالة، وبين وجود أمراض أوعية المخ. ورغم أنه غير معروف حتى الآن أي مناطق المخ التي تصيب في حالة فقدان الذاكرة المؤقت، إلا أن الدراسات تشير إلى الفص الأمامي من المخ، والمهاد.

## 2- الصرع واضطراب الذاكرة:

الصرع هو مرض يعاني فيه المريض من نوبات، وهناك عدد من أشكال هذه النوبات، ففي النوبة الكبرى، يسقط المريض على الأرض، ويفقد الوعي، ويتصلب الجسم، ويغلق الفم، ثم تحدث التشنجات التي تنخفض بالتدريج حتى يهدأ المريض. يتبع هذا أن يعود الوعي إلى المريض بالتدريج، وغالبًا ما يصعب هذا شعور بالاضطراب، والفرد الذي يخبر مثل هذه النوبات لا يتذكر ماذا يحدث أثناء النوبة، كما أن تذكره لما يحدث بعد النوبة يكون ضعيفًا. وفي فترة ما بعد النوبة يمكن ملاحظة ما يسمى بظاهرة الآلية "automatism"، وهي أن يكون الفرد قادرًا على تنفيذ أعمال على درجة من التعقييد بدون إرادة واضحة، كما أنه لا يتذكر هذه الأحداث بعد الانتهاء منها. أما في النوبة الصغرى، فإنه يحدث للفرد ما يسمى بالغياب "absence" ، الذي يستمر من عدد من الثوانى إلى نصف دقيقة. في مثل هذه النوبات، فإن المريض - غالباً ما يكون من الأطفال - يبدو غير واع لما يحدث حوله.

وتصنف هذه النوبات الكبرى والصغرى بأنها نوبات عامة؛ لأن تأثير الصرع يحدث في منطقة واسعة من المخ، أما في النوبة الجزئية "focal" ، أو البؤرية "partial" ، فإنها تكون في مناطق محددة بالمخ، وهذه النوبة إما أن تكون بسيطة إذا لم يصاحبها اضطراب في الوعي، أو تكون معقدة إذا تأثر وعي الفرد. وحديثًا تم ملاحظة أن النوبة الجزئية المعقدة قد تؤدي إلى اضطراب مؤقت في الذاكرة أكثر شبهاً بما يحدث في فقدان الذاكرة المؤقت "TGA" ، وقد أطلق عليه اسم فقدان الذاكرة الصرعى المؤقت (TEA) "Transient epileptic amnesia" (Kapur, 1993). غير أن كثيرون قد أورد بعض الفروق بين النوعين، ففي نوبة الصرع الجزئية المعقدة، لا يكون هناك تكرار للسؤال، كما يحدث في فقدان الذاكرة، ونادرًا ما يكون المريض قلقاً، بالإضافة إلى أن "TEA" يمكن أن تحدث عدة مرات، على عكس ما يحدث مع "TGA". إن أسباب حدوث فقدان الذاكرة الصرعى المؤقت مازالت غير معروفة إلى الآن، لكنه من المعتقد أن حدوثه يرتبط بتدخل النوبة الجزئية مع أجزاء من الفص الصدغي في المخ.

### 3- فقدان الذاكرة التالي للصدمة "Posttraumatic Amnesia"

إن جروحات الرأس المغلقة هي التي تتضمن توجيهه ضربة إلى الججمحة دون كشف المخ، ويحدث فقدان الذاكرة في 10% من يتعرضون لهذه الأحداث. فإذا كانت هذه الضربة قوية، فقد يفقد الفرد الوعي، وقد يتوقف التنفس دقيقة أو دقيقتين، وعندما يعود الوعي، فإن الضحية يبدأ في التحرك، ثم بعد فترة يبدأ في الكلام، وتكون ثمة هناك علامات على الشعور بعدم الراحة، وقد تبدو الضحية متألمة، ورغم كونها في كامل وعيها، إلا أنها تبدو مضطربة، وتكشف عن فقدان للذاكرة الماضية والحالية، وهذه الحالة من فقدان الذاكرة هي ما يعرف بفقدان الذاكرة التالي للصدمة (PTA).

وقياس هذا النوع من فقدان الذاكرة ومدة استمراره على درجة من الأهمية؛ حيث إنها تعد مؤشرًا على شفائه من عدمه، ويتم فحص هذا الأمر من خلال المريض ذاته بسؤاله عن الأحداث التي تلت حدوث الصدمة له، أو عند تقديره مدى كفاءة ذاكرته بعد الحدث، غير أن هذه الطريقة لا تعد ثابتة بالقدر الكافي؛ لاعتمادها تماماً على تقديرات المريض.

وفي فقدان الذاكرة التالي للصدمة، فإن وظائف الذاكرة تشبه كثيراً ما يوجد في فقدان الذاكرة، وبالتالي فإن تعلم كلمات القائمة يصبح ضئيلاً جداً، ويكون معدل النسيان عالياً جداً. ومع ذلك، فإنه كما يتوقع الفرد تكون هناك شواهد على وجود تعلم في الذاكرة الإجرائية، فقد كشف ليفين وزملاؤه عام 1985 عن أن المرضى الذين يعانون من فقدان الذاكرة التالي للصدمة، يؤدون أداء طبيعياً على الأفعال التي تتطلب الحركة والإجراة، كما وجد جيسكون "Gesquoine, 1991" أن هؤلاء المرضى يؤدون أداء جيداً على أدلة لتحديد أماكن الحجرات في المبنى على أدلة تقيس هذا.

وتتسق عدم قدرة هؤلاء المرضى على تذكر الأحداث التي تسبق الإصابة مباشرة، مع وجود وظيفة الذاكرة قصيرة المدى، حيث تخزن المعلومات في مسار مؤقت وقابل للتغير، ويكون الفرض هو أن الصدمة قد تداخلت بشكل ما مع عملية نقل المعلومات. وهذا الاضطراب قد يحدث بطريقتين؛ أن فقدان الوعي المؤقت الذي يحدث على إثر التعرض لضربة على الرأس، يمكن أن يؤدي إلى اضطراب الحفاظ على المسار المؤقت. أو أن فقدان الوعي هذا قد يتداخل مع عملية تدعيم المعلومات، وهناك من نتائج الأبحاث ما يدعم التفسير الأخير، فقد أشارت النتائج إلى أن قياس هؤلاء المرضى على الذاكرة الرقمية قد كشف عن أداء عادي (Regard & Landis, 1985). كما تم فحص المرضى بفقدان الذاكرة في فريق لاعبي كرة القدم الأمريكي بعد الإصابة مباشرة - حيث إنه في هذه اللعبة على اللاعب أن يتذكر بعض التعليمات عن اللعبة التي يقوم بها الفريق، وعلى اللاعب أن يحتفظ في عقله بقدر من المعلومات - وأول ما طرح عليه من تساؤلات كان عن اسم اللعبة، لكنه لم يستطع تسمية الفريق الذي يلعب معه، إلا بعد فترة من الوقت. وقد استنتج من ذلك أن الذاكرة

قصيرة المدى استمرت في العمل أثناء حدوث فقد الذاكرة التالي للصدمة، غير أن حدوث الصدمة قد أدى إلى اضطراب عملية النقل إلى الذاكرة طويلة المدى.

ولقد عمد ليفين وزملاؤه 1985 إلى فحص فقدان ذاكرة الأحداث الماضية "Amnesia Retrograde"، أثناء حدوث الصدمة وبعدها، على عينة من صغار السن، عرض عليهم بعض أسماء لبرامج تلفزيونية، عرضت في الفترة الزمنية بين 1965 و1981، وطلب منهم تحديد أحد البرامج الذي يقوم بتقديمه أحد المذيعين الذي تم ذكر اسمه لهم. غير أنه أثناء حدوث فقدان الذاكرة التالي للصدمة، لم يستطع المرضى أن يتذكروا هذا البرنامج، لكن بعد زوال فترة فقد الذاكرة، كان الأداء أفضل. ولاشك أن نتائج هذه التجربة قد جاءت على العكس من الملامح العامة التي تميز ظاهرة فقدان الذاكرة التالي للصدمة، والتي تقضي بأن المعلومات القديمة لا تتأثر بحدوث فقدان الذاكرة على إثر صدمة ما، لذلك قام ليفين وزملاؤه بعمل تجربة أخرى، حيث طلب من المرضى ذكر الأحداث الكبرى في حياتهم (وقد سبق أن عرف الباحثون ذلك من خلال أقارب المرضى). وقد تم تحديد أربع مراحل مهمة من حياتهم: المرحلة الابتدائية، والمرحلة الإعدادية، والمرحلة الثانوية، ثم مرحلة الرشد. أثناء مرحلة فقدان الذاكرة، تم تذكر الأحداث المبكرة في حياة الفرد أفضل من تذكر الأحداث الأكثر حداة، لكن بعد زوال فقدان الذاكرة، لم تكن هذه التفرقة واضحة، وخلص الباحث من هذا إلى أن هذا التناقض في نتائج التجاربتين قد يرجع إلى نوعية المادة التي يطلب من المرضى تذكرها، فتذكر البرامج التلفزيونية يعني تذكر أحداث بعينها، مما يؤدي إلى القول باحتمال اضطراب ذاكرة الأحداث في حالة فقدان الذاكرة التالي للصدمة.

إن قياس فقدان الذاكرة أثناء حدوث فقدان الذاكرة التالي للصدمة يمكن تفسيره في ضوء ما يعرف بظاهرة انكماش فقدان ذاكرة الأحداث الماضية "Shrinking RA"، وهو ما بدا واضحًا من خلال الحالة التالية: رجل بلغ من العمر ثلاث وثلاثين سنة، نقل إلى المستشفى على إثر صدمة على رأسه، أدت إلى أن يكون في حالة عدم اتزان، وليس عدموعي. وأشارت المعلومات عنه أنه كان يعيش مع زوجته في واشنطن، ثم انفصل عنها منذ عامين، استقر فيما في مدينة بوسطن، وبينما كان يعمل سائق أتوبيس في واشنطن، عمل في مصنع، ثم في البريد في بوسطن. في الأسبوع الأول بعد الصدمة، ظهرت عليه علامات من الاضطرابات المعرفية، لكنها اختفت خلال شهر من حدوث الصدمة، إلا فقدان الذاكرة الشديد، فظل يتذكر أنه مازال يعيش في واشنطن، واستمر ذلك ثلاثة شهور. بعدها فجأة بدأ يهتم باضطراب ذاكرته، وبدأ تذكره لبعض المعلومات الحديثة في التحسن، ثم بدأ بعد ذلك التحسن في تذكره لأحداث حياته، وأحداث انفصاله عن زوجته، والمهن المختلفة التي عمل بها، ولم يبق إلا عدم تذكره لأى من الأحداث التي سبقت الحادثة بأربع وعشرين ساعة.

وتتفق ظاهرة انكماش فقدان ذاكرة الأحداث الماضية مع ما لوحظ من تغيرات في استرجاع الخبرات السابقة. مع نهاية ظاهرة فقدان الذاكرة بعد الصدمة، قد يعتمد المريض اعتمادًا كليًّا على

معرفته العامة عن نفسه، الموجهة إلى حد كبير بفترات حياته المبكرة. وعندما يحدث الشفاء، فإن الحصول على الأحداث، خاصة الحديثة منها يصبح ممكناً. ويمكن تفسير هذه الفروق الزمنية في استرجاع الأحداث بأن الخبرات الماضية تكون موزعة على مدى أكبر أكثر من الخبرات الحديثة، ويتبع هذا أن الشفاء التدريجي يصاحب الاسترجاع التدريجي للأحداث الماضية البعيدة قبل الأحداث القريبة.

ويبقى السؤال المهم، وهو هل كل المرضى الذين تعرضوا لفقدان الذاكرة بعد حادثة ما أمكنهم استرجاع ذاكرتهم استرجاعاً كاملاً؟

تجيب نتائج الدراسات على هذا بأن 10% فقط هم الذين استمرت معهم هذه الظاهرة ساعة واحدة فقط، مقارنة بالنسبة 56% الذين ما زالوا يعانون من صعوبات في عملية التذكر ممن خبروا هذه الظاهرة لأكثر من سبعة أيام، بينما ورد في نتائج تجربة لينينجر وزملائه "Leininger" عام 1990، ما يشير إلى درجة أقل من التفاؤل في هذا الصدد. حيث سجل كل أفراد العينة (وعدد them اثنان وخمسون مريضاً) درجات ضعيفة على اختبارات الذاكرة، مما قد يشير إلى إمكانية اضطراب الذاكرة طويلة المدى لديهم. كما أن كل المرضى كانوا ضحية حوادث سيارات، مما يؤدي إلى احتمال إصابتهم إصابات خطيرة، الأمر الذي يعني إمكانية تعرضهم لفقدان الذاكرة تماماً.

#### -4- العلاج بالصدمات الكهربية، واضطراب الذاكرة:

"Electro-Convulsive Therapy ECT"

أثار العلاج بالجلسات الكهربية الكثير من الآراء المتعارضة، ويعود تاريخ هذا العلاج - منذ سبعين عاماً مضت - إلى الطبيب النفسي مديونا "Meduna". فقد أشار في عدد من الدراسات إلى أن الشизوفرینيا والصرع لا يحدثان للمرىض الواحد، وخلص إلى أن إحداث نوبة مفاجئة "seizure"، كالتى تحدث في الصرع قد تفيد في حالات الشيزوفرینيا. وقد استخدم مديونا المستحضرات الدوائية لإحداث هذه النوبة. أما كيرلتى وبينى Cerletti & Bini فقد طروا فكرة مديونا، لاختبار قدرة الصدمات الكهربية القصيرة على إحداث نفس الأثر، ومن تجربتهما على سبعة من مرضى الشيزوفرینيا ومتابعتهم على مدى عامين، وجدا أنهم عادوا إلى حياتهما الطبيعية. ومنذ عام 1930، وهذا العلاج ما زال يستخدم. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، تسع من كل عشرة من مرضى الاضطرابات المزاجية الحادة يعالجون بالصدمات الكهربية، ويفظرون تحسيناً ملحوظاً (Whybrow,P., 1997, 30).

ولأن هذا العلاج يتميز بالبساطة ورخص السعر، فقد انتشر العمل به سريعاً، وحتى 1950، كان من أنواع العلاج الفعالة للاكتئاب، وغيره من الاضطرابات بما فيها الشيزوفرینيا. ومع اكتشاف العقاقير المختلفة، بدأ ينسحب علاج الصدمات الكهربية، لكنه ما زال يمثل شكلاً من أشكال العلاج المتواجدة. ولقد تطور العلاج بالصدمات الكهربية، فالشكل الحديث منه يمثل شكلاً مختلفاً

عما كان يستخدم، فقد كان في السابق يتلقى المريض الصدمة وهو في كامل وعيه، مما أثار المناقشات حولها، أما الآن فإن المريض يخدر أوًلاً قبل تلقيه الجلسة، بالإضافة إلى حفنه بما يساعد على ارتفاع العضلات؛ حتى يقلل من الجهد الجسماني المصاحب لحدوث النوبة، وبعد الانتهاء يزود المريض بالأكسجين الذي يساعد على الإفاقة بسرعة.

### فماذا عن علاقة هذا العلاج بالذاكرة؟

إن لهذا النوع من العلاج تأثيرات جانبية كثيرة، ليس هنا مجال مناقشتها، بل إن ما يعنينا هو تأثيره على الذاكرة، فهذا العلاج له تأثير واضح ولحظي، ومحدث للتوتر على وظائف المخ. فعند استعادة الوعي، يكشف المريض عن بعض الأعراض شديدة الشبه بالتي تحدث للذاكرة بعد تعرض الفرد لحادثة ما (PTA)؛ إذ يكون مشتتاً، مضطرباً، غير قادر على الاستجابة بسلوك سوي، كما يعاني المريض كذلك من فقدان الذاكرة للأحداث الحالية، ومع مرور الوقت، يحدث الشفاء تدريجياً.

ولقد كشف اختبار الذاكرة بعد التعرض لجلسة كهربية عن وجود اضطراب غير بسيط؛ فالذكر على اختبارات التذكر قد كشف عن فقدان ذاكرة واضح للأحداث الحالية، وقد أشارت النتائج إلى وجود معدل عالٍ من النسيان بعد التعرض للجلسة الكهربية، كذلك تأثرت ذاكرة الأحداث البعيدة بعد التعرض للجلسة. ففي تجربة سكوير وزملائه "Squire et al" على مجموعة من المرضى، طلب منهم الإجابة عن استثناء تتضمن أحداً مهما في حياتهم، وذلك قبل التعرض للجلسة الكهربية، ثم أعيد قياسهم مرة أخرى بعد تلقى الجلسة بأسبوع واحد، وكشفت النتائج عن فقدان الذاكرة للأحداث البعيدة إلى حد كبير. لكن بعد مرور سبعة شهور من تلقى الجلسة، كان فقدان الذاكرة للأحداث التي سبقت مباشرة التعرض للجلسة الكهربية، هو كل ما يعاني منه المريض، بالإضافة إلى بعض الأحداث المهمة والشهيرة في ذلك الوقت (أحداث ووتر جيت في أمريكا عام 1981). ويشير إخفاق الفرد في تذكر هذه الأحداث - رغم تميزها - إلى احتمال اختفائها من الذاكرة بصورة مستمرة. وفي دراسة أخرى عام 1989، أكدت تأثر ذاكرة الأحداث البعيدة بالعلاج بالجلسات الكهربية، غير أن الممارسين لهذا النوع من العلاج أنكروا هذه التأثيرات واسعة المدى على الذاكرة، إلا من بعض الأضطرابات على تذكر الأحداث القريبة.

ونتيجة لهذا التناقض في النتائج، عمد بعض الباحثين إلى الفحص النيرولوجي لوظائف المخ، ولقد أمضى بعضهم عامين في فحص المرضى الذين يتلقون هذا العلاج، كما أجرى البعض تجاربهم على البقر؛ للتعرف على أثر الجلسات الكهربية على فسيولوجيا المخ، لكن جماع هذه النتائج لم يشر إلى ما يثبت تأثر بناء المخ بتلقي هذه الجلسات. وبذلك أعلن أن العلاج بالجلسات الكهربية آمن، ولا يؤثر على وظائف المخ. أما عن الأفراد الذين شكوا من تأثر ذاكرتهم بعد تلقي العلاج، فقد ذكر البعض أنه قد يكون هذا العرض لديهم من قبل ولم يفطنوا إليه، إلا أنهم قد أحضوهن للمساعدة من قبل المتخصصين، وأدى ذلك إلى تحسن أدائهم عن ذي قبل.

وفي حقيقة الأمر، كما تذكر سوزن جرينفيلد، أنه لم يستطع أحد أن يفسر لماذا تتحسن حالة المريض بتلقيه الصدمات الكهربية، أو لماذا تتعرض ذاكرة المريض لفقدان المؤقت بعض تلقيه الصدمة. ويفسر بيتر وايرراو ذلك بأن عملية الصدمة الكهربائية هي مشابهة لاستخدام جهاز إحداث النبضات "defibrillator" في الأزمات القلبية، حيث يرتعش القلب أو يختلخ، ثم يبدأ في الانتظام في النبض. ومن ثم ففي الصدمات الكهربية، ترتعش مجموعات كبيرة من النبضات، وقد يتولد عن هذا ارتباطات جديدة بين النبضات المتواجدة بالفعل، ثم تنتظم بعد ذلك في أدائها، غير أن ارتعاش النبضات نتيجة الصدمة الكهربائية، لا يعد التفسير العلمي الذي يمكن من التنبؤ، ثم التحكم في الظاهرة بناء عليه؛ لذلك فإن سوزن جرينفيلد تستكمل هذا التفسير بأن هذا الارتعاش للنبضات - نتيجة للصدمة الكهربائية - قد يترتب عليه إعادة تشكيل الشبكة العصبية داخل المخ، وقد تتولد ارتباطات جديدة في المخ، الأمر الذي يفسر كذلك حدوث فقدان الذاكرة المؤقت الذي يتعرض له المريض (Greenfield, 2000, 126).

فضلاً عن هذا، فقد أثار البعض قضايا لها طابع سيكولوجي، منها مثلاً أدوات القياس السيكلوجية، وعدم حساسيتها للفروق بين المرضى الذين يتلقون هذا العلاج، وبين غيرهم من العينات الضابطة، وكذلك أيضاً الدافعية لدى المرضى، وعلاقتها بكتفاعة الذاكرة. فضلاً عن هذا، فقد ناقش البعض قضية الإحصاء واستخدامه في معالجة البيانات، حيث لا يعبر استخدام متوسط المجموعة عن الوضع الحقيقي للظاهرة، وأن عدم المعالجة الفردية للنتائج قد أدت إلى فقد ما يمكن أن يجسم الأمر في استخدام هذا النوع من العلاج. ووجود هذا التناقض في الآراء - جنباً إلى جنب في مجال العلاج بالجلسات الكهربائية - يشير إلى بقاء هذا الحوار حول هذه القضية واستمرارها لبعض الوقت، وقد تناولها بالكثير من التفصيل كاميرون "Camiron" في مقالته عن العلاج بالجلسات الكهربائية 1994.

##### 5- سوء استخدام العقاقير واضطراب الذاكرة:

تؤثر الكثير من العقاقير على الذاكرة، ومن هذه العقاقير ما يخص عقاقير الهلوسة؛ فهي غالباً ما تؤدي إلى اضطراب الذاكرة. وقد كانت هناك اهتمامات بدراسة تأثير الماريجوانا على الذاكرة. فمن خلال فحص مجموعة المتعاطين وغير المتعاطين على اختبارات الاستدعاء، كشفت النتائج عن اضطراب ذاكرة المتعاطين فيما يخص المعلومات التي سبق تعلمها، بينما لم توجد فروق بينهم وبين العاديين على تأثير عامل الحادثة على الاستدعاء، ومعنى ذلك أن تعاطي الماريجوانا يؤثر على الذاكرة طويلة المدى، كما وجد كذلك من نتائج التجارب أن الماريجوانا تؤثر على تعلم الجديد من المعلومات.

وكشفت الدراسات أيضاً عن أن التعاطي المستمر للماريجوانا يؤدي إلى اضطرابات الذاكرة، حتى في الفترات التي لا يتم فيها التعاطي، أي أن تأثيراتها على اضطرابات الذاكرة يمتد ليشمل

فترات أخرى، بالإضافة إلى فترة التعاطي. ومن نتائج أبحاث بوب وزملائه "Pope" عام 1995، أن هذا الأثر الممتد لا يشمل الأداء على المهارات النفسحركية، أو المهام التي تقيس نقص الانتباه. كما كشفت دراسات فريد وواتنكتسون "Fried & Watkinson" عام 1990 بأن تعاطي النساء للماريجوانا في فترة الحمل قد أدى إلى اضطرابات في الذاكرة لدى الأطفال.

ومن العقاقير النفسية المهدئات "benzodiazepines"، ومن أشهر أنواعها الأtiefan "Ativan" والفالبيوم "Valium"، وهما يمكن استخدامهما كعقار للتهبّط - يساعد على النوم - أو للتهدئة في حالات القلق. وفي الاستعمال السوي لهذه العقاقير، فإنها تؤدي إلى اضطراب الوظائف العقلية، بما فيها الذاكرة. فقد كشفت النتائج أنه عند استخدام الأtiefan في فترة الليل، فإنه يؤدي إلى اضطراب في الذاكرة في صباح اليوم التالي، إذا ما اختبر الفرد، كما أنه إذا تم تناوله تحت بعض الظروف المحددة، فإنه يؤدي إلى ما يشبه حالة فقدان الذاكرة، التي سبق وأن تحدثنا عنها.

وقد قام براون وزملاؤه "Brown" عام 1985 بتجربة على بعض الطلبة، قسموا إلى مجموعتين، وتم إعطاء إحداهما عقار الفالبيوم، والأخرى عقار الأtiefan. وباختبارهم على اختبارات الذاكرة، وجد أنه لم يكن هناك تأثير على سعة الذاكرة، بينما كان هناك اضطراب مؤقت لفقدان الذاكرة، كما لم يكن لأى من العقاريين تأثيرات على استدعاء المعلومات التي تم تعلمها مباشرة قبل تناول العقار. وقد حاول فيل وزملاؤه "File, 1992" اختبار تأثيرات تعاطي الأtiefan على الأداء على عدد من المهام، ووجد أن له تأثير على ذاكرة الأحداث، بينما لم يكن له تأثير على ذاكرة الإجراءات أو الذاكرة الضمنية.

وتجدر بالذكر أن هناك بعض الفائدة من تعاطي هذه العقاقير، إذ يستخدمه أطباء الأسنان في عملهم كوسيلة مع الأفراد ذوي الخوف المرضى من هذا العلاج؛ حيث إنه يعمل على وجود حالة تشبه فقدان الذاكرة، فينسيه حدث الجراحة، ومن ثم يعمل على منع عملية الاحتفاظ بالخبرة السلبية التي يمكن أن تؤدي إلى رفع حالة الخوف المرضى.

#### 6- التخدير الكلي وأضطراب الذاكرة:

في حالات التخدير العام، يتوقع الفرد ألا يتذكر أيّاً من الأحداث التي تمت في فترة فقدان الوعي، لكن هناك بعض المؤشرات على الشك في حدوث ذلك، ومن هذه المؤشرات ما يختص بالتعلم أثناء التخدير. ففي تجربة على عشرة من مرضى الأسنان يتهيأون لإجراء عمليات بالأسنان، وبعد التخدير الكلي لهم، وأثناء إجراء العملية، أُعلن مختص التخدير بصوت عالٍ "أن لون المريض لا يعجبني، فالشفاه لونها أزرق، لابد وأن أعطيه بعض الأكسجين"، وبعد الإفاقـة رد ستة من المرضى هذه المعلومـة مرة أخرى، بينما رد الأربـعة الباقيـن هذه المعلومـة أثناء الانتقال من التخدير إلى

الوعي، غير أنه قد أثيرت الاعتراضات على هذه التجربة، فيما يخص درجة تأثر الفرد بالتخدير مثلاً، أو درجة حدوث التعلم الضمني أثناء التخدير.

وفي تجربة قام بها جيليسيك وزملاؤه "Jelicic" عام 1992، على مجموعة من المرضى بعد التخدير الكلى لهم، كان يقرأ عليهم قائمة من الكلمات المزدوجة، وبعد إجراء الجراحة، عرض على هؤلاء المرضى الكلمة الأولى من القائمة على أن يستجيبوا لها بكلمة أخرى. وقد وجد أن غالبية المرضى كانت تستجيب بالكلمات التي سبق تعلمها أثناء التخدير، ويعنى ذلك أن هناك قدرًا من التعلم يحدث أثناء التخدير.

غير أن هناك نتائج أخرى تكشف عن العكس من ذلك، ففي تجربة لجيليسيك وزملائه على تعليم بعض المرضى تحت تأثير المخدر لمجموعة من الإجابات عن بعض الأسئلة، وباختبار المرضى بعد إجراء الجراحة، لم يستطعوا استدعاء هذه الإجابات.

غير أن النقاش والتجارب ما زالت مستمرة؛ للتعرف على حقيقة حدوث عملية التعلم أثناء التخدير الكلى.

#### 7- الذاكرة في حالى الحمل، وأنقطاع الطمث:

إن الدراسات على الأداء المعرفي في فترة الحمل وما بعدها، من الدراسات النادرة، رغم ما تزخر به هذه الفترة من تغيرات فسيولوجية وهرمونية وانفعالية. فمن المعروف أن التغيرات الهرمونية بصفة خاصة تؤثر على الذاكرة، ومن ثم يمكن توقع أن الحمل يؤثر وبالتالي على ذاكرة المرأة. وقد استطاع بوذر وزملاؤه "Poser" عام 1986، تطبيق أحد الاستفتاءات على سبع وستين امرأة حامل، وقد كشفت النتائج عن معاناة 41% منهم من صعوبات في القراءة والاضطراب والتشتت، ثم الميل إلى النسيان، وهم يعتبرون كل ذلك من أعراض الحمل، وأنها مؤقتة.

وفي دراسة حديثة في هذا الصدد، في إطار أحد المشروعات في السويد، قام عدد من الباحثين باختبار القدرات المعرفية لدى عينة من النساء الحوامل، على عدد من الاختبارات المعرفية عن الذاكرة والانتباه. وقد أجريت الاختبارات على خمس مراحل، تبدأ بنهاية مرحلة الحمل، وتستمر بعد ذلك أثناء العام الأول من إنجاب الطفل، ولقد أسفرت النتائج عن تحسن أداء المرأة على مدى الفترة من 6-12 شهراً بعد الإنجاب.

وفي مقارنة بين مجموعتين من النساء الحوامل للمرة الأولى والنساء متعددي خبرات الحمل، على مجموعة من اختبارات الذاكرة المعلنة والضمنية، قام برينديل وزملاؤه "Brindle" عام 1991 بهذه الدراسة، التي أسفرت عن أن الحوامل للمرة الأولى في المرحلة الثانية من الحمل كشفن عن اضطراب في الذاكرة الضمنية، كما قيست بتكميلة الكلمات، وذلك بمقارنة بفئة متعددي خبرات

الحمل من النساء. كما وجد الباحثون أيضاً أن هذا الاضطراب في الذاكرة الضمنية لدى مجموعة الحوامل للمرة الأولى، قد ارتبط بالتقدير الذاتي المنخفض لقدرتها على التذكر لدى هذه العينة.

وفي دراسة أخرى قام بها شارب وزملاؤه "Sharp" عن الذاكرة لدى النساء الحوامل 1993، استعان فيها الباحثون بتطبيق ثمان اختبارات، بالإضافة إلى أداة للتقدير الذاتي للقدرة على التذكر؛ وذلك لقياس قدرات التمييز "priming" ، والتعرف "recognition" ، ثم التذكر؛ وذلك للمقارنة بين العوامل للمرة الأولى ومتععدد خبرات الحمل، وبين المجموعات الضابطة على هذه القدرات. وقد كشفت النتائج عن انخفاض تقديرات المرأة الحامل على اختبار التذكر، وعلى القدرة على التمييز في تكميل الكلمات وفي نطقها. وقد توافق هذا مع التقدير الذاتي للنساء الحوامل على قدرة الذاكرة، فقد أورد 81 % منهاهن يعنيين من انخفاض القدرة على التذكر بعد الحمل مقارنة بالفترة السابقة عليه.

ولاشك أن لهذه النتائج الفضل فيما أضافته من معلومات عن العلاقة بين الحمل وبين الذاكرة، حيث أثبتت الضوء على العلاقة بين الذاكرة الضمنية وبين الحمل، بينما لم تكشف عن علاقة واضحة بين القدرة على التعرف وبين الحمل، ومن ثم فهي تضيف عامل الحمل والتغير الهرموني في جسم المرأة؛ باعتباره من العوامل المؤثرة على كفاءة الذاكرة.

وفي مجال التغيرات الهرمونية وأثرها على القدرات المعرفية لدى المرأة، تعد مرحلة توقف الطمث "Menopause" عند المرأة من المراحل المهمة في التغير الهرموني. فمن خلال الدراسات التي استعانت بالتقدير الذاتي للمرأة في مرحلة توقف الطمث، كشفت النتائج عن المعاناة من تزايد النسيان. ففي دراسة في الثمانينيات عن هؤلاء النساء، قام بها بوليت ولاروكو "Polite & LaRocco" ، كشفت الدراسة عن معاناة 25% من أفراد العينة من النسيان، وقد ارتبط ذلك بسوء الحالة الصحية، وبانخفاض التعليم، ثم بإنجاب الأطفال في سن متاخر. وفي دراسة 1994 قام بها ما�و "Mathews" وزملاؤه، كشفت النتائج عن معاناة 35% من النساء من النسيان في مرحلة توقف الطمث.

وفي دراسة أخرى قام بها باكهوس وزملاؤه "Backhaus" في ألمانيا 2007، عن تدهور الذاكرة المعلنة وارتباط ذلك بانخفاض موجات النوم البطيئة "slow wave sleep". ولقد ثبت من الدراسات الارتباط الشديد بين النوم، ووظائف الذاكرة بالمراحل العمرية؛ فموجات النوم البطيئة تتناقص بشكل ملحوظ مع التقدم في العمر، وهي تبدأ من سن الثلاثين، وتؤثر بدورها على الذاكرة المعلنة، ولم يدرس حتى الآن نتائج تغييرات النوم عبر مراحل العمر. وفي هذه الدراسة قارن الباحثون دعم الذاكرة المعلنة أثناء النوم بين صغار السن، وبين متوسطي العمر الأصحاء من

18- 55، ومن 48-25. وبقياس هذه الموجات البطيئة في النوم، والمقارنة بين العينات العمرية، وجد أن تذكر العينة الأكبر سنًا كانت أسوأ من تذكر العينة الأصغر سنًا على اختبار من الأزواج المرتبطة من الكلمات، كما وجد أن التبكيـر بالنوم قد يقترب في نتائجه من التأخر في النوم على تدـور التذـكـر.

ولمزيد من الفهم لعلاقة توقف الطمث بالقدرات المعرفية للمرأة، قام الباحثون بدراسة على النساء اللائي توقف الطمث عندهن نتيجة للعمليات الجراحية، ومن ثم كان لابد من تعويض هرمونياً بالاستروجين. وبقياس الذاكرة قبل وبعد التعويض الهرموني، كشفت النتائج عن تحسن ذاكرة النساء في المجموعة التي تم علاجها بالتعويض الهرموني بالاستروجين، وذلك بمقارنتهم بمجموعة لم يتم علاجها هرمونياً. وتوضح هذه النتائج احتمال وجود علاقة بين نقص الأستروجين في الجسم في مرحلة توقف الطمث، وبين اضطرابات الذاكرة، وغيرها من العمليات المعرفية، لكن مع ذلك يظل الأمر في حاجة إلى مزيد من الدراسات.

#### 8- اضطرابات الذاكرة في الطفولة:

إن اضطرابات النمو لابد وأن يكون لها أساسها الجيني، لكن هناك أسباب أخرى؛ إذ إن إصابة المخ في سن مبكرة قد لا يbedo تأثيرها واضحـاً إلا فيما بعد. ومن هذه الاضطرابات، اضطرابات الذاكرة، التي لم يتم تميـزـها إلا حديثـاً جـداً، فقد استطاع فرانـ خـادـمـ "Faraneh Khadem"- في جامعة لندـنـ التوصل إلى أن بعض الأطفال الذين يولـدون ناقصـوـ نـفـوـ لأـسـبـابـ مـخـلـفةـ، قد يتـعرـضـونـ لـجـرـعـةـ كـبـيرـةـ مـنـ الـأـكـسـجيـنـ، قد تـسـبـبـ إـصـابـةـ قـرـنـ آـمـونـ. وـعـادـةـ يـكـونـ قـرـنـ آـمـونـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـاتـ أـصـغـرـ مـنـ الطـفـلـ الذـيـ يـوـلـدـ فـيـ الـمـيـعـادـ، كـمـ أـنـ هـذـاـ جـزـءـ مـنـ الـمـخـ مـهـمـ لـعـمـلـيـةـ التـذـكـرـ، وـلـقـدـ وـجـدـ الـبـاحـثـ وـزـمـلـاؤـهـ أـنـ الـأـطـفـالـ ذـوـيـ الـإـصـابـاتـ فـيـ قـرـنـ آـمـونـ، لـاـ يـكـونـونـ مـنـ الـبـارـزـينـ فـيـ نـوـاـحـ كـثـيـرـةـ، فـقـدـ يـكـونـ أـدـاؤـهـ فـيـ الـمـدـرـسـةـ جـيـداًـ وـعـلـىـ اـخـتـيـارـاتـ الذـكـاءـ أـيـضاًـ، غـيـرـ أـنـهـ لـاـ يـؤـدـونـ أـدـاءـ جـيـداًـ عـلـىـ أـسـئـلـةـ مـنـ نـوـعـيـةـ ماـذـاـ فـعـلـتـ بـالـأـمـسـ؟ـ وـيـكـونـ لـإـصـابـةـ قـرـنـ آـمـونـ تـأـثـيرـهـ السـيـئـ عـلـىـ الـطـفـلـ، مـعـ تـقـدـمـهـ فـيـ النـوـمـ، فـيـكـونـ غـيـرـ قـادـرـ عـلـىـ تـذـكـرـ الـمـوـاعـيدـ وـالـوـاجـبـاتـ، وـلـيـسـ لـدـيـهـ ذـاـكـرـةـ عـادـيـةـ سـوـيـةـ عـمـاـ حدـثـ لـهـ فـيـ الـمـاـضـيـ، فـهـوـ يـتـذـكـرـ الـحـقـائـقـ، لـكـنـ لـاـ يـتـذـكـرـ مـتـىـ أـوـ كـيـفـ تـعـلـمـهـاـ؛ـ لـذـكـرـ فـمـنـ الـمـهـمـ لـلـمـدـرـسـ أـنـ يـعـرـفـ أـنـ تـعـلـمـ الـحـقـائـقـ، مـثـلـ الـرـيـاضـيـاتـ وـالـتـوـارـيـخـ، تـعـتـمـدـ عـلـىـ مـنـاطـقـ مـخـلـفـةـ فـيـ الـمـخـ. وـمـنـ ثـمـ قـدـ يـكـونـ هـؤـلـاءـ الـأـطـفـالـ غـيـرـ جـيـدـيـنـ فـيـ هـذـهـ الـمـهـامـ، وـلـيـسـ قـضـيـةـ اـهـتـمـامـاتـ أـوـ مـيـوـلـ (Blakemore,2005,148).

وفي نهاية عرض هذه الأنواع من اضطرابات الذاكرة ذات الأصول العضوية، يجدر بنا أن نشير إلى أن الاضطرابات المؤقتة ذات الأصول العضوية يمكن أن تنشأ من أكثر من سبب، مثل الإصابة بنقص الدموية الموضعيـةـ بـالـمـخـ "cerebral Ischemia"ـ، والتـسـمـ "Toxins"ـ، وإـصـابـاتـ الرـأسـ، والـعـلاـجـ بـالـجـلـسـاتـ الـكـهـرـيـةـ، وـاسـتـخـدـامـ الـعـقـاقـيرـ. وكـلـ هـذـهـ الـاضـطـرـابـاتـ يـمـيزـهاـ فـقـدانـ

الذاكرة للأحداث الحالية، بينما يختلف فقدان الذاكرة للأحداث البعيدة من حالة إلى أخرى. وبصورة عامة، فإن هذه الاضطرابات تميزها خصائص عامة من أعراض فقدان الذاكرة، غير أنها تختلف قليلاً من اضطراب إلى آخر، وقد خصصنا الفصل الثامن لمزيد من المعلومات عن هذه الأسباب.

### ثانياً: اضطرابات الذاكرة ذات المنشأ السيكلولوجي:

وتعني حدوث فقدان الذاكرة رغم عدم وجود الأسباب العضوية التي يمكن أن تؤدي إلى ذلك، وقد يطلق عليها أحياناً "الفقدان الوظيفي للذاكرة" "functional amnesia". ويحدث فقدان الذاكرة سيكلولوجي المنشأ على إثر حدث أليم للفرد، أدى إلى اضطرابه انفعالياً، وتباين درجة الاضطراب تبايناً شديداً من فرد إلى آخر.

ويعد فقدان الذاكرة سيكلولوجي المنشأ أحد العلامات المميزة لفئة من الأمراض العقلية التي تعرف باضطرابات التفكك "Dissociative disorders" ، وكلها تتضمن انهايار هوية الفرد، لكن بدرجات متفاوتة. وتحدد هذه الحالة بعدم القدرة على تذكر أحداث بعينها، أما في الشروط التفككي "dissociative fugue" أو فقدان الذاكرة الوقتي التفككي، فإنه يتضمن فقدان هوية الفرد، وفي بعض الحالات قد يتضمن تبني هوية أخرى. أما الشكل الثالث لفقدان الذاكرة السيكلولوجي، فهو اضطراب الهوية التفككي، وهو ما يعرف ببعض الشخصيات، وفيما يلى نتناول كل منها ببعض التفصيل:

#### - 1- فقدان الذاكرة التفككي "Dissociative amnesia"

منذ 1904، وهناك أبحاث عن فقدان الذاكرة غير المترابط، فقد قامت جانيت "Janet" في ذلك الوقت بتتبع إحدى الحالات التي فقدت والدتها بعد فترة مرض طويلة، وبعد الوفاة اختفت الحالة تماماً، فقد تقبلت وفاة والدتها، غير أنها فقدت الذاكرة عن كل ما يتصل بالمرض أو كيفية الوفاة، إذ إن الحالة تستطيع أن تحكى عن الحدث في ظروف أطلقت عليها جانيت "Somnambulism" ، أي السير أثناء النوم. أما إيرديلي وجولديبرج & Erdylli & Gold" ، فقد أشارا إلى أنه من الصعب قبول هذا الاستدعاء للخبرة الصادمة؛ باعتباره عودة واضحة إلى الذاكرة المفقودة، فالكثير من حالات فقدان الذاكرة الهستيري يتضمن شيئاً من الاضطراب الشخصي. ومن ثم فإن الفشل الرئيسي في التذكر قد يعكس تحيزاً استجابةً، معنى أن المريض لا يستطيع مواجهة الباحث ببعض الأمور المحددة التي يكون واعياً بها جيداً.

وفقدان الذاكرة لخبرة صادمة تكشف عن الكثير من شفاء الذاكرة، فقد درس الباحثون عدداً من هذه الحالات التي أصيبت بفقدان الذاكرة على إثر صدمات الحرب. ولقد استخدمت في هذه الدراسة المقابلة تحت تأثير "sodium pentothal" أحد العقاقير، حيث يحقن به المريض حتى يصل



إلى درجة النعاس وعدم التركيز "drowsiness" ، ثم تبدأ المقابلة عن الحدث الصادم، خاصة وأن الباحث يكون في هذه الحالات عالماً بكل الأحداث. وحديثاً جدًا، درس تأثير الخبرة الصادمة على الذاكرة في ضوء سياق أكثر اتساعاً هو اضطرابات ما بعد الصدمة ( PTSD ) "stressdisorders" ، وهي مجموعة من الأعراض المركبة، تحدث بسبب التعرض لحدث صادم، وتتضمن هذه الأعراض القلق، واضطرابات النوم . وقد درس مكنالي وزملاؤه عام 1995 مجموعات من الذين اشتركوا في حرب فيتنام، وذلك بتطبيق اختبار الذاكرة الشخصية عليهم، إذ طلب منهم الحديث عن ذكرياتهم المؤلمة وغير المؤلمة، ولقد وجد الأفراد صعوبة في تذكر هذه الأحداث خاصة غير المؤلمة، ولجأوا إلى الحديث عن أحدث الذكريات؛ حتى يتجنّبوا الذكريات الخاصة بالحرب، والغريب أن من بين هؤلاء من كان ما زال في الخدمة العسكرية، ويحمل النياشين والرموز الدالة على ذلك.

#### 2- الشروق الوقتي التفككي "Disassociative Fugue" :

وكلمة "Fugue" تعزى إلى المصطلح اللاتيني "Fugere" ، والذى يعني الهروب أو الابتعاد، ويمكن تحديد هذا النوع بالظهور المفاجئ للتجول مع تشوّه الوعي وفقدان ذاكرة تام للحدث. ففي هذه الحالة يكون المريض غير واع بأن هناك خطأ، وغالباً ما يتبنى هوية جديدة. ومعظم هؤلاء المرضى، يمكنهم استرداد هويتهم وتاريخهم السابق، ولا يبقى فقدان الذاكرة إلا فيما يرتبط بفترة الشروق، ومن النادر أو غير المألوف أن يصبح المريض واعياً بفقدانه لهويته، ومن ثم يتبع هذا أن يتبنى هوية جديدة، ويتعلم مهارات جديدة، وهناك حالات عرض لها الباحثون تجسد هذه التغييرات. وجدير بالذكر أن المريض لا يكشف عن علامات غير مألوفة في القدرات أو في السلوك. ففي إحدى الحالات التي تم العثور عليها في أحد المجال العام، لا تعرف شيئاً عمن هي أو من أين جاءت، وبعد خضوعها للفحص الطبي، وتکلیف المؤسسات المعنية بالكشف عنها، لم يتم الاستدلال عليها، ولم تكشف الحالة عن وجود علامات تدل على الشذوذ السلوكي أو الاضطراب المعرفي أكثر من عدم القدرة على تذكر هويتها وتاريخها السابق.

وفي حالة أخرى تجسد حالة فقدان الذاكرة في حالات الشروق التفككي، أمكن التعرف على أحد أقاربها الذي كشف عن سبب الحالة، وهي وفاة الجد الذي كان يرعى الحالة وتعيش معه، لكن الحالة ذاتها لم تستطع التعرف على القريب، وظلت فاقدة للذاكرة أربعة أيام، حتى شاهدت بالصدفة جنازة في برنامج تلفزيوني، الأمر الذي أدى إلى تذكرها فجأة لوفاة الجد. وفي خلال أيام قليلة عادت إليها الذاكرة كاملة، ولم يبق إلا أحداث فقدان الذاكرة وما أحاط بها من ظروف في طى النسيان. وهذه

الحالة أيضاً - بخضوعها للفحص والقياس بعد عودة الذاكرة - لم تكشف إلا عن اضطراب بسيط في الذاكرة والذكاء.

### 3- اضطراب الهوية التفككي (تعدد الشخصيات):

إن تناول هذا الاضطراب يقتضي تناول اضطراب تعدد الشخصيات "multiple personality disorder", فعندما تتوارد أكثر من شخصية في الفرد الواحد فإن ذلك يؤدي إلى وجود المشكلات التي قد تصل إلى صعوبة تطبيق القانون. في هذا الاضطراب يمتلك الشخص أكثر من هوية لكل منها ذاكرتها، وهذه الأنوثات المختلفة يفصل بينها حاجز من فقدان الذاكرة، فالشخصية الواحدة قد لا تعرف شيئاً عن الشخصية الأخرى أو عن الشخصيات الأخرى.

تفسير اضطراب فقدان الذاكرة التفككي:

يتضمن هذا النوع من الاضطراب تعطل لذاكرة الأحداث، ومن ثم فإن هناك ميل لمقارنته بفقدان الذاكرة الناتج عن أسباب عضوية، ومع ذلك فهناك فروق مهمة بينهما:

- 1- فقدان الذاكرة عضوي المنشأ غالباً ما ينتج عنه فقدان للذاكرة الحالية اللاحقة للحدث "anterograde amnesia"، أما فقدان الذاكرة النفسي المنشأ على النقيض من هذا؛ إذ ينتج عنه فقدان للذاكرة الماضية السابقة على الحدث.

- 2- أن فقدان الهوية الشخصية نادراً ما يحدث في حالة فقدان الذاكرة العضوي، كما أن تعدد الشخصيات لم يميز أبداً فقدان الذاكرة عضوي المنشأ.

- 3- أن إمكانية خلق حالة فقدان الذاكرة النفسي المنشأ باستخدام العقاقيير "sodium pentothal" ليس له نظير في فقدان الذاكرة العضوي المنشأ.

وتعود المحللة النفسية جانيت أول من قدم تفسيراً لفقدان الذاكرة الهرובי؛ إذ إنه في ضوء الظروف العادية، فإن الوظائف السيكلوجية متضمنة الذاكرة، من المفترض أن تتکامل في إطار الشخصية الواحدة. لكنه في ضوء الظروف المغايرة لهذا، مثل خبرات الاضطراب الانفعالي من الممكن أن تنفصل الذاكرة عن الهوية ويسعى استدعاؤها. ولقد رأت جانيت أن فقدان الذاكرة الهربي يتحدد جينياً، فكل فرد لديه قدر من الطاقة التي تجمع معًا عدداً من عناصر الشخصية؛ لذلك فإن فقدان الذاكرة الهربي يظهر حتى في الأفراد ذوي الطاقة المنخفضة، ولأن جانيت هي متخصصة نفسية، فإن ما تعنيه بالطاقة هي الطاقة العقلية.

أما التفسيرات الحديثة لحدوث فقدان الذاكرة سيكلوجية المنشأ، فهي تميل إلى عزوها إلى الكبت، وهي النظرية التي فسر بها فرويد حدوث النسيان للأحداث غير السارة في حياة الفرد، ومن ثم يحدث فقدان الذاكرة، فالذاكرة لديها القدرة على الدفاع عن الذات، وهذا القول له فائدته في تفسير



اضطرابات الذاكرة سيكولوجية المصدر، فهي تفسر لماذا تحدث الاضطرابات التفككية مرتبطة بالأحداث الصادمة، كما أنها تنسق مع مؤشرات الاكتئاب، وغيره من الاضطرابات السيكاتورية في المرضى الذين يعانون من اضطرابات سيكولوجية المصدر. وقد أدى هذا الارتباط البعض إلى فرض أن الاضطرابات ذات الأساس النفسي، قد تكون وسيلة لتجنب الاكتئاب أو الانتحار، وهو المعنى الذي تضمنه مصطلح فقدان الذاكرة التفككى.

وفي دراسة لإثبات كيف يعمل ميكانزم الكبت على أن يتيح للفرد حياة عقلية أفضل، قام بها كامنر ولواف (Kamner & Lavie, 1991)، فقد فحصوا أمراض النوم والأحلام لدى عيتيين (المتوافقين وغير المتواافقين) من الناجين من المحروقة التي أقامها هتلر لليهود. وقد كشفت النتائج عن أن غير المتواافقين كانوا يحتاجون إلى وقت أطول للدخول في النوم، كما اتسم نومهم بالقطع وعدم الانتظام، وهما من خصائص اضطرابات ما بعد الصدمة. وعندما كان يتم إيقاظ العيتيين وقت الحلم (بحركة العين)، كانت العينة المتواقة تستطيع بسهولة استرجاع الأحلام. ولقد فسر الباحثان عدم القدرة لدى العينة غير المتواقة على استرجاع الحلم، بأن ذلك يؤدي إلى توافق أفضل، وقد تعزى إلى ميكانزم الكبت.

لكن يظل السؤال: كيف يمكن تنظيم الذاكرة بحيث يمكن أن يحدث النسيان المفاجئ المنتهى لبعض الأحداث، أو الوصول في بعض الحالات إلى فقدان الهوية؟

في توضيح باركن للعلاقة بين ذاكرة الأحداث الشخصية وبين الهوية، ما قد يجيب عن هذا السؤال؛ إذ إن ذاكرة الأحداث تتضمن ما هو ذا معنى لهوية الفرد، وتمثل هوية الفرد عنصراً ضابطاً تتنظم تحته ذاكرة الأحداث. وتمارس عملية الكبت تأثيرها في تفكيك هذه العلاقة بين الهوية وبين ذاكرة الأحداث، وحيث يكون هذا التفكيك جزئياً، فإنه يؤدي إلى وجود فقدان الذاكرة التفككى، أما عندما يكون كلياً فإنه يؤدي إلى فقدان الهوية، حيث لا تجد الهوية أي ذاكرة شخصية تستطيع الارتباط بها.

أما مورتون (Morton, 1994)، في محاولته لتفسير فقدان الذاكرة التفككى في ضوء ما أسماه "ملفات الرأس headed records" فقد شبه الذاكرة بنظام الملفات، حيث يكون لكل حدث ملف، يسجل فيه تفصيلات هذا الحدث. ولكن يحدث البحث الجيد في هذه الملفات، فإن كل تسجيل يكون له فهرسه الخاص به، وفي عملية الاسترجاع، فإنه - بناء على الوصف المطلوب - تم عملية البحث في التسجيلات؛ لتحديد التسجيل الذى يتواافق مع الوصف. وببناء عليه، فقد فسر مورتون عملية فقدان الذاكرة التفككى بأن كلمة "النفس" لا يوجد لها وصف واضح لدى الذاكرة، ومن ثم فإنه يتم البحث في عدد كبير من الملفات، مما قد يؤدي إلى وجود عدد من الأنوات مرتبط

بعدد من الذكريات التي تتبادر في الكيف، وقد يؤدي هذا إلى وجود فقدان ذاكرة متعدد الشخصيات.

ويشير باركن إلى أهمية أحد العوامل العضوية في الاعتبار عند تفسير اضطرابات نفسية المنشأ، ففي بعض الحالات ارتبط ظهور فقدان الذاكرة باضطراب وظائف الفص الأمامي من المخ.

#### اضطراب الذاكرة نفسي المنشأ وارتكاب الجرائم:

إن فقدان الذاكرة وارتباطه بالجريمة أمر معروف على نطاق واسع؛ إذ إن نسبة تتراوح بين 23 إلى 65 % من مفترق الجرائم يدعون فقدانهم الذاكرة الخاصة بالجريمة. ففي دراسة على مائتين وثلاثة من المدانين في جرائم العنف، وغيرها من الجرائم عام 1984، قام بها كوبلمان وتيلور "Kopelman & Taylor"؛ بهدف التعرف على نسبة من يقررون فقدانهم للذاكرة - وجد أن 19 حالة فقط أقرت بفقدانها للذاكرة الخاصة بالجريمة المدانة بها، والجدير بالذكر أنه لم يكن بينها حالة واحدة من المدانين بجرائم غير العنف.

ومن الجدير بالذكر أنه ليس كل فقدان للذاكرة مرتبط بالجريمة يكون نفسي المنشأ؛ حيث إن هناك مؤشرات عالية على وجود الفصام والاكتئاب بين المفترفين للجرائم ولا يستطيعون تذكر جرائمهم، وهما من الاضطرابات التي ترتبط باضطراب واضح في الذاكرة، بل قد ذكر البعض أن الشيزوفرينيا يمكن أن تؤدي إلى حالة من اضطراب الذاكرة، كالتى تحدث في حالات فقدان الذاكرة (McKenna et al, 1995).

وفي تفسير آخر للربط بين فقدان الذاكرة والجريمة، يذكر بعض الباحثين أن الكثير من مفترق الجرائم، يرتكبونها أثناء حالة التسمم الكحولي أو غيبة الوعي؛ نتيجة الإفراط في الشراب؛ إذ بناء على مسح شامل لحالات فقدان الذاكرة 1995، وجد أنه 35% من هذه الحالات التي ترتبط بالجريمة، تتضمن وجود المخدر في الدم وقت ارتكاب الجريمة، و46% من فاقدى الذاكرة مفترق الجريمة يعرف عنهم سوء استخدام الكحوليات. وحالة غيبة الوعي هي ظاهرة عامة، تحدث في كل من مدمني الكحوليات والمستخدمين العاديين للكحول الذين يتقللون في الشراب، فأثناء حدوث غيبة الوعي، فإن الفرد لا يكون عاجزاً، ويكون في موقف يمتلك كل قواه العقلية، لذلك يكون الفرد تحت تأثير الشراب لكنه واع، وهناك شكلان لحالة غيبة الوعي:

**أولهما:** الشكل الذى تحدث فيه حالة غيبة الوعي، وتنتهي بحالة فقدان الذاكرة لكل الأحداث الوسيطة، مع معرفة الفرد أنه فقد فترة ضاعت منه.

**اما ثانيهما:** فهو الشكل الذى لا يكون فيه الفرد واعياً بأن فقداناً للذاكرة قد حدث، وفي هذا الشكل الأخير قد يكشف عن هبوط في الذاكرة أثناء تناول الشراب، لكنه لا يسترجع هذا.

ومن ثم، فإن هناك تفسيران لارتباط إدمان الكحوليات بالجريمة؛ أولهما: قد يكون فقدان الذاكرة لدى هؤلاء سيكولوجي المنشأ، حيث يكتب فيه الفرد معرفته ببعض السلوكيات المخلجة، التي ارتكبها أثناء فترة غيبة الوعي. غير أن هناك من الآراء التي تناقض هذا الرأي، حيث إن فترة غيبة الوعي لا ترتبط بطبيعة الأحداث في فترة فقدان الذاكرة، فإذا كان فقدان الذاكرة هنا سيكولوجي المنشأ، فإنه من المتوقع في فترة غيبة الوعي أن تكون محملة بالخبرات غير السارة والمحبطة للفرد، غير أن الشواهد قد كشفت عن غير هذا.

أما التفسير الثاني لحدوث الجريمة في فترة غيبة الوعي، فإنه ينبع من وجود شواهد على أن الانفعالات في حد ذاتها، وغيرها من العوامل السيكولوجية، يمكن أن تؤدي إلى نشأة ما يسمى بالتعلم الموجه بالحالة، حيث يسهل تجميع الذكريات التي تتواءم مع الحالة المزاجية للفرد، ومن ثم فإنه من الممكن أن تفسر بعض حالات فقدان الذاكرة المرتبط بالجريمة بهذه الطريقة، إلا أن هناك اعتراضات على هذا التفسير يتمثل في صعوبة إعادة خلق الحالة الانفعالية التي كانت مصاحبة لحدث الجريمة مرة أخرى. ويضرب الباحثون مثلًا بالشاب الذي أدين في حادث اغتيال الرئيس الأمريكي جون كينيدي، حيث كان يدعى فقدان الذاكرة فيما يخص الحدث.

ومن ثم نأتي إلى مشكلة التفرقة بين فقدان الحقيقة للذاكرة سيكولوجية المنشأ، وبين ادعاء ذلك. كيف يمكن عمل هذه التفرقة؟ وهل هناك من الدعم العلمي ما يعين على هذا؟ وهو ما تم مناقشه فيما يلى.

#### التمارض : "Malingering"

يحدد الباحثون معنى التمارض بأنه الادعاء الوعي باضطراب الذاكرة، وهو ليس من الأمور السهلة؛ إذ غالباً ما يقع المدعون في أخطاء تدعوه إلى الشك في حقيقة مرضهم. ففي إحدى الحالات التي تعرضت للتسمم بغاز ثاني أكسيد الكربون، استطاعت الحالة أن تسترد الوعي سريعاً، لكن الفحوصات التي قمت، لم تكشف عن اضطراب في الذاكرة، وبعد مرور خمسة أسابيع على هذه الحادثة، بدأت الحالة في الشكوى من التشوش، واضطراب الذاكرة للأحداث الحديثة. وقد كشف القياس عن ضعف شديد في سعة الذاكرة كما بدا من حاجته إلى تكرار السؤال عدة مرات، كذلك كشف القياس عن عدم القدرة على التذكر لأى حدث جديد، بينما على النقيض، كان يستطيع تذكر أحداث حياته الماضية قبل تعرضه للحادثة.

ولقد جذبت هذه الحالة الانتباه؛ حيث إنها بمقارنتها بالحالات المشابهة لها (من حيث تعرضها للتسمم بغاز ثاني أكسيد الكربون)، لم تكشف هذه الحالات عن اضطرابات في الذاكرة، كما أن وجود التعويض مثل هذه الحالات قد أثار الشك حول حقيقة ادعائه بفقدان الذاكرة. فضلاً عن هذه، وبعد فترة من الحادثة رفضت الحالة التعاون مع المختصين، ولعدم معرفة الأفراد بالتفاصيل

الحقيقة عن اضطراب فقدان الذاكرة، من السهل وقوعهم في الخطأ. ففي هذه الحالة، قد كشفت عن ضعف شديد في سعة الذاكرة، غير أنه في تناولنا للمظاهر المميزة لفقدان الذاكرة، كشفت الدراسات المتخصصة عن عدم تأثر سعة الذاكرة بهذا المرض، وهو من الأمور التي صدعت من درجة الشك حول حقيقة مرض الحاله. وفي الممارسات الإكلينيكية الحديثة لفحص هذه الحالات الآن، فإن ضعف مدى الذاكرة الحالية يعد مؤشرًا أساسياً على ادعاء فقدان الذاكرة. كما كشفت الدراسات كذلك عن احتفاظ مريض فقدان الذاكرة بالمهارات التي تعلمها من قبل، ومن ثم فإن اضطراب أداء الفرد على مثل هذه المهارات، من الأمور التي تثير الشك في حقيقة المرض.

كما أن هناك العديد من الاختبارات التي يمكن أن تساعد في كشف هذه الحالات التي تدعى فقدان الذاكرة، ومن أكثر هذه الاختبارات سهولة ما يعرف باختبار (العملة في اليد)، حيث يتعرض المريض لاختبار تحديد اليد التي تضم العملة، فقد كشفت الدراسات عن أن الإصابة الشديدة بفقدان الذاكرة لم تمثل عائقاً أمام المريض لتحديد اليد الصحيحة، بينما كشف المدعون عن انخفاض شديد في فرص النجاح. ومن الاختبارات التي تستخدم أيضاً في التفرقة بين المريض وبين من يدعى المرض، اختبار التعرف والتمييز بين ما سبق رؤيته وبين غيره، على قائمة الكلمات.

ورغم أن الدراسات قد أشارت إلى أن مريض فقدان الذاكرة يستطيع أن يحقق نجاحات تصل إلى 50%， إلا أن مدعى المرض يكشف عن فشل شديد في تحقيق النجاح لا يصل حتى إلى هذه النسبة، مشيراً بهذا إلى أنه يعرف الإجابة، لكنه يتظاهر بعدم المعرفة.

#### فقدان الذاكرة والتعامل القانوني:

في حالات ارتكاب الجرائم، فإن الدفع بوجود مرض فقدان الذاكرة قد يكون له نتائج حاسمة في عملية المحاكمة وتحديد درجة العقوبة، فقد يثار القول حول أهلية الفرد أساساً للمحاكمة، كما قد يثار القول أيضاً حول وقوع هذا المريض ضحية لتأثير الأعمال الإرادية، حيث يقوم الفاعل بأداء فعل ما دون وعي منه بذلك، وحديثاً تعتبر الجرائم التي ترتكب أثناء النوم أحد الأمثلة على هذا.

#### الشفاء في مقابل الذاكرة الزائفة:

في عام 1969، الثاني والعشرين من سبتمبر، اختفت طفلة في الخامسة من عمرها، وبعد مرور شهرين على اختفائها، ظهرت جثتها في مكان خارج مديتها، ورغم وجود العديد من المؤشرات، إلا أن الفاعل ظل مجهولاً. وبعد مرور عشرين عاماً على هذه الحادثة، استطاعت صديقة هذه الطفلة أن تكشف عن الجاني، فقد تذكرت يوم الاختفاء، وكيف ذهبت مع والدها وصديقتها في نزهة بالسيارة، ثم توقفهم في حديقة عامة، ومحاولات الوالد الاعتناء على صديقتها، ثم كيف حدث اختفاء الطفلة وخبر مقتلها، واستدعت الصديقة البوليس وأدلت إليه بكل المعلومات التي على إثرها تم إلقاء القبض على الوالد الذي اعترف بالجريمة وقامت محكمته.



إن ظاهرة استعادة الذاكرة، أصبحت الآن منتشرة إلى درجة كبيرة، ويطلق على هؤلاء مجتمع الذاكرة الزائفة، غير أنه مع تفسير فقدان الذاكرة بظاهرة الكبت، يصبح استعادتها أمرًا ممكناً مع العلاج النفسي، فقد تم استعادة الكثرين للذكريات المكبوتة أثناء جلسات العلاج النفسي. كما أن هناك اعتقاد قوى بين علماء النفس التجربيين، أن أسلوب العلاج النفسي يساعد كثيراً على استعادة الذاكرة المفقودة؛ حيث إن المعالجين النفسيين يؤمنون بوجود الكبت، ومن ثم فإنه أثناء العلاج يعمل المعالج على استعادة الفرد لما تم كنته، كأحد الأدوات الأساسية للوصول إلى الشفاء، بالإضافة إلى ما وأشارت إليه الدراسات من ميل شديد لدى المعالج لاستعادة الذكريات، حتى وإن ضمت الإساءات المؤلمة والوحشية. فضلاً عن أن المعالجين على استعداد لقبول الذكريات المبكرة؛ باعتبارها ذكريات حقيقة وأصيلة، على الرغم من المعلومات عن فقدان ذاكرة الطفولة.

ومن النقاط المهمة أيضاً أن المعالجين يشجعون على ظهور الذكريات المبكرة في جلسات العلاج النفسي، خاصة ما يتصل منها بإساءة المعاملة، وقد قدم لوفنسن أداته على ذلك من أقوال المعالجين النفسيين (Loftus, 1993). فضلاً عن هذا، فإنه لا بد من تذكر أن استخدام التنويم المغناطيسي يبعد من الحالات التي تقرب كثيراً بين الفرد وبين مثل هذه الخبرات، حيث يكون في حالة من الاستسلام وطاعة الأوامر التي تصدر إليه من المستجوب له، بل أكثر من هذا، فإن التنويم المغناطيسي يمكن أن يستخدم في زرع ذاكرة عن أحداث لم تحدث في الأصل. ففي تجربة قام بها لورنس وبيري "Laurence & Perry" على سبع وعشرين فرداً، نوموا تنوئياً مغناطيسيًّا، وطلب إليهم أن يتخيروا أيًّا من أمسيات الأسبوع الماضي، ويدركوا ماذا فعلوا فيها قبل الذهاب إلى النوم، وأوحى إليهم الباحث أنهم قد استيقظوا على ضوضاء حدثت في تلك الليلة، وبعد الاستيقاظ من النوم، كان 50% من أفراد العينة ما زالوا يعتقدون فعلاً في وقوع ذلك الحدث (وهو الاستيقاظ على ضوضاء)، وحتى بعد إخبارهم أن هذا الحدث قد تم الإيحاء إليهم به، وأنه لم يحدث أصلاً، إلا أنهم كانوا يصررون على أنه قد حدث بالفعل.

ولا يعد التنويم المغناطيسي هو السبيل الوحيد إلى تشويه الذاكرة، أو زرع ذاكرة عن أحداث لم تحدث بالفعل، إذ إن الأبحاث قد أشارت إلى ما يسمى بتأثير المعلومات الخطأ، وهو الأمر الذي يؤدي إلى الاعتقاد بأن أحداً زائفه قد حدث فعلاً. وقد كشفت هذه الدراسات عن أنه يمكن تشويه ذاكرة الراشد عن تفاصيل حدث ما، بل وفي زرع حدث ما بأكمله (Loftus & Coan, 1995).

وتعد دراسة الأفراد الراشدين الذي تم تشخيصهم بأنهم قد تعرضوا للاستغلال الجنسي في الطفولة من قبل آخرين، وذلك طبياً أو غير ذلك - من التوجهات العلمية لدراسة مدى كبت هؤلاء الأفراد للذاكرة الخاصة بهذه الأحداث. غير أن هذه الدراسات قد واجهت العديد من المشكلات المنهجية؛ إذ إن بعضها لم يستطع العثور على هؤلاء الأفراد، والبعض الآخر لم يستطع الحصول على

التوضيح الكاف من الأفراد عن هذه الأحداث. فلاشك أن وقوع الفرد ضحية للاستغلال الجنسي من قبل آخرين، ليس بالأمر الذي يسهل الحديث عنه؛ ومن ثم يظل كبت هذه الأحداث هو تعبير عن عدم الرغبة في البوح بها. وللتغلب على هذا، على المعالج أن يواجهه بما يعرفه عن تعرّضه لهذا الحدث، غير أن استجابة الفرد قد تختلف عما يتوقعه الباحثون. فقد ذكرت إحدى الحالات أنها لا ت يريد أن تذكر هذا الحدث؛ لأنها تريد أن تساعد نفسها على نسيانه، فهي لا تنكره، لكنها تتجنب الحديث عنه (Kuyken & Brewin, 1995).

ويتبين لنا مما سبق أنه لابد وأن تكون على حذر في قبول الذاكرة المستعادة عن أحداث الاستغلال الجنسي باعتبارها ذاكرة دقيقة، لذلك فإنه لابد من المزيد من العلم عن كيفية عمل الذاكرة، خاصة للمعالجين الذين لابد وأن يكونوا على وعي بأن ذاكرة الأحداث ليست قوية، أو قادرة على التغلب على تأثير العوامل الدخيلة.

وفي ختام هذا الجزء عن اضطرابات الذاكرة نفسية المنشأ، جدير بنا أن نؤكد على أنها من الظواهر المشيرة، لكنها تفتقر إلى الكثير من الدراسات العلمية التي تعين على فهمها، وتقديم الأمثلة على حالات فقدان الذاكرة التفككي، حيث يصبح الفرد - جزئياً أو كلياً - منفصلًا عن ذاكرته. وبعد فقدان الذاكرة أقل هذه الاضطرابات شدة؛ حيث إنها تؤثر فقط على جزء من حياة الفرد. ففي ظاهرة فقدان الذاكرة التفككي، فإن ما ينبع عن الاضطراب هو فقدان كامل للهوية الشخصية، بينما في اضطراب تعدد الشخصيات، فإن عددًا من الشخصيات يظهر للتعامل مع جوانب متعددة من حياة الفرد الماضية. ورغم أن التفسير العلمي لهذه الاضطرابات مازال قاصرًا، إلا أنه يبدو واضحاً أن هذه الاضطرابات تحدث لحماية الفرد من ذكرياته المؤلمة، فقدان الذاكرة نفسى المنشأ غالباً ما يرتبط بالجريمة، التي تعزى إلى مشكلات إدمان الكحوليات، أو للإصابة بمرض الفصام.

وكما سبق أن أوضحنا أن حالات فقدان الذاكرة نفسى المنشأ غالباً ما يتم الادعاء بها، وهو ما يمثل تحدياً للفحص الإكلينيكي، كما أن فقدان الذاكرة المرتبط باقتراف الجريمة، لا يحقق الإعفاء من العقاب إلا تحت وطأة بعض الظروف الخاصة جدًا، فضلاً عن أن فقدان ذاكرة الطفولة يفسر الإخفاق في استدعاء الذكريات المبكرة في حياة الفرد.

### ثالثاً: اضطرابات الذاكرة وتوجهات العلاج:

لاشك أن فقدان الذاكرة عضوى المنشأ يؤثر على حياة الضحية تأثيراً واسعاً، فقد يستحيل العمل؛ حيث يصبح الفرد مصدراً للخطر على نفسه وعلى الآخرين، كما يصبح المنزل بيئه خطيرة لهؤلاء المرضى، وفي حاجة دائمة إلى المراقبة؛ للحيلولة دون وقوع المخاطر. وقد يعاني المريض من الإحباط والملل، إذ إن قراءة كتاب ما، أو الاشتراك في مناقشات أو مشاهدة البرامج التلفزيونية،

يتطلب ذاكرة سليمة وواعية، الأمر الذي يتربّط عليه أن يخفّض الفرد نشاطه إلى أدنى حد؛ حتى يمرّ الزمن. كما يؤثّر فقدان الذاكرة كذلك على الحياة الاجتماعية للفرد؛ إذ إن التسيّان الكثيّر وتكرار السؤال مرتّة ومرّات، قد يؤدّي إلى خلق حالة من عدم التحمل والشعور بالضغط النفسي، حتّى بين أكثر المتعاطفين مع الحالة. وقلّ صعوبة التذكّر للأحداث الجديدة المشكّلة الكبّرى لمريض فقدان الذاكرة، كما أن التشوش يلحق أيضًا بذاكرة الأحداث الماضية، إذا أضافنا إلى ذلك المشكلات التي ترتبط بشخصيّة المريض، حيث يتقدّم بعض المرضى حالته - كما يحدث لدى مرض الكورساكوف - تصيّر فقدان الذاكرة لدى آخرين مصدرًا للإحباط والتوتّر والقلق، الذي قد يؤدّي إلى ظهور اضطرابات نفسية أخرى.

وقد طرحت هذه المشكلات على بساط البحث منذ بداية الدراسات لظاهرة فقدان الذاكرة، غير أن النتائج المهمّة في العلاج لم تأخذ مكانًا إلا في الخمسة عشر عامًا الأخيرة؛ ذلك أن تطوير البحث في علاج الذاكرة قد عوّقه الاعتقاد الخاطئ بأنّه لا يمكن عمل شيء حيال الاضطرابات عضوية المنشأ في الذاكرة. ورغم أن ما تم الوصول إليه في العلاج لا يعد أمراً كبيراً، إلا أنه له أهميّة في تحسين حياة الفرد المريض وحياة أسرته. وكما سبق وأن أوضّحنا أن مريض فقدان الذاكرة لا يعد كل شيء، بل يظل هناك بعض الأساسيات التي يمكن أن يبني عليها، مثل القدرة على اكتساب الذاكرة الإجرائية، غير أن هذه المعرفة ليست متاحة للجميع؛ لذلك فإن أحد أهداف علم النفس العصبي هو نشر المعرفة عن فقدان الذاكرة، وعن بدائل العلاج الممكنة.

وباستعراض التراث - فيما يخص مساعدة مريض فقدان الذاكرة عضوية المنشأ - يمكن تقسيم المعينات التي يقدمها المتخصصون إلى نوعين من المعينات:

**أولهما:** ويعنى بتقديم المعينات الخارجية التي تختص بتعديل البيئة المحيطة بالإضافة إليها؛ وذلك لإعفاء المريض من بذل الجهد للتذكّر أو الاسترجاع، وهو الأمر الذي يفضّي إلى إحساسه بالإحباط وفقدان الثقة بالنفس، مما قد ينجم عنه بعض الاضطرابات النفسيّة التي تزيد الأمر تعقيداً، وتشكل عبئاً آخر على من يتولى الرعاية.

**ثانيهما:** يختص بالتعامل مع المريض ذاته، ومحاولة تدريبه على بعض المهارات التي تساعده، وتساعد من يتولى رعايته على التعاون سوياً. ويتضمن هذا النوع من المساعدة تحقيق درجة من التقبّل من المريض لحالته، بالإضافة إلى تحقيقه مزيد من الاعتماد على الذات، وهو ما نوضحه على النحو التالي:

### 1- المعينات الخارجية الموجهة بالبيئة:

يهدف استخدام هذه المعينات إلى مساعدة المريض على أن يكون أكثر استقلالية في التعامل مع المواقف الحياتية. ولاشك أن لذلك مردوده ليس على حالة المريض فحسب، بل أيضًا على حالة بقية أفراد الأسرة المحظيين، حيث تساعد هذه المعينات على خفض المشكلات التي تواجه المريض، ومن ثم تقلل من عبء الرعاية عن المسؤولين عن رعايته. ويقدم المتخصصون ثلاثة محكّات مهمة لاستخدام هذه المعينات؛ حتى يمكن تحقيق أقصى فائدة مرجوة من استخدامها، وهذه المحكّات هي:

- أن يكون استخدام هذه المعينات متناسبًا مع زمن أداء العمل المطلوب من المريض.

- لابد وأن تكون هذه المعينات نشطة؛ لتذكر المريض في الوقت المناسب بالعمل المطلوب؛ إذ من غير المعقول أن نذكر المريض في الصباح بأخذ جرعات دواء فترة الظهيرة.

- لابد وأن تكون هذه المعينات محددة بدقة لما هو مطلوب عمله.

ويقدم باركن "Parkin" عدًداً من الأفكار للتعامل مع مريض فقدان الذاكرة عضوية المنشأ كما يلى:

- 1 استخدام اللافتات التي تشير إلى الأشياء المختلفة واستخداماتها (خزينة الملابس، الثلاجة للطعام ... إلخ).

- 2 وضع علامات على الأماكن التي ينسى الفرد ما يفعله بشأنها، مثل الباب ونسيان المفاتيح مثلاً.

- 3 استخدام لافتات ورقية مكتوبة لتوضيح اليوم، والتاريخ، والأحداث الخاصة بهذا اليوم؛ فالاستخدام الأمثل لذلك يخفض من تكرار السؤال، كما يساعد المريض على الاعتماد على الذات.

- 4 تشجيع المريض على استخدام المفكرة اليومية وتدوين الملاحظات؛ فذلك يساعد على خفض تكرار السؤال، ويزيد من الاعتماد على الذات.

- 5 مواجهة صعوبة عنور المريض على بعض الأماكن، يمكن استخدام بعض العلامات الواضحة للدلالة عليها، مثلًا دهان باب الحمام بلون مختلف واضح.

- 6 وللتغلب على صعوبة عنور المريض على بعض الأشياء، يمكن وضع لافتة مكتوبة عن الأماكن التي يحتمل وجودها فيها، مثل فقدان النظارة أو كيس النقود.

- 7 من المهم أن يكون هناك نظام محدد وثبت في حياة هذا المريض؛ إذ إن تغيير النظام يعمل على اضطراب هؤلاء المرضى، فلا تدخل التغيرات على البيئة المحيطة بهم، أو على الأشياء التي يتعاملون معها، أو على الأماكن التي يحفظونها.



- 8- في استخدام التلفونات، لابد من الحرص على وضع مفكرة لتدوين الرسائل بها، كما يجب أن تكون الأرقام مسجلة على الهاتف؛ حتى يسهل عليه استخدامه.
- 9- تعليق الصور عن أفراد الأسرة والأصدقاء والأقارب على الحائط، ويكتب عليها الأسماء، مساعدة المريض على تذكرهم.

ولقد تم التوصل إلى عدد من الأجهزة التي تقدم هذه المعينات بالصورة، التي تساعد على استخدامها بالكافأة التي أشار إليها المتخصصون؛ حتى يمكن أن تساعده بحق على تحقيق الهدف منها، ومن هذه الأجهزة ما يسمى بالصفحة النيرولوجية "Neuro Page"، وهو نظام يتضمن تسجيلاً للمهام المتطلب عملها من المريض، ويستخدم المريض أداة الضبط عن بعد للضغط عليه، لظهور صفحة العمل المطلوب في ذلك الوقت تحديداً. وقد أثبت هذا الجهاز كفاءته مع العدد الأكبر من مرضى فقدان الذاكرة، غير أن هذا الجهاز ما زال غير معروف تجارياً.

ولقد استطاع بعض المعالجين تعليم مرضى الزهيمير أداء أعمالهم اليومية بنجاح، من خلال استخدام ساعة اليد المزودة بمانبها، وعند إصدار الصوت، على المريض أن يراجع مذكرته اليومية ليعرف العمل المطلوب منه في هذه الساعة. وهكذا، فإن البحث مستمر من أجل مساعدة مضطرب الذاكرة عضوية المنشاً.

#### 2- المعينات الداخلية الموجهة بالمرضى:

ويقصد بهذا النوع من المعينات، التدريبات الموجهة إلى الذاكرة، واستخدام الإستراتيجيات التي تساعده على تحسين أداء الذاكرة، ونقطة الانطلاق هنا هي أن الذاكرة كغيرها من العضلات، يمكن تقويتها بالتدريب، بينما تضعف في حالة عدم الاستخدام. ولقد قدمت الشواهد التجريبية بعض الدعم لهذا القول، ففي تجربة إريكسون وشيز "Ericsson &Chase" على أحد الطلاب، طلب منه التدرب على حفظ الأرقام ساعة يومياً من ثلاثة إلى خمسة أيام في الأسبوع. ولقد كشفت النتائج عن تقدم كبير في تحسين سعة الذاكرة الرقمية، فحيث كانت البداية بسبعين أرقاماً فقط، انتهى بالتدريب إلى ثمانين رقمًا، ورغم أن ذلك يتضمن مائتين وثلاثين ساعة من التدريب، إلا أن العائد كان مذهلاً.

والأهمية التي تمثلها هذه النتيجة تتلخص في أن سعة الذاكرة الرقمية تعكس عمل الذاكرة قصيرة المدى، ومن ثم يمكن القول إن التدريب قد يؤدي إلى زيادة كفاءة الذاكرة قصيرة المدى.

ولقد حاول ذلك جودفري ونيت "Godfrey& Knight" عام 1985 مع مرضى كورساكوف، حيث تم تدريفهم على مدى اثنين وثلاثين ساعة على تعلم قائمة من الكلمات، غير أن التدريب لم

يسفر عن أي تحسن يذكر. وفي تجربة أخرى على عينة من ذوي إصابات الرأس، تم تدريبيهم ضمن البرنامج التأهيلي لهم على مدى ستة شهور، بإجمالي ستمائة وخمس وعشرين ساعة، إلا أن العائد كان ضعيفاً للغاية. وباستخدام الحاسب الآلي، حاول ميدلتون (Middleton, 1991) تدريب عينة من المرضى على تحسين أداء الذاكرة على مدى اثنين وثلاثين ساعة، إلا أن النتائج لم تكشف عن تحسن في الأداء.

وفي مقابل فكرة التدريب التي لم تسفر عن تحسن في أداء الذاكرة، رغم زيادة عدد ساعات التدريب، كانت الفكرة المعايرة التي تعتمد على استخدام أكثر الإستراتيجيات المؤثرة في أداء الذاكرة لرفع كفاءة الأداء. ولقد قام جاردنر بتجربته على أحد المرضى فاقدى الذاكرة باستخدام التنغيم "RHYMES"؛ وذلك لتعليميه حفظ بياناته الشخصية، وهي كالتالي:

, memory is the game,I'm in VA jamica Henery's my name Plain, my bed's on 7 D, the year is 73,every day I make a little Gain.

ولاشك أن تعليم الكلمات المنغمة أكثر سهولة من الكلمات المكتوبة المرسلة؛ لأنها تحدد الاستجابة المتطلبة من المريض.

ومن الإستراتيجيات المؤثرة أيضاً استخدام الحروف الأولى من الكلمات، لتكون كلمة واحدة تدل على عدد من الأشياء مثلاً، كأن تستخدم كلمة واحدة للدلالة على الأشياء التي تضمها قائمة مشتريات للطعام؛ إذ وجد أنه من السهل على المريض حفظ الكلمة ليستدل منها على الأشياء المطلوبة.

وكما سبق أن ذكرنا في الفصول الأولى أن استخدام التخيل للربط بين الأشياء يساعد على كفاءة التذكر، فتعلم الأسماء بصفة خاصة يمثل صعوبة لدى مريض فقدان الذاكرة، كما أن كتابة الاسم لا تساعد كثيراً، خاصة إذا كان المطلوب معرفة عدد من الأسماء. ولقد استطاع ويلسون (Wilson, 1982)، أن يعلم مريضاً بفقدان الذاكرة اسمًا لأحد الأفراد يومياً باستخدام التخيل، منها تحويل الاسم إلى صورة مع ارتباطها بوجهه الخاص بصاحب الاسم، وكذلك أيضاً تحويل معنى الاسم إلى صورة مع ارتباطها بوجه صاحب الاسم. وقد نجح هذا الأسلوب في أن يعلم المريض اثنى عشر اسمًا، في اثنى عشر يوماً، كما نجح جرنبرج (Grunberg, 1991)، في استخدامه مع الأطفال ذوي صعوبات التعلم.

ورغم فاعلية استخدام الربط بين الصور المميزة وبين الوجوه في تعلم الأسماء مرضى فقدان الذاكرة، إلا أن لها حدودها؛ فاختيار الصور المناسبة ليس بالأمر السهل، كما أن هذا الأسلوب قد يتعدى استخدامه مع بعض مرضى إصابات المخ.

ومن التكتيكات التي استخدمت في تعليم فاقدى الذاكرة ما يعرف بالتعرفة محددة البعد "domain-specific knowledge"，وتعنى تعلم المعرفة أو المعلومات المرتبطة بوضع ما يواجه فيه المريض صعوبة. ويعد اختفاء الرموز أو العلامات "Vanishing cues" أحد نماذج هذا التكتيك، وفيه يتعلم المريض الربط بين الكلمة الصحيحة وبين تعريفها. ففي برنامج لتعليم مجموعة من مرضى الذاكرة عدد من الكلمات الخاصة باستخدام الحاسوب الآلي، يعرض التعريف على المريض، مثلًا تخزين المعلومات، ثم تعرض على شاشة الحاسوب الآلي كلمة "Save" حرًقاً بعد آخر، حتى تكتمل الكلمة الصحيحة. وفي التدريبات اللاحقة، يتم حذف حروف هذه الكلمة بالتدريج؛ حتى يستطيع المريض في النهاية أن يصل إلى الاستجابة الصحيحة دون الاستعانة بعرض حروف الكلمة أو أي منها.

وفي مقارنة بين طريقة اختفاء العلامات وبين طريقة الحفظ العادي، قام جليسكي وشاكر بمقارنة على عدد من مرضى فقدان الذاكرة لتعلم عدد من الكلمات الخاصة بطريقة الكتابة على الحاسوب الآلي، ورغم أن تعلم مرضى إصابات المخ كان بطريقاً، وفي حاجة إلى التكرار عدة مرات، إلا أن النتائج قد أسفرت عن كفاءة طريقة التعلم باستخدام اختفاء العلامات وتميزها على طريقة التعلم العادي. وحالياً تستخدم هذه الطريقة في تعليم مرضى فقدان الذاكرة نظام الكتابة باستخدام برنامج "word processing". كما يذكر "Parkin" أنه قد وجد أن طريقة اختفاء العلامات أو الرموز من أكثر الطرق الجاذبة لتعليم الأفراد ذوي الذكاء اللغوي المنخفض، أو مرضى اضطرابات الفص الأمامي من المخ (parkin,1998).

وحالياً هناك مجموعة من علماء النفس المتخصصين يديرون في إنجلترا عيادات للذاكرة، وهي تهدف أولاً إلى تحديد مريض الذاكرة وانتمائه إلى مجموعة الذاكرة "memory group" التي تخصه. والفائدة المرجوة من هذه الجماعة تتلخص في أمرين:

- أولهما: أنها تمثل بيئة للمريض، حيث يمكنه مناقشة مشكلاته مع أفراد يفهمون ما يشعر به، من خلال خبرتهم ومعايشتهم، الأمر الذي أدى بالعديد من الحالات إلى التخفيف من معاناتهم بأنهم وحدهم في هذا العالم، حيث يكتشفون أن هناك حالات مماثلة لهم، خاصة فيما يتصل بمشكلات العامل مع الغضب والإحباط.

أما ثانيةهما: فإن الانتماء لهذه الجماعة يدفع عملية الاعتماد على الذات مع مشاركين قد خبروا كيفية التدريب على هذا الأمر، الذي يعظم من فائدة المريض من هذه المعلومات أكثر من غيرها التي يمكن أن يحصل عليها من الذين يقومون على رعايته، أو من غيرهم. وقد قام ويلسون باختبار مدى تقدم الذاكرة وبعض جوانب الشخصية لعينة من هؤلاء الذين يحرصون على المشاركة في مجموعات الذاكرة، وكشفت النتائج عن تحسنهم على أداءات الذاكرة، كما كشفت النتائج كذلك عن انخفاض درجة الاكتئاب لديهم (Wilson,1992).

وخلاصة ما سبق أن فقدان الذاكرة يكون معوقاً للمريض إلى درجة كبيرة، فضلاً عن أنه يمثل درجة كبيرة أيضاً من الضغوط على من يقومون برعايته، وقد يعين استخدام المعينات السابقة - التي تم الإشارة إليها - على حل بعض المشكلات. ولأن الذاكرة ليست كبقية العضلات في الجسم، فهي لا تتحسن بالتدريب المتكرر لها، غير أن استخدام بعض الإستراتيجيات الفعالة في التذكر قد يساعد على رفع مستوى أداء الذاكرة، لكن المشكلة تكمن في عدم حرص المريض على استخدام هذه الإستراتيجيات؛ لذلك يعد التعلم باستخدام تكثيف العلامات أو الرموز أسلوباً فعالاً، غير أن استخدامه في المواقف الحياتية للمريض مازال مطروحاً للبحث.

\* \* \*



## الفصل الثامن

### فقدان الذاكرة

سبق وأن أشرنا في الفصل السابع إلى أن قياس اضطرابات الذاكرة ودراستها وعلاجها، يعد جزءاً من اهتمامات علم النفس العصبي (التخصص الفرعى من علم النفس الذى يعنى بالعلاقة بين إصابات المخ وبين العمليات النفسية)، ويستخدم مصطلح اضطرابات الذاكرة ليشمل أية دراسات علمية لدور الجهاز العصبى في ضبط السلوك. كما أشرنا أيضاً إلى أن في تعامل المتخصصين في علم النفس العصبي مع مرضى اضطرابات الذاكرة، يكون أول مهامهم هو التمييز بين الاضطرابات عضوية المنشأ الناتجة عن سوء توظيف المخ، وبين الاضطرابات نفسية المنشأ؛ حيث لا يوجد سبب وظيفي واضح يرتبط بهذه الاضطرابات، وهو ما يطلق عليها اضطرابات وظيفية، وهذا الأمر يمكن تحديده من قراءة تاريخ المريض وسجلاته الطبية، غير أنه لسوء الحظ، فإن التفرقة بين هذين النوعين من اضطرابات الذاكرة خاصة فقدان الذاكرة ليس دائماً بالأمر اليسير؛ ذلك لأن العوامل النفسية قد تغلف الاضطراب العضوي، مما يؤدي إلى مشكلة حقيقة في قياس الاضطراب، كما أن الاضطراب النفسي قد يزداد تعقيداً في بعض الاضطرابات مثل الصرع.

وقد كشفت تقارير حالات اضطرابات الذاكرة عن استخدام عدة مصطلحات وصفية، فقد يوصف المريض بأنه يعاني من اضطراب الذاكرة قصيرة المدى "short-term memory"، أو الذاكرة الحديثة "recent memory"، أو يعاني من اضطراب ذاكرة الأحداث البعيدة "remote memory"، وقد تكون هذه المصطلحات غير محددة على نحو واضح، وتحتمل عدة تفسيرات، مما قد يؤدي إلى التعقيد أو صعوبة الفهم؛ لذلك فقد عمد المتخصصون الآن إلى الاتفاق على بعض المصطلحات التي يمكن تحديدها إجرائياً، منها استخدام مصطلح فقدان الذاكرة السابقة على المرض بما فيها أسباب الإصابة "retrograde amnesia"، أو فقدان ذاكرة الأحداث الراهنة، وما بعد الإصابة بالمرض "anterograde amnesia". كما أن الفترة الحياتية قبل حدوث المرض تسمى قبل الاضطراب "pre-morbid" ، وال فترة التي تلى حدوث المرض تسمى ما بعد الاضطراب "Post-morbid". ولاشك أن الاتفاق على هذه المصطلحات يعد أمراً ضرورياً في الدراسة العلمية للاضطراب، حيث تتوحد لغة المتخصصين؛ مما يؤدي إلى سهولة التواصل بين أفراد التخصص الواحد، وإلى دقة التشخيص الذي يساعد على دقة رسم الخطة العلاجية.

ويعد فقدان الذاكرة من أنواع اضطرابات الذاكرة، حيث إن اضطرابات الذاكرة تتضمن بالضرورة فقدان الذاكرة . وجدير بالذكر . - قبل الانتقال إلى تفاصيل هذا الجانب - أن نشير إلى

تعدد أسباب حدوث هذا الاضطراب في أداء الذاكرة، الأمر الذي يعكس أيضًا تعدد مصادر هذا الاضطراب، لكنه لابد من ملاحظة أنه ليس هناك اضطراب عضوي المنشأ، خالص من تداخل العوامل السيكولوجية وتفاعلها معه. لذلك فإنه قبل إجراء القياسات لتحديد الاضطراب، لابد وأن تكون هناك قراءة جيدة لتاريخ الحالة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل في الفصل الخاص باضطرابات الذاكرة.

ومن ثم، فقد حرصنا على إفراد هذا الفصل للتناول التفصيلي لاضطراب فقدان الذاكرة، وإلقاء المزيد من الضوء على علاقته بإصابة فصوص المخ، ونوعية هذه الإصابة، وتأثير هذا على أداء الفرد. ثم يعرض الفصل بعض أدوات وطرق قياس فقدان الذاكرة، وقدرتها على تشخيص نوعية الإصابة، وكفاءة الوظائف المعرفية والنفسية العصبية.

### **فقدان الذاكرة:**

في الأعمال الأدبية غالباً ما يصور فاقد الذاكرة على أنه يتوجول في الأماكن المختلفة، غير قادر على قول من هو، أو كيف وصل إلى هذا المكان، غير أن ذلك لا يمثل إلا عرضاً محدوداً لفقدان الذاكرة، فالمصطلح العلمي لها هو "Amnesia"، ويستخدم في علم النفس العصبي للإشارة إلى مريض يعاني من زمرة أعراض فقدان الذاكرة، وهي يمكن تحديدها حسب هذا التخصص في كونها اضطرابات دائمة وشاملة للذاكرة تتبع إصابة المخ (Parkin, Alan J., 1997, P:85). ويرجع تاريخ الاهتمام بدراسة هذه الظاهرة إلى قدماء المصريين حيث كان اهتمامهم بدراسة المشكلات العصبية. وفي اليونان اهتم هيوبقراط بتشخيص الصرع باعتباره إصابة في المخ، كما أضاف أيضاً إلى أن إصابة أحد جانبي المخ يؤدي إلى الشلل في النصف المقابل من الجسم، لكن لم يكن هناك ما يشير إلى الرابط بين اضطرابات الذاكرة وبين المخ. وفي العصور الوسطى، كان أول رسم تشريحى للمخ، وعلى إثره تم رصد وجود الذاكرة كأحد القدرات العقلية المتواجدة في المخ، ولقد أدى تمييز الوظائف المعرفية المختلفة إلى اهتمام الباحثين بمعرفة كيفية توزيع هذه الوظائف في المخ.

وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر، حدث تقدم بخصوص العلاقة بين الذاكرة وبين المخ، عندما بدأت مجموعة من علماء الأعصاب بالاهتمام بدراسة اضطرابات الذاكرة. ولقد تزامن هذا مع تقدم تشريح المخ، من ناحية، ومع تطور الأدوات في مجال علم الأعصاب من ناحية أخرى، هذا بالإضافة إلى الاهتمام بدراسة أعراض فقدان الذاكرة في ذلك الوقت.

### **وتتحدد أعراض فقدان الذاكرة فيما يلي:**

- عدم وجود أدلة على اضطراب الذاكرة قصيرة المدى، كما تقامس باختبارات الذاكرة الرقمية.
- سلامة ذاكرة المعانى والوظائف المعرفية، كما تقامس باختبار وكسيلر للذكاء.

- وجود فقدان شديد لذاكرة الأحداث الراهنة واللاحقة على الإصابة بالمرض "Anterograde amnesia" فعلى اختبارات التذكر، مثل التذكر الحر، ينخفض الأداء إلى درجة كبيرة، كما أن اختبار الذاكرة على اختبار وكسler للذكاء يكون منخفضاً جداً، كما ينخفض الأداء على اختبارات التعرف.
  - وجود فقدان لذاكرة الأحداث السابقة على المرض، بما فيها أسباب الإصابة في حالة وجودها "retrograde amnesia" مع تغير مذاها من مريض إلى آخر؛ إذ بينما يعاني أحدهم من نقص شديد، يعاني الآخر من نقص في الذاكرة للأحداث القريبة فقط قبل فترة الاضطراب.
  - سلامة الذاكرة الإجرائية "procedural memory"، كما تقامس بمهارة التعلم، والتعلم الترابطى، والتتميز إلى درجة كبيرة.

وتشير هذه الخصائص العامة إلى أن فقدان الذاكرة ليس هبوطاً عاماً في وظائف الذاكرة، لكنه اضطراب يخص بعض الوظائف دون البعض الآخر، فعلى حين تضطرب ذاكرة تعلم المعلومات الجديدة، نجد أن مدى أو سعة الذاكرة واللغة لا يتاثران، ويترتب على هذا أمان غاية في الأهمية:

  - 1- أن طبيعة هذه الأعراض لفقدان الذاكرة لابد وأن يقابلها نماذج لفقدان الذاكرة، تبني على أساس يأخذ في اعتباره نماذج اضطرابات التي تحدد لفقدان الذاكرة.
  - 2- والأمر الثاني خاص بنمط اضطراب وما يضيفه من بعض الإيضاحات إلى تنظيم الذاكرة، حيث إن فقدان الذاكرة ليس انهياراً عشوائياً في نظام الذاكرة، بل هو اضطراب يخص بعض المكونات ويترك البعض الآخر.

التشخيص العصبي الطبي لفقدان الذاكرة:

إن دراسة عينات من مرضى فقدان الذاكرة، تعد مصدراً مهماً لمزيد من المعرفة عن التشريح العصبي للذاكرة، فقد يتمثل الشكل الأول من هذه المعرفة في دراسة المرضى بعد الوفاة؛ حيث يصبح فحص المخ أمراً متاحاً، أما اليوم فهناك عدد من الأساليب التي تعين على هذا دون انتظار لحدوث الوفاة، منها الأسلوب المباح الآن، وهو استخدام أشعة (Computerized axial tomography "CAT")، وهي المستوى المتطور من أشعة إكس، وتستطيع فحص كثافة المخ في مناطق عديدة، وعمل صورة ثلاثية البعد. ثم كان استخدام الرنين المغناطيسي "Magnetic Resonance (MRI)"، ويتضمن هذا الإجراء الترتيب اللحظي للذرات في توجه واحد من خلال المجال المغناطيسي، باستخدام أشعة راديو، وعندما تردد هذه الأشعة فإن الذرات تحدث رنيناً مغناطيسيّاً، وهو يستخدم في عمل الصورة، وحديثاً جداًً أمكن تطوير الرنين المغناطيسي لاستخدامه في قياس التغيرات الفسيولوجية في المخ، وهو ما يُعرف بالرنين المغناطيسي الوظيفي.

(FMRI). ومن التكنولوجيات الحديثة أيضًا استخدام الـ "PET" (positron emission tomography)، وهو يستخدم كذلك في عمل صورة عن المخ، بالإضافة إلى قياس مدى وجود النظائر، وفي أي المناطق من المخ. كما يمكن أن يقدم معلومات عن الوضع الفسيولوجي لمناطق المخ المختلفة؛ ولذلك فهو يعد من الأدوات الفعالة لقياس نشاط المخ أثناء أداء الفرد لهمة ما، وبالتالي يمكن عمل خريطة لأنشطة العقلية ومناطق المخ المختلفة.

ولقد كشفت هذه التكنولوجيات عن تحديد أسباب حدوث فقدان الذاكرة؛ إذ يمكن أن تحدث زمرة أعراض فقدان الذاكرة من إصابة أجزاء أو مناطق مختلفة من المخ. ولاشك أن إصابة المخ لابد وأن تؤدي إلى التأثير على سرعة استرجاع المعرفة السابقة المتواجدة بالفعل، من ناحية، وبطء اكتساب المعلومات الجديدة، من ناحية أخرى. ويبدو أن هناك بعض المناطق المحددة في المخ التي تعد ذات أهمية كبيرة للذاكرة ووظائفها، وتتضمن هذه المناطق ارتباطاً بين الفص الصدغي من المخ، مع الفصوص الأمامية، وما يسمى بالجهاز الطرفي "limbic system"، والذي يضم عدداً من الأجزاء، مثل قرن آمون والبناء تحت القشرى "subcortical"، والأجسام الحلمية (وهي أجزاء صغيرة لكنها أبنية مهمة توجد في عمق المخ). فإذا كان الأجزاء قد تأثرت من عدد من المصادر، تتضمن التهابات المخ التي تنتج عن فيروسات تصيب المخ، حالات عدم وصول الأكسجين إلى المخ (anoxia)، والجلطة (stroke)، أو مرض الكورساكوف، حيث يعد تناول الخمور بكثرة أحد الأسباب الشائعة لحدوثه.

ويرجع أغلب ما نعرفه عن فقدان الذاكرة من دراسة مرض الكورساكوف "Korsakoff"، فقد كشفت الدراسات الطبية العصبية على هؤلاء المرضى أنهم يعانون من إصابات متعددة في أبنية المخ، ولعل أكثرها وضوحاً في الأجسام الحلمية، وألياف الصلب السريري في الدماغ، ومناطق أخرى تنتهي إلى البطين الدماغي الثالث، وهناك درجة من تورط القشرة المخية الأمامية في هذه الإصابات، وتحديداً جدأً تمت الإشارة إلى أن مرض كورساكوف يعانون من إصابات في الفص الصدغي الأوسط، ومن الجدير بالذكر أن الكثير من القضايا الخاصة بهذا المرض ما زالت محل نقاش.

فأعراض مرض كورساكوف تتبلور في التلف الدماغي، والذي يتضمن اختلال الحركة، والاعتلالات البصرية والارتباك العقلي الشديد، ويوجد الآن دليل دامغ على أن السبب المبدئي لهذا المرض هو نقص الـ "thiamine" (فيتامين ب)، الذي يؤدي إلى نزيف في منطقة الدماغ الأوسط، ويؤدي إلى انهيار مفاجئ في الوظائف المعرفية، ولقد انبثقت هذه الفكرة من الدراسات التي كشفت عن أن العلاج بفيتامين ب أدى إلى تخفيف القصور لدى مريض الكورساكوف، غير أن هناك بعض القضايا الخاصة بهذا المرض ما زالت رهن الدراسة، منها: أن هناك ادعاء بأن الشكل الثابت من المرض يعتمد على كل من نقص فيتامين ب وإدمان الكحوليات، غير أن هناك عدداً من الإصابات

بالمرض مع عدم وجود إدمان الكحوليات؛ ومن ثم فإن فرض ارتباط الإصابة بهذا المرض بالنقص الوراثي في بعض الإنزيمات يظل وارداً.

وبينما تظل أعراض مرض كورساكوف السبب الرئيسي في حدوث فقدان الذاكرة، وهناك أسباب أخرى قد تكون مسؤولة عن حدوثها؛ إذ إن منطقة الدماغ الأوسط عرضة للاضطرابات الوعائية، والكثير من حالات فقدان الذاكرة تحدث نتيجة لهذا.

كما يمكن أن تحدث حالات فقدان الذاكرة بسبب وجود ورم في المخ؛ لأن أرضية البطين الثالث في المخ ترتبط بأبنية الدماغ الأوسط، ويمكن للأورام أن تمثل نوعاً من الضغط على هذه الأبنية، وتؤدي إلى فقدان الذاكرة. كما ثبت أيضاً - من خلال الحالات - أن العلاج بالإشعاع، في حالة نتائجه الإيجابية التي ترتبط بانكماس الورم، يخفف الضغط، وبالتالي تتحسن ذاكرة المريض. وفضلاً عن هذا، فإن الإصابة بالجلطة الدماغية تعد من أسباب حدوث فقدان الذاكرة، حيث يؤدي النقص في وصول الدم إلى الفص الصدغي إلى تدهور سريع، يتذرع منه في خلايا المخ، يعرف بالاحتشاء<sup>(1)</sup>، ويعني الموت النسيجي نتيجة انسداد الوعاء المغذي له.

وفي كل الحالات التي يستعرضها التراث عن فقدان الذاكرة، يمثل اضطراب الذاكرة أحد الأعراض المتعددة للاضطراب العقلي. غالباً ما يكون من الصعب معرفة هل مشكلة اضطراب الذاكرة مشكلة أولية أو أصلية، أم أنها تعكس اضطراباً في نظام الذاكرة ونتيجة لمشكلات أخرى؟ ففي الأفراد الذين يتعرضون لإصابات المخ، غالباً ما تتضمن مشكلة الذاكرة صعوبة في التركيز، ويمكن أن يزيد من تعقيدها وجود إصابات مخية أخرى، يمكن أن تؤدي إلى مشكلات في الإدراك واللغة والفهم، أو اضطرابات الشخصية، وهناك عدد قليل من المرضى يعانون من فقدان ذاكرة حاد، ومع ذلك لا يكشفون عن اضطرابات عقلية.

ومن أكثر الأمثلةوضوحاً على اضطرابات الذاكرة اضطراباً أصيلاً، إحدى الحالات التي أشرنا إليها في موضع آخر من هذا الكتاب. تلك الحالة التي تعرض صاحبها للإصابة بفقدان الذاكرة على إثر جراحة في المخ؛ للتخفيف من عدد نوبات الصرع. فقد ظل قادرًا على الكلام، وتذكر حياته السابقة، لكنه كان غير قادر على إضافة أي جديد إلى الذاكرة، وكان أداؤه على تذكر كلمات القائمة أو في الألفة بوجوه المحبيين به سيئاً إلى درجة كبيرة، لكنه ظل يعيد قراءة المجلات عدة مرات دون ملل من ذلك، كما كان يسأل عن الحدث عدة مرات ويظهر نفس رد الفعل المرتبط بهذا الحدث في كل مرة. فضلاً عن أنه لم يستطع التوافق تماماً مع عمله، ولقد تنبه الأطباء على إثر هذه الحالة إلى أنهم

1- الاحتشاء "infarction": يعرف الاحتشاء في قاموس علم النفس للجمعية الأمريكية لعلم النفس 2007 بأنه منطقة من الأنسجة الميتة الناتجة عن انسداد الشريان المغذي. ويكون لاحتشاء آثاره المتعددة التي تدرج من المتوسطة إلى الشديدة؛ اعتماداً على مدى موات الأنسجة ومكانها في المخ (VandenBos,Gary R. 2007,P 478).

لا يجب إزالة الأجزاء المعنية بحدوث نوبات الصرع من نصف المخ معًا؛ حيث إن ذلك هو الذي يؤدي إلى فقدان الذاكرة الحاد، كما في هذه الحالة.

### إصابة الفص الصدغي وفقدان الذاكرة:

أما عن علاقة إصابة الفص الصدغي بفقدان الذاكرة، فرغم تبين هذا منذ عام 1880، إلا أنه لم يكن قد تمت الموافقة عليه قيامًا حتى الخمسينيات من القرن العشرين. وفي ذلك الوقت كان التكنيك المستخدم هو ما عرف باستئصال الفص "lobectomy" كوسيلة للتعامل مع إصابة الفص الصدغي بالصرع، حيث كان يتم إزالة المنطقة المسئولة عن حدوث النوبات. ولقد كانت تقارير الباحثين عن هذا الإجراء تؤكد على فاعليته في حالة الصرع، لكنه في بعض الحالات، كانت له آثار جانبية شديدة في تدمير ذاكرة المريض. كما ورد في تقاريرهم أيضًا، أن الإصابة بفقدان الذاكرة لدى بعض المرضى إنما يرجع إلى إزالة قرن آمون واللوزة أثناء العملية. وقد كان من المعتقد أن فقدان الذاكرة يأتي نتيجة لإزالة الجزئين معًا، إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت أن إزالة قرن آمون وحده كاف لحدوث فقدان الذاكرة، كما أن إزالة اللوزة يؤثر على أداء الحركة أكثر من الذاكرة (Young et al., 1995). وبالإضافة إلى ما سبق، فإن هناك أسبابًا أخرى لإصابة الفص الصدغي وحدوث فقدان الذاكرة كنتيجة لها.

ومن أكثر الأسباب شيوعًا هو ما يعرف بإصابات الدماغ المغلقة "closed head injury"، والتي تتضمن توجيه ضربة إلى الرأس دون اختراق الجمجمة. فعندما تحدث إصابة الرأس، يميل المخ إلى أن يتحرك في مكانه، ويكون الفص الصدغي -بصفة خاصة- أكثر عرضة للتراجع هذه الإصابة، ولوسوا الحظ فإن إصابات الدماغ المغلقة من أكثر الإصابات شيوعًا.

وتتجدد الدراسات عن تأثير الفص الصدغي الأوسط "medial temporal lobe" على الذاكرة، الاهتمام من الباحثين عبر عدد من التخصصات؛ وذلك لتحديد نتائج إصابة هذا الفص على أعمال الذاكرة. ففي مؤتمر مصغر عام 2004 أقيمت في أكسفورد، مثل أداء هذا الفص على الذاكرة والإدراك القضية الأساسية له، حيث تمت مناقشة عدد من التجارب التي تم إجراؤها على الكائنات الحية غير الإنسانية (الفقران) وعلى الإنسان؛ للوصول إلى النتائج التي تخص الذاكرة في علاقتها بإصابة الفص الصدغي. ولقد اتضحت من تلك النتائج مدى الارتباط بين إصابة الفص الصدغي، وبين اكتساب أحداث جديدة تعتمد على الحدث أو تعتمد على المعنى. ولقد أيدت النتائج الأبحاث النفسية العصبية على مدى خمسين عامًا مضت، شملت عينات إنسانية من مرضى الذاكرة، بما فيها أشهر الحالات التي اقتضت إصابتها بمرض الصرع إزالة الأجزاء الجانبية من الفص الصدغي، وتتضمن إزالة عقدة قرن آمون ومناطق أخرى بالمخ. وقد أجمعت نتائج هذه الدراسات على أن مناطق الفص الصدغي تمثل نظامًا متفردًا لذاكرة الأحداث والحقائق التي في نطاق الشعور، مما يعني أن تقسيمات

الذاكرة إلى ذاكرة أحداث في مقابل ذاكرة المعنى، أو استرجاع في مقابل التعرف - تقابل بدقة تسميات العمل داخل الفص الصدغي. كشفت كذلك الدراسات عن تأثير ذاكرة التعرف لدى الإنسان والحيوان معاً، إلا أن الجديد هو ارتباط المنطقة المحيطة بالألف باضطراب ذاكرة التعرف، الأمر الذي يترتب عليه أنه مع عدم إزالة اللوزة وقرن آمون، يحدث اضطراب في قدرة التعرف. ولاشك أن هذه النتائج التي خلصت إليها الأبحاث على تأثير إصابة الفص الصدغي على الذاكرة، يحدد للباحثين معالم الطريق للاستمرار في أبحاث الذاكرة. ولعل إنشاء الجامعات المختلفة لأقسام علم النفس البيو معرفي "Biocognitive Psychology" ، الملحق بقسم علم النفس، يوضح مدى الاهتمام بدراسة الموضوعات النفسية من منظور عبر تخصصي يضم علم البيولوجيا كما يتمثل في دراسة الطب، وعلم النفس التجربى (Graham,kim &Gaffan ,David, 2005).

### إصابة الفصوص الأمامية في المخ واضطراب الذاكرة:

تمثل الفصوص الأمامية في المخ ثلث مساحة القشرة المخية، لذلك فليس من الغريب أن يكون لها العديد من الوظائف، أو يكون هناك عدد من النظريات التي تفسر كيف تعمل، غير أن ما يعنيها هنا هو وظائف هذا الجزء من المخ في علاقته بالذاكرة.

فعل المستوى الطبيعي، فإن أكثر اضطرابات الذاكرة المرتبطة بإصابة الفصوص الأمامية هو ما يعرف بمرض الرغى أو كثرة الترثرة "confabulation" ، وهو ما يعني خلق الذاكرة الزائفة. ولدى أغلب مرضى اضطرابات الذاكرة، حينما يتعرضون للضغط في موقف الاستفسار، فإنهم يحيطون عن كل الأسئلة حتى تلك التي لا يتذكرون إجاباتها. فقد يحيطون عن السؤال: ماذا تناولت عشاءك أمس؟ قد يجيب بقوله: سمك ورز، بينما الإجابة الصحيحة هي غير ذلك. وعلى النقيض من هذا يكون الرغى أو كثرة الكلام الخيالي "fantastic confabulation" ، حيث يعمد صاحب الحالة إلى الاستفاضة الخيالية في وصف الأحداث التي تبدو ضرورة من الخيال للجميع إلا هو. وفي مثال عن إحدى هذه الحالات، حيث عمل جندياً في حرب الخليج وأصيب، ذكر الجندي الوصف التالي (هذا الشهر كان كابوساً أسود حالك السواد .. أحداث صعبة وفراغ متناثر في فوضى عارمة .. أنا أذكر هذه الأشياء المجنونة، وردود أفعال غير محددة لهذه الأشياء، قد تستغرق إعادتها ساعات وساعات. كنت غير قادر على التمييز بين الحقيقة والخيال، الخيال والواقع ... إلخ).

وقد كشفت الدراسات المعملية عن الذاكرة، عن عدد من اضطرابات التي ترتبط بهذه الفصوص الأمامية للمخ، منها ما يعرف بفقدان ذاكرة المصدر "source amnesia" ، وهي تعنى أن يتذكر الفرد حدثاً ما أو حقيقة ما بصورة صحيحة، لكنه يفشل في تذكر مصدر معرفتها. وقد كشفت الأبحاث أن مرضى هذا النوع من اضطرابات الذاكرة كان أداؤهم على وظائف الفصوص الأمامية ضعيفاً للغاية، وقد أكدت هذه النتائج العديد من الدراسات المعملية. ففى تجربة على عينة من

المصابين بهذا الاضطراب، وأخرى من الأسواء، تم تعليمهم عدداً من الحقائق ومصادرها، وبعد أسبوع طلب منهم تذكر الحقائق ومصادر معرفتها، إلا أن النتائج قد كشفت أنه رغم تذكر مجموعة المرضى للحقائق، إلا أنهم فشلوا في تذكر المصادر.

وهناك بعض الشواهد العلمية الآن على أن الفصوص الأمامية تلعب دوراً مهماً في ذاكرة الترتيب الزمني "temporal order" ، فقد أشارت نتائج التجارب إلى أن هؤلاء المرضى قد يؤدون أداء جيداً على اختبار التعرف، لكنهم لا يكونون كذلك على اختبارات حداة المعلومات. ورغم اختلاف الأدوات التي استخدمت، وتتنوع الموضوعات بين الكلمات والأشكال، إلا أنه كان ثابتاً عدم قدرة عينة مرضى الفصوص الأمامية على الأداء على اختبارات الحادة.

أما عن علاقة إصابة الفصوص الأمامية بما وراء الذاكرة "metamemory" ، ويعنى بها القدرة على معرفة إذا ما كانت الذاكرة تتضمن جزءاً محدداً من المعلومات أم لا، مثلاً: عدم القدرة على تذكر عاصمة دولة ما، إلا أنه يمكن التعرف عليها عند رؤيتها، وهو ما يعرف بالإحساس بأنه يعرف "feeling of knowing" - فقد أجريت التجارب في هذا الصدد، وكشفت النتائج عن فشل مرضى الفصوص الأمامية من المخ في تذكر هذه الكلمات.

وعلى اختبارات التعرف، حيث يطلب إلى الفرد التمييز بين الكلمات التي سبق له معرفتها، وبين الكلمات الحديثة التي لم يسبق له معرفتها، وقد يكون ذلك بالعرض المجمل لكل الكلمات مرة واحدة (ما تعلمته وما لم يتعلمه)، أو بالعرض الجزئي لكل كلمة على حدة. كشفت الدراسات على مصابي الفصوص الأمامية من المخ، أنهن يرتكبون عدداً كبيراً من أخطاء "false alarm" (حيث يتواجدون خطأ مع العامل المشتت)، ومن ثم يحدثون الكثير من التدخلات (قد يذكرون معلومات من تجربة سابقة أو مواقف سابقة). ولقد وجد باركن 1996 في دراسته على عينات من هؤلاء المرضى في مقارنتهم بعينات من الأسواء أن نسبة ما يحدثونه من أخطاء في اختبارات التعرف تصل إلى 40% من استجاباتهم، والغالبية منهم كانوا على ثقة من صحة استجاباتهم.

أما عن استرجاع المعلومات بصفة عامة، فإن هناك الكثير من الشواهد على أن الإصابة في الفصوص الأمامية للمخ تؤثر على عملية استدعاء المعلومات تأثيراً بالغاً. وتوضح هذه الاضطرابات في استدعاء الذاكرة الشخصية، فهؤلاء المرضى يمكن أن يكشفوا عن ذكريات غامضة وغير واضحة، ويحتاجون إلى الكثير من الاستيضاхات لكي يقدموا استدعاءً واضحاً ومحدداً للحدث. فقد يطلب من المريض استدعاء حدث ما يرتبط بالزهور، لكنه بدلًا من ذلك يعمد إلى التعبير عن حبه للزهور، فيعاد عليه القول مرة أخرى، وهكذا. وفي دراستها على عينة من هؤلاء

المرضى للتعرف على قدرتهم على استرجاع المعلومات التي ارتبط تعليمها لهم ببعض الرموز - وجدت ميلر (Miller, 1993)، أن أداءهم كان غاية في السوء، مقارنة بالآسيوية.

وفي محاولات التفسير النظري لحدوث هذه الاضطرابات وارتباطها بالإصابة في الفصوص الأمامية للمخ، فإن التفسير الأكثر قبولاً من غالبية المتخصصين في المجال يقضي بما يلى:

"أن الفصوص الأمامية تمثل مركز التنفيذ، الذي يتحكم في أكثر الجوانب تعقيداً ودقة من السلوك؛ فهذا المفهوم التنفيذي يعد أساساً محتملاً لتفسير ما يحدث لهذه الحالات من فقدان القدرة على ضبط النفس واتخاذ القرارات. ولقد تم تطوير هذه الرؤية النظرية على يد كل من نورمان وشاليس (Norman & Shallice, 1986)، وهانلي ودافيس (Hanley & Davies, 1997). وقدموا ما يعرف بالنظام الإشرافي المنشط "supervisory activating system" ، حيث إن هذا النظام يتواجد في الذاكرة لأداء نوعين من المهام، هما:

- مسئولية إرساء الوصف الذي يمثل أساساً للوصول إلى أحداث محددة في الذاكرة، وقد يكون هذا الوصف عامماً نوعاً ما، لكنه من خلال التفاعل مع المخزون في الذاكرة، يصبح أكثر تحديداً.
- هذا النظام يكون مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن مدى دقة وصحة الذكريات المستعادة، فيميز على سبيل المثال بين الأحداث الحقيقة أو الواقعية وبين التصورات الخيالية.

ومن ثم، فإنه - بناء على هاتين الوظيفتين للفصوص الأمامية من المخ - لابد أن المرضى المصابين في هذا الجزء من المخ يعانون من مشكلات؛ إما في تكوين ومحتوى الذكريات التي مرت بهم، أو في صحة ودقة استعادة الأحداث التي مرت بهم.

أما نورمان وشاكتر "Norman & Schacter" فكان لهما تفسير آخر، فهما يفسران ما يحدث لدى المصابين الفصوص الأمامية في المخ بأن لديهم نظاماً ضعيفاً لاستعادة الأحداث، كما أن التمييز بين الوصف والبرهنة على دقة الحقائق لا يوجد بشكل قوي، الأمر الذي يؤدي إلى الشواهد السابقة التي ترتبط بالإصابة. كما يفسران حدوث ظاهرة التقرير الزائف "false alarm" بناء على هذا، حيث تتبع استجابة المريض من ألفته بالكلمات التي يراها. ومن ثم حين تم استخدام فئات مختلفة للمشتتات (مفروشات)، بعيداً عن الموضوعات المستهدفة (حيوانات) - قلت الاستجابات الزائفة لهؤلاء المرضى على اختبارات التعرف.

ورغم وجود بعض الفروق بين النظريتين السابقتين في تفسير ما يحدث لدى المصابين في الفصوص الأمامية، إلا أنهما يتفقان على أن ما يحدث من اضطرابات في الذاكرة لدى المصابين في الفصوص الأمامية من المخ، إنما يرتبط بنظام الاسترجاع أو الاستعادة لدى المرضى. ولذلك فإن

هذه الإصابة تؤدي إلى اضطراب الوصول إلى الذاكرة؛ بسبب وجود الوصف الغامض وغير الواضح أو المحدد مما يتم البحث عنه. لذلك قد يترجم هذا الاضطراب في المظاهر المتعددة السابق الإشارة إليها، وهي ظاهرة الكلام الكثير أو الرغى، وهي من أكثر الظواهر شيوعاً لدى هؤلاء المرضى، أو في فقدان ذاكرة معرفة مصادر المعلومات، أو اضطراب نظام ترتيب الأحداث، أو في مهارات ما وراء الذاكرة، ثم في نقص مهارة استرجاع المعلومات أو استعادتها، وكثرة الاستجابات الخاطئة، أو التقرير الخاطئ عن الأحداث.

وخلال ما سبق أن دراسة الحالات المرضية لفقدان الذاكرة قد ساعدت على فهم أسباب حدوثها، وعلاقة هذا بإصابة مناطق محددة بالمخ، والتفرقة الواضحة بين آثار كل منها على الوظائف المعرفية، وعلى رأسها الذاكرة الإنسانية. ورغم تعامل هذا الجزء من الفصل مع بعض المصطلحات ذات الطبيعة الطبية، والتي قد تبعد بعض الشيء عن الدراسة النفسية، إلا أن هناك لبعض الموضوعات طبيعة خاصة تفرض على الباحث فيها الإمام بنتائج الدراسات في تخصصات أخرى؛ حيث تؤدي إلى استكمال الصورة والمزيد من فهم الظاهرة. وفقدان الذاكرة من هذه الظواهر التي تحتاج في فهمها والتعامل مع مرضها ومشكلاتهم النفسية، التزود بمعرفة التشخيص الطبي لهذه الحالات، حيث توضع البرامج العلاجية والإرشادية، والتنمية الذاتية في ضوء الحدود القصوى التي تسمح بها كل حالة على حدة.

#### فقدان الذاكرة وكفاءة الأداء:

من خلال ما عرفناه عن الذاكرة في الفصول المتقدمة، أنها ليست نظاماً واحداً، لكنها مجموعة متربطة من الأنظمة، فهل جميعها تضرر في حالة التعرض لفقدان الذاكرة؟

لقد أشارت الدراسات في نتائجها المتعددة إلى تأكيد الإجابة عن هذا السؤال بالنفي؛ حيث إن ما يحدث هو اضطراب في بعض الوظائف، مثل تعلم معلومات جديدة، الذي يضطرب اضطراباً شديداً، بينما يظل وجود الوظائف الأخرى دون اضطراب، مثل سعة الذاكرة، أو اللغة، حيث تظل في حالة جيدة، ويترتب على هذا أمران لهما أهميتهما، هما:

- أن طبيعة الاتساق بين أعراض فقدان الذاكرة تعنى أن النماذج التى وضعت عن الذاكرة لابد وأن تنظم، واضعة في اعتبارها أمثل اضطراب الذى تحدث للذاكرة.
- أن نمط الاضطراب قد يضيف بعض الحقائق عن تنظيم الذاكرة، وأهمها هو أن فقدان الذاكرة ليس أنهياًً عشوائياًً في نظام الذاكرة، لكنه يخص بعض الوظائف دون البعض الآخر.

وفي ضوء ما أشارت إليه الفصول السابقة - أن هناك تقسيماً إلى ذاكرة طويلة المدى في مقابل ذاكرة قصيرة المدى - فإن الذاكرة قصيرة المدى، التي تعتمد على عملية التخزين المؤقت الآني الذي

يسهم في وجود بعض العمليات المحددة، لتكوين الذاكرة طويلة المدى، لا تتأثر بفقدان الذاكرة، سواء تم قياسها باختبار السعة، أو اختبار عامل الحداثة، كما يbedo في الاستدعاء الحر. وليس أدل على هذا مما كشفت عنه الاختبارات السيكلوجية عن عدم تأثير سعة الذاكرة قصيرة المدى، للأسماء أو للأرقام وهو ما يشير إلى استمرار عمل هذه الذاكرة، ومن ثم فإن فقدان الذاكرة هو اضطراب في الذاكرة طويلة المدى.

وقد عرّفنا سابقاً أن الذاكرة طويلة المدى تتكون من عدد من الأجزاء أو المكونات، وهي: ذاكرة الأحداث، وذاكرة المعانٍ، ثم الذاكرة الإجرائية. فهل يؤثر فقدان الذاكرة على هذه المكونات جميعاً للذاكرة طويلة المدى؟ وهل يكون هذا التأثير بدرجة واحدة؟ في ضوء العرض لأعراض فقدان الذاكرة، يتضح تناسقها تماماً مع هذا التقسيم للذاكرة طويلة المدى. فحيث يتضح عدم تأثير قدرة المريض على الاستفادة من المهارات التي تم تعلمه لها، يكون عدم تأثير الذاكرة الإجرائية بفقدان الذاكرة. كما أن احتفاظ المريض باللغة والقدرة على التوظيف المعرفي، يشير إلى جودة أداء ذاكرة المعانٍ. غير أنه على العكس من ذلك، فإن الانهيار التام يbedo في تذكر أو إدراك المعلومات الجديدة، وفي صعوبة تذكر الأحداث الشخصية، مما يؤدى إلى القول ب تعرض ذاكرة الأحداث للانهيار في حالة الإصابة بفقدان الذاكرة، وهو ما سنعرض له تفصيلاً فيما يلى.

فيما يخص الذاكرة الإجرائية والتعلم الضمني، فإن نتائج دراسة الحالات المختلفة من ذوى فقدان الذاكرة، قد كشفت عن عدم تأثير القدرة على تعلم المهارات الحركية بفقدان الذاكرة. فمن خلال الأداء على اختبارات التآزر بين اليد والعين، استطاع المرضى تحقيق التحسن في الأداء. وكذلك الأداء على اختبار الرسم في المرأة، فقد استطاع المرضى أيضاً تعلم هذه المهارة، بل وتحقيق التقدم من حيث عدد الأخطاء التي يحدثها الفرد في الشكل المحدد يوماً بعد يوم. كما أثبتت التجارب أيضاً أن المرضى قد أظهروا الاحتفاظ ببعض مهارات التعلم، فحيث عرض على المريض مثير محدد للاستجابة له في اليوم، كان أداؤه ناجحاً. ومع إعادة عرض المثير في اليوم التالي، استطاع المريض أن يحدث الاستجابة الصحيحة في زمن أقل من اليوم الأول بفارق واضح (حيث استغرق في اليوم الأول مائة وستة وثلاثين الثانية، وفي اليوم الثاني سبعة عشر ثانية)، لكنه مع كل هذه الأداءات كان المرضى ينكرون معرفتهم السابقة بهذه المهام، غير أن النجاح في أداء هذه الأعمال قد أكد القول بأن ذاكرة الإجراءات لا تتأثر بفقدان الذاكرة، وأن ذاكرة المرضى قد تستطيع الاحتفاظ بالمعلومات عن التنظيم العقلى للمثير، رغم عدم وعيهم باستعادة هذه المعلومات. كما كشف مرضى الكورساكوف عن تمييز ضمنى للتكرار، بالرغم من الأداء الضعيف للذاكرة المعلنة. وفي دراسات أخرى عن تمييز الصور - حيث يستطيع المريض أن يوحّد بين أجزاء الصورة بنجاح إذا عرضت عليه الصورة قبلًا - استطاع هؤلاء المرضى أن يجمعوا أجزاء الصورة معاً.

كما درس بعض الباحثين التعلم الاحتمالي "probabilistic learning" بين فاقدى الذاكرة وبين الأسوية. ففى إحدى التجارب عرض على الأفراد من العينتين تعلم أى من عرضين، تم تحديدهما مسبقاً، يمكن التنبؤ به من مجموعة الأعراض التى تعرض عليه، مثلاً: الرشح، والكحة، يمكن أن نتنبأ منها بالبرد بنسبة 90%， أما التعب والصداع فيمكن أن نتنبأ منها بالبرد بنسبة 40%， وقد أسفرت النتائج عن تقارب العينتين على هذا التعلم الاحتمالي.

ومن ثم إذا أردنا أن نفيد من النتائج السابقة، نضع السؤال التالي:

هل يستطيع مريض فقدان الذاكرة أن يتعلم؟ وأى نوع من التعلم؟

في ضوء ما تقدم، يتضح أن هناك نوعاً من التعلم يستطيع مريض فقدان الذاكرة أن يحصله، وهو ذلك النوع الخاص بالذاكرة الضمنية أو غير المعلنة، وهو ما أشرنا إليه في الذاكرة الإجرائية الحركية، وذاكرة التعلم العقلى الضمنى. ويوضح كل من سكوير وموس "Squire& Musen" هذه النتائج بالأمثلة الآتية:

- **المهارات:** يستطيع مريض فقدان الذاكرة أن يتعلم المهارات المختلفة، مثل قيادة السيارة. ففى حالة أشرف عليها بادلى بعد تعرضها لفقدان الذاكرة، الذى ارتبط بإجراء عملية فى المخ؛ لخفض عدد وحدة نوبات الصرع، استطاع أن يتعلم مهارة القيادة.

- **الترميز:** حيث يرجع هذا إلى الأداء الجيد الذى تم حفظه على أشياء محددة، مثل الترميز اللغوى، الذى يمكن رؤيته من خلال تجميع أجزاء كلمة سبق تعلمها، أو أن تعرض عليه حروف الكلمة ناقصة وعليه تكميلتها فى ضوء ما تعلمها. ومن الأداءات الأخرى لدراسة تأثير الترميز هو "stem completion"، حيث استطاع فاقد الذاكرة أن يستجيب بالكلمة الرئيسية التى تعلمها.

- **الارتباط الشرطى الكلاسيكى:** حيث يستطيع فاقد الذاكرة الاحتفاظ بما تعلمه عن طريق الارتباط الشرطى. فذلك المريض فاقد الذاكرة الذى اعتاد أن يحيى طبيبه عن طريق السلام باليد، توقف عن ذلك عندما تعرض للإبلام من الطبيب (حيث عمد الطبيب إلى وضع دبوس يوخز به المريض عند مصافحته)، وعلى الرغم من عدم تذكر هذه الخبرة في ذاتها، إلا أنه تعلم ألا يصافحه في اليوم资料.

- **الارتباط الشرطى التقييمى:** وهو أحد أنواع التعلم، وقد يكون ضمئياً ويتم حفظه في المرضى ذوى فقدان الذاكرة، ويعنى أن هناك ميلاً لدى الفرد أن يفضل المألوف على غير المألوف. وكما سبق أن أوضحنا في الفصل الخاص بالتعلم والذاكرة، أن المرضى ذوى فقدان الذاكرة كان تقييمهم للموسيقى التى استمعوا إليها من قبل على أنها الأفضل، رغم أنهم لا يحتفظون بالخبرات السابقة أو يتذكرونها.

**التعلم غير المترابط:** كما يتعلم الأطفال أن يتحدثوا لغتهم الأم وفقاً لقواعد اللغة قبل أن يتعلموها، فإن مرضى فقدان الذاكرة يستطيعون أن يتعلموا حل المشكلات كما في الألغاز أو الأحجية "puzzles" بسرعة، أي أن المريض استطاع أن يتعلم بعض المفاهيم البسيطة سريعاً، فهو يستطيع أن يحدد النمط الذي تجتمع عنده النقاط المختلفة .(Squire&Musen, 1993)

وفي ذاكرة المعاني، إذا كان مريض فقدان الذاكرة يستطيع أن يحفظ بذاكرة المعاني، فإن ذلك يعني أنه يستطيع أن يتعلم معرفة عامة جديدة. ففي إحدى التجارب، كان على المريض أن يتعلم معنى عشر كلمات غير مألوفة، وبعد قدر كبير من التدريب استطاع أن يضع أمام كل كلمة المعنى الخاص بها. وفي تجربة أخرى، حاول جروسمان (Grossman, 1987)، تعليم بعض مرضى الكورساكوف الربط بين أحد الألوان وبين الدرجة، وقد استطاعوا هذا بعد تعلمهم اللون باستخدام القلم الذي يمثل اللون، غير أنهم لم يستطعوا تعميم اللون على أشياء أخرى. وقد يعكس فشل المريض في تعلم معانٍ جديدة، اضطراب ذاكرة الأحداث لديهم؛ حيث إن لها أهميتها في المرحلة المبكرة من اكتساب ذاكرة المعاني. فإذا كانت ذاكرة المعاني تظل كما هي لدى مرضى فقدان الذاكرة، فإن ذلك يعني أنه لا بد وأن تكون هناك ذاكرة جيدة للمعرفة العامة. ومن المؤشرات الجيدة على ذلك أداء مرضى فقدان الذاكرة على اختبارات الذكاء، إلا أنه قد أشير إلى أن المعرفة المتضمنة في اختبار وكسيل للذكاء مثلًا تتعامل أساساً مع المعلومات التي تم تحصيلها في الفترات المبكرة. ولقد لاحظ الباحثون أن ذاكرة الأحداث البعيدة (الماضية) تميل إلى أن تخزن، ومن ثم فإن معامل الذكاء يمكن أن يعكس هذه المعلومات التي تم تخزينها في الماضي، في المراحل المبكرة من حياة الفرد، لكن ما يؤخذ في الاعتبار أيضاً ما كشفت عنه دراسة روث (Roth, 1996) على مرضى الكورساكوف، من أنهم يعانون من ضعف في تحديد الكلمات التي كانت في تناولهم واستخداماتهم في فترة السنوات العشر، التي تمثل المدى الزمني الذي أصيبووا فيه بفقدان الذاكرة، الأمر الذي قد يعكس على أداء الأفراد في اختبارات الذكاء.

أما عن ذاكرة الأحداث ومدى اضطرابها لدى فاقدى الذاكرة، فقد أجريت العديد من الدراسات، والتي تناولت محاور عدة، تناقش أبعاد اضطراب ذاكرة الأحداث، ومظاهر هذا الاضطراب كما تعكسه نتائج الأدوات المختلفة التي تستخدم في القياس. وذاكرة الأحداث حسب

تعريف تولفينج<sup>(1)</sup> لها بأنها "هذا النوع من الذاكرة الذي يسمح للفرد بتذكر ما حدث في ماضي حياته" (Tulving, 2002, 270).

ومفهوم ذاكرة الأحداث "Episodic memory" أكثر اتساعاً من ذاكرة الأحداث الشخصية autobiographical memory، فهي تتضمن الأداء على مهام التعلم المحددة، إلى جانب الذاكرة الشخصية، لكن غالباً ما يستخدم المصطلحان بالتبادل.

وقد كشفت الدراسات على فاقدى الذاكرة في أدائهم على المهام المختلفة، عن ضعف في استدعاء الذاكرة الشخصية، بالإضافة إلى ضعفهم في الأداء على المهام التي تتضمن معرفة عامة عن الأحداث الماضية، أو تحديد الشخصيات الشهيرة، التي ارتبط اسمها بأهم الأحداث الماضية، مثلً: من هو الذي أمر بتحرك الجيش في حرب 1967؟ لاشك أن الاسم من الأسماء الشهيرة، وتذكرها لا يعني تذكر حادثة بعينها، ومن ثم فإن نسيان هذه الشخصية لا يعني ضعف ذاكرة الأحداث، بل قد يعني أن جزءاً من الذاكرة السيمانтиة قد ضاع.

ورغم أن بعض الباحثين يفصلون بين الذاكرة السيمانтиة وبين الذاكرة الشخصية، إلا أن كابور وكوبلمان "Kapur & Kopelman" يريان أن هناك متصلًا من المعرفة بين الذاكرةين. فحقائق الذاكرة الشخصية تعرف بأنها ذاكرة المعانى الشخصية للفرد، التى تقع في المنتصف بين الذاكرةين (معرفة أسماء أصدقاء المدرسة، أسماء المدرسين، عناوين إقامتهم)، كما أن الأداء على أدوات قياس فقدان الذاكرة للأحداث الماضية (Retrograde, 1988)، كان متميّزاً. وفي حالة أخرى على أحد المصابين في الفص الجداري "parietal left" على إثر صدمة في الرأس قام بدراستها جروسى (Grossi, 1988)، كشف هذا المريض عن اضطراب في الذاكرة المنطقية، وفشل في تعلم قائمة من الأسماء، وامتد اضطراب ذاكرة المعانى إلى الكلمات والحساب والمعرفة الجغرافية، لكن تذكره لأحداث حياته من سن ست سنوات إلى ثمانى عشر سنة، كان ممتازاً. وفي حالة أخرى من مرض الكورساكوف، كشفت عن اضطراب شديد في ذاكرة الأحداث الشخصية، مع الاحتفاظ بأداء ذاكرة المعانى، حيث كان أداؤها جيداً في تذكر الأسماء الشهيرة والأحداث الشهيرة، رغم أن مستوى ذكائها كان أقل من الحالة السابقة لجروسى وزملائه (92 في مقابل 108 على اختبار الذكاء). ويعنى

(1) إندي تولفينج "Endel tulving" ، هو عالم نفس كندي، وهو أول من وضع تمييزاً واضحاً وفعالاً بين قسمى الذاكرة طويلة المدى، وهما: ذاكرة الأحداث وذاكرة المعانى أو الذاكرة السيمانтиة. وقد وضع أول تعريف لذاكرة الأحداث عام 1972. في مقالة عام 2002، يتناول فيها ذاكرة الأحداث في علاقتها بالحس العام للفرد "common sense".

ذلك أن اضطراب الذاكرة السيمانتية على إثر فقدان الذاكرة قد يختلف من حالة إلى أخرى، وقد يرجع هذا إلى نوعية الإصابة التي تسببت في فقدان الذاكرة، وهذا يعني أن الأمر ليس سهلاً، وأن تعميم النتائج مازال في حاجة إلى المزيد من الدراسات التي تأخذ في اعتبارها التقسيمات المختلفة للذاكرة طويلاً المدى. خلاصة ما سبق أن القول بأن ذاكرة الإجراءات وذاكرة المعانى لا تتأثران بفقد الذاكرة - لابد وأن يؤخذ بقدر من الحذر، وتحديد ما هو الذى يبقى وما الذى يفقد، والأمر مازال في حاجة إلى المزيد من الأبحاث على فاقدى الذاكرة.

وتتسق هذه النتائج مع التعميم الذى يقضى بأن مريض فقدان الذاكرة يؤدى أداء سيئاً على المهام التى تتطلب استرجاع أو تذكر الأحداث السابقة؛ لأن هذه القدرة يبدو أنها تعتمد على عمل دائرة المخ التى تتضمن الفصوص الصدغية، وقرن آمون والفصوص الأمامية؛ حيث إن إصابة هذه الدائرة تؤدى إلى اضطراب القدرة على استرجاع الماضي. لكن التعلم الضمنى أو غير المعلن الذى يحفظه مريض فقدان الذاكرة، فإنه يدل بوضوح على أنه يستطيع أن يؤدى بعض المهام دون حاجة إلى استرجاع خبرات التعلم السابقة، إذ يتم التعلم عن طريق تنفيذ العمل وأدائه، وليس عن طريق استعادة الخبرات الماضية.

وحتى وقت قريب، كانت غالبية المؤشرات الإكلينيكية عن الذاكرة، تعتمد على القياسات المعملية المقننة لهاـم الذاكرة، مثل قوائم الكلمات غير المرتبطة، أو الأعداد. ولقد أثار هذا الاعتراض، الخاص بأن مشكلة فاقدى الذاكرة لا تكمن في عدم تعلمهم قائمة الأسماء أو الأعداد، أو في إدراكمـهم للأشكال الهندسية المختلفة عن بقية الأشكال، لكنـها تكمن في عدم قدرتهم على إدارة حياتـهم في المواقـف اليومـية. لذلك كانت محاولة بادلـي مع زميلـيه آلان سـندرلانـد A.Sunderland، وجـون هـارـيس 1983، لـاختبار ما يـلى: إلى أي مدى تعد الـقياسـات الإـكلـينـيكـية المقـنـنـة ذات فـائـدةـ فيـ التـنبـؤـ بـإـخـفـاقـاتـ الفـردـ فيـ المـواقـفـ الـيـومـيـةـ؟ـ يـعنـىـ أنهـ هلـ لـنـتـائـجـ الـقيـاسـاتـ المـعـلـمـيـةـ الـمحـكـمـةـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ التـنبـؤـ بـقـدـرـةـ الفـردـ عـلـىـ التـعـامـلـ مـعـ الـمـواقـفـ الـيـومـيـةـ لـلـذـاكـرـةـ؟ـ

ومن خلال الدراسة على عينة من المصابين في الرأس، الذين خبروا صدمات بين متوسطة وشديدة في الرأس، أدت إلى فترة من فقدان الذاكرة الذي يلي الصدمة "Post traumatic amnesia" تم تطبيق عدد من اختبارات الذاكرة عليهم ذات الحساسية العالية لقياس الذاكرة، تضمنت التعرف على الكلمات، والوجوه والأشكال، واستعادة القصص القصيرة، أما في الجزء الثاني من الدراسة، فقد تضمنت كيفية قياس سلوك الفرد في المواقـفـ الـيـومـيـةـ، وتحـديـدـ درـجـةـ فـشـلـهـ فيـ إـدـارـتهاـ.ـ ولـقدـ اـسـتعـانـ الـبـاحـثـونـ فـيـ ذـلـكـ بـأـكـثـرـ الـأـفـرـادـ قـرـبـاـ مـنـ الـمـريـضـ،ـ وـعـادـةـ مـاـ كـانـ ذـلـكـ الـفـردـ هـوـ الزـوـجـ أوـ الـزـوـجـةـ أوـ الـأـمـ.ـ ولـقدـ طـلـبـ مـنـهـ فـيـ نـهاـيـةـ الـيـومـ أـنـ يـجـبـ عـنـ اـسـفـتـاءـ يـخـصـ نـجـاحـ وـإـخـفـاقـ الـمـريـضـ فـيـ الـمـواقـفـ الـيـومـيـةـ.ـ الـتـيـ مـرـتـ بـهـ فـيـ هـذـاـ الـيـومـ،ـ وـأـنـ تـكـبـ مـذـكـراتـ عـنـ كـلـ مـاـ صـدـرـ مـنـ الـمـريـضـ فـيـ الـيـومـ.

ثم عمد الباحثون إلى سؤال المريض عن المواقف اليومية التي أخفق فيها في التعامل مع الذاكرة. ولقد كشفت النتائج عما كان متوقعاً، فلم يستطع المرضى إعطاء الاستجابات الدالة على ذلك، فقد نسوا أنهم نسوا. لذلك كانت المذكرات والاستفتاءات التي تم استكمالها بواسطة الزوجة أو الزوج أو الأم، هي مصدر الخروج بالنتائج عن العلاقة بين الأداء على الأدوات المقنية، وبين المواقف الحياتية التي يعيشها يومياً. ولقد كشفت النتائج عن ارتباط ضعيف بين الجانبين، وذلك يعني أن هذه القياسات التي تم في المعمل عن فقدان الذاكرة لا يرتبط بأدائهم في الحياة اليومية.

ولقد أثارت هذه النتائج نقداً شديداً من باحثين آخرين في المجال، وتشغلهم القضية ذاتها، فيما يخص فقدان الذاكرة. ومن هؤلاء الباحثين باربرا ويلسون "Wilson"، أخصائية إكلينيكية في جامعة أكسفورد، التي أرادت اختبار هذه العلاقة مرة أخرى، وكان من الانتقادات التي وجهتها إلى نتائج البحث السابق الذي قام به بادلي وزميلاه، أن قياسهم لاضطرابات الذاكرة لم يكن محدداً، وبالتالي فإن المواقف التي تم مراجعتها من الحياة اليومية للمرضى لم تكن محددة في نوعية معينة، الأمر الذي أدى إلى التفكير في عمل قياسات تميز بين نوعيات من اضطرابات الذاكرة، يتربّط عليها متابعة سلوكيات الفرد في المواقف المرتبطة بهذا النوع من الاضطراب. ومن ثم كان تكوين أدلة القياس "RBMT behavioural Rivermaid" (Memory Test)، 1989. ولقد تضمن هذا الاختبار مكونات عديدة، منها إطلاع المريض على صورة لأفراد، ويطلب منه ذكر الاسم، وقياسين للذاكرة المتوقعة أو المنسقبة "prospective memory" (تذكر أن تفعل شيئاً ما)، منها مثلاً أن يطلب من المريض وضع شيء ما من أشيائه (قلمه، أو ساعته...) في مكان ما قبل بدء الاختبار، ثم سؤاله عنه بعد الانتهاء من الاختبار، ومنها أيضاً ارتباط أداء المريض لعمل ما تم إعلامه به، على أن يقوم به عند سماع الجرس. كما تضمن هذا الاختبار أيضاً قياس الذاكرة المكانية بقيام المريض بالدوران في الحجرة، ووضع شيء ما في مكان ما منها، ثم تذكر هذا المكان بعد ذلك. كذلك تضمن الاختبار قياس التوجّه المكاني والزمني للمريض، وذلك بأسئلة عن الزمان والمكان لإجراء هذا الاختبار.

هذا عن قياس اضطرابات الذاكرة لدى هؤلاء المرضى، أما عن الشق الثاني الخاص بتحديد إخفاقات الذاكرة اليومية في المواقف المختلفة، فقد تم هذا من خلال الاستعانة بالقامين على علاجهم في مركز ريفرميد لإعادة التأهيل. فقد طلب منهم أولاً تحديد درجة اضطراب الذاكرة لدى المرضى، وقد اتفقت النتائج مع نتائج الاختبار في هذا. ثم طلب من المعالجين كتابة مذكريات يومية

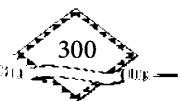
عن ذاكرة هؤلاء المرضى، وتحديد مواقف إخفاقهم أثناء اليوم<sup>(١)</sup>. وبفحص العلاقة بين نتائج تطبيق الاختبار وبين تقارير المعالجين عن إخفاقات الذاكرة لدى المرضى في المواقف الحياتية، أسفرت النتائج عن وجود علاقة قوية بينهما.

ولأن هذه المحاولات لازالت في محيط العيادات والتعامل المنظم - إلى حد كبير - فالسؤال ما زال قائماً: هل قياسات أداءات الذاكرة على الاختبارات لها خاصية التنبؤ بماذا يكون عليه وضع المريض في المواقف اليومية؟ لذلك فقد حاولت ويلسون مرة أخرى عام 1991، وذلك بتصنيف المرضى بناء على نتائج اختبار الذاكرة السابق "RBMT" حسب بعدين، هما: الاستقلالية (يعيش وحده مستقلاً في مقابل العيش مع آخر يعتمد عليه)، والعمل (يعمل كل الوقت في مقابل نصف الوقت أو بدون)، وقد أسفرت هذه الدراسة - على ذات عينة المرضى في ذلك المركز، ومتابعتهم بين خمس وعشرين سنة بعد انتهاء فترة التأهيل - إلى وجود علاقة قوية بين ما تنبأ به الاختبار، وبين إدارة هؤلاء المرضى لحياتهم بعد ذلك. ولكن هل يعني ذلك أنه لا جدوى تذكر من وراء استخدام الأدوات المقتنة التي تستخدم لقياس أداءات الذاكرة في المعمل؟ لا بالطبع؛ فإن القياس المعملي المنظم والمقنن، سيظل دائماً له أهميته في سبر غور الجوانب المحددة في الذاكرة، وهو ما يساعد بدوره على دفع عجلة الأبحاث في التوجهات الأخرى؛ كالتوجه النفسي العصبي في دراسة الذاكرة، أو التوجه التطبيقي لمرضي اضطرابات الذاكرة. لكنه من اللافت أن مناقشة النتائج السابقة بقدر ما تعكس التقدم في تفكير الباحثين وتناولهم للظاهرة الواحدة، بقدر ما تعكس أهمية المنهج، وتحديد المتغيرات، وارتباط كل هذا بالنتائج التي يسفر عنها البحث العلمي، كما أن لأداة القياس أهميتها القصوى في ترجمة ما نصل إليه من نتائج في كل المجالات، وبقدر دقة الأداة ووضوح تحديد الأبعاد التي تضمها، بقدر الثقة فيما تسفر عنه من نتائج.

### فقدان ذاكرة أحداث الطفولة : "Childhood Amnesia"

عندما يسأل الكبار عن خبراتهم المبكرة، فالقليل منهم الذي يتذكر أغلب هذه الخبرات، خاصة خبرات ما قبل السنوات الثلاث الأولى من حياة الفرد. وهذه الصعوبة في تذكر خبراتنا في الطفولة المبكرة هو ما يسمى بفقدان ذاكرة الطفولة. ويعرف فقدان ذاكرة الطفولة بأنه غياب أو ندرة استدعاء الناضجين لخبرات الطفولة المبكرة (بصفة عامة قبل السنة الثالثة من العمر)، ولاشك أن تفسير هذا الفشل في تذكر الخبرات المبكرة في حياة الفرد له أهميته في فهم عمليات الذاكرة في الكبر؛ إذ يمكن أن يمتد تفسير فقدان ذاكرة الطفولة من نمو مفهوم الذات لدى الطفل إلىإصابة قرن آمون، كسبب يفسر به غياب ذاكرة أحداث الطفولة. الواقع أن هذه الظاهرة ما زالت بعيدة عن

(١) جدير بالذكر أن هؤلاء المرضى كانوا يتذدون على هذا المركز لإعادة التأهيل بعد حدوث الإصابة، الأمر الذي يتبع للمعالج التعامل مع المريض عدداً من الساعات هي فترة العلاج.



الفهم الواضح لها، وقد يمثل تعذر جمع البيانات الميدانية سبباً وجيهًا يفسر تعثر الأبحاث في هذا الصدد؛ إذ تلجأ غالبية الأبحاث إلى سؤال الناضجين عن خبراتهم المبكرة، وأن يحددو تاريخ وقوع هذه الخبرات. وقد أجريت العديد من الدراسات للتعرف على هذه الخبرات؛ تارة قبل السنوات الثلاثة الأولى (Dudycha, 1993)، وتارة أخرى قبل السنوات الثمانى الأولى من حياة الفرد (Waldfogel, 1984). وكما هو متوقع فإن القليل من هذه الخبرات هو الذي تم تذكره. ولمزيد من الضبط في هذه الأبحاث، عمد شينجولد وتيني "sheingold & Tenney" عام 1982 إلى سؤال المشاركين في هذه الخبرات. وفي دراستهما كان السؤال عن الحدث الخاص بولادة الأخ أو الأخت الأصغر، وقد وجد الباحثان أنه كلما قل السن في هذه الخبرة عن ثالث سنوات، كلما كانت المعلومات التي قدمها المبحوث ضئيلة وغير دقيقة.

غير أنه من المهم الإشارة إلى التعارض القائم ويخص ذاكرة الطفولة؛ إذ على الرغم من عدم قدرة الناضج على تذكر هذه الخبرات المبكرة، فقد ثبت بالدراسة أن الطفل قادر على تذكر هذه الخبرات. إذ وجد فيتش وهادن "An الأطفال ذوي السنوات الثلاث استطاعوا أن يشتراكوا في حوار عن ذكرياتهم السابقة" (العام السابق) (Fivush & Haden, 1995 – Peterson & white, 2001). وفي دراسة قام بها إيكوت وكرولى (Eacott & Crawley, 1999)، على عينة من خمسة وعشرين فرداً، لدراسة الذاكرة الشخصية على حد بيته في الطفولة، وهو ولادة الأخ الأصغر، على أن يكون قد تم هذا الحدث وعمر المشارك عامين بحد أدنى. وقد تم مضاهاة المعلومات التي تم الحصول عليها من المشاركين بمعلومات أمهاتهم عن الحدث ذاته. وقد خلصت الدراسة إلى أن أطفال عمر العامين قد كشفوا عن ذاكرة لا تختلف كلياً عن الذاكرة التي كشف عنها من هم أكبر سنّاً عن هذا الحدث. وتعذر نتائج هذه الدراسة مؤسراً على أن الأحداث التي تقع في حياة الفرد قبل سن العامين هي مهمة وأصلية لكنها نادرة (Eacott, M.J. & Crawley, R.A., 1999) . فيما الذي يحدث إذن حتى يفشل الفرد، ليس فقط في تحديد الوقت والمكان الخاصة بالحدث، بل إن الحدث ذاته قد يصعب تذكره؟

ومثّل تحديد السن الذي تنتهي عنده فقدان ذاكرة الطفولة، موضوعاً لعدد من الدراسات (Bruce & philip 2000 , Eacott & Crawly, 1998 , Mullen, 1994) ، وقليله هي الدراسات التي أجمعت نتائجها في أغلبها على توقف فقدان ذاكرة الطفولة بين العام الثالث والرابع من عمر الطفل، إلا أن بعض الدراسات القليلة قد أشارت إلى وجود نماذج متعددة من أحداث الطفولة، حيث تختلف هذه النماذج من قصص واضحة ذات مضمون، ولها سياق، وقد يستطيع أصحابها تحديد المشاعر والأفكار وبعض الكلمات التي ترتبط بالحدث، إلى بعض الصور المترفرفة، وقد تكون صوراً بصرية أو صوراً لفظية، لا تحمل تفصيات خاصة بالمكان أو الزمن أو المشاعر أو الكلمات

بروس "Bruce" وزملاؤه 2005، على عينة كبيرة من مائتين واثنين وثمانين طالباً جامعياً من جامعة سانت ماري بكندا، مزيد من التحديد لأنواع الذكريات التي يمكن استدعاها من مرحلة الطفولة؛ وذلك مزيد من الفهم لحدوث فقدان ذاكرة الطفولة وتحديد المرحلة العمرية التي تنتهي عنده. ولاشك أن لهذا أهميته في فهم الذاكرة الشخصية للفرد، والاضطرابات التي قد تلحق بها في الكبر (Bruce, Darryl et al , 2005).

وفي ذلك البحث، عنى الباحثون بالتركيز على التمييز بين ما يتذكره الفرد من أحداث طفولته "to remember" ، وبين ما يعرفه عن حدوثه في طفولته من خلال آخرين "know" ، كذلك اهتم الباحثون بالتفرق بين الحدث الذي يستطيع صاحبه أن يعيد روايته مع التفصيات، وبين ما يتم تذكره كصور مجرأة بصرية أو سمعية. وقد اختللت التعليمات التي تلقاها أفراد العينة للوصول إلى كل من هذه التوعيات من الذكريات (تذكر أول حادث في طفولتك قبل سن ثمان سنوات، ما أول حادث تعرفه عن طفولتك؟، ما أول ملhat عن طفولتك تتذكرها؟) حيث يمكن أن تقود الفروق العمرية بين هذه الأنواع إلى مناقشة وجود ظاهرة فقدان ذاكرة الطفولة في حياة الفرد من الأساس.

ولقد كشفت النتائج عن اختلاف متوسطات الأعمار لكل نوع من أنواع الذكريات التي أشرنا إليها، فحيث كان متوسط العمر للذكريات التي تذكرها الفرد مع تفصيلاتها هو 99.5 عاماً، كان متوسط العمر للأحداث التي يعرفها من خلال آخرين هو 33.3 عاماً. أما ما أسماه الباحثون بالذكريات المتناشرة أو المتفرقة<sup>(1)</sup>، فكان متوسط العمر لتذكر هذه الأحداث هو 29.3 عاماً. ولاشك أن وجود هذه الفروق العمرية المرتبطة بنوعية الأحداث التي يتم استدعاها من الذاكرة، تشير إلى أن استدعاء هذه الذكريات قد يرتبط بنوعية الذكريات المطلوب من الفرد تذكرها، أي تعتمد على نوعية التعليمات التي يتلقاها الفرد.

كما تشير هذه النتائج أيضاً إلى ما يدعم بعض نظريات فقدان ذاكرة الطفولة، والتي تقضي بأن انتهاء هذه الظاهرة يرتبط ببداية الذات المعرفية لدى الطفل في مرحلة العامين. فضلاً عن هذا، فإن هذه النتائج تشير أيضاً إلى أن ما يحدث في اضطراب الذاكرة الشخصية للفرد قد يرتبط بما يسمى

(1) كانت تعليمات تذكر ذاكرة الأحداث "remember" هي: صف أول حادث شخصي في حياتك يمكنك تذكره. وهو يجب أن يكون قد حدث لك أو خبرته في مكان ما، فهو قصة عما حدث لك تذكرها بصفة شخصية، لها بداية ولها نهاية، وتكون قادراً على ذكر تفصيلاتها. أما تعليمات تذكر ذاكرة المحاجات المتناشرة فهي: وصف أول ملhat من ذكريات طفولتك، فهي ليست قصة لها بداية ونهاية لكنها أجزاء غير مترابطة من ذاكرة طفولتك، ولا تذكر تفاصيلها أو معلومات مرتتبة بها، فقد تذكرها كصورة بصرية أو سمعية أو رائحة أو طعم.

بلمحات الطفولة غير المتميزة بالتفاصيل أو المعلومات التي تساعد على وضوحها في الذاكرة، لكن هذا يظل فرضاً يستثير جهود الباحثين لاختباره.

ورغم هذه الدراسات المتباعدة على ظاهرة فقدان ذاكرة الطفولة، يظل السؤال الأكثر صعوبة وهو لماذا تحدث هذه الظاهرة لفرد؟ ما سبب حدوثها؟ وهل يمكن تجنب حدوثها لدى أطفالنا أم هو أمر حتمي؟

لقد قام البعض بتفسير هذا الأمر، وانطلاقاً من نظرية فرويد عن الكبت، كانت أولى هذه التفسيرات موجهة بالكبت وعلاقته بالذاكرة، إذ فسر فرويد فقدان الذاكرة لمرحلة الطفولة بأن الطفل يكتب المشاعر الجنسية تجاه والديه، ومن ثم يحدث فقدان ذاكرة الطفولة. وفي تفسير آخر، يرى البعض أن في السنوات الأولى من حياة الطفل لا يكون المخ، وخاصة قرن آمون قد نما بالشكل الكاف الذي يحفظ الذكريات المعلنة. فمن المفترض أن الأطفال يعتمدون على التعلم الصنمي الذي لا يمثل أساساً لاستعادة الخبرات. وفي تفسير ثالث، أن اللغة لم تكن قد نمت بالدرجة الكافية، ومازالت في حالة من النمو، ومن ثم فهذه الحالة لا تسمح بالتصنيف الصحيح لهذه الخبرات، داخل المخ. وقد شبه بادلي هذه المرحلة بقوله إنهاأشبه بصعوبة الحصول على الكتب التي وضعت في المكتبة، ولكن قبل وضع نظام الفهرسة لها، ثم من التفسيرات التي وجدت دعماً من الباحثين هي القول بالتفاعل الاجتماعي، خاصة المشاركة بين الطفل والديه في الأحداث المبكرة. ومن المفترض أن هذه المشاركة بين الطفل والديه هي من العوامل المهمة في تنمية الذاكرة الشخصية، كما أن الحوار بين الطفل والديه - فيما يخص هذه الذكريات - يعلم الطفل الصيغة الاجتماعية المناسبة للمشاركة في الأحداث الشخصية، فهي تعلمه ما الذي يتذكره، وكيف يتذكره ولماذا يتذكره. ويرى أصحاب هذا التوجّه أن جودة ذاكرة الطفولة إنما هي نتيجة لتنمية مهارات الحكى، التي تنمو من خلال علاقة الطفل بالوالدين فيما يخص هذه الذكريات (fivush et al, 1998). وقد أشارت نتائج الدراسات إلى أن الوالدين اللذين يهتمان بالشرح والتوضيح والربط بين الذكريات بعضها ببعض، والمشاعر المرتبطة بالحدث - يساعدان على أن يصبح الطفل ماهراً في الحكى في فترة مبكرة من حياته. ولقد كشفت الأبحاث عن أن الوالدين في أمريكا الشمالية مثلًا يميلان إلى تشجيع أطفالهما على التفسير وعلى معايشة الخبرات من خلال الحكى، وعلى التركيز على الذات ومعايشة مشاعره في هذه الخبرات. أما الوالدان من الثقافة الآسيوية، فيميلان إلى التركيز على الخبرات الخاصة للطفل وعلى المعايير الاجتماعية، والتوقعات الاجتماعية؛ مما قد يؤدي إلى تنمية مهارات حكى مختلفة تكون قصيرة، وموجهة بالجماعة، ومن المتوقع أن تكشف ذاكرة الطفولة لدى هؤلاء عن قصور (Wang, 2003). لكن هذا الأمر يحتاج مزيداً من الدراسات عبر الثقافية، التي تكشف عن مدى صحة هذه الاستنتاجات النظرية، وإلى أي مدى تكون ذاكرة الطفولة نتاجاً للتوجّه الاجتماعي داخل المجتمع؛ إذ بينما تكون بعض المجتمعات موجهة بالفرد وشخصيته وإنجازاته الشخصية، تكون مجتمعات

أخرى موجهة بالجماعة ومعايير الجماعة: الأسرة والأقارب، القرآن ... إلخ، وعن الفروق الثقافية في مكونات ذاكرة الطفولة.

وفي دراسة مقارنة عام 2000، على الفروق الثقافية في مكونات ذاكرة الطفولة، قام ماكدونالد "MacDonald" وزملاؤه في نيوزيلندا بدراسة على عينة شملت ثقافات متعددة، إذ تكونت العينة من ست وتسعين من طلبة الجامعة، يمثلون ثلاث ثقافات مختلفة، هي: الآسيوية، والأوروبية، ثم الماوري "Maori"<sup>(١)</sup>. وقد كشفت النتائج عن فروق في حدود ذاكرة الطفولة، فالعينة الآسيوية قد كشفت عن ذكريات بعد العام الخامس من عمر الفرد، أما العينة الأوروبية فقد كانت ذكرياتها ترجع إلى العام الثالث، وكانت هناك فروق بين الذكور والإثاث في الثقافة الواحدة عن السن الذي تم عنده تذكر الأحداث في مرحلة الطفولة، فكان تذكر الإناث للذكريات المبكرة أفضل من تذكر الرجال لها، كما كانوا أكثر اهتماماً بالتفاصيل الخاصة بكل حدث (MacDonald, shelley et al , 2000).

وفي تفسيرات أخرى، أورد الباحثون أن جودة ذاكرة الطفولة ترتبط بمفهوم الذات لدى الطفل؛ إذ يمكن أن يلعب دوراً في إثارة الذاكرة الشخصية للطفل، ومعنى هذا أن ذاكرة الطفولة يمكن أن ترتبط بأبعاد مفهوم الذات لدى الفرد، أي أن الفرد يتذكر ما هو مهم لذاته، ويعنى هذا أن الذكريات المبكرة لابد وأن تكون حول أحداث بارزة في حياة الفرد. وقد يتداخل التأثير الثقافي، وإذا ما كانت الثقافة فردية تؤكد على إنجازات الفرد، أو جماعية تؤكد على أهمية الجماعة والمعايير الجماعية، ويظل هذا أيضاً من الأمور التي تحتاج إلى دراسات ميدانية مقارنة؛ للتعرف على مدى صحته.

ومن نتائج الدراسات أيضاً عن فقدان ذاكرة الطفولة، أنه قد يكون لجنس الوالدين علاقة بهذا الأمر، فتعكس العلاقة الوالدية بين الأم وبين الطفل في الثقافة الآسيوية مكانة المرأة في نقاشات الأسرة مثلاً، كما أن طبيعة الحدث ذاته يمكن أن تلعب دوراً في تذكره أو نسيانه (فقد وجدت الأبحاث أن ولادة الطفل الثاني إذا ارتبطت بالذهاب للمستشفى، والزيارات الكثيرة من الأقارب وغيرها، سهل هذا عملية التذكر لهذا الحدث). فضلاً عن هذا، فقد أشارت نتائج الدراسات إلى أن الجانب الانفعالي يمكن أن يكون له دوره في تذكر هذه الأحداث وبقائها حية في الذاكرة؛ إذ إن نبرات الصوت التي ترتبط بالحدث عن هذه الذكريات بين الوالدين وبين الطفل، يمكن أن تلعب دوراً مهماً في بقاء هذه الذكريات في الذاكرة، فلأن هذه الذكريات تضم السار منها وغير السار.

(١) الماوري: هم السكان الأصليون في نيوزيلندا.

فلاشك أن الانفعالات المرتبطة بكل منها قد يكون له علاقة بجودة تذكره، ولأن التراث يشير إلى أن تذكر الأحداث السارة يكون أكثر سهولة من تذكر الأحداث غير السارة، فقد توقعت بعض الدراسات أن يميل مضمون ذاكرة الطفولة إلى أن يكون أغلبه من الذكريات السارة (Mullen, 1988)، لكن الدراسات الميدانية الأخرى قد كشفت عن وجود العكس (Kihlstrom, 1982).

كما كشفت الدراسات على فقدان ذاكرة الطفولة أيضًا عن وجود فروق تعزى إلى النوع، إذ إن الإناث يكتشن عن ذكريات مبكرة في حياتهن أكثر من الذكور، ويعنى ذلك أن ذاكرة الإناث عن مرحلة الطفولة أفضل من مثيلتها لدى الذكور. غير أنه في دراسة مقارنة حديثة قام بها بيترسون "Peterson" وزملاؤه عام 2005، على ذاكرة أحداث مرحلة الطفولة، على عينة من الأطفال بين ست سنوات وحتى تسعه عشر عاماً، تضم الذكور والإإناث؛ وذلك بهدف التعرف على العلاقة بين المراحل العمرية (الطفولة - المراهقة)، والفارق الجنسي (الذكور في مقابل الإناث)، وبين كم ونوعية الذاكرة المبكرة. ولقد استعان الباحثون بعدد مائة وستة وثلاثين من الأطفال والمراهقين، قسموا إلى أربع مجموعات: من 6 - 9 سنوات، ومن 10 - 13 عاماً، ومن 14 - 16 عاماً، ثم 17 - 19 عاماً، وقد تمت الدراسة باستخدام أداة للمقابلة المقنية، وتم تصنيف النتائج وفق المحاور الآتية:

- 1. **العمر المرتبط بأكثر الذكريات تبكيرًا:** حيث يحدد كل من الطفل والوالدين عمر الطفل وقت حدوث الخبرة.
  - 2. **طبيعة الحدث:** إذا ما كان الحدث يتضمن أزمة انفعالية أو جسمانية، أو يتضمن حدثاً انتقالياً، مثل دخول المدرسة مثلاً، أو أحداث أخرى.
  - 3. **نوعية الحالة الانفعالية:** إذا ما كان الحدث يتضمن انفعالات سلبية أو إيجابية، أو محابية.
  - 4. **البناء:** في صورة قصة، أو أحداث جزئية فقط، أو تكررت كثيراً.
  - 5. **التوجه الاجتماعي:** أن تصنف الذكريات ككل؛ إما أنها موجهة بالمجموعة كالأسرة أو جماعة الأقران، أو أنها موجهة بالفرد، أى أن تكون رواية الذكريات موجهة بالطفل ذاته؛ أحاسيسه، إنجازاته، ودوره فيها.
- ومن أهم النتائج التي كشفت عنها هذه الدراسة ما يلى:**

- لم يكن للفرق النوعية (ذكور - إناث) علاقة دالة بنتائج الذكريات المبكرة في حياة الفرد، غير أنه بتصنيف الأحداث حسب نوعية الحالة الوجدانية التي ارتبطت بها، كانت ذكريات الإناث محملة بالحالة الانفعالية أكثر من الذكور.
- تفوقت عينة الأطفال من سن 6 - 9 سنوات في كم ما استرجع من ذكريات الطفولة، ويعنى ذلك أن نسبة فقد من ذاكرة الطفولة إنما يرتبط بالمرحلة العمرية وقت إجراء

الدراسة. أما عن الأسباب فالامر في حاجة إلى مزيد من الدراسات التي تختبر الرؤى النظرية التي سبق الإشارة إليها.

- صنفت أغلب الذكريات على أنها تحمل مشاعر محايضة، تلاها أحداث المشاعر السلبية، غير أنه كانت هناك فروق بين المراحل العمرية في الاهتمام بتحديد الحالة الوجدانية المرتبطة بالحدث؛ إذ كان المراهقون أكثر ذكرًا لنوعية المشاعر من الأطفال.
- اتسمت غالبية الذكريات بالتوجه الفردي، حيث إن العينة لم تضم ثقافات مغایرة لثقافة شمال أمريكا، وهو ما اتفقت فيه الدراسة مع الدراسة السابقة لماكدونالد وزملائه.
- ونخلص من هذا العرض لما أسفرت عنه الدراسات من نتائج، إلى أن تفسير ذاكرة الطفولة بين البقاء أو الضياع، والكشف عن العوامل التي تكمن وراء ذلك - لاشك أنه له أهميته في فهم نظام الذاكرة في المرحلة المتقدمة من العمر، كما أن له أهميته كذلك في الموازنة بين فاعلية العوامل المختلفة ذات العلاقة؛ الأمر الذي قد يفيد في وضع برامج الوقاية التي تحافظ للذاكرة أداءها، بل وتحسينه قدر المستطاع.

#### فقدان الذاكرة الهرستيري:

قد يسمع الفرد أحيانًا عن فرد فقد ذاكرته فجأة، ووُجد وهو يتجول على غير هدى في الطرق، لا يعرف من هو أو أين هو. ومع بعض العناية، تعود إليه الذاكرة بعد بضعة أيام، وفي الحالات النادرة جدًا، يستمر فقدان الذاكرة لفترة طويلة. وبدون استثناءات بالدراسة والفحص، وجد أن هؤلاء الأفراد جميعًا يعانون من أزمات وجданية في حياتهم، كما لو أن الحياة قد أصبحت غير متحتملة، وأن الطريقة الوحيدة للتوفيق معها هو التوقف عن أن تكون نفسك، ولو لفترة مؤقتة.

ولذلك قد يطلق على هذا النوع من فقدان الذاكرة **فقدان الذاكرة الهربي** "Fugue amnesia" ، نسبة إلى معنى الكلمة "Fugue" ، وهو ما تناولناه بالتفصيل عند العرض لأنواع فقدان الذاكرة نفسى المنشأ، لكن ما يهمنا الإشارة إليه هنا هو أن الفرد يشفى سريعًا، وتعود إليه ذاكرته، إلا ما يتصل منها بفترة فقدان الذاكرة وما حدث فيها. ونادرًا ما تتأثر العمليات المعرفية للفرد بهذه الفترة التي تم فيها فقدان الذاكرة، أو مستوى ذكائه، ومن النادر أن تحدث انتكاسة لهذه الحالات مرة أخرى.

#### فقدان الذاكرة والتفسير النظري:

لقد كانت هناك محاولات لتفسير حدوث فقدان الذاكرة في ضوء النظريات المختلفة التي سبق وأن أشرنا إليها عند تناول الأساس الكيميائي للذاكرة.

ففي ضوء نظرية التدعيم "consolidation" ، يفترض أن المريض فقد الذاكرة يفتقد القدرة الأساسية على تكوين مسارات جديدة دائمة في الذاكرة، لكن النقد الذي وجه إلى هذه النظرية تضمن أن فقدان الذاكرة لا يكون فقدانًا كليًّا، حيث وضح من التجارب المختلفة أن مريض فقدان

الذاكرة يستطيع أن يتعلم، ولكن تحت ظروف محددة. من هذه الظروف ما جسده تجربة ورينجتون وويسکرانتیس "Warrington & Weiskrantz"، حيث استطاع المريض أن يحدد هوية الكلمات غير الواضحة إذا عرضت عليه هذه الكلمات قبلًا وتعلمتها. أما فيما عدا ذلك، فقد كان أداؤه ضعيفاً في تحديد هوية هذه الكلمات. ومن ثم خلص الباحثان إلى ما أسمياه بنظرية نقص الاسترجاع في فقدان الذاكرة "Retrieval Deficit"، حيث يحددان بصفة كلية نقص الذاكرة في مرحلة الناتج "output stage". إلا أن النظرية قد فشلت في تفسير ما يحدث في فقدان الذاكرة، فإذا كان فقدان الذاكرة هو اضطراب عام في القدرة على الاسترجاع، فلماذا يختلف المرضى في قدرتهم على استدعاء خبراتهم الماضية السابقة على الإصابة بالمرض؟

ومن التوجهات النظرية التي حظيت بالتأييد من قبل الباحثين، القول بأن فقدان الذاكرة يمثل نقصاً في استخدام المعلومات المترابطة في السياق "contextual information" (Mayes, 1988). ويمكن تحديد السياق بأنه المعلومات المرتبطة بذاكرة محددة تسمح باختلاف هذه الذاكرة عن غيرها.

ويميز باركين "Parkin" بين نوعين من السياق:

- **السياق الداخلي "Intrinsic context":** ويُعزى إلى الخصائص التي تعد جزءاً من المثير ذاته.
- **السياق الخارجي "Extrinsic context":** ويُعزى إلى العوامل المحيطة بحدوث المثير.

وقد كشفت التجارب كيف كان تغيير السياق الخارجي للمثير، يؤدي إلى صعوبة استدعاء المثير الأصلي (Wincur, 1978)، وذلك على عينة من مرضى فقدان الذاكرة.

وفي تجربة أخرى على القدرة على التمييز الزمني لدى مرضى فقدان الذاكرة، كشف المرضى عن ضعف في هذا التمييز؛ حيث إنهم يفتقدون هذه القدرة، ومن ثم كان التداخل في استرجاع المثيرات رغم عرضها على فترات متباudeة.

**قياس أعراض فقدان الذاكرة:**

كما سبق أن أشرنا إلى أن دراسة وقياس اضطرابات الذاكرة وعلاجها هو جزء من دراسات علم النفس العصب، الذي يعني بدراسة العلاقة بين إصابات المخ وبين العمليات النفسية. ولقد استخدم القياس العصبي النفسي في البداية للتفرقة بين المرضى ذوي الاضطرابات نفسية المنشأ وذوى الاضطرابات عضوية المنشأ. ولقد كانت الاختبارات الأولى تقوم على أساس فرضية أن هناك بعض العناصر التي قائلة عنةراً مشتركةً بين جميع الاضطرابات العضوية المنشأ. ولقد أدى هذا إلى الاهتمام بقياس العامل العضوي في هذه الاضطرابات، دون الاهتمام بالحصول على تفاصيل كل وظيفة عقلية على حدة، غير أن الغالبية العظمى من المتخصصين في علم النفس العصبي أدركوا أن

وضعية المريض يمكن تحديدها بدقة من خلال فحص بعض العمليات النفسية، مثل الذاكرة واللغة والإدراك. ولذلك فقد استخدمت العديد من الاختبارات التي يمكن استخدامها في هذا الصدد، وهو ما سنعرض له بالتفصيل فيما يلى.

ففي مجال اضطرابات الذاكرة، فإن على عالم النفس العصبى أولاً أن يحدد منشأ هذا الاضطراب (عضوى المنشأ أو نفسي المنشأ)، وهو ما يمكن الوصول إليه عن طريق فحص ملفات المريض وتسجيلاته الطبية؛ مما يقلل درجة الشك في الإصابة العضوية كسبب في حدوث اضطرابات الذاكرة، كذلك الأمر في المنشأ النفسي للإصابة باضطرابات الذاكرة، حيث ترتفع درجة الثقة في تحديد هذا الأمر في حالة اختفاء المؤشرات الطبية، التي تشير إلى وجود إصابة بالمخ. لكن، ولو سوء الحظ ليس الأمر في التفرقة بين هذين النوعين من الإصابة بالسهولة المتوقعة؛ حيث إن هناك من العوامل النفسية ما قد يتداخل مع اضطرابات عضوية المنشأ، مما يؤدى إلى تعقد قياس الاضطراب. وبالمثل أيضاً، قد تتوارد المؤشرات العضوية في بعض الاضطرابات نفسية المنشأ، وتزيد من تعقد عملية التشخيص.

ولقد كشفت دراسة الحالات في اضطرابات الذاكرة عن وجود عدد من المصطلحات التي يوصف بها المريض، مثل اضطرابات الذاكرة قصيرة المدى، أو اضطرابات الذاكرة الحديثة "recent memory"، أو صعوبات في تذكر الأحداث البعيدة. ولاشك أن هذه المصطلحات قد تؤدى إلى الخلط، وعدم الوضوح في ذهن المعالجين والقائمين على الرعاية معاً؛ حيث تفتقر إلى التحديد الدقيق. فعلى سبيل المثال، هل اضطرابات الذاكرة القصيرة تعزى إلى عدد من الدقائق أو الساعات أو الأيام؟ كذلك أيضًا الذاكرة الحديثة، قد تعزى إلى الأحداث التي سبقت الإصابة مباشرة، لكنها قد تتضمن الأحداث القريبة التي واكتب الإصابة. لذلك كان اتفاق المختصين في المجال على التعريف الإجرائي لبعض المصطلحات التي تعنى على مزيد من التحديد للمفاهيم، ويؤدى إلى قياسها بسهولة ووضوح. ومن هذه المفاهيم فقدان ذاكرة الأحداث السابقة على الإصابة "retrograde amnesia"، وفقدان ذاكرة الأحداث التالية لحدوث الإصابة "anterograde amnesia" ، كذلك التمييز في حياة الفرد بين فترة ما قبل الإصابة pre-morbid period، في مقابل فترة ما بعد الإصابة post- morbid period. ولاشك أن هذه التحديدات الإجرائية تساعد على مزيد من الدقة في القياس والتشخيص.

#### القياس الإكلينيك:

إن القصور الذى يتبع إصابة المخ ليس عاماً، كذلك أيضاً فإن غالبية المرضى الذين يعانون من اضطرابات الذاكرة يميلون إلى الكشف عن أعراض سيكولوجية أيضاً. وحيث إن الكثير من الإعاقات ترتبط بحدوث اضطرابات في الذاكرة، لذا وجب في البداية قبل عمل القياسات

التفصيلية، تجميع المعلومات عن حالة الفرد النفسية العصبية؛ فقد يرتبط اضطراب الذاكرة بمشكلات الدافعية لدى الفرد، أو قد ترجع إلى اضطرابات في الشخصية أو اضطرابات في الانتباه. كل هذا قد يؤدي إلى اضطرابات الذاكرة، كما قد يكون هناك اضطرابات الإدراكية، واضطرابات في اللغة.

فعند فحص مريض اضطرابات الذاكرة ، فإن أول ما نصبو إليه هو تحديد درجة شدة الإصابة، ولذلك فإن هناك حاجة إلى استخدام الأدوات المقننة ذات المعايير التي تعين على مقارنة المريض بغيره في الفئة العمرية التي ينتمي إليها. وفي هذا الصدد يستخدم اختبار وكسنر للذاكرة "WMS Wechsler Memory Scale" ، الذي وضعه دافيد وكسنر عام 1945، وهو واضح اختبار الذكاء المميز للراشدين عام 1955.

وفي عام 1987، قام وكسنر بمراجعة هذا الاختبار مرة، وأضاف إليه الفكرة الخاصة بتحديد نسبة الذاكرة لدى الفرد. فقد بنى الاختبار على أساس يجمع بين عدد من الاختبارات التي تقيس الذاكرة من عدة جوانب، أو تقيس عدة وظائف للذاكرة، ومن ثم يمكن جمع درجاته لتحديد درجة الفرد على الذاكرة أو ما أسماه وكسنر بنسبة الذاكرة "Memory Quotient" (MQ)، وتحسب هذه النسبة في ضوء متوسط 100، وانحراف معياري 15، وصدرت الطبعة المعدلة من هذا الاختبار عام 1987. ويعد هذا الاختبار من الإضافات الجيدة في مجال القياس لاضطرابات الذاكرة؛ حيث إنه قد بنى على الفكرة الخاصة بأن الذاكرة وإن كانت وحدة واحدة، إلا أنها تضم العديد من الأنظمة الفرعية، ومن ثم فإن قياسها لابد وأن يتناول الذاكرة من عدة جوانب تأخذ في اعتبارها هذه الأنظمة الفرعية للذاكرة، لذلك يتكون الاختبار من عشرة اختبارات فرعية، هي:

- 1 المعلومات الشخصية والحديثة "personal and current information": وتضم أسئلة عن بيانات الشخص ذاته (السن، تاريخ الميلاد، عن شخصيات بارزة في المجتمع).
- 2 أسئلة عن التوجّه "orientation": عن تاريخ اليوم، وعن المكان الذي يقطن فيه، وعن المكان الذي يوجد به الآن.
- 3 أسئلة عن الضبط العقلي "mental control": العد من 1-20 بالعكس، ومن 1-3، وذكر حروف ألف باء.
- 4 الذاكرة الشكلية "Figural memory": حيث يجري على المريض اختبار التعرف باستخدام عدد من الصور المجردة.
- 5 الذاكرة المنطقية "logical memory": حيث يقرأ الفرد قصتين، لا تزيد الواحدة عن ستين كلمة، ويجري الاختبار الآني والبعدي.

- 6- الاختبار البصري للأزواج المرتبطة "visual paired associate": حيث يعرض على المريض شكل مجرد مرتبط بلون ما، وعليه أن يتعلم الرابط بين المثيرين، ثم يجرى عليه الاختبار الآني والبعدي.
- 7- الاختبار اللفظي للأزواج المرتبطة "verbal paired associate": حيث يقرأ المريض عشرة أشياء مرتبطة، يكون الأشكال الستة الأولى منها سهلة (حديد - معادن) أما الأربعة الأخرى فتكون صعبة (الظلام - يطحن)، ثم يختبر المريض بعرض الكلمة الأولى عليه، وعليه ذكر الثانية، وقد يستغرق المريض ست محاولات لتعلم هذه القائمة، ثم يختبر في الحال، وبعد ذلك بفترة.
- 8- الإنتاج البصري "visual reproduction": حيث يعرض على المريض شكل، ويطلب منه رسمه من الذاكرة، وبعطي للمريض أربعة أشكال، ويطلب منه رسمها في الحال، ثم بعد ذلك بفترة.
- 9- مدى الذاكرة الرقمية "digit span": حيث يقرأ المريض عدداً من الأعداد المتتابعة، ويعيد ذكرهم بالعكس. ويزاد العدد للمريض حتى يصل إلى ما يعجز عنه، ويعاد الإجراء، لكن المريض لا بد وأن يذكر الأرقام بالعكس "to that read out".
- 10- مدى الذاكرة البصرية "visual memory span": يعرض على المريض عدد من المربعات الملونة المرتبة مسبقاً، ثم يطلب من المريض ترتيبها بالعكس. ويزاد عدد هذه المربعات حتى يفشل المريض، ويعاد الإجراء، لكن لا بد وأن يعيد المربعات بالعكس.
- غير أن النقد الذي وجه إلى هذا الاختبار هو أنه لا يتضمن اختبارات للتعرف، لذلك كان لا بد من استخدام اختبار للتعرف. ويعيد اختبار ورينجتون للتعرف "Recognition Memory Test" من الاختبارات الجيدة، حيث يتكون من اختبارين للتعرف، أحدهما يتضمن الكلمات، والثاني يتضمن وجوها غير مألوفة لرجال. إذ يرى المريض كل منها لفترة ثلث ثوانٍ، ثم يصدر الحكم ما إذا كان ساراً أو غير سار. وهو من الاختبارات المهمة، خاصة في الحالات شديدة الإصابة. وهذا الاختبار من الاختبارات الموجهة بالعامل السيمانتي لرفع مستوى الذاكرة. ثم يقام التعرف بطريقة الاختيار الجبri، حيث يعرض على المريض أزواج من العناصر، ثم بعد ذلك في الاختبار يعرض عليه عنصر، ويطلب منه ذكر العنصر الآخر. ولهذا الاختبار معايير عمرية تسمح بمقارنة درجة المريض بغيره من أقران سنـه. كذلك يمكن - من خلال معرفة الفروق بين درجات الاختبارين - تحديد أيهما الأضعف، هل هي الذاكرة اللفظية أم غير اللفظية؟
- وفي اختبار آخر يقترحه راي "Rey"، يقدم فيه للمريض شكل، ليس له معنى، لكنه يحمل بعض المفاهيم الهندسية، مثل أن يكون مثلثاً، ويتقاطع معه عدد من الخطوط عرضاً وطولـاً، وعلى المريض أن يرسم هذه الصورة.

وبقدر معرفة المريض بالشكل ومحاكاته، بقدر ما يمكن معرفة إدراكه له، فإذا فشل المريض في إدراك الشكل فإن ذلك قد يرجع إلى عدة أسباب، منها إصابة الفص الأمامي "frontal lobe"، أما إذا نجح المريض مع استمرار نسيانه، فإن ذلك قد يعكس مشكلة مختلفة.

وفي الفحص الإكلينيكي، فإن المختص يكون واعيًا - بدرجة كبيرة - لمسألة الزمن؛ مما أدى إلى ما يسمى باختبارات المسح "screening tests"، وهي اختبارات سريعة في تطبيقها ولا يحتاج تطبيقها إلى خبرة كبيرة. ومن أكثر الاختبارات المعروفة في هذا المجال اختبار ريفرميد للذاكرة السلوكية "Rivermead Behavioural Memory Test"، وقد قامت بوضعه ويلسون، وقد سبق أن أشرنا إليه في هذا الفصل. فهذا الاختبار يمثل طريقة سريعة لتقدير شدة إصابة فقدان الذاكرة لدى الفرد، غير أنه مع ذلك قد لا يستطيع أن يحدد بعض إصابات الذاكرة. ولقد تم اختيار مكونات هذا الاختبار من نتائج الدراسات على حالات الإصابة في الفص الأمامي، التي ترجع إلى إصابات الرأس المغلقة "closed head injury"، وهو ما يوضح ارتباط تطبيق هذا الاختبار بملاحظات أقارب المريض، أو القائمين على رعايته. وقد تم وضع نسخة أخرى منه للكشف عن اضطرابات الذاكرة لدى الأطفال (Wilson, et al., 1991).

وفيما يلي المحاور التي يدور حولها هذا الاختبار:

- 1 تذكر الاسم "remembering names": حيث تعرض على المريض صورة لشخص معروف، ويطلب منه ذكر اسمه.
- 2 تذكر مكان شيء من أشياء المريض "remembering ahidden belonging": حيث يتطلب منه حفظ أي شيء من أشيائه في أي مكان من الحجرة، وفي نهاية الاختبار يطلب منه إحضار الشيء.
- 3 تذكر ميعاد "remembering an appointment": حيث يضبط المتنبه لكن يرن بعد عشرين دقيقة، ولقد تم التنبيه على المريض أن يذكر كلمة ما أو يسأل سؤالاً ما عند سماع الجرس.
- 4 التعرف على الصورة "picture recognition": يعرض على المريض عشر صور لأشكال مختلفة لخط مستقيم، ثم بعد خمس دقائق تعرض عليه هذه الصور ضمن عشر صور أخرى، وعليه أن يحدد الصور العشرة الأولى.
- 5 الاستدعاء الفوري للحقائق "immediate pros recall": حيث يقرأ المريض قصتين، وبعد كل منها يطلب منه رواية هذه القصة مرة أخرى، ثم يعاد اختباره أيضًا بعد فترة من الوقت.
- 6 إعادة التعرف على الوجوه "faces' recognition": يرى المريض خمسة وجوه، وبعد خمس دقائق يطلب منه تقييم هذه الوجوه من بين عشرة وجوه.

- 7- تذكر الطريق وترك رسالة *remembering the route and leaving message*: في هذا الاختبار يسیر الفاھص فی الحجّرة، ویمیر بعده أماکن، وفی كل منها یترك شيئاً. وعلى المريض أن یكرر ما فعله الفاھص، ويحضر الأشياء التي تركها، حيث ترتیب الأماكن له أهمية.

- 8- التوجّه "orientation": توجه للمريض أسئلة عن تاريخ اليوم والمکان الذي يوجد به.

قياس فقدان ذاكرة الأحداث السابقة على الإصابة ":"retrograde amnesia"

ووجهت غالبية الاهتمامات نحو تحسين أدوات قياس اضطرابات الذاكرة الخاصة بأحداث ما بعد حدوث الإصابة "anterograde memory difficulties"، بينما كان الاهتمام أقل كثيراً بأدوات قياس فقدان ذاكرة الأحداث السابقة على حدوث الإصابة. وقد نبع هذا التحيز من حقيقة أن اضطرابات ذاكرة الأحداث السابقة على الإصابة لا تسبب مشكلات في حياة المريض اليومية، في مقارنتها بتأثير فقدان ذاكرة أحداث ما بعد الإصابة على حياته. فضلاً عن أن فقدان ذاكرة الأحداث السابقة على الإصابة، يصعب قياسها أو تشخيصها؛ لأنها تتضمن اختبار ذاكرة الفرد عن أحداث لا يعرفها إلا هو. كما أن فقدان ذاكرة الأحداث البعيدة تميل إلى أن تكون غير سهلة؛ حيث إن الأحداث السابقة على حدوث الإصابة مباشرة تبدو أكثر صعوبة في التذكر من الأحداث البعيدة؛ لذلك فإن أكثر الطرقوضوحاً هي دراسة تاريخ الحال، لكنها ليست من الأمور السهلة، حيث يعمد بعض المرضى إلى فبركة أحداث مرت بهم، وهي الظاهرة التي تعرف بظاهرة الرغى أو كثرة الثرثرة، والتي تحدثنا عنها من قبل، بالإضافة إلى الوقت الذي يمكن أن يستغرق في هذا. لذلك يكون من الأفضل استخدام الإجراء المقترن للذاكرة الشخصية "autobiographical cueing procedure" حيث يستطيع المريض أن يسترجع خبرات محددة بكلمات تصدر إليه، أما عن اختبار درجة الفبركة فيمكن معرفة ذلك من خلال التتحقق من هذه المعلومات من فرد آخر في الأسرة. لكنها - بصفة عامة - تمثل طريقة جيدة للحصول على المعلومات، لكن تظل هناك بعض المشكلات؛ لأن يقدم المريض معلومات غامضة عن بعض الأحداث، أو أن تكون غالبية الأحداث التي يرويها المريض من مرحلة عمرية محددة، غير أن ذلك يمكن أن يمثل موضوعات للبحث فيما بعد.

ورغم أهمية هذه الطريقة، إلا أنه يصعب الوصول إلى تعميم عبر كل المرضى؛ لذلك فقد أضاف كوبلمان وزملاؤه تقنياً إلى هذه الطريقة، كما ظهر في أداة المقابلة للذاكرة الشخصية (autobiographical memory interview, 1990) وتتضمن الأداة تمييزاً بين ما يعرف بالمعلومات العامة للمريض عن حياته، والمعلومات الخاصة، وبذلك يمكن مقارنة درجاته بدرجات من هم في مثل عمره، كما يمكن التتحقق من حقيقة الأحداث من سؤال أحد الأقارب.

ومن الطرق التي يمكن استخدامها في فحص ذاكرة المريض للأحداث البعيدة هي الاستفسار عن الأحداث العامة، ومدى تذكر المريض لها، كذلك أيضًا بسؤال المريض عن بعض الشخصيات التي كانت شهيرة في فترات سابقة في المجتمع. ومن أشهر الاختبارات القائمة على هذه الفكرة هو اختبار بوسطن للذاكرة البعيدة Boston Remote Memory Test. لكن هذا الاختبار لا يتضمن الذاكرة فقط، بل يتطلب ثقافة واسعة من المريض؛ إذ يسأل المريض عن أحداث مجتمعية أو شخصيات شهيرة في مجالات مختلفة، ويطلب منه تحديد هذه الشخصية. وفي حالة صعوبة هذا الأمر، قد يقدم الفاحص بعض المؤشرات التي تعينه على التذكر، وتتضمن الاختبارات عبارات سهلة وأخرى أكثر صعوبة، فقد تتضمن بعض العبارات التي تتطلب تحديد العقد الزمني الذي ظهرت فيه. كذلك في عبارات التعرف، يقدم للمريض عدد من الأسماء، ثم تقدم له الإجابة ضمن إجابتين خاطئتين، وعليه تحديد الإجابة الصحيحة، والاختبار بشقيه السهل والصعب يعطى صورة واضحة عن الذاكرة.

وهناك اختبارات أخرى تسير على نفس النهج في تحديد اضطرابات الذاكرة، لكنها في مجموعها تقوم على سؤال المريض عن الأحداث الشهيرة والمهمة في مجتمعه، وعليه أن يعطي المعلومات عنها (مثلاً: صورة الرئيس السادس: من هو، هل مازال حياً أم لا، وكيف مات... إلخ). ولاشك أن الاستعانة بالأحداث المجتمعية الشهيرة في المجتمع، تعمل على وجود القاعدة التي يمكن المقارنة بين الأفراد على أساسها، بحيث لا تتحول اختبارات الذاكرة إلى أحداث شخصية لا يعرفها إلا أصحابها فقط، وهو الأمر الذي قمت مناقشه عند العرض لاختبار الإجراء المقنن للذاكرة الشخصية.

#### **: "Memory Questionnaires"**

تعد اختبارات الشخصية من الأدوات الالزمة عند فحص اضطرابات الذاكرة، فهي ضرورية لتوفير المعلومات عن مدى تأثير الاضطراب على الحياة اليومية للفرد، إلا أنها لا تستطيع أن تحدد نوعية الاضطراب، أو نوعية المشكلات التي يعاني منها الفرد، لكنه لابد من مضاهاة إجابة الفرد بغيرها من أقاربها أو القائمين على رعايته؛ من أجل المزيد من الثقة عن المعلومات التي يقدمها المريض عن حالته. كما أن لذلك أهميته في معرفة درجة استبصار المريض بحالته، فقد كشفت الدراسات عن تكرار إنكار المريض لفشلها في تعلم خبرة جديدة أو لعبة جديدة. ففي مقابلة إنكاره لحدوث هذا، كانت إجابة زوجته التي كشفت عن العكس تماماً.

وهناك عدد من الاختبارات التي كونت لهذا الهدف، وهي تجتمع في تضمنها لأسئلة عن أنواع النسيان التي يعاني منها الفرد، ومدى تكرارها، وتأثيرها على سلوك الفرد وعلاقاته مع الآخرين.

وقد أشارت الدراسات إلى ارتباط درجة الفرد على هذه الاستخبارات بدرجته على مكونات بعض اختبارات الذاكرة، مثل اختبار وكسلر للذاكرة.

### قياس وظائف نفسعصبية أخرى:

لأنه نادراً ما تواجه اضطرابات الذاكرة وحدها بمفردها عن اضطرابات أخرى، فإن عالم نفس الأعصاب الذي يواجه حالات اضطرابات الذاكرة، عليه القيام بعدد آخر من الفحوصات لبعض الوظائف المعرفية الأخرى؛ إذ بدون هذا الفحص يصعب تفسير فشل الفرد على اختبارات الذاكرة، وهناك الكثير من هذه الأدوات التي تستخدم في تشخيص المرض (كتاب كروفورد يزخر بالعديد منها 1992 ، Crawford et al)، ومنها:

- **قياس الوظيفة البصرية - المكانية:** غالباً ما يظهر مصابو المخ قصوراً في الإدراك البصري للمجال، ويمكن قياس هذا القصور باستخدام أداة للفيسي يمكن تنفيذها على النحو التالي: تثبتت شيء ما فوق أنف المفحوص، ثم يمد الفاحص يده في مكان ما من المجال البصري، ويحركها، حتى يقول المريض إنه قد رأى الشيء، ويكرر هذا الفعل من خلال موضع متعددة. والأداء السوى للمريض عن مدى من القصور في النظام البصري يسمى "agnosia"<sup>(1)</sup>، وهذا الاختبار لا يعني للقدرة البصرية السوية، وهناك عدد من الاختبارات لقياس هذا القصور، ومن هذه الطرق ما يعتمد على نسخ الأشكال، حيث يتطلب من المريض تجميع الأحجام المختلفة للشيء الواحد، أو المقابلة بين الشكل كاملاً، وبين الشكل الجزئي الذي يرتبط به.

كما أن هناك الاختبارات التي تقيس التمييز بين الشكل والأرضية "figure-ground discrimination" ، وهي القدرة على فصل المثير عن الخلفية. كذلك فإن اختبارات التكميلة أو الإغلاق من الاختبارات الجيدة لقياس القدرة التنظيمية، كما تعد اختبارات المقابلة بين الأشياء وظيفياً "matching to function test" وليس شكلياً من اختبارات قياس القدرة على الإدراك.

**اضطرابات الانتباه:** فالانتباه هو مصطلح يحتمل عدداً من الطرق لقياسه، فقد تؤدي إصابة النصف الأيمن من المخ، إلى عدم رؤية اليسار من العالم الذي يحيط به، لكن العكس لا يحدث. ويمكن قياس ذلك بطريقة كلية، حيث يمكن ملاحظة إهمال المريض للأشياء التي تقع على يمينه.

(1) "Agnosia" تعني: اضطراب أو فقدان القدرة على تمييز أو فهم أو تفسير معنى المثيرات الحسية، وترتبط هذه الحالة بتلف المخ أو الاضطرابات العصبية، ويتحدد هذا الاضطراب صوراً متعددة (الجهل بمعرفة وضع الأعضاء" "Autotoagnosia" ، عمه "Prosopagnosia" "Visual Agnosia" ، العمـه الوجـهي "Fingeragnosia" .(VandenBos,Gary R,2007 ، P 31)

ويعتبر اختبار تقسيم الخط "line bisection" من الاختبارات المستخدمة في ذلك حيث يطلب من المريض تقسيم الخط، فيلاحظ اهتمامه الدائم بتقسيم الجزء الأيمن من الخط، لأن تكملة الخط لا توجد. ومن الاختبارات التي قننت حديثاً "stroop test"، وهو يتضمن اختبار الفرد على ثلاث حالات، هي: قراءة أسماء ملونة مكتوبة بالحبر الأسود، أو تسمية ألوان الكروت الملونة، ثم تسمية لون الحبر الذي كتب به مجموعات أسماء ملونة. وتعد الحالة الثالثة هي أكثرهم صعوبة؛ حيث إن عدم التطابق بين الألوان يكشف بوضوح عن إصابات المخ.

وعن اختبار الذكاء العام للفرد، فإن اختبار وكسler للذكاء هو من أكثر الاختبارات كفاءة في هذا الصدد، ويكشف هذا الاختبار عن عدد من الحقائق عن المريض؛ إذ بالإضافة إلى النسبة العامة عن ذكاء الفرد، يمكن من خلال الاختبارات الفرعية أن تقدم عدداً من النتائج التي تفيد في تشخيص أوجه القصور في أداء الفرد؛ إذ يمكن مقارنته بنتائج اختبار الفرد قبل حدوث الإصابة. فضلاً عن المقارنة بين الاختبارات اللغوية وغير اللغوية، حيث يكشف الأسوية عن تقارب الدرجات بينهما. أما ارتفاع درجة الاختبارات اللغوية عن اختبارات الأداء، فإن ذلك يعني إصابة النصف الأيمن من المخ، والعكس يشير إلى إصابة النصف الأيسر من المخ. ومناقشة مدى هذه الفروق، فإن عشرين درجة تعني أنه لابد من الاهتمام، أما عن قياس ذكاء المريض قبل حدوث الإصابة، فهي من الأشياء المهمة للطبيب؛ فعمل الفرد هو مؤشر جيد عن حالته، لكننا مع ذلك قد نكون في حاجة إلى بعض التيقن من خلال الاختبارات المقتننة. ويعد اختبار نيلسون "National Adult Reading Test" من الاختبارات الجيدة في هذا الصدد، ويقوم هذا الاختبار على أن اللغة هي من الوظائف القوية، ولذلك تظل ثابتة، حيث تتدحر الوظائف المعرفية الأخرى، كما يحدث في مرض الزهيمر. ويكون الاختبار من عدد من الكلمات غير الصحيحة، أي التي لا تتفق مع قواعد الكتابة الصحيحة (الماجعة بدلاً من الجامعة، الدارسة بدلاً من الدراسة)، وعلى المريض أن يقرأها بصوت عال مع حساب الأخطاء، وهو من الاختبارات الجيدة إلا في حالة المرضى الذين يعانون من صعوبات القراءة المكتسبة "acquired dyslexias".

#### قياس وظائف الفص الأمامي من المخ : "frontal lobe function"

إن من أكثر المشكلات تعقيداً في الاختبارات النفسيعصبية هو قياس وظائف الفص الأمامي من المخ، فقد سبقت الإشارة إلى أن قشرة المخ الأمامية "frontal cortex" - بالإضافة إلى أجزاء أخرى - تعد مكاناً للعمليات التنفيذية، ومن ثم فليس هناك وظائف للفص الأمامي وحده، وعليه فإن قياس وظائف الفص الأمامي تتطلب عدداً من الاختبارات. وجدير بالذكر أنه ليست هناك اتفاقات بين المتخصصين في علم النفس العصبي على أدوات بعينها، ومن ثم فالامر متوك للاجتهادات الشخصية بينهم، غير أن باركن يقترح ما يلى:

بناء على تقسيم إيسلنجر وجرايان (Eslinger & Gratan, 1993) بين المرونة التلقائية "spontaneous flexibility" ومرنة رد الفعل "reactive flexibility" - فإنه يمكن الاستدلال على كفاءة الإدراك، والتفكير من اختبار كليهما. فمرنة رد الفعل تعزى إلى الاستعداد للتغيير التفكير والسلوك استجابة للموقف، أما المرونة التلقائية فهي تعكس التدفق العادى للأفكار والإجابات، ويعد اختبار تصنیف الكروت من الاختبارات التي يمكن استخدامها لهذا الغرض "Card sorting test" ، أما عن قياس المرونة التلقائية فيمكن استخدام اختبارات الطلقة.

كما تتعكس أيضًا وظائف الفص الأيمن في التخطيط "planning" ، وقد أشرنا من قبل إلى بعض الأشكال التي تستخدم في اختبار هذه القدرة، وحديثًا تم تكوين بطارية اختبارات قام بها ويلسون وزملاؤه؛ لقياس أكثر الجوانب تعيقًا في وظائف الفص الأمامي من المخ (Wilson et al , 1996).

\* \* \*



## الفصل التاسع

### الذاكرة وخرف الشيخوخة

إن تقييم عقولنا يكون عادةً بعزوها إلى حالة المخ وإمكاناته، وذلك يعني أن الحالة العقلية هي حالة المخ. ومن ثم، فعندما يصاب المخ، فإن ذلك يعني إصابة العقل؛ لذلك فعند إصابة المخ - كما في حالة خرف الشيخوخة - فإن ذلك يعني أن الوظائف العقلية قد أصيبت أيضًا. فالارتباط بين العقل والمخ لا يمكن إنكارها، بل يمكن النظر إليها باعتبارها الحلقة الخلفية الرئيسية الضرورية المهمة عند مناقشة الهوية وخرف الشيخوخة "Dementia". وقبل الخوض في تفصيات هذا المرض، يهمنا أن نوضح ما يخص العلاقة بين العقل والمخ؛ إذ إن خرف الشيخوخة يرتبط بأن يكون الفرد خارجًا عن العقل، أو بعيدًا عن العقل. والعقل كما تقول سوزن جرينفيلد "Greenfield" هو شخصنة المخ "Personalization of the Brain" ، التي تم وضع أساسها خلال مرحلة الطفولة، واستمر نموها خلال بقية مراحل حياة الفرد؛ ذلك أن نمطًا محددًا من الارتباطات بين خلايا المخ، هو الذي يؤدي إلى نشأة ما نسميه العقل، ولكن ذلك لا يعني أن ينظر إلى العقل باعتباره بدليلاً عن المخ الفسيولوجي، لكنه في نفس الوقت هو أكثر من مجرد كتلة سائلة من المادة الرمادية. ولذلك فإن تعريفها للعقل هو: "كيان من دائرة الخلايا يموج بالغليان، تتشكل بخبرات الفرد، ويظل في حالة تحديث مع كل لحظة يحياها الفرد" (Greenfield,S. 2000,13).

ولاشك أن هذا التعريف للعقل على هذا النحو يعني أن العوامل المهمة التي تجعل الفرد إنسانًا، وتجعل منه الشخص الذي قمثله، هو الخبرات الشخصية التي تملكتها وحده، والتي تكون كل ذكرياتك، أكثر من كونها الجينات التي تكونه؛ الأمر الذي يعلى من قيمة المفاهيم التي تمثل العالم المعرف لدى الفرد مثل الذاكرة، والعقل، والذات. ومن ثم قد يفسر هذا الأمر لماذا تكون الإصابة بخرف الشيخوخة صادمة، ولماذا تعتبر الذات هي قلب الإصابة في هذا المرض، كما يفسر أيضًا اهتمام برامج التأهيل حالياً بالتوجه نحو تحسين الشعور بالذات، وتدريب المحيطين بالمريض على كيفية الحفاظ على شعور مريضهم بالهوية والتفاعل مع الآخرين قدر المستطاع.

#### أولاً: خرف الشيخوخة، وماذا يعني؟:

هناك بعض الشعور نحو قصة خرف الشيخوخة بأنه ليس هناك مشكلة محددة أصلًا، فنحن نكبر ونتعرض للتدهور، وجزء من هذا التدهور يكون عقلياً، فتصبح أكثر نسبياً، وهو ما يرتبط بظهور المشكلات. فإذا كان التدهور واضحًا، فلأشك أننا في حاجة إلى المساعدة والحماية حتى من أنفسنا، وإذا كان نعاني فلاشك أننا سنعالج حتى تنتهي القصة بالموت.

إن التفكير على هذا النحو يتضمن أنه ليست هناك مشكلات محددة تحتاج إلى النظر، فخرف الشيخوخة هو جزء لا يتجزأ من حياتنا، خاصة الآن، حيث ازدادت شريحة كبار السن عبر المجتمعات، فخرف الشيخوخة يتحدد بظهوره في المخ، ومن ثم يكون ضياع الوظائف العقلية، وذلك يعني أن خرف الشيخوخة مثله مثل الأمراض العضوية الأخرى، حيث تؤدي إلى بعض الإعاقات المحددة، التي تؤدي بدورها إلى الفشل في قدرة الفرد على عملأشياء.

غير أن خرف الشيخوخة يمثل مشكلة كلية. فقد قدر أن ثمانية عشر مليوناً في العالم يعانون منها، يعيش 66% منهم في المجتمعات المتقدمة، كما أن نسبة الإصابة بها في تزايد حيث تزامن مع ارتفاع متوسط العمر للأفراد عبر العالم. ولقد أوضح الباحثون الآن أن كل أشكال خرف الشيخوخة تؤثر على 1% ممن في المدى العمري من 60 - 64. أما بين 85 - 90 فهي تؤثر على 20% منهم، وذلك يعني أن هذا المرض إنما يمثل عبئاً اجتماعياً على المجتمعات النامية وغير النامية، ويتضمن ذلك بعد الاقتصادي الذي لا بد من وضعه في الاعتبار. وإذا كان هذا على المستوى الرسمي، إلا أن هناك أعباء أخرى قد لا تدخل في المستوى الرسمي، لكنها تمثل مشكلة حقيقة. فهناك مشكلة القائمين بالرعاية، وغالباً ما يكونون من الإناث، فهم معرضون للاكتئاب والمستويات العالية من الضغوط النفسية، هذا فضلاً عن تحملهم للضغوط الأخلاقية أيضاً، حيث يتعين عليهم اتخاذ القرارات التي تخص الحالات.



يعرض الشكل نسب انتشار أنواع خرف الشيخوخة

وأيًّا كانت النسبة، فإن ذلك لا يزيد هذه القضية إلا مزيًّا من الاهتمام بها، ليس لبعانها الاقتصادية والاجتماعية على المجتمعات فحسب، ولكن للاعتبار الإنساني كذلك؛ حيث إن هذا يشكل الخلفية التي تنطلق منها المجتمعات في التعامل مع مريض خرف الشيخوخة، كما ينعكس ذلك أيضاً في التعامل مع القائمين على رعايته، والجهود الطيبة التي توجه لمواجهة هذا المرض .(Hughes,J.C. ET AL,2006)

كما تشير النسب أيضًا إلى أن 1% من بين 60 - 64 عامًا يصاب بهذا المرض، بينما ترتفع هذه النسبة إلى 20% في المدى العمري بين 85 - 90 عامًا.

إن هذا النوع من أمراض الذاكرة، قد يتوقع لأى منا الإصابة به؛ حيث إنه يمثل تطورًا طبيعيًّا للتقدم في العمر، فرغم وجود التدهور المتدرج في الذاكرة على مدى المراحل العمرية المختلفة، إلا أن هذا الأمر يزداد وضوحاً بعد سن التقاعد عن العمل، وهو يقابل في مجتمعنا حتى الآن سن الستين، بينما يساوى في مجتمعات أخرى (المتقدمة) سن الخامسة والستين. فمع التقدم في العمر - كما أشارت الأبحاث - فإن ما يصعب تذكره ليس هو الأحداث البعيدة الماضية، لكنها الأحداث الحالية. وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن 1 - 10% من هم فوق الخامسة والستين يعانون من خرف الشيخوخة، ومع التقدم إلى سن الثمانين وما بعدها، ترتفع هذه النسبة إلى 20%.

إن كلمة "Dementia" تشير إلى فئة أو مجموعة من اضطرابات تدهور المخ "Degenerative brain disorder" تعنى جميعها وجود تدهور تدريجي في الوظائف العقلية. ويعرف هذا المرض عادة بقياس بعض الأدوات الخاصة، مثل اختبار تقدير درجة هذا المرض (Clinical Dementia Rating CDR)، الذي قام بوضعه هووكس "Houx" وزملاؤه عام 1982، وهو يقوم على أساس مقابلة المريض والقائم برعايته، والخروج بتقديرات للذاكرة، والتوجه، ورعاية الذات. وعلى هذه الأداة، فإن الدرجة صفر تعنى عدم وجود المرض، بينما الدرجة ثلاثة تعنى الدرجة الشديدة من هذا المرض.

**ويحدد بليسد "Blesed" عدداً من المؤشرات لهذا المرض فيما يلى:**

\* يمكن أن تكون من مضاعفات مرض الاكتئاب؛ حيث وجد أن عدداً كبيراً من مرضى خرف الشيخوخة يعانون في البداية من القلق والاكتئاب، خاصة في المرحلة المبكرة من المرض.

\* قد يكون خرف الشيخوخة من مضاعفات البارانويا، التي يمكن أن تؤثر على المرضى في بداية مرحلة المرض، وقد تفسر على أنها دفاعات بارانووية، تسمح للمريض أن يتتجنب إدراك التدهور العقلي الذي يعاني منه.

\* قد تكون من مضاعفات الإصابة بالهذيان "Delirious"، فالدراسة الطويلة لهؤلاء المرضى كشفت أن 25% منهم يعانون من الأمراض العضوية. وفي بعض الحالات لا تكون الأمراض العضوية واضحة، ويكون التدهور في الوظائف العقلية قصيرة المدى.

ولاشك أن تصميم التجارب لقياس تغيرات الذاكرة عبر مراحل العمر، لا يعد بالأمر الهين؛ فكما سبق أن أشرنا إلى أن التصميم التجاربي القائم على مقارنة المجموعات المستعرضة - هذا التصميم الذي يقوم على المقارنة بين المجموعات المتباعدة في المراحل العمرية - قد وجهت إليه الكثير من الانتقادات التي يمكن أن تمس صدق النتائج المستخلصة، وتطرح حولها من التساؤلات

ما يربو كثيراً على ما أسفرت عنه من معلومات، إلى حد أن تصبح بعض النتائج مضللة للباحثين؛ بسبب وجود بعض العوامل التي لم يكن ضبطها تجريبياً في التجارب المختلفة. منها على سبيل المثال، أن يكون بعض كبار السن المتضمنين في الدراسة في المراحل الأولى من مرض الزهيرم مثلاً، وهو الأمر الذي يصعب إثباته حتى لدى المسن ذاته؛ إذ إن ذلك يتطلب إجراء الكثير من الاختبارات المعرفية قبل إجراء التجربة الأصلية. ومن ثم فإن الفروق التي تعزى إلى المراحل العمرية قد تعزى في الأصل إلى أسباب أخرى، مثل إصابات المخ بسبب تناول الخمور، أو بسبب الظهور المتأخر لمرض السكر، وإصابات الرأس الثانوية، أو الاكتئاب، أو بسبب التعرض لبعض أنواع العلاج الطيفي؛ كالجلسات الكهربائية على المخ. فقد تغير النتائج إلى حد كبير إذا ما أخذت هذه العوامل في الاعتبار، ففي دراسة قام بها هووكس "Houx" وزملاؤه عام 1991، على عينتين من مراحل عمرية مختلفة (كبار السن في مقابل الأصغر عمراً) على قدرن التذكر والتعرف لقائمة من الكلمات. ومن المتوقع في هذه الدراسة أن تشير النتائج إلى ما يحدد تدهور هاتين القدرتين لدى كبار السن بمقارنتهم بالعينة الأصغر عمراً، غير أنه في ضوء الاعتبارات السابقة الإشارة إليها، لم تكن هناك فروق ذات معنى تخص الفروق العمرية ذاتها.

وكما أشرنا سابقاً أيضاً إلى أن المستوى التعليمي يعد من العوامل الفارقة في القدرات المعرفية، لذلك لا بد من ضبط العامل الخاص بالتعليم كييفياً وكميًّا عند قياس الذاكرة لدى كبار السن، ومقارنتهم بالمراحل العمرية الأصغر سنًّا، والعمل بغير ذلك يعني أن النتائج المستخلصة إنما تعكس اختلاف المستوى التعليمي، وليس الفروق العمرية خالصة. وبما أن الهدف من الدراسات على نطاق محدود على عينات معينة مع الضبط التجريبي للمتغيرات، هو في المقام الأول الاستفادة من النتائج على نطاق أفراد المجتمع عامة - فإن ذلك يعني أن النتائج الخاصة بالفروق العمرية تفتقد للصدق الخارجي "External validity".

وبالطبع، فقد أدت المشكلات التي ارتبطت بمقارنة المجموعات العمرية المستعرضة، إلى قيام الباحثين بالدراسات الطويلة، حيث يتم تتبع عينة ما في مراحل عمرية مختلفة، مع تطبيق الأدوات المحددة، على أن تتم المقارنة للفرد الواحد عبر هذه القياسات المختلفة. ولاشك أن الدراسات الطويلة من شأنها أن تؤدي إلى تجنُّب مشكلات التجانس بين المجموعات، إلا أنها - من ناحية أخرى - قد تؤدي إلى مشكلات أخرى، خاصة ببقاء أثر التدريب على الأدوات، مما ينعكس وبالتالي على أداء الذاكرة. فضلاً عن هذا، فقد يواجه الباحث بتناقض أفراد العينة لسبب أو لآخر، خاصة مع المراحل العمرية المتقدمة.

ويعد الاهتمام بدراسة صغار الكبار "young adults" من الاهتمامات الحديثة؛ من أجل مزيد من فهم تغيرات الذاكرة في مرحلة الشيخوخة؛ بهدف تشخيص إصابة المخ بحرف الشيخوخة، وتحديد الأسباب التي تؤدي إليه. وقد يرجع التأخر في دراسة هذه العينات إلى ضعف التشخيص تارة، وإلى

عدم التعرف عليهم من الأصل تارة أخرى، أو إلى ضعف الإمكانيات ومحدوديتها لدى بعض البلدان، مما قد يؤدي إلى سوء الفهم أو سوء التعامل مع هذه الحالات. ولاشك أن نمو تخصص العلوم العصبية الطبية قد أدى إلى إضافات في معرفة وظائف المخ، مثل اللغة والكلام على سبيل المثال، دور الجينات فيإصابة المخ بالأمراض. كما أن الاهتمام بدراسة حرف الشيخوخة لدى صغار الكبار، يساعد - في تطبيق المعلومات الجديدة عن الجينات - في تشخيص حرف الشيخوخة لدى صغار الكبار، هذا من ناحية، كما يعين على تحديد أشكال جديدة لهذا المرض ، من ناحية أخرى.

وفي إحدى المستشفيات التي ضمت العديد من التخصصات في مجال دراسة كبار السن، تم إنشاؤها في أستراليا، اشتغلت على وحدة متخصصة، تستقبل صغار الكبار الذين لم يبلغوا الخامسة والستين من العمر، وتم تشخيصهم بالاشتباه في إصابتهم بحرف الشيخوخة، بناء على المظاهر المعرفية التي يعانون منها. وتضم هذه الوحدة تخصصات في علم النفس، واضطرابات الكلام، والعلوم العصبية النفسية، والخدمة الاجتماعية، والطب النفسي، ثم علم الجينات. وكان يتم تحويل هؤلاء المرضى من مصادر متعددة، مثل الأعصاب، والطب النفسي، والممارس العام، أو عن طريق الأسرة ذاتها.

وقد قام بيتر بانجيرس "Peter panegyres" وزملاؤه بدراسة على عينة كبيرة (226 مريضاً: 115 من الذكور و111 من الإناث) من زلقاء هذه المستشفى، الذين لم يبلغوا الخامسة والستين من العمر، وتم تشخيصهم بالإصابة بحرف الشيخوخة. وقد خضعت هذه العينة للفحوصات المتعددة: الأمراض النفسية، والزهيمر، وتدھور وظائف الفص الأمامي للمخ، وحرف الشيخوخة المصاحب بالاضطرابات المعرفية، وحرف الشيخوخة الناتج عن الأوعية الدموية. وبناء على هذا الفحص، فقد كشفت النتائج عن توزيع العينة الكلية على الأسباب التالية:

3. 24 % اضطرابات نفسية، وأكثرها شيوعاً الاكتئاب، وبليه القلق.

0.19 % تدهور الفص الأمامي من المخ.

0.9 % مرض الزهيمر.

0.9 % اضطرابات معرفية.

0.9 % اضطرابات عصبية.

1. 3 % حرف الشيخوخة المرتبط بالأوعية الدموية.

2. 7 % شرب الكحوليات.

2. 7 % عوامل متعددة.

2. 2 % أمراض سابقة.

1.8 % إصابات الرأس.

0.9 % تاريخ أسرى.

0.9 % عطب الأجزاء الخلفية من القشرة المخية.

1.3 % خرف شيخوخة غير محدد.

."lewy body disease" 40 %.

4.8 % أسباب غير عصبية.

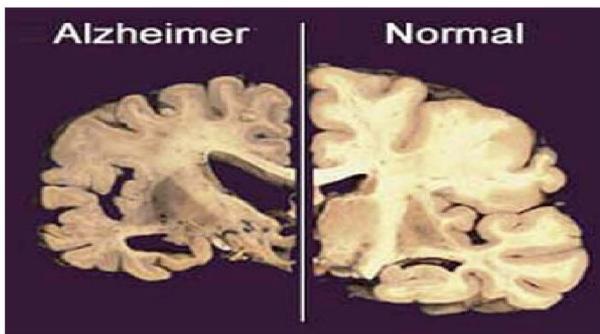
0.6 % أسواء.

100 % العدد الكلى

وقد تكشف نتائج هذه الدراسة عن الأسباب التي ترتبط بالإصابة بمرض خرف الشيخوخة في الكبر، مما قد يساعد في التنبؤ بعدد الحالات التي يمكن أن تصاب بهذا المرض من ناحية، وفي تحديد وجهة بذل الجهود في الوقاية منه قدر الإمكان من ناحية أخرى. كما تؤكد هذه الدراسة كذلك على أن مرض خرف الشيخوخة، حتى وإن ارتبط بالتقدم في العمر بما يشبه حتمية الإصابة به، إلا أنه يجب الانتباه إلى أن التاريخ المرضي للفرد لاشك يلعب دوراً مهمّاً للغاية في الإصابة بهذا المرض. لكن، تظل هذه الاستنتاجات مجالاً مفتوحاً لمزيد من الدراسات على مرض خرف الشيخوخة.

### مرض الزهيمر وإصابة الذاكرة:

كما سبق أن ذكرنا فإن كلمة خرف الشيخوخة تشير إلى مجموعة من الأمراض التي تجسد تدهور أداء المخ البشري في مرحلة الكبر، وتضم هذه المجموعة عدداً من الصور التي تجسد هذا التدهور، وأغلب هذه الصور - لحسن الحظ - نادر الوجود. ثم يليها الصور التي تواجد بين البشر ولكن بقدر محدود، منها مرض هنتينجتون ("Huntington") (هذا المرض الذي يجسد التدهور المستمر للمخ، ويؤدي إلى إعاقة حركة المريض، مثل عدم التحكم في الكتابة، والتدهور العقلي التدريجي). وقد ثبت من الأبحاث أن هذا المرض قد ينتقل بالوراثة، ومن ثم فعلى هؤلاء المعرضين له أن يتعلموا كيفية مواجهته عند ظهوره. والصورة الأكثر شيوعاً من خرف الشيخوخة تتمثل في مرض الزهيمر ("Alzheimer")، وهو يكون 50 % من مرضى خرف الشيخوخة في الكبر، وهو يحدث بنسبة 10 % بين من تبلغ أعمارهم 65 فأكثر. وتزايد النسبة بالطبع مع التقدم في العمر، وتشخيص هذا المرض ليس بالأمر الهين، لكنه قد وجد من خلال عمليات التشريح للمخ بعد الوفاة، أن هذا المرض يتحدد بوجود صفات محددة، والشبكات العصبية الليفية في المخ تعوق تشخيص هذا المرض فيزيقياً، فكان لابد من الاعتماد على المؤشرات السيكلولوجية والسلوكية، مع الحذر الشديد من تداخل الصور الأخرى من التدهور العقلي.

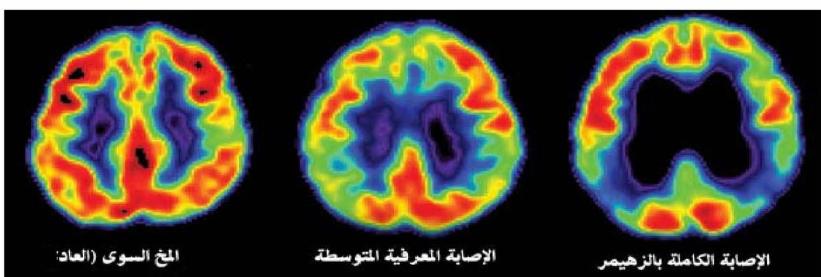


يوضح الشكل صورة المخ قبل الإصابة بالزهيمير وبعدها

ويعتمد التشخيص على تقدير أداء الفرد أقل من 5% من أداء الأفراد في مثل عمره على اثنين أو أكثر من المجالات الآتية:

- 1- التوجّه المكاني والزمني.
- 2- الذاكرة.
- 3- اللغة.
- 4- ضبط الحركة "Praxis"
- 5- الانتباه.
- 6- الإدراك البصري.
- 7- حل المشكلات.
- 8- التوظيف الاجتماعي "social functioning".

وحيث إنه لا يوجد قياسات معيارية لهذه المجالات الشمانية، يظل التشخيص يمثل مشكلة للعاملين في المجال، ومن ثم فإن الفرد الذي يحصل على درجات أقل 5%， يكون معرضاً للإصابة بالمرض. إلا أن هذا التشخيص لا يصبح ثابتاً إلا بعد إعادة القياس مرة أخرى على الفرد ذاته بعد مرور عدد من الشهور القليلة على القياس الأول.



يوضح الشكل صورة المخ مرتبطة بدرجة الإصابة

وقد أجريت غالبية الأبحاث على الحالات المتوسطة من الإصابة بالزهيمير؛ حيث إن ذوى الإصابة الشديدة بالمرض لا يمكنهم تتبع التعليمات أو الانتباه إلى ما تطلبه الاختبارات المختلفة، والإصابة المتوسطة بالزهيمير لا تمنع المريض من أداء مهامه الشخصية في المنزل. وقد يكون المريض واعياً أو غير واع بتدھور عملياته المعرفية، لكنه لابد وأن يترك العمل فوراً إن لم يكن قد فعل هذا. ومن المهم الإشارة إلى أن بعض الأفراد في المهن المتميزة (قاض، رجل بوليس) رغم تشخيصهم بالمعاناة من مرض الزهيمير، إلا أنهم قد ظلوا يمارسون العمل مع الدعم الشديد من الزملاء.

ويلاحظ الاضطراب في البداية عندما يصبح الفرد أكثر سيّاً، حيث إن اضطرابات الذاكرة من أولى علامات هذا المرض، كما تتوارد لديه مشكلة البحث عن الكلمات. وعندما يتطور المرض يصبح المريض غير قادر على إدارة نفسه وحده، ويحتاج إلى المساعدة في الأنشطة الأساسية، مثل الطليس. ومع تقدم المرض، تضطرب الذاكرة حتى تصبح غير قادرة على تمييز الأقارب. ويميل غالبية مرضى الزهيمير إلى الانسحاب من الأنشطة الاجتماعية، ويصبحون أكثر اعتماداً على غيرهم، خاصة مع تقدم المرض، حيث يؤدي انهيار الذاكرة إلى مشكلات كثيرة ومتنوعة بتنوع المواقف الحياتية، ويصبح الأمر في حاجة إلى الاستعانة بمن يعاونه غالباً الوقت، إن لم يكن كله.

#### الذاكرة طويلة المدى ومرض الزهيمير:

إن أوضح جوانب القصور في مرض الزهيمير تبدو في ذاكرة الأحداث في الذاكرة طويلة المدى، سواء تم القياس بالأدوات المقننة، أو باسترجاع فقرة ما؛ إذ إن مرض الزهيمير يؤدون أداء سيّاً على هذه المهام، ويمكن تحديد اضطراب الذاكرة لدى مرضى الزهيمير من أداء الفرد على أدوات قياس ذاكرة الأحداث. ولقد حاول نوبمان وريبرج (Knopman & Ryberg, 1989)، قياس مرض الزهيمير على تكوين عدد من الجمل، تبدأ بكلمة تم تعلمها في قائمة للكلمات، وبمقارنة أداء مجموعة المرضى بغيرهم من الأشخاص، كانت الفروق ذات دلالة عند 0.01، كما أن هناك عدداً من الدراسات قد أشارت إلى أنه مع تعلم بعض مرضى الزهيمير المعلومات الجديدة، إلا أنهم ينسونها بسرعة كبيرة، ومع ذلك فهذا الأمر مازال موضع نقاش حتى الآن.

غير أنه من الثابت والمتفق عليه بين الباحثين هو أن مرض الزهيمير يكشفون عن مستويات غير سوية من تشوش في الذاكرة. ومصطلح التشوش يستخدم بمروره في هذا الصدد، فقد يعزى إلى وجود المعلومات الزائفة أثناء الاستدعاء، أو قد يعني التحديد الزائف للمشتتات، مثل تحديد الكلمات الرئيسية في اختبار للتعرف. وهذه المستويات المرتفعة من التشوش تميز مرض الزهيمير عن الصور الأخرى من مرض خرف الشيخوخة.

كما أثبتت التجارب أيضًا أن الذاكرة العاملة لدى مرضى الزهيمر تتأثر إلى حد كبير، فقد عرف عن مرضى الزهيمر انخفاض مدى الذاكرة لديهم عن الأسواء، وهو ما كشفت عنه تجارب استدعاء مجموعة الأرقام، أو قوائم الكلمات، كما كشفت النتائج أيضًا عن تأثير عامل الحداثة على ذاكرة مرضى الزهيمر، حيث استطاع المرضى استدعاء الكلمات في نهاية القائمة، بينما كان الاضطراب واضحًا في استدعاء الكلمات الأولى في القائمة ذاتها، وقد فسر البعض هذه النتائج بفشل النظام التنفيذي في الذاكرة العاملة. وفي تجربة قام بها بادلي وزملاؤه عام 1991، على عينة من مرضى الزهيمر، ومقارنتهم بعينة من الأسواء على أداء العملين في آن واحد (المرور في متاهة وحفظ مجموعة من الأرقام في آن واحد) - أسفرت التجربة عن فشل مرضى الزهيمر في هذا الأداء فشلاً ذريعاً، وذلك مقارنة بعينة الأسواء التي وجدت بعض الصعوبة في أداء العملين معًا، لكنها نجحت في النهاية. وقد خلص بادلي من هذه التجربة إلى أن النظام التنفيذي في الذاكرة العاملة لدى مرضى الزهيمر يضطرب، وبالتالي يصبح غير قادر على تنسيق الاستجابات على العملين معًا، ومن ثم فإن اضطراب ذاكرة مرضى الزهيمر يعزى إلى أمرین، هما:

\* اضطراب ذاكرة الأحداث في الذاكرة طويلة المدى.

\* اضطراب النظام التنفيذي في الذاكرة العاملة.

ويشتراك معهم في هذه الأعراض مرضى من فئات أخرى؛ لذلك لا بد من وجود الأدوات الفارقة التي تميز مريض الزهيمر عن غيره من المرضى ذوى فقدان الذاكرة، فاضطراب ذاكرة المعانى "Semantic Memory" لدى المريض من العلامات الفارقة بينه وبين المرضى من الفئات الأخرى. فهي تضطرب إلى درجة كبيرة، ويبعد هذا الاضطراب على بعض الأدوات التي تستخدم لهذا الغرض، منها تسمية الصور مثلًا، حيث يرى المريض صوراً للحيوانات، لكنه يفشل في تسميتها، أو أنه يعطي استجابة عامة، مثل "حيوان". كذلك أيضًا يعد اختبار الطلقة اللفظية من الاختبارات الجيدة في هذا الصدد، حيث يطلب من المريض ذكر أكبر عدد ممكن من الأمثلة على فئة بعينها، ولتكن الحيوانات مثلًا أو الجوامد، وذلك في مدى زمني صغير (ستون ثانية). كما أن أداء مرضى الزهيمر يكون سيئًا على اختبار السخافات (الذى يضم عبارات معروفة للجميع، أو تتضمن أمورًا غير منطقية، مثل البطاطس تبحث عن الطعام - سمك القرش يسير على عجلات). ويكون أداء مرضى الزهيمر بطريقًا للغاية على هذا الاختبار، كما أن عدد الاستجابات الخاطئة لديهم ليست بالقليلة. ومع تقدم مرض خرف الشيغوخة، يتزايد اضطراب ذاكرة المعانى، ومتى من المشكلات البسيطة الخاصة بالبحث عن الكلمات إلى فقد الكلمات للمفاهيم، ومن ثم كان القول بتراجع ذاكرة المعانى لدى هؤلاء المرضى. ومن نتائج مجموعة من الدراسات قام بها نيبس "Nebes" وزملاؤه عام 1986، و1989، خلص إلى ما سبق أن أشار إليه سالثوس، أن ارتباط التقدم في العمر بالعمليات

المعرفية يتلخص في عامل الوقت الذي يستغرقه الفرد في الأداء. لكن دراسات شين "Chan" وزملائه، على ذاكرة المعانى قد كشفت عما تميّز به الذاكرة السيمانتية لدى مرضى الزهيرم بعدم التنظيم، فقد كان هذا الباحث وزملاؤه مهتمين بدراسة كيفية رؤية مرضى الزهيرم وغيرهم من الأشخاص، لأوجه التشابه والاختلاف بين الأشياء. فعرض على الأفراد ثلاث صور للحيوانات مثلاً، ثم وجه إليهم سؤالاً مباشراً عن أي اثنين من هذه الحيوانات أكثر تشابهاً، وقد أسفرت النتائج عن عدم قدرة مرضى الزهيرم على تحديد أوجه الشبه التي تقوم على المفاهيم المجردة مثل الاستثناء، بل إنهم أقل دقة في تحديد العلاقة بين الحيوانات؛ لأنهم يعتمدون بشدة على الملامح الحسية المدركة، ومن ثم يبدو واضحاً عدم تنظيم ذاكرة المعانى لدى مرضى الزهيرم، وهو يؤثر بدوره على ذاكرة الأحداث. وعلى الرغم من هذا، فقد كشفت دراسات أخرى عن عدم تأثير ذاكرة المعانى لدى مريض الزهيرم (Bondi & Kaszniak, 1991).

كما وأشارت الأبحاث أيضاً إلى أن مريض الزهيرم يكشف عن تدهور شديد في ذاكرة الأحداث القريبة، فقد وجد بيتي "Beatty" وزملاؤه أن مرضى الزهيرم كان أداؤهم على تذكر الأحداث البعيدة أفضل من تذكرهم للأحداث في السنوات القريبة. وفي دراسات على الذاكرة الشخصية لمرضى الزهيرم، أشارت نتائج هذه الدراسات إلى تدهور هذه الذاكرة في استدعاء الأحداث التي مرت بهم منذ فترة بعيدة، بما يشير إلى اضطراب الذاكرة بصورة واضحة. فضلاً عن هذا، فقد دلت الاستجابات على أن الذاكرة القريبة من حدوث المرض كانت أكثر اضطراباً من ذاكرة الأحداث البعيدة (Kolpeman, 1985).

وقد أدى الاهتمام بدراسة الذاكرة الضمنية إلى دراستها على مرضى الزهيرم، غير أن النتائج كانت متعارضة. فقد وأشارت بعض النتائج إلى وجود فروق دالة بين مرضى الزهيرم وبين مرضى فقدان الذاكرة "Amnesics". ومن التجارب في هذا الصدد تكملة الكلمات، حيث تعرض الكلمة كاملة على الفرد، ثم تعرض عليه بعد حذف حرفين من الكلمة، ويطلب منه تكميل الكلمة الحروف، ولقد كشفت النتائج عن فشل مرضى الزهيرم على هذه الأداءات، مما يشير إلى اضطراب الذاكرة الضمنية لديهم. وفي تفسير هذا الأمر، وأشارت الدراسات إلى أن مريض الزهيرم أثناء عملية التعلم، لا ينشغل بعملية بحث كافية، بينما وأشارت دراسات أخرى إلى أن قراءة الكلمات بصوت مرتفع تسمح لمريض الزهيرم أن يرى التمييز الطبيعي (Downes, 1996). كما وأشارت النتائج في بعض التجارب إلى استفادة مرضى الزهيرم من التدريب، أسوة بالعينة السوية، مما يدل على تعلمهم ضمئياً للمهمة (Brandt&Rich, 1995).

ومن الجدير بالذكر، أنه على الرغم من ارتباط مرض الزهيرم بأمراض خرف الشيخوخة، إلا أن هناك صوراً أخرى، منها مثلاً خرف الشيخوخة الناتج عن تعدد الاحتشاء (MID) أو خرف الشيخوخة الوعائي "vascular dementia" الذي يحدث

نتيجة اضطراب الدورة الدموية في المخ، لكن ليس من السهل التمييز بين مرض الزهيمير، وبين هذه الصور الأخرى من مرض خرف الشيخوخة، غير أن هناك بعض الدراسات الحديثة عن الذاكرة، كشفت عن فروق مهمة بينها. فقد قام باركن وزملاؤه بعمل اختبار التعرف على مجموعة من مرضى الزهيمير، ومقارنتهم بمرضى "MID"، ويقضى هذا الاختبار بأن يتعرف المريض على مجموعة من الكلمات، هي الكلمات الأساسية، ثم تعرض عليه هذه الكلمات مرة أخرى ضمن مجموعة جديدة من الكلمات، وعليه أن يحدد ما إذا كان قد سبق له رؤية الكلمة، أم أنها جديدة عليه. والاستجابة الصحيحة على اختبار التعرف هذا تعرف بـ "Hit"، أما التوحد الخطأ بالكلمات الجديدة فيطلق عليه "False alarm" ، أما عدم القدرة على تحديد الكلمة فتعتبر "miss" . وقد وجد باركن أن مريض الزهيمير، قد تميز بأداؤه بالكثير من الاستجابات الصحيحة، والكثير من استجابات الـ "False alarm" أيضًا. وعلى النقيض من ذلك كان مريض "MID" ، فقد كان أكثر تحفظاً، حيث كان الأقل في الاستجابات الصحيحة، والأقل أيضًا في استجابات الـ "False alarm"

وفي دراسات سابقة على اختبار التعرف على مرضي إصابة الفص الأمامي من المخ، وجد الباحثون أنهم يكترون أيضاً من الاستجابات الـ "False alarm" ، ولذلك خلص البعض إلى أن المجموعتين معًا (مرضى الزهيمير، ومرضى الفص الأمامي من المخ) قد يشتركان في نوعية الاضطراب.

وتجدر بالذكر أن تشخيص خرف الشيخوخة كثيراً ما يتداخل مع ما يعرف بخرف الشيخوخة الزائف "pseudo-dementia" ، وهو يعزى إلى السلوك الذي يقوم به بعض مرضى الاكتئاب، باعتباره محاولة لتقليد أعراض خرف الشيخوخة. ومن الصعب إلى درجة كبيرة تمييزه عن خرف الشيخوخة بالفعل؛ حيث إن ما بين 5% إلى 15% من مرضى خرف الشيخوخة يتحولون إلى مرضى اكتئاب، لكنه كما كشفت الدراسات عن أنه يمكن التمييز بين مرضي الزهيمير وبين خرف الشيخوخة الكاذب، بأن الأخيرين لا يميلون إلى عمل الكثير من أخطاء الـ "False alarm" ، بل إنهم أكثر تحفظاً في الاستجابة على اختبارات التعرف.

وقد يظهر خرف الشيخوخة أيضًا في بعض الاضطرابات الأخرى، مثل: هنتينجتون "chorea" (HC) كما سبق أن أوضحنا، وبركتسون (PD)، وخرف الشيخوخة تحت القشرى "subcortical dementia" ، وكذلك تصلب الأنسجة المتعدد "multiple sclerosis" ، والشلل الارتاجاف "progressive supranuclear palsy" ، ثم عدوى مرض نقص المناعة "HIV". وكل هذه الأمراض تعرف جميعها بأنها خرف الشيخوخة تحت القشرى؛ لأنه من المعتقد أنها تنشأ من سوء توظيف في المناطق الجانبيّة للقشرة المخية. وقد أجريت الدراسات لمعرفة الفروق بين هذه الأنواع من خرف الشيخوخة، وقد وجد برانت وريتش (Brandt & Rich, 1995)، أن هناك فروقاً بين

مرضى الزهيمير وبين مرضى هنتينجتون (HC) على الذاكرة الضمنية، مما يؤكد من ناحية أخرى أنها وحدة مستقلة.

ويأتي السؤال: هل يمكن أن يحدث شفاء من مرض الزهيمير؟

إن الإجابة في الوقت الحالى بالنفي؛ حيث إن ذلك يتطلب الأخذ فى الاعتبار لأوجه القصور العصبية الكيميائية المسئولة، ثم استخدام هذه المعرفة في عملية العلاج. وهناك إشارات جيدة على أن مرضي الزهيمير لديهم قصور في الأسيتايول كولين (مادة الناقلات العصبية)، التى من المعتقد أنها تلعب دوراً مهمًا في التعلم والذاكرة. ويؤدى هذا الاكتشاف إلى وجود أمل كبير في العلاج لهؤلاء المرضى، حيث يمكن مدتهم بـالمواد الناقصة، وتعويضهم عن عدم وجودها.

ويبدو حتى الآن أن الكولين هو الوحيد من المواد العصبية الكيميائية التى يمكن تعويضها لدى مريض الزهيمير، لكنه على المدى البعيد لابد من وجود أشكال للعلاج الدوائى العصبى، الذى يتمثل في العقاقير، والتى يتاح لبعضها التداول الآن.

أما عن زرع خلايا بالمخ لعلاج أوجه النقص الكيميائي العصبى، فهو ما زال يمثل بدليلاً لم يخرج إلى حيز التنفيذ، كما حدث مع مرض باركisson، حيث يعرف هذا المرض باستنفاد الدوبامين، ومن ثم أدى تعويض هذا العقار إلى نتائج ناجحة، غير أن جهود الباحثين ما زالت بعيدة عن إيجاد العلاج المماطل لمرضى الزهيمير.

أما عن استخدام بعض الإستراتيجيات المعينة على تذكر المريض، وعدم شعوره بالتتوتر والضغط الناجم عن فقد الذاكرة، فهي للأسف الشديد ليست ذات فاعلية في علاج هذه الحالات. غير أنها يمكن الاستعانة بها لحل المشكلات الموقفية الناجمة عن فقدان الذاكرة، كاستخدام مكان مميز (لون مثلاً) لوضع الأشياء (كاملفاتيح، النظارة، النقود)، أو استخدام وسيلة الكتابة على اللوحة لتذكر المواعيد. غير أنها جميئاً لا تعد علاجاً، بل هو تعامل مع تبعات المرض، بما يؤدى إلى نتائج أفضل، ويقلل من حجم المشكلات التي يتعرض لها المريض، ومن يرعاه.

### مرض الزهيمير والأبحاث الحديثة:

لاشك أن نسبة الإصابة بخرف الشيخوخة، التى تمثل ما يقرب من 20 - 22% أمر لا يجب الاستهانة به، خاصة وأن العالم جميئاً ينحو في اتجاه زيادة متوسط العمر، بما يضيف إلى الفرد ما يقرب من 25 عاماً أخرى، ولذلك تنشط الأبحاث في الوقت الراهن بدراسات إمبريقية؛ بهدف التعرف على العوامل التى يمكن أن ترتبط بحدوث المرض ومن ثم تجنبها؛ حتى يمكن أن نجنب الفرد أن يعيش حياته يعاني من أهم ما يميزه كإنسان وهو الوظائف العقلية. لذلك، فما نقدمه في هذا العنصر هو إطار على القضايا التي تشيرها الأبحاث الحديثة في مجال الاضطرابات العقلية

عامة، ومرض الزهيمر خاصة؛ بهدف استخلاص العوامل أو المتغيرات المهيأة لحدوث الأضطرابات العقلية والمعرفية؛ عليها تصبح يوماً ما في متناول يد الإنسان العادي، فتكون دليلاً إلى مساعدة ذاته في الوقاية من الوقع فريسة للمرض قبل أن تكون من معيناته لمقاومته. فلاشك أن حاجتنا إلى المعرفة السيكولوجية أصبحت مطلباً ملحاً، يتزايد الطلب عليه مع تعقد الحياة، وتبادر المثيرات وتتجدد، الأمر الذي يصبح معه من الضروري أن يتعلم الفرد الاستجابة الملائمة والاستجابة الأنسب للمواقف المختلفة. فالكثير من استجابات الفرد قد تترك لاجتها ذاته الشخصية، أو لحصيلة خبراته، أو خبرات من حوله عن المواقف المماثلة، ولاشك أن ذلك أيضاً يتوسطه نمط شخصية الفرد (الخصائص النفسية والاجتماعية والعقلية)، وخصوصية الموقف، بالإضافة إلى توقعات المجتمع الخارجي ومعاييره؛ للحكم على سوء التصرف من عدمه.

**من هذا المنطلق، نعرض لأهم النتائج عن الأضطرابات المعرفية عامة لدى الفرد على النحو التالي:**

- 1- في دراسة عن قضاء أوقات الفراغ والاستهداف للإصابة بمرض الزهيمر، قام ليندستروم وزملاؤه (Lindstrom et al, 2005)، بدراسة للتعرف على رؤية التلفاز، باعتباره من الأنشطة الحرجة، وبين الأضطرابات المعرفية في مرحلة الكبر، خاصة وأن هناك من الآراء ما يؤيد القول بأن المزيد من استخدام القدرات المعرفية للفرد، والمزيد من الترقى في درجات العلم، يمكن أن تمثل حماية للفرد من الإصابة بمرض الزهيمر. لكنه غير معروف حتى الآن كيف يحدث هذا، ولذلك تفترض هذه الدراسة أن رؤية التلفاز قد ترتبط بزيادة التعرض لمرض الزهيمر. وقد أجريت الكثير من الدراسات على الأعمار المختلفة؛ للتعرف على متوسط عدد الساعات لرؤية البرامج المختلفة، خاصة كبار السن، إلا أن الدراسة الحالية تركز على دراسة مرحلة وسط العمر، وعادات رؤية التلفاز لديها، كمؤشر قد يعمل على الاستهداف للمرض.

والفرض الأساسي لهذه الدراسة يدور حول ارتفاع معدل رؤية التلفاز وارتفاع معدل الاستهداف لمرض الزهيمر، وتمثلت عينة هذا البحث من بين المسجلين في مركز أبحاث الذاكرة والشيخوخة، جامعة كلفلاند بأمريكا، وتكونت العينة من مائة وخمس وثلاثين فرداً (72 إناث و63 ذكور). وقد تم الحصول على المعلومات من الشخص المراافق للحالة، بشرط أن يكون ذا خبرة معه لا تقل عن عشر سنوات، ومن ثم ضمت مجموعة المرافقين الأزواج أو الزوجات 73%， والأصدقاء 7%， والأبناء 20%. أما المجموعة الضابطة فقد تم الحصول عليها من الأقارب والجيران المحيطين، بشرط خضوعهم للفحص الطبي العصب؛ للتأكد من خلوهم من الأمراض التي تؤثر على الجوانب المعرفية للفرد، وقد بلغ عددهم ثلاثة وواحد وثلاثين فرداً (199 إناث و132 ذكور)، كما تم استبعاد متعاطي الكحوليات، ومدمى العقاقير النفسية، وذوى الإصابات الدماغية أو مرضى السرطان؛ وذلك ل袒عهم للأضطرابات المعرفية. وباستخدام أداة الاستفتاء على مجموعة المرافقين للمجموعة التجريبية، وعلى الأفراد أنفسهم للمجموعة الضابطة، تم جمع المعلومات عن

الأنشطة المختلفة التي كان يمارسها الفرد في مرحلتين من العمر: من 20 - 39، ثم من 40 - 59، على أن يحدد الفرد نوعية الأنشطة وعدد الساعات التي يخصصها لكل نشاط. وقد تم تقسيم الأنشطة إلى أربع مجموعات، هي: رؤية التلفاز، والأنشطة الاجتماعية (الزيارات، التحدث في الهاتف، مشاهدة المباريات في النادي، التردد على دور العبادة)، ثم الأنشطة العقلية (القراءة، عزف الموسيقى، الرسم، أعمال إصلاحية بالمنزل)، ثم أنشطة جسمانية (السير الحر، زيارة أماكن التدريب، الاهتمام بالتدريب على لعبة ما، السباحة...)، وقد تم تقدير عدد الساعات لكل الأنشطة معًا، ثم لكل نشاط على حدة، وقد كشفت النتائج عمليًا:

- في المجموعة التجريبية، كان عدد ساعات مشاهدة التلفاز في مرحلة وسط العمر مثل نسبة 27% من الوقت الكلي المخصص لكل الأنشطة اليومية، بينما كان لدى المجموعة الضابطة مثل 18% فقط.
- تزايدت النسبة المخصصة من الوقت للأنشطة الاجتماعية لدى المجموعة الضابطة 28%， عنها لدى المجموعة التجريبية 24%.
- تزايدت النسبة المخصصة من الوقت للأنشطة العقلية لدى المجموعة الضابطة 35%， عنها لدى المجموعة التجريبية 29%.
- كانت هناك فروق طفيفة في نسبة الوقت المخصصة للأنشطة الرياضية والجسمانية، 19% لدى المجموعة التجريبية في مقابل 18% لدى المجموعة الضابطة.

وخلصة هذه الدراسة أن المزيد من ساعات مشاهدة التلفزيون في مرحلة الرشد ووسط العمر يزيد من درجة الاستهداfe للإصابة بالذهيمر في مرحلة الكبر. كما أن المزيد من ساعات الأنشطة الاجتماعية والعقلية يساعد على حماية الفرد من الواقع فريسة الوقت المنصرف في رؤية التلفزيون، الذي قد يعكس رغبة الفرد في تجنب الأنشطة المثيرة، من ناحية، كما يعد مؤشرًا على نمط من الحياة غير نشط عقليًّا، من ناحية أخرى. وتتكامل هذه النتائج مع رؤية أن الانشغال بالأنشطة المثيرة للعمليات العقلية للفرد قد تقلل من التدهور العقلي في الكبر.

-2- وعن الذاكرة الشخصية واضطراب الهوية لدى مرضى الزهيمر، فقد أشار التراث إلى وجود علاقة بين الذاكرة الشخصية وبين الهوية. فمن المعتقد أن الذاكرة الشخصية ترتبط بخاصية المعرفة الذاتية، والقدرة على الحكم، التي تساعد على ربط الذات الماضية مع الذات الحالية، وتضيف إلى الشعور بتكميل واستمرارية الهوية. ومن ثم فإن فقدان الذاكرة الشخصية لابد وأن يؤثر على شعور الفرد بهويته، واضطرابها قد يؤثر على تغير الهوية. والدراسة الراهنة قد تناولت الذاكرة الشخصية من خلال مكونين، هما: ذاكرة الأحداث، وتعنى ذاكرة العينة عن أحداث شخصية بعينها، متضمنة معلومات تفصيلية عن السياق الذي تمت فيه مثل الوقت والمكان، أما ذاكرة المعناني

فتعني ذاكرة المعلومات الشخصية، والتي لا تقوم على أساس أحداث بعينها، مثل أسماء الأصدقاء. وقد استعان الباحث بعينة من مرضى الزهيرم، في مقابل عينة ضابطة من الأسوبياء، ورغم أن اضطراب الذاكرة لدى مرضى الزهيرم قد حظى باهتمام الباحثين، إلا أن هذا الاهتمام قد أضيف إليه حديثاً جدًا أهمية دراسة فقدان الذاكرة السابقة على المرض "Retrograde memory"، كما كشفت الدراسات عن اضطراب شديد في ذاكرة الأحداث، وفي ذاكرة المعانى. وجدير بالذكر أن مصطلح الهوية في غالبية الأبحاث يستخدم بالتبادل مع مصطلح مفهوم الذات، وإن كان الأخير أكثر عمومية. ورغم تغير أدوار الفرد ومكانته على المواقف الحياتية، إلا أنه يدرك ذاته على أنه الشخص الذى لم يتغير من الماضي إلى الحاضر، وهذا الشعور بالاستمرارية يصل إليه الفرد عن طريق تكامل الذكريات الشخصية والذوات في الماضي والحاضر والمستقبل. وجدير بالذكر أن العلاقة بين الذاكرة الشخصية وبين الهوية هي علاقة حوارية، متباينة التأثير؛ فكما تؤثر الذاكرة الشخصية على استمرارية الذات، فإن الهوية والمعرفة بالذات تؤثر بدورها على انتقاء وإعادة بناء وتفسير الذكريات الشخصية. ونخلص من هذا إلى الادعاء بأن الهوية هي نتاج للاستمرارية السيكلوجية للفرد، التي هي بدورها تعد نتاجاً للارتباط بين الذات في الماضي، والذات في الحاضر (Conway & Playdell- Pearce, 2000) و (Robinson & Taylor, 1998). ومن ثم، فإنه قياساً على ما سبق، يكون من المتوقع أن فقدان الذاكرة الشخصية يؤثر على هوية الفرد وشعوره بها.

ويمثل مرض الزهيرم عينة مناسبة لدراسة تأثير التغيرات في الذاكرة الشخصية، وذاكرة المعانى على الهوية، ولذلك تكونت العينة من عشرين فرداً (13 من الإناث في مقابل 7 من الذكور) بين المرحلة العمرية 66 عاماً و 90 عاماً، وهم جميعاً تم تشخيصهم ويخضعون للعلاج. أما العينة الضابطة فهى تتكون أيضاً من عشرين من كبار السن الأصحاء (13 من الإناث في مقابل 7 من الذكور)، كما خضعوا لقياس تحديد خلوهم من أعراض فقدان الذاكرة. ويتمثل الفرض الرئيسي في هذه الدراسة في البحث عن مدى ارتباط فقدان الذاكرة الشخصية بالتغييرات في بعض جوانب هوية الفرد.

أما عن الأدوات التى تم الاستعانة بها فقد تمثلت في استفتاء لقياس الذاكرة الشخصية: الأحداث والمعانى (AMI of Koplman et al , 1990)، ثم تسجيل شفهي لرواية الذكريات الشخصية في ثلاث مراحل عمرية، هي الطفولة والرشد ثم المرحلة الراهنة. ولقياس الهوية فقد استعان الباحث بأداتين لقياس مفهوم الذات؛ إحداهما مقننة، والأخرى مفتوحة النهاية. وقد تم الحصول على الموافقة الأخلاقية لإجراء هذا البحث، حيث وافق المشاركون والمرافقون لهم على الاشتراك في البحث، كما وافقت اللجنة المختصة في جامعة أوكلاند بنيوزيلنده، وقد أسفرت الدراسة عن النتائج الآتية:

\* كشف مرضي الزهيمير عن اضطراب في كل من الذاكرتين الأحداث والمعانٍ، وذلك بالمقارنة بالمجموعة الضابطة، وقد اتفق هذا مع نتائج الدراسات التي سبقت الدراسة الراهنة.

\* أظهر مرضي الزهيمير بعض الاعتبارات الزمنية في ذاكرة المعانٍ، حيث كان استدعاء الذكريات من مرحلة الرشد، ولمرحلة الحالية، أكثر فقرًا من غيرها من ذكريات الطفولة. وفي المقابل فقد كشفت المجموعة الضابطة عن تأثير عامل الحداثة على ذكرياتهم، فكان تذكرهم للأحداث القريبة أفضل من تذكر الأحداث في السنوات التي سبقت المراحل الراهنة.

\* كشفت الدراسة عن تغيرات في جوانب الهوية لدى مجموعة المرضى بالزهيمير، مقارنة بالمجموعة الضابطة. فقد كشفت النتائج عن ضعف مجموعة المرضى في الاستجابة على أدوات القياس. وهو ما يتفق مع ما أقره الأفراد المعنيون برعاية هؤلاء المرضى، فقد اتسمت غالبية استجاباتهم بالتجريد، والغموض، العمومية.

وخلال هذه الدراسة ان اضطراب الذاكرة الشخصية لدى الكبار قد ارتبط باضطراب بعض جوانب الهوية لديهم، فقد عبروا عن استجابات سلبية تجاه الذات، سواء من خلال المقاييس الكمية لمفهوم الذات، أو القياسات الكيفية بالأسئلة مفتوحة النهاية. فالاضطراب والتغير الذي يشهده مرضي الزهيمير يؤثر على الكثير من جوانب حياتهم وهوبيتهم: القدرات المعرفية، والمهارات الحياتية اليومية، والعلاقات الاجتماعية، وإدراك الذات.

\* أما عن دراسة الفروق المعرفية بين مرضي الزهيمير ذوي البداية المبكرة "early onset Alzheimer disease" (قبل بلوغ الخامسة والستين)، وذوى البداية المتأخرة "late onset Alzheimer disease" (الإصابة حول سن الخامسة والثمانين) - فقد قام ليتش "litch" وزملاؤه بدراسة العمليات المعرفية، مقارنة بين عينة من أربع وأربعين رجلاً ممن لم يبلغوا الخامسة والستين، وشخصوا بإصابتهم بالمرض، وعينة أخرى من أربع وأربعين رجلاً، أصيبوا بالمرض عند بلوغهم الخامسة والثمانين، أو بعد ذلك. ولقد كشفت العينة المتقدمة في العمر عن ضعف في الطلاقة اللغظية، والوظائف التنفيذية الحركية. ولقد خلص الباحثان إلى أن هذا المرض قد يغير نوع الاضطراب الذي يدل عليه بتغير المرحلة العمرية (litch, Eliotte L., 2007, 218-222).

\* ومن الدراسات الحديثة أيضًا في هذا الصدد ما دلت عليه دراسة جريتسن وزملائه على أهمية تأثير القائمين بالرعاية الرسمية لمرضى خرف الشيخوخة على نوعية الحياة لهم. ولقد تكونت العينة من المساعدين من فريق التمريض، المسؤولين عن تقديم الرعاية على مدى أربع وعشرين ساعة لهؤلاء المرضى، وكذلك الذين يساعدون في عمل الأنشطة لهؤلاء المرضى في المنازل، وبلغت العينة 374 يملكون في مختلف الوحدات الصحية. ولقد اختلفت المجالات التي ركز كل منهم عليها في

رعايته لهؤلاء المرضى؛ إذ بينما ركز فريق التمريض المعالون للطبيب على غالبية المجالات محور الشكوى لهؤلاء المرضى، كان هناك الاهتمام الضعيف بالحالة المادية، وبمعنى الحياة لدى هؤلاء. أما الذين يقومون بتقديم الأنشطة لهؤلاء المرضى، فكان التركيز على أهمية استمتاع المريض بهذه الأنشطة، والتواصل بينه وبين الآخرين (Gerritsen, et al, 2007: 176-183).

### التوازن مع المرض:

هناك طرق عديدة لفهم خبرة معايشة مرض خرف الشيخوخة، غير أن هذه الطرق جمیعاً إنما تعبّر عن نظام الاعتقادات التي يكونها الفرد عن هذا المرض وعن مرضاه. فهذه الاعتقادات أو التصورات التي تكمن في عقل الأسرة وأفرادها، والقائمين برعاية هؤلاء المرضى، ثم المتخصصين المنوط بهم بذل الجهد للتخفيف من معاناة المرضى والقائمين عليهم - لاشك أنها تحدد السلوكيات التي تتبع إزاء المصابين بهذا المرض، كما أنها تحدد - بدورها - مدى فهمنا وتفسيرنا لهذا المرض.

ويمكن تقسيم هذه التوجهات التي تحكم مدى فهم هذا المرض، والتعامل مع المصابين به إلى أربعة توجهات أساسية، هي:

- خرف الشيخوخة، باعتباره تطوراً طبيعياً للتقدم في السن.
- خرف الشيخوخة، باعتباره حالة عصبية نفسية.
- التفسير الروحاني لمرض خرف الشيخوخة.
- خرف الشيخوخة عملية ديلكتيكية.

وفيما يلي ستناول كل منها بالتفصيل؛ بهدف إلقاء الضوء على ما يترتب على كل منها من نتائج خاصة بالمرضى، والجهود العلاجية لهم.

#### 1- خرف الشيخوخة تطور طبيعي للتقدم في السن:

يعتقد الغالبية من الأفراد - بل والشعوب - أن مشكلات الذاكرة وتغيرات السلوك المرتبطة بمرض خرف الشيخوخة، هي نتيجة طبيعية للتقدم في السن؛ ومن ثم فإن ذلك يعني أن التغيرات في الوظائف المعرفية، وفي السلوك تحدث نتيجة التغيرات الفسيولوجية أو الظروف الاجتماعية المسئولة عن ظهور هذه التأثيرات، مثل الحزن أو الهجرة.

ولقد ظل هذا التصور عن الاضطراب المعرفي - باعتباره أمراً لا يمكن تجنبه - مسيطرًا على المجتمع الغربي حتى فترة السبعينيات، وما زالت مستمرة لتمثل نظرية بعض هذه المجتمعات حتى الآن. فقد ذكر في دراسة قام بها إليوت (Elliott, 1996)، وبرون وبراون (Braun & Browne, 1998)، أن هذه المجتمعات مثل الصينيين الذين يعيشون في أمريكا، والأمريكان الذين يعيشون في جزيرة هاواي، وبعض المجتمعات الآسيوية، ما زالت تعتبر خرف الشيخوخة نتيجة مرتبطة بالتقدم في العمر. وفي دراسته عن مرض الزهيرم عام 1986، أوضح جوبريم "Gubrium" أن هناك

صعوبة في التمييز بين التقدم الطبيعي في السن، وبين الإصابة بمرض خرف الشيخوخة على المستوى العصبي. فقد أشارت دراسة هوبرت (Huppert , 1994)، أن التفرقة بين هذا المرض وبين التقدم في العمر هي تفرقة كمية، وليس تفرقة كيفية، أي أن الفروق في الدرجة ليست في النوع.

ولاشك أن لهذا التوجه انعكاساته على بقية أفراد الأسرة التي ينتمي إليها الفرد المريض في فهم مرض خرف الشيخوخة، هذا من ناحية، كما أن له تأثيره على الجهود العلاجية من ناحية أخرى. فمن حيث انعكاس هذا على أفراد الأسرة، فهم يظلون مصرون على الحفاظ على ما كان سابقاً لهذه التغيرات. ففي الثقافات التي يكون فيها كبير السن مبجلاً ومحظياً، فإن مريض خرف الشيخوخة مقدر ومكرم أيضاً، أما في الثقافات التي ترى غير هذا، فإن كبار السن المصابين بخرف الشيخوخة قد يعانون من جراء هذا الأمر، الذي قد يعرضهم لمخاطر أكثر من مخاطر المرض ذاته.

أما بالنسبة للجهود العلاجية، فحيث ينظر إلى المرض باعتباره تغييراً طبيعياً مرتبطة بالتقدم في السن، فلا يوجد هناك مبرر إذن مزيد من الخدمات الصحية والاجتماعية عما يقدم لكيار السن عادة. فليس من المتوقع وجود المزيد من الجهود العلاجية أو الميزانيات الموجهة إلى ذلك، وليس هناك ضرورة لتعلم مهارات متخصصة في هذا المرض، ومن ثم يؤدي ذلك إلى فشل في رعاية المرضى بهذا المرض. وقد وردت عام 2002 في إحدى الجرائد اليومية في المملكة المتحدة البريطانية، أن إحدى حالات مرضى خرف الشيخوخة، قد توفيت في دار للمسنين من العطش والجوع، حيث لم يفطن القائمون على رعاية الدار أنها في حاجة إلى الرعاية الخاصة في المأكل والمشرب للبقاء على قيد الحياة. وهو ما أدى إلى حدوث ضجة كبيرة في مجال الاهتمام بمرض خرف الشيخوخة، ومسؤولية من يقومون على رعاية مرضى.

## 2- النموذج الروحاني لتفسير خرف الشيخوخة:

طبع بعض المجتمعات ثقلاً كبيراً على التفسير الروحاني لمرض خرف الشيخوخة، حيث ينظر إليها - على سبيل المثال - على أن هناك قوى خيرة، أو الأكثر شيوعاً أن تكون شريرة هي السبب الذي يمكن وراء هذه التغيرات التي تحدث للفرد. وقد ينتشر هذا التصور في المجتمعات غير الغربية، أو في جماعات الأقليات التي تعيش في المجتمعات الغربية، ويكون الاعتقاد الروحي في الإصابة بخرف الشيخوخة أكثر قبولاً من قبول مفهوم المرض العقلي، باعتباره مسؤولاً عن التغيرات المعرفية والسلوكية للمرضى.

ولقد أسف بحث إليوت السابق الإشارة إليه عن أن الصينيين الذين يعيشون في أمريكا، قد يدركون خرف الشيخوخة كمرض، لكنهم يعزونه إلى وجود القوى الروحية التي تنتقم من الأسرة بسبب تصرفاتها الخاطئة. وفي بعض الثقافات في جنوب آسيا يعتقدون في حدوث هذه التغيرات بعزوها إلى (نظرة العين الشريرة) التي تسبب المرض (Elliot , 1996). كذلك وجد هيلمان (Helman , 2000) في تتبعه لظاهرة العين الشريرة من الدراسات الأنثروبولوجية على بعض

المجتمعات في أوروبا والشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، أن صاحب هذه القوة لا يدرك شيئاً عن تأثيراتها، وما يحدثه من تأثيرات سلبية (Helman, 2000).

كما أنه في دراسة على عينة من رجال الدين في نيجيريا، خلص أواكو "Uwakwe" إلى تحديد مفهومهم عن مرض خرف الشيخوخة بوجود روح شريرة تتملك العقل وتؤدي إلى فقدان الذاكرة، والأحلام السيئة، والهلوسة، والحديث غير العقلي (Uwakwe , 2000,1152). فضلاً عن هذا، فقد وجد الباحثون أنه في بعض الثقافات لا توجد الكلمات التي تناول مصطلح خرف الشيخوخة؛ ففي اللغة الأردية، أقرب الكلمات لهذا المصطلح تساوي الجنون في معناها. كما ذكر إينشن (Ineichen, 1998)، أن غالبية الأسر من الشرق الأوسط تميل إلى عزو تدهور الذاكرة والاضطرابات المعرفية إلى التقدم في العمر.

أما عن تأثيرات هذا التصور على الأسرة وعلى الجهد العلاجي، فلاشك أن لارتباط هذا التفسير لمرض خرف الشيخوخة بالدين، فإن الفرد الذي يكشف عن عوارض مرض عقلى أو سلوكي، فإنه من السهل وصمه ونبذه، فالاعتقاد في العين الشريرة يعني أن هذا الشخص المصاب بخرف الشيخوخة يكون حاملاً للروح الشريرة، ومن ثم يمكن تجنبه والخوف منه، ويمكن عزله من جانب المجتمع. ومن ناحية أخرى، يمكن لهذا الشخص أن يوقر ويكره، وينظر إليه باعتباره قد تم اختياره من قبل الإله، لكنه في الأغلب ما يتم وصمه باعتباره تملكه الأرواح الشريرة؛ بسبب ضعف الوازع الديني لديه، أو انتقاماً منه لأشياء سيئة فعلها. ولاشك أن لهذا تأثيره السلبي على أفراد أسرة المريض، حيث تناولهم أيضاً وصمة نقص الوازع الديني، كما قد ينعكس ذلك أيضاً على بعض المهام الاجتماعية مثل الزواج مثلاً، أوبقاء القيادة الدينية في أسرتهم. ومن ثم، قد تعمد بعض الأسر إلى إخفاء وجود مريضهم وإبعاده رجماً عن المجتمع؛ محافظة على بقية الأسرة من الوصمة.

أما عن جهود العلاج، فيحيط ينظر إلى خرف الشيخوخة باعتباره نتيجة للجانب الروحاني للفرد - فإن الصلاة تكون هي وسيلة الخلاص الروحي من المرض؛ ولذلك قد تلجأ الأسرة إلى رجال الدين (الشيخوخة). وكم من سلوكيات تبعد عن العلم تماماً، يميل الأسر إلى اتباعها تبعاً لنصائح هؤلاء الأفراد في شفاء مرضاهم، كما أن الاعتقاد في العين الشريرة كذلك، يؤدى إلى الاعتماد على الطب الشعبي. ولقد أورد أووكوا في دراسته السابقة عدداً من التدخلات التي يمكن الاستعانة بها من قبل الأسر التي تعتقد أن علاج مرض خرف الشيخوخة من القوى الروحية، منها الصيام، والصلاحة، والتسبيح على المسبحة، والكافارات التي يعاقب الإنسان بها نفسه، وقراءة الكتاب المقدس، وقد يكون الضرب، أو ارتداء التعويذة، أو الرموز الدالة على الديانة (الصلب أو المصحف).

### 3- خرف الشيخوخة حالة نفسية عصبية:

مع القرن العشرين، فإن النظر إلى مرض خرف الشيخوخة باعتباره حالة نفسية عصبية، قد أخذ في الانتشار والاستمرار، وأدى إلى بذل الجهد المؤثرة في علاج المرضى. وتفسير خرف الشيخوخة بأنه حالة عصبية نفسية يشير بدوره إلى تفسير حدوث هذا المرض نتيجة لما يصيب المخ من أمراض. ومن أكثر الأمثلة الدالة على التغيرات العصبية المرضية التي تحدث للفرد، مرض الزهيمير، أو خرف الشيخوخة الناتج عن إصابة الأوعية الدموية "vascular dementia". وحيث إنه اضطراب نفسي طبي، فإن ما يشكو منه المريض يسمى أعراضًا، وما يلاحظه الطبيب يسمى علامات.

وهذا التوجه في تفسير المرض يطرح حتمية بيولوجية، حيث تكون الأضطرابات المعرفية (مثل تدهور الذاكرة والتفكير، والتوجه، وإصدار القرارات، والفهم والقدرة الحسابية، والقدرة على التعلم، واللغة)، والمؤشرات السلوكية (التي تتضمن التجوال، وتكرار الأسئلة)، والأعراض النفسية (مثل الهلوسة، والضلالات) - فإنها تعزى مباشرة إلى الأضطرابات العصبية. وفي ضوء هذا التفسير، فإن معايشة خرف الشيخوخة يعني معايشة أعراض كل من الأضطرابات المعرفية وغير المعرفية، حيث تعد الأعراض غير المعرفية من العلامات السلوكية والنفسية على الإصابة بخرف الشيخوخة.

غير أن هذا التصور الذي مازال مهيمنا على فهم المتخصصين لمرض خرف الشيخوخة، قد تعرض للنقد؛ لإهماله العوامل الاجتماعية والنفسية المشاركة في خبرة حدوث المرض والتعبير عنه. وقد أشارت الدراسات إلى أهمية وجود التعليم، الذي يلعب دوراً وسيطاً في التعبير العصبي الطبيعي عن المرض، وكذلك وأشارت الدراسات إلى أهمية البيئة المحيطة (Snowden , 1997).

وتجدر بالذكر أن الدراسات السيكولوجية لمرض خرف الشيخوخة، والقائمين برعايتها من أفراد أسرتهم، وبقية أفراد الأسرة - مازالت بعيدة عن القدرة على تحديد مدى مسؤولية هذه العوامل النفسية والاجتماعية في حدوث المرض، أو تحديد مآلاته. كما أن الدراسات على اتجاهات المجتمع نحو مرض خرف الشيخوخة، وأفكارهم السائدة عنه، مازالت في بداياتها، الأمر الذي يطرح بشدة أهمية التركيز على مرحلة التقدم في العمر؛ حيث إن غالبية المجتمعات الآن تسير نحو كونها مجتمعات الكبار، وتزايد نسبة الكبار بها زيادة ملحوظة. وهو ما يعني تواتر حدوث ظواهر أمراض خرف الشيخوخة، بمعدل يزيد على ما كان سابقاً في المجتمعات النامية والمتقدمة على السواء.

ولاشك أن لهذه النظرة إلى خرف الشيخوخة - باعتبارها من أمراض المخ - تأثيراتها على المستوى العائلي أو الأسري للحالات المرضية، وعلى المجتمع المهني المعنى بتقديم الرعاية لهؤلاء المرضى. فعلى المستوى الأسري، يعامل المصاب بهذا المرض باعتباره مريضاً أو ضحية لحالة لا يستطيع معها شيئاً، فهو يعاني من تبعات هذا المرض، كما يعاني المريض العقلي من إصابته بفقدان عقله؛ لذلك فقد دعا البعض إلى رؤية المصاب باعتباره إنساناً قبل كل شيء. وإذا كانت هذه الدعوة

قد وجهت في البداية من أجل المرضى النفسيين، إلا أنها أصبحت أكثر أهمية لمرضى خرف الشيخوخة؛ فمما هي:  
العقل والمخ والشخص هي مفاهيم متزابطة ومترادفة، ويجب ألا يمنع الاهتمام بأمراض المخ من النظر إلى الفرد أو الشخص ككل.

وقد أشارت الدراسات إلى كم الضغط الذي تتعرض له أسر هؤلاء المرضى، فقد يصبح الأفراد المنوطون برعاية هؤلاء المرضى في أسرهم، مرضى أيضًا في حاجة إلى الاهتمام والرعاية، حيث يتعرضون للاضطرابات النفسية والاجتماعية التي تحتاج إلى اهتمام. ولقد اقترح بعض المتخصصين ما أطلقوا عليه مصطلح "prescribing" (المعاناة بحكم التقader)؛ لوصف ما يخص القائمين على رعاية هؤلاء المرضى من اهتمام وخدمات (Brodaty & Green, 2000)، حيث ينظر إلى هذه الأسر باعتبارها الضحية غير المعلنة "hidden victim"، حيث لم تكن هناك هذه الرعاية المطلوبة لهؤلاء القائمين على رعاية المرضى.

ولابد أن يؤخذ في الاعتبار عند رعاية القائمين على رعاية مرضى خرف الشيخوخة، حاجتهم إلى المعلومات عن هذا المرض؛ فالكثيرون منهم يقومون بالدور دون مساندة معرفية عن طبيعة العمل، أو طبيعة المرض. وقد استطاعت بعض الجمعيات أن توفر هذه الخدمة عبر عدد من الفئات، وعلى مستويات مختلفة، كما حدث في جمعيات رعاية مرضى الزهير.

أما عن تأثيرات هذا التصور على المهنيين المعنيين بتقديم الرعاية المتخصصة لهؤلاء المرضى، فإن النظر إلى كبر السن باعتباره حالة نفسية ناتجة عن أمراض المخ، يتضمن الحاجة إلى مزيد من التكرис الأخلاقى لتدخل المتخصص، خاصة من قبل أطباء الأعصاب وأخصائى طب المسنين؛ فالجانب الطبى النفسي يتضمن ثلاثة محاور أساسية، هي: تشخيص خرف الشيخوخة، وتقديم الخدمات طبقًا لرعاية الجوانب المعرفية، ثم إدارة والتعامل مع الأعراض السلوكية، وتشخيص الطب النفسي لمرض خرف الشيخوخة، يقدم مفتاح الخدمات في هذا المجال، خاصة للقائمين على رعاية الجوانب المعرفية من المرض والعلاج ذي التأثير العقلى على المريض، لكن الوصول مع الحالات المتقدمة من المرض إلى التشخيص والتوفيق مع الحياة ما زال في بداياته؛ إذ إن علاج الأعراض السلوكية لا يحرض عليه إلا الأقدم من الأطباء النفسيين. أما الحدثون منهم فهم يفضلون استبدال هذا العلاج بالبحث عن الحلول النفسية (Bride, 2000). ومن الملحوظ أن الاعتماد على جرعات الدواء لعلاج الأعراض السلوكية قد يكون ضاراً، أو غير فعال. غير أنه من ناحية أخرى، فإن 10% من المرضى يتطلبون متخصصين في الطب النفسي، بينما 90% يتطلبون متخصصين في علم النفس.

ويعني ذلك أن الرعاية الدقيقة الصحيحة لهؤلاء المرضى تتطلب اهتمام فريق واع من خدمات الصحة النفسية، يمكن الوصول إليه، مستجيب، متعدد التخصصات، منظم، ويمكن محاسبته، فغالبية كبار السن في بيوت رعاية المسنين من الذين يعانون من خرف الشيخوخة، غير أنهم لا يتم التعامل معهم في ضوء هذا المعنى؛ مما يفقدهم الكثير من الخدمات المتخصصة.

#### 4- النموذج الديالكتيكي وتفسير خرف الشيخوخة:

وجه بعض المتخصصين النقد إلى النموذج النفسي العصبي في تفسير حدوث خرف الشيخوخة بأنه نموذج قد اختزل حدوث المرض عند الحتمية البيولوجية، الأمر الذي لا يسمح بالحصول على الكثير من الحقائق المرتبطة بهذا المرض. فقد كشف علم أمراض الأنسجة "histopathology" أنه ليس هناك ارتباط كامل بين حدوث أمراض المخ وبين التعبير الإكلينيكي عنها، كما أن فحص بعض الحالات التي ظلت في حالة معرفية جيدة حتى حدوث الوفاة، كشف عن وجود عقد وصفائح دموية في مخ مرضى الزهايمر، غير أنها لم تتدحرج معرفياً كما هو مفترض في مرضى الزهايمر. وقد يتضمن هذا أن هناك عوامل دافعة حامية للمرض تقاوم وتأخر التعبير المصاحب لإصابة المخ، وقد أشارت بروودي "Brody" إلى التأثير المانع للبيئة على أمراض المخ، والتي تؤدي إلى ما أسمته بتجاوز الإعاقة "excess disability" في عدد من الحالات المصابة بخرف الشيخوخة، وهي إعاقة من النوع الذي قد تلقي وظيفته التي يتوقعها الفرد من إصابة المخ وحدها. وهذا يؤدي إلى القول إن بعض التدهور الذي يحدث للمرضى قد يكون ثانٍ للوجه، أو له إمكانية تأجيل ظهور أعراض المرض لما بعد، أو قد لا تظهر بالمرة.

وفي ضوء هذا المعنى، يقترح كيتود "kitwood" نموذجه في تفسير حدوث مرض خرف الشيخوخة، إذ يرى أنه من الأفضل النظر إلى حدوث خرف الشيخوخة باعتباره عملية ديداكتيكية، أي أن حدوث مرض خرف الشيخوخة يكون نتاج التفاعل بين الاضطراب العضوي، وبين العوامل النفس الاجتماعية للمرضى (نفسية المريض، الصحة الجسمية، البيئة، مع التأكيد على السياق الاجتماعي). ويتسق هذا النموذج مع التصور الذي وضعته منظمة الصحة العالمية عام 2002، الأمر الذي يؤدي إلى اختلاف المجتمعات بعضها عن بعض. ففي المجتمعات الغربية حيث التأكيد على الجانب المعرف ثقافياً، وتقسيم الجانب العقلي والمنطقى فوق الجوانب الروحية والاجتماعية - فإن الدلالة الثقافية على الاضطراب العقلي سوف تعرض حياة الأفراد المصابين بخرف الشيخوخة في هذه المجتمعات للخطر. ويتشابه هذا النموذج مع ما طرحته دياموند من قبل من تأثير البيئة بما تضمها من مثيرات تتسم بالفقر أو بالثراء على تكوين المخ، ومعنى هذا أن المصابين بخرف الشيخوخة يتأثرون في المجتمعات على المستوى النيرولوجي بالبيئة فقيرة المثيرات، كما أن تحسينهم أيضاً يكون من خلال البيئة ثرية المثيرات. ومن وجهة نظر كيتود أن أكثر التأثيرات المعقولة التي

تتبع إصابة المخ بالمرض هو ما يتمثل في إصابة الذات والشعور بالهوية، وليس في الاضطرابات الوظيفية التي تنجم عن الإصابة، وإصابة الذات والشعور بالهوية يعتمد على الآخرين.

والنظر إلى الإصابة بخرف الشيخوخة باعتباره نتيجة لتفاعل المؤثرات متعددة المصادر، يضع الفرد المريض في المركز من هذه المؤثرات. ونمو هذا الاتجاه الموجه بالفرد "Person-centered approach" في رعاية المرضى بخرف الشيخوخة، يبعد كثيراً عن اعتبارهم ضحايا سلبية، بل هم أعضاء فاعلون في صياغة حياتهم، يبحثون عن المعنى، ومستجيبون، ويحاولون التفاعل مع العالم المحيط بهم. وبناء على هذا، فإن السلوك المتحدى هو محاولة للتعبير عن الحاجات الفسيولوجية أو السيكولوجية، أو التعبير عن الإرادة. وقد قامت الخبرات الإكلينيكية والأبحاث الحديثة باختبار بعض أشكال السلوك المتحدى، الذي يمكن تفسيره بمحاولة الفرد إشباع حاجاته الفسيولوجية والاجتماعية؛ من أجل الوصول إلى الراحة، أو الإثارة أو التواصل الانفعالي مع الآخرين. وإدراك المعنى الذي يمكن وراء هذا السلوك لا يمكن تفسيره بعيداً عن تاريخ حياة الفرد. ومن ثم، فإن السيرة الذاتية وتاريخ الحياة، ينظر إليها في هذا النموذج باعتبارهما وسطاء في تفسير حدوث خرف الشيخوخة. وقد أشار (Stokes, 2001) إلى كم من سلوكيات مريض خرف الشيخوخة، والتي اكتسبت معناها من سياق حياته وأحداثها. ومن الأمثلة التي قدمها لذلك، أن نوع مهنة المريض قبل حدوث الإصابة قد تكون وراء إصابته بالأرق ليلاً.

ومن ثم، فإن هذا النموذج يجعل من الممكن تفسير الارتباط الضعيف بين الأعراض وبين التشخيص الطبي من ناحية، وعدم تشابه الأعراض الكلينيكية للمرض الواحد من ناحية أخرى. ففهم التعبير عن خرف الشيخوخة لدى فرد ما لابد وأن يأخذ في اعتباره التفاعل بين الاضطراب العصبي وبين الصحة الفسيولوجية، والشخصية، والتاريخ الشخصي والخبرات السابقة، والعوامل الاجتماعية والنفسية. ولاشك أن هذا النموذج هو أكثر النماذج تكاملاً، حيث يضع في اعتباره غالبية متغيرات حياة الفرد، بالإضافة إلى المتغير الطبي الخاص بالإصابة. فهو ليس أحادى البعد في تفسير خرف الشيخوخة، كما بدا من النموذج الروحان، أو العصبي النفسي في تفسير هذا المرض. لذلك قد يكون متيناً في التحديات التي يطرحها على المجتمع الكبير من ناحية، وعلى مجتمع المريض المحدود من ناحية أخرى.

أما عن تأثير هذا النموذج على الأفراد المصابين بخرف الشيخوخة، وعلى الجهد العلاجي الموجه لعلاجهم، فإن هذا التوجّه كما سبق أن ذكرنا أنه موجه بالفرد، ويعني هذا أن مريض خرف الشيخوخة له قيمته في المجتمع كأى فرد آخر؛ له احتياجاته التي لابد وأن تشبع، وله حقوقه كمواطن التي لابد وأن تحفظ له. إن هذا التوجّه يؤكّد على أهميّة فهم خبرة تعايش المريض مع خبرة المرض، أكثر من وضع مسلمات تصف هذه الخبرة، وتقترح المطلوب؛ إذ إن هذا النموذج يؤكّد على أن هؤلاء المرضى لهم خبراتهم المترفة، وبدونه لا نستطيع الوصول إلى فهم هذه الحالة أو اقتراح

الإستراتيجيات المناسبة الفعالة لمواجهتها. لذلك كانت هناك محاولات من المختصين للتعرف على عام هؤلاء المرضى في المراحل الأولى من المرض، كما لجأ البعض الآخر إلى معايشة المرضى في المراحل المتأخرة من المرض؛ وذلك بهدف الوصول إلى فهم هذه الخبرة، والوصول إلى نماذج تعبّر عنها.

كما أن لهذا النموذج تأثيره الفعال على أسر هؤلاء المرضى والقائمين على رعايتهم؛ إذ بدلًا من النظر إلى المرض باعتباره ضياعاً للنفس - فإن هذا النموذج يتضمن وجود تواصل مستمر مع أفراد الأسرة؛ فالقائمون برعاية هؤلاء المرضى، وأقارب المرضى الذين يعيشون بالقرب منهم، هم في حاجة إلى الرعاية أيضًا. فقد أشارت الدراسات إلى معاناة هؤلاء من الاضطرابات النفسية نتيجة المعايشة المستمرة لهذه النوعية من المرض.

أما عن تأثيرات هذا النموذج على الجهود المبذولة لرعاية هؤلاء المرضى، فيمكن تحديدها في مجالات ثلاثة،

هي:

1- دعم المعايشة النشطة "Supporting for active coping".

2- إثراء البيئة الاجتماعية "Enriching Social Environment".

3- النهوض ببرامج التأهيل "Promotion of rehabilitation".

وفي دعم المعايشة النشطة لخبرة المرض، فإن هذا النموذج يؤكّد على التفاعل الدينامي بين السياق الاجتماعي وبين علم الأعصاب. وهذا التفاعل يتّوّسّط سيكولوجية الفرد، بمعنى طريقة في التكيف مع ظهور المرض، ومع استمراره، إذ ينظر إلى الفرد في ضوء هذا النموذج باعتباره عمليًا يبحث بجد عن المصادر المتاحة؛ لكي يتّكيف ويتعايش مع المرض. وفي الأبحاث الحديثة، التي خبرت بعض جوانب الخبرة النشطة التي قام بها مرضى خرف الشيخوخة وأزواجهم، كشفت هذه الأبحاث عن وجود عدد من هذه التدخلات. وهيّئ دعم بقاء الذات وهوية المريض أحد هذه التدخلات المهمة؛ للحفاظ على التوافق واستمرارية التوازن "coping" مع الحالة المرضية، وهو ما يمكن تنفيذه بعدد من الطرق؛ فقد يهدف التدخل إلى وضع بعض العوامل المؤثرة على ردود أفعال المريض محورًا لهذا التدخل، أو قد يكون التدخل لتغيير ردود الأفعال النفسية ذاتها للمريض نحو حاليته المرضية. فعلى سبيل المثال، إعادة التأهيل المعرفي تدعم التكيف والتّوافق العملي في المواقف اليومية، بينما يركّز علاج المحافظة على الذات "Self-maintenance therapy" مباشرة على الحاجة إلى الإحساس بالذات وتنقيتها.

وفي التأكيد على التوجّه إلى الفرد المريض بخُوف الشّيخوخة، وعلى دور العوامل النفسية له، فإنه من المهم الأخذ في الاعتبار السياق المنظومي الواسع الذي يحيط بالفرد؛ لأنّ مفهوم الذات في ضوء هذا الاتجاه يعزى إلى الشّعور بالهوية القائم على أسس اجتماعية لها جذورها في السياق البيئي.

وهكذا، فإن السياق من الممكن أن يصبح محوراً للتدخل، سواء على مستوى التعامل مع الموقف اليومية، أو بهدف خفض الإدراك السلبي لهؤلاء المرضى على المستوى الاجتماعي الثقافي. ويدرك شنك "Shenk" - وهو رئيس أحد مجموعات دعم مرضى حرف الشيغوخة في المملكة المتحدة - ما يحدد هدف كل من الأطباء وأفراد أسرة المريض فيما يلي:

"إن هدفنا هو مساعدة هؤلاء الأفراد على أن يعيشوا حياة جيدة، أن نساعدهم على اكتساب بعض مهارات التعايش مع أوجه النقص التي يعانون منها، وأن يكونوا شعوراً أفضل عن كونهم آدميين. وكما أن الأطباء يخوضون معركة ضد المرض، فإن المرضى وذويهم يخوضون معركة أخرى في الاتجاه المعاكس؛ لعمل مهادنة مع المرض والعيش معه في سلام، ومحاولة فهم قدر الخسارة والفقد في هذا المرض للتعايش معها" (Shenk, 2002, 32).

أما عن توفير البيئة الغنية بالمثيرات، فإنه لاشك أن الإصابة بحرف الشيغوخة يؤثر على الفرص المطابقة للتواجد الاجتماعي للمرضى في سياق العلاقات الاجتماعية. وقد أوضح ليمان "Lyman" أن النتائج الاجتماعية المترتبة على الاضطراب المعرفي هي أكثر الصعوبات التي تواجه مرضى حرف الشيغوخة؛ فقد يكون هذا السياق ضاراً وتكون النتائج المترتبة عليه عبارة عن دائرة مفزعة من التدهور لا نهاية لها، أما عندما يكون هذا السياق حميداً أو غير ضار، فإنه يمكن تخفيف الاضطرابات العصبية بالتفاعلات الإيجابية، حيث يستطيع الفرد أن يتفاعل قدر الإمكان، ويحتفظ بشعوره بهويته وبشخصيته. وحيث يزخر السياق الحميد بالبيئة الثرية التي تسهل حدوث التكيف مع الحالة المرضية، فإن السياق الخبيث أو السيئ قد يضيف إلى التغيرات البنائية في المخ ما يؤدي إلى مزيد من التدهور.

ولاشك أن وجود هذه البيئة يعتمد على رعاية تقوم على ممارسة العلاقات الاجتماعية بدرجة مكثفة، ويشير بروكر إلى أن هناك أربعة مكونات لهذا الأمر، هي:

- تقدير الأفراد المصابين بحرف الشيغوخة، ومن يقوم على رعايتهم.
- معاملة المرضى باعتبارهم كائنات إنسانية.
- النظر إلى العالم من زاوية رؤية مريض حرف الشيغوخة.
- وجود البيئة الثرية اجتماعياً، حيث يستطيع هذا المريض أن يحيا حياة طيبة.

وكل من هذه المكونات الأربع يؤكد على العلاقات والتفاعلات في رعاية مرضى حرف الشيغوخة، غير أن الاهتمام بطبيعة العلاقات بين المرضى وبين القائمين على رعايتهم، لم ينل حقه من الدراسة حتى الآن. وما تم منها في هذا الصدد قد كشف عن أن العلاقة بين المرضى وبين القائمين على رعايتهم والقائمين على علاجهم، ذات تأثير واضح على نوعية التوافق مع المرض، غير أنها في حاجة إلى المزيد من الأبحاث التي تكشف عن جدوى عملية التفاعل الموجهة بالمريض.



أما عن برامج إعادة التأهيل، فإن نموذج منظمة الصحة العالمية منذ عام 1980، قد ميز بين الاضطراب "الإعاقة" "disability" والعجز "handicap" في برامج التأهيل، باعتبارها وسائل لمواجهة ما يتربّب على الإعاقة من نتائج. فالتأهيل يمكن أن يساعد على تحسين الحياة في حالة الاضطرابات المتقدمة، حتى وإن لم تؤد إلى شفاء الاضطرابات الناجمة أو خفضها، وهناك الآن تقدم مشهود في برامج التأهيل في المجالات المتعددة، ومنها مجال المرض بخرف الشيغوخة. فقد أشار كلير (Clare, 2003)، وماشال (Marshall, 2004)، أن المرضى المشخصين على أنهم مصابون بخرف الشيغوخة، قد بدأوا يطلبون الانضمام إلى هذه البرامج.

وخلال هذه النماذج الأربع في النظر إلى مريض خرف الشيغوخة، يبدو بوضوح اختلاف كل منها عن الآخر؛ إذ بينما يكون أولهم موجهاً بالطابع القدري في حدوث المرض، ومن ثم تقبل مريضه، باعتباره يمر بمرحلة حياتية لابد منها حتى يتوفاه الله، ينظر الثاني إلى المرض باعتباره ابتلاء من الله وانتقاماً من الفرد أو من الأسرة على أفعالهم السيئة. أما ثالث هذه النماذج فينظر إلى مرض خرف الشيغوخة باعتبارهم ضحايا التغيرات العصبية التي تحدث في المخ، وأنهم ضحايا لهذا المرض، ليس في يدهم ما يستطيعون فعله غير الخضوع للعلاج الطبي لحالتهم. ثم رابع هذه النماذج، والذي يتخد منحنى مختلفاً في النظر إلى مريض خرف الشيغوخة بتحميله جزءاً من مسؤولية الإصابة بالمرض، بالإضافة إلى مسؤولية السياق الاجتماعي النفسي المحيط به في حدوث هذا المرض. ولاشك أن هذه النماذج كما تجسد زاوية الرؤية لهذا المرض وللمصابين به - فإنها تعكس من جهة أخرى مدى تأثيرها على معاملة المرضى من جهة، وعلى اتجاهات القائمين على رعايتهم من جهة ثالثة، ثم على مدى ونوعية الجهود المبذولة لعلاج هؤلاء المرضى من المؤسسات المجتمعية المعنية. وقد تكشف هذه النماذج درجة الارتباط بين الممارسات السلوكية في أي من المجالات، وبين الرؤية الفلسفية التي تكمن وراء هذه الممارسات (توجهها)، وتزيد من تفعيل الواحد على الآخر. فلما مجتمعنا من هذه الرؤى لمريض خرف الشيغوخة؟

وتجدر بالذكر أنه رغم العرض المفصل لكل من هذه النماذج، إلا أنه ليس هناك ما يعوق تواجدها معاً. ولعل الدراسات الاميريقية تكشف إلى أي مدى يكون جدوى هذه النماذج وفائتها في النظر إلى، والتعامل مع مرضى خرف الشيغوخة في ضوء المتغيرات الديموغرافية المختلفة؛ كالتعليم والمستوى الاقتصادي والاجتماعي ومستوى المعيشة بتنوعها الحياة المطلوبة للإنسان عامة وللمريض خاصة ... إلى آخر هذه العوامل، التي قُتلت قاعدة للمعلومات عن هذا المرض، تسهل التعامل معه في الدراسات التجريبية، وبرامج التدخل على أساس علمية صحيحة.

## المراجع

أولاً: المراجع العربية:

- 1- مارييان ديموند (2005): العقل وأشجاره السحرية، ترجمة: صفاء الأعسر، ونادية شريف، وعزبة خليل، دار الفكر العربي، القاهرة.
- ثانياً: المراجع الأجنبية:

- 1- Addis,Donna rose & Tippett, Lynette J.2004, Memo ry of myself: Autobiographical memory and identity in Alzheimer's disease ,J. of memory,12(1)
- 2- \_\_\_\_\_, Allain Philippe , et al., 2005 ,Exacutive functioning in normal aging : A study of action planning using the zoo map test., J. of brain and cognition , vol.57, Issue 1.
- 3- Atkinson,R.and Schiffrin,R. 1971,the control of short term memory ,scientific American
- 4- Backhaus,Jutta et al ,2007,Midlife decline in declarative memory consolidation is correlated with a decline in slow wave sleep ,J.of learning & memory, v0l.14, 336-341.
- 5- Backman , L. 1989,variety es of memory compensation by older adults episodic remembering ,In L.W. Poon ,D.Ruben ,and B.Wilson (eds) ,Every cognition in adulthood and late life ,Cambridge Uni.Press.
- 6- Mantyla,T.and Herlitz,A 1990, The optimization of episodic remembering in old age. In P.B.Balts and M.M. Balts (eds) Successful aging : perspectives from the behavioral sciences.118-163. Cambridge Uni.Press.
- 7- and Herlitz ,A. the relationship between preior knowledge and face recognition memory in normal aging and Alzheimer's disease.J. of Gerontology : psychological sciences,45,94-100.
- 8- Baddeley,Alan D,1999,Essentials of human memory ,psychology press ,u.k..
- 9- \_\_\_\_\_, 1997,Human memory : theory and practice , psychology press ,U.K.
- 10- Balts, P.B.and Kliegl,R.1992,further testing of limits of cognitive plasticity ,Nagative age differences in a mnemonic skillare robust ,Developmental Psychology ,vol.28,121-128.
- 11- Bahrick ,H.P. 1984 ,Semantic memory content : fifty years of memory for Spanish learned in school,J. of Experimental psychology : vol,113,1-26.
- 12- Berg C.A.& Sternberg,R.J.1992, Adults conceptions of intelligence across the adult life span , Psychology and Aging,vol.7.
- 13- Blakemore,Sarah-Jayne & Firth,Uta ,2005 , The learning brain ,Blackwell publishing LTD , U.K.
- 14- Blessed, G. 1985 , Clinical Aspects of Senile Dementia Nd.
- 15- Bower,Gordon ,1972 ,Mental.,Cognition in.
- 16- Brunnin, G.R.H. learning and memory ,N.Y., John Wiley.
- 17- Bruce ,Darryl , Wilcox-O'Hearn,L.Amber, Robinson, John, Smith,marilyn,2005 ,Fragment memories mark the end of childhood amnesia,J. of memory and cognition ,33 (4) ,567-576

- 18- Burke ,D.M.and Harold ,R.1988, Automatic and effortful semantic processes in old age : Experimental and naturalistic approaches.InL.L.Lightand D.M. Burke,(eds),Language, memory and aging.New York : Cmbridge Uni. Press.
- 19- Camp, C.J. , Markely , L.A. and Kramer,J.1983 , Spontenous use pof mnemonics by elderly individuals. Educational Gerontology ,vol.9,57-71.
- 20- Cambell, Ruth, 1992 , Mental lives : Case studies in cognition , (ed) , Blackwell publishers , U.K.
- 21- Chainay ,H.,Louarn,C.and Humphreys, G.W.2006 , Hdeational action impairments in Alzheimer's disease , J. of brain and cognition ,Vol. 62 ,Issue 3.
- 22- Cayton,Harry,2006 ,From childhood to childhood? Autonomy and dependence through the ages of life ,In Hughes ,J.C. ,et al , Dementia : mind , meaning , and person , oxford university.
- 23- Cohen,Simon Baron,1992, The girl who liked to shout in church , in Ruth Cambell,(ED) Mental lives ,Blackwell publishers, u.k.
- 24- Comblain,Christine ,et al ,2004, The effects of ageing on the recollection of emotional and neytral pictures ,J. of memory ,vol.12 (6) ,673-684.
- 25- Christman,StephenD.,Jasper,JohnD.,Sontam,Varalakmi and Cooli, Bruce , 2007 Individual differences in risk perception versus risk taking:Handedness and interhemispheric interaction , J. of brain and Cognition ,Vol.63,N0.1 ,51-58
- 27- Cohen , D.1980,Doald Hebb:an inside look at aging ,APA,monitor.
- 28- Cohn,G.1988, Age differences in memory for texts : Production drficiency or processing limitations.In L.L. Light and D.M. Bruke (eds) Language, memory, and aging. New York ,Cambridge University Press.
- 29- Corr,J.Philip , 2006,Understanding biological psychology , Blackwell publishing,USA.
- 30- Corso J.F. 1987 ,Sensory – Perceptual Processes and aging ,Annual Rview of Gerontology and Geriatrics ,vol. 7.New York.
- 31- Crook ,T.H.& West,R. 1990 , Name recall performance across the adult life span ,British journal of psychology ,Vol.81,335-349.
- 32- \_\_\_\_\_ ,Youngjohn,J.R., Larrabee,G.,and Salama,M., 1992, Aging and every day memory ;Across cultural study , Neuropsychology ,Vol.6 ,123-136.
- 33- Craik,F.I.M.& Jennings,J.M. 1992,Human memory , Hn F.I.M. Craik and T.A.Saltouse (eds) ,Handbook of aging and cognition , Hillsdale,NJ: Erlbaum.
- 34- Craik, F.I.M. 1990,Changes in memory with normal aging : A functional view.In R.J. Wurtman (ed) Advances in neurology ,vol. 51 ,Alzheimerr's disease, 201-205.
- 35- Davis , Daniel j.,1996 ,Birth order and intellectual development, routledge,U.K
- 36- Dickins, T.E., Sear,R., and Wells,A.J. 2007, British J. of psychology , vol.12, no. 2. 167- 178.
- 37- Downs,Murna, Clare,Lind & Mackenzie,Jenny , ,Understanding of Dementia: explanatory models and their implications for the person with dementia and therapeutic effort ,In Hughes,J. C. et al ,Dementia : mind ,meaning, and person,oxford university.
- 38- Dunn,R.,Price,G.E.,1989: Learning Styles Inventory , Lawrence,KS.price
- 39- Eacott,M.J. , Crawley,R.A.,1999, Childhood Amnesia : Answering Questions About Very Early Life Events , J. of memory ,vol.7 (3) ,279-292.

- 40- Eysenck,Micheal W.,Cohen,Gillian and Levoi,Martin E.,1986, Memory ,a Cognitive Approach.Open university press , philadelphia.
- 41- Ferguson, Marilyn,1973,,The Brain Revolution , N. Y. Bam.
- 42- Fisher ,R.P.& Geiselman ,R.E. 1988 , enhancing eyewitness memory with the cognitive interview ,In M.M. Gruneberg , P.E. Morris &R.N.Sykes (eds) practical aspects of memory , chichister: wiley.
- 43- Folkard,S.,Monk,T.H.,Bradbury,R.,&Rosenthal,J. 1977: Time of day effects in school children's immediate and delayed recall of meaningful material. British Journal Of Psychology ,68.
- 44- Fox,Mark,1993,psychological perspectives in education , Biddles LTD., Guilford and King's lynn, U.K.
- 45- Gerritsen,Debby L. et al , 2007 , Quality of life in dementia : Do professional caregivers focus on the significant domain ? J. of Alzheimer's disease,vol.22,NO.3.
- 46- Gold, Jeffry J. and Squire,Larry R. 2007, the anatomy of amnesia : neurohistological analysis of three new cases , Learning and memory ,vol.13, 699-710.
- 47- Graham,Kim S.& Gaffan ,David ,2005, The role of the medial temporal lobe in memory and perception : Evidence from rates ,nonhuman primates and humans,the quaterly journal of experimental psychology , , 58 B ( 3/4 ), 193-201.
- 48- Greenfield,Susan,( 2000) The Private Life Of The Brain ,Allen Lane , The Penguin Press.U.K.
- 49- Hamilton ,Ian Stuart ,1994,The psychology of Aging ,Jessica Kingsley,London.
- 50- Hasher ,L.and Zacks,R.t. 1988 ,Working memory ,comprehension and aging :a review and a new review ,In G.H. Bower (ed) the psychology of learning and motivation, advances in research and theory ,vol.22,193-225.San Diego,CA: Academic press.
- 51- Hultsch,D.and Dixon ,R.1984 < memory for text material for adulthood ,In P.B. Balts and O.G. Brim, Jr.(eds),life span development and behavior , vol,6.
- 52- Howe,Mark L. (2002) The Fate Of Early Memories : Developmental Science and the Retention of Childhood Experiences ,American Psychological association, Washington,DC.
- 53- Hughes,Julian C., Louw,Stephen J. and Sabat,Steven R.,2006 ,Seeing Whole , In Dementia : mind ,meaning,and person ,oxford university.
- 54- Jacoby ,L.,1991,A process dissociation frame-work:separating automaticfrom intentional uses of memory. J. of memory and language ,vol.30,513-541.
- 55- Jim,Heather S.and Andersen ,Barbara,2007, Meaning in life mediates the relationship between social and physical functioning and distress in cancer survivors , british journal of Health psychology ,vol.12, NO.3 363-381.
- 56- J.S.Adalms,Original qity Theory, Alan champan review, codwe, design 1995-2013. www.business balls.com.
- 57- Kanzawa, Satoshi , 2006, Mind the gap.. I intelligence : Re- examining the relationship between inequality and health , British J. of Health psychology.vol.11, no.4,623-642.
- 58- Kausler ,D.H. 1994, learning and memory in normal aging,San diego ,CA: Academic Press.
- 59- Kiefer,Markus ,Schuch,Stefanie ,Schenk,Wolfram, and Feidler,Klaus, 2007,Emotion and memory : Event-related potential indices predictive for subsequent successful memory depend on the emotional mood State,,vol.3,(3),363-373

- 60- Kermis ,M.D.,1983,The Psychology of Human aging : Theory and Practice,Boston ,Allyn and Bacon.
- 61- Kiefer,Markus et al , Emotion and Memory: event related potential indices predictive for subsequent successful memory depend on the emotional mood state ,2007 ,Advances in cognitive psychology ,V.3 ,No.3,363-&378.
- 62- Kliegle ,R., Smith,J., and Palts ,P.B. 1989 , testing the limits and the study of adult age differences in cognitive plasticity of a mnemonics skill. Developmental psychology ,vol.25 ,247-256.
- 63- Klimesch,Wolfgang ,1994 ,the structure of long- term memory , Lawrence Erlbaum associates ,publishers , hove, u.k.
- 64- Kirschner,Paul A.,Sweller,John, and Clark,Ritchard ,2006 ,why minimal guidance during instructions does not work : an analysis of the failure of constructivist, discovery, problem – based ,experiential, and inquiry -based teaching , Educational psychologist,vol.41 (2) , 75-86.
- 65- Kolb,D.A.1984: Experimental learning : Experience as a source of learning and development ,types Inventory , Lawrence,KSglewood ,Cliffs,N.J. U.S.A. , Prentic Hall.
- 66- Linhert, Gunther & Zimmer,Hubert D., Auditory and visual sapatial working memory , J.of memory and cognition ,2006,34(5),1080-1090.
- 67- Lindstrom,Heather A., et al ,2005, The relationships between television viewing in midlife and the development of Alzheimer's disease in a case- control study , J. of brain and cognition ,volume 58,issue 2.
- 68- Litch , Elliot L. et al , 2007, Cognitive differences between early –and late onset Alzheimer's disease ,J. of Alzheimer's disease and other dementia.,vol.22, no.3.
- 69- Loftus,E.R.(1993)The Reality of repressed memory , American Psychologist,48. Posure to mis information , Current directions in ps
- 70- 1992, When a lie becomes memorie's psychological science ,Vol.1, 121-123.
- 71- Levidow ,B.and Duensing,S.1992,Who remembers best ?individual differences in memory for events that occurred in a science museum, Applied cognitive Psychology ,Vol.6 ,93-107.
- 72- Mc Gaugh,James L. 2003, Memory and Emotion Weidenfeld & Nicolson , London.
- 73- MacDonald,Shelley,Uesiliana,Kimberly, and Hayne,Herlene ,2000, cross cultural and gender differences in childhood amnesia , J. of memory ,8 (6).
- 74- Mackenna,P.J.Clare ,L.and Baddeley ,A.D. 1995 , Schizophrenia.In Baddeley ,A.D.,Wilson ,B.A.,and
- 75- Medved, Maria I.& Hirst, William,2006 , Islands of memory ;Autobiographical remembering in amnesics ,J. of memory , 14 (3).
- 76- Nyberg ,Lars ,1999, Can the brain tell the difference between old and new , IN Endel Tulving ,Memory ,consciousness, and the brain , Edwards Brothers ,U.K.
- 77- Obrauer,Klause ,2005 , Control of the contents of working memory – A comparison of two paradigms and two age group , J. of Experimental Psychology , vol.31 , NO. 4.714-728.
- 78- \_\_\_\_\_ , Lange, Elke, and Engele ,Randall, 2004 , Working memory capacity and resistance to interference
- 79- Oberauer, Klaus ,2001. Removing irrelevant information from working memory , a cognitive aging Study with the modified Sternberg TasK, J.of experimental psychology ,vol.27 ,No.4.

- 80- Panegyres,Peter K. et al , 2007 ,Course and Causes of suspected Dementia in Young Adults :A longitudinal Study ,American Journal of Alzheimer's Disease&Other Dementias ,vol.22(1),48-56.
- 81- Parasad,Pidikiti Nagendra, Performance of secondary students in India related to worki memory with refrence to some learning styles , Master Thesis , faculty of education, Glasgow Uni. , Glasgow , U.K.
- 82- Peterson,Carole , Grant,Valerie V. and Boland , Lesley ,2005, Childhood amnesia in children and adolescents:Their earliest memories , J.Of memory,vol.13 (6).
- 83- Pillemer,David B., Wink, paul, Didonato,Theresa E .,Sanborn,Rebecca,2003 ,Gender differences in autobiographical memory styles of older adults ,J. of memory ,vol.11(6) , 525-532.
- 84- Pring,Linda,1992. More than meets the eye ,In Ruth Campbell, ( ED) Mental lives ,Blackwell publishers , U.K.
- 85- Roediger,Henry L.1999, why retrieval is the key process in understanding human memory ,In Endel tulving ,Memory ,consciousness ,and the brain , Edwards Brothers ,U.K.
- 86- Roe ,& YAAkov Stern & Rakitin,Berian C.,2004 , Age related differences in executive control of working memory , J. of memory and cognition <vol.32(8).
- 87- Rose,Steven,1992,The making of memory, London ,Bantam Press.
- 88- Robert,P.J. 1980 ,Biochemistry of Dementia ( ed ) John Wiley & Sons , Toronto
- 89- Rosenzweig,Mark & Caine,Geoffrey ,1997, Education on the edge of possibility ,Alexandria ,Virgina , Association for supervision and curriculum development.
- 90- \_\_\_\_\_ , 1997 , Unleaching The power of Perceptual change : The potential of Imegery and associative learning ,In Gregg W Brain based learning ,Alexandria,Virgina ,Association for Supervision and CurriculumDevelopment.
- 91- Russel,Peter , 1990 ,The Brain Book , Routledge, London
- 92- Salthouse ,Timothy A. & Siedlecki,Karen L.2007, ,Efficiency of route selection as a function of adult age , J.of Brain and cognition , Vol.63,Issue 3.
- 93- Salthouse ,T.A.,1991,Theoretical perspective on cognitive aging ,Hillsdale,NJ: Erlbaum.
- 94- Seleping,D.B.1995 : Teaching and learning science in a second language,Master thesis, Glasgow Uni, U.K
- 95- Shapiro ,Laura R.,2006 , Remembering September 11 th : The role of retention interval and rehearsals in flash bulb and event memory ,J.of memory , Vol.14(2).
- 96- Squire,Larry R.,2006,Lost forever or temporarily misplaced? The long debate about the nature of memory impairment, Learning & memory ,vol.13 522-529.
- 97- Shraw,G.J., and Ronning,R.R.,1995 , cognitive psychology and instruction,new jersey ,prentice-hall .
- 98- Smith,A.D. ,1996,Memory ,In J.E. Barren and K.W. Schaie (ed) , Handbook of the psychology of aging , , Sann Diego , CA:Academic Press.
- 99- St.Jaques,Peggy L. & Levine, Berian. 2007 , Aging and autobiographical memory for emotional and neutral events , J. of memory ,vol.15 , Issue 2.
- 100- Stuart,GeorgeP.,Patel,Jayna&Bahgrath,Navi,2006 , Ageing affects conceptual but ceptual memory process >J. of memory ,Vol.14 (3).345-358

- 101- Snyder ,Lisa ,2006 ,Personhood and interpersonal communication in dementia , In Hughes,J.C.et al , Dementia : mind, meaning, and person ,oxford university.
- 102- Tulving ,Endel,2000, memory ,consciousness, and the brain , the Tallinn conference , psychology press , u.k.
- 103- Turkeltaub ,P.E. , Gareau,L.,Flowers,D.L. ,Ziffiro,T.A., Eden ,G.F.,2003 , Development of neural mechanism for reading , Nature neuroscience , 81,vol.6. 767-737.
- 104- Tulving ,E.,1991, memory research is not a zero- sum game ,American Psychologist ,46,41-46.
- 105- Van Hooren,S.A.H. et al , 2007 , Cognitive Functioning in Healthy Older adults aged 64-81: A cohort study into the effects of age ,sex and Education , Psychology and behavioral science collection.
- 106- Verhaeghen,Paul& Bsk, Chanramallika ,2005 , Ageing and switching of the focus of attention in working memory : results from modified N- Back task .J. of experimental psychology ,58 A(1).
- 107- Wgner,U.,Gais,S.,Haider,H.Verleger,R.,Born,J.2004,Sleep inspires insight , Nature publishing group.
- 108- Was,Christopher A. Further evidence That not all executive functions are equal ,2007 ,J. of cognitive psychology ,vol.3 ( 3 ),399-407.
- 109- Weg,R.B.1983,Changing physiology of aging ; normal and pathological. In Woodruff &Birren (ed) Aging: Scientific percepctives and social Issues. Monterery ,Calif.Brooks.Cole.
- 110- Willis,S.L. And Dubin ,S. (eds) , 1990, Maintaining professional competence. San Francisco ,CA, Jossy -Bass.
- 111- Wilson,B.1989,Designing memory therapy programs ,In L.W.Poon , D.Ribin ,and B.Wilson (eds),Everyday cognition in adulthood and late life. Cambridge , Cambridge Press.
- 112- Wyer, & Srull,Thomas K. 1986 : Memory and cognition in its social context , Lawrence Erlbaum

## فهرس الموضوعات

الفصل الثاني: الذاكرة وتحصيل المخ للمعرفة .....	51.....	إداء .....
طبيعة الذاكرة .....	59.....	مقدمة عامة .....
أنواع الذاكرة .....	60.....	<b>الفصل الأول: المخ البشري</b>
1- الذاكرة الحسية .....	62.....	ومنظور سيكولوجي .....
2- الذاكرة قصيرة المدى .....	67.....	برامج التربية المبكرة وتنمية القدرات الفعلية .....
3- الذاكرة طويلة المدى .....	68.....	أولاً: وصلات المخ في الطفولة .....
تخزين المعرفة .....	74.....	ثانيًا: الفرات الحرجية في نمو المخ .....
كيفية تعلم المفاهيم الجديدة .....	77.....	ثالثًا: نمو المخ وثراء البيئة .....
اضطراب الذاكرة السيمانتية .....	77.....	تطور الدراسات عن المخ .....
الأساس الكيميائي للذاكرة .....	78.....	تعلم المخ داخل الرحم .....
تسجيل الخبرات وتذكرها .....	81.....	نمو المخ بعد الميلاد .....
تأثير تذكر الخبرات الماضية .....	83.....	الفطرة في مقابل الرعاية .....
تأثير البداية والحداثة .....	84.....	تجدد خلايا المخ .....
توزيع عملية التعلم وكفاءة التذكر .....	85.....	الفرقون النوعية ووظائف المخ .....
تأثير عامل الاستعداد على عملية التعلم .....	85.....	كيف يسجل المخ خبرات الفرد؟ .....
تأثير ظاهرة Von restoroff على عملية التعلم .....	85.....	نظريّة الهولوغرافيّ للعقل .....
معينات الذاكرة .....	87.....	قدرة المخ على التكيف .....
كيف نحسن أداء الذاكرة؟ .....	90.....	استعادة المخ لكتفاته .....
<b>الفصل الثالث: الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة العاملة</b> .....	97.....	إعادة إنتاج الخلايا العصبية .....
سعة الذاكرة .....	98.....	الاستفادة المثلثي من إمكانات المخ .....
نظام التكثيل أو التجميع .....	100.....	أولاً: استخدام المخ .....
		ثانيًا: الاهتمام بالمخ .....



المفهوم الأول: التذكرة ونظرياته ..... 180	الذاكرة قصيرة المدى ومنحني النسيان ..... 101
- النظريات الحديثة لعملية التذكر ..... 182	هل تمثل الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة طويلة المدى نظامين متصلين؟ ..... 102
عملية الاستدعاء وفهم الذاكرة البشرية ..... 184	الذاكرة العاملة ..... 106
دور التنظيم وأهميته للتذكرة ..... 184	التخيل والتعلم طويل المدى ..... 120
- التذكرة وظاهرة على طرف اللسان ..... 190	الحملة الزائدة وكفاءة الذاكرة العاملة ..... 122
تصنيف المعلومات والتذكرة ..... 192	كفاءة الذاكرة العاملة ..... 123
رموز (مفاتيح التذكرة) ..... 192	ذاكرة الحياة اليومية ..... 125
السياق الخارجي، وأهميته للتذكرة ..... 194	الفصل الرابع: التعلم والذاكرة بين القديم والحديث ..... 129
السياق الداخلي، وأهميته للتذكرة ..... 195	أولاً: المخ وإمكانية التعلم ..... 130
الحالة المزاجية والذاكرة ..... 195	ثانياً: الأبعاد النفسية وعملية التعلم ..... 152
- الذاكرة وشهود العيان ..... 197	الداعية والاستشارة والتعلم ..... 152
تحسين ذكرة الشهادة ..... 206	الاستشارة والأداء ..... 158
- الحواسيب الآلية والذاكرة البشرية ..... 206	التفكير والتعلم ..... 159
المفهوم الثاني: النسيان ونظرياته ..... 207	عامل المعنى والتعلم ..... 159
- تغيرات المخ وحدوث النسيان ..... 210	- طرق التعلم وأداء الذاكرة ..... 161
- النظريات المفسرة لحدوث النسيان ..... 211	- التعلم الضمني ..... 164
النسيان والذاكرة المستقبلية ..... 217	- الترميز ..... 165
- ظاهرة بينفييلد وتفسير النسيان ..... 217	ثالثاً: الجديد في قضايا التعلم ..... 170
الفصل السادس: العمليات العقلية والذاكرة والتقدم في العمر ..... 221	- النوم وقدرات التعلم ..... 171
أولاً: التقدم في العمر والمهارات العقلية ..... 223	2- التنويم المغناطيسي والتعلم ..... 173
- تدهور القدرات العقلية وسوء الاستخدام ..... 226	3- الانفعال واستجابة العقل ..... 174
- زمن الرجع وكبر السن ..... 227	4- الشعور بالسرور والتعلم ..... 175
- نقص الانتباه والتقدم في العمر ..... 228	5- الغذاء وحالة العقل ..... 176
- التنظيم العقلى والتقدم في العمر ..... 229	الفصل الخامس: التذكرة والنسيان ..... 179
- القدرة الإبداعية والتقدم في العمر ..... 230	

272.....	التمارض.....
273.....	فقدان الذاكرة والتعامل القانوني.....
273.....	الشفاء في مقابل الذاكرة الزائفة.....
275.....	ثالثاً: اضطرابات الذاكرة وتوجهات العلاج.....
1.....	1- المعينات الخارجية الموجهة بالبيئة.....
278.....	2- المعينات الداخلية الموجهة بالمريض.....
283.....	الفصل الثامن: فقدان الذاكرة.....
285.....	التخسيص العصبي الطبيعي لفقدان الذاكرة.....
288.....	إصابة الفص الصدغي وفقدان الذاكرة.....
289.....	إصابة الفصوص الأمامية في المخ واضطراب الذاكرة....
292.....	فقدان الذاكرة وكفاءة الأداء.....
299.....	فقدان ذاكرة أحداث الطفولة.....
305.....	فقدان الذاكرة الهاستيري.....
305.....	فقدان الذاكرة والتفسير النظري.....
306.....	قياس أعراض فقدان الذاكرة.....
307.....	- القياس الإكلينيكي.....
311.....	- قياس فقدان ذاكرة الأحداث السابقة على الإصابة.
312.....	- استخبارات الذاكرة.....
313.....	قياس وظائف نفسعصبية أخرى.....
314.....	- قياس وظائف الفص الأمامي من المخ.....
317.....	أولاً: خرف الشيخوخة، وماذا يعني؟.....
322.....	مرض الزهيمير وإصابة الذاكرة.....
324.....	الذاكرة طويلة المدى ومرض الزهيمير.....

231.....	ثانياً: تغيرات الذاكرة والتقدم في العمر .....
234.....	- ذاكرة الكبار والأبحاث الحديثة .....
234.....	- الذاكرة العاملة والتقدم في العمر .....
239.....	- الذاكرة طويلة المدى والتقدم في العمر .....
249.....	ثالثاً: التأثير البيولوجي والذاكرة.....
255.....	الفصل السابع: اضطرابات الذاكرة .....
255.....	أولاً: اضطرابات الذاكرة ذات المنشأ العضوي بالمخ ...
255.....	1- اضطراب فقدان الكلي المؤقت للذاكرة.....
257.....	2- الصرع واضطراب الذاكرة .....
258.....	3- فقدان الذاكرة التالي للصدمة .....
260.....	4- العلاج بالصدمات الكهربائية واضطراب الذاكرة .....
5.....	5- سوء استخدام العقاقير
262.....	واضطراب الذاكرة .....
263.....	6- التخدير الكلي واضطراب الذاكرة.....
264.....	7- الذاكرة في حالتي الحمل وانقطاع الطمث .....
266.....	8- اضطرابات الذاكرة في الطفولة .....
267.....	ثانياً: اضطرابات الذاكرة ذات المنشأ السيكولوجي ...
267.....	1- فقدان الذاكرة التفككي .....
268.....	2- الشروق الوقتي التفككي .....
269.....	3- اضطرابات الهوية التفككي (تعدد الشخصيات) ....
271.....	اضطراب الذاكرة نفسي المنشأ وارتكاب الجرائم.....



<p>336 ..... - خرف الشيخوخة حالة نفسية عصبية .....</p> <p>338 ..... - النموذج الديالكتيكي وتفسير خرف الشيخوخة .....</p> <p>343 ..... المراجع .....</p> <p>349 ..... فهرس الموضوعات .....</p>	<p>328 ..... مرض الزهيمر والابحاث الحديثة.....</p> <p>333 ..... التواؤم مع المرض.....</p> <p>333 ..... - خرف الشيخوخة تطور طبيعي للتقدم في السن .....</p> <p>334 ..... - النموذج الروحاني لتفسير خرف الشيخوخة.....</p>
--	--

\* \* \*



## هذا الكتاب

محاولة على طريق تحديد بعض الموضوعات، وثيقة الصلة بحياة الفرد، وقضايا تختل مكان القلب من اهتمامات علم النفس العصبي المعرفي. كما تعد الدراسات الحديثة التي زخر بها هذا الكتاب مصدراً لإثارة العديد من المشكلات البحثية التي تستوقف الباحثين؛ للإلقاء مزيد من الضوء على العالم المعرفي للإنسان، والمشكلات المعرفية التي ما زلنا نقف منها موقف الدهشة؛ لعدم توافر المعلومات التي تفسر حدوثها، ومن ثم نعجز عن التنبؤ بها، أو التحكم في معاناة الإنسان منها.

ولقد حظى المخ بالنصيب الأكبر من الدراسات التي أفادت من التقدم التكنولوجي في دراسة بنائه في حالات السواء والمرض، وما يعتريه من تغير مصاحب لحالاته المتباعدة؛ الأمر الذي كان له مردوده الجيد على دراسات العمليات المعرفية لدى الإنسان، وبقدر ما أدى ذلك إلى الإجابة عن الكثير من التساؤلات عن طبيعة العلاقة بين المخ والعقل، بقدر ما أثار العديد من الاستفسارات الجديدة لدى الباحثين عن وظائف المخ، ومدى تفعيل الإنسان لإمكانات هذا العضو المهم، ومدى تأثيرها بما يتعرض له من فرص للتعلم، أو ظروف الحرمان من هذه الفرص. كما أثار حب الاستطلاع نحو الرغبة في استجلاء حقيقة العمليات التفسيرية وعلاقتها بنشاط المخ، وأى المناطق ذات العلاقة بنشاط عقلي أو نفسي ما.

## دار النشر الجامعات



الإدارة: ٤٢ ش رشدي (برج ج - وهر) - تليفون: ٢٣٩٢٩٨٧٨  
المكتبة والتسيوية: ١٤٠ ش الجمهورية - عابدين - ت: ٢٣٩١٢٤٢٠٠  
ص.ب. (١٢٠) محمد فريد (القاهرة) - ١١٥١٨  
E-mail: darannshr@hotmail.com - web: www.darannshr.com

